

محمد داود



تاريخ تطوان

المجلد الاول

الحزب الوطني العام للجماعة
التشريف - طنجة

معهد مولاي الحسن

1959 - 1379

تطوان

تقدمة اولى

بقلم الاستاذ
محمد بنونة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على النبي الكريم

اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما تجر اليه اليراعة من الفلتات ،
ونعتصم بك مما توحيه العقول من الخطرات ، ونلجأ اليك فى ثبات
الخطوات ، وسداد الحكم فى النظرات ،
ما أقدمت على امر باندفاع تلقائى ، وحماس لدنى ، واغترباط لا
شورى مثلما اقدمت على وضع مقدمة لهذا التأليف القيم الذى انظر اليه
الآن امامى ، واتنى لاحس من اعماقى - وقد تداخلنى الزهو - باننى احد
الافراد المعدودين الذين يجب ان يقدموا للقراء الكرام هذا التاريخ ؛
فقد عرفته فكرة وامنية ، ثم شاهدت ولادته ، وعاشت نموه . وسأيرت
تضخمه ، ورايت اختتامه - ان صح انه اختتم وانتهى - وخبرت فيما بين ذلك
بعض ما تحمل فى اخراجه من الاتعاب . وسبرت فيه الاغوار والشعاب ؛
فشعرت بجدارة التقديم بل احسست باننى - انا - فى شدة نهم ، وحرارة
ظما ، الى قول جملة فيها تقدير واجلال ، وفى حاجة ملحة الى كتابة كلمة
فيها اعتبار واعتراف . وكان الله بالصابرين عليما ، وللمجدين معينا ،
وهو البصير باعمال العباد .

وما احجمت عن امر - انا فاعله - كاحجامي عن كتابة مقدمة لهذا المؤلف القيم . فما ان حملت القلم لاشرع في العمل - وانا كما وصفت كلي اندفاع وحماس - حتى احسنت بعبي وعجز، وتبلبل ورجوع، وهيبة ما فوقها هيبة ، لقد تعاظمني الامر ، وهالني الخطب ، وكدت استرجع الوعد ، واعتذر بالقصور ؛ فليس من اليسير ان تضع - امامك - آلافا وآلافا من الصحائف وتقول فيها كلمتك في مدى قصير من الزمن ، سواء كانت هذه الكلمة لها او عليها وليس من السهولة - ايضا - ان تقف امام المرأة وتصف نفسك للجمهور وانت صادق القول رضي الضمير ، مطمئن القلب ... ان الموقف حرج . وان الكأداء زلقة . واذا خبطت عشواء في الحلك الدامس فكل الناس يعلمون مآلها .

تجاذبني الاقدام والاحجام ، وتقاذفتني رباطة الجأش ، وهيبة القلب . فخلوت الى نفسي الراغبة ... الى نفسي الراهبة ... احادثها وتحادثني ؛ فهي الامارة وهي اللوامة وهي التي يمكن ان تكون مطمئنة ان حظيت بالتوفيق والقبول فتراجع الي راضية مرضية .

اننى اريدها كلمة وضاعة أمينة ، خالصة ناصعة ، تقول الحق كالمرأة الصافية لا تتعمر فتكبر ، ولا تحدودب فتصغر ، ولا اقنع بان اكون مثل الدليل الخريت من المتاحف ، ولا مثل المحشى البصير من الشارح ، وان هذه الارادة جعلت الفروض تتلون في ذهني بين النفض والنصوع ، فلم تترك في الاستهلال براعة كما أوحى الاندفاع ، وانما لبدت افقه بالهيبة كما شاء النكوص . فغم علي . وعقد منى اللسان وكادت الشجاعة تنهزم امام تدبير العواقب ، واوشك الاقدام ان ينضب ازاء مراقبة الناس . وهجس في نفسي ما يخامر كل حائر من شك ، وما يصيب كل مراقب من وهن .

وجاءت كلمة اخي العلامة سيدي عبد الله كُنون بالحق . وذلك ما كنت منه اخاف :

« لم افكر اننى ساكون مضطرا في يوم من الايام لتقديم نفسي بنفسى ، والكتابة عن شخصى - انا - لا في معرض الاعتراف والتسجيل للحقيقة والتاريخ الذي قد تغتفر لى الكتابة فيه ، بل في معرض التقريظ الذي يذكر الفضائل ويبرز المحاسن ، ويجعلني من قبيل ما يقال : مادح نفسه يقرئك السلام ... » (I)

(I) من مقدمة مختصر تاريخ تطوان للاستاذ العلامة سيدي عبد الله كُنون ، ص I

جاءت هذه الكلمة وعصفت بالرجاء ، وفعلت أفاعيلها بالاقدام ،
ان الانسان مهما ادعى ان فى قدرته الاستقلال فى الرأى ، وزعم ان فى
استطاعته التجرد من غرائزه الذاتية ، والتحرر من العواطف والمشاعر
والمعتقدات فانه واهم مستسلم لا كذب الظن .

اننا - يا قرائى الكرام - جماعة من الاحباب ، من الاخوان ، من
الارواح ؛ قد تعارفنا فائتلفنا حتى كأن نفوسنا خلقت من معدن الاخاء ،
وقطرت على سجية الوفاء ، وهذبت بحسن التقدير ، فاصبح لنا - فيما
بيننا - شان واى شان ؛ فالمختار السوسى وعبد الله كُنون ومحمد داود
والتهامى الوزانى ، وكاتب هذه السطور (I) بيننا من المحبة والاخلاص .
والوداد والولاء ، والتفاهم والانسجام ، والتقارب والاتحاد ما يعرفه الناس
وما لا يعرفون ، فأصبحت كل كلمة يكتبها أى واحد منا عن أخيه فكأنما
يكتبها عن نفسه ، ولم يتعود احد من ذوى النفوس الابية ، والضامير الحية،
والكرامة المعتزة ، ان يمدح نفسه او يذمها امام الناس ، ولو كان يعرف
منها ما يعرف «ان الدنيا هكذا» .

وتلك هى سنة الله فى خلقه، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ولا
(تحويلا). ولكن ماذا أصنع والواجب فوق كل اعتبار، والرغبة - فى
حيزها - تطفئ وتجعلنى أتضور نهما .

اذا عرفنا هذا واعترفنا به واققررناه، فلنا أن نتحمل لوازمه ،
وعلىنا تقع نتائجه، وليقل الناس ما يمكن أن يقولوا، فمن راقبهم مات
غما، كما قال أخى كُنون من قبل. وبالله الاهتداء، وعليه يتوكل المتوكلون.

* * *

لست فى هذه العجالة محتاجا لتقديم المؤلف العزيز الى القراء
الكرام فان الاستاذ داود معرفة المعارف هنا بتطوان، بل وبالمغرب
أيضا ؛ فان الناس لم ينسوا مجلة «السلام» - أول مجلة وطنية - ولا
جريدة «الاخبار» (2) ولا مختصر هذا التاريخ، ولا المقالات الرائعة فى
العلم والتربية، والسياسة والوطنية، ولم ينسوا المدرسة الاهلية
والمطبعة المهدية، والمعهد العالى، ومناهج التعليمين : الدينى والعصرى،

(I) العدد هنا للتمثيل لا للحصر . والا فان بيننا وبين احباب
آخرين من الصداقة والاخلاص ما لا يقل عن هؤلاء .

(2) أقصد جريدة الاخبار الاولى التى كان يصدرها الاخ داود
ثم عطلت، والا فهناك جريدة أخرى استعمارية أصدرتها الادارة
الاسبانية أيام حرب فرانكو للدعاية تحمل اسم الاخبار، وطالت مدتها .

والدروس والمحاضرات، ولم ينسوا كذلك الكتل الوطنية ، والجمعيات السرية، والمجازفات السفرية، لاجل الجهاد الوطنى، مع النزاهة والتعفف والاعتدال والشجاعة فى كل ذلك، ان الناس لم ينسوا ذلك، ولن ينسوه ما دام فى الدنيا انصاف وتقدير ، وما دام للناس قلب وضمير .

اقول : اننى لست محتاجا لتقديم هذا الاخ الحبيب الى القراء بل أرى - من جهتى - أن كل ما يجيش فى صدرى من أوصاف ونعوت مهما تعدد لفظها ، وكبر معناها ، وانسجم سبكها، فهى حصر وتقييد ولقد يسومنى من الحصر والتقييد فى الكلام على أخى ما ليس بيسير ، وأنا لا أحب ذلك .

ولست كذلك - مضطرا لتقديم المؤلف القيم الى القراء الافاضل، لان هذا الكتاب من الكتب التى تقدم نفسها بنفسها، وتفصح عما بها بقولها، فهو كنز للمعرفة عند ذوى الالباب، وذخر الاستفادة للمتعطشين من الطلاب، وسيبقى كذلك عند الابناء والاعقاب. فان المجهود الذى بذله فيه مؤلفه قام من أول يوم على الامانة فى النقل، والتدقيق فى الاستقصاء مع الاخلاص فى العمل ابتغاء وجه الله والدار الآخرة. ولم يقم على حطب الاخبار، وحصد الحوادث، لمجرد الفات النظر الى العمل بطرا ورثاء الناس ، والله يجزى الذين يحسنون صنعا - وهم مخلصون - بالخلود والذكر الحسن والانتفاع بآثارهم، ما دامت السموات والارض .

وما دام المؤلف والمؤلف مستغنيين عن التقديم، فلماذا أكتب ؟ ... وماذا أكتب ؟ ... لقد أوردت بنفسى هذين السؤالين على نفسى، وقعدت مدة أفكر فى قول يقنعنى، أو عمل يرضينى، فيكون جوابا وتبريرا ... فسنح لى أن أخى داود أرخ مدينتنا تطاون فلماذا لا أورخه - أنا - ؟ ... وأنا أعرف الناس به، فهو قرينى ورفيقى وأخى وحبيبى وصهرى وزميلى فى جميع مراحل الحياة... ولكن تاريخ الاستاذ لا يكفيه ما يمكن أن يخصص لى من الوقت والصحائف، فهو ملئ بالعمل والتضحية، وحافل بالنشاط والاجتهاد، لهذا قررت أن أجعل هذه الكلمة عبارة عن ارتسامات علقته بذهنى عن تأليف هذا الكتاب، لا أقل ولا أكثر. وفى هذه الارتسامات قد تظهر بعض الصور مما بذل المؤلف من جهد، وما أنفق من وقت، وما صرف من صحة وما أدى من ثمن وما امتاز به بين الاقران .

لقد حبا الله الاستاذ داود خلتين لا يد فيهما للتربية والتهذيب والارشاد والتعليم، وهما : الذكاء، والصبر .

فهو سريع الادراك قوى الاحساس، دقيق الملاحظة، يدرك الخوافى من المسائل بسرعة نادرة، ويحس بما وراء الظواهر من المساتير بقوة خارقة، ويبدى ملاحظاته وتعليقاته بدقة تترك السامع او القارىء يقدرها قدرها، ويعطيها حقها .

والاستاذ مع هذين الخلتين الفطريتين عرف كيف ينظم اشغاله ، ويوزعها على أوقاته، ووضع لها قانونا صارما، قد يحاسب نفسه على الاخلال به ، وقد يفرض عليها تعويض الضائع بالقص من وقت الراحة حتى يتم العمل فى الوقت الموعود ... وما كانت هذه المثابرة على العمل الرتيب بهذه الصورة، الا ثمرة لما فطر عليه من ميزة الصبر على تنفيذ ما وقر فى نفسه من العزم الصادق البات . ولهذا كان من مميزات الاستاذ ومزاياه الجمع بين شتى الاشغال المتباينة وبين انجازها - كلها أو جلها - فى أسرع وقت ممكن، وهو هادىء البال، قرير العين، رضى الضمير باسم الشجر .

ومن هنا تبتدىء قصة تأليف هذا الكتاب : فكر فى اخراج تاريخ تطاون، فقاده الذكاء الى المصادر والمراجع، والى التنظيم والتوزيع فعزم، وتوكل، ثم شرع وكتب...

وابتدا الكتابة؛ فقاده الصبر الى المثابرة على البحث، والاستمرار فى التنقيب، فقيد الشوارد، وسجل النوادر. لا يؤخر عمل اليوم للغد مهما كبر ولا يغفل الحادثة ولو صغرت . ثم يصوغ الاحداث فى قول رصين، فتكون متعة، فيها عظة وعبرة، وفيها تحقيق وتدقيق .

لست أزعم أننى أحيط علما بكل الاتعاب والمصاعب التى عاناها أخونا العزيز، وأرهقه صعودها . وذلك لسبب واحد فقط : هو أن المؤلف لا يعلن عن أعماله ، ولا يشتكى مما يصيبه ولا يمتن بمجهوده. الا أن عدم الاحاطة بالشئ، ليس معناه عدم العلم ببعضه أو جله .

وكذلك لست أذكر بالتدقيق متى فكر فى تأليف تاريخه هذا . ولا أقدر على تحديد التاريخ بالضبط للشروع فى تنفيذ الفكرة بالكتابة، بيد أنى أعرف - ونحن لم نزل نقرأ القرآن الكريم فى «المسيد» (I) - أنه كان يسجل الموالد والوفيات ، وبعض الحوادث ، ويجمع صور الاشخاص ،

(I) المسيد : لفظة يطلقها المغاربة على المدرسة التى يحفظ فيها الصبيان القرآن الكريم ، ويسميه المشاركة الكتاب (بضم الكاف وتشديد التاء) ولعل هذه اللفظة «المسيد» مصحفة ومحرقة عن اسم المكان المصوغ من (ساد) للموضع الذى تحصل فيه السيادة ، أطلقت على المكان الذى يسود فيه الصبيان على أقرانهم بحفظ كلام الله العزيز.

ومناظر الوقائع التي صحبت احتلال اسبانيا لتطوان ، مما يدل على أنه شغف بالتقييد منذ كان صبيا . ولعل شغفه هذا ترعرع معه حتى أصبح لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يصيبه او يتصل به او يقع في هذه المدينة او يعلم ان له قيمة تاريخية ؛ الا ويحسبه ويسجله . حتى أصبح بعد ذلك مرجعا وأى مرجع ، نرجع اليه في تاريخ الحوادث التي وقعت في عصرنا . وملجأ وأى ملجأ نلجأ اليه عند اختلاف الآراء . وقد وضع لهذه المعلومات والمقيدات سجلا «فيثيرا» منظما ومفهرسا على شتى الاشكال : لاسماء الاشخاص ، وللموضوعات ، وللسنين ، وللاماكن ، وما الى ذلك . يستخرج به ما يريد ... في الوقت الذي يريد ، بسهولة عجيبة ، وسرعة منقطعة النظير ، ثم يضعه في مكانه الذي يجب ان يوضع فيه .

وقضى في هذا العمل المضى - أعنى كتابة هذا التاريخ - بواكير حياته ، وبواكير ايامه (I) . وصرف عليه ثمين صحته ، ولذيد نومه ، واحكم فيه من بليغ الصوغ وعميق الغوص نبوغ آياته وأخرج ما أهمله الناس من بوالي الاوراق ، ومن توالف الرسائل ومن قدامى الدفاتر مما استعصى على الأرضة خرمه ، وعلى الرطوبة محوه ؛ حقائق ولطائف ، وفوائد وطرائف ؛ من معاهدات سياسية ، وسفارات دبلوماسية ، وعلق عليها تعاليق موزونة في سماحة لفظ ، وبساطة تعبير ، لا تعسر في مسلكه ، ولا التواء في عرضه ، ولا تكلف في ربطه . وقد يكون في النصوص بتر او تعقيد او محو فتجده يغوص في الاعماق بمهارة السباح الكيس حتى يستخرج الصورة التاريخية في لونها الصحيح ، وبالفاظ واضحة لا تمت بصلة الى التقعر والاغراب . وانما هي من النوع السهل المتبسط . وكذلك تم الجمع ، وكذلك كانت قصة هذا الكتاب . (ان الصبر والذكاء يفعلان العجائب) .

هذا الكتاب هو في الواقع صور لالوان الحياة بمدينة تطاون هو صور لشخص حية تتحرك في الحياة التطاونية من رجال ونساء يصنعون أحداث التاريخ ؛ فالبيوت والشوارع ، والمدارس والمحاكم ، تزخر بشتى الالوان من الحيوية المثيرة التي ترسل الدماء حارة في الشرايين ، الى الالوان الهادئة التي تبعث الاطمئنان الى القلب . صور تجعل القارئ يعيش فترة من الزمان مع الذين سبقوه لرؤية النور ، فيتوقع معهم الحوادث

(I) لقد اعتاد الاستاذ داود - منذ صغره - على ان يستيقظ قبل الفجر وبعد اداء فريضته وسنته يقعد للكتابة او المطالعة او ما مائل ذلك الى ان يستيقظ الناس . وصدق رسول الله (ص) : «اللهم بارك لامتى في بكورها»

المفاجئة ، ويترقب مثلهم نتائج المقدمات المعقولة ، لان المدينة فى جهاد دائم ، وصراع مستمر ، على لقمة العيش ، ومتعة النفس ، وادراك العلى . ورغبة السكان ورهبتهم هما اللتان تصنعان حياة الانسان فى الكوخ والقصر وفى المصنع والحقل ، وفى السوق والمتجر ، وكل ذلك فى المدينة وفى سكانها ؛ ففيها الصالح القوى ، والجيد النبيل ، والكريم الرضى ، وفيها المشبوه فى السلوك ، والمدمن للآثم ، والجبار فى الليل ؛ من حثالة المجتمع ، وصعاليك الاسواق ، وضعفاء الاخلاق . وهذا الكتاب ينقل للقارىء الكريم هذه اللوحات واضحة الظلال ، ناصعة الالوان بما فيها من الخير والشر ، والقبح والجمال ، لا يتعمل ولا يتزيد .

ولقد يكون اخونا المؤلف أشار فى مقدمته الى ما أوردنا هنا بقوله : « لقد كتبت ما كتبت ، وجمعت ما جمعت ، وعلقت بما رأيت ، بناء على مذهبى فى كتابة التاريخ العام . ذلك المذهب الذى يرى أن يثبت المؤرخ المعلومات ويصور الحوادث كما هى أو كما يراها دون تزوير أو تضليل . ثم لكل قارىء ان يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده . واذا كان للمؤرخ الحق فى ان يعلق بما شاء كما يشاء ، فان للقارىء - ايضا - أن يقبل او يرفض ، والحق حق دائما ، حب من أحب ، وكره من كره ، والباطل لا يخفى ولو موهه صاحبه تمويهها ، ان الامة تختلف طبقاتها كما تختلف صور افرادها ، واذا كان المصور الماهر هو الذى يرسم الصورة رسما مطابقا للاصل فان المؤرخ الحقيقى « الذى لا يكتب للدعاية ولا يتأثر برغبة أو رهبة » هو الذى يسجل ما يقف عليه من المعلومات غثها وسمينها ، كلياتها وجزئياتها . فيكتب من الاقوال ما يدل على الذكاء وسعة الصدر وحسن التدبير ، وما يدل على الغباوة والجهل وفساد الرأى واسوء التقدير . ويسجل من الاخبار ما يعرف منه الجهال من العلماء ، والضعفاء من الاقوياء ، والابطال من الجبناء ، والاجواد من البخلاء ، والكسالى من النشيطين ، والخونة من المخلصين . » (هـ بنصه من خطه) .

والاستاذ اذ يلتزم هذا المذهب فى تاريخ هذه المدينة ورسم صورها كما هى ، فهو يبالغ فى تنفيذه ، ويتحرى فى نقله ، بل انه قد يغلو فى كثير من الاحيان فى المحافظة عليه ، حتى ينقل لنا النص بحروفه ولو كان لفظه يغضب سيبويه ، ويسىء الى الخليل ، لانه المهم - عنده - هو الاتيان بالصورة كما هى بدون تزويق وتنميق (رتوش) . فاذا كان العلامة الفلانى وهو من هو ، يجمع شيئا على مشائخ باثبات الهمزة مثلا ، والفقيه الفلانى يجمع طالبا على طلباء ، وضريحا على ضوارح ، وما الى ذلك من الاشباه والنظائر ، فانه ينقل القول كما هو ويكتفى بقوله هـ من خطه بنصه

فيؤدي بذلك أمانة المؤرخ ، وينبه القارئ - من غير اغتياب ولا اساءة - الى ان ذلك الفقيه الدراكة كان لا يحسن الصرف والاملاء ، وان اسلوبه الذي تكلفه في الخطب الجمعية او الرسائل الادبية او ما الى ذلك ، فالله يعلم كم راجع له من فصول الفتح بن خاقان في «قلائد العقيان» وكم «نفحته» رسائل ابن الخطيب «من اغصان» بيانها «الرطيب».

وقد يكون النص في بعض الرسائل ملحونا لحننا جامعاً من باب «لم عندنا خبراً» وباب «قلبت عليه البلد فما جبرته» الخ فيأتي لك بذلك النص بلفظه وبحروفه كما رآه في الرسالة او المذكرة . ويعطيك صورة تامة عن الكاتب لا تزويق فيها ولا غبار عليها ، وصورة ثانية للغة التي كان يتخاطب بها العامة وانصاف العلماء ، فتكمل الفائدة التاريخية ، وتظهر المعالم المحلية لتطاون واضحة . بل انه ينقل عدة نماذج لرسائل ادبية وحبية ، وتقاييد علمية ، وحسابات تجارية وحكومية ، ووثائق شرعية ودبلوماسية ، لتتكون عند القارئ فكرة تامة وصورة كاملة لتاريخ هذه المدينة .

ويحرص الاستاذ - مع ذلك - على تجنب حشو كتاب التاريخ بغير التاريخ . فهو ان أتى بما يعده «الموضوعيون» خروجاً او استطراداً عن تاريخ تطاون . فان ذلك لا يتعدى نطاق تاريخ المغرب ، ولا بد من ان يمت الى تطاون بصلة ما قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة وقد تكون مباشرة وغير مباشرة ولكنها لا تتعدى الحدود ، ولا تتجاوز الموضوع الذي هو تاريخ مدينة هي جزء من كل هو المغرب «الوطن العزيز» .

* * *

لقد استكثر بعض الناس ثمانية اسفار في تاريخ مدينة متوسطة لم يصل عمرها الى خمسمائة سنة . وتنادر مجان بلهو الحديث فيما يمكن ان يقال في هذه الاسفار . وتناظر ناس آخرون بقول فيه شك وفيه يقين ، وفيه ما هو حق وما هو باطل . وأنا لا أحب أن أدخل - مع القوم - في مناقشة اقوال المستكشرين والمتنادرين والمتناظرين . لان هذا الكتاب هو الذي سيحكم افواه المرتابين بالحجج اليقينية . وهو الذي سيرسم ابتسامة الرضى على شفاه المنصفين .

نعم ، أحب ان أقرر حقيقة ثابتة ثبوت القطب في مركزه ، وواضحة وضوح الالوان تحت ضوء النهار ، ... وهي ان تطاون مدينة لم تتدرج كغيرها من المدن الناشئة من مدشر الى قرية ، ومن قرية الى مدينة ؛ وانما هي مدينة ولدت كاملة ، فمن اول يوم جدد فيه بناؤها الاخير كانت مركزاً للحضارة الاندلسية ومهداً للرقى المذهب ، لان المؤسسين او بالمعنى الصحيح المجددين كانوا من ارقى البشر الموجودين في ذلك العصر ، اذ

من المعلوم والمعروف ان «كورة» غرناطة بشرق الاندلس كانت قد جمعت - يومئذ - خلاصة الخلاصات من العلماء والفقهاء ، والصيادلة والاطباء والصناع والمفتنين ، والفلاحين والمهندسين ، والابطال من رجال الفكر وأهل النجدة ، الذين جأروا اليها من كل بقعة خانها الحظ ووقعت تحت سيطرة الاسبان . حتى اصبح بها خيرة ورثة عظمة قرطبة الاموية ، وفنون اشبيلية العبادية فكان نور المعرفة يشع من مدارسها بألوانه وجلاله ، وجمال الفردوس يرتسم في رياضها بشذا عطره وروعة ظلاله . فلما اختل الامر بين امراء الحمراء الزاهرة ، وظهرت الخيانة والتكالب على الحكم بين اصحاب المطاعم الغادرة ، واتحدت النصرانية ضد الاسلام بزواج ملك أراغون بملكة قشتالة ، ولعب القوم بمستقبل الامة واستهانوا بحقوق الشعب؛ بدأ المومنون الذين ينظرون بنور الله ، يهاجرون بالدين والعرض والولد والمال والعلم والفن الى عدوة المغرب .

هاجروا ثم استقروا بسيف البحر بين مصب نهر «مجكسة» ونهر «هليلة» . واستأذنوا فأذن لهم . وجددوا المدينة في سفح «درسة» محافظين على اسمها القديم «تطاون» .

ولم يتم التسوير والتبريج ، والخندقة والتحصين حتى اوفد اليهم سلطان المغرب محمد الشيخ الوطاسي جماعة من اهل فاس ليعمروا معهم المدينة الجديدة .

وكانت فاس يومئذ - وكما هي دائما - موطن العلم والمال ، والصناعة والفن ، والنبوغ والعبقرية ، والفكر والدقة ؛ تمد المغرب وغير المغرب بفيض مما رزقها الله من الخير، فجاء الفوج الاول من الفاسيين ليشارك في التأسيس ، وليكون على بصيرة من امر المهاجرين الاندلسيين .

وتأسست تطاون فكانت بنت غرناطة وفاس ، وهما - يومئذ - عاصمتا المغرب والاندلس اللتان انحصرت فيهما حضارة القرن التاسع الهجري ، بما فيها من متانة ودقة ، ولطافة ورقة .

وتكاتب اهل الاندلس مع بعضهم وتراسلوا ، فوفدت على تطاون الوفود وقصدها القصاد . واصبحت مهجرا لارقي مدنية عرفها التاريخ . ومعقلا لابطال الجهاد ، وحصنا من حصون الاسلام ، صمدت في وجه الاسبان والبرتغال والانجليز الذين عاثوا في شواطئ المغرب من شمال وغرب ؛ تصد الغارة ، وتبيد الهاجمين ، وتجيش الجنود في البر والبحر للغزو والدفاع والتطهير ، ورفع اسم المغرب عاليا بين الدول . ولم يستطع شرلكان وخلفاء شرلكان - وهم الذين غزوا شواطئ افريقية وغير افريقية - ان يحدثوا انفسهم بالقرب من شواطئها ، وهي اقرب اليهم من تونس ووهران ، لما عرف به اهلها من شدة الشكيمة والاستبسال في

الدفاع عن الكيان ، واتقان فنون الحرب والجهاد . وظلت كذلك أربعة قرون ونبع نهضتها لا ينضب ، وبوارق فجدتها لا تخبو ؛ فهي التي فتحت طنجة وطردت منها الأنجليز ، وهي التي حمت شواطئ مرتيل من دنس الاحتلال ، وهي التي حصرت البرتغال ثم الأسبان في صخرة سبتة ، وهي التي أخرجت الأبطال المجاهدين كآل النقسميس وأضرابهم .

هذا الى تعيد مبادئ المدنية ، وتأصيل معالم الترقى من حسن التنسيق في المفروش والملبوس ، وكثرة التنويع في المطبوخ والمشروب ، ورقة التفنن في المنقوش والمخروز مع سلامة الذوق في العرض والدقة في الترتيب ... الى المحافظة على الموسيقى الأندلسية التي أتى بها مؤسسوها الأولون معهم من غرناطة ورندة ومالقة وفاس ... فاذا أضفنا الى هذا كله ما كان لها من العلاقات السياسية والاقتصادية والفنية مع الجزائر، نجد انها كانت همزة وصل الحضارات ، بل انها كانت بوتقة تنصهر فيها الحضارات المختلفة ، وتنصبغ باللون المحلي الأندلسي الفاسي ولكن في صورة تطوانية بحتة ، وذوق تطواني صميم .

ومدينة هذا شأنها من الارستقراطية في الحضارة ، والعراقة في المدنية ، من أول يوم أسست فيه ، لا يستكثر في تاريخها ثمانية أسفار . بل اننى اعتقد انه لولا احتلال الأسبان لتطاون ونهبها وتخريبها (سنة 1276هـ 1860م) وضياح كثير مما كان بها من الوثائق والتحف والكتب والحجج لكانت ثمانية أسفار أخينا الاستاذ داود بلغت عشرين . أما ما ضاع للناس وما فوتوه بل وما أحرقوه بانفسهم خوفا من لصوص التفتيش وزبانية التحقيق - فى عهد الحماية الأسبانية - فانه شيء يفوق الحصر ، ويجل عن العدد .

ثم ان هذا التاريخ ليس تاريخا «لتطاون» فحسب ، بل انه يحتوى على نواح كثيرة قادت المؤلف الى ربط تاريخ «تطاون» المحلي الخاص ، بتاريخ المغرب العام ، فكان هذا الكتاب بذلك من اهم المراجع للمؤلف والاديب والمتفنن المعاصرين . واذا كانت لى أمنية ، فانى أود لو رزق الله كل مدينة من مدن المغرب مؤرخا ذكيا فى البحث ومثابرا على العمل فى عزم وصبر اخينا الاستاذ داود حفظه الله . وانى لاتصور لو ان احد شبابنا المتنور عمد الى بيوت الرباط - مثلا - واطلع على ما بخزائن آل برشاش ، والسويسى ، والزبيدى ، وافرچ ، وبلافريج ، وغنام ، ووالزهراء

والتأري [الرباطى طبعاً] ، وغيرهم من رسائل ومستندات ، ودفاتر وكنائش ورسوم عدلية ، لاستخرج لنا من ذلك تاريخ الرباط السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وعلاقة الرباطيين بالحكومة المغربية وبغيرها من الدول ، ثم ذهب الى حوالات المساجد والزوايا والحجج الشرعية وما يسمى «بزمam المتروكات» وعقود الانكحة ، وما بها من الشروط وانواع الصدقات والنحل والدعاوى والفتاوى والنوازل وما الى ذلك لاستخرج عددا عديدا من صور الحياة الاجتماعية وما يكتنفها من الالوان . وعددا عديدا من اسماء العدول والقضاء والحكام والمتخاصمين وتواريخ توليهم خطة القضاء والحكم والخصام مع ما يتبع ذلك من اسماء العائلات الخ... ثم انه لو ذهب كذلك ليبحث فيما عند الناس من المجاميع والدفاتر والتآليف لاستخرج من ذلك ايضا صورا من الادب وحياة الادباء ، ومن العلم وآراء العلماء ، والفن ومناحي المفتنين الخ... ومن كل هذا يربح المغرب بهذا العمل المضمن المتعب «والثمر ايضا» تاريخ مدينة الرباط الذى يكون من اكبر المراجع للمؤرخ العصرى . وقل مثل ذلك فى حق فاس العظيمة، ومراكش الكبيرة ، وسلا القديمة ، وطنجة الزاهرة الخ الخ ...

ان هذا - ياسيدى القارىء - هو عرض لما فعله الاستاذ داود فاستخرج لنا تاريخ تطاون فى ثمانية اسفار مع ما يمكن ان يزداد عليها من ذيول وتتمات وصلات وتكميلات .

فلقد ظل اخونا داود مدة غير قليلة يراجع الرسوم والحجج العدلية فى الزوايا ... فى المساجد ... فى المحاكم ... فى بيوت الناس ... ويطلع على الرسائل والمكتوبات . ولا يغفل شيئا مهما يظن انه صغير اولا قيمة له ، بل انه لم يكتف فى بحثه بما وجد فى تطاون حتى جعل ينتقل بين مراكش والرباط وفاس ومكناس وسلا والبيضاء وغيرها ينقب فى المكاتب والرسائل وينقل ويترجم من مختلف اللغات ويختصر ويلخص وينسخ ويستقصى حتى استطاع ان يقدم لنا هذا الكتاب .

ان المجهودات التى بذلها الاستاذ داود لاستخراج تاريخ تطاون قد وضعت له فى عنق كل تطاونى صميم منة وأية منة، فلولاه - والهداية والتوفيق من الله - لظلت هذه المدينة الحاملة، الواقعة فى احضان الجبال المحاطة بالوان من الجمال الطبيعى : - غابات وسهول وانهار وجداول وشواهد تناطح السماء، وسيف بحر يغازل الامواج الزرقاء - مغمورة القيمة مهمة الذكر مجهولة التاريخ .

ان الاستاذ داود رسم لتطاون لوحات فنية عديدة فتحت للبحاث وطلاب المعرفة عوالم جديدة وآفاقا مدهشة، وأظهر لعشاق الفن والعرفان ما كان خافيا من الامجاد والافضال فى تاريخ المغرب الكبير، وسيجد المتصفح لاوراق هذا الكتاب من المتعة والعبرة والعظة ما يؤكد قولنا، وما يصدق دعوانا. هذه بعض الارتسامات التى علقت بالذهن، وقليل من السوانح التى خطرت على الفكر، فان أخطأنا فى توضيحها وابراز صورها سبيل التوقيق فى البيان، والبلاغة فى التبيين، فما أخطأنا سبيل حسن النية فى التعبير عما تكنه صدورنا من التقدير والاغبط والاعجاب .

ربيع الاول 1377
اكتوبر 1957

تطاون

محمد بن العربي بنونة

تقدمة ثانية

بقلم الاستاذ

التهامى الوزانى

من لدن اكثر من عشرين سنة ، أطلعنا الاستاذ الكبير ، الصابر المصابر العزوف البعيد الهمة، سيدى الحاج محمد بن احمد داود، على مشروعه فى خلق تاريخ لمدينة «تطاون» فآمنا به إيماننا بطلوع الشمس من مشرقها ، اذ عرفناه قادرا على الخلق والايجاد ، دون ما حاجة الى الوسائل السهلة المنال ، وما عليه الا ان يعزم على الفكرة فيقرررها، ثم يتقدم اليها هادئا مواصلا ، وبهذه الخطة خلق المدرسة الاهلية بتطاون ، يوم كانت المدرسة العصرية تتراءى كالسراب فى الآفاق المتراخية المتباعدة ، ولكنه اوجد المدرسة ، وسارت سيرها المترجرج ، وما كانت مدرسة فحسب ، بيد انها كانت ثورة على الاساليب العتيقة التى تتنافى مع الحياة الصحيحة التى يحياها جيل القرن العشرين . وتلقى تلاميذ المدرسة فكرة التكوين الكامل ، فطاروا من اعشاشهم كافراخ الطيور حينما تنبت لها اجنحة ولو رخوة متبعثرة . ثم تقدم بنفس العزم الى مواطنيه واصدقائه وتلاميذه بفكرة خلق المطبعة المهدية ، واكد المتشائمون انها الى عدم ، فقالت ارادة داود ، ان المطبعة حقيقة ، بنفس القوة التى فى حقيقة المدرسة الاهلية . ودعا الاستاذ داود لانشاء تعليم عربى منظم فى شمال المملكة المغربية، فثابر مثابرتة ، وسلك طريقه ، فاذا بالمدرسة المغربية العصرية والدينية تتكون فى الشمال . وكان برنامج حافلا أدرج فيه البنات والولد على السواء.

وكما تتكون الأنهار من الجداول، والجداول من الامطار ، والامطار من القطرات ، ألف الاستاذ داود كتابه «تاريخ تطاون» وكتب لنا ان نستمتع بهذا

الولد العزيز على المغرب يوم كان فكرة ، ويوم كان نطفة فعلاقة ، فمضغة ، الى ان صار بشرا سويا ، فى طول عشرة أذرع او حجم عشرة اجزاء (I). وربط الاستاذ داود تاريخ تطاون بالمغرب اجمعه ، حتى ظهرت تطاون الاقرب من أن تكون قزما بين مدن المغرب منها أن تكون ربعة بين اترابها ، اظهرها عملاقة عاتية ، ذات اثر بارز فى الحياة التاريخية للمغرب . وقام الاستاذ داود بمهمة مزدوجة ، فانه قام بواجبه الكفائى عن نفسه وعن جميع المغاربة التطاونيين من لدن كائن تطاون الى يوم نشر الكتاب، وتحدى جميع المدن المغربية - حاشا مكناس - ليقوم علماؤها بعمل كعمل داود فى شأن تطاون ، وقبله ابن زيدان فى شأن مكناس ، ومن وراء داود جميع المثقفين المغاربة يتحدون المدن الاخرى كى تأتى كل مدينة مغربية بتاريخ لها، كتاريخ داود وكتاريخ ابن زيدان .

وليس التاريخ المغربى الا تاريخه بجهاته ومدنه وقراه، فاذا تكون تاريخ موسع للجهات، أمكن للمؤرخين المعتادين، الذين لم يصلوا الى طول عمالة البحث والتنقيب، أمكنهم أن يجدوا الموسوعة المغربية للتاريخ، فى اطاره المغربى العربى المسلم .

ونقول هذا لان المستعمرين كتبوا عن تاريخ المغرب شيئا كثيرا، وكله أو أغلبه مفسوس مشوه، أفسدته التعليقات المخرضة التى تنكر على المغرب شخصيته الوضاعة اللامعة، وتحتقر شعوبه وقومه، وان نوهت بطبيعته وجباله وسهوله، حتى قال قائلهم : المغرب وطن محتاج الى مواطنين . وصوروه بمثل ما صوروا به العالم الجديد، الذى لم يكن فى التاريخ شيئا حتى جاءه الانسان الابيض .

وتاريخ الاستاذ داود منزه عن المبالغات والافراط، فانما يذكر المسائل كما كانت، وكما هى موجودة فى الوثائق المتوارثة دون زيادة ولا نقصان، فكان عمله هذا موجدا لمنبع صاف لا تشوبه شائبة غرض، ولذوى الاغراض الصالحة ان يصبغوه بما ينسجم مع عظمة هذه الامة المغربية التى جاهدت فى سبيل المحافظة على شخصيتها جهادا قلما جاهدته أمة غيرها . وداخل اطار العروبة والاسلام فرضت وجودها المستقل، وكيانها الخاص، ومرت فى العالم أحداث جسام ورغم ذلك فان المغرب لم ينحن ولم يندغم، وظل هو هو دون أن ينسى قيمته التى فطره الله عليها .

(I) تاريخ تطوان فى ثمان مجلدات، وله ذيل كتب منه الى الآن مجلدان .

ان داود أوجد لتطاون تاريخا محترما فى نظر العلماء المحققين، ورفعته عن مستوى الاسطورة القصصية الى درجة الحقائق العلمية التى تظل مركزا للاستفادة المدققة، وليذهب الداهيون بعد صدور تاريخ تطاون كما شاءوا أن ينهبوا فى تاريخ هذه المدينة، فان انتاجهم سيكون خاضعا لهيمنة تاريخ داود. وقليلة هى الكتب التى لها هذه القيمة السامية، التى لا تكون الا لكتاب جمعه صاحبه كما جمع داود كتابه بالمشابرة والاناة، حتى أبدع كل الابداع، وكلما أوجدت مدينة مغربية لنفسها تاريخا كتاريخ مكناس لابن زيدان، وتاريخ تطاون لداود، تزداد قيمة الكتابين، لانهما لن يبقيا كتابين منعزلين. بل انهما سيرتبطان مع غيرهما مما عسى أن تخلقه النهضة المغربية فى تاريخها، فتتكون من مجموع ذلك كله المعلمة التاريخية المغربية الكبرى.

تطاون 7 جمادى الاولى عام 1377
29 نوفمبر سنة 1957

التهامى الوزانى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله
وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهادين المهتدين، وعلى التابعين لهم
بإحسان الى يوم الدين .

وبعد، فهذا ما استطعت جمعه من أخبار «تطوان» وتاريخها، وما تطوان الا
مدينة متوسطة من مدن المغرب «وطني العزيز»، هي مدينة عادية
متواضعة ليس لها تاريخ عظيم ككبريات المدن المغربية، وليست بها آثار
عظيمة ممتازة، وسكانها أقرب الى التواضع منهم الى التعاضم والتفاخر، الا ان
لتطوان طابعا خاصا ومميزات اكتسبتها بموقعها الطبيعي، وبالعناصر التي يتكون
منها سكانها، وبالشخصية القوية التي بها تستهوى كل من يستقر فيها، وبها
تسيطر على ما عداها .

والذي يريد معرفة حقائق الامور، ودرس تاريخ الامم والشعوب، ينبغي
ان لا يقتصر على الاطلاع على عظام الاشياء وجلال الاعمال، وينبغي ان ينظر
في الجليل والحقير، ويتصل بالغني والفقير، ويجالس العلماء والجهال، ويبحث
في مختلف الشؤون والاحوال . والتاريخ المغربي - كتاريخ بقية الاقطار
والشعوب - ينبغي أن يسجل الحوادث الماضية كما وقعت، ويصور الحياة
الحاضرة كما هي، ليعرف المجدون المخلصون ان جهودهم لم تضع، وأن
أعمالهم الصالحة، ومشاريعهم النافعة، ستدر لهم الاعجاب بهم، والرحمات عليهم،
ويعلم الجبابرة والظالمون، والمقصرون والمهملون ان أعالهم الضارة، وآثارهم
السيئة، ستخلد في صفحات سوداء تجعل أسماءهم مقرونة بالاشمئزاز والاحتقار.
والتاريخ على العموم، فيه نواح مختلفة، وكل ناحية لها محبذون يبتهجون
بها ويتحمسون لها، كما أن لها أناسا يشمئزون منها ويستثقلون الكلام عنها ،
تلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وكل حزب بما لديهم فرحون.

لقد قضى وطننا المغربى العزيز حياته منذ وصول الاسلام والعروبة اليه الى قرننا هذا الذى نعيش فيه، وطنا حرا عزيزا فى نفسه، مستقلا فى ادارة شؤونه وسياسته. وحينما امتدت سيطرة الاتراك على العالم العربى ومنه الشمال الاfricanى، كانت الحدود الشرقية للمغرب هى الحجرة التى وقفت عندها تلك السيطرة الاجنبية، بالرغم من كونها كانت سيطرة اسلامية لم يكن هناك مانع من الترحيب بها لولا الشعور الوطنى والغيرة القومية على استقلال البلاد وحريتها.

وفى الوقت الذى كانت بلاد شرقية كثيرة تترشح تحت أثقال الاستعمار الاجنبى. كان «المغرب» يتمتع بكامل حريته واستقلاله، محفوظ الكرامة مهيب الجانب فى الشرق والغرب، الا ان دوام الحال محال، فالعظمة ما دامت لدولة ولن تدوم، والتأخر والانحطاط ما دام أيضا ولن يدوم، ولقد تسلط على المغرب فى اواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن عاملان قويان قد استطاعا ان يهدا أركانها وينخرها عظامه، ذاك العاملان هما الدسائس الاجنبية من الخارج، والجهل العام المخجل من الداخل، لا فرق فى ذلك بين رجال الدولة وسواد الامة، وأمام هذين العاملين الفتاكين، انهضت قوى المغرب الذى كان عظيما فأصبح هيكلا بلا روح، ثم آل به الامر الى أن صار فى عداد البلاد الفاقدة لحريتها واستقلالها، المجندلة امام القوات الاجنبية، والسيطرة الافرنجية، وما كان للمغرب أن يتجندل لو كانت حكومته جارت الدول مجارة فى ميادين العلم والمعرفة، والتقدم والحضارة، ولكن قومنا كانوا فى واد غير وادى الناس، وفى عصر غير عصر اولئك الناس، والوقت الذى كانت الشعوب الغربية ودولها تسير فيه السير الحثيث نحو حياة جديدة مبنية على العلم والنظام والقوة والعدل، كان رجال دولتنا وولاة امرنا وقادة شعبنا يعيشون فيه بعقلية رجال القرون الوسطى جاهلين ما يجرى فى العالم من تقدم مادي وادبي، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك، وما كان لغيرها أن يكون، أهل العلم والجد والاجتهاد يتقدمون، وأهل الغفلة والجهل والكسل يتقهقرون، ووجد الاستعمار فكان المتأخرون هم ضحاياه، وكان المغرب فى آخر تلك الضحايا.

ثم كانت حياة لها حسناتها وسيئاتها، وكانت احداث منها ما انتهى امره وصار فى ذمة التاريخ، ومنها ما لا يزال هو أو مفعوله ماثلا امام اعيننا، الا ان الذى يسر ويفتح أمامنا أبواب الامل على مصراعيها، هو أن أمتنا قد أصبحت الآن شاعرة بالواجب عليها لوطنها، عارفة لحقوقها وواجباتها، وأخذت تعمل بالوسائل العلمية والعملية لاسترجاع ماضيها المجيد، اخذ الله بيدها حتى تبلغ مبتغاه من الحياة السعيدة، والمؤمل بحول الله ان تتغلب عناصر الخير على عناصر الشر وأن يزول النزاع ويمحى الخلاف وتتوحد الجهود فيعيش المغرب مع أصدقائه المخلصين فى أمن وأمان .

واننى - وامتنا المغربية العزيزة المجيدة بعد ان استرجعت حريتها واستقلالها، وقد أصبحت اليوم على أبواب حياة جديدة ينتظر ان تتغير فيها مظاهرها واتجاهاتها، وان ينقلب معها الكثير من أوضاعها، خصوصا مع وجود بعض لغات وثقافات اجنبية حاول اصحابها من قبل ان يحلوها محل ثقافتنا العربية، وحضارتنا الاسلامية، وعواطفنا الشرقية، - أرى أننا معشر المشتغلين بالعلم والادب والتاريخ فى بلاد المغرب العربى، يجب علينا الآن اكثر من اى وقت آخر، ان نتقدم الى الميدان مصلحين، وأن نكتب من جديد تاريخ أمتنا بما فيه من نواحى القوة والكمال والضعف والانحلال، وما يدفع للتحمس والافتخار، أو يدعو للاختفاء والانزواء، لتعرف أمتنا سبل النفع والنجاح والعظمة فتسلكها، وتعرف طرق الضرر والخذلان والبلاء فتتنكبها، اذ ان فى هذا التاريخ لدروسا وعبرا وارشادا ووعظا، وفى ذلك كله فائدة واية فائدة لمن يريد ان يجعل الحياة الجديدة لامته مبنية على أساس قوي متين .

أقول هذا وأنا أعلم أن قيام شخص واحد بكتابة تاريخ أمة كاملة فى مختلف عصورها ومن جميع نواحيها، ان لم يكن مستحيلا عادة فانه على الاقل من الصعوبة بمكان، خصوصا اذا كان تاريخ أمة لعبت أيدى الاهمال بالكثير من وثائقها ومستنداتها، فلهذا أرى من الواجب الوطنى الآن أن يكتب كل من يستطيع الكتابة، عن الناحية التى يعرفها، وفى الموضوع الذى يحسنه، وبالاسلوب الذى يتقنه او يستحسنه، ومن مختلف تلك الكتابات والاساليب التى قد تجمع بين الغث والسمين، تجتمع المعلومات الكافية لكتابة التاريخ الوطنى الجامع للنواحي السياسية والحربية، والعلمية والادبية، والاقتصادية والاجتماعية .

على هذا الاساس تقدمت لتأليف هذا الكتاب، كتاب «تاريخ تطوان» الذى أرى أنه لا يحتوى الا على معلومات متناثرة تتصل حلقاتها تارة وتنفصل تارة أخرى. وتتقارب موضوعاتها حيناً وتتباعده أحيانا، هى أخبار ومعلومات جديرة بأن تعتبر من المواد الاولية لكتابة التاريخ المغربى الكامل فى المستقبل، بعد ان يلم شعثها ويكمل نقصها. فلهذا أنبه قارئ كتابى هذا الى انه لا ينتظر أن يجد فيه تاريخا كاملا شاملا مبنيا على الاسس العلمية الخالصة، تام التناسق متصل الحلقات، رابطا للأسباب بالمسببات، لان المجهودات، انما استطاعت ان تحطب المعلومات، وتذيلها بالملاحظات والتعليقات. ولعل الجيل المقبل يستطيع ان يضم ما نجمعه نحن الى ما حفظه اسلافنا، وما يبعثه خلفنا، وينقح الجميع تنقيحا، وينظمه تنظيما، فيجمع الاشباه والنظائر، ويفرق بين مختلف الموضوعات، ويربط بين الحلقات، ثم يقدم للامة نتائج ابحاثه وثمرات جهوده ناضجة طيبة لذيذة بحول الله

لقد كتبت ما كتبت، وجمعت ما جمعت، وعلقت بما رأيت، بناء على مذهبي، في كتابة التاريخ العام، ذلك المذهب الذي يرى ان يثبت المؤرخ المعلومات ويصور الحوادث كما هي او كما يراها دون تزوير او تضليل، ثم لكل قارئ ان يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده. واذا كان للمؤرخ الحق في أن يعلق بما يشاء كما يشاء، فان للقارئ أيضا ان يقبل ويرفض على حسب ذوقه ومذهبه ايضا، والحق حق دائما، حب من حب وكره من كره، والباطل لا يخفى ولو موهه صاحبه تمويهها، ان الامة تختلف طبقاتها كما تختلف صور افرادها، واذا كان المصور الماهر هو الذي يرسم الصورة رسما مطابقا للاصل، فان المؤرخ الحقيقي «الذي لا يكتب للدعاية ولا يتأثر برغبة او رهبة» هو الذي يسجل ما يقف عليه من المعلومات غثها وسمينها، كلياتها وجزئياتها، فيثبت من أقوال الناس وأعمالهم ما يدل على الذكاء وسعة الصدر وحسن التدبير، وما يدل على الغباوة والجهل وفساد الرأي وسوء التقدير، ويسجل من الاخبار ما يعرف منه الجهال من العلماء، والضعفاء من الاقوياء والابطال من الجبناء، والاجواد من البخلاء، والكسالى من النشيطين، والمتقلبون من الثابتين، والخونة من المخلصين. ثم ان من الطبيعي ان تختلف الاذواق والمشارب، وأن تكون في الامة مسالك ومذاهب، فقد يكون هناك خبير او موضوع يلفت نظري وأرى أنه من الاهمية بمكان، في حين أن غيري لا يعطيه اية أهمية ويمر به مر الكرام، وقد تكون هناك ناحية أخرى لا أرى أنا فيها فائدة كبيرة وتكون في نظرك أنت من مهمات الامور، وهكذا تختلف الانظار والافكار، باختلاف الثقافات والعوائد والايوساط، فلا يطمع احد في ارضاء جميع الطبقات ولو بلغ من المعرفة والذكاء ما بلغ. وعليه فان كنت كاتباً او مؤلفاً فابذل جهدك، وأبد رأيك، وقل كلمتك، وارض ضميرك، وخل الناس يقولون، ولسوف يقولون كثيراً او قليلاً، ولسوف تجد من يحبذ ويقرظ، ومن يغتاظ وينتقد، ومن يعجب ويطرب، ومن يستاء ويصخب، الا أن الميدان ميدان الكتابة والتأليف والنشر، ميدان فسيح، لا احتكار فيه ولا ازدحام عليه، ومن التنافس والتسابق وتبادل الافكار، تظهر الحقائق وتستفيد الامة، وتلك غاية المخلصين

لقد رأيت بالرغم من اعترافي بقصر الباع، وقلة الاطلاع، وشغل البال، واضطراب الاحوال، أن أسد ثغرة صغيرة في ناحية من نواحي تاريخنا المغربي، بجمع هذه المعلومات عن مدينة «تطوان» مسقط رأسى وموطن آبائى واجدادى منذ الهجرة الاندلسية الاسلامية الى المغرب. والمعلومات عن مدينة «تطوان» المتواضعة، معلومات عن مدينة مغربية وعن سكان مغربيين، وتطوان وناحيتها ليست سوى قطعة من البلاد المغربية الناهضة الآن وما البلاد المغربية وسكانها، أعنى بلاد المغرب العربى بأقطاره الثلاثة «تونس والجزائر والمغرب»

الا الشق الايسر من جسم بلاد العروبة المجيدة، موطن النبل والشهامة،
والنجدة والمروءة . وما بلاد العروبة الا جزء من العالم الاسلامى العظيم، هذا
العالم النبيل، الناهض النشيط الذى نفض عنه غبار الخمول، وكسر القيود ،
وحطم السلاسل والاغلال، وأخذ يسعى للتوحيد والتقدم نحو الرقى والمجد،
لحمل راية العظمة والسؤدد، فحياه الله وسدد خطاه وأيده ونصره .

منهاج هذا الكتاب

ولعل من المناسب ان آتى هنا بفذلكة عن المنهاج الذى سلكته فى
ترتيب هذا الكتاب ليكون قارئه على بينة من امره، ويعدل عن قراءته من كانت
موضوعاته لا تهمه، أو طريقته لا ترضيه، لقد سلكت فيه طريقة خاصة
لا أدعى أنها أفضل من غيرها وانما هى طريقة ارتضيته فسلكتها، ذلك أننى
جعلت القرن الواحد «أعنى مائة سنة» وحدة مستقلة متماسكة، فجمعت أخبار
كل قرن فى باب واحد تحته عدة فصول بحيث اذا قرأ الشخص ذلك الباب
بمختلف فصوله، عرف تاريخ هذه المدينة من جميع نواحيه فى ذلك القرن ،
فمثلا القرن العاشر الهجرى، قد عقدت له بابا فيه خمسة فصول .

الاول فى ولاية هذه المدينة وحوادثها العامة فى ذلك القرن

الثانى فى قضاتها وعدولها كذلك

الثالث فى تراجم رجالها كذلك

الرابع فى مشاهير الزائرين لها

الخامس ملخص عن حياتها فى ذلك القرن من النواحي السياسية

والعلمية والادبية والاجتماعية

ثم عقدت بابا آخر للقرن الحادى عشر وفيه ستة فصول ثم بابا آخر

للقرون الثانى عشر وفيه خمسة فصول الخ.

وبهذه الطريقة يسهل الامر حتى على من يريد مثلا أن يقتصر على معرفة

ولاياتها وحوادثها العامة فى مختلف العصور، اذ يجد مراده فى الفصول المعقودة

لذلك من كل باب، والذى تهمه معرفة قضاتها فقط يجد اسماءهم وتواريخهم

وأخبارهم فى الفصول المعقودة لذلك من كل باب ايضا. وهكذا شأن من لا

تهمه الا معرفة تراجم رجالها فقط الخ .

وقد جمعت ما وقفت عليه من المعلومات عن هذه المدينة وسكانها فى

حياتها الاولى - اى ما قبل القرن العاشر الهجرى - وهى معلومات قليلة

مختصرة جدا، ثم تكلمت بأسهاب على بنائها الحديث، وعلى عمارتها من جديد

ثم على حياتها الثانية من اواخر القرن التاسع الهجرى الى قرننا هذا.

وقد كان اشتغالى بتأليف هذا الكتاب - كله من أوله الى آخره - فى بضع عشرة سنة مضت، اى فى عهد كان وطنى المغربى فيه مقسما بين دولتين اجنبيتين كانت احدهما تحمى جنوبه الذى هو القسم الاكبر الاهم، وكانت الاخرى تحمى شماله الذى به تقع مدينة تطوان .

وكانت الصفة الدولية الرسمية لتينك الدولتين ببلادنا هى الحماية «المفروضة» الا ان الواقع انهما كانتا تسيطران على البلاد وجميع ما فيها وكل من بها، سيطرة تامة لم يبق معها لدولة المغرب والشعب المغربى شىء من التصرف او النفوذ - لقد كان الحكم بالمغرب - فى الحقيقة حكما استعماريًا تراعى فيه مصالح الاجانب قبل كل شىء

وقد مرت على البلاد اوقات كانت عسيرة غير يسيرة، ظلت الحرب قائمة بها سنين عديدة، ثم استتب الامن ولكن الحريات كانت مفقودة، واتسعت المعلومات، ولكن اللسن اصبحت معقودة، ثم تلا ذلك عهد صارت فيه السجون والمنافى مملوءة والاورساط والاجواء موبوءة، وايدى الظلمة وأذنانهم قوية ، ومواهب أصحاب العلم والحق والعدل منزوية، وفى ذلك العهد وصلت فى الكلام عن تاريخ تطوان، الى تاريخ دخول الاسبانيين لها، وبسط حمايتهم عليها - اى عام 1331 هـ . 1913 م . فأوقفت الكلام هناك أى عند احتجاب عهد الوحدة والاستقلال، وانزواء الحكم الوطنى فى غفوة، الا انها غفوة عملنا باعانة الله القوى القادر لانتهاؤها مدتها، واسترجاع السيادة الوطنية كاملة لتعيش امتنا الكريمة من جديد فى ظل لواء العروبة تحت راية الاسلام، فحقق الله عملنا ، وأعاد لنا حريتنا واستقلالنا ، ووحدة ترابنا ، وجمع شملنا ، واصبحت تطوان - كما كانت مثل بقية الشمال المغربى - جزءا من المغرب المستقل الموحد ، لا فرق بين شرقه وغربه، شماله وجنوبه .

وانى أرجو الله تعالى ان يهينى لى الاسباب ويحفظنى من الموانع لاستأنف عملى وأتابع كتابتى حتى أصل فى تاريخ هذه المدينة الى عهدنا هذا بحول الله .

وكنت قد قررت أن أجعل لهذا الكتاب «ذيلًا» حددت له موضوعات خاصة أعرف أنها لدى بعض الناس، أهم من موضوعات الاصل التى هى تواريخ الولاة والحوادث وتراجم الرجال الخ.

وجعلت ذلك الذيل محتويا على ثلاثة اقسام :

الاول فى خطط هذه المدينة وبيان أقسامها وأبوابها ومساجدها وزواياها وأسواقها وءاثارها وبساتينها ومنتزهاتها وقبائلها الخ. مع تاريخ كل شىء من ذلك مصحوبا بالصور والرسوم والخرائط والبيانات.

الثانى فى سكانها وبيان عناصرهم وأسماء الاشخاص والعائلات وتاريخ من كان فيها من رجال العلوم والفنون والتأليف والتدريس والشعر، واصحاب

الخطط المختلفة من محتسبين ونظار وخطباء وائمة النخ وفيه فصول عن الاجانب وعن اليهود وعن الرقيق النخ.

الثالث فى الحياة الاجتماعية بها وفيه الكلام على ما فيها من الاديان والمذاهب، والاخلاق والعوائد، والحرف والصنائع، والاعياد والمواسم، والفصول والمنازل، واللغات واللهجات، والحكم والامثال، (الف مثل ومثل) والغناء والموسيقى والنظام المنزلى، والمرأة ومركزها، وهندسة المباني والملابس والمآكل والمشارب (المطبخ التطواني) والزراعة والزهور والفواكه والحيوانات والعمله «السكة» النخ

وقررت أن يكون هذا الذيل بأبوابه الثلاثة محتويا على مائة فصل وفصل، منها ما يحتوى على صفحة او بضع صفحات، ومنها ما فيه عشرات الصفحات وفعلا شرعت فى كتابة هذا الذيل وحررت منه عدة فصول منها المطول ومنها المختصر، وقد كتبت منه حتى الآن بضع مئات من الصفحات، الا أنى لما رأيت أن أمره قد يطول، قررت فصله عن أصل الكتاب واعتبار كتاب «تاريخ تطوان» منتها يمكن تقديمه للطبع بمجرد مراجعته وتنقيحه، ورأيت أن أجعل الموضوعات المذكورة كتابا مستقلا اسمه «تكملة تاريخ تطوان» وهذه التكملة اشتغل فيها من حين لآخر كلما سمح لى الوقت بذلك كما اشتغل فى الكتاب الثالث الذى مرت على عدة سنوات فى جمع مواده وتحريره وهو كتاب «عائلات تطوان» وانسى أرجو من الله تعالى الاعانة والتوفيق لاكمال هذين الكتابين وتقديمهما للطبع أيضا فى زمن قريب غير بعيد بحوله سبحانه .

ويجمل بى هنا أن أبين أن كتاب «تاريخ تطوان» ليس كتاب دعاية، او مديح واطراء، وأننى لم يدعنى لتأليفه الا القيام ببعض الواجب على لوطنى المغربى العزيز ولابنائه المحترمين.. فهو كتاب لم يؤلف لبيان خصوص المحاسن او المساوى، ولم يكتب بالاسلوب الانشائى أو المدرسى الذى تنمق عباراته تنميكا لينسج على منواله التلاميذ، ولم أقيده فيه نفسى بأى أسلوب من أساليب المؤرخين، لا المتقدمين منهم ولا المتأخرين . فلم أتقيد فيه لا بالتطويل والاطناب ولا بالاختصار والإيجاز، بل ضمننته من المعلومات ما عثرت عليه وعلقت على الحوادث والاخبار، بما خطر ببالى عند جمعها وتأليفها، وكتبته بالاسلوب الذى حضر، فلا التزام لما لا يلزم، ولا تقيد ولا تقييد، ولا تكلف ولا تكليف

على أننى بالرغم من كونى أنجزته فى عدة مجلدات، تحتوى على آلاف من الصفحات، ما زلت أشعر بنقص فيه كبير، اذ هناك أمور ربما كانت مهمة ولكننى أجهلها تماما، وهنا أشياء لا أعرف من حقائقها الا القليل، لان فى الدنيا كراما نبلاء، وفيها أيضا كسالى وبخلاء، يضمنون لا بالمال فحسب، بل حتى بالمعلومات، وبالاطلاع على الوثائق والمستندات، ولله فى خلقه شؤون.

نعم انى قد بحثت واجتهدت، وسألت وارتحللت، وشرقت وغربت، وتعلمت وتعلمت، وتذاكرت واستفدت، ونقلت وخطبت، وجمعت من ذلك كل ما استطعت، وربما كان ما جهلت اكثر مما علمت، ولكن هذا هو جهدى فان وجد فيه أحد ما يهمله او يفيد فالحمد والمنة لله الموفق، ومن رأى فيه نقصاً فليكمله او ليرشد لا كماله. وله منى جزيل الشكر ومن الله حسن الجزاء، ومن وجد فيه خطأ فليصلحه وليعتقد أن الكمال انما هو لله، ومن لم يرضه فيه شيء فليعلم انه لم يؤلف لمثله، وان استطاع فليتفضل وليتحفنا بما هو احسن منه وأرقى، وأشمل وأوفى .

كيف ينبغي ان يكتب التاريخ ؟

ثم كيف ينبغي ان يكتب التاريخ ؟

هذا سؤال تختلف آراء الناس فى الجواب عنه نظريا وعمليا، فهذا مؤرخ حر نزيه لا يخشى شيئا ولا يطمع فى شيء، يقول الحق ويسير فى طريقه ، يرى أن من احسن يجب ان يعلم ان احسانه لم يضع، ومن أساء يعرف أن وراءه أعينا ساهرة تحصى عليه أعماله ومواقفه، واقلاما حادة تسجل ذلك وتخلده فى بطون التاريخ ليقرأها الاولاد والاحفاد وتسير بها الركبان فى مختلف الاقطار. وذاك كاتب مداح او هجاء يخدم مصالح شخصية له او لغيره لا يبالي بالحقيقة ولا يهمله انصاف، وانما يمدح او يذم بالحق وبالباطل وبالواقع وبالمخترق (I) وكم من كاتب او شاعر او مؤرخ باع ضميره وقلمه وخان الامانة، وضل فى نفسه وأضل معه الناس لاجل دراهم معدودة قبضها، او وظيفة زائلة قلدها . او لرغبة او رهبة تزول بزوال اسبابها وتنتهى عوارضها طال الزمن ام قصر والكتاب والمؤرخون الذين من هذا القبيل وذاك قد وجدوا فى العهد القديم وهم موجودون الآن وسيبقون فى الوجود، ما دام الانسان واخلاق الانسان .

(I) لو تحرى المؤرخ غاية التحرى فانه لابد ان يتأثر بمؤثرات قد لا يشعر بها، لكن الملام انما هو على خطة منافقة تشتمل منها رائحة الاغراض السخيفة، أما التاريخ المحص فانّه يوخذ الحق فيه او ما اشبه ان يكون حقا من دراسة الميولات المتنوعة، فمن بينها كلها تتمحضر فكرة يكونها الدارس المستقل الفكر، لا تبعد كثيرا عن الواقع، واذا وجد الشجاعة على التعبير بكل ما يحسه ويعتقده فقد ادى الامانة كاملة ولا يضره نواحي النقصان فليس بمطلوب منه أن لا يخطئ وانما المطلوب منه أن لا يتعمد الخطأ . ت. و.

الشرف، والنزاهة، وعلو الهمة، والعلم الغزير، والعقل الراجح، والاعتزان المعقول، ونبذ الخوف والطمع، هذه صفات لا تسمح لصاحبها بغير الحق والعدل والانصاف .

اما الامل والطمع، والخوف والهلع، والطغيان والجبروت، وصفاقة الوجه وخراب الذمة، فانها أوصاف تدعو بعض الناس لقلب الحقائق واختلاق الحوادث والاغضاء عن الزلات، ومداراة الذين يخاف منهم او يخشى انصارهم، ثم انكار حسنات الأضداد وفضائل المعارضين، فهذا فلان بيده السلطة او له جاه، يخشى من غضبه او اعراضه اذا قيل كذا، او كتب كذا، وذاك فلان عدو فلان أو كان عدوا لا بائه او اجداده ويسوءه أن يسمع كلمة حق او انصاف في خصمه او خصم اهله او مواطنيه، وهذا صديقنا فلان لا يناسب ان نقول في سلفه كذا، او هؤلاء قومنا لا ينبغي ان نذكر شيئا من نقائصهم او هذه بلادنا لا يليق ان نصفها هي او أهلها بكذا وكذا لئلا يستغل ذلك خصومنا الخ. هكذا تضيع الحقائق وتنقلب الامور في كثير من الاحوال ومن كثير من الناس .

عن بعض مؤرخي المغرب في عصرنا

لقد سمعت مرارا عديدة من بعض اصدقائي، وهم ممن ذوى المقامات المحترمة، أن العلامة المؤرخ المرحوم مولاي عبد الرحمن ابن زيدان، قد اساء الى المغرب وألى بعض الناس في تاريخه «الاتحاف» وانه كشف الاسرار وقضح العورات، وليته حذف، وليته اثبت وليته وليته ..

اما انا فكنت وما زلت ارى ان ابن زيدان رحمه الله لم يسيء لا الى المغرب ولا الى التاريخ وانما قام بواجب يستحق ان يشكر عليه، وكنت استغرب صدور مثل ذلك القول ممن كنت اعرف فيهم العقل والعلم، والذكاء والفهم، ولكنني حينما افكر في الموضوع، وفي سبب مثل ذلك القول، أصل في النهاية اني ان الشخص اذا كان ينظر بعين الرضى لبعض الجهات، فانه لا يقدر على ان يسمع عنها غير الثناء، واذا كان متصلا بالطبقة التي لا تهمها الحقائق بقدر ما يهتمها المديح والاطراء، فان اثقل شيء على سمعه هو ذكر الحقائق المجردة، واذا قلت لهذا الصنف من الناس، واين الحق والانصاف والامانة، قال لك، ذلك شأن البسطاء والاغبياء

ولقد سمعت ايضا غير ما مرة بعض رفقاائي الذين اعتقد انهم بعيدون عن الاغراض والشهوات، ينتقدون على استاذنا الرهوني رحمه الله، اثباته في تاريخه الكبير لاشياء يعدونها من الخرافات التي لا تناسب العصر، فكنت أقول لهم، أليس في الدنيا اناس يعتقدون ان ما تسميه انت خرافات، هو عين

الحقائق وطريق الهدى وسبيل السلامة والنجاة ؟ ان هذه الطبقة من الناس موجودة حقا، وان من الامانة للتاريخ والحقيقة، أن تسجل أقوالها واعتقاداتها بما لها وما عليها ثم ما على قارئ التاريخ إلا ان يقبل ما يراه حقا وصوابا ، ويرفض ما يرى انه خطأ او باطل

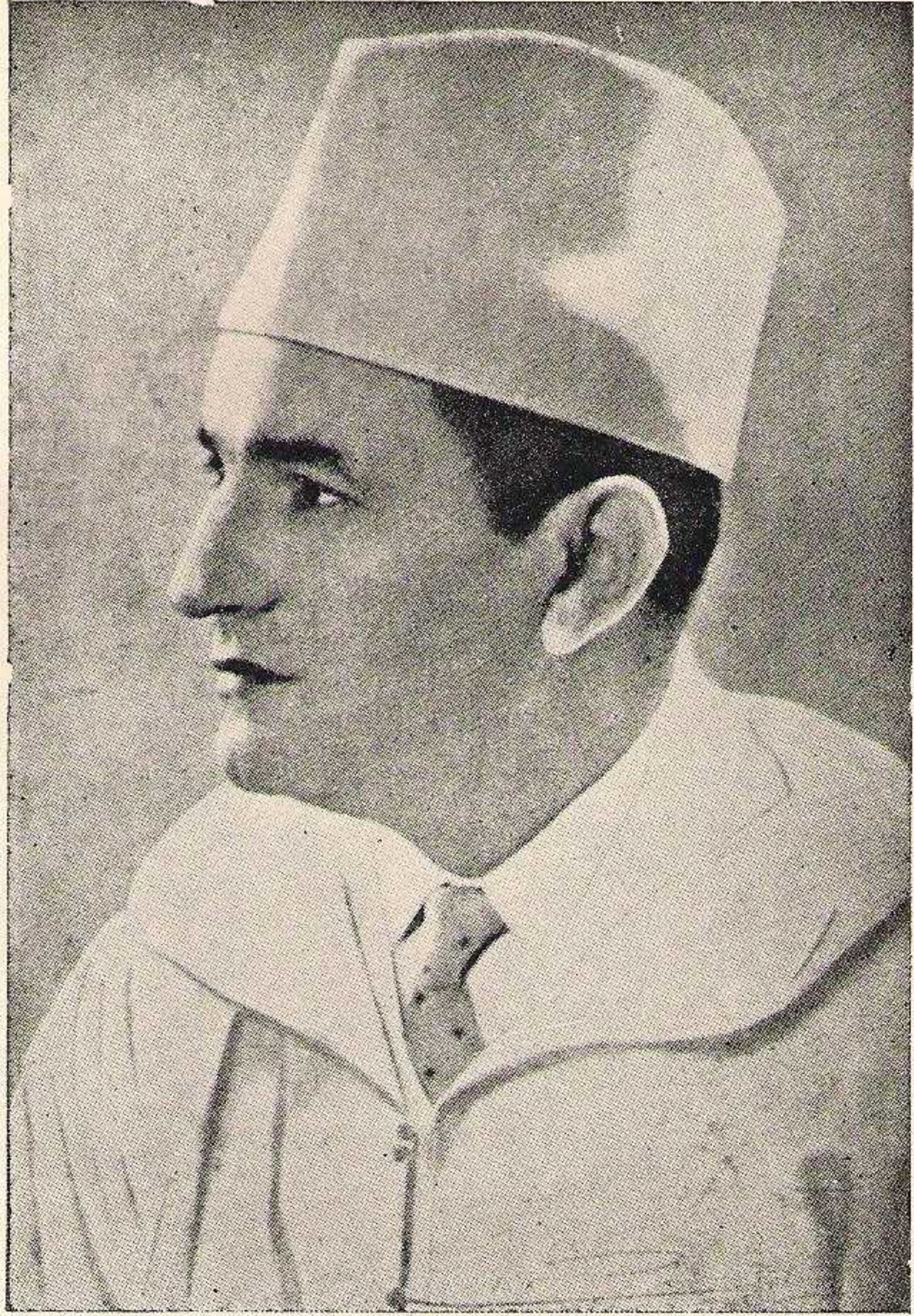
ومن كان جاهلا فليستل أهل الذكر والعالمين

و كنت أسمع أشخاصا ينتقدون على كتاب «الاستقصا» لأبى العباس الناصري، اقتصاره على نواح دون أخرى ويقولون في مؤلفه الكبير انه حاطب ليل، وربما بالغ بعضهم فقلد بعض الاجانب المغرضين في قوله، انه لوردت كل فقرة فيه الى الكتاب الاصلى الذى نقلت منه لما بقى لمؤلفه شيء يذكر . فكنت أستغرب كيف يسوغ لمواطن مغربى ان ينكر فضل اعظم وأحسن وأجمع كتاب ألف في تاريخ وطنه ، ذلك الكتاب الذى لم يعرف جل علماء هذا القرن في العالم تاريخ المغرب الا منه . فهل كان في الامكان ان يجمع المؤلف الواحد كل شيء ؟ وهل العالم او الاديب الذى لم يحط بكل شيء علما يجب عليه ان لا يكتب ولا يؤلف ليلا يقال، ان انتاجه ناقص ، وهل ينتظر الكمال الا من الله سبحانه ؟

اما صديقنا العلامة العباس بن ابراهيم قاضى مراکش حفظه الله فانه لم يعدم من ينتقد عليه اقتصاره في كتابه، «الاعلام» على تراجم الرجال، ولكن أليست تلك التراجم مشحونة بالعلم والادب والتاريخ والسير والمواعظ والعبر ؟ وهل ألف في المغرب العربى كله احد غير ابن زيدان وابن ابراهيم كتابا يحتوى على نحو عشر مجلدات ضخام في تراجم رجال مدينة واحدة ؟ الحق ان الناصري السلوى مؤلف «الاستقصا» (I) والرهونى التطوانى مؤلف «عمدة الراوين» (2) وابن زيدان المكناسى مؤلف

(I) كتاب «الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى» للعلامة المطلع أبى العباس أحمد بن خالد الناصري السلوى «من مدينة سلا» وقد طبع بمصر عام 1312 في أربعة أجزاء متوسطة الحجم في حياة مؤلفه المتوفى عام 1315 ومولده عام 1250 ثم طبع بمدينة الدار البيضاء في تسعة اجزاء سنة 1954 - 1956 وهو أوسع ما عرفناه حتى الآن من الكتب المؤلفة في تاريخ دول المغرب .

(2) كتاب «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين» لأبى العباس أحمد الرهونى التطوانى «من مدينة تطوان» يقع في عشرة اجزاء متوسطة الحجم . وقد وصف وصفا دقيقا في الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب . وهو مخطوط الى الآن لم يطبع منه شيء ، ويا حبذا لو طبع فيستفيد منه كثير من الناس .



صاحب الجلالة ملك المغرب

(رقم 1) سيدى محمد الخامس، الرجل الذى حقق الله فى عهده وعلى يده استرجاع حرية المغرب واستقلاله وتوحيد ترابه.
ولد حفظه الله بفاس عام 1329 هـ. 1911 م. وجلس على عرش المملكة المغربية يوم الجمعة 22 جمادى الاولى عام 1346 هـ. موافق 18 نوفمبر سنة 1927 م ايده الله ونصره نصرا عزيزا .
فى عهد هذا الملك الصالح، والوطنى المكافح ، ألف هذا الكتاب وبرز منه هذا المجلد للوجود .



محمد داود

(رقم 2) عند ما شرع في تأليف كتابه هذا «تاريخ تطوان»



صداقة اربعين سنة

مؤلف هذا الكتاب وكاتباً تقدمتیه

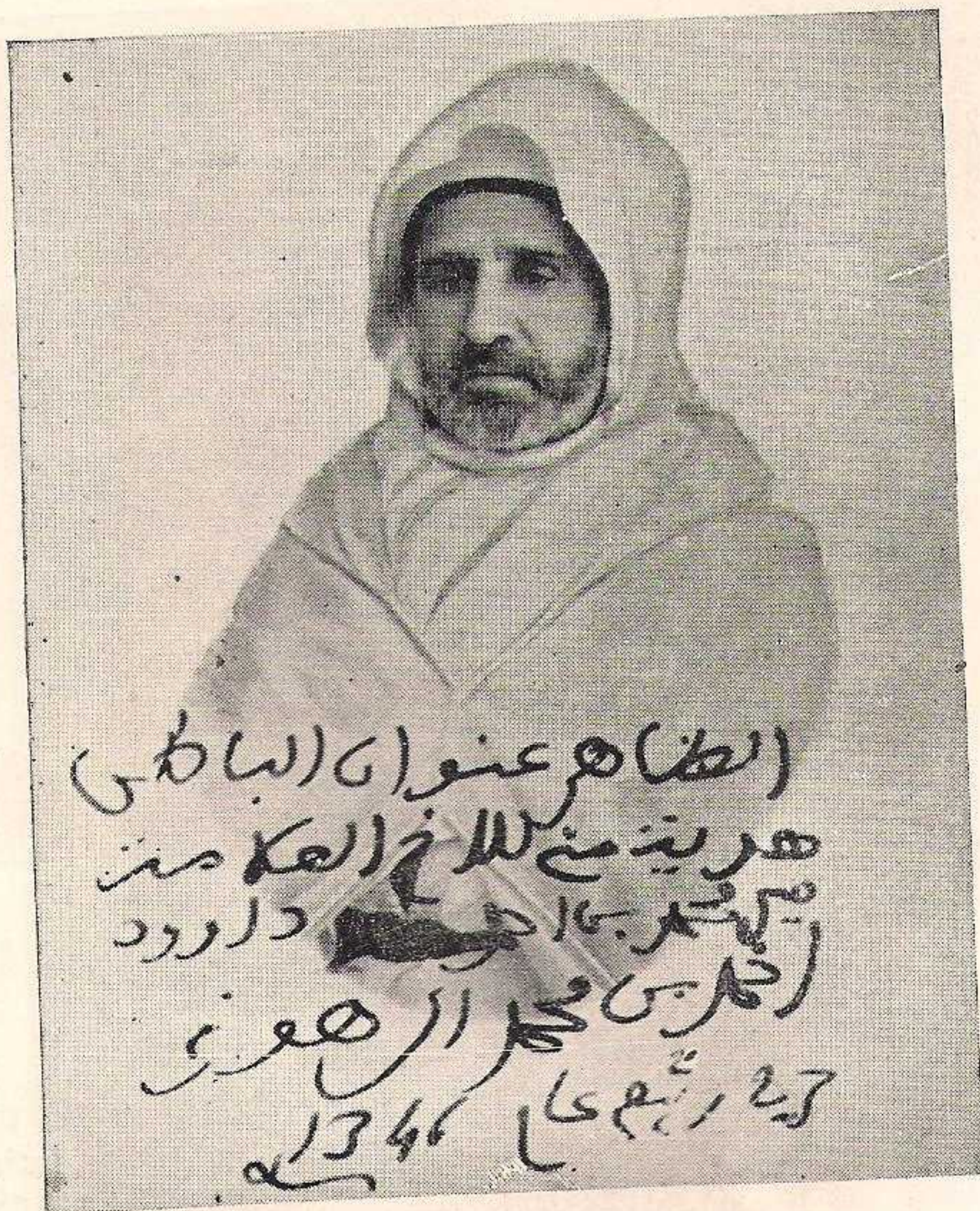
(رقم 3) هذه الصورة اخذت بتطوان فی شهر شوال عام 1335 هـ. موافق یولیه سنة 1917 م. وقد ظهر فیها ثلاثة شبان من شباب تطوان فی ذلك التاريخ، وهم مؤلف هذا الكتاب محمد داود (الى اليمين) وقد وقف مقابلاً له الاستاذ محمد بنونة كاتب تقدمته الاولى، انظر ص 7 - 18 وجلس بينهما الاستاذ التهامی الوزانی كاتب تقدمته الثانية، انظر ص 19 - 21 هي صداقة تجاوزت حیاتها اربعين ربيعاً .
صداقة خالدة خلود الحب الروحي الشريف .



الاصدقاء الثلاثة

المؤلف مع رفيقيه، بنونة والوزانى

(رقم 4) بعد صداقة ما يقرب من نصف قرن اخذت هذه الصورة عام 1378 هـ سنة 1958 م
بعد الفراغ من تأليف هذا الكتاب وطبع المجلد الاول منه، وقد ظهر فيها من اليسار :
الحاج محمد داود ومولده بتطوان ليلة يوم الاثنين 12 ذى الحجة عام 1318 هـ. موافق
فاتح ابريل سنة 1901 م
الحاج محمد بنونة، ومولده بتطوان ليلة الاحد 17 رجب عام 1318 هـ موافق 11
نوفمبر 1900 م.
الحاج التهامي الوزانى، ومولده بتطوان يوم الاثنين 6 صفر عام 1321 هـ موافق 4
مايو سنة 1903 م .



(رقم 5) المؤرخ التطواني الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد الرهوني، مؤلف «عمدة الراوين» في تاريخ «تطاوين» ولد بتطوان عام 1288 هـ وتوفي ودفن بها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثاني عام 1373 هـ الموافق 21 دجنبر سنة 1953 م. وقبره في الزاوية العيساوية التي في حومة العيون بتطوان وقد كتب رحمه الله بخطه على هذه الصورة ما يلي :

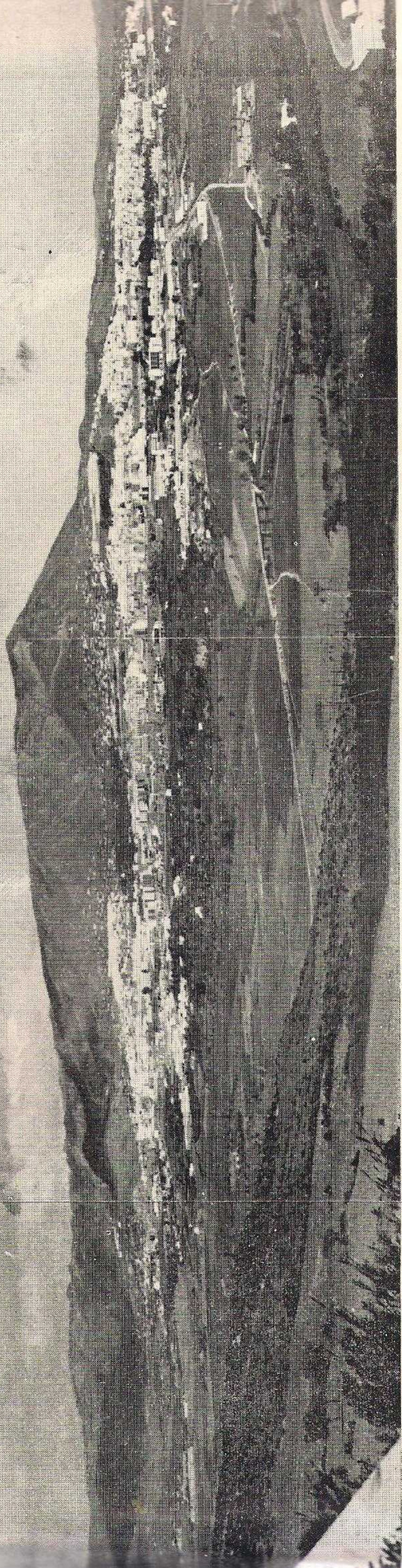
الظاهر عنوان الباطن، هدية مني لالا العلامة سيدي محمد بن أحمد داود. أحمد بن محمد الرهوني - 23 ربيع 2 عام 1346



(رقم 6) المؤرخ المكناسي العلامة الاديب انه زيد عبد الرحمن ابن زيدان العلوي، مؤلف كتاب «اتحاف اعلام الناس، بجمال اخبار حاضرة مكناس» .
ولد بمكناسة الزيتون عام 1290 هـ. وتوفي ودفن بها في 21 ذي الحجة الحرام عام 1365 الموافق 16 نوفمبر سنة 1946 م. وقبره داخل القبة التي بها ضريح السلطان مولاي اسماعيل بمكناس وقد كتب رحمه الله بخطه على هذه الصورة ما يلي :
اقدم صورتي هذه لبهجة تطوان التحرير النقاد السيد محمد داود تذكارا وديا في 28 ربيع 2 عام 1346 . عبد الرحمن ابن زيدان العلوي



(رقم 7) المؤرخ المراكشي الفقيه القاضي العباس بن ابراهيم مؤلف كتاب «الاعلام
 بمن حل مراكش واغمت من الاعلام»، ولد بمراكش عام 1294 هـ. وتوفي ودفن بها في
 19 شوال عام 1378 هـ، موافق 28 ابريل سنة 1959 م.
 وقد كتب رحمه الله بخطه على هذه الصورة ما يلي :
 8 شعبان عام 1355 عباس بن ابراهيم وفقه الله
 مهداة الى العلامة سيد محمد داود التطوانى



منظر عام لمدينة تطوان

(رقم 8) تقع مدينة تطوان في سفح جبل يسمى جبل درسة بسكون الراء وفتح السين) وهذا الجبل - وهو المرتفع الظاهر في الصورة - من سلسلة جبال قبيلة الحوز النحلة بقبيلة البحرة التي بها مدينة سبتة، وتقع شمال تطوان في مدخل بوزاج جبل طارق، وجبل درسة، تنفجر منه عيون يجري ماؤها العذب الى داخل مساجد تطوان وديارها وقتواتها فيشرب منه الناس والحيوانات، وتسقى منه الزروع والبساتين، وتبعد تطوان عن شاطئ البحر الابيض المتوسط بنحو عشر كيلومترات، وهذا البحر يقع في الجهة الشرقية منها. والقسم الظاهر في الصورة لجهة اليمين، هو القسم الشرقي من هذه المدينة ويحتوى على حومتى البلد والريف الاسفل، ثم الى يسار ذلك يقع الريض الاعلى، وفيه قسم الطالعة، وفي اعلى ذلك، تجد القصبة وفي سفحها لجهة اليسار حومة سيدي طلحة وما اتصل بها الى مدشر سمسة الواقع في اقصى اليسار

وترى في وسط الصورة - لجهة اليمين - قنطرة «مجاز الحجر» وهي واقعة على نهر تطوان الذي يصب في البحر الابيض المتوسط، ويفصل بين قبيلة الحوز وقبيلة بني حزم التي اخذت هذه الصورة من احد جبالها، وهذا الجبل تنفجر منه ايضا عيون غزيرة مدت منها انابيب تستفيد منها الان ديار تطوان وهنزهاتها وتتصل بضواحي المدينة، فدادين يزرع بها القمح والشعير والذرة البيضاء والحمراء وغراسى (بساتين) بها مختلف انواع الغضر والاشجار، والفواكه والازهار.

«الاتحاف» (I) وابن ابراهيم المراكشي مؤلف «الاعلام» (2) كلهم من افذاذ علماء الامة المغربية الذين يستحقون كل اجلال واعظام ، ان بقى فى الدنيا فضل وانصاف .

على أن أسماء هؤلاء النبغاء ومؤلفاتهم خالدة وان وجه لها من الانتقادات ما وجه، وان اختلاف اساليبها انما هو صورة لاختلاف صور الافراد والثقافات والانظار والاتجاهات

والرأى والله أعلم، أن كتابة التاريخ ينبغي أن تختلف باختلاف الاحوال، فالمؤرخ لاجل الاغراض الخاصة والدعاية، له ان يراعى المبدأ الذى ألف لاجله فيرفع ما يشاء ويضع ما يرايد، ويذكر ما يرضاه او يرضيه، ويغفل ما لا يوافق مبدأه ومراده، ويشيد بذكر ما يؤيد رأيه ومذهبه، ويحط من قيمة كل ما يخالف ذلك ...

فالتاريخ الموجه الذى يؤلف مثلاً لتلاميذ المدارس الوطنية او لبث الروح القومية فى الامة، او لنحو ذلك من الاغراض الشريفة النبيلة، يجب أن لا يثبت فيه من الحوادث والاخبار والمواقف، الا ما يناسب المقام من مفاخر وامجاد

والكتاب الذى يؤلف لمقاومة الدول الغاشمة، او لبيان فضائح الولاة المعتدين والطفاة المتجبرين، والظلمة المغتصبين، او لمقاومة المبادئ الهدامة والمذاهب والانظمة الضارة، او لمحاربة الظلم الاستعماري الغاشم او الاستغلال الاقطاعى الممقوت، من شأنه أن يحتوى على تشويه أعمال الظالمين والمعتدين وهدمها بالحق بل وحتى بغيره - ان اضطر لذلك - وان كان الحق غنيا بنفسه . اما التاريخ الحقيقى الذى يكتب للاعتبار ، ويسجل مختلف الحوادث والاخبار، فينبغى أن يكون كالمرآة أو كالألة المصورة التى تثبت الاشياء

(I) هو كتاب «اتحاف اعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس» لابی زيد عبد الرحمن ابن زيدان العلوى المكناسى «من مدينة مكناس» طبعت منه فى حياة مؤلفه خمس مجلدات كبار بمدينة الرباط، فيما بين سنتى 1347 هـ 1929 م. و 1352 هـ 1933 م. وأخبرت أن الباقي منه بدون طبع ما يقرب من ذلك. وهو مؤلف جليل فى تراجم رجال مكناس، ولكن به من المعلومات التاريخية والادبية عن المغرب وتاريخه ورجاله وملوكه ما لا يوجد فى غيره .

(2) كتاب «الاعلام، بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام» للقاضى العباس بن ابراهيم المراكشى «من مدينة مراكش» يقع فى نحو عشر مجلدات كبار، طبع منه مؤلفه خمس مجلدات بمدينة فاس فيما بين سنتى 1355 هـ 1936 م. و 1358 هـ 1939 م والقسم الباقي منه مخطوطا، ربما كان اكثر من القسم المطبوع، وقد وقفت عليه وتصفحته لدى مؤلفه بمراكش. وهو كتاب جليل فى تراجم رجال مراكش وغيرهم من اعلام المغرب. وقد جمع فيه مؤلفه من الفوائد والاخبار ما تفرق فى غيره .

كما هي، والمؤرخ الصادق، والكاتب الحر، هو الذي يثبت الحوادث كما وقعت ويصف الأشخاص والأشياء بأوصافها الحقيقية بدون مبالغة ولا بخس، فبذلك يعرف مقام المصلحين وفضل المحسنين وكفاح العاملين وجهود المخلصين، كما يعرف أيضا جبروت الظالمين وطغيان المعتدين، وضلال المغترين، وإهمال المقصرين .

ومعرفة الحقائق والنتائج هي التي تقف في وجه من تحدثه نفسه بالغرور، وهي التي تعظ من يريد الاتعاض، وهي التي تدعو لشكر الذين أحسنوا وقاموا بواجباتهم، كما تدفع لنقد الذين أساءوا ولم يهتموا إلا بمصالحهم وشهواتهم، وإعلان الحقائق ونتائجها هو الذي يدعو عددا من الناس للقيام بأعمال البر، والابتعاد عن طريق الشر وموجبات النقد، وفي ذلك صلاح الأمة واكثار للخير وإقلال للشرور والآفات ؟

لقد كان بعض الخيرة من اصدقائي يمدحون بعض الناس بما لم يفعلوا لعلمهم يعملون، ويصفونهم بأوصاف لا حظ لهم فيها لعلمهم يهتدون «ومن الناس من يسرهم ان يحمدا بما يفعلون وما لا يفعلون» فكنت أقول لأولئك الاصدقاء ان عملهم جناية على مصالح الأمة التي أعتقد أنهم يعملون لها باخلاص، لان مدح الشخص بعمل صالح لم يحم به قد يكون سببا في عدم قيامه بذلك العمل في المستقبل فهو يقول - والاخلاص في الدنيا غير كثير - اي فائدة للتعب والتضحية ما دامت الاعمال الصالحة تنسب الى وان لم أعملها، وألسن الناس لاهجة بالثناء على بأوصاف ولو لم أتصف بها، وهكذا تضيع الحقائق ايضا، وهكذا تهمل المصالح العامة اما بالتملق والطمع، واما بالخوف وبالأغراض المختلفة، وفي ذلك كله جناية على الأمة وتضييع لحقوقها

ان الأشخاص يذهبون، اما الاعمال فتبقى، وان الاعراض والاغراض تفنى، أما الحقيقة فهي باقية خالدة، ولكن هل بلغ الناس درجة قبول الحقائق المجردة ؟ وهل في الامكان أن يسير كتاب التاريخ على وتيرة واحدة ؟ لعل الذي يحاول أن يرغم الناس أجمعين على طريقة خاصة، أو يسيرهم في اتجاه واحد، انما يتيه في صحراء الخيال اذ رضا جميع الناس غاية لا تنال.

وقديما حاول المؤرخ الكبير العلامة ابن خلدون، وضع قواعد وأصول لكتابة التاريخ ولكن هل وقف هو نفسه مع تلك القواعد والاصول حينما أخذ في كتابة تاريخه «العبر» انه ان كان قد ذكرها حينما فانه نسيها او تناساها احيانا - والحال هو الحال فيمن أتى بعد ابن خلدون، ولعل الحال هو نفس الحال في مؤرخي عصرنا هذا وفيما يأتي بعده من عصور الي ما شاء الله

ولعل من النادر بل من الصعب ان يستطيع المؤرخ او الكاتب ان يتجرد
 عن جميع الميول والاعتبارات، ويكتب الحقائق مجردة غير متأثر بما يشعر به
 من حب وحنان، واعتبار واعجاب، او بغض واشمئزاز، واحتقار واهمال.

ولعل حياة الامم والشعوب انما هى كالروايات السينمائية تتنوع
 موضوعاتها ومغازيها، ولعل التواريخ كالأفلام تختلف مناظرها وتأثيراتها،
 ولعل المؤرخ كالمخرج لابد أن يتأثر بنفسيته وبثقافته وبالوسط الذى عاش
 أو يعيش فيه، ولعل قراء التاريخ كرواد السينما منهم من يتأثر ويتعظ، ومنهم
 من يضحك أو يسخر أو يلهو، ومنهم المفكر المعتبر المستفيد، ومنهم العبث
 الذى لا هو فى العير ولا فى النفير، واذا كان بقر الله فى ارض الله كثيرا
 وكانت لكل ساقطة لاقطة، فان فى الدنيا حكمة وعقلا، وذكاء ونبلا، وجواهر
 تستحق نحور الحور، فى أعالي القصور، والله فضل بعضكم على بعض ،
 وانما الاعمال فى النيات ... وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم. والله
 سبحانه هو المستعان

الباب الاول

وفيه فصلان :

الفصل الاول

اسم تطوان وضبطه

هذه المدينة أسست قبل ظهور الاسلام ووصول اللغة العربية الى هذه النواحي من الشمال الافريقي واسمها غير عربى لانه لا معنى له فى اللغة العربية، بل هو بربرى لان له معنى واستعمالا فى لغة البربر الذين كانوا منذ العصر الجاهلى وما زالوا حتى الآن يسكنون عدة جهات فى شمال افريقيا وخصوصا فى بلاد المغرب وهذا الاسم قد وقع الاختلاف فيه منذ عدة قرون، وقد تكلم عليه وعلى صيغته ومعناه عدد من المؤرخين، ويمكننا الرجوع فى هذا الموضوع لكلام ستة من الباحثين المغربيين نذكرهم هنا على حسب تاريخ وجودهم، وهم :

الحسن الوزان الاندلسى المغربى المعروف بليون الافريقى، والشيخ ابو على اليوسى، وصاحب المخطوط التطوانى (1) وهو من تطوان، والناصرى صاحب الاستقصا، والمؤرخان التطوانيان، ابو محمد سكيرج وأبو العباس الرهونى. أما ليون الافريقى وهو أقدم الستة المذكورين، فقد ذكر مدينة تطوان فى كتابه «وصف افريقيا» (2) وهو موجود باللغات الافرنجية وقد كتب فيه اسم هذه المدينة بالحروف الافرنجية فى اللغتين الاسبانية والفرنسية

(1) المخطوط التطوانى سيأتى التعريف به قريبا
(2) ان شئت فانظر DESCRIPTION DE L' AFRIQUE ج 2 ص 254 طبع
باريس باللغة الفرنسية سنة 1847 وص 165 من DESCRIPCION DE AFRICA
طبعة سبتة باللغة الاسبانية سنة 1952

هكذا TETTEGUIN أي تطاوين وبعد ان ذكر ان مؤسسى هذه المدينة الصغيرة هم الافريقيون الاقدمون، وان المسلمين افتتحوها فى نفس الوقت الذى افتتحوها فيه مدينة سبته، نقل عن بعضهم ان المسلمين لما افتتحوها صاروا يسمونها باسم (كونته - كونديسة) وهى امرأة عوراء كانت تأتى اليها مرة فى الاسبوع لتستخلص الجبايات من سكانها الخ. ثم ذكر ان كلمة تطاوين فى اللغة الافريقية «يعنى البربرية» معناها العين، وأن هذه البلدة كانت بها عين واحدة الخ. واما الشيخ اليوسى فقد توسع فى الموضوع وكتب بحثا ذكر فيه ان الاسماء التى تطلق على البقاع تنقسم الى قسمين، الاول لا يقصد به الا تعيين المسمى دون ملاحظة أى شىء زائد على ذلك، وهذا يجب ان ينطق به كما هو دون تغيير او تعريب . الثانى يطلق على المسمى لوجود معناه فيه ، وهذا لا مانع من تعريب لفظه الخ. ثم تعرض لاسم تطوان وقال ما نصه :

«ومن الخطأ الواقع فى هذا ايضا لفظ تطاوين، اسم للمدينة المشهورة بالساحل فانه اشتهر فى السنة كثير من المتفصحين من أهل فاس وغيرهم ان الصواب فيها تطوان بكسر التاء وسكون الطاء، وزعموا انه كذلك ضبطها الفقيه أبو محمد سيدى العربى بن يوسف الفاسى رحمهما الله فقلدوه فى ذلك وهو خطأ فاحش وفى الحديث، استعينوا على كل صناعة بأهلها، ومن حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ولا تقف ما ليس لك به علم، فحق المتكلم فى اللفظ ان لم يعرف له اصلا ولا اشتقاقا ان ينطق به كما سمع وليس فيه تصرف الا ان يكون عالما به وبأصله العربى فى العربى والعجمى فى العجمى فنقول. لفظ تطاوين وجدنا أهلها وجميع نواحيها ينطقون به بتشديد الطاء فلا موجب لتحويلها الى صيغة اخرى، ثم اذا نظرنا الى أصلها وجدنا لفظة بربرية وتلك البلاد أصلها للبربر فوجدناها موافقة لما يقولون وما ذاك الا لكونهم يتلقونها عن الآباء والاجداد وهى فى تلك جمع تيط بمعنى العين الجارية او البصيرة والبربر منهم تجمعها على هذا الجمع سواء كانت بصيرة او جارية فيقولون تطاوين فى لغتهم الآن فنظرنا فى تلك المدينة فوجدناها ذات عيون من الماء فعلمنا ان ذلك هو المراد بلا اشكال واما تطوان فلا معنى له فى لغة العرب ولا العجم والله الموفق اه. كلام اليوسى.

فاسم هذه المدينة عنده هو تطاوين، وقد رأيت انه أنكر على من يسميها تطوان وسماهم متفصحين الخ.

واما صاحب المخطوط التطوانى وهو تطوانى كما صرح بذلك فى تقييده وكان بهذه المدينة فى اوائل القرن الثالث عشر فقد قال ما نصه باختصار :

«تطاوين - جمع تط بكسر التاء وفتح الطاء المشددة وهى العين بلغة البربر جارية او غير جارية، وتصديق ايضا عندهم بعين البصر والمراد هنا الاولى بقسميها لكثرتها حتى سميت حومة منها بذلك (I) ...

ويحتمل انها سميت (بذلك) مجازا لحراسة اهلها لمن وراهم ... والنسبة اليها تطاوينى كما فى رسومها القديمة والآن يحذفون الياء ويبقون الواو (2) والروم تقول لها تطوان»

فصاحب هذا التقييد - كما ترى - يصرح بان اسم هذه المدينة فى القديم هو تطاوين، وان المتأخرين يقولون تطاون وان الروم هم الذين يسمونها تطوان .

واما الناصرى صاحب الاستقصا فانه يذكر هذه المدينة دائما باسم تطاوين وقد تعرض لمعنى هذه الكلمة فقال ما نصه (3) قالوا ولفظ تطاوين مركب من كلمتين «تيط» ومعناها فى لسان البربر العين، و «وين» وهى كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما اشبه ذلك. قالوا والسبب فى تسميتها بذلك انهم فى وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل او بالنهار «تطاوين» تطاوين، اى يا فلان افتح عينك لان عادة الحرس ان يقول ذلك فصار هذا اللفظ علما عليها، ويظهر ان هذا من كلام العامة ولا اصل له ، وكذا قول بعضهم تيط معناها العين و وين معناها المقلة ومجموع الكلمتين مقلّة العين والاضافة مقلوبة كما هى فى لسان بعض الامم العجمية فانه لا مستند له والله تعالى اعلم «

وأما أبو محمد سكيرج فانه اقتصر على ان اسم هذه المدينة هو «تطوان» وذكر ان هذا اللفظ غير عربى وان لفظ «طيّط» معناه «العين» ولفظ «وان» معناه «نظر» ثم اشار الى ما يقال من ان سكانها كانوا ينادى بعضهم بعضا اثناء الحراسة بتلك الكلمة كما ينادى الحارس بياعساس اى يا حارس تنبه او افتح عينيك الخ ولم يعرج السكيرج على لفظ تطاوين. وسمى تأليفه ، (نزهة الاخوان فى الاخبار الواردة فى بناء تطوان) واما استاذنا الرهونى فانه ارتضى اسم تطاوين ، ولذلك سمي تاريخه «عمدة الراوين فى تاريخ تطاوين» وقد عقد للكلام على اسمها فصلا استهله بقوله : «اعلم حفظك الله ان اسمها تطاوين، هكذا انفصل عليه علامة الدنيا سيدى الحسن اليوسى رضى الله عنه

(I) اى ان فى تطوان حومة اسمها «العيون» وهذه الحومة لا تزال معروفة بهذا الاسم الى الآن.

(2) اى يقولون فى اسم هذه المدينة تطاون وفى النسبة اليها «تطاوينى» والنسبة اليها بهذه الصيغة هى التى نجدها فى جل الرسوم العدلية المكتوبة فى القرنين الماضى والحالى.

(3) الاستقصا ج 2 ص 46

فى جواب له ... ثم اثبت كلام اليوسى بطوله، وعقب عليه بقوله : «اقول هذا الاسم على هذا الوجه - يعنى تطاوين - هو الموجود الى الآن وحتى الآن فى السنة أهل البلدة وجيرانها الباقين على أصل الفطرة المتلقين لذلك عن اسلافهم حسبما هو معروف بالاستقراء ولا ينطق بتطوان او يكتبها الا من يروم التصفح والتشديق لولوع الناس بالجديد ومخالفة الاصل السيد فطرة الله التى فطر الناس عليها والله أعلم. وأيضا لا زال برابرة الريف يعبرون عن العيون بتطاوين حسبما هو مشاهد فى أسنتهم منه قولهم فى السب تطاوين فيفرا اى عيون الحية ، وتطاوين أمشوم، اى عيون النحيس. وما ذكره اليوسى فى وجه تسمية هذه البلدة، يؤيده انه لا زال قسم منها يسمى بمرادف هذا الاسم من العربى وهو العيون لكثرة وجودها فيه. ثم قال الرهونى «وبعد هذا التحقيق لا يلتفت لما قاله السكيرج فى تقييده ثم اثبت نص كلام السكيرج وزيفه .

والخلاصة عن اسم هذه المدينة :

اولا : انه غير عربى بل هو بربرى

ثانيا : ان معناه له علاقة بالعيون، اما العيون الجارية بالماء واما العيون المبصرة .

ثالثا : ان اصله مكون من حروف ت. ط. ا. و. ن. ثم تختلف لهجة النطق بتلك الحروف باختلاف اللهجات والجهات، وهذا الاختلاف لا زال واقعا الى وقتنا هذا فساكن هذه المدينة كساكن بعض القبائل الجبلية القريبة منها وأهل جل المدن يقولون فى محادثاتهم العادية ، تطاون بواو محركة بحركة لا هى ضمة ولا فتحة ولا كسرة. وساكن عدد من القبائل الجبلية وخصوصا فى الناحية الغمارية يقولون «تطاوان» بفتح الواو.

وجل ساكن القبائل الريفية يقولون «تيطاوين» بكسر الواو، وهذا الاختلاف فى اللهجة كما رأيت هو الذى جعل المؤرخين القدماء يكتبون اسم هذه المدينة بصيغ مختلفة كما سترى. وقد تتبعت ذلك فى مختلف الكتب والرسوم فوجدت تلك الصيغ تبلغ سبعا وهى :

1 - تطوان

2 - تطاون

3 - تطاوين

4 - تيطاوين

5 - تطاوان

6 - تيطاوان

7 - تيطاون

ودونك بيان ذلك.

(I) تطوان : بكسر التاء وسكون الطاء وفتح الواو، ولا أعرف بالتدقيق تاريخ اطلاق هذا الاسم على هذه المدينة، ويظهر انه غير قديم جدا وان كان غير حديث جدا ايضا، لانه كان مستعملا في القرن العاشر للهجرة، وقد ورد في كتاب دوحه الناشر لابن عسكر المتوفى سنة 986. وان شئت فانظر فيه ترجمة القاضي ابي عبد الله الكراسي (I) والشيخ الجاسوس (2) وورد بهذه الصيغة ايضا في كتاب درة الحجال لابن القاضي المتوفى سنة 1025 وانظر ان شئت ترجمة القاضي محمد الرزيني رقم 615 (3) وورد كذلك ايضا في نزهة الحادي لليفرني (4) .

وقد علمت ان الشيخ اليوسي نقل ان سيدي العربي الفاسي ضبطها كذلك ومعلوم انه توفي عام 1052.

وورد ايضا في كتاب الدولة السعدية (5) المؤلف في القرن الحادي عشر؛ بل ورد كذلك ايضا في كتاب القرطاس لابن ابي زرع المؤلف في القرن الثامن الا ان استاذنا الرهوني يرى ان ذكرها في هذا الكتاب بهذه الصيغة انما هو من تفصح الناسخ.

(2) تطاون: بقاء محرك (6) فطاء مشددة مفتوحة فألف فواو محرك. وقد وردت هذه الصيغة في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي الذي ولد في القرن الخامس وتوفي سنة 560

ووردت كذلك في كتاب درة الحجال، وانظر ان شئت ترجمة ابي القاسم القسنطيني رقم 1344. (7) ووردت ايضا في كتاب الدولة السعدية في عدة

(I) ص 17 طبع فاس سنة 1309

(2) ص 34 طبع فاس سنة 1309

(3) ج I ص 167 وص 227

(4) ص 202

(5) هذا الكتاب لا يعرف اسم مؤلفه وقد اعتنى بنشره المستشرق م. جورج كولان وطبعه برباط الفتاح عام 1353 هـ. 1934 م. وانظر ان شئت ص 67 منه.

(6) قد اصططلحت اصطلاحا خاصا «ولا مشاحاة في الاصطلاح» على ان الحركة الرابعة الزائدة في اللغة العامية على الضمة والفتحة والكسرة ، اسميها «بالحركة» وان الحرف المشكول بها اصفه بمحرك كما نقول في الحرف المحرك باحدى الحركات الثلاث، مضموم او مفتوح او مكسور ، وفي الحرف المسكن ، ساكن. وهذه الحركة الرابعة كثيرة الاستعمال في كلام العامة في جميع العالم العربي وهي حركة غير الحركات الثلاث المعروفة في كتب النحو وغير السكون ايضا.

(7) ج 2 ص 465 طبعة الرباط سنة 1934

مواضع (I) كما وردت أيضا في كتاب نفح الطيب للمقرئ (2) بل كانت هذه الصيغة معروفة حتى في القرن الثامن لأنها وردت في مقدمة ابن خلدون (3) كما وردت أيضا في كتاب مرآة المحاسن (4) وهذه الصيغة هي المستعملة إلى الآن بهذه المدينة ونواحيها وربما نطق بعض الناس بها هكذا تسطاون بسين بين التاء والطاء وهذه السين إنما هي ناشئة عن النطق الخاص بالتاء لدى أهل الحضر في فاس وتطوان وغيرهما من مدن الشمال المغربي

(3) تطاوين : بتاء مكسورة فطاء مشددة مفتوحة فألف فواو مكسورة ثم ياء فنون - وقد علمت أن هذه هي الصيغة التي ينطق بها سكان جل القبائل الريفية وهي التي أيدها العلامة اليوسى وارتضاها شيخنا الرهونى ولا يكاد الناصرى في الاستقصا يستعمل غيرها

(4) تيطاوين : مثل الصيغة التي قبلها مع زيادة ياء بين التاء والطاء وقد ذكر الصيغة العلامة ابن خلدون في تاريخه (5) وهذه الصيغة أيضا وردت في كتاب «البديق» ومؤلفه من رجال القرن السادس كما هو معلوم، كما وردت أيضا في كتاب النفحة المسكية في الرحلة التركية (6)

5 تطاوان جاءت هذه الصيغة في كتاب المسالك والممالك (7) لأبى عبيد البكرى الأندلسى وهو من رجال القرن الخامس (6) تيطاوان جاءت هذه الصيغة في كتاب المسالك والممالك أيضا (8) وفي كتاب الأستبصار في عجائب الأمصار وهو مؤلف في القرن السادس، وفي كتاب النفحة المسكية (9) لأبى الحسن على التمجروتي وقد زارها عام 997

-
- (I) ص 25 - 60 - 192 النخ.
 (2) ج 2 ص 617 طبع مصر سنة 1302
 (3) انظر ان شئت كلامه على الاقليم الرابع في المقدمة الثانية من الباب الاول. وقد صحفت لفظة تطاون في بعض النسخ فأبدلت تأوها قافا كما انها وردت في بعض نسخ المقدمة باسم تطاوين انظر ان شئت طبعة باريس سنة 1858 ص 118
 (4) ص 216 - طبع فاس سنة 1324
 (5) ج 4 ص 14 و ج 7 ص 237 طبعة مصر
 (6) ص 11
 (7) ص 106 - 107 - 130 - طبع الجزائر سنة 1911 .
 (8) ص 100 - 108 - 115 النخ
 (9) ص 12 و ص 184

(7) تيطاون : هكذا وردت عند الكلام على حوادث سنة 347 من كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى (I) ووردت ايضا كذلك فى مواضع متعددة من كتاب مناهل الصفا لمؤرخ الدولة السعدية ابى فارس عبد العزيز الفشتالى وفى كتاب «لقطة الفرائد» لابن القاضى وفى النفحة المسكية (2) وما تقدم كما رأيت، كله فى كتب التاريخ. أما فى الوقت الحاضر، فان جل الناس وخصوصا اهل العلم والثقافة، لا يستعملون من تلك الاسماء الا (تطوان) وخصوصا فى الكتب والصحف والرسائل ومختلف الوثائق الرسمية وغيرها . والنسبة اليها تطوانى . أما أصل هذا الاسم ومعناه وتاريخه فلا يصح فى ذلك شىء، ولا ارى انه ينبى عليه شىء . والعوام وأهل البادية يقولون تطاون والنسبة اليها تطاونى (3) .

وأما فى اللغات الاجنبية، فيكتب اسم هذه المدينة فى اللغات الاسبانية والانجليزية والالمانية والايطالية هكذا TETUAN وفى اللغة الفرنسية تكتب هكذا TETOUAN

هل توجد مدن أخرى تسمى باسم تطوان

توجد فى القطر التونسى قرية تسمى «فم تطاوين» هكذا يكتبها التونسيون ويكتبها الفرنسيون هكذا TATAHOUINE وقد جاء عن هذه القرية فى كتاب الجغرافية التونسية (4) ما يلى :

(I) ج I ص 222 طبعة ليدن سنة 1948

(2) ص I2 - I3

(3) الحمد لله. احتاط المؤلف أيده الله لضبط كلمة تطوان بجلب ما لها وما عليها، وما نسب قديما وحديثا اليها، نعم وبغير تلثم نقول، تطوان بوزن صنوان، هى الصيغة الشائعة فى عصرنا، ومن عهد ليس بقريب فى علمنا، وعقود الشهود، وصكوك الوثائق والرسوم بالعمل المشهود، كاف فى الحجة، بهذه المحجة، وما صدح به بلبل العلامة اليوسى فى الموضوع، لا تخش أن تقول هو مجرد تلفيق مصنوع، اذ العلماء مصدقون فيما ينقلون، مبحوث معهم فيما يقولون، والتنويه بما ليس له سند ولا يعتمد، تعريج على مآل، اعرف الحق بالرجال، عكس الحقيقة فى المجال، فان الرجال بالحق يعرفون، وبه يوصفون. وكتب محمد سكيرج لطف الله به.

أهل تطاون أعرف باسم بلدهم من غيرهم، وهم كانوا ولا يزالون ينطقون بها «تطوان» واذا تكلم بعضهم مع بعض يخلطون أن يسموها «تطوان» ومن نطق بذلك عد ثقيلا متكلفا. أما غير التطاوينيين فلهم أن ينطقوا بها كما أرادوا ت. و. (4) تأليف المختار السماوى ومحمد كمون ص 32 طبع تونس سنة

I354 - I927

«وفي اقصى الجنوب توجد قريتا مدنين وفم تطاوين وهما مرگزا بريد عند ابتداء الصحراء وبهما اسواق معدة لتبادل المصنوعات الاوربية بالنتائج المختلفة الواردة من السودان كريش النعام وعظم الفيل وجلود الحيوانات الوحشية الثمينة وغيرها الخ. وفي سنة 1376 هـ. 1957 م. كان عدد سكان هذه القرية 2599 نسمة .

وفي ناحية مدريد عاصمة اسبانيا، توجد مدينة صغيرة تسمى تطوان ويسمىها الاسبانيون TETUAN DE LAS VICTORIAS

موقع تطوان من بلاد المغرب

«تطوان» مدينة من مدن «المغرب» وقطر المغرب كما هو معلوم يقع في الشمال الغربى للقارة الافريقية ويحده شرقا قطر الجزائر وغربا المحيط الاطلسى وشمالا البحر الابيض المتوسط وفي جنوبه تقع الصحراء الكبرى التى تحد ببلاد السودان .

وهذا القطر هو الذى كان العرب قديما يسمونه «المغرب الاقصى» اى الابعد. لانه كان أبعد ما هو معروف من البلاد الواقعة غرب البلاد العربية، اذ كانوا يقسمون المغرب العربى الى ثلاثة اقسام :

المغرب الادنى وهو «تونس» وربما أطلق ايضا على طرابلس - القطر الليبى -

المغرب الاوسط وهو «الجزائر»

المغرب الاقصى وهو «المغرب» الآن.

وقد اصطلح عدد من الشرقيين على اطلاق اسم «مراكش» على قطر «المغرب» وهو اصطلاح لا تؤيده ولا نحبذه (I) بل نفضل ان يكون الاسم الرسمى لوطننا المحبوب هو «المغرب» لا مراكش ولا المغرب الاقصى وذلك لاسباب .

منها ان لفظ «المغرب» عربى معروف المعنى مطابق للواقع لان هذا القطر كما قلنا يقع فى غرب بلاد العرب التى هى مركز العروبة ومهبط الوحي، اما لفظ مراكش فغير عربى ولا معنى له مطلقا فهو غريب اللفظ عديم المعنى . ونحن نفضل اللفظ العربى الصحيح الموافق للغة القرآن الكريم، على لفظ غريب لا معنى له ولا مغزى.

(I) اطلاق مراكش على المغرب ليس بتقديم وانما هو انتحال من بعض المستشرقين الوافدين وتابعهم عليه فى زماننا هذا غالب الشرقيين والله در المؤلف فى عدم تحبيذه واستنكافه من تأييد استعماله وتشبيده م. م.

ومنها ان لفظ مراکش اذا اطلق فى بلاد المغرب « بدون استثناء »
فانه لا ينصرف الا للمدينة المسماة بهذا الاسم وهى الواقعة
فى الجنوب المغربى ، وجميع سكان المغرب « ما عدا اهل المدينة
المذكورة » اذا قلت لاحدهم هل انت مراكشى يقول لا - لانه يفهم انك تنسبه
للمدينة المذكورة - ويقول لك بل انا فاسى او مكناسى او سلوى او رباطى
مثلا، او يقول لك بل انا مغربى، ومن التعسف ان يطلق على اى قطر من
الاقطار اسم لا يطلقه عليه اهله بل يوقع سامعه فى الالتباس او الخطأ ...
ونرى أنه لا موجب الآن لوصف المغرب «بالاقصى» ما دامت كلمتا المغرب
الادنى والمغرب الاوسط لم يبق لهما استعمال، للاستغناء عنهما بكلمتى
«تونس» و «الجزائر» .

والمسألة مسألة تعود، فاذا تعود اخواننا الشرقيون (هداهم الله) اطلاق
لفظ «المغرب» على هذا القطر فى صحفهم وكتبهم كما يطلقون على القطرين
المجاورين لفظتى «تونس» و«الجزائر» وصاروا اذا ارادوا النسبة لاحد هذه
الاقطار الثلاثة التى يتكون منها المغرب العربى، يقولون، «تونسى» او «جزائرى»
او «مغربى» صار ذلك عاديا عندهم وعند الناس اجمعين وصار لفظ مراکش كما
كان فى الاصل، خاصا بالمدينة المشهورة حفظ الله أهلها ورحم مؤسسها
سلطان المغرب ومنقذ الاندلس يوسف بن تاشفين حيا الله عهده، عهد الشرف
والعز والبطولة والمجد .

ومن المعلوم أن الاجانب هم الذين حرفوا لفظ مراکش وصاروا يطلقونه
على جميع قطر «المغرب» (I) ولعل اخواننا الشرقيين مقلدون لهؤلاء الاجانب فى
ذلك. فاسم المغرب عند الاسبانيين هو MARRUECOS وعند الفرنسيين MAROC
وعند الانجليزيين MOROCCO وعند الالمانيين MAROKKO MAROCCO
وعند الايطاليين MAROCCO ولى هنا اقتراح أرجو الله تعالى ان يوفق لتنفيذه

(I) يظن أن تسمية الاجانب للمغرب بمراكش، سببها ان مراکش (المدينة)
كانت عاصمة المرابطين والموحدين، الذين كان لهم ذكر صائت فى اوربا،
واعتادوا ان يطلقوا على ملك المغرب اسم «سلطان مراکش» نسبة الى عاصمة
ملكه، وشاعت هذه التسمية، حتى توهم الناس ان مراکش اسم القطر وليس
اسم المدينة، والا فما عرف التاريخ ان المغرب سمي «مراكش» قبل بناء هذه
المدينة .

وها نحن فى انتظار الدولة المغربية الفتية ان تصدر امرا تبين فيه ان
تسمية البلاد انما هى «المغرب» وليست «مراكش» بحيث ان من كتب «مراكش»
يعنى بها المغرب لا تحمل رسائله فى البريد، ولا تعتمد فى المواصلات ، ولا
فى وجه من وجوه الاقتصاد . وقد فعلت تركيا ذلك فى اصطنبول فحررتها من
كلمة «قسطنطينية» وهذا يتم اذا تخلصت البلاد من المتفرنسين الذين يحتقرون
كل شىء اسلامى عربى
ت. و.

حكومتنا المغربية الوطنية الناهضة الحازمة، وهو أن تصدر مرسوما تعلن فيه رسميا لدول العالم باللغتين، العربية والافرنجية، أن اسم وطننا هو «المغرب» هكذا يكتب بالحروف العربية، أما فى اللغات الافرنجية كلها بدون استثناء فيكتب هكذا : ALMAGREB بدل ماروك ومرويكوس وموروكو الخ. اللهم اهد حكومتنا واهد اخواننا الشرقيين ءامين .

ومدينة تطوان تقع فى الشمال الغربى من بلاد «المغرب» وشاطئ البحر الابيض المتوسط يقع شرقيها ويبعد عنها بنحو عشر كيلومترات. ومدينة سبتة «المغربية الاصل» المشرفة على بوغاز جبل طارق، تقع شمالى تطوان وتبعد عنها بنحو أربعين كيلومترا . ومدينة طنجة الواقعة على المحيط الاطلسى تقع غربى تطوان وتبعد عنها بنحو ستين كيلومترا. ومدينة شفشاون تقع جنوبيها وتبعد عنها بنحو ستين كيلومترا . ومدينة مليلية «المغربية الاصل ايضا» تقع فى الجهة الشرقية منها وتبعد عنها بنحو 430 كيلومترا ومدينة اصيلا الواقعة على المحيط الاطلسى تقع فى الجهة الغربية منها وتبعد عنها بنحو ثمانين كيلومترا . ومدينة العرائش كذلك وتبعد عنها بنحو مائة كيلومتر . ومدينة القصر الكبير تقع جنوبى تطوان وتبعد عنها بنحو مائة وأربعين كيلومترا . وكذلك مدينة وزان ، وتبعد عن تطوان بنحو مائة وأربعين كيلومترا عن طريق شفشاون، وبين مدينتى تطوان وفاس «عن طريق القصر الكبير» نحو 300 كيلومتر. (I) وبين تطوان ومكناس نحو 280 كيلومترا وبين تطوان وسلا مع رباط الفتح نحو 300 كيلومتر. وبينها وبين مدينة الدار البيضاء نحو 400 كيلومتر . وبينها وبين مدينة مراكش الواقعة فى اقصى الجنوب الغربى، نحو 630 كيلومترا .

فمدينة تطوان واقعة فى الشمال الغربى لبلاد المغرب، الواقعة فى الشمال الغربى من قارة افريقيا. وهى حسب اصطلاح الجغرافيين القدماء واقعة فى الاقليم الرابع الذى يصفه ابن خلدون بأنه أعدل العمران، ويصف سكانه بأنهم اعدل اجساما وألوانا واخلاقا.

وضعية تطوان

وقد كانت «تطوان» فى جميع اطوارها منذ تشرفت بالاسلام وطلعت عليها شمس العروبة المجيدة السمحاء ، مدينة عربية اللغة والثقافة مغربية الجنسية تابعة فى حكمها للسلطة المغربية الاسلامية، فلم تحكمها السلطة الاجنبية الا

(I) اى الطريق المعتاد سلوكه الآن وتوجد طريق بالجبل بين تطوان وفاس على أقل من ثلث هذه المسافة ولكن الآن لا يسلكها الا المشاة. م. س.

فى الحرب الاسبانية المغربية التى كانت عام 1276 هـ. 1860 م. فلما انعقد الصلح بين دولتى المغرب واسبانيا عاد الى تطوان، الحكم الاسلامى المغربى الخالص واستمر ذلك الحكم بها الى ان نشرت الحماية الاسبانية والفرنسية على جميع المغرب، فاذ ذاك استقرت السلطة الاسبانية بتطوان ونواحيها وكان ذلك عام 1331 هـ. 1913 م. واذ ذاك ألفت فى هذه المدينة حكومة وطنية - على رأسها خليفة عن سلطان المغرب - تحت حماية الدولة الاسبانية، ومن ذلك الحين صارت «تطوان» عاصمة شمال المغرب الذى كنا نطلق عليه مؤقتا اسم «المنطقة الخليفة» كما كنا نطلق على بقية بلاد المغرب اسم «المنطقة السلطانية»

اما الاجانب فكانوا يسمون شمال المغرب بمنطقة الحماية الاسبانية ، كما كانوا يسمون جنوب المغرب باسم منطقة الحماية الفرنسية، وكان بعض المتعصبين منهم قبل ذلك يسمى الاولى بالمنطقة الاسبانية، والاخيرة بالمنطقة الفرنسية كما كان بعض الاغبياء قبل ذلك ايضا يسمى الاولى بالمغرب الاسباني والثانية بالمغرب الفرنسي ...

وكم كنا نأسف حينما كنا نرى بعض اخواننا الشرقيين يقلدون اولئك الاغبياء فى تلك التسمية السخيفة التى كان أصحابها يجهلون الحقيقة التى هى أن المغرب ما كان منذ أشرقت شمس الاسلام عليه، الا قطرا اسلاميا عربيا ولن يكون ابدا الا قطرا اسلاميا عربيا، وان وجود السلطات الاجنبية فيه انما كان بمقتضى معاهدات قانونية، واتفاقات دولية، وبصفة مؤقتة لها غاية، ولمدة محدودة لا بد لها من نهاية يسود بعدها الاتفاق والوثام، وتزول اسباب الشقاق والخصام واذ ذاك يعيش المغرب حرا مستقلا قويا عالما غنيا عزيزا الجانب عظيم المكانة متفقا مع اصدقائه الحقيقيين متعاوننا معهم، يوالى من يحترمه ويواليه ويجافى من يناوئه ويعاديه، وما ذلك على الله سبحانه بعزيز (I)

هل ألفت كتب فى تاريخ تطوان ؟

هل توجد مؤلفات فى تاريخ تطوان ؟ وهل طبع شىء من تلك المؤلفات ؟ هذان سؤالان ألقيا علي وعلى غيرى مرارا، والجواب أنه الى الآن لم يطبع باللغة العربية اى كتاب مؤلف فى تاريخ تطوان، الا أنه يوجد فى الموضوع كتابان، أحدهما للفقيه السكيرج التطوانى، والاخر للفقيه الرهونى التطوانى.

(I) تركت هذه الفقرات كما كتبت أولا فى عهد حمايتين حفظا لعواطفنا وآمالنا فى ذلك العهد .

أما كتاب السكيرج فالظاهر أنه يقع في جزء واحد صغير الحجم (I) ولم أقف على نسخة كاملة منه حتى الآن، وقد اثبت شيخنا الرهونى في تاريخه جل ما احتوت عليه الأوراق الموجودة من هذا الكتاب الذى لا ندرى هل تم تأليفه ام لا ؟

وأما تأليف شيخنا الرهونى فهو كتاب تام يقع فى عشرة اجزاء متوسطة الحجم، وقد أعارنى مؤلفه رحمه الله نسخته الاصلية التى كتبها كلها بخطه ، فطالعتها ونقلت منها فوائد كثيرة استفدت منها عند تأليف كتابى هذا فى مواضع عديدة .

وقد وقفت ايضا على تقايد مختلفة فى مجاميع واوراق مخطوطة فيها كلام قليل او كثير على تطوان وبعض متعلقاتها من سكان وحوادث واخبار وهذه التقايد منها ما عرف كاتبه ومنها ما جهل، وسأنسب كل شىء لصاحبه او لمحله كلما نقلت شيئاً من ذلك فى كتابى هذا بحول الله. ودونك وصفا موجزا لكتابى السكيرج والرهونى والتقايد التى استفدت منها فى الموضوع .

«نزهة الاخوان» - تأليف السكيرج

مؤلفه هو الفقيه العدل ابو محمد عبد السلام بن احمد سكيرج التطوانى ولد فى أواسط القرن الثانى عشر بمدينة تطوان وبها نشأ وقرأ القرآن وبعض العلوم على شيوخها ثم انتقل الى فاس وقرأ بها مختلف العلوم ايضا على شيوخ القرويين ثم رجع الى بلده تطوان حيث قضى عمره الطويل مشغلا بحرفة العدالة وربما اشتغل فى بعض الاوقات بالتدريس وبالتوقيت وكان له خط جميل وقفت عليه فى كثير من الوثائق العدلية المتقنة المحررة

وقد ألف فى تاريخ تطوان كتابا فيه فوائد تاريخية لم توجد فى غيره ، وعنه نقلها من كتب عن تطوان من بعده، الا ان فيه معلومات خرافية خيالية، ولغته بسيطة، وفيه الفاظ وتعبيرات عامية وجمل كثيرة مكررة، مما يدل على ان صاحبه لم ينقحه تنقيحا. وقد اطلعنى شيخنا الرهونى على نحو ثمانين صفحة من هذا الكتاب فوجدت مؤلفه يقول فى مقدمته ما نصه :

«وبعد فقد طلب منى بعض الاخوان، ان اجمع له ما افترق من احاديث تطوان، وما والاها من الاخبار الحسان، ومن حكم فيها من الحكام طول الزمان ، وذكر الاولياء الذين لهم هناك أضرحة، والعلماء السالكين فيها سبل الانصحة، فاعتذرت له جهدى فلم يقبل عذرى فقامت على ساق وعزم، وشمرت عن ساعد

(I) بل هو فى جزءين كل جزء من المربع لا يقل عدد أوراقه عن 250 .
قاله من كان يملكه واختلس من خزانته محمد بن العياشى سكيرج كان الله له.

حزم، مستعينا بالله الجواد الحكيم القدير، انه نعم المولى ونعم النصير ،
ولا حول ولا قوة الا بالله سبحانه، اذ هو العليم الخبير، وسميته :
«نزهة الاخوان، وسلوة الاحزان، فى الاخبار الواردة فى بناء تطوان،
ومن حكم فيها او تقرر (I) من الاعيان» وفصلته على فصول، ليعلم من يمه
من اين الدخول، والى اين الوصول»

ثم عقد الفصل الاول وذكر فيه تاريخ البناء الاخير لتطوان وهو الذى قام
به بعض الاندلسيين سنة 888 عقب هجرتهم من الاندلس الى المغرب، وذكر
ايضا تاريخ بناء بعض مساجدها واقسامها ثم تكلم على بعض ولايتها بالاجمال
ثم توسع فى الكلام على ولاية القائد النقسيى التطوانى والقائد الحمامى
الريفى والفقير عمر لوقش الاندلسى التطوانى، وتكلم على الحرب الاهلية
المشؤمة التى قتل فيها بتطوان آلاف من الناس، وهى المعروفة «بعيطة السبت»
ثم تكلم على بقية القواد الذين حكموا تطوان وتواريخ بعضهم وذكر بعض اعمالهم
الى عهد القائد محمد اشعاش الذى كان حاكما بتطوان فى عهد السلطان مولاي
عبد الرحمن بن هشام وهو زمن تأليف الكتاب، اى ان المؤلف كتب تأليفه او
زاد فيه وقد تجاوز الثمانين او التسعين من عمره .

وقد استطرد السكيرج فى هذا الفصل اخبارا ونوادير وغرائب عن سلاطين
المغرب وبعض حوادثه ولكن بدون تثبيت فى النقل ولا تعمق فى البحث، ولا
استقراء للحوادث المهمة، وقد استغرق ذلك نحو اربعين صفحة .

ثم عقد فصلا آخر ترجم فيه للعلماء الذين قرأ عليهم بتطوان وفاس فذكر
من شيوخه بتطوان، الفقهاء، الحايك، وابن قريش، وابن رحمون، والجنوى ،
وابن عجيب، ومدينة، والرشاي، وافيلال، وابن ريسون الخ. ومن شيوخه بفاس
الشيخ التاودى بن سودة والشيخ محمد بنانى محشى الزرقانى الخ. وقد
استغرق الكلام على هؤلاء الشيوخ نحو ثلاثين صفحة ، وهنا يقع البتر فى النسخة
التى وقفت عليها.

ثم نجد فصلا آخر لم نقف على اوله، ويظهر أنه عقده للكلام على صلحاء
تطوان وعلمائها، وهنا نجد الكلام على السادات: الفاسى، وابن مرزوق، ومصباح،
والصعيدى، واليوسفى، وابن ريسون ، وكرازو وغيلان ، وقد استغرق ذلك نحو
عشر صفحات . وهنا ينتهى ما فى النسخة المذكورة ، وهى نسخة استاذنا
الرهونى وقد كتبت بخطوط مختلفة منها الجيد ومنها الرديء المصحف الذى
لا يكاد يقرأ .

وكانت وفاة الفقيه سكيرج مؤلف هذا الكتاب بمدينة تطوان عام 1250
رحمه الله .

«عمدة الراوين» - تأليف الرهونى

اسم هذا الكتاب هو «عمدة الراوين» ومؤلفه هو شيخنا الفقيه العلامة المشارك قاضى القضاة ووزير العدلية سابقا ابو العباس احمد بن محمد الرهونى التطوانى من أجل علماء المغرب فى عصرنا. ولد «رحمه الله» بتطوان يوم الاربعاء ثامن جمادى الاخير عام 1288 . وقد نشأ بهذه المدينة وبها قرأ القرآن والعلوم الإسلامية العربية ثم ارتحل الى فاس فقرأ على شيوخها ثم رجع الى بلده تطوان فتولى بها وبغيرها جملة وظائف ما بين عدالة وفتوى وقضاء ووزارة ثم شغل وظيف مفتش للتعليم الاسلامى ثم عين رئيسا للمجلس الاعلى للتعليم المذكور الى ان توفى رحمه الله .

وقد ألف كتباً عديدة فى مختلف العلوم ، وكتابه فى تاريخ تطوان يختلف تمام الاختلاف عن كتاب السكيرج، سواء فى حجمه او فصوله او أسلوبه، ويصح أن يوصف بأنه موسوعة جمع فيها المؤلف ما وقف عليه من تاريخ مدينة تطوان وسكانها وكل ما له علاقة بذلك وبحياته العلمية ، ومعلوماته التاريخية مع استطرادات كثيرة استغرقت جل الكتاب ، وهذه الاستطرادات كلها تلخيصات مفيدة فى موضوعها خصوصا وان اصولها ليست فى متناول جميع الناس.

وكتاب «عمدة الراوين» يحتوى على عشرة اجزاء ، ويظهر ان مؤلفه أخذ فى تأليفه وترتيب فصوله عام 1342 . لانه يذكر فى آخر المجلد الاول منه أنه فرغ من جمعه فى 14 ربيع الثانى عام 1343 . وفى آخر المجلد الثانى انه فرغ منه فى ربيع الاول عام 1344 . وفى آخر المجلد الخامس انه فرغ منه فى محرم عام 1343 وفى آخر المجلد السابع انه فرغ منه فى رمضان عام 1344 الهج. وفى أماكن داخل الكتاب يذكر بعض حوادث سنة 1349 . وهكذا يظهر بوضوح أن الكتاب ألف فى العقد الخامس من هذا القرن - أى بين 1340 و 1350 - الا أنى رأيت المؤلف يزيد فيه وينقص منه ويصلح تواريخ ويتدارك حوادث واخبارا ومعلومات بعد التاريخ المذكور بعدة سنين. والموجود الآن من هذا الكتاب ثلاث نسخ كاملة لا رابع لها فيما أعلم حتى الآن (1374 - 1954) وهذا بيانها :

النسخة الاولى كتبت كلها بخط المؤلف نفسه وهى فى عشر مجلدات بخط واسع فى ورق جيد متوسط الحجم . وهذه النسخة هى الاصل وعنها نقلت النسختان الاخيرتان. وهى الآن محفوظة فى قسم المخطوطات بالخزانة العمومية التى هى ملك للحكومة بتطوان . وكان المؤلف قد باعها فى اواخر عمره لاحدى ادارات الحماية الاسبانية حينما اشتدت به الضائقة المالية وكثرت عليه الديون والامر لله.

النسخة الثانية تقع فى عشر مجلدات ايضا كلها مكتوبة فى حياة المؤلف وتحت اشرافه بخط جميل واسع ايضا فى ورق جيد كبير الحجم، وناسخها

هو الفقيه الكاتب مولاي الطيب العلوي المتوفى بتطوان فى العقد السادس من هذا القرن . وهذه النسخة كان المؤلف قد أهداها لبعض الدوائر الرسمية ثم تقلبت الاحوال فعادت الى يد المؤلف فأهداها لصديقنا ورفيقنا الاستاذ المجاهد المخلص السيد عبد الخالق الطريس سنة 1356 هـ والآن فى ملكه حفظه الله . وربما وجد اختلاف طفيف بين النسختين وان كانت الثانية منقولة عن الاولى ، لان المؤلف كما قلنا كان ينقح النسخة التى بخط يده من حين لآخر كما أن النسخة الثانية ربما وجدت فيها طرر وتصحيحات تاريخية كتبها بعض المطالعين لها فانفردت بذلك دون نسخة المؤلف .

النسخة الثالثة تقع فى عشرة اجزاء جلدت فى ثلاث مجلدات وكل جزء من الاجزاء العشرة يتراوح عدد صفحاته «المخطوطة» بين المائة والخمسين والمائتين، وهذه النسخة ورقها وخطها عاديان، وقد كتبت لى بخطوط اشخاص مختلفين .

فالجزء الاول مكتوب بخطي، وقد نقلته من خط المؤلف عام 1344. أى بعد تأليفه بعام واحد، والجزء الثانى كتبه بخطي ايضا من نسخة المؤلف عام 1344. أى فى سنة تأليفه نفسها . والجزء الثالث جله بخطي وبعضه بخط المرحوم الاستاذ عبد السلام بن جلون (المتوفى بتطوان فى 18 شوال عام 1356) وكان فى تاريخ نسخه تلميذا لى بالمدرسة الاهلية .

والجزء الرابع بعضه بخطي وبعضه بخط الاستاذين محمد بن علال عزيزان، ومحمد بن عبد السلام الدليرو وكانا وقت نسخه من تلاميذى بالمدرسة الاهلية ايضا .

والجزء الخامس اوله بخطي وجله بخط الفقيه السيد عبد الرحمن القطان وكان وقت نسخه وهو عام 1361 موظفا بالمعارف فى تطوان حينما كنت مديرا لها. والجزء السادس اوله بخط الفقيه العدل السيد عبد الرحمن بروحو ، (وكان فى تاريخ نسخه كاتباً لى بادرة المعارف) وجله بخط الفقيه القطان المذكور .

والجزء السابع كله بخط الكاتب الشريف سيدى عبد الله ابن الشيخ سيدى ادريس الحراق ، وكان زمن نسخه وهو عام 1361 كاتباً لى بادرة المعارف ايضا .

والجزء الثامن كله بخط الفقيه القطان المذكور .

والجزء التاسع كله بخط الشريف الحراق المذكور .

والجزء العاشر ابتداءه القطان فتوفى رحمه الله فأكمل نسخه الطالب السيد محمد عزوز عام 1362 . وكان فى ذلك العهد من موظفى ادارة المعارف ايضا ثم تولى القضاء بغمارة وتوفى قاضيا بها .

وهذه النسخة هي الآن فى خزانتى «الداودية» والاجزاء الاربعة الاول منها منقولة من خط المؤلف، والستة الباقية منقولة من النسخة الثانية التى كتبها المرحوم مولاي الطيب العلوى . وهذا بيان فصول هذا الكتاب ومحتوياته نجد فى اول الجزء الاول منه بخط مؤلفه ان اسمه عمدة الراوين ، فى التعريف ببعض علماء وصلاحاء تطاوين لعبد ربه احمد الرهونى لطف الله به ثم نجد المؤلف نفسه يكتب بخطه فى مواضع اخرى ان اسم الكتاب هو «عمدة الراوين فى تاريخ تطاوين» .

وقد ذكر المؤلف فى اول الكتاب أنه لما قرأ كتاب سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن أقبر بمدينة فاس، لشيخه أبى عبد الله محمد بن جعفر الكتانى ، تأقت نفسه لكتابة تاريخ صلاحاء تطاوين وعلمائها، وذكر انه وقف على تاريخ السكيجى الذى سبق لنا وصفه» وانه سيلم ببعض ما اشتمل عليه. ثم اتى المؤلف بمقدمات فى فوائد التعريف بالعلماء والاولياء ، وذكر الزيارة وكيفيةها واتخاذ المواسم ، مما يدل على ان الفكرة الاولى للمؤلف كانت قاصرة على كتابة تاريخ صلاحاء تطوان وعلمائها ، وأنه لما أخذ فى البحث والتقيد توفر لديه من المواد ما حمله على التوسع فى الموضوع وتحويله الى تاريخ عام لتطوان وسكانها ، بدل الاقتصار على علمائها وصلاحائها ثم توسع فى ذلك فاثبت بعض مذكراته ورحلاته وفهارس اشياخه ومقروءاته ، ولخص كتباً وتقاييد له ولغيره كما سترى .

وعقد المؤلف فصلاً فى تحقيق اسم هذه المدينة ، ثم فصلاً آخر فى تاريخ بنائها وما مر عليها من الاطوار ووقع فيها من الحوادث، وهنا استطرد الكلام على مبدأ عمارة الارض معتمداً فى ذلك على تواريخ ابى الفدا وابن خلدون وغيرهما، فذكر آدم ثم بقية الانبياء ثم تكلم على ملوك فارس وفراعنة مصر وملوك اليونان والروم والعرب قبل الاسلام ثم تكلم على اليهود والنصارى وعلى الهنود والصينيين والكنعانيين والبربر ، ثم تكلم على التاريخ الاسلامى وملوك الدولتين الاموية بالشام والعباسية بالعراق ومصر ثم الدولة الادريسية بالمغرب ثم العبيدية ثم الدولة الاموية بالاندلس ثم تكلم على ملوك اسبانيا الى الفونسو الثالث عشر الذى كان ملكاً زمن تأليف الكتاب ثم تكلم على ملوك المغرب من زمن الفتح الاسلامى الى وقت التأليف ، واستطرد الكلام على دول اخرى بالشرق كدولة آل عثمان وغيرها .

ثم عاد المؤلف لموضوع الكتاب فتكلم على تاريخ بناء تطوان، وهنا أثبت فصلاً مطولاً يتعلق بتطوان وتاريخها مترجماً عن مجموعة الارشيف ماروكان Archives Marocaines وهذا الفصل يتحدث عن تطوان فيما قبل التاريخ وفى القرن الاول للميلاد ، ثم تاريخ هذه المدينة ونواحيها وآثارها وأطوارها من ذلك العهد الى

عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوى المتوفى فى 24 رجب 1204. موافق II ابريل سنة 1790.

ويلاحظ أنه قسم أطوار تطوان الى خمسة وعشرين طورا وقد استغرق ذلك نحو ثلاثين صفحة عادية .

ثم اشار المؤلف اشارة خفيفة الى حرب اسبانيا والمغرب عام 1276-1860م ثم اشار كذلك الى ثورة القبائل الجبلية ضد تطوان عام 1320 . ثم تكلم باختصار على دخول الاسبانيين لتطوان عام 1331.

وفى الفصل الثالث تكلم المؤلف على موقع تطوان الطبيعى ، وفى الرابع تكلم على جوها وهوائها ، وفى الخامس تكلم على صفتها ، وفى السادس تكلم على اقسامها وحوماتها ، وفى السابع تكلم على فواكهها وخضرها وحبوبها، وفى الثامن على صناعاتها وتجارتها. وهنا استطرد الكلام على العلوم والكتب التى تقرأ بها . وبذلك ينتهى الجزء الاول من الكتاب ، وأقدر أنه لو طبع طبقا عاديا لخرج فى نحو مائتين وخمسين من الصفحات ، وكل واحد من الاجزاء التسعة الباقية يقع فى مثل هذا الحجم تقريبا .

والجزء الثانى من الكتاب يبتدئه المؤلف بالفصل التاسع فى عدد سكان تطوان وأديانهم ومذهبهم وطرقهم الخ. ثم يتبعه بالفصل العاشر فى عدد دورها ومساجدها ومدارسها وحماماتها الخ. وهنا تكلم على تاريخ بناء بعض المساجد والزوايا .

وفى الفصل الحادى عشر تكلم على عمالها أى حكامها ابتداء من أبى الحسن المنظرى (الذى اشرف على بنائها الاخير سنة 888) الى وقت التأليف، وقد ذكر المؤلف أنه اعتمد فى هذا الفصل على تاريخ السكيرج الا أنه صحح بعض أخطائه وزاد عليه تواريخ الولاة الذين تواردوا على تطوان من لدن وفاة السكيرج سنة 1250. الى عهد المؤلف. وقد ذكر فى هذا الفصل اربعة وخمسين واليا آخرهم هو السيد عبد الكريم بن احمد اللبادى الذى كان هو باشا تطوان فى تاريخ كتابة المؤلف لهذا الفصل وهو عام 1344 .

ثم استطرد المؤلف الكلام على الاتفاق المنعقد سنة 1904 بين انجلترا وفرنسا وأثبت مضمون فصوله .

ثم تعرض لزيارة غليوم الثانى امبراطور المانيا لمدينة طنجة .

ثم تكلم على مؤتمر الجزيرة الخضراء ومقرراته .

ثم تعرض للحوادث التى سبقت نشر الحماية ، ثم تكلم على نشر الحماية على المغرب واحتلال فاس واتفاق فرنسا واسبانيا على اقتسام المغرب ودخول اسبانيا لشمال المغرب وتولى الامير مولاي المهدى بن اسماعيل العلوى منصب الخلافة عن سلطان المغرب فى مدينة تطوان التى اتخذت عاصمة لشمال المغرب .

ثم وصف المؤلف حكومة الخليفة المذكور ووزيره ابن عزوز وبقية الوزراء والكتاب، وكان المؤلف نفسه يتولى وزارة العدلية بهذه الحكومة في ذلك التاريخ، وذلك من سنة 1331 إلى زمن تاريخ كتابته لذلك الفصل وهو عام 1342 ثم ذكر المؤلف أسماء الحكام الأسبانيين لتطوان ونواحيها أثناء تلك المدة وهم الخنرالات : ألفا ، ومارينة ، وخوردانا ، وبرنكيير ، وبوركيطي ، واسبورو ، وبريمو دي ريفيرا .

ثم ذكر في الفصل الثاني عشر أسماء وتواريخ من عرف من قضاة تطوان منذ تاريخ بنائها إلى عام 1344 . وكان المؤلف نفسه هو قاضيها أيضا في ذلك التاريخ زيادة على قيامه بوظيفة قاضي القضاة ووزير العدلية .

ثم ذكر في الفصل الثالث عشر عادات أهل تطوان في المعيشة واللباس والزواج والولادة والفظام والختان والجنائز ، وفي المواسم والأعياد وفصول السنة الخ .

وفي الفصل الرابع عشر تكلم على أخلاق أهل تطوان، وبذلك ينتهي الجزء الثاني من الكتاب .

والجزء الثالث ابتدأه المؤلف بالفصل الخامس عشر في لغة أهل تطوان، ومواد هذا الفصل مرتبة على حروف المعجم، وقد استغرق هذا الفصل جميع الجزء الثالث من الكتاب، وفي اثنا عشر تكلم على تواريخ عائلات وتراجم أفراد منها ما بين أحياء وأموات .

والجزء الرابع ابتدأه بالفصل السادس عشر في التعريف بعلماء تطوان وشيوخها وأوليائها وذكر من لهم بها زوايا أو مزارات .
وهنا أثبت المؤلف منظومة تائية له في رجال تطوان، وهذا أولها :

هذا ذيك هذا الربع ربع أحبتي	وموطن ساداتي وعين محبتي
وهذي قباب شيدت بمكارم	علت اذ علا سكانها بمشيئة

وعدد أبيات هذه المنظومة مائتان وخمسون، وقد ختمها بقوله .

على جمعهم رضوان ربي وفضله	واحسانه دنيا ويوم القيامة
بجاء امام المرسلين محمد	عليه صلاة الله ثم تحيتي
وءاله والاصحاب طرا ومن تلا	هذا ذيك هذا الربع ربع أحبتي

ثم شرع المؤلف في شرح هذه المنظومة، وأثناء شرحها أثبت تراجم وتواريخ كثير من علماء تطوان وصلحاتها ومشاهير رجالها، ولم يقتصر على ذلك ؛ بل ذكر عددا من الأشخاص العاديين بها .

وفى الجزء الخامس تابع شرحه للمنظومة المذكورة، وقد توسع فى الكلام على الشرفاء الريسونيين من عهد سيدى محمد بن على المتوفى عام 1018 الى تاريخ المؤلف، وفيه ترجمة مطولة للشيخ سيدى عبد السلام بن ريسون المتوفى بتطوان عام 1299 .

ثم تابع المؤلف شرح المنظومة المذكورة فى الجزءين السادس والسابع ، وفى هذا الاخير تكلم على الشيوخ الذين لهم بتطوان زوايا، فترجم للشيخ مولاي عبد القادر الجيلانى، ومولاي عبد السلام بن مشيش، والشيخ محمد بن عيسى، والشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسي، والشيخ محمد بن الفقيه، والشيخ محمد بن ناصر، والشيخ أبى العباس السبتي، والشيخ محمد الوزانى، والشيخ محمد الكتانى، والشيخ ابن عبد المومن الغمارى، رحم الله الجميع، وبذلك ينتهى الجزء السابع .

والجزء الثامن تكلم فيه بتوسع على الشرفاء البقاليين، ثم ترجم بتطويل للشيخ أبى العباس التجانى رحمه الله . ثم ترجم المؤلف لنفسه فذكر تاريخ حياته ومقروءاته وشيوخه ورحلته العلمية الى فاس، ثم ذكر وظائفه ومؤلفاته وأهله وأولاده . وترجم لشيخه أبى العباس ابن الخياط رحمه الله .

وفى الجزء التاسع أثبت تراجم شيوخه بفاس، فترجم للشيخ محمد ابن جعفر الكتانى ، والشيخ محمد كنون (كنيون) والشيخ محمد القادري ، والشيخ احمد بن الجيلالى، والشيخ محمد الصنهاجى «مانى» والشيخ التهامي كنون، والشيخ عبد السلام الهوارى، والشيخ المهدي الوزانى . وفى الجزء العاشر ترجم للشيخ جعفر الكتانى .

وفى هذه الاجزاء الاخيرة أثناء ترجمة الفقيه لبعض شيوخه، أثبت اختصاره لبعض تأليفهم وفهارسهم . كما أنه عند الكلام على شيوخ الطرق الصوفية، أثبت نصوص أحزابهم وأذكارهم .

ثم ذكر المؤلف مذهبه وطريقته ، وأثبت نصوص بعض تلاميذه وخطبه ومنظوماته، وبذلك ينتهى الكتاب رحم الله مؤلفه وجزاه على مجهوده العظيم خير الجزاء .

وقد طالعت هذا المؤلف الجليل فوجدت فيه «كما قلت» موسوعة عامرة عن تطوان وأهلها ومتعلقاتها، وعن المؤلف وحياته العلمية ومعلوماته التاريخية ولا أعرف احدا تكلم بتوسع على مدينة من مدن المغرب كما تكلم شيخنا الرهونى رحمه الله على مدينة تطوان وسكانها .

والمنصفون «الذين يعترفون بالفضل لذويه» كلهم يعترفون بأن لشيخنا الرهونى على تاريخ تطوان فضلا عظيما. وبعض الناس ينتقدون عليه طريقه

لبعض الموضوعات، والمبالغة في حسن الظن ومدح بعض الجهات، والمداورة لبعض الهيآت الخ. ويسرون ان الكتاب جليل ومفيد لولا ما فيه من الضعف في هذه الناحية أما المؤلف « وان له من العلم والمشاركة والاطلاع ما يجعل له رأيا وأى رأى » فيرى أن ما فعله هو الصواب، وأن ما ينتقد عليه ليس مبنيا على أسس علمية، أو حقائق تاريخية، وإنما هو صادر عن الاختلاف في المبادئ والمذاهب والتباين في الاذواق والمشارب، والواقع أن كل مؤلف أو كاتب محترم، له غيرة على كتابه وانتاجه، فهو لا يثبت من ذلك الا ما يعتقد أنه عين الصواب، وأنه خير ما يمكن أن يكتب في موضوعه، على أن الاختلاف فيما أرى، إنما هو اختلاف في تفضيل احدى طريقتين على أخرى، فالفقيه الرهونى سلك طريقة عدم التصنع في تاريخه، فأثبت الحالة كما هي أو كما يراها أو يعتقدونها هو بمحاسنها ومساوئها، وحقائقها وخرافاتهما، وكم من أشياء يعدها أناس من الخرافات، ويعتقد آخرون أنها عين الحقائق. وقد كتب تأليفه بالاسلوب الذى كتب به امثاله من المتقدمين، وهذه الطريقة هى التى تعطى المطالع صورة حقيقية عن البلاد التى يقرأ عنها وعن مبلغها من العلم والحضارة والتفكير والثقافة، أو بالتدقيق تعطى صورة عن المعلومات الشخصية للمؤلف وطريقة تفكيره ومبلغ علمه، وعن الوسط الذى يعيش فيه هو ومن فى طبقتة، خصوصا اذا كان يعتمد على علمه ومحفوظاته ومذكراته أكثر من الرجوع الى نصوص الوثائق والمستندات كما هو الواقع فى تاريخ أستاذنا الرهونى رحمه الله. وهذه الطريقة قد يعد بعضهم صاحبها صريحا مؤديا للامانة التاريخية، ذاكرا للحقائق المجردة، واصفا للأشياء كما هى خدمة للحقيقة والتاريخ، وقد يعده البعض الآخر حاطب ليل، قاصرا ضعيفا لا يفرق بين الغث والسمين، ولا يميز بين النافع والضار ...

أما الطريقة الأخرى فهى طريقة التنقيح والغربلة وتعتمد إثبات المحاسن وحدها عند ارادة المدح للأشخاص والاشادة بالأعمال، والبحث عن المساوى واشهارها عند ارادة ذم الافراد او الهيآت، وتزييف الاقوال او الافعال. ولكل من الطريقتين محبذون ومنتقدون، والناس فى مذاهبهم وآرائهم مختلفون، والمؤلفون منهم من يكتب عن عقيدة واخلاص ومنهم من يكتب عن هوى واغراض، او عن سياسة او تضليل، والسياسة والتضليل يتآخيان فى كثير من الاحوال .

وانى ارى ان يكتب كل واحد التاريخ بالطريقة التى يرى انها الصواب، ويثبت فى تأليفه ما لديه من معارف وتحقيقات، ووثائق ومستندات، ثم ما على من يخالفه فى الرأى والاتجاه، الا ان يؤلف هو ايضا بالطريقة التى يرضاها،

وميدان الكتابة والتأليف والنشر متسع للجميع ، ولا شك ان كل واحد يجد موافقين محبذين ، ومخالفين منتقدين ، وهكذا هي الحياة .

ورضا البعض فيه للبعض سخط
ومن رام الكمال ، رام المحال

على أن تاريخ استاذنا الرهونى بالرغم من كل ما عسى ان يقول فيه المتقولون، ان هو الا كتاب مشحون بالفوائد التاريخية التى انفرد بها ، ولولاه لانطمست معالمها وانقطع خبرها ، وان الانصاف ليجب على كل معتن بتاريخ المغرب عموما ، وتاريخ تطوان خصوصا ، ان يقر بالفضل العظيم لشيخنا الفقيه الرهونى الذى بذل من جهوده ما بذل ، وسهر من الليالى ما سهر ، لجمع اصول هذا التاريخ ، والبحث والتنقيب عن الحوادث والاخبار والحكايات من الافواه والمقيدات والرسوم ، وذلك شئ لم يتيسر لاحد من قبله فيما يعود لتطوان وأهلها . فله بذلك فضل واى فضل على كل من سيكتب فى تاريخ هذه المدينة من بعده ، وكفاه بذلك شرفا وفخرا .

وان الاسف لكبير على عدم طبع هذا التاريخ الجليل والموسوعة العامرة حتى الآن ، وحبذا ثم حبذا لو وفق الله من محبى المعرفة والتاريخ ، هياة محترمة، أو شركة نشيطة أو شخصا أو اشخاصا غيورين يقومون بطبع هذه الموسوعة العلمية التاريخية فيخلد بذلك ذكرهم ويضمن عدم ضياع الجهود التى بذلها مؤلفه الذى بكل أسف لم يستطع طبعه لقلته ذات يده بالرغم من كونه قضى من افضل ايام عمره ما يزيد على عشرين سنة متقلدا لوزارة العدلية ، بل قيل لى قبيل وفاته ، ان الحاجة لسد رمقه ورمق عياله ، ولتسديد بعض ديونه ، قد اضطرته لبيع جميع كتبه حتى نسخته الوحيدة من تاريخه ، وهى التى كتبها بخطه فى عشر مجلدات . وقد اشترتها منه بعض الهيآت التى كانت تحمل اسما محترما من اشهر الاسماء فى هذا البلد . ولا أدري ما الذى منع هذه الهياة من طبعه فى حين انها كانت تطبع اشياء يعد تاريخ الرهونى أهم منها بكثير .

انى أرجو الله تعالى ان ييسر طبع تاريخ استاذنا الرهونى ثم طبع كتابي هذا ليستفاد من كل واحد منهما ما امتاز به على الآخر هيا الله الاسباب وهو سبحانه المستعان .

وانى - وأنا الآن فى العقد السادس من عمرى - وقد انتقل شيخى الرهونى الى عفو الله ورضاه ، بعد أن قضى السنوات الأخيرة من عمره منبوذا من اصحاب السلطة والجاه ، مبعدا عن الوظائف العملية ، منزويا فى بستانه خارج تطوان ، بعيدا عن الخلق منقطعا لعبادة الله، أذكره فاذكر فيه شيخى الجليل واستاذى العزيز ، رجل العلم والحلم ، والكرم والنبيل ، أذكر فيه

الرجل الشهم الذى له علي من الفضل ما لا أعده ولا أحصيه ، الرجل العالم المشارك الذى هو استاذى الاول فى مختلف العلوم ، خصوصا فى هذا التاريخ الذى أعد الفضل الاول فيه راجعا إليه وإلى إرشاداته وتوجيهاته وإفاداته، رحمه الله وجزاه احسن الجزاء على اعتنائه بي وبرفقائه من رجال العلم والمعرفة فى هذا البلد الأمين المحروس بعناية الله (I).

لقد كانت وفاة استاذنا الرهونى رحمه الله فى بستانه الواقع فى حومة «الطوابل» وسط البساتين الواقعة بضواحي تطوان ، مساء يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثانى عام 1373. موافق 21 دجنبر سنة 1953 ودفن بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء فى الزاوية العيساوية التى بحومة العيون من تطوان بعد الصلاة عليه فى مصلى باب المقابر . وان ما عند الله لهو خير وأبقى ، وعلى شيخنا الفقيه الرهونى من الله الكريم ، الرحمة والرضوان .

تقايد مختلفة

من التقايد التى استفدت منها فى تاريخ تطوان مخطوط صغير عثرت عليه بين اوراق بيعت فى تركة الفقيه المرحوم السيد محمد بن محمد بن الحاج عبد السلام العطار «المعروف بصاحبى» وهو تقايد يحتوى على بضع صفحات مما جاء فيها قول مؤلفها فى اولها ، الفصل الثانى ، فى ذكر اخبار تطاوين ، لانها بلدتى ومحل نشأتى الخ. وقد تكلم فى هذا الفصل على اسم هذه المدينة وتاريخ بنائها الاندلسى الاخير وذكر بعض ولائها وعلمائها باختصار ، وبذلك تم هذا الفصل وجاء بعده الفصل الثالث فى النسب وما يثبت به ، وبذلك ينتهى ما فى هذه الاوراق التى لم نقف على سابقها ولاحقها ولم نتحقق من معرفة اسم مؤلفها وان كنت لا أستبعد ان يكون هو العلامة المشارك المؤلف قاضى تطوان ابا زيد عبد الرحمن الحايك الذى هو من أشياخ السكيرج المؤرخ التطوانى ، والضعيف المؤرخ الرباطى والله اعلم.

(I) رحم الله شيخنا الرهونى ، فقد مثل العالم الحقيقى ، بكل ما له من معرفة واسعة، وعواطف جامحة، وبؤس مبكى ، وعدم اعتراف الوسط بجميله، حتى ان تلاميذه لم يقيموا له ذكرى للوفاة . فى حين ان اخاه المرحوم الحاج محمد الرهونى ، أقامت له الجمعية الخيرية التى كان يترأسها ذكرى حسنة. والفرق هو أن العلامة الرهونى كان فذا يحيط به الجو الذى يحيط بالافذاذ، أما شقيقه فكان من اواسط الاخيار من الناس ، فلم يكن الفرق بينه وبينهم كبيرا . ت.و.

أما مزية هذا التقييد فترجع الى انه اقدم من تاريخ السكيرج ، لانه كتب في أوائل القرن الماضي ، أى قبل تاريخنا هذا بما يزيد على قرن ونصف قرن ، زيادة على ان الاسماء والحوادث المذكورة به فيها ضبط وتدقيق . وهذا التقييد هو الذى اطلق عليه عند النقل منه اسم «المخطوط التطوانى».

ومن هذا القبيل تقييد آخر للعلامة المشارك مؤلف «مرآة المحاسن» الشيخ أبى حامد العربى بن يوسف الفاسى المتوفى بتطوان عام 1052 وهو تقييد صغير عثرت عليه فى كناش قديم بخط الفقيه الشريف العدل سيدى التهامى بن محمد بن احمد بن رحمون التطوانى ، وهذا الكناش اطلعني عليه صديقنا الشريف الجليل النقيب سيدى محمد بن المكى بن ريسون التطوانى ثم اطلعني الفقيه القاضى الشيخ عبد الحفيظ الفهرى الفاسى بمدينة الصويرة ، على نفس هذا التقييد مكتوبا بخط علامة فاس سيدى محمد بن عبد القادر الفاسى ناقلا له من خط كاتبه أبى حامد المذكور .

ومن ذلك كناش وتقايد للفقيه العدل الشريف سيدى مفضل افيلال . ومن ذلك مخطوط كتبه احد فقهاء تطوان كتابة شاهد عيان عن حرب سنة 1276هـ . 1860م وهو فى خزانتي «الخزانة الداودية» بخط مؤلفه وقد وجدته بين اوراق الفقيه العطار المذكور رحمه الله .

الى غير ذلك مما نجده عن هذه المدينة ورجالها وحوادثها عرضا اثناء كتابة المؤرخين والمقيدين لحوادث المغرب وتاريخ رجاله عموما . وستجد اثناء هذا الكتاب أسماء تلك الكتب عند ما ننقل عنها او نستفيد منها . كما أننى وجدت فى الرسوم والوثائق القديمة المكتوبة بتطوان ، وفى الحوالات الحبسية لمساجدها وزواياها ، وفى اعماق الخزائن العلمية بمختلف المدن المغربية ، كالخزانة الكتانية والفاسية والسودية بفاس ، والزيدانية والمنونية بمكناس ، والزبيدية بالرباط ، والتطوانية بسلا ، وفى المؤلفات الافرنجية والمستندات الرسمية ، مواد تاريخية غزيرة اخذت منها فوائد تتعلق بتاريخ هذه المدينة ، زيادة على ما نتلقاه من افواه الشيوخ الثقات من الاخبار والنوادر التى تكشف لنا عن بعض النواحي التاريخية المجهولة التى لا نجدها فى اى كتاب .

هذا التاريخ

هذا وان تاريخ شيخنا الرهونى وان كان كبير الحجم غزير المادة ، جامعا مانعا ، الا أننى رأيت ان هناك اشياء كثيرة لم يقف عليها ، ونواحي متعددة لم يتعرض لها ، وحوادث اختصر القول فيها اختصارا وقد وجدت مجال القول فيها فسيحا ، وذلك هو الذى دعانى لان أكتب عن تطوان كتابي هذا الذى

سميته «تاريخ تطوان» وكل ما يمكنني ان اقله فيه ، هو أنه منظم تنظيما غير تنظيم تاريخي السكيرج والرهوني ، وان فيه زيادات كثيرة ، ووثائق عديدة وفصولا وموضوعات جديدة لم يتعرض لها احد من قبل ، كما يعلم ذلك بالمقارنة بينه وبين غيره .

على ان التاريخ الذي نريده ويرضينا ، الى الآن لم يكتب ، وكتابي هذا لا يغني عن كتاب استاذنا الرهوني الذي انفرد بأشياء كثيرة جدا لم اتعرض لها ، كما انه هو لا يغني عن كتابي هذا لما انفرد به من وثائق وموضوعات ، وافكار وتعليقات ، واني اقدر تقديرا ان كل واحد من الكتابين لا يحتوي مما في الآخر الا على نحو خمسة فقط ، وينفرد عنه بنحو اربعة اخماس .
ولعل اقرب كلمة من الانصاف والواقع ، هي ان كلا من الكتابين متمم للآخر لان لكل باحث مجالا ، والفضل للمتقدم على كل حال ، والكمال انما هو للكبير المتعال .

الفصل الثاني

من الباب الاول

تطوان القديمة

نعنى بتطوان القديمة، تلك المدينة التى كانت موجودة قبل البناء الاندلسى الاخير، أى غير تطوان الموجودة الآن، لان مدينة تطوان الحالية بتقسيماتها وشوارعها ودروبها ومعاهدها، ليست قديمة، لانها انما بنيت فى أواخر القرن التاسع للهجرة، الموافقة لاواخر القرن الخامس عشر للميلاد، أى قبل تاريخنا هذا بما يقرب من خمسمائة عام . وذلك أنه لما نزلت الكارثة العظمى بالاندلس كارثة اضمحلال آخر دولة اسلامية بذلك الفردوس الإسلامى المفقود، هاجر كثير من المسلمين الى مختلف الاقطار الاسلامية، وكانت من بينهم جماعة من سكان غرناطة ونواحيها، فالتحقت هذه الجماعة بجماعة أندلسية أخرى كانت قد سبقتها الى هذه الناحية من بلاد المغرب، وجدد الجميع بناء مدينة تطوان التى كانت فى ذلك العهد مخربة غير عامرة ولا مسكونة، وهذا البناء الاندلسى هو الذى عمرت به هذه المدينة عمارتها الجديدة، ولم يطرأ عليها خراب بعد ذلك الى الآن والحمد لله .

نعم قد كانت تطوان موجودة قبل ذلك التاريخ بعدة قرون. وقد مرت عليها أطوار تاريخية ترددت فيها بين العمارة والخراب، والحضارة والبداءة، فلذلك قسمنا الكلام على تاريخها الى قسمين، تطوان القديمة، وهى التى كانت قبل البناء الاندلسى، وتطوان الحديثة، وهى التى جدد بناءها المهاجرون من مسلمى الاندلس، وهى القائمة الوجود الآن .

والواقع أن التاريخ الصحيح المحقق لتطوان ، انما يبتدىء من تاريخ هذا البناء الاندلسى، أما ما قبل ذلك فالمعلومات عنه انما هى شذرات متقطعة .

تطوان ونواحيها قبل الاسلام

لا نجد فى مصادرنا العربية شيئاً يذكر عن مدينة تطوان القديمة ونواحيها قبل الاسلام، الا أن من المحقق الثابت، أن هذه النواحي كانت عامرة قبل ظهور الدين الاسلامى بكثير، بدليل الآثار القديمة التى وقع العثور عليها فيها .

ففى مجموعة «الارشيف ماروكان» ARCHIVES MAROCAINES ان م. بيارى M. PALLARY الفرنسوى، عثر فى ناحية تطوان على آثار ومصنوعات من عمل الاقدمين، وربما كان بعضها من عهد ما قبل التاريخ، والعلماء الاسبانيون الذين يبحثون فى التاريخ القديم ويشرفون على الآثار المخرجة من الاماكن القريبة من تطوان فى عصرنا هذا، يؤكدون أيضاً أن عمارة هذه الناحية ترجع الى ما قبل التاريخ المعروف. وقد اكتشفوا أثناء حفرهم وبحثهم عن الآثار القديمة، أشياء تدل على ذلك، وهى محفوظة الآن فى متحف تطوان . وقد ذكر الجغرافى الرومانى بلين PLINIE أو PLINIO الذى عاش فى القرن الاول للميلاد، أن هذه الناحية كانت بها مدينة قديمة تسمى «تمودة» وأن المراكب كانت تصعد فى النهر المسمى باسمها الى أن تصل الى حد المدينة .

والمؤرخ الفرنسوى م. تيسيو M. TISSOT لم يستبعد أن يكون المكان الذى كانت به مدينة تمودة، هو نفس المكان الذى بنيت به فيما بعد مدينة تطوان الا أن الذى يظهر حتى الآن أن مدينة تمودة كانت فى غير المحل الذى توجد به مدينة تطوان الآن. لانه قد وقع العثور أخيراً على آثار مدينة فى مكان يبعد عن تطوان الحالية بنحو خمس كيلومترات فى الطريق التسى بين تطوان وشفشاون، وهذا المكان واقع على الضفة اليمنى للنهر الذى يمر قرب تطوان ويصب فى البحر الابيض المتوسط (I)، وعلماء الآثار الذين يشرفون على الحفر الواقع بهذا المكان، يرون أن المدينة المكتشفة هى مدينة «تمودة» وهى صغيرة المساحة، وقد عثروا فيها على شوارع وآثار ومقابر وأوانى ونقود وغير ذلك .

(I) هذا النهر ليس له اسم واحد عام يطلق على جميعه مثل نهر سبو، ونهر ورغة ونهر لكوس الخ. بل ان كل قطعة منه لها اسم خاص، فقطعة منه تسمى بوصفيحة، وأخرى الصوير، وأخرى المطيربة، وأخرى العدو، وأخرى مجاز الحجر، وأخرى كيتان، وأخرى المحنش، وأخرى مجاز الحمار، وأخرى مجاز الشطبة، وأخرى واد مرتيل وهذه هى المتصلة بالبحر .

والتواريخ الرومانية تحكى أن مدينة تمودة كانت عاصمة مطرانية، مما يدل على أنها كانت مدينة كبيرة ذات أهمية .

والعالم الاسباني الاثرى «بيلايو كينطيرو» المدير السابق لمتحف تطوان - قد استنتج من أبحاثه أن هذه المدينة المكتشفة رومانية، وأنه كان بها معسكر روماني، ويستدل على ذلك بالآثار والنقود التي عثر عليها، ويرى أن هذه المدينة قد احرقت، لانهم عثروا على ديار محترقة متهدمة، وأن أهلها تركوها وانتقلوا الى المكان الذى توجد به تطوان الآن - وهو كما قلنا يبعد عنها بنحو خمس كيلومترات - فبنوا به دورهم من جديد وعمرت بهم تطوان. ولا ندرى هل كانت مدينة تطوان موجودة قبل أن ينتقل اليها سكان تلك المدينة المحترقة المتهدمة، وأنهم انما انضموا الى أهلها وزادوها عمارة، أو أن أولئك المنتقلين اليها كانوا هم الذين أسسوا مدينة تطوان لأول مرة فى التاريخ ؟

والجغرافى بطولومى اليونانى PTOLEMEE (PTOLOMEO) الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد ، ذكر أيضا وجود مدينة بين المكانين المعروفين الآن برأس الطرف ورأس واد لو، وهما رأسان معروفان أحدهما فى الشمال الشرقى لتطوان، والآخر فى جنوبها الشرقى . وجاء بعض المؤرخين بعد بطولومى فرأوا أن تلك المدينة هي تطوان .

ونحن الى الآن لم نجد فى التواريخ العربية ما يدل على أن مدينة تطوان نفسها كانت موجودة قبل ظهور الاسلام، وانما وجدنا فى كلام الجغرافى الشهير ليون الافريقى، أن المسلمين استولوا على تطوان فى الوقت الذى استولوا على مدينة سبتة، فقد جاء فى كتابه «وصف افريقيا» عند وصف تطوان ما نص تعريبه (I) «تطاوين» TETTEGUIN بلدة صغيرة من تأسيس الافارقة الاقدمين، تبعد عن البوغاز بنحو ثمانية عشر ميلا، وعن البحر بنحو ستة أميال (2)، افتتحها المسلمون عند ما فتحوا مدينة سبتة - ويقال انهم عند ما فتحوها صاروا يسمونها باسم كنتة عوراء كانت تأتى اليها يوما فى الاسبوع بقصد أن تقبض ما كانت تستخلصه من جبايات البلدة. ومعنى «تطاوين» فى اللغة الافريقية «العين» ولم يكن للبليدة سوى عين واحدة»

(I) ص 165 من الترجمة الاسبانية طبعة سبتة سنة 1952 .

(2) بين مدينة تطوان الحالية وشاطئ البحر الابيض المتوسط نحو عشر كيلومترات .

والمؤرخ مارمول MARMOL الاسباني الذي عاش في القرن السادس عشر للميلاد - وهو العاشر للهجرة - ذكر أن تطوان ملكها الرومان ثم القوط ثم العرب الخ .

وفي الارشيف ماروكان، أن مدينة تطوان كانت عامرة بالنصارى قبل الاحتلال العربي، وأن موسى بن نصير احتلها سنة 710 م. 92 هـ. كما احتل سبتة وطنجة الخ .

والخلاصة - كما رأيت في كلام أولئك المؤرخين الاجانب - هي أن تطوان مدينة قديمة وأنها كانت موجودة قبل الاسلام. والله أعلم.

تطوان في القرن الثالث للهجرة

تحت حكم الادارسة

وجدنا اسم «تطوان» مذكورا عند الكلام على دولة الامير محمد بن ادريس ابن ادريس، ففي كتاب القرطاس (I) أن الامير المذکور لما ولي (2) «قسم المغرب بين اخوته، وذلك برأى جدته كنزة أم أبيه، ولي أخاه القاسم مدينة طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر ومدينة تطوان وبلاد مصمودة وما والى ذلك من البلاد والقبائل» (3) .

(I) «القرطاس» اسم كتاب تاريخي ألفه محمد بن عبد الحلیم المعروف بابن أبي زرع الفاسي، وسماه، الانيس المطرب القرطاس، في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، وبعضهم يسميه «الانيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» وقد وصل فيه الى حوادث سنة 726 في عهد السلطان أبي سعيد بن يعقوب ابن عبد الحق المريني. وبعضهم ينسب هذا الكتاب لابن الحسن علي بن محمد بن احمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، وبعضهم ينسبه لابن محمد صالح بن عبد الحلیم الغرناطي. وهو كتاب جليل مفيد ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته أنه من الكتب التي يعتمد عليها في الاخبار وقد طبع مع ترجمته باللاتينية سنة 1883. وطبع مع ترجمته بالالمانية سنة 1794. ومع ترجمته بالفرنسية سنة 1860. وطبع في المطبعة الحجرية بفاس عام 1303. ثم طبع بها ثانيا عام 1305 .

(2) كانت ولاية محمد بن المولى ادريس عقب وفاة والده سنة 213 هـ 828 م

(3) القرطاس ص 30 طبع فاس سنة 1305. ومثله في الاستقصا ج I ص 75

البحر

قرطبة

غرناطة

مالقة

البحر المتوسط

اشبيلية

ولبة

قادر

بنا خيل طاق

طنجة

أحيلا

العرش

تطوان

شفشاون

الحسيمة

تغلة

فاس

مكناس

صفرو

البرباط

الدار البيضاء

انزمو

الجديدة

أسفي

الاسوي

مراكش

أكادير

تغديت

ساحل المغرب

ملت كتاب

أريج تطوان

محمد داود



خريطة بلاد المغرب وجنوب الأندلس. وتظهر مدينة تطوان في الشمال الغربي قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط. كما تظهر مدينة غرناطة الأندلسية، وهي المدينة التي هاجر منها بني عبد الحميد. مدينة تطوان عام 888 هـ. موافق سنة 1484 م.

المنطقة الصغيرة الظاهرة في الصورة، قد صارت الآن تاريخية، إذ كانت تدل على الحدود التي كان الاستعمار الفرنسي والإسباني والدولي، قد قسم بها بلاد المغرب إلى ثلاث مناطق، تسمى الآن في الجنوب سلطان المغرب تحت حماية فرنسا، وفي الشمال خليفة السلطان تحت حماية إسبانيا، وفي طنجة مجلس دولي هو المدير لجميع شؤون منطقتها، إلا أن ذلك كله قد صرح الآن ليغير الاعتبار، ويحمد الله المومنون

ومثل ذلك عند ابن خلدون (I) في تاريخه الكبير ونصه (2) : «وهلك ادريس سنة ثلاث عشرة (يعنى 213) وقام بالامر من بعده ابنه محمد بعهدة اليه فأجمع أمره ب وفاة (3) جدته كنزة أم ادريس على أن يشرك اخوته في سلطانه ويقاسم ممالك أبيه، فقسم المغرب بينهم أعمالا اختص القاسم منها بطنجة والبصرة وسبته وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما الى ذلك من البلاد والقبائل» . وهذا التاريخ، أى سنة 213. هو (فيما وقفت عليه) أقدم تاريخ ورد في المراجع العربية أن مدينة تطوان كانت موجودة فيه .

الا اننى لاحظت أن أبا عبيد البكرى الاندلسى - وهو أقدم من ابن أبى زرع وابن خلدون، لما ذكر (4) ولاية محمد بن ادريس، وحكى أنه فرق البلاد على اخوته برأى جدته كنزة أم إدريس، وأنه ولى القاسم أخاه، البصرة وطنجة وما والاها الخ. لم يذكر مدينة تطوان.

وكذلك المؤرخ ابن عذارى المراكشى (وهو من رجال القرن السابع) لما ذكر (5) أن محمد بن ادريس فرق البلاد على اخوته بأمر جدته كنزة وأعطى القاسم طنجة وما يليها الخ لم يذكر تطوان .

فأقدم مؤرخ - فيما وقفنا عليه - ذكر ولاية القاسم بن ادريس لمدينة تطوان، هو ابن أبى زرع، وهو من أهل القرن الثامن، وبينه وبين العهد المذكور نحو خمسة قرون .

(I) ابن خلدون هو العلامة فخر المغرب وفيلسوف المؤرخين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، أصل عائلته من اشبيلية بالاندلس، ومنها انتقلت الى تونس حيث ولد أبو زيد سنة 732 وقد عاش بتونس مدة، وبتلمسان مدة أخرى، وانتقل الى فاس سنة 753 فعينه السلطان أبو عنان المرينى كاتباً ثم عزله واعتقله، ثم عينه غيره فى ديوان الانشاء، ثم انتقل الى غرناطة سنة 764 فاحتفل به السلطان أبو عبد الله محمد (الخامس) ابن أبى الحجاج (يوسف) ثم انتقل الى القاهرة فولاه سلطانها الظاهر برقوق وظيف قاضى القضاة المالكية وقد أقام بالشام مدة ثم توفى فجأة بالقاهرة سنة 808 .

وله تأليف متعددة أهمها تاريخه الكبير المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر» وهو فى سبعة أسفار، اشتهر أولها بالمقدمة. وقد فرغ من تدوينه سنة 797 وذكر فى المقدمة أنه أهدى منه نسخة لخزانة سلطان المغرب أبى فارس عبد العزيز ابن أبى سالم بن ابى الحسن المرينى رحم الله الجميع .

(2) ج 4 ص 14 طبع مصر سنة 1284 .

(3) هكذا فى النسخة المطبوعة وهو خطأ لعل صوابه : بإشارة بدل ب وفاة الخ .

(4) المسالك والممالك ص 124 طبع الجزائر سنة 1911 .

(5) البيان المغرب ج I ص 211 طبع ليدن سنة 1948 .

فهل كانت مدينة تطوان فى سنة 213 موجودة حقيقة، وكانت من جملة المدن العامرة التى تولى حكمها القاسم بن ادريس، أو ان ابن أبى زرع انما استنبط ذلك استنباطا فقط من قول غيره، طنجة وسبتة وما والاها النخ؟ اذ من المعلوم أن المدينة التى كانت تلى سبتة وطنجة فى عهد ابن أبى زرع، أى فى القرن الثامن هى مدينة تطوان .

ان الغالب عن الظن أن تطوان كانت مدينة عامرة فى عهد الادريسيين أوائل القرن الثالث للهجرة بدليل تهديمهم لها بعد ذلك. وهذا التهديم أثبتته جميع المؤرخين، ومعلوم أن التهديم انما يكون بعد البناء والعمارة والله أعلم .

تطوان فى القرن الرابع

- تهديم الادارسة لتطوان سنة 338
- معارضة أهل سبتة فى إعادة بناء تطوان.

ورد ذكر مدينة تطوان فى حوادث سنة 338، و 341، و 347، و 366.

فى كتاب المسالك والممالك للبكرى (I) ما نصه (2) :

«ولما دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، أجمع بنو محمد بن القاسم (3) على هدم تطوان، فهدموها ثم تعقبوا ما فعلوا وأرادوا بنيانها فضج أهل مدينة سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة وتقطع عنها مرافقها فأعجل عبد الرحمن (4) أمير المؤمنين اخراج الجيوش اليهم وتجهيز العساكر نحوهم، وذلك سنة احدى وأربعين وثلاثمائة. والقائد أحمد بن يعلى حتى وصل الى مدينة سبتة ونفذ عهد عبد الرحمن الى حميد بن يعلى وكان والى تيجيساس بالتقدم الى سبتة والتضافر بأحمد بن يعلى على حرب بنى محمد، واجتمع العسكران فسفر حميد بن يعلى الى بنى محمد، على بن معاذ فأجابوه الى التخلّى عن مدينة تطوان على أن يبعثوا بأبنائهم الى أمير المؤمنين»

(I) البكرى هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من أعيان أهل الاندلس ومشاهير رجال العلم والتاريخ بها، ولد قرب اشبيلية سنة 432 وانتقل الى قرطبة، وكان متقداً للذهن واسع المعرفة، وقد برع فى اللغة والادب والجغرافية والتاريخ، وألف كتباً منها «المسالك والممالك» و «معجم ما استعجم» وشرح أمالى القالى وغير ذلك، وتوفى عام 487 هـ. موافق سنة 1094 م.

(2) ص 130 طبع الجزائر سنة 1911.

(3) يعنى الادارسة الذين كانت ما تزال لهم دولة بشمال المغرب.

(4) يعنى عبد الرحمن الناصر أمير بلاد الاندلس التى طالت مدة حكمه بها منذ ولايته عليها سنة 300 - الى وفاته سنة 350 هـ.

وفى البيان المغرب لابن عذاري (I) ما نصه (2) :

«وفى سنة 347، دخل جوهر قائد تميم الى الغرب واستولى على مدينة فاس ثم توجه الى «تيطاون» ووصل الى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها وقصد بعسكره الى سجلماسة الخ. ثم قال: «وفى هذه ... (يعنى سنة 347) وصل الى قرطبة، الحسن بن قنون من بنى ادريس فارا بنفسه امام جوهر قائد أبى تميم المذكور، وكان بنو محمد بن القاسم من بنى ادريس بن ادريس رحمهم الله أجمعوا على هدم تيطاون فهدموها ثم ندموا على ذلك، وشرعوا فى بنائها، فضج أهل سبتة لذلك، لأن بناءها ضرر بهم، فبعث اليهم عبد الرحمن الناصر جيشا برسم محاربة بنى محمد، قود على الجيش أحمد بن يعلى وكتب الناصر الى حميد بن يصال صاحب تيكيساس وتلك الجهات كلها ان يعين القائد المذكور على بنى محمد، فتخلى بنو محمد عن بناء تيطاون لما اجتمع العسكران عليهم وبعثوا أولادهم مراهن الى قرطبة».

وورد ذكر تطوان أيضا فى حوادث سنة 369 ففى كتاب الاستقصا ما نصه (3) : ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى صاحب افريقية بعد العبيديين الى المغرب الاقصى، واناخ على مدينتى فاس، وقتل عاملها محمد بن أبى على بن قشوش صاحب عدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الاندلس، واستعمل عليها محمد ابن عامر المكناسى، واجفلت ملوك زناتة من بنى خزر المغراويين وبنى محمد ابن صالح اليفرنيين أمامه، وانجازوا جميعا الى سبتة، وعبر محمد بن الخير من مال خزر البحر الى المنصور بن أبى عامر صريخا، فخرج المنصور فى عساكره الى الجزيرة الخضراء ممدا لهم بنفسه، وعقد لجعفر بن على بن حمدون على حرب بلكين الصنهاجى وأجازة البحر وأمدته بمائة حمل من المال، فاجتمعت اليه ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة، وجاء بلكين الصنهاجى حتى صعد جبال تطوان وتستنم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الاندلس بساحة سبتة، فرأى مالا قبل له به، ويقال، انه لما عاين ذلك قال، هذه أفعى فغرت الينا فاها. وكر راجعا على عقبه، فاجتاز على مدينة البصرة وكان بها حامية أهل الاندلس وبها يومئذ عمارة عظيمة فهدمها ثم صمد الى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى ابن أبى الانصار واستولى على المغرب أجمع ومحي دعوة بنى أمية من نواحيه».

(I) ابن عذاري هو ابو عبد الله محمد بن عذاري المراكشى (من مدينة مراكش المغربية) وهو من رجال المغرب فى القرن السابع للهجرة، وموضوع كتابه المذكور، تاريخ «الاندلس والمغرب».

(2) ج I ص 222 طبع ليدن سنة 1948 .

(3) ج I ص 90 .

تطوان في القرن الخامس

- وصف البكري الاندلسي لمدينة تطوان .
- تطوان قاعدة بنى سكين .

ورد اسم تطوان مرارا مع وصفها في كتاب «المسالك والممالك» للبكري الاندلسي (المتوفى سنة 487) فقد جاء فيه ما نصه (I) «وببلد مجكسه جبل حامييم وهو على مقربة من مدينة تيطاوان» .

وقال بعد ذلك ما نصه : (2) «وبنو وجفال ، رهط حامييم ينزلون على نهر راس وهو على ثلاثة أميال من مدينة تيطاوان» .

وقال بعد ذلك ما نصه (3) «ثم الى مدينة تطاوان وهي بصفح (كذا) جبل الشقار، وهو متصل بجبل الدرقه ويبلغ الى جبل رأس الثور الى مرسى موسى بالبحر الغربى .

ومدينة تطاوان على أسفل وادى راس، وقال محمد وادى مجكسة، وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر الى ان تصل تطاوان . ومسافة ما بين البحر وبينها عشرة أميال، وهي قاعدة بنى سكين، بها قصبة للاول ومنار، وبها مياه كثيرة سائحة عليها الارحاء ، وبجوفها جبل يعرف بجبل الشوك، يركب لبنى سكين، مائة فارس، وبين مدينة تطاوان وجبل الدرقه سكة، وهو قاعدة بنى مرزوق بن عون من مصمودة وسكناهم منه بموضع يقال له صدينة قرية ذات مياه سائحة، وهي أطيب تلك البلاد مزارع. وهذا الجبل فى غاية المنعة، وفى أعلاه مسارح واسعة وحروج خصبة للماشية ، وهذه القرية المذكورة فى قبلى الجبل وبين القبلة والغرب الجبل المنسوب الى حامييم المفترى. وجبل الدرقه يتصل ببلاد غماره ويسكن ءاخره من غماره بنو حسين ابن نصر . وبجبل الدرقه يتصل جبل حبيب بن يوسف الفهرى » (4).

وقال بعد ذلك ما نصه : (5)

(I) ص 100 .

(2) ص 101 .

(3) ص 106 .

(4) بين جبل الدرقه الحالى وقبر سيدى حبيب من قبيلة جبل حبيب ، مسافة نحو سبعين كيلومترا ، إذ الدرقه مطل على مدشر «بلوازن» من قبيلة حوز تطاون ، فى حين أن جبل حبيب فى قبيلة جبل حبيب ، ثم يمتد جبل الدرقه فيتصل بجبال غماره ، فيكون جبل الدرقه الحالى ليس الا بقية اثر لسلسلة جبال مترامية الاطراف كانت تسمى بهذا الاسم .

(5) ص 115 .

«وطريق آخر الى فاس ، من سبتة الى تيطاوان مرحلة ... الخ». فالبكرى - كما ترى - يصف تطوان في عصره، أى أواسط القرن الخامس للهجرة، بأنها كانت مدينة ، بل زاد أنها كانت قاعدة بنى سكين ، ولكن يظهر أنها كانت قاعدة متواضعة، لان عدد فرسانها لم يكن يتجاوز المائة، ويذكر أيضا أنه كان بها منار وقصبة للاول، أى الذين كانوا قبل الاسلام ...

تطوان فى القرن السادس

تطوان فى كتاب الادريسى

ورد ذكر تطوان ووصفها فى جغرافية الشريف الادريسى المتوفى سنة 560 (I) فقد جاء فى كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ما نصه «2» :

(I) الشريف الادريسى (493 - 560) هو العالم المؤرخ الجغرافى أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسى السبتي، من الشرفاء الادريسيين المغربيين، ولد عام 493 هـ. موافق 1100 و جل المؤرخين الذين ترجموا له ذكروا أن ولادته كانت بسبتة، الا أن الاستاذ ميللر الالماني - فيما قيل - ذكر أن ولادته كانت بتطوان، ولا ندرى مستنده فى ذلك ودرس الادريسى بقرطبة فوصفه بعضهم بالقرطبي، ثم رحل رحلة طويلة واتصل بملك صقليه روجر الثانى ROGER II وأقام عنده بصقلية فوصفه بعضهم بالصقللي، وقد نال عند الملك المذكور حظوة لعلمه ومهارته حتى بلغ من اكرامه له أنه كان كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ثم أجلسه الى جانبه على سرير الملك، حتى اذا ما أتم المحاضرات معه وأفاده بما أراد ثم هم بالخروج، شيعه الملك بنفسه الى عتبة القصر، وقد صنع له صورة للارض فكانت أكمل صورة عرفت لذلك العهد، ويقال ان مساحة هذه الصورة كانت نحو ثلاثة أمتار ونصف طولاً، فى نحو متر ونصف متر عرضاً، كما صنع له من الفضة الخالصة أول كورة أرضية عرفت فى التاريخ ، وكانت زنتها فيما قيل نحو 180 رطلا رسم فيها جميع أنحاء الارض فى زمانه رسمياً غائراً مشروحاً بالاستيفاء، وقد ألف له أيضا فى مدينة بالرما من أعمال صقلية، كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ويعرف بكتاب الادريسى ويسميه بعضهم بكتاب ريشار أو روجار، وقد أكمله سنة 548، قال الزركلى فى «الاعلام» وهو أصبح كتاب ألفه العرب فى وصف بلاد أوربا وإيطاليا، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه، وقد ترجم الى الافرنسية ونشر بها، «وطبعت منه بالعربية خلاصات. انظر الاعلام للزركلى ج 3 ص 971 .

(2) نقلنا هذا النص بلفظه من نزهة المشتاق ص 170 طبعة ليدن سنة 1865 .

«ومن مدينة سبتة السابق ذكرها بين جنوب وشرق الى حصن تطاون مرحلة صغيرة (I) وهو حصن فى بسيط الارض، وبينه وبين البحر الشمالى خمسة أميال، (2) وتسكنه قبيلة من البربر تسمى مجكسة» .

والادريسي من أهل مدينة سبتة القريبة من تطوان، وقد جاب الآفاق البعيدة ووصفها، وقد وصف تطوان كما ترى بأنها حصن تسكنه قبيلة من البربر ولم يزد على ذلك، فهل تطوان التى وصفها البكرى بأنها كانت فى القرن الخامس مدينة الخ. كانت فى القرن السادس قد تهدمت ولم يبق منها الا الحصن الذى ذكره الادريسي ؟ لا اظن ذلك. والذى يظهر أن مدينة تطوان لم يطرأ عليها تغيير كبير فى ذلك العهد، وانما أطلق عليها الادريسي اسم الحصن لتحصنها بالاسوار والابراج، أو لانها كان بها حصن مشهور هو أبرز ما فيها فكانت المساكن القريبة منه كأنها تبع له.

تطوان فى كتاب «الاستبصار»

وورد ذكر تطوان ووصفها أيضا فى كتاب «الاستبصار» فى عجائب الامصار» (3) ومؤلفه من رجال النصف الثانى من القرن السادس، وقد جاء فيه عن تطوان ما نصه : «مدينة تيطاوان، وهى مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزروع. طيبة الهواء والماء» .

فأنت ترى أنه ذكر أنها مدينة ووصفها بأنها قديمة الخ .

(I) من المعروف أن طول الطريق الموجودة الآن للسيارات بين تطوان وسبتة، نحو أربعين كيلومترا.

(2) الطريق التى تصل الآن بين تطوان ومينائها الواقع على البحر الشمالى «الابيض المتوسط» طولها نحو عشر كيلومترات.

(3) كتاب «الاستبصار» فى عجائب الامصار» لا يعرف مؤلفه، وقد وقفت على مجلد عتيق منه لدى صديقنا النابغة العلامة الاستاذ المختار السوسى بمدينة مراكش عند زيارتى لها سنة 1368. ومنه نقلت الجملة التى هنا، ولا أدري هل ذلك المجلد هو كل الكتاب أو انما هو جزء منه فقط. وقد جاء فى معجم المطبوعات ليوسف سرقيس ص 1558، أن البارون فون كريمر المستشرق النمساوى طبع القطعة التى تشتمل على ذكر المغرب من هذا الكتاب فى مدينة فيينا. عاصمة النمسا سنة 1852 م. وقد وقفت على هذه القطعة المطبوعة ولم يرد فيها ذكر مدينة تطوان، وهى أقل بكثير مما فى النسخة المراكشية المختارية .

غزو الموحدين لنواحي تطوان

وورد ذكر تطوان أيضا أثناء كلام المؤرخين على غزوة الموحدين لشمال المغرب في أواسط القرن السادس، وفي كتاب الاستقصا (I) «أن الذي قام بهذه الغزوة الكبرى هو السلطان عبد المومن بن علي، وأنه مكث فيها سبع سنين الخ. وأنه خرج لها في صفر سنة 534 فلم يزل يتقرب بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزله حماتها ويدل على صوابها إلى سنة 541». ومثل ذلك في كتاب القرطاسي (2) وقد عقد البيدق (3) في تاريخه فصلا عنوانه «خروج الخليفة للغزو إلى المغرب» ومما جاء فيه قوله : (4)

«بلغنا منه إلى تامغريت متاع أبي بكر بن سحنون وقلعنا من ثم إلى بني سناد ثم قلعنا منه إلى وادي لو، ونزلنا في بني سعيد عند دار كرناز بن منصور فامتنعوا وهربوا إلى جبل يكاثل ثم هبط الأبرتير (5) ونزل في تيطاوين ... الخ.

قتل الموحدين لثمانمائة شخص في تطوان

وجاء في الفصل الذي عنوانه «ذكر الاعتراف» (6) من كتاب البيدق المذكور، ما نصه (7) «ودفع جريدة أخرى لغمارة لأبي محمد عبد الله بن سليمان ويحيى بن توكرورين وقتلا في تيطاوين ثمانمائة الخ . ثم ذكر في الفصل نفسه (8) أن ذلك كان سنة 544.

(I) ج I ص 141.

(2) ص 131 - طبعة فاس سنة 1305.

(3) البيدق لقب للشيخ أبي بكر بن علي الصنهاجي، وتاريخه قد اعتنى باخراجه من الخزانة الاسكوريالية، المستشرق الفرنسي أ. لافسي بروفنسال، وطبعه سنة 1928 م. بعنوان، كتاب المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين .

(4) ص 92

(5) الأبرتير هو قائد الأفرنج المرتزقة الذين كانوا في جيش تاشفين ابن علي اللمتوني وكانوا يحاربون في صفه ضد الموحدين الذين قاموا على اللمتونيين، والتاريخ شأنه عجيب، فقديمًا كان المغربيون هم الذين يستأجرون الأعلاج أي الأجانب الأوربيين ليقاتلوا في صفوفهم خصوم الدولة المغربية مقابل ملء بطونهم وجيوبهم، ثم انقلب الحال مدة من الزمن والأمر لله ولكن دوام الحال محال. وقد قتل الموحدون ذلك القائد مع جماعة من أصحابه (انظر الاستقصا ج I ص 142) .

(6) ص 109 .

(7) ص III .

(8) ص II2 .

انتقال الشيخ عبد القادر التبين من غرناطة الى تطوان

ووجدنا في ترجمة الشيخ عبد القادر التبين الاندلسي المتوفى بتطوان سنة 566، أنه خرج من بلده غرناطة الى مدينة سبتة وبعد أن لبث بها مدة ذهب الى مدينة تطوان فوجد ناحيتها عامرة بالقري فاختر الإقامة بها واشترى أرضا بنى فيها مسجدا ودارا فاقبل الناس عليه وبنوا حوله فعمر الموضع ثم بنى السوق والعيون التي في أرضه وصنع أرحى لطحن الحبوب الخ.

ولم يذكر مترجم الشيخ التبين هل كانت مدينة تطوان نفسها حين ورد عليها الشيخ المذكور عامرة، زيادة على عمارة ناحيتها بالقري، أو أن المدينة كانت مخربة، وأنه إنما شيد ما شيد فيها من البناء على الانقاض أو حولها في الأرض التي اشتراها من أهل تلك الناحية ؟ والذي يظهر أن مدينة تطوان كانت عامرة إلا أنها كانت صغيرة محاطة بالقري وأنها ظلت صغيرة الى أن جددت عمارتها في أوائل القرن الثامن والله أعلم .

ثم هل ان قتل الموحدين لثمانمائة شخص في تطوان، كان بعد أن وفد عليها الشيخ التبين ، أو إن الشيخ المذكور لم يصل اليها إلا بعد ان مرت تلك المذبحة البشرية ؟ لقد تقدم لنا أن تلك المذبحة كانت سنة 544 والذي في ترجمة الشيخ التبين أنه شرع في بناء مسجده الذي يظن أنه هو مسجد حومة السويقة - سنة 542. أي قبل المذبحة البشرية بنحو عامين، وعليه فإن الشيخ التبين كان بتطوان في تاريخ تلك الفتنة، ولكن نجاء الله منها لعلمه وعبادته وعلو مكانته وكبير فضله رحمه الله.

من رجال تطوان في القرن السادس

الشيخ عبد القادر التبين الاندلسي التطواني 566

الشيخ العالم الصالح سيدي عبد القادر التبين، هو صاحب الضريح المشهور الواقع خارج المدينة بين باب العقلة وباب الرموز من مدينة تطوان. وعامة الناس يسمونه سيدي عبد القادر التابى (I)

وهذا الشيخ قد وصفه شيخنا الرهونى بأنه هو الامام أبو محمد سيدي عبد القادر ابن الفقيه العلامة سيدي محمد التبين الاندلسي اقليما ومنشأ، القرشى نسباً من نسل سيدنا عثمان رضى الله عنه، وذكر انه عثر عند بعض حفدته على أوراق نقل منها ترجمته ونبه على بعض أخطاء تاريخية وقعت فيها . وقد وقفت على تلك الاوراق المفيدة، الا أننى لا أعرف كاتبها فلا أجزم بصحة ما فيها، ومما تحتوى عليه تلك الاوراق، المعلومات الآتية :

كان الجد الاعلى للشيخ عبد القادر التبين يسمى أبا عبد الله القرشى العثمانى، وقد انتقل سنة 126 من المشرق الى الاندلس، ونزل قرطبة وأقام بها الى أن توفى، وبقيت عائلته بها فى عز ورفاهية الى أن قامت فتنة بقرطبة فانتقلوا منها الى غرناطة بعد سنة 300. وكان والد الشيخ عبد القادر واسمه محمد رجلاً صاحب جاه ومقام، كثير المال والاولاد، وكانت له أملاك بقرطبة وقرطبة والجزيرة الخضراء وسبتة، وفى سنة 540 انتقل الشيخ عبد القادر من غرناطة الى سبتة، وكان والده قد وهب له املاكه التى بسبتة. واتصل الشيخ أبو عبد الله الفخار بالشيخ التبين فصحبه وخرجا معا يبحثان عن موضع يرضيانه لنزولهما ومقامهما ، فلما بلغا تطوان ووجدا ناحيتها عامرة بالقرى ، اختارا فيها مكاناً مرتفعاً مشرفاً على عدة جهات - ويظن شيخنا الرهونى أن هذا المكان هو المعروف الآن بالمنجرة من حومة السويقة - وهذا الظن لعله هو الواقع لان الموضع المذكور هو الذى يوجد به المسجد الكبير الجامع الذى هو الوحيد فى هذه الجهة، كما يوجد به السوق الذى ما زال حتى الآن يسمى بالسويقة، كما

كانت به أرحى لطحن الحبوب الى ما قبل تاريخنا هذا بسنين قليلة، وهذا الموضع مشرف على الضريح الذى أقبر به السيد المذكور والله أعلم .

وقد ضرب الشيخ خباءه هناك واجتمع عليه سكان القرى القريبة من ذلك المكان، وعرفوا الشيخ أبا عبد الله الفخار فعرفهم بالشيخ التبين الذى اشترى منهم قطعة من الأرض بألف دينار، ثم استحضر من سبنة بنائين وخشباً وبنى داراً جلب اليها أهله الذين كانوا بسبنة، واستوطن ذلك المكان، وكان الناس قد بنوا حوله فبنى لهم مسجداً وسوقاً وأرحى لطحن الحبوب سنة 542 وأقبل الناس على السكنى هناك الى ان صار ذلك المكان من أكبر القرى. واستمر الشيخ التبين هناك الى أن توفي رحمه الله سنة 566 وخلف أولاداً أوصى عليهم الشيخ أبا عبد الله الفخار .

وفى الأوراق المذكورة ان الشيخ عبد القادر التبين كان مشاركاً فى العلوم الدينية والأدبية ، وانه قرأ على أكابر شيوخ الاندلس كأبى الوليد ابن رشد وأضرابه، وان القاضى عياضاً والمفسر ابن عطية كانا من رفقائه فى الدراسة وانه جرت بينه وبين القاضى أبى بكر ابن العربى مناظرات فى العلوم ، وكانت بينه وبين الغزالى مراسلات علمية ، وانه ألف كتاباً اختصر فيه صحيحى البخارى ومسلم ، وكتاباً آخر فى قواعد الاسلام ، وآخر سماه « منهاج السلوك »، فيمن حل بالدنيا من الملوك » وآخر اسمه ، « درة الاحساب »، فيمن حل بالاندلس من الانساب » مع كتب أخرى فى موضوعات مختلفة، الا أن هذه الكتب لم نعثر لها على اثر ، ولم نعرف عنها أى شىء غير ما فى هذا التقييد الذى يقول صاحبه فى آخره «ومن اراد استقصاء التعريف بالشيخ سيدى عبد القادر - التبين - وبأسلافه وبطريقته وأخلاقه ، فعليه بكتاب « نزهة الافكار »، وحلة الابرار ، فى مناقب الشيخ عبد القادر وشيخه الفخار » وهذا الكتاب أيضاً لم نقف عليه ولا نعرف عنه شيئاً .

وقد أثبت صاحب التقييد المذكور للشيخ التبين كلمات فيها حكم ومواعظ ، وهذه جملة منها :

من أحب أن يسمع الناس كلامه اذا تكلم، فليس بزاهد.

من طلب صاحباً سالماً ، بقى وحده دائماً .

لا تجالس من فضل نفسه عليك ، فانه متكبر ، ولا من فضلك على نفسه ،

فانه لا يدوم ، وجالس من يراك ونفسه سواء .

من تواضع لمتكبر، أذل نفسه من غير علم، ورفع نفسه من غير حلم.

من صاحب الاشرار ، فقد أساء الظن بالاخيار ، ومن صاحب الابرار ، لم

يطلع على عيب الاشرار .

خيار المسلمين، هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن الدنيا، ولا تشغلهم

الدنيا عن الدين . الخ.

وزعموا انه لما مات وجد في خزانته شيء كثير من امر الغيب ، وان من جملة ذلك ، الجفر التطواني الذي يقول في أوله :

عامين نحرت ونزرع ونربح بعبد الخسارة
لا بد السوق يعمّر تطاون تعطى البشارة

وصاحب التقييد المذكور يعد الشيخ التبين من الاولياء الكبار ، وقد حكى عنه عدة كرامات ظهر بعضها في حياته ، والبعض الآخر بعد وفاته ، ولعل من اغربها أنه أخبر ان مدينة سبته سيجتليها الكفار ويبقون فيها مدة ثم يسترجعها من يدهم رجل قرشي من أهل البيت اسمه محمد... ؟

وأهل تطوان كانوا وما زالوا يعدون «سيدي عبد القادر التبي» من أولياء هذه المدينة .

وذكر شيخنا الرهوني ان الذي بنى القبة الموجودة الآن لهذا السيد ، هو السلطان مولاي اليزيد بن محمد بن عبد الله رحم الله الجميع .

الشيخ أبو عبد الله الفخار السبتي التطواني 586

الشيخ أبو عبد الله الفخار هو صاحب الضريح المشهور خارج باب الرموز بين سور المدينة والنهر . وعامة الناس يسمونه سيدي عبد الله الفخار . وقد ترجم له شيخنا الرهوني وذكر أنه هو «الولي الصالح الامام الهمام الناصح ، البركة المقصودة ، صاحب السير المحموده ، الشيخ الكبير ، القطب الشهير . أبو عبد الله سيدي محمد الفخار السبتي التطواني رحلة ومزارا»

وقد تقدم لنا في ترجمة الشيخ عبد القادر التبين انه لما ورد من الاندلس على سبته ، انضم اليه الشيخ ابو عبد الله الفخار وصحبه الى تطوان حيث بنى دارا ومسجدا وسوقا الخ .

ولم أقف على ترجمة كاملة للشيخ الفخار هذا ، وانما وقفت على اسمه في ترجمة الشيخ ابي العباس السبتي المتوفى بمراكش سنة 601 فقد ورد فيها انه قرأ في صباه بسبته على الشيخ ابي عبد الله ابن الفخار (I) وان هذا الشيخ (يعني الفخار) كان من الاتقياء ، وكان متقنا للقراءة والفقه والعربية وفنون من الادب مع تقوى وورع زائد وولاية ظاهرة ، وانوار شارقة (2) وفي مكان آخر من ترجمة الشيخ ابي العباس انه حفظ بالمكتب (يعني مكتب ابي عبد

(I) بعضهم يذكر هذا الشيخ باسم ابي عبد الله الفخار وبعضهم باسم ابن الفخار ، والصواب انه الفخار بدون ابن اما ابن الفخار الذي وصفه في مرآة الجنان بعالم الاندلس وشيخ المالكية فهو غير هذا قطعاً لانه توفي سنة 419 هـ .

الله الفخار) القراءان والرسالة وفنونا من الادب والمعرفة النخ. (I) وفي موضع آخر قالوا (2). وكان الشيخ ابو العباس (السبتى) يلهج فى حياته بهذه الابيات لشيخه ابى عبد الله الفخار وهى :

عقدت عليك مكنات خواطرى عقد الرجاء فالزمتك حقوقا
ان الزمان عدا علي فزادني علما بأنك خالقي تحقيقا
ما نالني كرب بوجه مساءة الا عبرت به اليك طريقا
امض القضاء على الرضى منى به انى وجدت بك بالعبيد رفيقا

فاذا سمعها يختر ساجدا فأنشده اياها حفيده أبو زكرياء وهو فى النزاع فمد يده اليه الى ان اخذ بيده فقبلها..

الا أن بعضهم ذكر ان هذه الابيات قديمة ، وأنها كانت معروفة فى زمن التابعين (3) فان صح ذلك فالشيخ الفخار انما كان يتمثل بها لا غير والله اعلم. وذكر شيخنا الرهونى انه سمع ان التادلى ترجم للشيخ الفخار فى كتابه التشوف النخ. والذي فى التشوف هو شخص آخر مدفون بمراكش . وروى عن الشيخ على الخطيب ان وفاة المترجم كانت سنة 586 وذكر ان ضريحه والمسجد الذى حوله، بناهما الباشا احمد رحم الله الجميع .

تطوان فى القرن السابع

بناء قصبة تطوان عام 685

جاء فى كتاب الاستقصا (4) ان من حوادث سنة 685 بناء قصبة تطاوين أى فى عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى الذى تولى الملك بعد والده المتوفى فى محرم سنة 685 .

ولا ندرى هل القصبة التى بنيت فى هذه السنة كانت فى الموضع المعروف الآن بالقصبة فوق المدينة لجهة الشمال، أو كانت فى الموضع المعروف الآن بحومة جامع القصبة، أو فى موضع آخر غيرهما، اذ لم نقف على ما يدل على تحقيق شىء من ذلك، الا أن الظاهر أن هذا البناء كان فى ناحية جامع القصبة. ولم نقف على غير هذا من أخبار تطوان فى هذا القرن، ويظهر أنها بقيت فيه على الحالة التى كانت عليها فى القرن الذى قبله، أى كما وصفها الشريف الادريسى الجغرافى، وصاحب كتاب الاستبصار والله أعلم .

(1) الاعلام لابن ابراهيم المراكشى ج I ص 288

(2) الاعلام « « ج I ص 252 .

(3) الاعلام « « ج I ص 297 .

(4) ج 2 ص 43 .

من رجال تطوان قبل القرن الثامن

الشيخ سيدي طلحة الدريج

الشيخ أبو يعلى طلحة بن عبد الله الدريج الاندلسي السبتي التطواني، هو صاحب الضريح المشهور خارج باب النوادر فى سفح الجبل عن يمين الداهب من تطوان الى مدشر سمسة. وهو جد عائلة الدريج بتطوان وفاس. ولم تقف له على ترجمة كاملة فى كتاب معروف، كما لم نقف على تاريخ ولادته ووفاته ولو على سبيل التقريب .

ويظهر والله أعلم أنه كان حيا فى أواخر القرن السابع، اذ جاء فى ترجمته أنه لما اشتهر أمره، طلبه أهل بادية سبتة من أمرائها العزفيين الخ. أى أيام ولايتهم على سبتة وما قاربها. والامراء العزفيون معلوم أن أول أمرهم كان باستياد زعيمهم أبى القاسم العزفى بحكم سبتة، واستتباب أمره بها فى عهد عمر المرتضى من أواخر ملوك الموحدين، وكان ذلك حوالى سنة 653 والله أعلم. وقد تكلم العلامة الاديب أبو الربيع سيدي سليمان الحوات المتوفى بفاس سنة 1231. فى تقييد له فى أولاد الدريج (I) على جدهم سيدي طلحة المذكور، ومنه تلخص المعلومات الآتية :

ذكر المؤلف أن أولاد الدريج (2) الذين كانوا فى عصره بفاس وتطوان يرفع نسبهم أولا الى ولى الله الشيخ أبى يعلى طلحة بن عبد الله الدريج الانصارى صاحب المزاراة العظمى حيث ضريحه بخارج تطوان المحروسة (يعنى حرجنا) ورفع نسبتهم اليه ثابت فى الكثير من أصدقتهم التى بخط جملة من أعيان العدول بالحاضرة الفاسية والتطوانية من أهل الضبط والتحرى من الطبقة الموثقين بهما. وهو رضى الله عنه من نسل قاضى سبتة وخطيبها العلامة الحجت ولى الله أبى عبد الله الدراج الانصارى كما فى تاريخ العلامة الحافظ أبى عبد الله محمد بن الطيب القادري، وقد صرح بأنصارية الشيخ أبى يعلى طلحة بن عبد الله الدريج، من عرف به كالشيخ العلامة عيسى بن حيون قاضى بعض

(1) هذا التقييد توجد نسخة منه فى «الخزانة الداودية» بتطوان.
(2) فى تطوان ينطقون بكلمة الدريج مضمومة الدال، أما فى فاس فيكسرونها مع كسر الراء المشددة.

أعمال سبته في تاريخ له، وزاد أنه من ذرية الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان سلفهم الأول بالاندلس كما في العرف العاطر للعلامة أبي محمد عبد السلام بن الطيب القادري، ثم انتقلوا من غرناطة الى سبته، وفيها نشأ أبو يعلى طلحة بن عبد الله، ثم خرج منها الى ناحية تطوان حيث ضريحه الآن رحمه الله، ثم ذكر أبو الربيع الحوات أن سيدي طلحة هذا، كان رحمه الله جبلا راسخا في العلوم والمعارف، مقطوعا بولايته، مشهورا بالزهد والورع والسلوك على طريقة السلف، دائم الصيام والقيام، كثير التهجد والناس نيام، ملازم الرباط للجهاد في الثغور، مقصودا للزيارة في مهمات الأمور، أمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ناشرا للشريعة والحقيقة بكل محضر، تخاف صولته في الحق ملوك العدوتين، وترجع الى رأيه فيما يعرف بين الفئتين، وتقدمه أمامها لقتال الكفار تيمنا بطالعه في طلب الانتصار، فيحمدون حركته، ويجدون بركته، كان آباؤه بغرناطة، ثم استوطن بعضهم سبته كما سبق، وبها نشأ صاحب الترجمة رضي الله عنه، ثم لما ظهر أمره وانتشر سره، واعتقده الناس بكل فاضلة وفضيلة، وانحشروا اليه من كل ناحية وقبيلة، لما شاهدوا من كمال عنايته، وعانوا من ظاهر كرامته، وكانت بادية سبته القريبة منها خالية من أمثاله، لا جرم طلبوه من بعض أمرائها العزفيين ليهتدوا بأنواره، ويستجيروا بجواره، فأجابهم الى ذلك في الحين، رغبة في اصلاح حالهم بالعلم والدين، واعلاء كلمة الله بالاستعداد، الى قوة الرباط في ثغور الجهاد، وأنزله رضي الله عنه في محلتهم بمجشر واسع العمارة، يقال له خندق الفرجة فيه عين من الماء الغزير فبقى فيهم يهتدون بهداه، ويستجيرون بحماه. وكان رضي الله عنه قويا، شهما كميا، قرنا طويل القامة، اسمر اللون يلبس جبة خضراء، له فرس يركبه للجهاد، ويقتحم به أعداء الله في كل واد، تخلق أهل المنزل بأخلاقه من النجدة والبأس ورباط الخيل لارهاب عدو الله وعدوهم، فكانوا يركبون معه في خمسين فارسا كل واحد منهم في الحرب أسد هصور، وكان رضي الله عنه يتكلم بالغيوب والحقائق، ويتأكد في الكرامات بالخوارق، الى أن توفي رحمه الله ودفن بمتعبده من المجشر المذكور حيث روضته الآن. وكان ذلك قبل احداث قرية تطاوين أولا بذلك المجشر وما حوله واستيناف بنائها ثانيا بما هي عليه لهذا العهد - (يعني عهد أبي الربيع الحوات) ولا زالت الى اليوم هناك بقية من الرسوم الاولى وعين مائه لم تزل في انهمار تسقى بها عرص أهل تطوان واجنتها التي بخارج باب النوادر حيث ضريح صاحب الترجمة رضي الله عنه. وكانت تقصده بالزيارة أكابر العلماء والاولياء كالشيخ الامام الولي العارف أبي المحاسن يوسف بن محمد الفاسي الفهري واخيه الشيخ العلامة المحقق العارف بالله أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي، وشيخ الملة الامام المحقق المتفنن أبي حامد العربي ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، وشيخ الاسلام امام الجماعة

والى الله أبى محمد عبد القادر بن على ابن الشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسي .
وكان الشيخ الولي أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الاندلسي يلتزم زيارته كلما
زار ضريح القطب مولانا عبد السلام بن مشيش في كل سنة .

وكان الشيخ العلامة الصالح التقى أبو الحسن على بن محمد بركة
الاندلسي التطواني ملتزما لزيارته في كل يوم خميس ، ويخرج اليه في كل مهم
ويستسقى به ، وغيرهم ممن لا أحصيه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .
ترجم له الشيخ العلامة المؤرخ عيسى بن حيون قاضي شقورة من أعمال
سبتة ردها الله دار اسلام ولم يذكر وفاته رحمه الله .

انتهى كلام أبى الربيع الحوات باختصار .

«قلت» وما تزال قبة الشيخ سيدى طلحة رحمه الله قائمة مشهورة ، وبها
ضريحه وهو محفوظ مصون مقصود للزيارة . وقد كانت ذريته قد انقرضت من
تطوان الا أن افرادا منها عادوا من فاس الى هذه المدينة في اواسط هذا
القرن وبعضهم يسكن قرب ضريحه مشغولين بحرفة الخرازة ، موصوفين بالخير
والدين ، مع مسكنة ومروءة وعبادة ، وهم المتولون الآن لشؤون الضريح المذكور .
وقد تكلمت على عائلة الدريج بتطوان وفاس بتوسع وتحقيق في كتابي «عائلات
تطوان» أعاننى الله على اتمامه بمنه وكرمه .

تطوان في القرن الثامن

بناء تطوان في أوائل القرن الثامن

بنيت تطوان بناء جديدا في اوائل القرن الثامن للهجرة ، وظلت مدينة
عامرة محصنة الى ان خربت في اوائل القرن التاسع ، فقد جاء في كتاب
«القرطاس» لابن ابى زرع اثناء كلامه على دولة ابى ثابت عامر بن عبد الله بن
أبى يعقوب المريني ما ياتي : (I)

«ولما فرغ من اهل جبل علودان ، ارتحل فدخل طنجة في اول المحرم عام
ثمان وسبعماية ، ثم اخذ في بعث الجيوش الى احواز سبتة ، وشرع في بناء
مدينة تطوان ، وبعث الفقيه أبا يحيى ابن أبى الصبر رسولا الى ابن الاحمر
يطلب منه ان يتخلى له عن سبتة ، واقام هو بقصبة طنجة ينتظر ما ياتي به
رسوله ، ففاجأه الموت فتوفى بها في يوم الاحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان
وسبعماية» هـ .

وذكر المؤرخ الاسباني منويل كاستيلانوس في كتابه «تاريخ المغرب» (I) أنه بعد ان توفي ابو ثابت وقام مقامه اخوه ابو الربيع سليمان، رفع الحصار عن سبتة، وامر بالاستمرار في بناء تطوان والسرعة في ذلك، فلم تمض مدة حتى كانت مبنية كاملة الاسوار.

وفي الاستقصا ما يلي (2) «بناء مدينة تطاوين - ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة. هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون (3) واعلم ان تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا ان قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة، وذلك لاول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بنى السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح ثمان وسبعمائة، وكان بناؤها خفيفا شبه القرية عدا قصبتها فان بناءها كان محكما وثيقا، واستمرت هذه المدينة عامرة الى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة».

فمن هذه النصوص عرفنا ان تطوان كانت مدينة كاملة الاسوار. عامرة من أوائل القرن الثامن الى صدر القرن التاسع، أي في العصر الذي عاش فيه مؤرخ المغرب العلامة ابن خلدون، وأديب الاندلس لسان الدين ابن الخطيب، فهل ورد لتطوان ذكر في كلام هذين الرجلين الكبيرين اللذين بحثا كثيرا وألفا كثيرا وكانا من الكتاب المحققين والمؤلفين الممتازين؟

اما ابن خلدون فذكر تطوان في مقدمته عند كلامه على الاقليم الرابع ونص كلامه: «وعند ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث، يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم تيطاوين (4) ثم باديس».

هكذا ذكر ابن خلدون تطوان ولم يصفها لا بكبر ولا بصغر بل اقتصر على لفظ تيطاوين ولم يقل مدينة تيطاوين كما قال في مدينتي طنجة وسبتة.

(I) ص 34 طبع طنجة بالاسبانية سنة 1898

(2) ج 2 ص 46

(3) عبارة ابن خلدون هكذا: «وامر باختطاط بلد تيطاوين لنزول معسكره والأخذ بمخنق سبتة» ج 7 ص 237.

(4) هكذا في نسخة المقدمة المطبوعة بباريس سنة 1858 ص 118 وفي بعض النسخ المطبوعة بمصر وببيروت، أبدلت لفظة تطاون بلفظة قطاون بالقاف بدل التاء وهو خطأ ظاهر.

واما ابن الخطيب (I) فانه لم يذكر تطوان بالكلية فى كتابه «معيان الاختيار

(I) ابن الخطيب، هو العالم الاديب المؤرخ، ذو الوزارتين، لسان الدين، محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماى الاندلسى. ولد بمدينة لوشة قرب غرناطة سنة 713 ونشأ بعاصمة غرناطة، حيث درس مختلف العلوم فبرز فيها، وكان عالما كبيرا وأديبا ممتازا وكاتبا مبدعا وشاعرا مجيدا. وقد ألف كتباً كثيرة فى التاريخ والادب، وانتظم فى سلك موظفى حكومة الاتدلس، فعين وزيرا وسفيرا، وتقلب بين أحضان العز والامتحان، وسكنى القصور والسجون، وزار الغرب سفيرا محترما الجنب، ولاجئا كسير الجناح، ومدح ملوك المغرب وصلاحه، وأقام ببعض مدنه معززا مكرما مدة من الزمن، الا أن منافسيه وحساده لم يهدأ لهم بال حتى زج به فى سجن فاس، ثم دسوا اليه من قتله خنقا سنة 776 وقبره معروف خارج باب محروق من فاس. وقد وقفت عليه مرارا أثناء دراستى بفاس فى العقد الرابع من هذا القرن، وكان فى ذلك العهد قبرا عاديا مهملا لا بناء عليه، وكنت أقف حوله كثيرا وأتأمل حاله فأتأثر من منظره القمل، وتتجمع العبرات فى عينى فأقرأ الفاتحة وأترحم على لسان الدين العالم الاديب الممتاز، ثم انصرف الى مدرستى وأنا فى نحو العشرين من عمري متعجبا من هذا الاهمال المخجل الذى تواطأ عليه الجهال والعلماء، والولاة والاغنياء، والاعبياء والنبهاء، ومرت السنون وأبيع لى الدخول الى فاس بعد أن لبثت بضع عشرة سنة ممنوعا رسميا من دخولها هى وجميع الناحية التى ابتليت بالنفوذ الفرنسى، فعدت لزيارة هذا القبر الذى أجل صاحبه، فوجدت القوم قد بنوا حوله سورا بسيطا قصيرا، وفى وسطه باب صغير، متواضع بل حقير وقد غرسوا جنب القبر شجرة تين، الا أن جوانب هذا السور لا يكاد الانسان يستطيع الوصول اليها لكثرة القاذورات المتراكمة حولها، والروائح الكريهة المتصاعدة منها، ولا حول ولا قوة الا بالله. مع أن ابن الخطيب من الرجال الذين يحق لبلاد الاندلس والمغرب أن تفتخر بهم، وهو فى مقدمة الافراد الممتازين الذين يستحقون الخلود لنبوغهم فى العلم والادب والتاريخ، ولكن ديننا هذا حالها. ولقد كان تكريم لسان الدين والوفاء له فى نظرى ديننا على هذا المغرب الذى اختاره وفضله وأوى اليه فكان مثواه الاخير، حتى وفق الله أخانا ورفيقنا وحبيبنا العلامة الصالح أبا عبد الله محمد بن أبى بكر التطوانى السلوى قألف فيه كتابا شفى الغليل، فجزاه الله على بره وثبلة خير الجزاء، ورحمة الله على لسان الدين العالم الاديب الخالد، وهدى الله ذوى المروءة والنجدة من أهل فاس، العاطرة الانفاس، ووفقهم لبناء ضريح عظيم، لهذا الرجل العظيم، فى هذا البلد العظيم. وهو سبحانه القادر على أن يوفق أهل مدينة مراکش الامجاد، الفضلاء الاجواد، لتشييد ضريح آخر للمعتمد ابن عباد، أديب الملوك، وملك الادباء، وما ذلك على همة نبلاء فاس ومراكش بعزيز.

اما اذا قام رجال دولتنا - هداهم الله - بما هو واجب على الامة المغربية من العناية بضريح امير المسلمين يوسف بن تاشفين مفخرة المغرب وبطل الاسلام، فهم انما يغسلون بذلك عار اهمال عظمائنا عن امتنا. فاللهم وفقهم للخير وأعنهم عليه .

فى ذكر المعاهد والديار» (I) ذلك الكتاب الذى وصف فيه المدن الاندلسية والمغربية التى كانت فى عصره، ومن بينها مدينتا سبتة وطنجة القريبتان من تطوان، فما هو السبب فى اغفاله لذكر تطوان ؟ مع أنها كانت موجودة قطعاً طول حياته كما يعلم ذلك من النقول السابقة؟ الظاهر أن تطوان كانت فى ذلك العهد مدينة صغيرة لدرجة أنها لم تكن تستحق الذكر الى جانب المدن الاخرى التى وصفها، أضف الى ذلك ان ابن الخطيب يصف المدن وأخلاق أهلها وعوائدهم، وتطوان فى ذلك العهد كانت حديثة العهد بالعمارة الجديدة، وسكانها اذ ذاك لعلمهم كانوا خليطاً من الناس، فلم تكن لهم أخلاق خاصة وعوائد متميزة يوصفون بها، وذلك هو شأن المدن الحديثة العهد بالعمارة. والله أعلم .

تطوان فى جل القرن التاسع

قال الناصرى فى الاستقصا (2) «وفى هذه المدة - أى فى حدود سنة ثمانمائة - خربت تطاوين القديمة ايضا، فزعم منويل (3) فى تاريخه، ان قراصين المسلمين من اهل تطاوين وغيرهم، كانت تغير على سواحل اصبانيا وتغنم مراكبها، ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية، الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية، بعث الطاغية الريكى الثالث شكوادره (4) لغزو تطاوين ومراكبها، فانتهدت الى وادى مرتيل وافسدت قراصين المسلمين التى به ثم نزلت عساكر

(I) معيار الاختيار، هو كتيب فى شكل مقامة، وقد وصف فيه مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب، المدن المغربية والاندلسية الاسلامية التى كانت فى عصره وصفاً أدبياً، وبين محاسن كل مدينة ومساوئها وأخلاق أهلها وعوائدهم . وفى خزائنى «الداودية» منه نسخة طبعت بفاس سنة 1325، وعدد صفحاتها 54 وأهم المدن المغربية المذكورة فى هذا الكتاب هى : سبتة - طنجة - القصر الكبير - اصيل - سلا - الدار البيضاء - ازهور - تيط - اسفى - مراكش - اغمات - مكناس - فاس - سجلماسة - تازا الخ.

(2) ج 2 ص 146.

(3) منويل هو الراهب الاسباني منويل كاستيلانوس MANUEL P. CASTELLANOS وكان مقيماً فى مدينة طنجة بالمغرب، وقد ألف بلغته الاسبانية كتاباً سماه HISTORIA DE MARRUECOS «تاريخ المغرب» وعدد صفحاته يقرب من السبعمائة .

(4) شكوادره، كلمة اسبانية معناها هنا اسطول بحرى.

الإصبيول للبر، فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها، وخربت وعاثت فيها، وبقيت خربة نحو تسعين سنة، ثم جدد بناؤها على يد الرئيس ابي الحسن على المنظري الغرناطي الخ. (I)

وذكر المؤرخ الاسباني مارمول Marmol y Carvajal في تاريخه أن مدينة تطوان كانت في ذلك العهد عامرة جدا بالسكان المسلمين، وأنهم كانوا يرسلون قراصينهم للغارة على سواحل المسيحيين، وأن أسطول قشتالة خرب مدينة تطوان وأسقط معظم أهلها أرقاء، وأن هذه المدينة بقيت فارغة مدة تسعين عاما حتى اجتاز المنظري الى افريقية الخ. وفي الأرشيف ماروكان بعد نقل هذه الحادثة، أن العساكر الاسبانيين خربوا تطوان عن آخرها وقبضوا على كل من بقي بها وأخذوه أسيرا ورجعوا به الى بلادهم، واضمحل أثر البلد حتى صار أحرشا وغابات الخ.

ومن ذلك نعرف ان جل القرن التاسع قد مر على تطوان وهي مخربة (2)

(II) الاصل الذي نقل عنه الناصري هنا موجود في ص 34 من الطبعة الثالثة من تاريخ منويل المذكور، وقد ذكر مؤلفه في هامشه أنه نقل ذلك عن مرمول في كتابه المسمى، وصف عام لافريقية - وعن كمنسالييس داثيلا في كتابه تاريخ انريكي الثالث .

(2) لقد كان القرن التاسع للهجرة - كجل القرن العاشر، عهد محنة وبلاء على الاسلام والمسلمين بالاندلس والمغرب، ففي ذلك العهد وقع القضاء على آخر دولة اسلامية عربية بالاندلس التي يصفها علماء الشرق بالفردوس الاسلامي المفقود .

وفيه اجلي مسلموها عن بلادهم التي أقاموا بها نحو ثمانية قرون كونوا فيها حضارة كانت أرقى حضارة موجودة بالدنيا في ذلك العصر .

وفيه استولى الافرنج على جل موانئ المغرب وشواطئه، فبعد تخريبهم لمدينة تطوان سنة 803 كما علمت، استولوا على سبتة سنة 818، وعلى القصر الصغير سنة 862 وعلى طنجة سنة 869 وعلى أصيلا سنة 876، كما احتلوا انفا - أي الدار البيضاء ايضا - وكل ذلك قبل تجديد بناء تطوان سنة 888 وسقوط غرناطة سنة 895 .

ثم احتلوا الجديدة سنة 907 والعرائش سنة 910 واكادير وسواحل سوس سنة 910 ايضا، ثم أسفى سنة 912 وازمور سنة 914 . والمعجزة سنة 920، الا أن المغريبين استيقظوا من غفلتهم وقاموا في وجه المعتدين على بلادهم فحاربوهم وطردوهم طردا قضى على قواتهم المادية والادبية وكانت معركة وادي المخازن سنة 986 هي مفتاح الخير، لان الشعب المغربي قد اعتمد فيها على الافعال لا على الأقوال، فمحقت جيوش المسلمين قوات الاجانب المعتدين، وقضت على استعمارهم، وكسرت شوكتهم الى الآن، وبذلك غسل المغريبيون عار الاستعمار عن أرض بلادهم، واسترجعوا شرف وطنهم الاسلامي المقدس.

الباب الثاني

وفيه فصلان

الفصل الاول

- 1 - بناء الاندلسيين لتطوان الحديثة
- 2 - حالة تطوان وأهلها في أواخر القرن التاسع

مدينة تطوان الحديثة، هي تطوان الموجودة الآن، وهي التي بناها مهاجرو الاندلس في أواخر القرن التاسع الهجري على أنقاض تطوان القديمة، وذلك أنه لما ضاق الحال بمسلمي الاندلس عند استيلاء الافرنج على جل بلادهم، صار كثير منهم يفضلون الاحتفاظ بدينهم على البقاء في وطنهم، فأخذوا يتركون بلادهم الاندلسية الجميلة ويهاجرون الى غيرها من بلاد الاسلام ليعيشوا بين اخوانهم المسلمين متمتعين بحريتهم الدينية تحت ظل الحكم الاسلامي الشريف. ولقد كانت تلك الهجرات متقطعة في فترات مختلفة التاريخ، وكان من بين اولئك المهاجرين عدد من أهل غرناطة التي كانت عاصمة آخر دولة اسلامية بالاندلس .

ركب المهاجرون الغرناطيون البحر قاصدين بلاد المغرب، وسرعان ما وصلوا الى الشاطئ المغربي المقابل لاندلسهم، فنزلوا أمام مدينة تطوان القديمة التي ذكرنا سابقا ان الاسبانيين كانوا قد خربوها، وأنها بقيت خالية نحو تسعين سنة، وبعد أن اتخذ المهاجرون المذكورون اجراءات سنينها، بنوا مدينة تطوان من جديد، وهذا البناء الاندلسي بتقسيماته وشوارعه ومنعرجاته لا زال جله موجودا الى وقتنا هذا .

ونحن الآن أمام استفهامات نرى من الفائدة ان نعرضها ونجيب عنها وهي:
أولا - ما هو عدد الاندلسيين الذين هاجروا من غرناطة الى شمال المغرب وجددوا فيه بناء تطوان وسكنوها .

ثانيا - ما هي الاجراءات التي اتخذوها للتوصل الى بناء هذه المدينة والسكنى بها ؟

ثالثا - من هو رئيسهم الذى أشرف على بنائها وتولى الحكم فيها ؟
 رابعا - كيف كانت صفة هذه المدينة عند ما تم بناؤها الاندلسى ؟
 خامسا - ما هى الاماكن الاولى التى بنوها بتطوان ؟
 سادسا - ما هو تاريخ بنائها بالتدقيق ؟
 سابعا - كيف كان موقف سكان القبائل المغربية منهم أثناء بنائها ؟
 ثامنا - ماذا عمل سكان تطوان بعد بنائهم لها ؟
 تاسعا - ما هى الارباض التى اضيفت الى المدينة بعد بنائها ؟
 هذه اسئلة تسعة اجاب المؤرخون عنها ونحن سنعرض ما وقفنا عليه من كلامهم مع تعليقاتنا الخاصة على ذلك فيما يلى :

1 = عدد الاندلسيين الذين بنوا تطوان

أما عدد المهاجرين الاولين الذين وفدوا من الاندلس على المغرب وجددوا بناء مدينة تطوان. فنجد فيه ثلاث روايات.
 فأبو محمد سكيرج مؤرخ تطوان، ذكر أن عددهم كان نحو الثمانين .
 والعلامة أبو حامد الفاسى المتوفى بتطوان، ذكر ان عددهم كان ستة وأربعين رجلا وعشر نسوة .
 وصاحب مخطوط قديم كتب بتطوان، ذكر أنهم كانوا نحو الاربعين دارا .
 وهذه الروايات الثلاث وان كانت فى الظاهر مختلفة، الا أن من الواضح أنه لا منافاة بينها، ومن السهل الجمع بينها بأن عدد أولئك المهاجرين كان ثمانين شخصا منهم ستة وأربعون رجلا وعشر نسوة ونحو عشرين طفلا وانهم كانوا يسكنون نحو الاربعين دارا .
 وقد وقفت فى كناش قديم على أبيات يظهر أن ناظمها قالها عقب الفراغ من بناء تطوان، وهى مؤيدة لما رواه سيدى العربى الفاسى .
 وانى مثبتها هنا على ما فيها من ضعف وتصحيف وهى هذه :

قد بنيت تطاون يقينا	عام تفاحة من السنين
فى شهر شعبان فى حرف الزاء	ابتدأوا الحفير والبناء
وكمليت عند تمام الكاف	قد صح ذا عندى بلا خلاف
وكان عدة الرجال الأبرار	ميم وزاء ليس ثم أكثر
وعدة النساء نقط الياء	فهؤلاء أسسوا البناء

ومضمن مدلول هذه الابيات، ان مدينة تطوان الحديثة قد وقع الشروع فى حفر أسسها وبناء جدرانها فى اليوم السابع من شهر شعبان عام (تفاحة) أى سنة 889 . ولعل مراده من شطر البيت الثالث أن الفراغ من بناء هذه المدينة كان بعد مرور عشرين سنة على الشروع فى ذلك البناء، اذ عدد

عشرين هو مدلول حرف الكاف وفي البيتين الرابع والخامس ذكر أن عدد الأشخاص الذين أسسوا البناء هو من الرجال مدلول حرفي الميم والزاي، أي سبعة وأربعون، ومن النساء مدلول حرف الياء أي عشرة. والله أعلم.

والذي يظهر أن بعض الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب كانوا أولا منفردين، لأنهم عند خروجهم من وطنهم كانوا يجهلون مصيرهم، فلما استقر بهم الحال رجعوا بأنفسهم أو بعثوا إلى من تخلف من أقاربهم أو أصدقائهم فجاءوا من بقي من أهلهم. وعلى كل الروايات فإن أولئك المهاجرين الأولين إنما كانوا يعدون بالعشرات، لا بالآلاف ولا بالمئات ولكن مما لا شك فيه أنه وصل عدد آخر من المهاجرين بأثر ذلك خصوصا بعد أن أكمل بناء المراكز الأولى بتطوان واستقر بها أهلها وتم استيلاء الأفرنج على غرناطة وقضى على آخر دولة إسلامية بالأندلس. وهذا ليون الأفريقي (I) الذي يسميه الأسبانيون: JEAN LEON AFRICAIN ويسميه الفرنسيون JUAN LEON AFRICANO يذكر لنا في كتابه أن المنظر الذي حكم تطوان بعد بنائها «كانت تساعد في أعاليه ثلاثمائة من نخبة فرسان غرناطة وأشجعهم» (2) وليون الأفريقي ولد بغرناطة عقب استيلاء الأفرنج عليها وبعد بناء تطوان ببضع سنوات، وقد نقل إلى المغرب صغيرا ونشأ به وزار تطوان بنفسه وحكى عما شاهده فيها بعينه.

(I) ليون الأفريقي هو الاسم الذي يطلقه الأوربيون على الجغرافي البحاث الحسن بن محمد الوزان الأندلسي الغرناطي المغربي الفاسي. وقد كان مولده بغرناطة حوالي سنة 901، أي بعد بناء تطوان بسنوات قليلة، وحمل إلى المغرب صغيرا فنشأ ودرس بفاس ثم جال في المغرب والمشرق وبينما هو راجع إلى بلده في البحر إذ أسره قراصنة أوريبيون وذهبوا به إلى نابولي، فلما عرفوا أنه من أهل العلم قدموه هدية إلى البابا جان ليون العاشر صاحب روما. وكانت لهذا البابا عناية بعلوم العرب فتلقاه بالقبول وأدخله في حاشيته وسماه باسمه - جان ليون، فتعلم عدة لغات وألف عدة كتب. وقد وجد بخطه في آخر قاموس طبي ألفه، أنه كان بمدينة بلونيا في إيطاليا سنة 930 هـ. 1524 م. وفي سنة 932 هـ 1526 م. كان بروما حيث أتم كتابه (وصف إفريقيا) وقد ذكر بعض المؤرخين الأفرنج أنه غادر إيطاليا إلى بلاد الإسلام ورجع إلى دينه الإسلامي.

وهذا الشخص له شهرة عظيمة في الأوساط العلمية في العالم بسبب كتابه الجغرافي التاريخي (وصف إفريقيا) وهو كتاب يدل على سعة اطلاعه ودقة ملاحظاته، وقد ترجم إلى الإيطالية وطبع بها سنة 1550. ثم ترجم إلى اللاتينية والفرنسية والألمانية، وطبع عدة مرات في ثلاث مجلدات يزيد عدد صفحاتها على ألف فهو من أشهر وأقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت بأوروبا - أما باللغة الأسبانية فقد نشر منه معهد فرنكو بتطوان مجلدا يحتوي على القسمين الأول والثاني منه في سنة 1940.

(2) ج 2 ص 255 من طبعة باريس سنة 1897.

و نحن وان كنا نعلم ان ابو الصخاني، وانه بالناسي قلب، الا اننا لا نعرفه
نسافر اصحاب الخيال، ونكتفي اليوم بان ننظر ان يعيش العرب العربي
في ظل دولة وطنية مستقلة عزيزة عزة الاسلام والاسلامي العربي العربي العربي
يعيشي

على أن الذي يشتر الاستغراب هو استهزاء بعض الأجانب بما يحملة
المسلمون والعرب في المشرق والمغرب من ذكريات نحو ما ضيقتهم بلاد الأندلس ،
وما يبدو أنه من عطف وحنان وحب لتلك البلاد التي يسمونها بالفرودس الاسلامي
الفرودس العرب عاشها التي الشمانية القرون أن القرون يرون أن تلك التي بلاد
والمسلمون في بلاد الأندلس ، غير كافية لتخليد جنبها والعطف عليها ، في قلوب
البناء العرب وأحفادهم إلى الأبد ، وكانهم لا يعرفون أن الحنين إلى البلاد
الاسلامية الأمة الحضارة الإسلامية راية راحل وحمل ، والمسلمين إليها ، وحمل راية
والثقافة العربية بها مرة أخرى ، يشعر به ملايين من الناس في مختلف أنحاء
العالم العربي والاسلامي .

الذين كانوا يقرءون من عقاب محاكم التفتيش بالاندلس .

سعد من قبائل غماره». وفي

[illegible]

قدم المساواة بدلا من الحروب او الاحتلال او الاستعمار. والله على كل شيء قدير (I) .

2 - لاجراءات التي اتخذها الاندلسيون لبناء تطوان

قد وجدنا عدة روايات عن الاجراءات التي اتخذها الاندلسيون للتوصل الى بناء تطوان الحديثة .

فأبو محمد سكيرج المؤرخ التطواني ذكر انهم شرعوا في البناء فقاومهم سكان الناحية، فرفعوا أمرهم لامير الوقت فاعتذر لهم بقلة المال عنده وقتئذ، وأذن لناظر القرويين بفاس في أن يسلفهم من وفر الاحباس، فأسلفهم أربعين قطارا أي أربعين ألف مثقال .

وذكر أيضا ان الامير المذكور وجه معهم أربعين من أهل فاس وأربعين من أهل الريف ليحموهم من كل اعتداء، يقع عليهم من سكان القرى المجاورة لتطوان .

ومنويل كاسطيانوس المؤرخ الاسباني، ذكر أنهم لم يقدموا شيئا على الوفاة على سلطان المغرب، فأذن لهم في تجديد بناء تطوان (2). وقد قال الناصري في الاستقصا ما نصه : (3)

«قال مانويل، لما استولى الاصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها الى المغرب، فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين، ولما نزلوا به لم يقدموا شيئا على الوفاة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي، فأجل مقدمهم ورحب بهم، فقالوا ان ضيافتنا عندك، أن تعين لنا موضعا نبني فيه بلدا يكننا ونحفظ

(I) هذه العبارات تركتها كما كتبت يوم كان المغرب مقسما بين دولتي فرنسا واسبانيا، والحكم الاجنبي مسيطر على البلاد، خائق لحرية أبنائها، ولكن الدهر - كما قلت - أبو العجائب. فقد كافح أحرار المغرب واضمحلت حمايتان الافرنسية والاسبانية، واسترجعت الامة المغربية حريتها واستقلالها وتوحيد اراضيها والحمد لله .

(2) كانت طنجة وسبتة ومليلية عواصم لشاطئ المغرب على المجاز والبحر الابيض المتوسط ويمتد نفوذ هذه المدن الى الداخل لمسافة تقرب من مائة كيلومتر، وبذهاب هذه المدن الثلاث بقي المغرب الساحلي بلدا لا احد، فلما بنى الاندلسيون تطاون أصبحت عاصمة لهذه الاقطار كلها ولم تكن عاصمة سياسية بل ان الوضع الجغرافي هو الذي أعطاها هذه الاهمية، وكان المغاربة يخشون الدنو من الشواطئ لقربها من العدو، لكن الاندلسيين اعتادوا ان لا يكون بينهم وبين العدو ارمية سهم فكانوا في تطاون يرون انفسهم على بعد كبير من العدو في حين ان المغاربة كانوا يحسبونهم في فم الذيب ت. و.

فيه عيالنا من أهل الريف، فأجابهم الى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة .

وجاء فى المخطوط القديم أنهم بعد ما جاءوا من الاندلس تفرقوا فى قرى الجبل ثم ذهبوا الى مولاي على بن راشد بشفشاون وطلبوا منه اصلاح تطوان. وذكر العلامة سيدى العربى الفاسى فى تقييده، «أن نزولهم هناك - أى فى المكان الذى بنوا فيه مدينة تطوان - كان على يد السيد المجاهد سيدى على ابن راشد الشريف العلمى (I) وهو أمير الجبل وبانى شفشاون».

والذى نستخلصه من مختلف الروايات، أن المهاجرين الاندلسيين بعد أن نزلوا بالشاطىء المغربى، أى فى وادى مرتيل أمام تطوان، قصدوا دواخل البلاد المغربية ونزلوا فى مختلف قراها الجبلية القريبة من الشاطىء - وكانت مدينة تطوان فى ذلك العهد مخربة - ثم اتصلوا بالشريف المجاهد مولاي على بن راشد العلمى بمدينة شفشاون، وقد سبق ان وفد عليه بعض مهاجري الاندلس ومنهم القائد المجاهد أبو الحسن المنظرى الغرناطى، فاتفقوا على أن يجدد المهاجرون الغرناطيون المتحضررون بناء مدينة تطوان المتهدمة، وأن يقوموا بعمارتها من جديد، الا أن عملا مهما كهذا، لا بد فيه من اذن سلطان المغرب وهو اذ ذاك محمد الشيخ الوطاسى، فتوجهوا اليه وهو بفاس فاستقبلهم احسن استقبال وساعدهم على ما طلبوا، ثم أمدهم بالمال والرجال كما ساعدهم ايضا الشريف الجليل مولاي على بن راشد صاحب شفشاون وبانيها وحاكم هذه النواحي الجبلية فى ذلك العهد .

3 - رئيس الاندلسيين الذين بنوا تطوان

قد وقع الاتفاق من المؤرخين على أن رئيس الاندلسيين الذين بنوا تطوان الحديثة، هو القائد المجاهد أبو الحسن على المنظرى الغرناطى أحد قواد بنى الاحمر، وأنه هو الذى أشرف على بناء هذه المدينة وتولى الحكم فيها وبقي قائما بأعمال الجهاد باقليمها الى أن توفى بها ودفن خارج باب المقابر منها وما زال قبره مشهورا يزار حتى الآن .

(I) سيدى على بن راشد وصفه سيدى العربى الفاسى فى كتابه «مرآة المحاسن» (ص 168 طبع فاس سنة 1324) بأنه هو الامير الجليل الفاضل الاصيل أبو الحسن على بن موسى بن راشد بن على بن سعيد بن عبد الوهاب ابن علال بن مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنهم، وذكر أنه كان قائما بأمر الجهاد والاستنفار له وجمع الجموع وتجييش الجيوش الخ. وأنه شرع فى اختطاط شفشاون فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها - أى قبل بناء تطوان بقليل - ونزل الناس بها فبنوا وصارت فى عداد المدن الى أن توفى سنة سبع عشرة وتسعمائة وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى ان أخرجهم منها السعديون سنة 969 .

٤ - صفة تطوان الحديثة في أول أمرها .

أما صورة تطوان الحديثة في أول أمرها، فقد وصفها سيدي العربي الفاسي في تقييده بما نصه :

«انها بلد مربع، وقصبتها في ركنها، ولها ثلاثة أبواب، وسورها في عرضه سبعة أذرع، ودار بالسور الاول سور ثان وبعده دارت الحفائر وأعظمها حفير القصبة، ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظرى قصبة اكملها في عشرين سنة .»

ويعنى بالقصبة التى فى ركن المدينة، المكان المعروف الآن بجامع القصبة اذ كانت فيه القصبة التى بناها المنظرى داخل المدينة وجعلها مقرا له ومركزا للحكم وادارة شؤون المدينة ونواحيها. وما زالت أبراج هذه القصبة قائمة الى الآن .

ومقتضى كون هذه المدينة مربعة الشكل، وأن قصبتها واقعة فى ركنها أى الركن الجنوبى الغربى منها كما هو مشاهد حتى الآن ان حدودها وأسوارها كانت تبتدىء من البرج الواقع فى أقصى جنوبها الغربى، وهو البرج الذى ما زال قائما حتى الآن فى الزاوية الجنوبية من سوق الحوت القديم، وهو المشرف على شارع الساقية الفوقية .

والسور المتصل بهذا البرج ما زال موجودا حتى الآن بين حومة جامع القصبة وسوق الحوت القديم، ويمتد هذا السور شمالا نحو ساحة الغرسة الكبيرة حتى يصل الى قوس السفاجين الذى هو الفاصل بين المدينة القديمة والغرسة الكبيرة التى كانت كما يدل عليه اسمها ارضا مغروسة لا بناء فيها ثم يمتد السور شمالا ايضا فى اتجاه جبل درسة حتى يصل الى المقابر ثم يتحول نحو جهة الشرق حتى يصل للمكان القريب من باب الجياف الآن ثم يتحول قليلا نحو الجنوب حتى يصل للقوس الواقع على رأس سلوقية سيدي السعيدى ثم يمتد جنوبا خلف الدور الواقعة شرقي المسجد الاعظم الآن حتى يصل الى الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، ومحلها الآن فيما نرى هو القوس الذى بين حومة البلد وحومة الربض الاسفل من ناحية حومة الجنوى قرب زاوية سيدي ابن الفقيه. ثم يمتد السور غربا فيصل الى القوس المتصل بالزاوية الناصرية ثم يمتد غربا ايضا خلف حوانيت النجارين الآن الى شارع الساقية الفوقية حتى يتصل بالبرج الذى يشرف على هذا الشارع متصلا بسوق الحوت القديم وهو الذى ابتدأنا منه أولا .

وهذه الاسوار الاولى قد اختفى الكثير منها عن الانظار عند ما بنى الناس الى جانبها فاتصلت المدينة الاصلية ببعض أرباضها ولم يبق هناك فاصل ظاهر بينهما

أما ابواب المدينة الاصلية، فقد ذكر الشيخ أبو حامد الفاسي - كما رأيت - أنها ثلاثة، أحدها كان في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة، وهو الذي كان يعرف بالباب السفلى، لان الخارج منه ينزل الى السهل المنخفض عن المدينة، المنتهى الى شاطئ البحر، والمفهوم لدينا ان محل هذا الباب هو القوس الواقع على رأس سلوقية سيدي السعيدى بينها وبين حومتى الجامع الكبير والمطمر . والباب الثانى كان - والله أعلم - جنب الزاوية الناصرية متصلا بالفندق المعروف بفندق النجار (I) .

اما الباب الثالث فكان فى الجهة الغربية من المدينة والغالب على الظن أنه كان بين شارع الصياغين والخرازين، وان كان من المحتمل انه كان فى القوس المعروف الآن بقوس السفاجين، والذي يظهر ان هذه الابواب الثلاثة هى التى كانت لتطوان عندما جدد بناؤها وأدير عليها السور الكبير، وأنه عندما ألحقت بالمدينة أرباض جديدة، صار الاتصال بها بواسطة فرجات أو أقواس فتحت فى السور المذكور، وربما كان من بين تلك الفرجات، القوس الواقع بين حومة الجنوى والجامع الكبير، والله أعلم.

وذكر الشيخ أبو حامد أن الحفائر كانت دائرة بالاسوار، والذي يظهر أن تلك الحفائر كانت فى ظروف خاصة، أى عند ما كانت المدينة مهددة بالهجوم عليها من أعدائها أو المناوئين لاهلها، ويظهر أيضا أن القسم الغربى من المدينة كان محصنا بالابراج المتينة، أما بقية الاقسام وخصوصا الجنوبى منها، فقد كان الاعتماد فى حفظها على الاسوار العالية مع محارسها الصغيرة والحفائر التى تتصل بها ويعسر معها الوصول اليها فضلا عن تسلقها .

وذكر أبو حامد أيضا أن المدينة «يعلوها من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظرى قصبة أكملها فى عشرين سنة». فالجبل المذكور هو جبل درسة (وبعض الناس يطلقون على هذا الجبل جبل القصبة) وهو كما قال أبو حامد وكما هو مشاهد الآن، واقع فى جهة الجوف من المدينة أى فى الجهة الشمالية الغربية منها، وقد كان قداماؤنا يطلقون الجوف على جهة الشمال .

فالذى بنى هذه القصبة هو القائد المجاهد أبو الحسن المنظرى رحمه الله.. ومن تنمة كلام الشيخ أبى حامد أن الذين باشروا بناء هذه القصبة هم الاسارى الافرنج يوم كانت اليد العليا والعزة العظمى للمسلمين فى هذه البلاد. وأن المدة التى استغرقها هذا البناء هى عشرون سنة كاملة، والذي نفهمه والله أعلم أن هذه المدة الطويلة هى التى تم فيها بناء القصبة مع السور المتصل بها، والذي يبتدىء من أعلى باب المقابر ويصعد الجبل الى برج القصبة ثم

(I) هذا الفندق هدم كله عام 1374 هـ. 1954 م. وأضيف الى الزاوية الناصرية التى جعل لها باب جديد فى نفس المكان الذى كان به باب الفندق .

يسير نحو الغرب ثم ينحدر الى المحل الذى به باب النودار ، لان هذه القصبه
انما جعلت هناك لتحصين هذه المدينة وللدفاع عنها من جهة الشمال، وذلك لا
يتأتى الا بذلك السور والله أعلم.

والمفهوم أن اسم القصبه كان يطلق فى تطوان على موضعين اثنين،
أحدهما هو المعروف الآن بحومة جامع القصبه حيث الجامع المذكور، والآخر
هو الواقع فى الجبل حيث الحصن المعروف حتى الآن بالقصبه، وكلا
الموضعين من بناء القائد المنظرى رحمه الله .

5 - أقدم ما بنى من تطوان الحديثة

لعل أقدم ما بنى من تطوان الحديثة، هو قصبته أى مركز الحكم بها ،
وما يتعلق بذلك من بيت المال والسجن وغير ذلك من الأماكن الرسمية، وهذه
القصبه كما هو مشاهد حتى الآن، واقعة فى الزاوية الجنوبية الغربية من
المدينة ومحلها هو المكان المعروف الآن بحومة جامع القصبه. وكانت هذه
القصبه محصنة بالأسوار المتينة والأبراج العديدة التى ما زالت قائمة حتى الآن
والموضع الذى بنيت به هذه القصبه، هو الذى يواجه جميع من يرد على تطوان من
جهة الغرب ، أى من جل بلاد المغرب.

ومن أقدم ما بنى من تطوان الحديثة، حومة البلد، وبالأخص ما بين
جامع القصبه والجامع الكبير وجامع الرابطة. وقد كان سور المدينة من أول ما
بناه الأندلسيون للتحصن بداخله من غارات الجلبين الذين كانوا متضايقين
من ذلك البناء، فكانوا يعاكسون أولئك الأندلسيين وربما كانوا يهدمون بالليل
ما يبنيه الآخرون بالنهار. وقد كان ذلك السور واسعاً ذكروا أن عرضه
سبعة أذرع، وما زال قسم كبير منه ظاهراً الى الآن وهو الموجود بسوق
الحوت القديم والغرسه الكبيرة والصباغين .

وذكر السكيرج أن المهاجرين الذين بنوا دورهم فى عهد القائد المنظرى ،
كانوا يجعلون بجانب بيوتهم حدائق (أى كما يفعل أهل هذا العصر فى الدور
الجديدة) وأنه لما توفى المنظرى، خالف الناس تلك العادة الخ. ولعل الداعى
لهم الى ذلك، هو ضيق المجال وكثرة السكان قبل بناء أرباض المدينة.

وبنى أيضاً المسجد الجامع، وهو جامع القصبه الذى ما زال معروفاً بهذا
الاسم الى الآن، وقد جدد بناؤه فى أوائل هذا القرن.

والحمام المعروف بحمام سيدي المنظرى أو الحمام السطيطو فى الزنقة
التى بين الزاوية الريسونية وساحة الوسعة، هو أيضاً من بناء الأندلسيين .
وكذلك الفران أى الفرن الذى قرب جامع القصبه هو أيضاً من بناء
المنظرى وأصحابه، وبعضهم يذكر أن الحمام الذى بناه المنظرى كان متصلاً

بجامع القصبة، وأنه ما زال قسم منه موجودا الى الآن وهو الخزين الذى بين المحكمة الشرعية والجامع، ويستدلون بسقفه على أنه كان قطعة من الحمام المذكور .

والابراج الموجودة على السور الكبير الذى فى ناحية سوق الحوت القديم وما يتصل به، جلها من بناء المنظرى والاندلسيين، والقسم الاعلى من أحد تلك الابراج، وهو قائم الذات الى الآن، كان مخصصا للحراسة الدائمة، لانه كان مشرفا على جميع الضواحي المحيطة بالمدينة، وعلى السهل الفسيح الذى ينتهى عند البحر المتصل ببلاد أعداء ذلك العهد .

وهناك أماكن أخرى كثيرة من بناء ذلك العهد وما قرب منه، وخصوصا داخل الدور التى فى الحومة المذكورة. وكذلك بعض الاقواس المؤلفة من قطع حجرية كبيرة منحوتة ما زال بعضها ظاهرا الى الآن مثل القوس الذى خلف جامع القصبة من جهة باب المقصورة، وكذلك قوس آخر فى وسط الزنقة التى تصل بين شارع المطامر وجامع بن صالح - الشحيت - وآخر فى درب صمعان وهو الدرب المنحنى الذى يواجه النازل من زنقة حمام أمحلى وغير ذلك. والقصبة العالية التى بجبل درسة وهى الحصن المشرف على المدينة من الجهة الشمالية، هى ايضا من أقدم ما بني من هذه المدينة. اذ الذى بناها هو المنظرى ايضا كما قلنا .

ومن العادى أن يكون بعض أبنية ذلك العهد قويا متينا فيبقى على مقاومة الحوادث وتبقى أعيانه قائمة نراها الى الآن، وان يكون البعض الآخر بناء عاديا استغل مائة او مئات من السنين ثم تداعى فبنى غيره مكانه، فتلك سنة الله فى صنع الانسان، الا أن من المعروف أن الشوارع والدروب والمنعجرات التى فى هذه الناحية كلها ما زالت على الصفة التى اختطها الاندلسيون. أما الدار التى كان يسكنها القائد الحازم أبو الحسن المنظرى فلا نتحقق الآن مكانها بالتدقيق وان كان من الطبيعى أن تكون حول جامع القصبة، لان تلك الناحية هى التى بها المسجد الجامع وكان بها مركز الحكم ومصاعد الابراج التى كانت مركزا للحراسة. وقد ذكر السكيرج أن أبا الحسن المذكور بنى داخل السور دارا له، وأنها كانت فى زمنه - أى فى زمن السكيرج المتوفى فى أواسط القرن الماضى - معروفة تدعى دار السكة قرب سوق الحوت . وبعض الشيوخ يحكى أن مكان تلك الدار هو البقعة التى كانت فى أوائل هذا القرن فندقا للحوالة، ثم بنيت المحكمة الشرعية الحالية فى مكانها سنة 1354 هـ 1935 م. وشيخنا الميرير حفظه الله يظن أن محلها هو الدار المجاورة للمسجد من جهة القبلة وهى التى جدد بناءها الناظر المرحوم السيد محمد بن عبد السلام القناوى وهى الآن فى ملك ابنائه والله أعلم بالحقيقة .

٦ - تاريخ بناء تطوان الحديثة بالتدقيق

وأما تاريخ بناء تطوان الحديثة بالتدقيق، فاننا نجد فيه روايتين، إحداهما لأبي محمد سكيرج وصاحب المخطوط القديم الذي هو أقدم من السكيرج، وهما معا تطوانيان، والرواية الأخرى لليون الإفريقي وسيدى العربى الفاسى .

فالسكيرج ذكر أن بناءها كان عام 888 . ونص كلامه : «وأما بناؤها فالمشهور المنقول عن السلف والخلف أنها بنيت عام 888 واليها يشير من رمز لبنائها بقوله : (تفحة) بحساب الجمل، إذ التاءان عددهما ثمانمائة، والفاء ثمانون، والحاء ثمانية» .

وسلفه صاحب المخطوط القديم ذكر أن ذلك البناء كان سنة 889. وهذه عبارته : « كان ذلك آخر المائة التاسعة فى تسع وثمانين منها واليه يشير بعضهم بحساب الجمل بتفاحة، التاءان كل واحدة منهما بأربعمائة والفاء بثمانين والحاء بثمانية، والالف بواحدة، الجميع ثمانمائة وتسع وثمانون» ولا منافاة بين كلام السكيرج وسلفه لأن بناء مدينة لا يتم فى عام واحد فلعل من أرخ بعام 888 قصد سنة الشروع فى بنائها، ومن أرخ بعام 889 قصد تاريخ الفراغ من أهم أبنيتها.

أما ليون الإفريقى فبعد أن ذكر أنها بقيت فارغة خمسة وتسعين عاما، ذكر أنه بعد انتهاء المدة المذكورة جدد بناءها وسكنها القائد الغرناطى الذى جاز إلى سلطان فاس بعد أن نفاه ضون فرناندو ملك اسبانيا من مملكته، أى إن بناءها كان بعد استيلاء الاسبانيين على غرناطة، ومعلوم أن ذلك الاستيلاء انما كان فى سنة 897 هـ. وبالتدقيق انه كان فى اليوم الثانى من ربيع الاول من السنة المذكورة، وهو موافق لليوم الثانى من يناير سنة 1492. فالفرق بين التاريخين كما ترى نحو تسع سنين، وهو فى الحقيقة غير كثير، وأنا كنت أولا أرجح رواية السكيرج وسلفه صاحب المخطوط القديم لأميرين، الاول انهما من تطوان، والشأن فى أهل كل بلد أن يكونوا أعرف من غيرهم بتاريخ بلدهم والثانى أن روايتهما هى التى يتناقلها الخلف عن السلف إلى الآن، حتى انهم زيادة فى التحقيق رمزوا لذلك التاريخ كما علمت بلفظ تفاحة أى سنة 889. ولكننى توقفت أخيرا فى ذلك الترجيح لأنى وقفت على تقييد فى كناش قديم بخط الفقيه الشريف سيدى التهامى بن محمد بن رحمون التطوانى الذى كان حيا بهذه المدينة عام 1143، وهذا التقييد منقول من خط العلامة سيدى العربى الفاسى صاحب مرآة المحاسن، وكان سيدى العربى المذكور ساكنا بتطوان وبها توفى سنة 1052 وقد جاء فى التقييد المذكور ما نصه :

«ان هذا البناء الأخير كان على يد جماعة من الاندلس قدموا إلى هذه العدو حين استولى الكفرة دمرهم الله على الجزيرة أعادها الله للإسلام، وذلك

مكتبة
الجامعة
بفاس
الطبعة
الاولى
١٩٥٢

فى شعبان لسبع خلت منه عام 898 . وهذا التاريخ يوافق من التاريخ الميلادى فاتح يونيه سنة 1493 أى بعد سقوط غرناطة بسبعة عشر شهرا . وسيدى العربى الفاسى كان ثقة صاحب تدقيق وهو أقدم من وقفنا على كلامهم من المؤرخين المغربيين فى الموضوع . وقد علمت أنه عاش بهذه المدينة قبل تاريخنا هذا بأكثر من ثلاثمائة سنة . وقد حدد تاريخ قدوم الاندلسيين لتطوان بالسنة وبالشهر واليوم . وفى ذلك من التدقيق ما لا يخفى . على أن الذى يظهر والله أعلم هو أن المهاجرين الذين وفدوا على تطوان عقب احتلال غرناطة كانوا من الكثرة والاهمية بحيث تنوسى عدد الذين سبقوهم ، وربما كان هؤلاء اللاحقون يعدون بالمئات أو الالوف فى حين أن السابقين انما كانوا يعدون بالعشرات فقط ، فلذلك نسب البناء الى اللاحقين بدل السابقين ، وربما لاحظ المؤرخون أن السابقين الاولين انما اختطوا المدينة وبنوا سورها وأبراجها مع ما يكفى عددهم القليل من الدور وتوابعها ، فنسب اليهم تأسيس المدينة ، وأرخ ذلك بسنة 889 ثم لما لحق بهم اخوانهم عقب احتلال غرناطة وبنوا دورهم الكثيرة بالمدينة وعمروها بالصنائع والحرف وغيرها ، نسبت اليهم لوفرة عددهم وكثرة ما بنوا فيها من الدور والمعاهد والاسواق ، وأرخ ذلك بسنة 898 . والعوام – عوام الفكر او العلم – فى كل زمان ومكان ، مولعون بالمغربيات من الاخبار ، والمتدينون منهم وان كانوا متعلمين ، يبتهجون ويتلقون بالفرح والقبول كل شىء له علاقة بالكرامات ، وبالامور التى تنسب ، إما للدين وإما لرجال الدين ولو كانت من وضع السياسيين المستغلين لطيبة قلوب الاخبار . ولعل من هذا القبيل ما حكاه أبو محمد سكيرج فى تاريخه عند كلامه على بناء تطوان ، من أنه بينما كان أهل هذه المدينة ذات يوم يبنون سور البلد ، وقد حل وقت الاكل فجلسوا يأكلون ، اذ انتحى رئيسهم السيد المنظرى ناحية غير ناحيتهم ، فوجد بها رجلا كله نور ، فلما سأله من هو ؟ أجابه بأنه محمد رسول الله ... فقال له يا سيدى ، ادع لهذه البلدة ، فقال له أنا ضامن لها ان شاء الله ، ان يكن الناس فى النعم الى الركبة ، تكن هي الى العنق ، وان كان الناس فى الشر الى العنق ، تكن هي الى الركبة .

وهذه الحكاية وان كانت هى وامثالها مما ينشر للدعاية ولغيرها ، فان من الناس من لا يزال يعتقد أنها حكايات واقعية ، وأن مصداقها ما يزال صحيحا واقعا ... والله فى خلقه شؤون .

وما أظن الحديث المروى فى فضل فاس وسكانها وفى المغرب وأهله الا من هذا القبيل – والحقيقة أن الاستغلال كان ، وما زال ، وسيبقى ، وانما تتبدل صورته ووجوهه ، كما تتبدل ألقاب الذين يستغلون الناس ، وصور الجماعات والافراد الذين يستغلهم الناس . وتلك سنة الله فى خلقه .



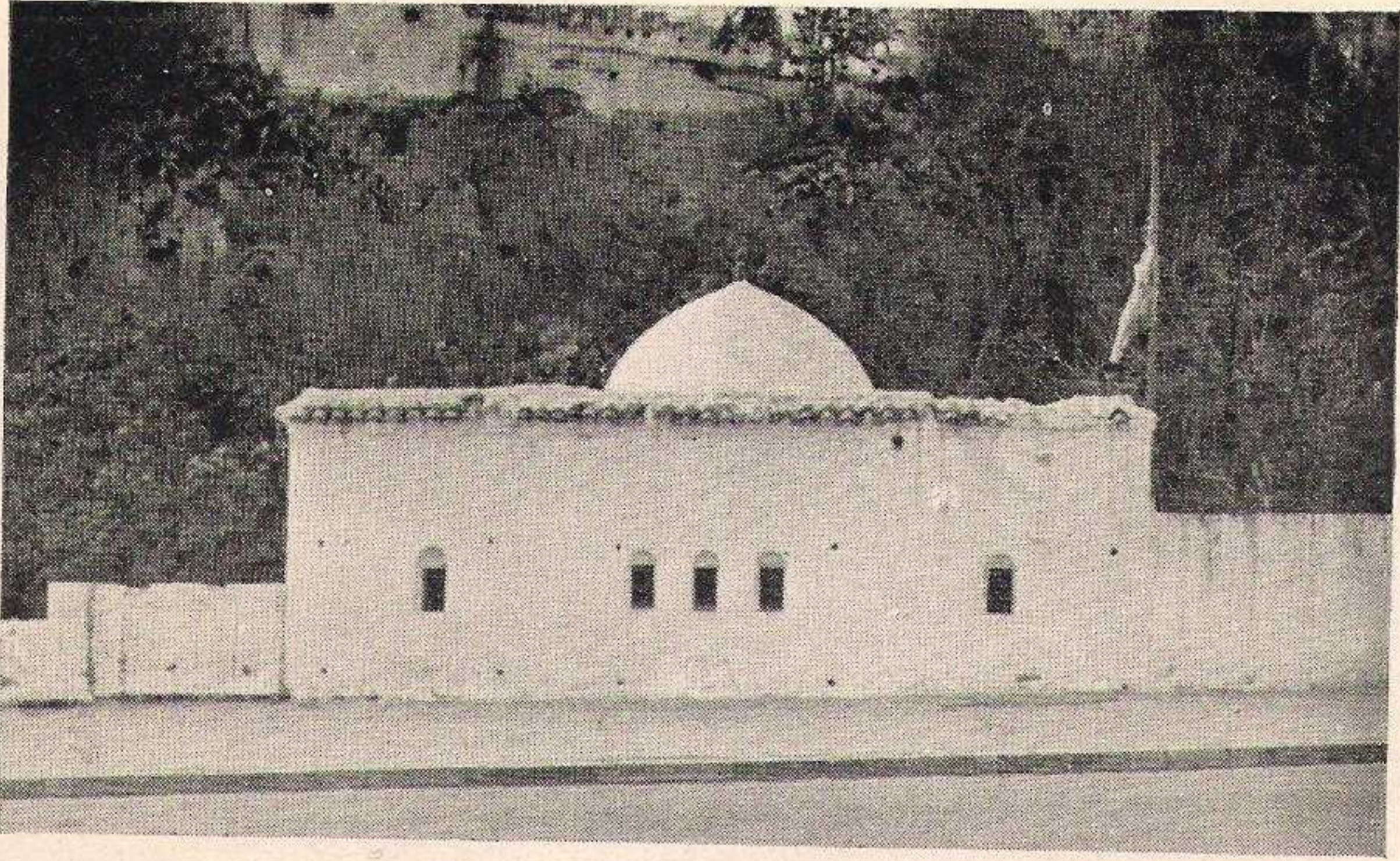
رقم 9) قوس حجرى من بقايا «تمودة» التى هى من الاثار الرومانية قرب مدينة تطوان
انظر ص 62 - 63



(رقم 10) منظر عام لآحدى نواحي الخرائب الموجودة الان فى تمودة الرومانية قرب تطوان
ويلاحظ فيه ان بناء ذلك العهد كان بالاحجار الضخمة التى لم يستعمل مثلها فيما بعد عند
تجديد بناء تطوان فى اواخر القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)
وفى اقصى الصورة يظهر بعض القسم الغربى من ضواحي تطوان



(رقم 11) ناحية اخرى من اثار «تمودة» الرومانية، ويظهر بعض النهر، نهر تطوان الذى يمر بجانبها ويصب فى البحر الابيض المتوسط، وهى على الضفة اليمنى منه، والجبال التى بأعلى الصورة من قبيلة الحوز، اما تمودة نفسها ففى ارض قبيلة «بنى حزم» والقبيلتان معا «جبلتان» تتكلمان باللغة العربية دون غيرها مثل بقية قبائل تطوان اى القسم الغربى من شمال المغرب



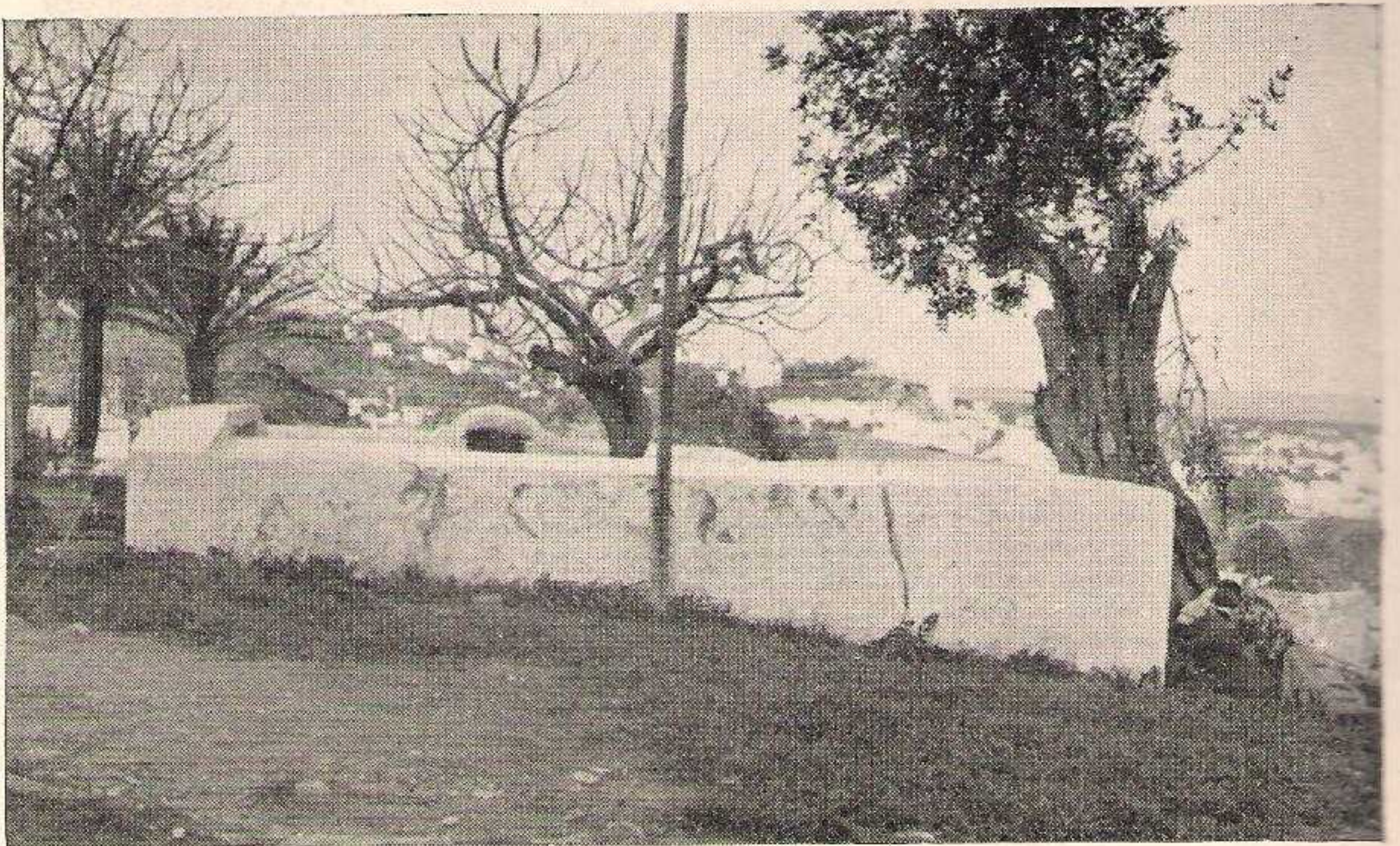
(رقم 12) قبة تحتها ضريح العالم الصالح الشيخ عبد القادر التبين الاندلسي التطواني
من رجال تصوان في القرن السادس - وسرواقع عن يمين الذهاب من باب العقلة الى باب
الرموز خارج اسوار تطوان ص 72 - 73



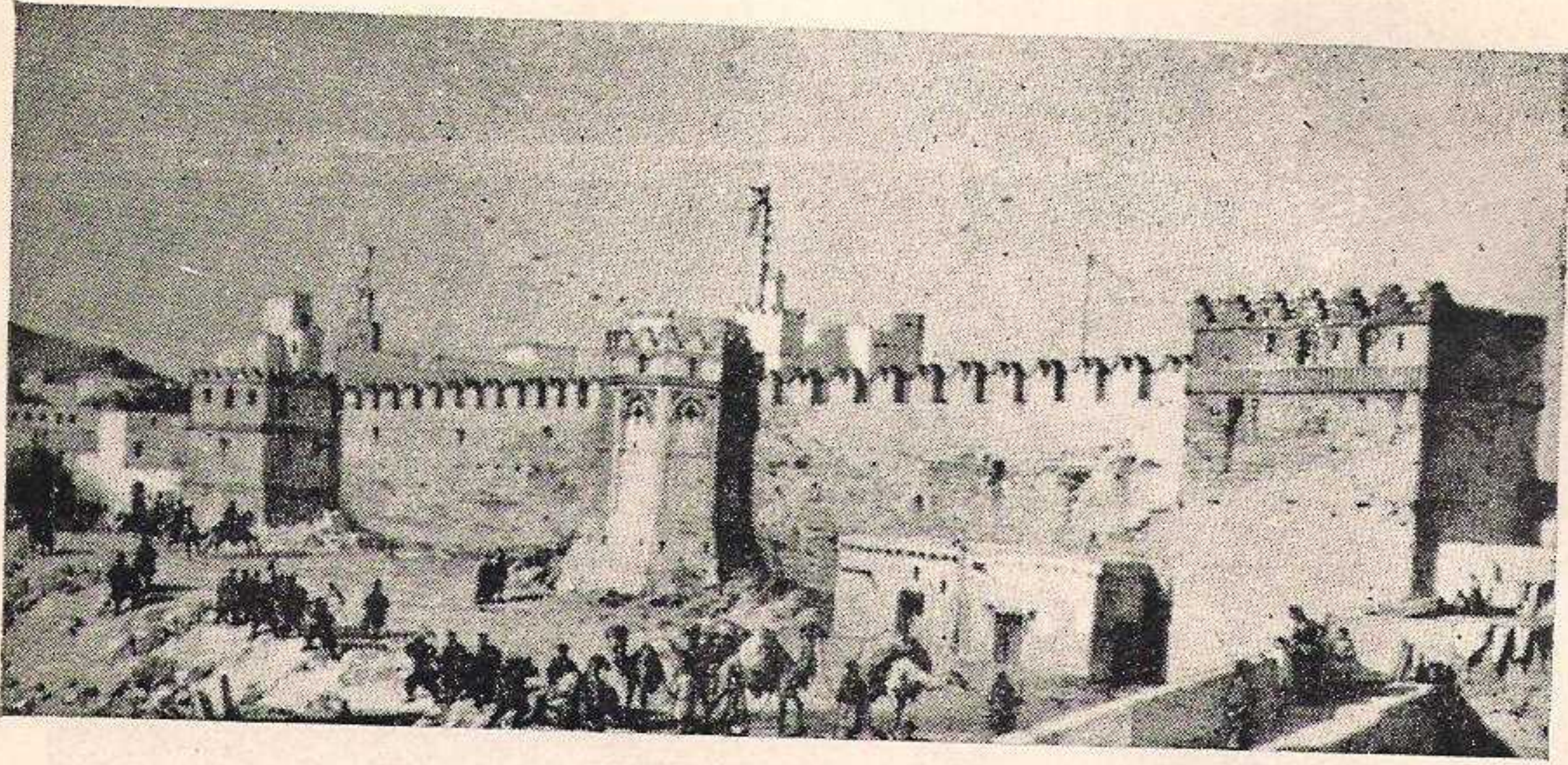
(رقم 13) قبة تحتها ضريح الشيخ ابي عبد الله الفخار السبتي التطواني - من رجال
تطوان في القرن السادس - وهي واقعة خارج باب الرموز



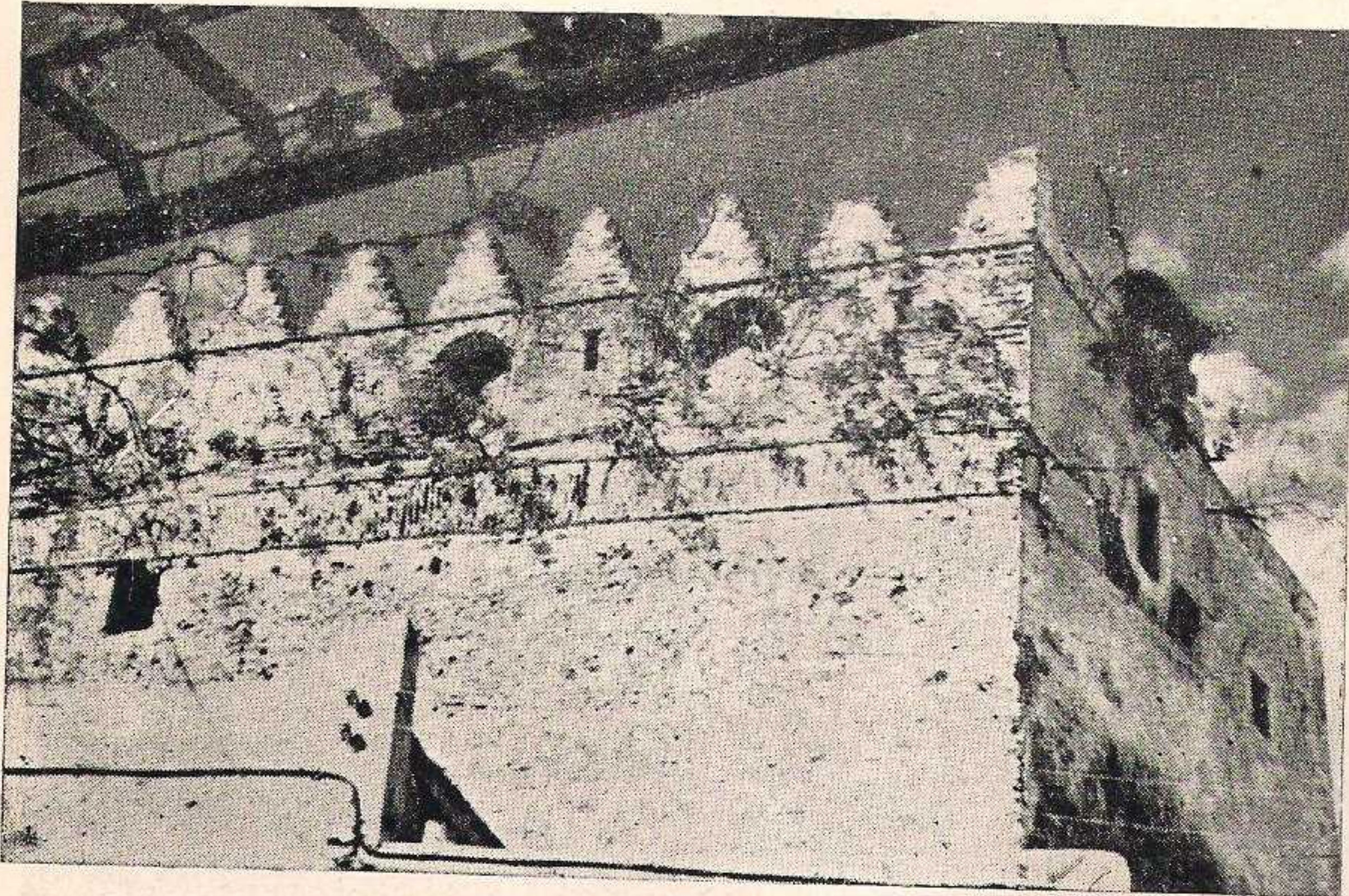
(رقم 14) ضريح الشيخ الصالح المجاهد ابي يعلى طلحة الدريج السبتي التطواني، من رجال تطوان وصلحائها، وهو واقع خارج باب النوادر بتطوان، وسيدى طلحة، هو جد اولاد الدريج بتطوان وفاس ص 77



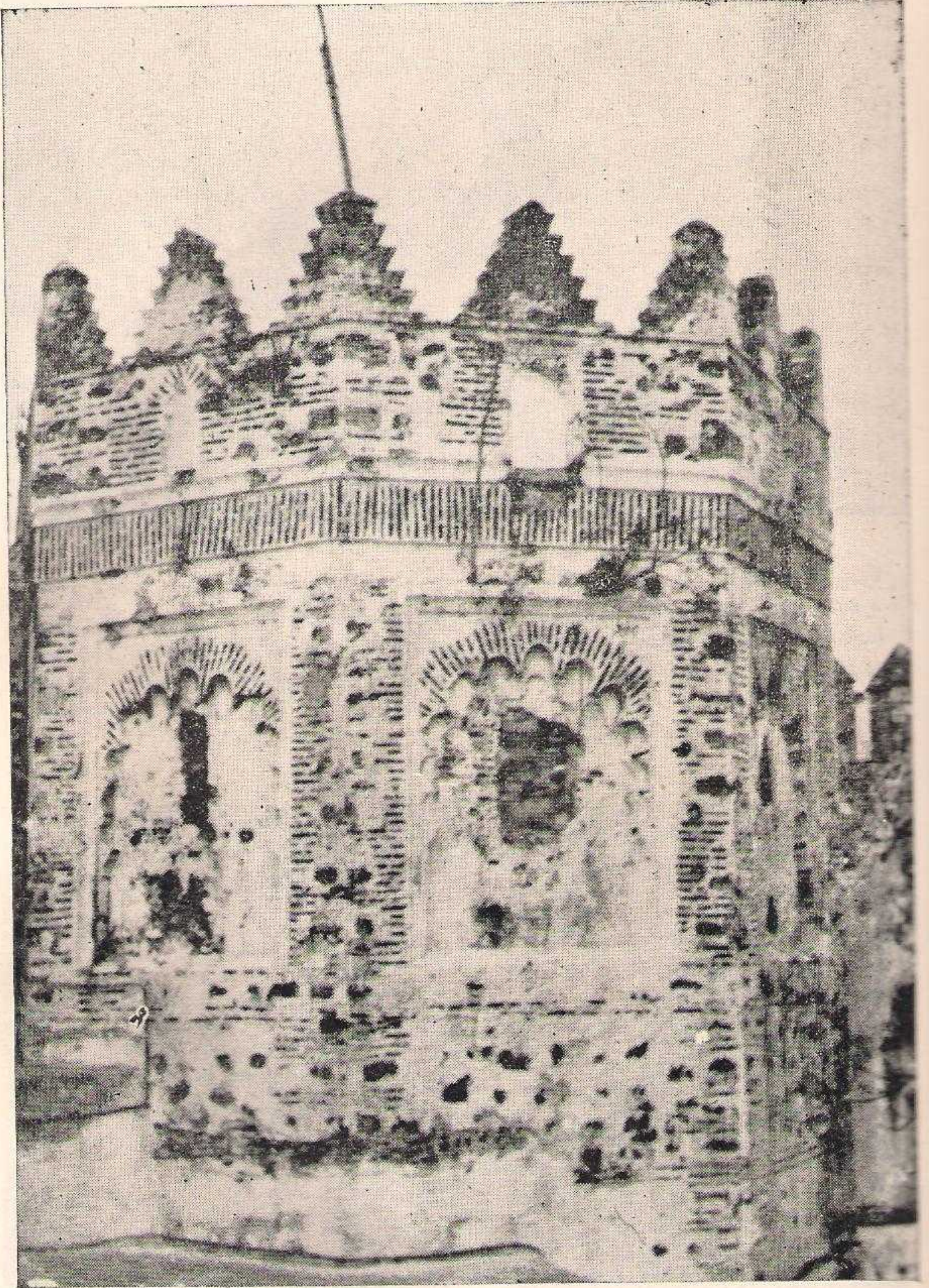
(رقم 15) حوش في وسطه ضريح المجاهد الكبير ابي الحسن على المنظري الاندلسي التطواني، مجدد بناء تطوان وشيخها وحاكمها في اواخر القرن التاسع للهجرة الموافقة لواخر القرن الخامس عشر للميلاد وهو جد اولاد المنظري بفاس وتطوان



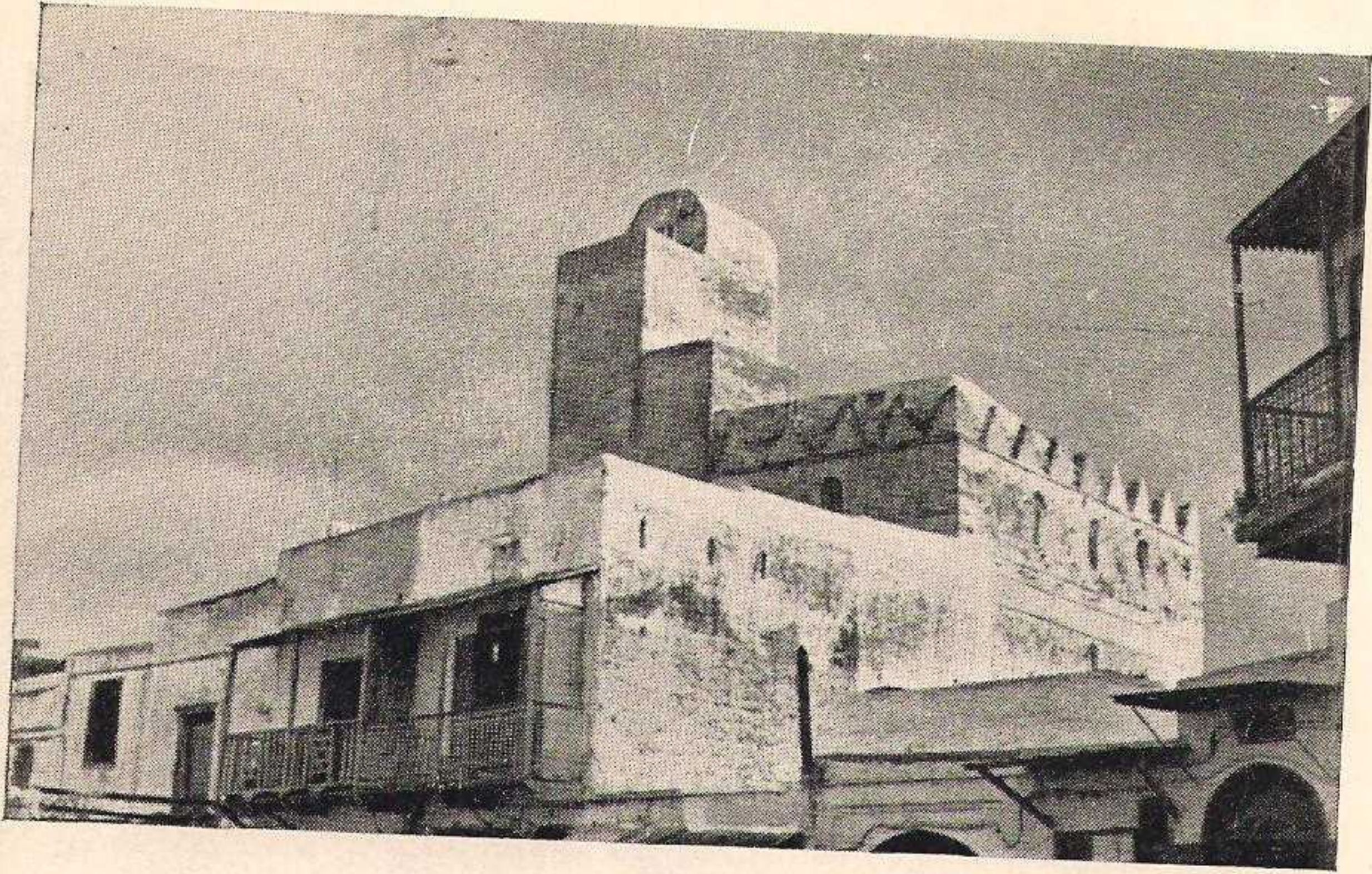
(رقم 16) بعض الاسوار والابراج التي بنيت بتطوان في القرن التاسع وقد اخذت هذه الصورة منذ نحو مائة سنة، والابراج الثلاثة الظاهرة فيها مع السور الذي بينها، ما زالت موجودة الى الان بين الساقية الفوقية والغرسة الكبيرة ص 91 - 94



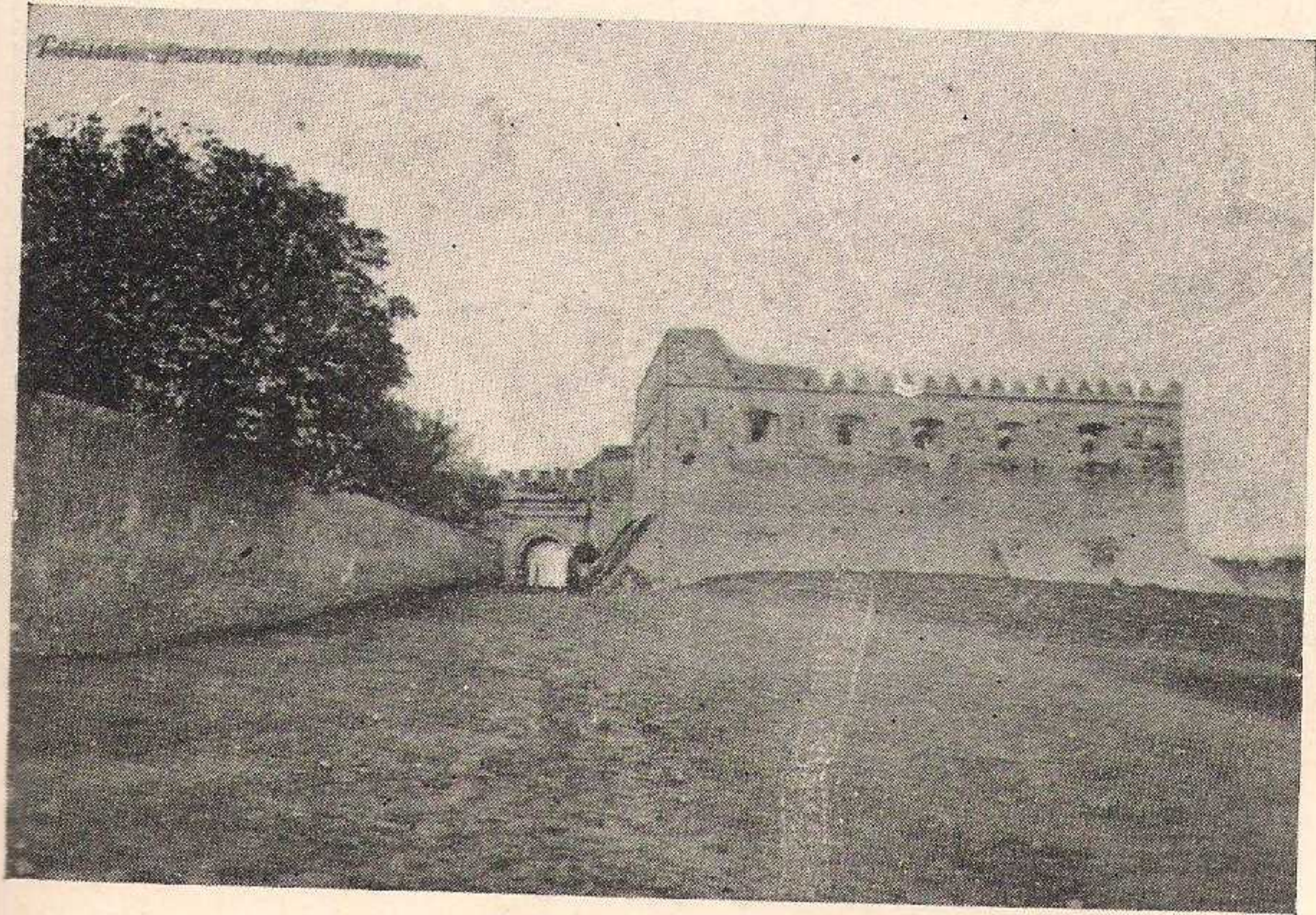
(رقم 17) احد الابراج التي بناها الاندلسيون المهاجرون من غرناطة الى تطوان في اواخر القرن التاسع للهجرة، وهو واقع عند رأس شارع الساقية الفوقية متصلا بسوق الحوت القديم



(رقم 18) احد الابراج التي بنيت بتطوان عند تجديد بنائها في اواخر القرن التاسع للهجرة - اواخر القرن الخامس عشر للميلاد - وهذا البرج واقع بين سوق الحوت القديم والفرسة الكبيرة ص 91



(رقم 19) برج الحراسة الدائمة بتطوان ويظهر جليا من السباغين وانغرسه الكبيرة ويقع هذا البرج قرب جامع القصبة، وهو من اول ما بنى عند تجديد تطوان سنة 889 هـ 1484 م وكان مركزا لحراسة هذه المدينة التي كانت رباطا للمجاهدين، وثغرا لحماية الشواطئ المغربية الواقعة على البحر الابيض المتوسط، وهو مشرف على جميع ضواحي تطوان وخصوصا على السهل الذي بينها وبين البحر وكان به حرس ينفخ في النفير عند الشعور بالخطر، خصوصا من اعداء الاسلام والعروبة والمغرب



(رقم 20) باب النوادر ويقع في الجهة الغربية من تطوان حيث ينتهى شارع العيون والى جانبه يظهر البرج الكبير الذى اهمل فانهك في عهد الحماية الاسبانية

خريطة

مدينة تطوان

هكذا كانت خريطة مدينة «تطوان» منذ نحو قرنين، أي من حوالي أواسط القرن الثاني عشر إلى أواسط القرن الرابع عشر للهجرة، إذ كانت تطوان محاذة من جميع جهاتها بسور عال يفصل بينها وبين خارجها بحيث لا يدخل إليها ولا يخرج منها إلا بواسطة أحد الأبواب السبعة التي بذلك السود، وهي : باب التون. باب الرموز، باب العقلة، باب السعينة، باب الجياف، باب المقابر، باب النوادر .

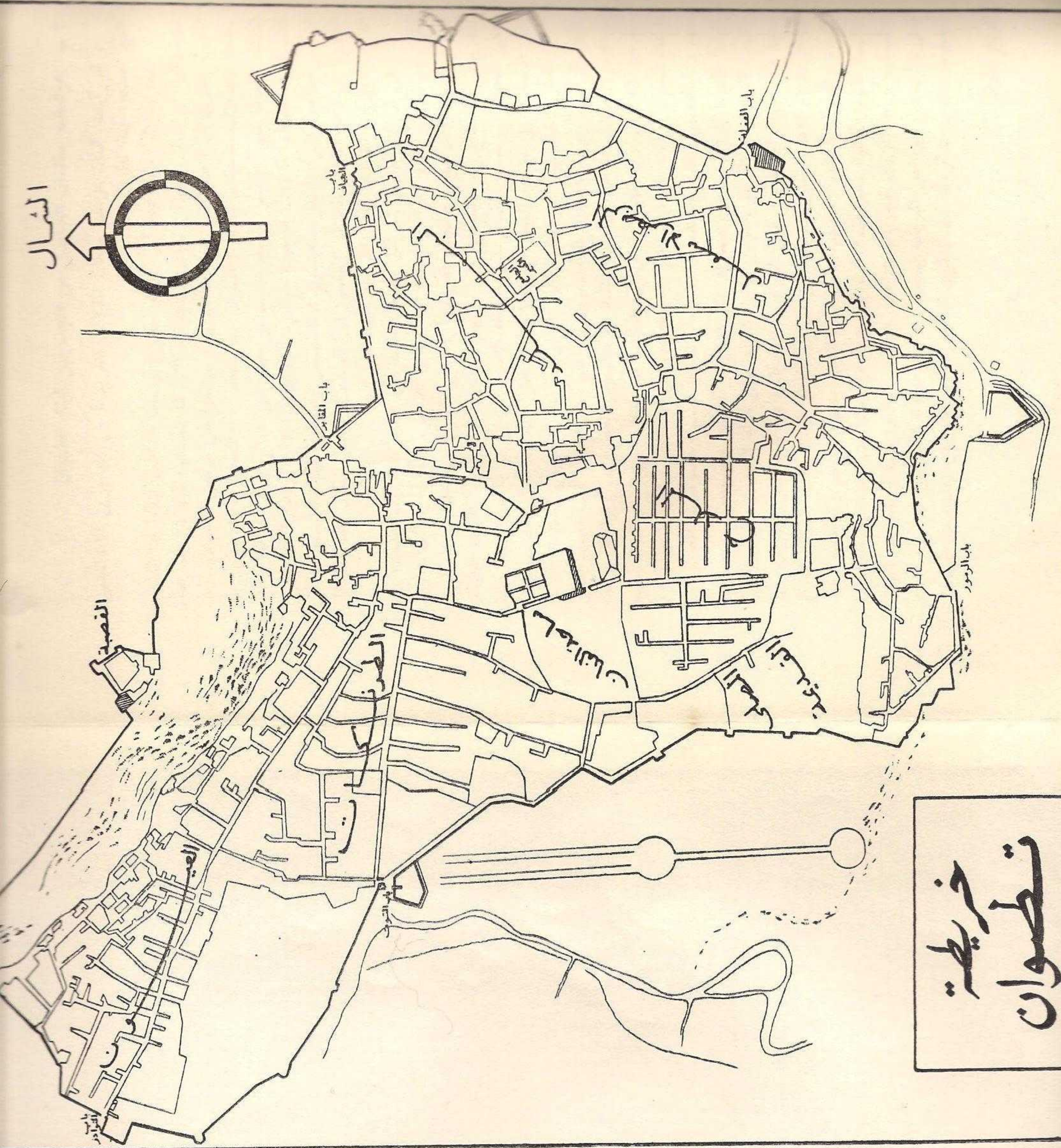
وبرى في شمال الخريطة موقع القصبية ، وهي حصن واقع في الجبل الذي تقع المدينة في سفحه. وقد بين في هذه الخريطة موقع كل حومة من حوماتها الكبيرة ، فحومة البلد في الجهة الشرقية منها، وفي ضمنها الرض الأعلى إلى السوق القوي وظالته وزنقة المقدم، وحومة الرض الأسفل (السفلى) في الجنوب الشرقي منها، وفي ضمنها حومة السوق منها، وفي ضمنها حومة السوق وما اتصل بها .

أما حومة الطرناك، ففي جهتها الغربية وفي ضمنها شارع النيارين ودوربه وظالته ، وبينها وبين الرض الأسفل ساحة القندان وحومتا المصلى القديمة والملاح (حارة اليهود) .

ثم في الشمال الغربي للمدينة تقع حومة العيون، وفي ضمنها السانية وظالمتها . وتلاحظ في سور المدينة لتوان بارزة هي أبراج الحراسة .

وهذه الخريطة عملت لتطوان سنة 1277 هـ 1860 م، أي منذ نحو مائة سنة، أما خريطة تطوان الحالية فيناسب نشرها عند الكلام على تطوان في هذا العصر بحول الله .

تطوان خريطة



٧ - موقف سكان القبائل من المجددين لبناء تطوان

ثم كيف كان موقف سكان القبائل المغربية من المهاجرين الاندلسيين الذين جددوا بناء تطوان ؟

هذا سؤال أجابنا عنه أبو محمد سكيرج وسلفه صاحب المخطوط القديم، فقد ذكرا أن سكان القبائل المجاورة لتطوان كانوا قد استاءوا أولاً من بناء هذه المدينة بدعوى أن أرضها تقع في بلادهم، وأن مرافقها هي مراعى لماشيئتهم، وأن بناء عمارتها يضيقان عليهم ويضران بمصالحهم، والسكيرج قد سمى من أولئك الجوار بنى حزمير، وسلفه سمى منهم بنى صالح وبنى سالم. وهذه الأسماء ومسمياتها ما زالت موجودة مجاورة لتطوان الى الآن. وقد زاد السكيرج أن بنى حزمير كانوا بالفعل يناوشون الاندلسيين ويهدمون لهم ما ينونونه من الدور، بل ذكر سيدى العربى الفاسى فى تقييده ان بعض سكان تلك القبائل قد استصرخ النصارى ولكن الله سلم المسلمين الخ.

على ان الاندلسيين لم يكن عددهم عظيماً فى بادىء الامر كما علمت، ولم يكن مجيئهم الى هذه النواحي بصفة الحرب او الفتح، وانما جاءوا اليها فارين بدينهم من الافرنج وحكمهم، قصدوها لاجئين قانعين من اخوانهم المسلمين المغربيين بالسماح لهم بالسكنى الى جانبهم والتعاون معهم على تكاليف الحياة، وعلى الجهاد فى سبيل الله، وعلى مضايقة الافرنج الذين لم يكتفوا بمطاردة أهل الاندلس بل عبروا البحر وتراموا على أراض اسلامية مغربية صميمة . ولعل الاندلسيين لمرونتهم كانوا يعذرون أولئك الجبليين البسطاء الذين كانوا لا يرون فى المهاجرين الاندلسيين الا انهم أناس جاءوا لمضايقتهم فى مراعيهم ومرافق قبائلهم، ولعل أولئك الاندلسيين لحضارتهم ونباهتهم وبعد نظرهم كانوا يرون أنهم لابد من أن يتمكنوا فى يوم ما من استجلاب قلوب أولئك الجوار، وذلك بالتعاون معهم واستخدامهم فى مصالحهم وشراء المحصولات منهم ومساعدتهم بتقديم مختلف الاشياء اللازمة لهم وخصوصاً المصنوعات المدنية التى كانوا محرومين منها او على الاقل ما كانوا يحصلون عليها الا بالتعب الشديد او السفر الطويل، والاندلسيون فى ذلك العهد لم يكونوا فى حاجة الى نضال أو انتصار على الجوار، وانما كانوا فى حاجة الى قوة يرهبون بها من يروم الاعتداء على ضعفائهم من سكان القبائل او الاجانب، ثم الى تفرغ الزراع والصناع منهم لاعمالهم، وتوجه المقاتلين منهم لنضالهم وكفاحهم، ولقد كانت القوة الكافية لحراسة البلد والعجزة من أهلها متوفرة لديهم بالفعل، والسكيرج يحدثنا بأن أمير الوقت بعث مع الذين وفدوا عليه أربعين من أعيان فاس وأربعين من أهل الريف ليحرسوهم من اعتداء المجاورين لهم، وصاحب المخطوط القديم يذكر لنا ان المنظرى اشتكى لمولاي على بن راشد من تعسف

الجوار، فبعث مولاى على الى قبائل الريف فجاء منهم نحو أربعمائة فارس، وبوجودهم ساد الامن وتمكن المنظرى من اتمام البناء ...

هكذا كان موقف سكان القبائل المغربية من مهاجرى غرناطة، البعض يتضايق منهم وينأوشهم، والبعض الآخر يعطف عليهم ويحميهم ويسكن معهم، على أنه لم تمض مدة طويلة حتى زال الخلاف واستأنس الجبليون بالاندلسيين وصاروا يستفيدون من معارفهم وحضارتهم وصناعاتهم، ثم لما رأوا شجاعتهم ونجدتهم صاروا يتشاركون جميعا جنبا لجنب فى قتال الاجانب الذين كانوا مغتصبين لاقرب المدن من تطوان وهى مدينة سبتة المغربية .

واخيرا استقر بتطوان نهائيا عدد من الريفيين والجبليين الى جانب اخوانهم الاندلسيين ومن سكن معهم من أهل فاس، فتصاهرت العائلات وامتزجت المصالح، ومرت على ذلك عهود تنوسيت فيها الفوارق التى بين العناصر لدى كثير من الناس، ثم توالى الهجرات الفردية الى تطوان من مختلف الجهات، الا أن جميع الذين وفدوا على تطوان، سواء من فاس او من مختلف القبائل الريفية والجبليية والعربية، قد تخلقوا بأخلاق الاندلسيين فى عاداتهم وملابسهم وماكلهم ولهجة كلامهم، واصطبغ الجميع بالصبغة التطوانية الخاصة حتى صار من المتعذر التفريق بمجرد المظاهر بين من أصله أندلسى ومن أصله فاسى او ريفى أو جبلى، ولكن رئاسة تطوان وزعامتها الروحية والاجتماعية انما كانت فى الغالب بيد العائلات الاندلسية العريقة فى الحضارة والثروة والوجاهة، وان زالت من يدهم فى بعض الاحيان بسبب بعض الانقلابات، أو الفتن والثورات، فانها كانت لا تلبث أن تعود اليهم حينما يستتب الامن ويحتاج الناس لسيد الرأى وحسن التدبير. اما العائلات الواردة على تطوان من فاس، فقد كانت ممتازة بالمرونة والذكاء، والعمل والنشاط .

8 - ماذا عمل اهل تطوان بعد بناء مدينتهم ؟

ولنبحث الآن عما عمل المهاجرون الاندلسيون بعد ما أتموا أبنيتهم الاولى فى مدينة تطوان وحصنوا فيها أهلهم وأموالهم .
لقد كان من الطبيعى أن يوجد بين مهاجرى الاندلس رجال من أهل الصناعة والتجارة، وآخرون من أهل الزراعة والفلاحة، وأن يوجد فيهم أيضا فرسان مقاتلون، لأن هجرتهم كانت من غرناطة المجاهدة، غرناطة الجميلة المتحضرة، ذات الصناعات اللطيفة والمزارع الواسعة المنسقة، غرناطة مشوى رفات أجدادى الاولين عليهم من الله رحماته ورضوانه، غرناطة التى كانت آخر معقل لآخر دولة عربية اسلامية بالاندلس، وقد انحدر اليها احسن ما كان متفرقا فى غيرها من البلاد الاندلسية الاسلامية .

وكان من الطبيعي ان ينصرف أصحاب التجارة والصنائع والحرف الى أعمالهم، وأن يتوجه الابطال المقاتلون الى الميادين التي تظهر فيها مواهبهم ومسالمتهم، وكان من الطبيعي ايضا ان ينضم كل من فتيان فاس الاشياوش وأسود الريف البواسل، وشجعان الجبل الابطال، الى أخوانهم الاباة الكماة من هاجري الأندلس، وأن يتكون من الجميع جيش وطني مغربي، اسلامي عربي يقوده البطل الغرناطي أبو الحسن المنظري مجدد بناء تطوان وحاكمها وزعيمها . وفي الارشيف ماروكان أن المنظري كان في ذلك العهد مستقلا بتطوان، وكانت مدينته شبه ايالة صغيرة تحت إمرته، ولا عجب في ذلك، فدولة المغرب كانت في ذلك العهد ضعيفة الجانب، يقتطع البرتغاليون من أطرافها قطعة بعد قطعة، فلا يقدر على صد هجماتهم، فضلا عن استرجاع ما كانوا يحتلون من موانئ العرب وأراضيه .

أما أندلسيو تطوان، فقد استطاعوا - تحت رئاسة القائد المنظري - ان يحافظوا على بلدهم الجديد بالرغم من احتلال الاجانب لجميع المدن القريبة منهم بل لجل موانئ المغرب، وهي سبتة، وقصر المجاز (القصر الصغير) وطنجة وأصيلا والعرائش والدار البيضاء (أنفا) والجديدة وأسفى الى سوس... ولم يكن المنظري وأصحابه يكتفون بالمحافظة على بلدهم فحسب، بل كانوا يغيرون على البلاد التي احتلها البرتغاليون ويأسرون منهم الالف، نعم الالف، لا الآت ولا العشرات كما سيأتى بيانه بحول الله .

ولقد كان من الطبيعي أيضا ان يتنافس الشجعان، وأن يكتب الكتاب، وينسخ النسخ، ويقرأ المجاهدون ما كتب ويكتب عن الفروسية والفرسان . وقد وقفت على نسخة من كتاب «حلية الفرسان، وشجاعة الشجعان» (I) تأليف أبي عبد الله بن محمد بن محمد النعاس القيسي، وقد جاء في أوله أن الذي دعاه لتأليفه هو حال السلطان محمد ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان محمد ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان أبي الوليد اسماعيل - من بنى الاحمر - وفي آخر الكتاب أن الفراغ من تأليفه كان بمدينة غرناطة يوم الاثنين ذى الحجة سنة أربع وثمانمائة، وأن محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن ابراهيم البكرى الكريسي قد انتسخ من نسخة المؤلف نسخة ثانية بمدينة تطاون ثم انتسخت من هذا الاصل الثاني هذه النسخة على يد كاتبها الحاج محمد بن محمد الجعيدى التطوانى فى مدينة القصر الكبير وقد فرغ من كتابتها بتاريخ ثانى عشر ربيع النبوى عام اثنين وتسعين والى .

(I) هذه النسخة عتيقة وتقع فى ثلاث وستين صفحة متوسطة الحجم وهى محفوظة فى مكتبة ابن غازى بمكناسة الزيتون لدى صديقنا الاستاذ البحاثة المطلع السيد محمد المنونى حفظه الله .

٩ - أقسام تطوان الاولى وأرباضها

الأرباض جمع ربض «بفتح الراء والباء» وهو ما حول المدينة من ديار ومساكن وغيرها، ومن المعلوم أنه قد أحدث بتطوان بعد بنائها ربضان، أحدهما أعلى والآخر أسفل، ثم بعد ذلك ألحقت بهذين الربضين زيادات متعددة تأخر بعضها عن بناء أصل المدينة بعشرات السنين .

وذلك أنه لما أتم المهاجرون الأندلسيون الأولون تجديد بناء هذه المدينة وشيدوا أسوارها وعمروا أسواقها، أخذ الناس يتواردون عليها من مختلف الجهات، فالذين تخلفوا في بلاد الأندلس من أهالي أولئك المهاجرين الأولين، لما علموا أن أقاربهم المهاجرين إلى المغرب قد شيدوا مدينة حصينة أمينة يتمتعون فيها بحريتهم الدينية والاجتماعية، وليست عليهم فيها سلطة أجنبية، صاروا هم أيضا يهاجرون إلى هذه المدينة الأندلسية المغربية أفرادا وجماعات، والتجار والصناع من أهل فاس - وهم الأذكى الماهرون الذين يبحثون عن الدرهم حيث كان - رأوا أن في تطوان مجالا واسعا للعمل والنشاط والربح . وأبطال الرجال الذين يهمهم الجهاد في سبيل الله، ويسرهم الاستشهاد في حومة الوغى وميدان الشرف، والفتيان الشجعان أباء الضيم، المتعطشون للكفاح والقتال دفاعا عن الدين والوطن، كل أولئك تحولوا من الأندلس ومن أنحاء المغرب إلى مدينة تطوان الفتية، وتحصنوا بها واتخذوها مركزا لغزواتهم ومضايقتهم للأفرنج الذين اعتدوا على شواطئ الوطن المقدس ودنسوها باحتلالهم العسكري المهين للامة وشرفها وكرامتها، والاعيان الذين سئموا سكنى البادية وأهوالها وفتنها، قصدوا المدينة أيضا للاستقرار بها آمنين على أنفسهم وأموالهم، وفقراء أهل البادية كانوا أيضا يقصدون المدينة ليقوموا فيها بالخدمات الشاقة من حراثة الاراضي ورعى المواشى وحمل الاحجار وغيرها للبناء وخصوصا في الفصول التي تقل فيها المأكولات عندهم .

وجميع هؤلاء لابد أن يتبعهم من يقوم بمصالحهم الضرورية من بنائين ونجارين وحدادين وصانعي الملابس والاحذية، والاسلحة والوانى البيتية وغيرها، زيادة على التجار والمزارعين الخ. بهؤلاء كلهم عمرت تطوان وضافت بأهلها وبالواردين عليها، فاضطر الناس لتوسعة المدينة ببناء أرباض متصلة بها. وقد قلنا انه أنشئ بتطوان في أول الامر ربضان اثنان عرف أحدهما بالربض الأعلى، والآخر بالربض الأسفل، وعلى عادة أهل تطوان من ابدال الضاد طاء في كثير من الالفاظ، فانهم كانوا يطلقون على الربض الأسفل اسم «الرباط السفلى» وما زال هذا الاسم مستعملا حتى الآن، وهذا الربض سمي بالأسفل لانه واقع أسفل المدينة، أى بينها وبين السهل الفسيح المنخفض عن المدينة، المتصل جنوبا بجبال بنى حزم، وشرقا بشاطئ البحر الأبيض المتوسط .

ولا ندري بالتدقيق تاريخ الشروع فى بناء هذا الربض، والمفهوم أن ذلك كان فى أواسط القرن العاشر للهجرة .

ولا شك أن هذا الربض كان أولا صغيرا ثم صار يمتد شيئا فشيئا حتى صار من اكبر حومات المدينة، وهو محتو على عدة أقسام تسمى بالحومات أيضا، وهى حومة الجنوى، والمصدع، وباب العقلة، والساقية الفوقية، والسويقة والشجرة وقاع الحافة، وكان من هذه الحومة قسمان آخران كان أحدهما يسمى حومة سيدى عبيس عند باب الرموز، وآخر كان وما زال يسمى المصلى القديمة، إلا أن أول هذين القسمين قد اندثر، والآخريات جل سكانه بالوباء، فكثر فيه الخراب فانتقل من بقى من أهله المسلمين الى سكنى أحياء أخرى (I).

وبانشاء هذا الربض انشئ بالمدينة سور جديد جعل فيه بابان جديان هما باب العقلة وباب الرموز، وقد وقع الوقوف عند حد هذا السور وهذين البابين ولم يقع أى توسع فى هذه الجهة بعد ذلك الى هذا القرن.

وأما الربض الاعلى فسمى بهذا الاسم لانه واقع فى أعلى المدينة متصلا بالجبل المشرف عليها وهو جبل درسة الواقع فى الجهة الشمالية منها كما تقدم. وكان هذا الربض محتويا أولا على السوق الفوقى وما اتصل به من الخرازين والديباغين وزنقة المقدم والطالعة، وكثيرا ما نجد فى الرسوم القديمة تسمية السوق الفوقى باسم سوق الربض الاعلى. ثم وقع التوسع فى هذا الربض فوُقت فيه زيادات أخرى كبيرة، اذ تفرعت عنه حومتان كبيرتان هما حومتا العيون والطرنكات وقد بنيتا معا فى فترات مختلفة .

ويظهر أن أول ما بنى من حومة الربض الاعلى هو الحومة المتصلة بالجبل، وهى حومة الطالعة مع السوق المتصل بها .

وقد ذكر مؤرخ تطوان أبو محمد سكيرج أن القائد الحاج على الذيب - وهو الذى تولى حكم تطوان بعد عائلة المنظري - فى النصف الثانى من القرن العاشر - قام ضده أناس من أهل تطوان وطردوه من المدينة، فخرج منها وبنى القصبة المعروفة باسمه أى قصبة الذيب فى جانب من جبل درسة ثم بنى هو وأصحابه تحتها حومة جديدة مكونة من نحو خمسمائة دار وهى الحومة المعروفة بالطلالة الخ .

فحومة الطالعة على هذا هى أول ما بنى فى الناحية الشمالية الغربية من المدينة القديمة وما زالت حتى الآن تعرف بهذا الاسم . وذكر السكيرج أيضا

(I) لما ضاقت حارة اليهود (الملاح) بسكانها فى اوائل هذا القرن، قام عدد من أغنيائهم ببناء دور جديدة على الطراز الحديث فى الشارع العام لحومة المصلى القديمة، ثم لما كانت الحماية الاسبانية بتطوان ونواحيها، كثرت عمارة هذا الشارع وأنشئت به متاجر كبيرة وسينما وغير ذلك . إلا أن جل سكانه من غير المسلمين .

ان أناسا آخرين بنوا حومة الطرنكات وهى واقعة غرب المدينة الاصلية، وبعض العدول يكتبون اسم هذه الحومة هكذا «الاطرنكات» وبعضهم يكتبها «الترنكات» ولكن الاسم الجارى على جميع الالسننة هو الطرنكات . ولا معنى لهذا الاسم فى لغتنا العربية ولعله أفرنجى من تسمية أواخر المهاجرين .

ثم ذكر السكيرج ايضا ان أواخر المهاجرين من الاندلس هم الذين بنوا الجهة العليا من حومة العيون وهى التى كانت تسمى فى عهده - بالسانية - وما زالت تسمى بذلك حتى الآن ، وكانت قبل ذلك تسمى رباط الاندلس . ومعلوم ان وفود هؤلاء المهاجرين على تطوان كان قبيل سنة العشرين بعد الألف .

وذكر السكيرج ايضا ان حومة العيون بنيت بعد ذلك وحكى انه لما وفد الشيخ على الجعيدى على تطوان فى أوائل القرن الحادى عشر ، كانت الجهة التى بنيت بها حومة العيون كلها فدادين فاشتري الشيخ المذكور فدانا يبتدىء من الوطنية وينتهى فى باب النوادر وحبس على المسجد الذى بناه وهو المسجد الجامع بحومة العيون .

وهكذا اتسع الربض الاعلى حتى صارت مساحته وعدد سكانه مثل المدينة الاصلية او اكثر ولعل السبب فى امتداد البناء فى هذه الجهة هو جودة هوائها وكثرة مائها وبعدها عن الاوخاب ومجارى المياه وفضلاتها .

وعند زيادة الربض الاعلى وما الحق به من حومتى العيون والطرنكات واحاطة تلك الزيادة بسور جديد ، وقع الاستغناء عن الباب القديم الذى كان فى الناحية الغربية من المدينة وجعلت بدله ثلاث ابواب هى باب المقابر فى شمال المدينة الاصلية، وهو قريب من السوق الفوقى، وباب النوادر المتصلة بحومة العيون ، فى الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وباب التوت فى غرب المدينة متصلا بحومة الطرنكات .

وفى ذلك العهد نفسه او فى عهد قريب منه وقع قليل من التوسع ايضا فى شرقى المدينة وفتح هناك بابان هما باب السعيدة وباب الجياف . ولعل تسمية باب السعيدة آتية من وجود ضريح سيدى السعيدى جنب هذا الباب ، ولعل تسمية باب الجياف آتية من كون اليهود كانوا يخرجون موتاهم الى المقابر من هذا الباب .

ومن المعلوم ان «الملاح» اى الحومة الخاصة بسكنى اليهود داخل مدينة تطوان ، كان واقعا قريبا من هذا الباب ، اى فى الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة الاصلية اى فى الحومة المعروفة الآن بالملاح البالى ، وان هذا الملاح ظل عامرا باليهود والاجانب الى ان بنى المسجد الاعظم الحالى بالقرب منه فاذاك بنى لليهود ملاحهم الجديد ، وهو الموجود الان بين حومة السويقة والمصلى القديمة وساحة الفدان ، وكان المحل الذى بنى فيه قبل ذلك روضا كبيرا من

أملاك الدولة تابعا لدار المخزن ، ونظرا لتأخر بناء هذا الملاح وكونه اعد للبناء فى وقت واحد من اول الامر ، كانت هندسة بنائه اكثر اتقاناً من المدينة الاصلية وبقية ارياضها، اذ جعلت شوارعه ودروبه كلها مستقيمة محكمة التقسيم والتنسيق فاقدة الاعوجاج ، قليلة الالتواء .

اما الملاح القديم «البالى» فقد تحول بعد ذلك الى حومة لا يسكنها الا المسلمون ، وقد هدمت منه دور كثيرة وبنيت مكانها دور جديدة من أحسن دور تطوان .

وبالجملة فان مدينة تطوان بعد الارباض التى زيدت فيها الى ما قبل هذا القرن ، صارت محتوية على خمسة اقسام ، كل قسم منها يسمى حومة خاصة لها حدودها ولها مقدم خاص بها .

فالحومة الاولى كانت - وما زالت - تسمى حومة البلد ، وهى المدينة الاصلية التى جدد بناءها مهاجرو الاندلس مع من انضم اليهم من اهل فاس والريف ، وهى واقعة فى الشمال الشرقى للمدينة ، وقسم منها يسمى حومة الجامع الكبير وآخر يسمى حومة الصياغين وآخر المطمر وآخر جامع القصبه الخ. وقد ضم الى هذه الحومة الربض الاعلى اى السوق الفوقى وما قرب منه كزنقة المقدم والطالعة الخ .

والحومة الثانية هى الربض الاسفل - الرباط السفلى - وهى واقعة فى الجنوب الشرقى للمدينة .

والحومة الثالثة هى حومة الطرنكات ، وهى واقعة غرب حومة البلد ، وفيها شارع اصلى طويل اوله قوس الحمام المتصل بالسوق الفوقى وآخره باب التوت ، وفيها ايضا شارع النيارين ، وتتفرع عن هذين الشارعين زنقات ودروب عن اليمين وعن الشمال مما يكون شبه مربع .

وهذه الحومة - كما قلنا - من بناء أواخر مهاجري الاندلس ، وقد صارت بها فيما بعد «دار المخزن» اى مركز الحكم ومسكن حاكم البلد وسجن المدينة ومقر جندها .

والحومة الرابعة هى حومة العيون ، وهى واقعة غرب حومة البلد ، وفى الشمال الغربى لحومة الطرنكات ، وهى مستطيل ينتهى عند باب النوادر ، والقسم الشمالى من هذه الحومة - وهو جلها - كله عقبات تنتهى بجبل درسة ، وفيه دروب كثيرة ، وقسم كبير منه هو المسمى بالسانية .

والحومة الخامسة هى «الملاح» وكانت عند بنائها خاصة بسكنى اليهود ولم يكن لها الا منفذ واحد عليه باب متين يفتح ويغلق فى اوقات معلومة ثم صارت لها من بعد منافذ عديدة، كما شارك اليهود فى سكنائها والتجارة بها غيرهم من الناس .

وهذه الحومة هى آخر ما بنى من ارباض تطوان قبل هذا القرن .

ثم ان من المعروف ان هذه الحومات الخمس - البلد - الرباط السفلى -
الطرنكات - العيون - الملاح - كانت الى سنة 1331 هـ 1913 م محاطة بأسوار
حصينة فيها سبعة ابواب - كعدد ابواب الجنة والنار - لا يقع الخروج من
المدينة أو الدخول اليها الا منها . وهى : باب النوادر ، باب التوت ، باب الرموز
باب العقلة، باب السعيدة، باب المقابر، باب الجياف، وبعض الناس يسمى
هذه الاخيرة بالباب السفلى .

ومن المعلوم لدى شيوخ تطوان ، ان الارض التى كانت تحيط بها اسوار
تطوان وأبوابها السبعة ، لم تكن كلها مبنية ، بل كانت فيها اماكن تغرس فيها
الفواكه والخضر والبقول ، وذلك مثل الفدان الكبير الذى كان معروفا بأغطاس
بين باب التوت وباب النوادر وأماكن متعددة بين باب العقلة وباب السعيدة
والباب السفلى ، ولعل من هذا القبيل ، المكان الذى بنيت فيه «دار المخزن»
وما حولها بين حومة الطرنكات وزنقة المقدم مع المكان الذى بنى فيه ملاح اليهود،
والفدان الذى ما زال معروفا بهذا الاسم الى الآن .

ومعلوم ايضا ان تطوان كان بها ما يكفيها داخل اسوارها من ماء العيون
التى تنبع داخلها ، كما كانت بها الارحية الكافية لطحن حبوبها ، فكان فى
امكانها بذلك ، ان تقاوم ما عسى ان يقع عليها من حصار مدة غير قليلة ، وقد
بقيت مرات عديدة معرضة للهجوم والوثوب ، والحصار والدفاع ، كما انها
كانت أول ثغر عامر يقابل الاجنبى الذى ينزل بشاطئ البحر الابيض المتوسط .
ومن المعروف ايضا ان السور الثانى الذى بنى طبعا بعد ما بنيت ارباض
المدينة - اى حوماتها الخمس - قد وقع فيه تخريب كبير وتهديم عظيم فى
أواسط القرن الثانى عشر للهجرة ، وذلك عندما هاجم الباشا احمد هذه المدينة
واستولى عليها واستأنف حكمه الاستبدادى فيها بالرغم من كراهية اهلها
لسلطته كما سيأتى بيانه بحول الله فلما انتهت سلطة الباشا المذكور بقتله
وتعليق رأسه على باب فاس ، جددت تطوان أسوارها ، وكان ذلك فى الربع
الثالث من القرن المذكور على يد القائد محمد عاشر ثم القائد محمد بن عمر
لوقش .

وهذه الاسوار الاخيرة مع ابوابها السبعة المذكورة ، قد بقيت كلها قائمة
العين الى اوائل الربيع الثانى من هذا القرن ، اعنى القرن الرابع عشر للهجرة،
الموافق للربع الاول من القرن العشرين للميلاد ، وبالتدقيق الى سنة 1331 هـ
1913 م وهى السنة التى احتل الاسبانيون فيها تطوان وتسلموا الحكم بها .

ومن المعلوم ايضا ان الاسبانيين هدموا السور الكبير الذى كان فى غرب
المدينة وبنيت خارجه حومات جديدة اهمها الحومة التى سماها الاسبانيون
«شانتى» كما بنيت بعد ذلك حومة سانية الرمل، وحومة سيدى طلحة الخ.
وتفصيل ذلك له محل خاص فى تكملة هذا الكتاب بحول الله .

الفصل الثانى

من الباب الثانى

ولاية تطوان وحوادثها فى أواخر القرن التاسع

سنخصص من كل باب من الابواب الآتية - بحول الله - فصلا للكلام على ولاية تطوان وحوادثها فى أحد القرون الماضية . وهذا الفصل الذى هو الثانى من الباب الاول، سنتكلم فيه على ولاية هذه المدينة فى أواخر القرن التاسع للهجرة، وسنمهد لذلك بفذلكة عن ألقاب ثلاثة كانت مستعملة فى تطوان وفى غيرها من أنحاء البلاد المغربية وهى :

الباشا - القائد - العامل

كانت ألقاب الولاية فى البلاد العربية تختلف باختلاف الاقطار والازمان ، وفى الولاية الكبرى، اى ولاية الاقطار والشعوب كنا نجد ألقاب أمير المومنين وأمير المسلمين، وخليفة رسول رب العالمين ، والملك، والسلطان، والباى والداى والخديوى، والعاقل والحاكم الخ. وفى الولايات الصغرى أى ولايات المدن والقبائل والاقاليم وما الى ذلك، كنا نجد لقب الوالى والعامل والباشا، والقائد، والمقدم والشيخ الخ. زيادة على لقب القاضى الذى هو متولى الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية وما يلحق بها ، ولقب المحتسب الذى يتولى صاحبه النظر فى الاسواق والاسعار والحرف والصنائع .

وكان الاصطلاح فى تطوان وجل بلاد المغرب، ان يطلق على والى المدينة أحد ألقاب ثلاثة هى : الباشا والقائد والعامل. فلفظ الباشا غير عربى، وهو مشتق اما من الفارسية واما من التركية، وكان كثير الاستعمال فى الشرق وخصوصا بتركيا فى عهد الخلفاء العثمانيين اذ كان لقباً يمنحه السلطان اما لبعض الامراء، واما لبعض القواد او الوزراء او غيرهم، وكان الامر كذلك فى مصر ايضا، اذ كان الوالى أو الخديوى أو الملك يمنح لقب الباشا لكبار الرجال من العسكريين والمدنيين الذين يقومون بعمل كبير أو خدمة جليلة للملك او

للأمة، وكانت طبقة خاصة من الناس تتنافس في الحصول على ذلك اللقب الشرفي الذي يتمتع صاحبه بامتيازات مادية وأدبية تكبر في أعين كثير من الناس، وربما قدم بعضهم في سبيل الحصول على لقب الباشا هدايا ثمينة ورشى عظيمة، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وقد قضى اليوم على هذا اللقب وعلى غيره من بقية الألقاب الشرفية الفارغة، في تركيا وفي مصر وغيرهما. أما بالمغرب فلم يكن للقب الباشا نظام خاص أو قاعدة ثابتة محددة، إذ كان في بعض الأحيان يطلق على بعض كبار القواد الذين يسند اليهم حكم مدينة كبيرة أو مقاطعة واسعة مثل الباشا أحمد ابن علي حاكم تطوان وطنجة ونواحيهما في أواسط القرن الثاني عشر للهجرة، فكنا نجد في فاس مثلا الباشا بوشتي، وفي مكناس الباشا الجيلالي، وفي مراكش الباشا المدني الخ، وهكذا كان ولاية كبريات المدن يلقبون بالباشا، وكنا نجد أيضا لقب الباشا يطلق على بعض كبار القواد الحربيين الذين يترأسون الجنود المحاربين مثل الباشا مساهل في عهد السلطان المولى اسماعيل، كما أنه قد مر بالمغرب قواد كبار ووزراء مشهورون لم يطلق عليهم لقب الباشا .

أما القائد فهو لفظ عربي - اسم فاعل من قاد القوم أي كان رئيسا عليهم، وكان لقب القائد هو الذي يطلق على ولاية جل المدن والقبائل، وهو أقل منزلة وأهمية من الباشا، وجل ولاية تطوان كان لقبهم هو القائد، لأن هذه المدينة لم تكن من المدن الكبرى بالمغرب .

ولقب العامل كان في غالب الأحيان مرادفا للقب القائد أي حاكم المدينة، وقد وجدت في كثير من الظواهر السلطانية والرسائل الرسمية إطلاق لقب العامل على حاكم المدينة، إذ كان رجال الحكومة المخزنية يطلقون لفظ عمال المدن على ولايتها وحكامها، وكثيرا ما تجد الظواهر السلطانية تصدر فيها الأوامر وتختتم بهذه العبارة، فعلى الواقف عليه من عمالنا وولاية أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه لسواه الخ. ويعنى بالعمال ولاية المدن والقبائل .

والأشخاص الذين تولوا حكم تطوان وخصوصا في العصور الأخيرة، منهم من كان يلقب بالباشا وجلهم كما قلنا كان يطلق عليه لقب القائد، ومن أراد التثبت من هذا فليتبع الرسائل الرسمية التي سنثبت نصوصها في مختلف فصول هذا الكتاب بحول الله .

وكان الاصطلاح في تطوان وفي غيرها من باقي المدن المغربية، أن قائد المدينة أو عاملها فضلا عن الباشا، هو الذي يقوم مقام السلطان في فصل الدعاوى العامة ما عدا ما يتعلق منها بالشؤون الشرعية التي هي من اختصاص القضاة، وكذلك شؤون الأسواق والأسعار والحرف والصنائع، لأنها من اختصاص المحتسب .

هذا وان تطوان - قبل البناء الاندلسي الاخير، لم تكن سوى مدينة صغيرة او قرية كبيرة، أو حصن محدود الاهمية قليل عدد السكان، فلذلك لم تكن لها أهمية كبرى، وكانت هي وناحيتها والقبائل المحيطة بها والقرية منها تابعة في حكمها، إما لمدينة سبتة، وإما لمدينة طنجة. أما بعد البناء الاندلسي الذي وقع في أواخر القرن التاسع للهجرة، فإن الحال قد تبدل، إذ صارت سبتة تحت حكم الاجانب مثل طنجة، وبقيت تطوان هي المدينة الوحيدة التي استطاعت أن تحافظ على عروبته وعلی حكمها الاسلامی، فكانت هي مركز القوات الإسلامية الوطنية المحاربة للاحتلال الاجنبي، وصارت لها بموقعها الجغرافي وبسكانها المجاهدين ميزة كبيرة وأهمية خاصة.

اولا - من حيث وقوعها قرب ساحل البحر، وكونها على الحدود المجاورة للاجانب المحاربين، فكانت بذلك ثغرا من ثغور الاسلام التي يقيم بها المرابطون للجهاد، وحماية شواطئ البلاد من الاعتداء الاجنبي.

وثانيا - من حيث وقوعها في وسط قبائل واسعة تشمل جميع القسم الشمالي من بلاد المغرب، أي جميع الناحية التي بين الحدود الجزائرية والمحيط الاطلسي، وهي ناحية بعيدة عن عواصم الحكومة المغربية، فلذلك كثيرا ما كانت لحكام هذه المدينة سلطة كبيرة ونفوذ واسع.

ونحن بكل أسف لم نقف على مستندات كثيرة يمكن ان نعرف منها احوال هذه المدينة وأخبارها في ذلك العهد، وسنقتصر هنا على ما وقفنا عليه من ذلك - على قلته - وسنطلق على كل واحد من ولاية تطوان ما نجده موصوفا به في المستندات الرسمية والحوادث المسجلة من لقب الباشا او القائد او العامل.

تطوان في عهد الدولة الوطاسية

قد علمنا ان تجديد بناء تطوان كان في سنة 889 - أي في عهد الدولة الوطاسية التي قامت عند ضعف دولة بنى مرين، وبالأخص في عهد السلطان محمد الشيخ الوطاسي الذي تولى حكم المغرب من سنة 876. إلى سنة 910 فمدة تجديد بناء تطوان الحديثة وولاية الحاكم الاول بها، وهو القائد أبو الحسن المنظري، كلها كانت في عهد الدولة الوطاسية.

القائد أبو الحسن المنظري

قد وقع اجماع المؤرخين على ان الشخص الذي حكم تطوان بعد بنائها الاندلسي الاخير سنة 889 هو القائد المجاهد الشيخ الصالح أبو الحسن علي المنظري الاندلسي الغرناطي التطواني. وقد ذكر شيخنا الرهوني انه منسوب الى المنظر الذي هو حصن قرب غرناطة.

وقد سبق لنا انه كان من أبطال جند ابن الاحمر بالاندلس ، وانه ابلى
البلاء الحسن فى جهاد غرناطة ثم هاجر الى المغرب وتولى رئاسة المهاجرين
وأشرف على بناء تطوان وتولى حكمها فكانت فى ايامه شبه ولاية مستقلة .
فالقائد ابو الحسن المنظرى هو اول حاكم لتطوان بعد بنائها الاخير .
كما سبق لنا انه بعد ان شيد الاسوار والابنية الضرورية ، شرع فى
الجهاد ومحاربة الاجانب الذين كانوا يحتلون الشواطىء المغربية القريبة من
تطوان ، وقد بقى مثابرا على ذلك مع قيامه باعباء الحكم وعبادة ربه الى ان
توفى بتطوان رحمه الله ولم أقف على تاريخ وفاته بالتدقيق ، وأقدر تقديرا انها
كانت فى حدود سنة 910 والله اعلم . وقد دفن رحمه الله خارج باب المقابر من هذه
المدينة ، وقبره الى الان مشهور يزوره الناس ، وعليه سياج بسيط غير مرتفع
ولا مستقف تظله شجرة خروب كبيرة ، فرحمة الله ورضوانه على المجاهد
المنظرى وعلى رفقاءه المجاهدين الاحرار ، المسلمين الابرار .

من اخبار تطوان فى عهد المنظرى

قلنا ان المنظرى كان شبه مستقل بتطوان ، وكانت هذه المدينة شبه ايالة
صغيرة تحت امرته ، وقلنا ان من الطبيعى ان يكون من بين المهاجرين
الاندلسيين الذين بنوا تطوان تجار وصناع وفلاحون ، وجنود مقاتلون ، ومن
الطبيعى ان ينصرف الفلاح لزراعته ، والتاجر لبضاعته ، والصانع لحرفته ،
وان يبحث المقاتل عن ميدان يستثمر فيه مواهبه ، وفعلا وجدنا ان حاكم تطوان
القائد ابا الحسن المنظرى زيادة على تحمله لاعباء الحكم بالمدينة وقيامه
بحراستها ، توجه ايضا لناحية الجهاد ، فجند الجنود وخاض المعارك واسر
الاسرى وجمع الغنائم واستخدم الجميع فى مصالح قومه ومدينته ، وان شئت
فاسمع ما يقوله ليون الافريقى (الحسن بن محمد الوزان الاندلسى المغربى) الذى
أدرك أواخر أيام المنظرى، وزار تطوان فى عهد حفيده الذى كان حاكما بها ايضا
فحدث عما عرفه فيها وشاهده بعينه، فقد ذكر فى كتابه «وصف افريقيا» (I)
أن المنظرى لم ينقطع عن محاربة البرتغاليين وتكبيدهم الخسائر الجسيمة فى
سبتة والقصر الصغير - وطنجة، وأنه كان يعتمد فى أعماله على ثلاثمائة من
أخير فرسان غرناطة وأشجعهم، وأنه كان فى غالب المعارك يقبض من أعدائه
أسارى فيستخدمهم فى بناء حصون المدينة الخ. وحدث ليون عن نفسه أنه لما
زار تطوان رأى من أولئك الأسارى ثلاثة آلاف، وذكر أنهم كانوا لابسين أكياسا

(I) ص 255 طبع باريز بالفرنسية سنة 1897 م. وص 165 من الطبعة
الاسبانية سنة 1952 .

صوفية (لعلها قشاشب) وانهم كانوا ينامون ليلا في بعض المطامير (I) مصفدين بالسلاسل .

ويقول مارمون كاربخال (2) في كتابه «وصف افريقيا» بعد ان ذكر ان المنظرى جاز من الاندلس الى افريقية، انه عمر تطوان من جديد وبني أسوارها وشيد بها قلعة، ومنها كان يخرج على رأس الاربعمئة من الفرسان الذين أتى بهم من الاندلس مع من ينضم اليهم من المغاربة من أهل الجبال، لمهاجمة حدود سبتة والقصر وطنجة، وكان يهاجم الاسبانيين من البر والبحر، لانه كان يملك بعض السفن الصغيرة، وبواسطتها كان يهاجم الشواطئ الاسبانية بنجاح حتى اجتمع لديه نحو ثلاثة آلاف من الارقاء كان يجبرهم على العمل طول النهار في بناء الاسوار ويسجنون ليلا في مطامير بأيديهم الحديد».

وفي تقييد سيدي العربي الفاسي ما نصه :

«ويعلو البلد - يعنى تطوان - من جهة الجوف - اى الشمال - جبل بنى عليه المنظرى قصبة أكملها فى عشرين سنة، ولم يكلف فى بنائها أهل البلد بشيء ، انما كان يبنيها الاسارى من النصرى الذين تحت يده ... وكان يفدى أسارى المسلمين بأخماس الغنائم» .

وفي الاستقصا نقلا عن منويل كاسطيانوس المؤرخ الاسباني ما نصه (3) «ولما عقد له الشيخ الوطاسى على أصحابه - أى أصحاب المنظرى - رجوعهم الى تطاوين وشرع فى بناء أسوار البلد القديم فجده، وبني المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته، ثم أخذ فى جهاد البرتغال بسبتة وبلاد الهبط الى ان أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم فى اتمام ما بقى عليه من بناء تطاوين، واتصلت الحرب بينهم وبين برتغال سبتة كاتصالها بين أهل أزموور وبرتغال الجديدة» .

(I) المفهوم أن هذه المطامير هى التى ما تزال الى وقتنا هذا تحت شارع المطامير وما اتصل به، وهى الآن مهمة كل الاهمال .

(2) هو المؤرخ الاسباني لويس ديل مارمول كاربخال LUIS DEL MARMOL CARVAJAL الذى عاش فى القرن السادس عشر م. موافق القرن العاشر للهجرة، وقد ألف كتابا سماه DESCRIPCION GENERAL DE AFRICA أى «وصف عام لافريقيا» وقد طبع بلغته الاسبانية فى مدينة غرناطة بالاندلس سنة 1573 م.

(3) الاستقصا ج 2 ص 162

وقد وصف ليون الافريقى أبا الحسن المنظرى، وكان معاصرا له - بأنه
« كان رجلا كريما صاحب مروءة، وأنه كان يحسن الى كل من ينزل بمدينة
- تطوان - وأنه توفي منذ أمد قصير - وأنه قبل وفاته فقد احدى عينيه
بسبب اصابتها بخنجر ثم فقد نور العين الاخرى بسبب الهرم والتقدم فى
السن ؛ وانه ترك حكم المدينة بعده لحفيد له على جانب عظيم من الشجاعة »
وهكذا انتهى القرن التاسع للهجرة، ومدينة تطوان تحت حكم القائد
المنظرى فى عهد السلطان محمد الشيخ الوطاسى.
ومن المعلوم أن آخر هذا القرن الهجرى، توافقه من التاريخ الميلادى
أواخر القرن الخامس عشر، اذ أن آخر شهر منه وهو ذو الحجة عام 900 يوافقه
شهر شتنبر سنة 1495 م.

الباب الثالث

تطوان في القرن العاشر

وفيه خمسة فصول :

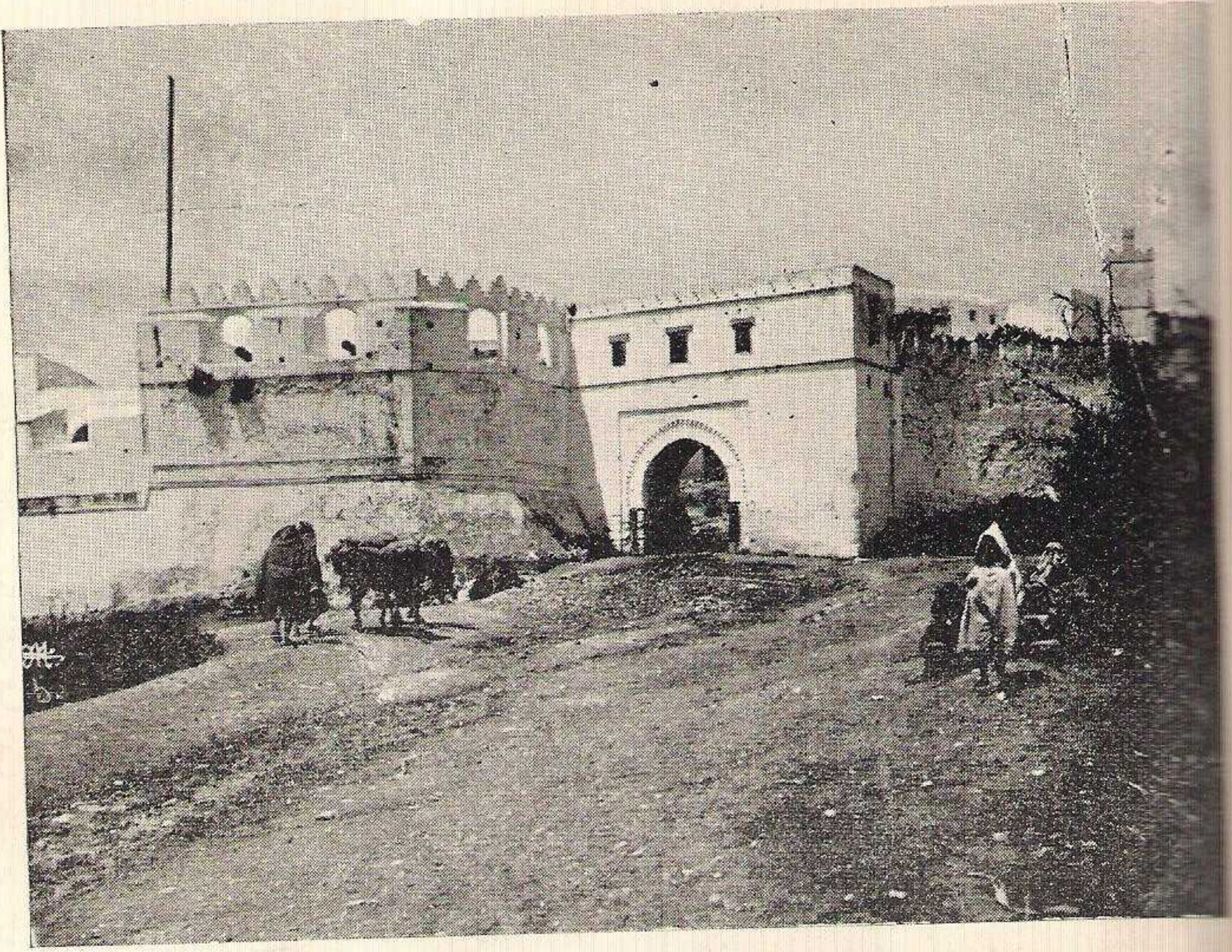
الاول في ولاية تطوان وحوادثها في هذا القرن .

الثاني في قضاتها وعدولها .

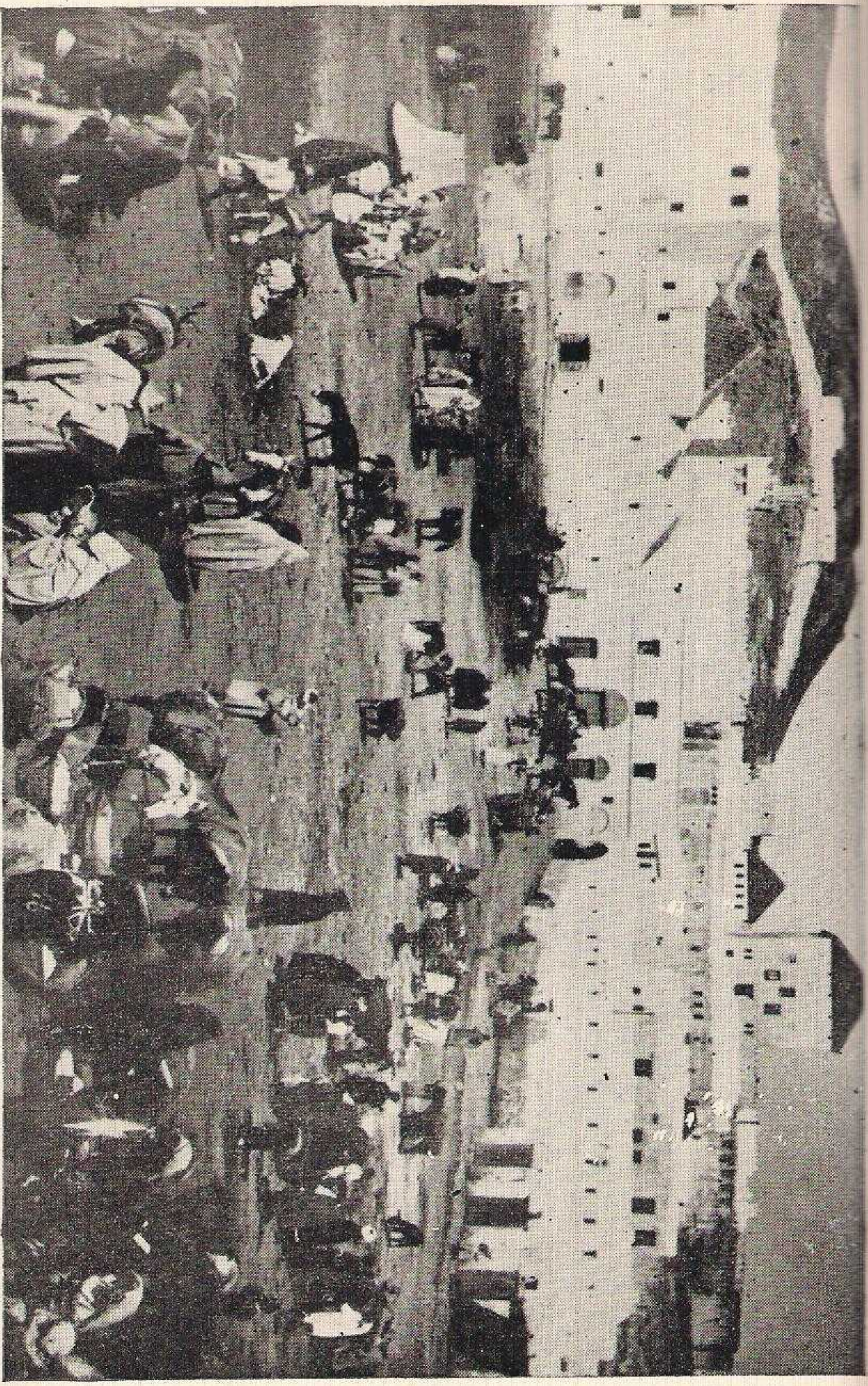
الثالث في تراجم رجالها .

الرابع في مشاهير الزائرين لها .

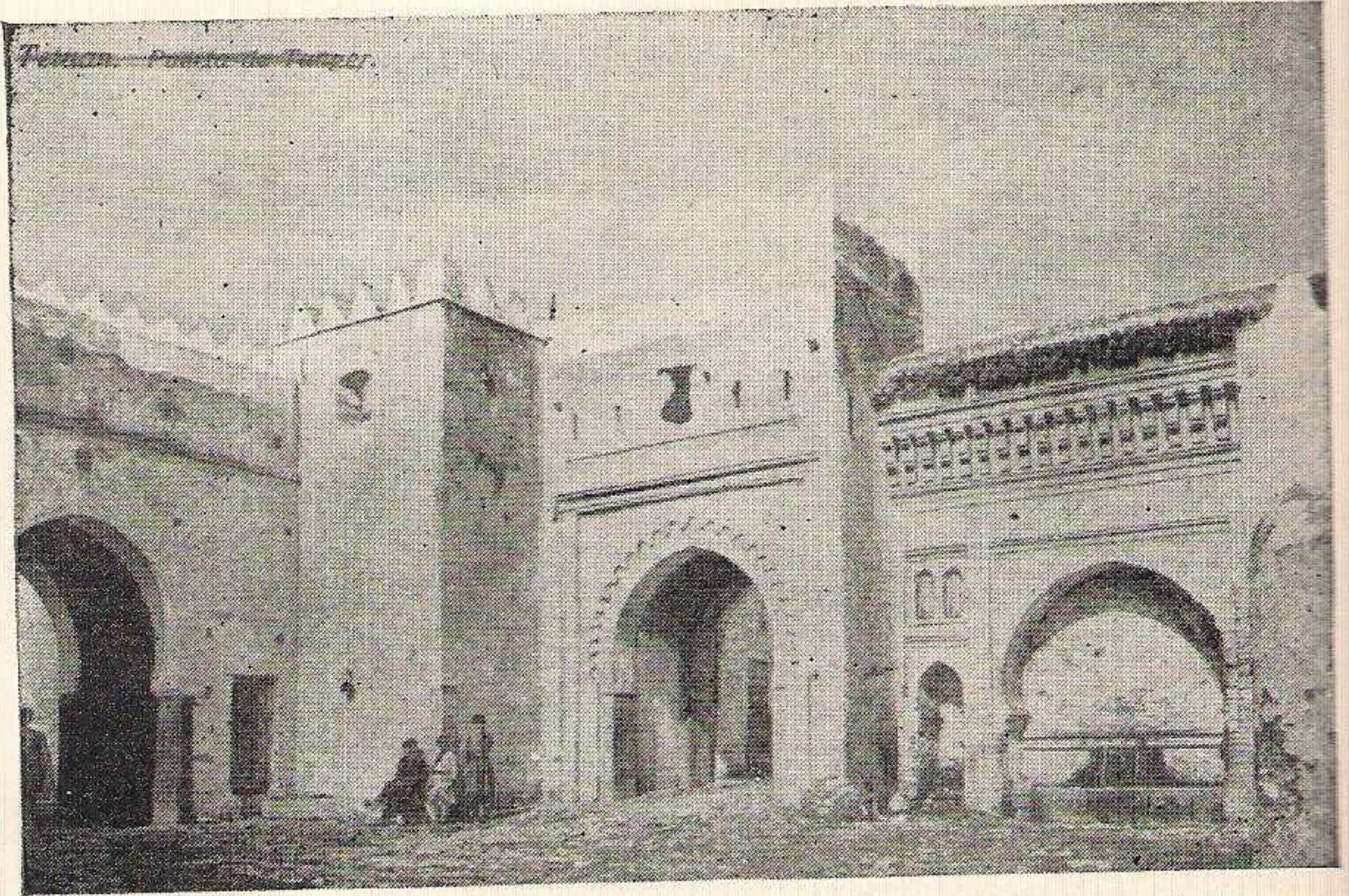
الخامس في ملخص حياتها .



رقم 21) باب العقلة - احد الابواب السبعة القديمة بتطوان، وهو واقع في الجهة الشرقية منها شرقا على السهل الفسيح الذي ينتهى عند البحر الابيض المتوسط، والى اليمين تظهر صوامة الجوامع العشرة، والى اليسار يظهر برج «الاسقالة» احد حصون تطوان. وبالقرب من هذا الباب، الف هذا الكتاب .



(رقسم 22) الركن الشمالي الشرقي من ساحة الفدان كما كانت في عهد الاستقلال الاول قبل عهد الحماية الاسبانية، اى قبل سنة 1331 هـ 1913 م وكانت هذه الساحة قرب سور المدينة في ناحيتها الغربية، وكانت هى السوق العمومي الذى يهره اهل القبائل ثلاث مرات في الاسبوع، الجمعة والاحد والاربعاء، وفي اعلى اليمين تظهر قبة قصر الثمور الذى كان مقرا لوالى المدينة ثم صار مسكنا للخليفة السلطاني ومركزا للحكومة الخليفة وجنبه اجهة اليسار الديوانة ثم زاوية سيدى عبد الله الحاج التى مرت عليها ظروف حولت فيها الى كنيسة كاثوليكية وفي الاعلى جبل درسة وبسفحه قبة تطوان المتصلة بالاسوار المحيطة بالبلد، وبها برج فيه مدافع كانت وما زالت عياراتها تطلق في الاحتفالات الدينية والقومية



(رقم 23) باب التوت، احد ابواب تطوان في الجهة الغربية منها، وكان منه دخول وخروج جل المسافرين من تطوان واليها من مختلف البلاد المغربية، وهو متصل بحومة الطرنكات، قريب من سوق الزرع وساحة الفدان



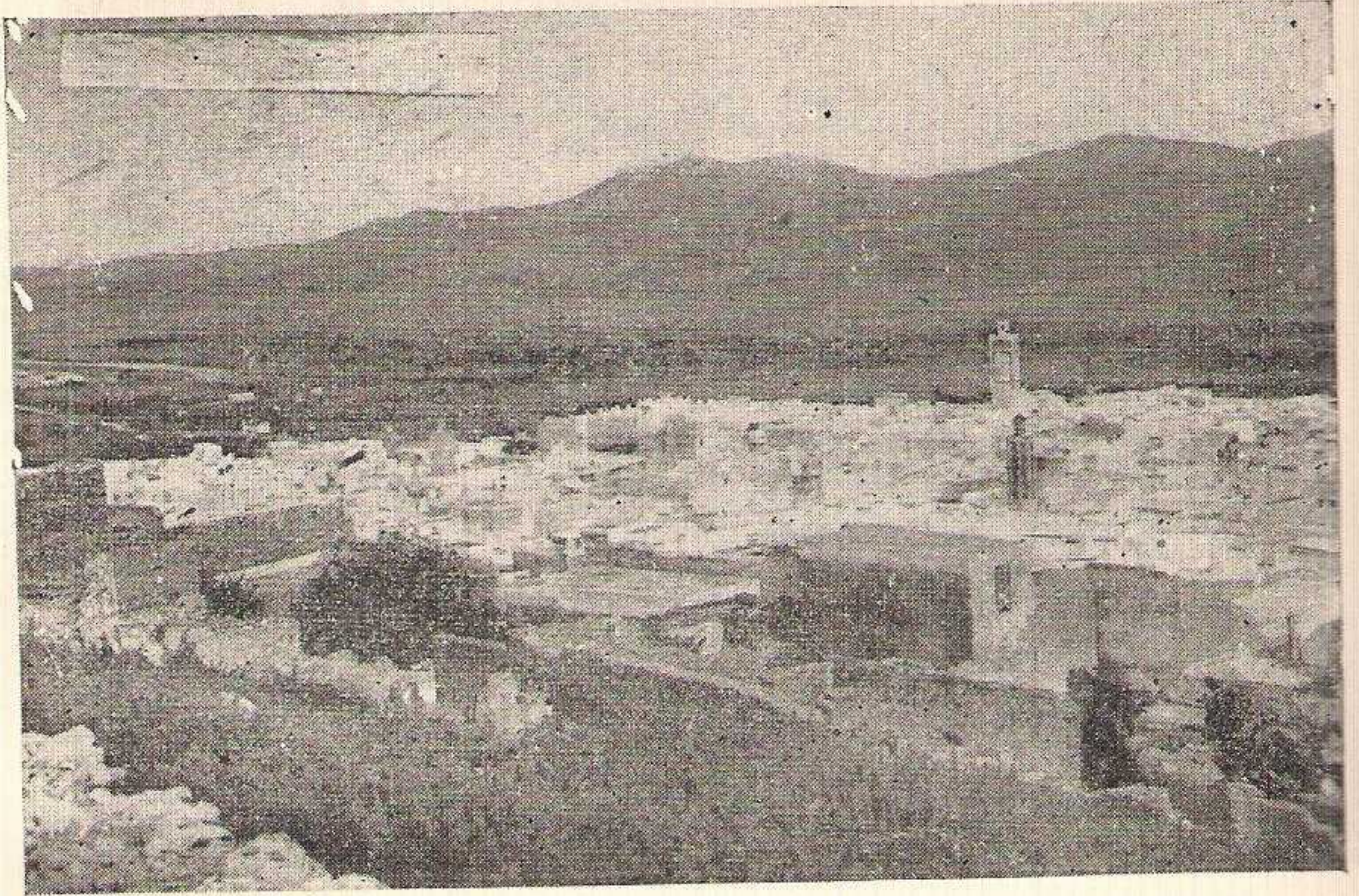
(رقم 24) منظر عام لوسط مدينة تطوان وقد اخذ من جبل درسة المشرف على المدينة



(رقم 25) منظر آخر لوسط مدينة تطوان، ويظهر فيه بعض ساحة الفدان، مع الشوارع
الجديد الذي يفصل بين تطوان القديمة وتطوان الحديثة



(رقم 26) منظر علوى لحومة العيون الواقعة في غرب مدينة تطوان، والجبال الظاهرة في
الصورة، من سلسلة الجبال التي بقبائل بني حزم وبني يدر وودراس ومن المعلوم
ان قبائل تطوان كلها جبلية سهولها قليلة



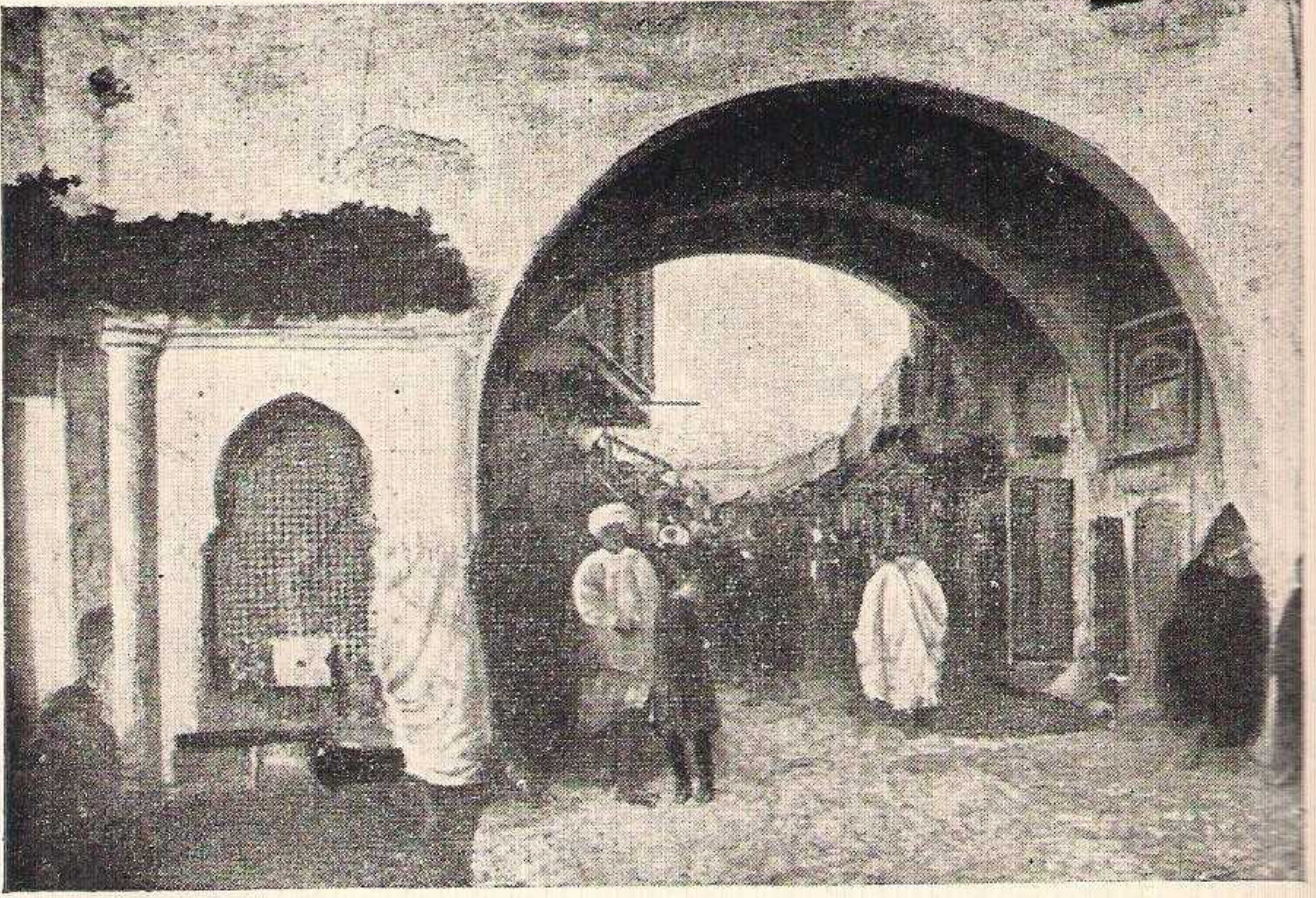
(رقم 27) بعض القسم الشرقي من مدينة تطوان، ويحتوى على حومة البلد، وترى فيه صومعتان كبيرتان، المربعة منهما هي صومعة الجامع الكبير «المسجد الاعظم» والمشهورة هي صومعة الزاوية الريسونية، زاوية سيدى على بن ريسون» والجبال الظاهرة هي جزء من قبيلة بنى حزمr المنتهية الى البحر الابيض المتوسط، وتتصل بجبال قبائل غمارة شرقا ثم بقبائل الريف الى حدود القطر الجزائرى والسهل الفاصل بين تلك الجبال وبين تطوان تقع به غراسى «بساتين» كيتان والمناقع والمخنش، ويشقه النهر الذى يصب فى البحر الابيض المتوسط، وتقع على شاطئيه غروس تطوان وبنى معدان، وقد اخذت هذه الصورة من الجهة الشرقية من جبل درسة



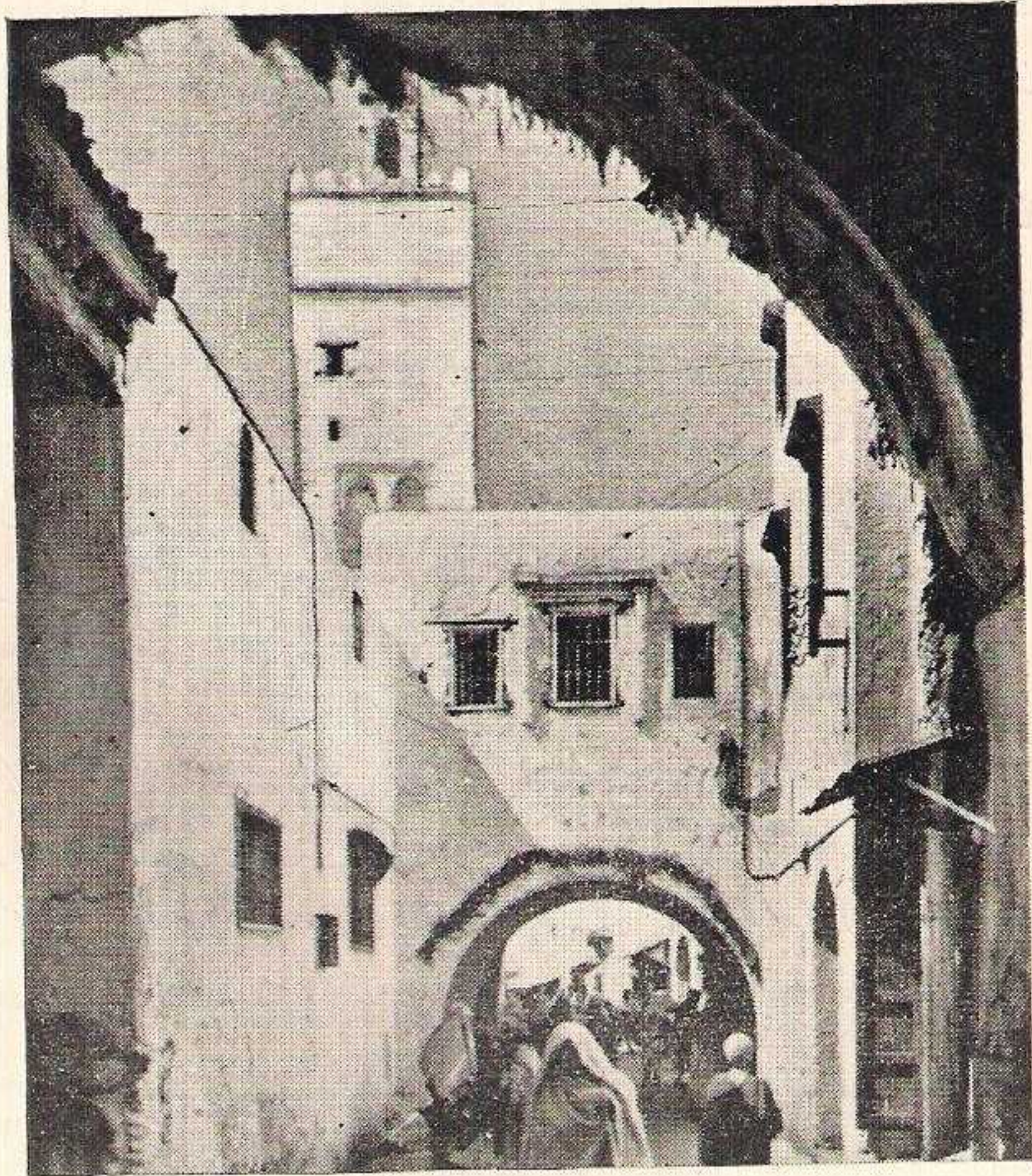
(رقم 28) شارع الوسعة، في حومة البلد، وهو من اقدم ما بنى من تطوان بعد التجديد
الاندلسي، وتقع فيه زاوية سيدى ابي العباس السبتى ومركز الجمعية الخيرية الاسلامية



(رقم 29) الجانب الغربى من شارع السوق الفوقى، وهو من الرىض الاعلى التابع لحومة
البلد، وما زال هذا الشارع كما كان فى القديم لم يلحقه اى تغيير



(رقم 30) منظر قديم كان واقعا في ركن الجنوب الشرقى من ساحة الفدان وهو مدخل شارع الطرافين



(رقم 31) قطعة من شارع العيون الطويل الواقع في قسم الشمال الغربى من تطوان وهو من بناء القرن الحادى عشر للهجرة

عن بعض شوارع تطوان

مما يلاحظ فى شوارع تطوان ان ارضها كانت كلها مرصفة بحجارة صغيرة صلبة متناسقة تنحدر مياه الامطار فى وسطها فتبقى دائمة النظافة، وهذه الحجارة كانت وما زالت تجلب من النهر القريب من المدينة، ومن المعلوم ان جل تلك الشوارع قد مدت تحتها انابيب فخارية يجرى فيها الماء الذى يدخل المساجد والدور، كما تقع فى الكثير منها مجارى المياه المستعملة التى قد تدعو الضرورة لاصلاحها فى بعض الاحيان، فيسهل قلع تلك الحجارة واصلاح الانابيب التى تحتها ثم ارجاع تلك الحجارة لحالتها الاولى تماما دون ان يشوه منظر الشارع .

ويلاحظ ايضا ان الجدران كلها مبيضة دائما إما بالجير الناصع البياض، واما بالجير المشوب بزرقة لا تكاد تظهر مما يزيد منظرها ملاحظة ولطفاً ويلاحظ فى الصورة رقم 28 ان شارع الوسعة قد مد فوقه عريش من الخشب وقد انتشرت عليه دوالي العنب الذى تدلت عناقيده فكان هناك ظل ظليل وهواء عليل .

وفى الصورة رقم 29 يرى لجهة اليمين جدار جامع السوق الفوقى، وهو المسجد الذى كان عالم تطوان وإمامها الشيخ على بركة يؤم به فى الصلوات الخمس والجمعة، ويخطب ويعظ ويدرس مختلف العلوم الدينية والادبية، وفى آخر هذا الشارع يقع قوس الحمام الذى يفصل بين حومة البهائم وحومتى العيون والطرنكات، ومنه تتفرع شوارع الطالعة التى توصل الى القصبة التى كانت حصن المدينة ومركز مدافعها ومخازن البارود فيها ايام العز والكفاح.

وفى الصورة رقم 30 يرى منظر قديم يحتوى على ثلاثة اقواس كانت تفصل ساحة الفدان عن شارع الطرافين الذى كان اكبر شارع بتطوان للتجارة فى الثياب القطنية والحريرية، وقد هدمت هذه الاقواس مع ما فوقها وما حولها فى عهد الحماية الاسبانية ، لا أعاد الله على المغرب عهدا غير عهد الحرية والاستقلال والرفاهية والرخاء

وفى الصورة رقم 31 تظهر صومعة المسجد الجامع، «جامع العيون» أو مسجد سيدى على الجعيدى، ويلاحظ ان القوس الامامى قد وضع فوقه اكليل من الريحان الاخضر الذكى الرائحة على عادة تطوان منذ القديم، لان به مدخل ضريحي الوليين الصالحين الشيخ على بن مسعود الجعيدى والشيخ احمد بوسلهام رحمهما الله

الفصل الاول

ولاية تطوان وحوادثها في القرن العاشر

قد قدرنا فيما مضى ان وفاة القائد المجاهد أبى الحسن المنظري كانت في حدود سنة 910 هـ. فالقرن العاشر قد دخل وتطوان تحت حكم القائد المنظري وسرى أن القرن العاشر فيه ابتداء التاريخ المعروف لهذه المدينة، اذ سجل فيه كثير من حوادثها، وعرف عدد من ولايتها، وسنذكر فيما يلي أسماء من عرفنا من الاشخاص الذين حكموا هذه المدينة في هذا القرن، مع ما بلغنا من أخبارهم والحوادث التي وقعت في عهدهم .

الحفيد المنظري الحفيد

ذكر ليون الافريقى أنه لما زار تطوان في أوائل القرن العاشر للهجرة، وجد الحاكم بها هو حفيد المنظري، ولم يذكر اسم هذا الحفيد، الا أنه وصفه بأنه شديد اليقظة عظيم الشجاعة .

ولعل اسمه هو محمد كما يفهم من تحلية سيدي العربي الفاسي له بكنية أبي عبد الله .

ومارمول المؤرخ الاسباني الذي عاش في هذا القرن، أعنى العاشر للهجرة، بعد أن سطر تاريخ أبى الحسن المنظري وأعماله الحربية، ذكر أيضا أن خلفه في الحكم هو حفيده الذي لم يكن أقل منه شجاعة الخ .

ويستفاد من كلام الباحث الفرنسي ريكارد M. R. RICARD أن المنظري - وأرى أنه يعنى الحفيد - كان متزوجا بالست الحرة - عائشة - ابنه الشيخ علي بن راشد، وأن ابن راشد هذا لما مرض سنة 1511 م (أي عام 917، وهو العام الذي توفي فيه) استخلف على الجيش ولده مولاي ابراهيم وصهره المنظري تالة تطوان وتارغة، فهجما على أصيلا وقاتلا البرتغاليين الذين كانوا بها هـ.

فمن هذا نعرف ان المنظرى الحفيد كان عام 917 حاكما على تطوان وعلى القبائل القريبة منها الى تارغة التى هى قطعة من قبيلة غمارية فى الجنوب الشرقى لتطوان، كما نعرف أن المنظرى الحفيد كان كجده قائدا شجاعا يقود الجيوش ويجهد الافرنج الذين كانوا مترايين على الشواطىء المغربية فى عهده وقلنا ان المنظرى الحفيد هو الذى كان موجودا فى هذ التاريخ، لاننا نعرف ان المنظرى الجد توفى فى حياة ابن راشد بعد أن تقدم فى السن وأدركه الهرم وفقد بصره كما تقدم .

وقد ذكر ابو محمد سكيرج المؤرخ الاول لتطوان أنه لما توفى ابو الحسن المنظرى ذهب أناس من تطوان الى الشيخ على بن راشد بمدينة شفشاون، وطلبوا منه أن يرشدهم الى المكان الذى ينبغى أن يدفنوا فيه أبا الحسن المنظرى فقال لهم ارجعوا الى بلدكم فانكم ستجدونه قد دفن الخ. مما يدل على أن المنظرى الجد توفى فى حياة الشيخ على بن راشد والله أعلم .

الافرنج يفتدون الاسارى من تطوان عام 929 هـ. موافق 1523 م.

سبق لنا عن ليون الافريقى ومارمول الاسباني، ان الاسارى الافرنج الذين كانوا بتطوان فى عهد المنظرى الحفيد، قد بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل . والمفهوم ان أولئك الاسارى كان جلهم من البرتغاليين (I) المحاربين المعتدين على الشواطىء المغربية، وبعضهم من الاسبانيين الذين تأسروهم المراكب القرصانية التطوانية والجزائرية .

ونحن لا ندرى ما ءال اليه أمر جل أولئك الاسارى وان كنا نعرف أن عددهم كان يزيد أحيانا بمن يضافون اليهم من الاسارى الذين كان المجاهدون يستولون عليهم فى حرب أصيلا وغيرها، كما كان ذلك العدد ينقص أيضا بسبب الوفيات والفداء . الا أننا عرفنا ان بعض أهل الخير والاحسان من الاسبانيين كانوا من حين لآخر يفتدون بعض أولئك الاسارى الذين كانوا يعبرون عنهم بالعبيد، لانهم كانوا يباعون فى الاسواق كما تباع الانعام ويشترىهم مطلق الناس ويستخدمونهم فى مختلف أعمالهم كما يستخدمون المندوب .

(I) البرتغاليون كلمة محدثة وفى القديم كان المؤرخون العرب يسمونهم الجلالقة نسبة الى جليقية الكلمة المعربة عن GALICIA ت. و.

وقد وجدنا في السجل الوطنى الاسباني (I) بعض مستندات تتعلق بافتداء بعض أولئك الاسارى ومنها ما يلى : « فى يوم الخميس 29 اكتوبر 1523 (2) وصل الى اشبيلية مركب فيه بدرو دى طوليدو PEDRO DE TOLEDO من سبتة ، وذكر أن خوان أورطيث دى كويار JUAN ORTIZ DE CUELLAR دفع له فى سبتة خمسة وعشرين نصرانيا كانوا أسارى عند المسلمين، وأن أورطيث المذكور، افتداهم بالمال الذى تصدق به ضون ألونسو بيمينتيل كوندى دى بينافينتى DON ALONSO PIMENTEL CONDE DE BENAVENTE وحملهم فى مركب ديبىكو دى ميراندا.

ثم بعد ذلك شهادة فرأى سيباستيان وخوان دى أرطياخا وديبىكو دى ميراندا، وهؤلاء الثلاثة كانوا بتطوان عند افتداء أولئك الاسارى فى 20 اكتوبر سنة 1523.

وقد ذكروا ان خوان أورطيث وفد على تطوان وافتدى بها خمسة وعشرين أسيرا مسيحيا كانوا عند المسلمين وذكروا أسماء أولئك الاسارى وأسماء المسلمين الذين كانوا يملكونهم ، ومن جملتهم القائد النظرى وعلى فرناندو ومولاي ابراهيم ومولاي عثمان وأحمد أبو على والرايس الغزال وأشخاص آخرون كتبت أسماءهم محرفة فلم نستطع معرفتها. ثم بعد ذلك شهادة حاكم سبتة ضون خوان دى كورونا وهى مؤرخة بـ 25 اكتوبر سنة 1523 ومضمنها أن خوان أورطيث وصل الى مدينة سبتة مع خمسة وعشرين نصرانيا كانوا أسارى عند المسلمين، وقد أرسلوا الى اشبيلية مع بدرو دى طوليدو الملقى وقد أحضر أولئك الاسارى أمام الحاكم واستدعى كل واحد منهم باسمه ثم أبحروا فى مركب ديبىكو دى ميراندا .

ثم بعد ذلك شهادة أولئك الاسارى أنفسهم، وقد ذكر كل واحد منهم اسمه واسم مالكة المسلم والمبلغ الذى افتدى به الخ.

ثم بعد ذلك شهادة مضمونها أنه فى 14 سبتمبر 1523 وصل اشبيلية خوان بوكانييرا موفدا من قبل خوان أورطيث فى مركب ديبىكو دى ميراندا ومعه أربعون نصرانيا ما بين رجال ونساء كانوا مملوكين عند المسلمين، وقد ذكر ان خوان أورطيث المذكور قد سلم له أولئك الاسارى فى سبتة، وأنهم افتدوا بالاحسان الذى قدمه ألونسو بيمينتل .

ثم أثبت شهادة ثلاثة من الاسبانيين كانوا بتطوان، وملخصها أنهم كانوا بهذه المدينة حين حضر اليها خوان أورطيث فى 25 غشت 1523 وافتدى أربعين

(I) عن مجلة موريطانيا MAURITANIA الاسبانية التى تصدر بطنجة عدد 182، المؤرخ بيناير سنة 1943.

(2) هذا التاريخ يوافق من تاريخنا الهجرى أواخر ذى الحجة عام 929

أسيرا وذكروا أسماءهم وأسماء المسلمين الذين كانوا يملكونهم من أهالي تطوان الخ. واللهجة التي تتحدث بها تلك الشهادات والمستندات، لهجة خاصة تجد فيها، نصارى، مسلمين، أعداء ديننا، أعداء إيماننا المقدس الخ. الألفاظ والعبارات التي تدل على أن أولئك القوم كانوا منغمسين في حمأة التعصب والعداء ولعل تلك العواطف كانت متبادلة بين الطرفين، فلا ينبغي أن يستاء منها أحد الجانبين .

وفاة القائد المنظري الحفيد عام 935

رأيت فيما سبق أن القائد المنظري «الحفيد» كان حاكما بتطوان ونواحيها عام 917 ، وأنه كان حيا يملك بعض الاسارى عام 929 . وقد رأيت بخط العلامة سيدى محمد ابن شيخ الشيوخ سيدى عبد القادر الفاسى نقلا عن خط العلامة سيدى العربى الفاسى «أن القائد أبا عبد الله المنظري توفى سنة 935 . كما ذكره سيدى الشلى » والله اعلم .

ونقول، ان المنظري الذى توفى فى هذا التاريخ هو الحفيد لا الجد ، لاننا رأينا ليون الافريقى ذكر انه لما زار تطوان كان المنظري الجد قد توفى وخلفه حفيده ، ومعلوم أن ليون الافريقى قد فرغ من تأليف كتابه « وصف افريقيا » سنة 932 هـ . 1526 م أى قبل وفاة المنظري الحفيد ببضع سنين بعد ان لبث أسيرا فى ايطاليا سنين عديدة ، فلم يبق الا ان الذى توفى عام 935 هو المنظري الثانى اى الحفيد لا الجد والله اعلم .

القائد المنظري الثالث

قد علمت ان المنظري الحفيد الذى تولى حكم تطوان بعد وفاة جده أبى الحسن ، والذى كان زوجا للست الحرة ابنة الشيخ على بن راشد، قد توفى سنة 935 . وسيأتى لنا أن الست الحرة المذكورة كانت هى نفسها حكمة بتطوان سنة 948 . فمن كان يحكم هذه المدينة بين سنتى 935 و 948 هـ . ان الذى يظهر والله اعلم انه تولى حكم تطوان رجل آخر من عائلة المنظري ، وهذا هو القائد المنظري الثالث .

ويؤيد هذا ما ذكره مؤرخ ذلك العهد ومعاصره وهو مارمول الاسبانى فانه بعد أن ذكر أبا الحسن المنظري وحفيده السابقى الذكر قال : وقد خلفه بعض المتحدرين من هذه العائلة وكلهم كانوا سادة فى تطوان الخ .

ويؤيد ذلك أيضا ما جاء في المصادر الافرنجية من أن الست الحرة قد تزوجت عدة مرات ، فمن المحتمل القريب جدا انها تزوجت أولا من المنظرى الحفيد وهو ثانى المنظرين ثم لما توفى سنة 935 تزوجت من منظرى آخر هو المنظرى الثالث ولعله كان أخا للذى قبله أو ابن عم له أو احد أقاربه.

ويؤيده أيضا ما جاء فى بعض المصادر الافرنجية أيضا من أن المنظرى حاكم تطوان توفى سنة 1541 م (وهذه السنة توافق من تاريخنا الهجرى عام 948) وأن السلطان أحمد الوطاسى وفد على تطوان وتزوج فيها بالست الحرة عقب تلك الوفاة فاذا علمنا أن المنظرى الاول توفى فى حدود سنة 910، والثانى توفى تحقيقا سنة 935 . وآخر توفى سنة 948 . لم يبق هناك شك فى أن هناك منظريا ثالثا تولى حكم تطوان وهو الذى توفى سنة 948. والله اعلم .

الست الحرة حاكمة تطوان سنة 948 هـ.

الست الحرة (I) هى امرأة كان لها نفوذ كبير فى مدينة تطوان ونواحيها. ويصح ان يقال انها تولت الحكم فيها . وقد وجدنا فى المسندات الافرنجية ذكر هذه السيدة مرارا وورد ذكرها ايضا فى كتاب « دوحة الناشر » لابن عسكر ، فقد جاء فى ترجمة السيد الجاسوس منه قوله (2) « ان سرية من المسلمين ذهبوا الى الاغارة على النصارى الذين بسبته فوجدوا هذا الرجل على ساحل البحر بمقربة مدينة سبتة فظنوا أنه من الجواسيس الذين يترددون الى بلاد الكفر فسألوه عن أمره فتكلم بكلام لا يفهمونه فقبضوا عليه وأتوا به الى تطوان فى ولاية الحرة بنت على بن راشد النخ. فأنت ترى انه ذكر أن تلك الحادثة وقعت فى عهد ولاية السيدة المذكورة للحكم فى تطوان .

فمن هى هذه السيدة ؟

وما هو اسمها الحقيقى ؟

وما هو المركز الذى كان لها فى تطوان ؟

وما هو تاريخ وجودها فى هذه المدينة وحكمها فيها ؟

وما هى المدة التى قضتها فى حكمها ؟

هذه اسئلة خمسة دونك اجوبتها .

(I) لشيوع التسرى بين القواد ورجال الدولة ، كانت أزواجهم الحرائر قوات منزلة خاصة حتى كن يكرمن بأن ينص على أنهن حرائر ولسن بأمهات أولاد . ت. و.

(2) دوحة الناشر ص 34 .

أما السؤال الاول فقد اجابنا عنه ابن عسكر فى كتابه «دوحة الناشر» كما رأيت اذ ذكر أنها بنت على بن راشد الشريف العلمى صاحب مدينة شفشاون. وقد ذكر ذلك ايضا ، الباحث الفرنسوى م. ريكارد M. ROBERT RICARD فى البحث الذى نشره بمجلة الاندلس (I) عن مولاي ابراهيم قائد شفشاون وشقيق الست الحرة المذكورة ، وزادنا فائدة اخرى فاجابنا عن السؤال الثانى وبين لنا اسمها الحقيقى فذكر نقلا عن المصادر البرتغالية أنها كانت تسمى عائشة ، بل زادنا عنها وعن والديها معلومات طريفة فذكر أن أمها كانت تسمى لا لا الزهرة وأن أصلها من مدينة فخير دى لافرونطيرا Vejer de la Frontera الاسبانية وهى مدينة صغيرة قرب الجزيرة الخضراء بالاندلس . وكانت هذه السيدة فى أول أمرها اسبانية مسيحية ثم اسلمت وصارت تدعى باسم لا لا الزهرة كما أن أخاها الذى كان اسمه مارتين فرنانديس اسلم فحول اسمه الى فرناندو ، وأن سيدى على بن راشد تزوج لا لا زهرة المذكورة فولدت منه مولاي ابراهيم الذى صار فيما بعد حاكما بشفشاون وكان قائدا كبيرا وحربيا مغامرا ، كما ولدت له ايضا ابنته عائشة التى صارت فيما بعد تدعى بالست الحرة او السيدة الحرة ، التى حكمت نوعا ما فى تطوان عندما كانت زوجا للمنظرى ، وقد تزوجت فيما بعد بسلطان فاس احمد الوطاسى النخ .

فاسم السيدة كما ترى هو عائشة ، ولقبها هو الست الحرة وهى ابنة الشريف الجليل المجاهد سيدى على بن راشد بانى شفشاون وحاكمها . وفى المصادر الافرنجية ان الست الحرة ولدت بعد أخيها ابراهيم الذى ولد سنة 1490م 1896 هـ. فعلى ذلك كانت عند وفاة الشيخ المنظرى الجد ، ما تزال فى سن الطفولة ، وكانت عند وفاة والدها سنة 917 فيما دون العشرين من عمرها .

ثم ان م ريكارد ذكر أنها حكمت تطوان نوعا ما حينما كانت زوجا للمنظرى، ومن ذلك نأخذ الجواب عن السؤال الثالث ، ونعرف أن الصفة التى كانت لها فى تطوان ، هى انها زوجة حاكمها القائد المنظرى ، ونحن نعرف انه كان بتطوان فى أوائل القرن العاشر منظرىان اثنان أولهما هو القائد الغرناطى الشهير أبو الحسن المنظرى الذى جدد بناء تطوان وتولى الحكم بها فى اواخر القرن التاسع ، والاخر حفيده الذى تولى حكم تطوان من بعده - ولا شك أن الذى تزوج الست الحرة هو الحفيد ، لان الجد كما قلنا توفى وهو شيخ كبير فى حياة والدها على الذى كانت وفاته عام 917 .

والذى يظهر ان الست الحرة قد تولت الحكم بتطوان فى طورين :

الاول - حينما كانت زوجا للمنظري فكانت تتولى بعض الاحكام اما فى غيبة زوجها الذى كان حاكما بتطوان فكان اذا غاب عنها فى حروبه المتوالية مع الافرنج ، تنوب عنه فى ابداء الرأى والاشارة بنظرها فى بعض القضايا المهمة والفصل فى المسائل العادية واما ان زوجها كان ينيبها عنه فى مباشرة بعض القضايا لما كان يرى من سداد رأيها وحسن تدبيرها، واما انه بعد ان توفى هو بقيت داره عامرة وحاشيته ملتفة حولها وبقيت زوجته الست الحرة بما كان لها من نفوذ وجاه ومقام ومعرفة ، قابضة على زمام الحكم ولم يجد الناس فى ذلك حرجا لما كانوا يرونه من حزمها وحسن سياستها .

ومن المعروف أن بنى راشد الذين كانوا يحكم مدينة شفشاون والقبائل الجبلية القربية منها ، كانت بينهم وبين المنظري وأندلسيى تطوان، علاقة ودية متينة منذ هاجر أولئك الاندلسيون من غرناطة الى شمال المغرب .

ويظهر أن ذلك كان من أهم الاسباب فيما حصل بين آل المنظري وأصحابه على تطوان من ناحية ، وبنى راشد من ناحية اخرى من الانسجام والتعاون ، حتى أدى الحال أولا الى المصاهرة بين العائلتين المنظرية والراشدية ، وثانيا الى تولى «الست الحرة» الراشدية المنظرية لحكم مدينة تطوان نفسها ورضا على تطوان بتلك الولاية بالرغم من كون ولاية المرأة للحكم شيئا لم يكن معهودا بالمغرب فى عصر الحكم الاسلامى، الا أن مكانة العائلتين وذكاء الست الحرة ومرونتها وحزمها ودهاءها وقوة شخصيتها - وربما كان مع ذلك شيء من الجمال واللفظ وحسن المعاملة - كل ذلك سوغ لها أن تحكم البلاد اداريا وتقوم الرجال سياسيا واجتماعيا وحربيا . وذلك من أغرب ما حدث فى تاريخ تطوان .

الطور الثانى لما تزوجت بعد ذلك بالسلطان احمد الوطاسى كما سيأتى، كانت تحكم تطوان أيضا وقد اتسع نفوذها وصار عملها غير قاصر على مباشرة الاعمال العادية داخل أسوار المدينة ، بل صارت لها علاقات خارجية أيضا . والمصادر الاسبانية والبرتغالية تصف الست الحرة بأنها كانت كفؤا لما وصلت اليه من مقام ، لأنها تلقت علومها عن كبار الرجال ولأنها كانت ذات حرفة ونظر ، وتذكر أنها كانت شديدة فى تصرفاتها وخصوصا مع حاكم الست ، وأنها كانت لها مراكب تتعاطى القرصنة فى البحار ، وأنها كانت تتجسس على الاسارى المسيحيين الخ .

وانها تزوجت بالقائد المنظري حاكم تطوان ونواحيها لتوحيد جبهة النضال بين مدينتى شفشاون وتطوان ضد عدوان البرتغاليين .

وفى المجموعة التاريخية التى نشرها م هنرى دى كاسترى (I) ان الست الحرة كانت حاكمة بتطوان وكان لها نفوذ بها ، وأنه وقع بينها وبين حاكم سبتة ضون الفونسو البرتغالى خلاف ادى الى قطع المواصلات بين سبتة وفاس فاهتم بذلك سلطان فاس احمد بن محمد المرينى - اى الوطاسى - وكلف سياستيان دى برغاس بكتابة رسالة الى جان الثالث (2) ملك البرتغال للتوسط بين حاكم سبتة والست الحرة فكتب سياستيان المذكور رسالة من سبتة بتاريخ 8 سبتمبر سنة 1542 م وفى المجموعة المذكورة ترجمة الرسالة المذكورة الى الفرنسية وفيها ان الست الحرة كانت قد سمحت للمراكب التركية بالدخول الى ميناء تطوان الخ . مما يدل على انها كانت تباشر الاعمال الخارجية حتى مع الدول الاجنبية .

اما تاريخ وجود الست الحرة بتطوان ومدة حكمها فيها فقد ذكر ابن عسكر فى دوحه الناشر أنها كانت متولية فى حدود الخمسين اى وتسعمائة ومن رسالة سياستيان دى برغاس نفهم انها كانت حاكمة سنة 1542 م وهى توافق عام 948 - 949 هـ .

والمعلومات عن الست الحرة فى المصادر العربية قليلة جدا وجل ما عرف عنها مأخوذ عن المصادر الاfrنجية مما كتبه اشخاص أوربيون ، الا ان فى كلامهم بعض أخطاء .

فمن ذلك أنهم ذكروا أن الست الحرة هى والدة القاضى محمد بن عسكر مؤلف كتاب «دوحه الناشر» وانها هى التى ختمت حياتها باعتزال الحياة السياسية وانزوائها فى مدينة القصر الكبير حيث عاشت مع ولدها ابن عسكر المذكور الى أن توفيت فى ثانى عشر ذى القعدة عام 969 هـ وذلك كله لا أصل له ، لان والدته ابن عسكر هى عائشة ابنة أحمد بن عبد الله بن على ابن محمد بن احمد بن عمران الخ . وقد ترجم لها ابنها فى كتابه «دوحه الناشر» (3) ووصفها بالولية الصالحة المتبرك بها ، ونسب لها كرامات ، ومن ترجمتها نعرف انها قضت حياتها بمدينة شفشاون الى أن انتقلت الى القصر الكبير حيث توفيت فى التاريخ المذكور .

أما الست الحرة فهى عائشة ابنة الشيخ على بن موسى بن راشد من ذرية الشيخ عبد السلام بن مشيش .

LES SOURCES INEDITES DE L' HISTOIRE DU MAROC PAR LE (I)
L T . COLONEL H DE CASTRIES

السلسلة الاولى - المجلد الاول ص 133 بالفرنسية.

(2) هو خوان الثالث وقد تولى حكم البرتغال من سنة 1521 الى سنة 1557 .

(3) دوحه الناشر ص 19 طبعة فاس سنة 1309 هـ

فوالدة ابن عسكر هي غير الست الحرة قطعا . أما هذه ، - أعني الست الحرة - فان مصيرها بعد اقصائها عن حكم تطوان ما زال غير معروف لدينا الى الآن .

ومن ذلك قولهم ان الست الحرة تزوجت الشيخ عليا المنظري الكبير وانتقلت معه الى تطوان مركز حكمه الخ. فان ذلك خطأ أيضا، لان التاريخ الذي توفي فيه الشيخ المنظري المذكور كانت هي فيه ما تزال في سن الطفولة ، وهم انفسهم يذكرون ان مولدها كان عام 900 هـ والمنظري لم يعيش بعد هذا العام الا بضع سنين شيخا هزما فاقتدا لبصره . فالمنظري الذي كان زوجها لها هو أحد حفدة الشيخ المنظري المذكور .

زواج سلطان فاس بحاكمة تطوان سنة 948

من أهم الاشياء التي تتعلق بالست الحرة ، قصة زواجها من السلطان أحمد الوطاسي ، وقد ذكرها العلامة سيدي العربي الفاسي في كتابه «مرآة المحاسن» اذ قال فيه ما نصه (I) : «ولما كان خروجه (اي سلطان فاس أحمد الوطاسي) الذي وصل فيه الى تطاون وتزوج بها الحرة بنت الامير السيد ابي الحسن علي بن موسى بن راشد الشريف ... الى ان قال : قال الشيخ قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي رحمه الله فيما قرأته بخطه « وتزوج السلطان الحرة في ربيع الاول عام ثمانية وأربعين (948) وبني بها ببلد تطاون » وهذا التاريخ يوافقه من التاريخ الميلادي شهر يولييه سنة 1541م. وقد نقل الناصري مضمن ذلك في الاستقصا (2) .

ولنا هنا وقفة . فقد سبق لنا أن الست الحرة كانت حاكمة بتطوان سنة 1542م 949 هـ كما في رسالة سيباستيان دي برغاس ، وفي دوحة الناشر أنها كانت متولية في حدود الخمسين وذلك يصدق بسنة 949 أيضا ، والثابت أنها تزوجت بسلطان فاس أحمد الوطاسي وبني بها في تطوان قبل ذلك التاريخ اي عام 948 كما رأيت في «مرآة المحاسن» ، فهل طلقها السلطان المذكور عقب زواجه بها وغادر هو تطوان وبقيت هي بها ؟ أم انها بقيت حاكمة فيها بالرغم من كونها زوجة للسلطان ؟ نحن نرجح هذا الاحتمال الثاني خصوصا بعد أن عرفنا أن مقام السلطان المذكور كان في ذلك العهد مضعفعا ، وأن دولته كانت مشرفة على الاضمحلال بسبب محاربة السعديين له ومقاسمتهم له دولته، فكان يبحث عما يوطد به مركزه بمختلف الوسائل ، ولذلك تزوج بالست الحرة التي كان لها

(I) مرآة المحاسن ص 216 طبع فاس سنة 1324

(2) ج 2 ص 177 .

مقام ممتاز بتطوان ونواحيها ، كما كانت لعائلتها الشريفة الحاكمة بشفشاون مكانة عظيمة في مختلف القبائل الجبلية بشمال المغرب ، وقد سبق له من قبل أنه زوج اخته من القائد مولاي ابراهيم شقيق الست الحرة نفسها ، فكان زواج السلطان بالست الحرة زواجا سياسيا المقصود منه اكتساب عطف هذه النواحي وتأييدها له ، ولذلك ترك زوجته المذكورة نائبة عنه في حكم هذه الناحية ، وقد صرح مؤرخو الافرنج في ذلك العهد بان زواج السلطان الوطاسي بالست الحرة انما كان لتوطيد الامن في هذه الربوع من المغرب .

ومن هذا كله تتضح لنا الصفة التي كانت تحكم بها الست الحرة مدينة تطوان في المدة الاخيرة ، وهي أنها كانت زوجة للسلطان ونائبة عنه في الحكم وكونها كانت زوجة للسلطان المذكور قد علمت انه ثابت لاشك فيه ، وكذلك كونها كانت حاكمة بتطوان بعد ذلك الزواج فاذا لم يثبت أنه طلقها عقب زواجه بها لم يبق الا أنها كانت في تلك المدة تحكم هذه المدينة ونواحيها بتفويض من زوجها السلطان والله اعلم .

القائد المنظري الرابع والقضاء على حكم الست الحرة سنة 949 هـ

علمت مما تقدم أن الست الحرة قد تم زواجها من السلطان احمد الوطاسي بتطوان سنة 948 عقب وفاة زوجها المنظري حاكم هذه المدينة ، وانها كانت حاكمة بها بعد ذلك في اوائل سنة 949 . ويظهر ان كبار الرجال من عائلة المنظري وغيرهم قد استاءوا من ان تتولى الست الحرة حكم تطوان وهم في الوجود ، فقاموا بمؤامرة لقلب حكومة هذه المرأة والاستيلاء على حكم هذه المدينة ، وقد شارك في هذه المؤامرة محمد الحسن المنظري الذي كان من سكان تطوان ، وهو حفيد المنظري حاكم تطوان من قبل وصهر الست الحرة ، كما شارك فيها والده محمد الحسن المنظري ايضا وكان قاطنا مع عائلته بفاس (I) فجاء هذا المنظري الوالد من فاس الى تطوان واستولى على الحكم فيها بالقوة .

وقد جاء في المصادر البرتغالية انه في يوم عشرين شهر اكتوبر سنة 1542 - وهو موافق لشهر رجب عام 949 - غادر السيد محمد الحسن المنظري مدينة فاس هاربا من السلطان احمد الوطاسي وتوجه نحو مدينة تطوان مركز حكم الست الحرة ، فوصلها على رأس جماعة من الفرسان ومعه عائلته وبعد يومين من وصوله اليها أعلن نفسه حاكما على هذه المدينة مستقلا عن سلطان فاس ثم أخرج الست الحرة من هذه المدينة واستولى على جميع ممتلكاتها بها .

(I) لا يزال أعقاب المنظري بفاس ، ومنهم من عاد الى تطاون ت.و.

ويظهر أن هذا الانقلاب لم يتم للمنظري إلا بمساعدة المتآمرين معه على حكم الست الحرة من سكان تطوان نفسها (I) ولا يبعد أن يكون ذلك كله بتدبير عال من خصوم دولة الوطاسيين . وبذلك وقع القضاء النهائي على حكم الست الحرة في مدينة تطوان ونواحيها ، وكان القائم بذلك كما رأيت هو القائد محمد الحسن المنظري الذي كان هو الرابع من الرجال الذين حكموا تطوان من عائلة المنظري . ولا ندرى أكثر من هذا لا عن شخصية هذا القائد ولا عن الحوادث التي وقعت في عهده ولا عن مدة ولايته ونهايته .

أهمية عمل المنظري وأبطال تطوان

والآن وقد انتهينا من اثبات ما استطعنا معرفته عن عصر القائد المنظري ومن تولى حكم تطوان من بعده ، يجمل بنا أن نقارن بين حالة تطوان وحالة بقية نواحي المغرب في ذلك العصر . ونحن إذا راجعنا تاريخ المغرب في ذلك العهد ، عرفنا الحالة التي وصل إليها من الضعف حتى ترامي الافرنج على سواحله واستولوا على جل مدنها ، وعرفنا أن المنظري وحفيده واصحابهما من مجاهدي تطوان لم يقتصروا على المحافظة على هذه المدينة والحيولة دون استيلاء الافرنج عليها فحسب ، بل كانوا ابطالا يهاجمون الافرنج في معقلهم ويأخذون منهم آلاف الاسرى ويستخدمونهم في مصالحهم ، اذا علمنا هذا ، قدرنا حينئذ فضل السيد المنظري وسكان تطوان في ذلك العهد ، وأدركنا عظم المهمة التي كانوا قائمين بها ، ولايضاح ذلك نلفت النظر الى انه في عهد الحكام المنظريين بتطون كان الافرنج مستولين على مدن سبتة وطنجة وأصيلا ، وفي عهدهم استولوا على أرض الجديدة وعلى العرائش كما استولوا على سواحل سوس وأسفى وأزمور والمهدية والدار البيضاء ، ولم يبق بيد المسلمين من الثغور البحرية بالمغرب الا القليل مثل مثل سلا ورباط الفتح كما في الاستقصا ، كل هذا وتطوان التي كانت اقرب الى بلاد الافرنج من جميع تلك المدن بقيت محافظة على اسلامها وعروبيتها ووطنيتها بفضل جهاد المنظريين والمجاهدين التطوانيين رحمهم الله ورضى عنهم .

(I) يظهر أن الحرة أفرطت في موالة البرتغاليين حتى اصبحوا يتوسطون لها ، وهذه خطة لم تكن لترضى المجاهدين سيما والمنافسون لا يمكن أن يتركوا هذه الفرصة تمر دون أن يستغلوها لصالح الوطن ولصالحهم ايضا . ت. و .

القائد الحاج على الذيب

ذكر أبو محمد سكيرج أن القائد الحاج على الذيب هو الذى تولى حكم تطوان بعد القائد المنظري، ومما تقدم لنا نعرف انه قصد بالمنظري، آخر من حكم تطوان من عائلة المنظري، لا أبا الحسن الاول، ويظهر ان السكيرج لم يعتبر حكم الست الحرة لانه كان حكما غير عادى وكان فى فترة استثنائية . ولم يذكر تاريخ تولية القائد الذيب واقتصر على أنه بقى حاكما مدة ثم عزل وطرد من المدينة فخرج منها وشرع فى بناء المحل المتصل بها من جهة الشمال الغربى وهو المعروف الان بحومة الطالعة ولم يكن فى تلك الناحية بناء قبل ذلك ، ولان القائد المذكور بنى هناك أولا ثم بنى الناس حوله ، وفى مدة يسيرة بلغ عدد الدور هناك نحو خمسمائة دار ثم شيد الذيب بأعلى تلك الناحية قصبة نسبها الناس اليه واطلقوا عليها اسم قصبة الذيب ولا زالت معروفة بهذا الاسم الى الآن.

ونحن لم نقف لا على تاريخ ولاية القائد الذيب ولا عزله او وفاته ، بل لم نعرف حتى التاريخ الذى كان حاكما فيه بالتدقيق وان كان الظاهر مما سبق ويأتى من الحوادث ان ولايته كانت فى العقد السادس او السابع من القرن العاشر .

وان شئت فانظر فيما يأتى حوادث سنة 974 ، فان لها علاقة بالقائد الذيب والله اعلم .

الوباء بتطوان سنة 964

كان بتطوان فى سنة 964 وباء مات به عدد من الناس ، ومن جملتهم الشيخ على الفحل صاحب الضريح المشهور خارج باب المقابر وقد ذكر ذلك ابن عسكرك فى كتابه دوحة الناشر عند ترجمته للشيخ المذكور . وذكر ايضا ان قاضى تطوان ابا عبد الله الكراسى كانت وفاته فى السنة المذكورة ايضا .

ويظهر ان ذلك الوباء كان عاما فى جميع البلاد المغربية فقد جاء فى الاستقصا ما نصه :

« وفى سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله ، وأفنى كماته وأبطاله ، واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها . ولعل الوباء المذكور ابتداء سنة 964 ثم استفحل أمره باطراف المغرب سنة 965 والله اعلم .

تطوان في عهد الدولة السعدية

أصل الملوك السعديين من درعة في جنوب المغرب ، وأول من قام منهم هو محمد القائم بأمر الله عام 915 وتوفي عام 923 وبويع بعده ولده احمد الاعرج الذي أنقذ اسفى من يد البرتغال ثم عزله اخوه محمد الشيخ وتولى مكانه عام 946 . وهو الذى قضى على الدولة الوطاسية بقبض السلطان احمد الوطاسى أولا عام 956 . ثم بقتل اخيه ابى حسون الوطاسى عام 961 . وبذلك انقرضت دولة بنى وطاس نهائيا .

ونحن لا ندرى بالتدقيق اسم الشخص الذى كان حاكما بتطوان فى الوقت الذى تم فيه الامر للسعديين كما لا ندرى فى أى تاريخ دخلت تطوان تحت حكم الدولة السعدية .

من حوادث تطوان سنة 972 هـ - 1564 م

- 1 - على ماذا كانت تركز قوة تطوان
- 2 - مراكب تطوان والجزائر كانت تهاجم سواحل اسبانيا
- 3 - التطوانيون هم الذين حركوا ثورة المدجنين (الموريسكوس) فى غرناطة .
- 4 - اغلاق الاسبانيين لمصب واد مرتيل

ذكر مارمول المؤرخ الاسبانى الذى كان موجودا فى ذلك العصر « أن قوة تطوان فى ذلك العهد كانت تركز أولا على أربعمئة من خيرة الفرسان وخمسائة من المشاة ، وأن هذا العدد زاد بعد ثورة المسلمين الغرناطيين الذين تخلفوا باسبانيا ، ثم ذكر أنه زيادة على ذلك كانت توجد بعض السفن للقرصان الجزائريين الذين كانوا يلتجئون الى ميناء تطوان للتزود بالماء والطعام ، تضاف الى ذلك خمس عشرة سفينة صغيرة كان السكان يملكونها ويهاجمون بها سواحل اسبانيا وبواسطتها استطاعوا منذ قريب أن يحركوا الثورة فى بعض جهات غرناطة ، وقد اهتم بذلك ملك اسبانيا فليب الثانى

فامر قائد قواته البحرية باشبيلية ، أن يذهب ويغلق مصب نهر تطوان ، فذهب وأخذ من جبل طارق سفنا مشحونة بالحجارة وأغرقها في مصب النهر فاصبح من المتعذر على السفن أن تجتاز ذلك المكان ، وإذا كان البحر متراجعا فان تلك السفن تظهر على سطح الارض ، وقد تم هذا العمل دون أن يستطيع أهل البلاد ان يحولوا دون ذلك رغم المعركة التي دارت بين الفريقين على الشاطئ والتي سقط فيها قتلى من الطرفين »

هكذا ذكر مارمول حادث اغلاق الاسبانيين لمصب واد مرتيل في ذلك التاريخ ، وهذه الحادثة قد وجدنا من بين الوثائق الاسبانية الرسمية رسائل تتعلق بها، ولتمام الفائدة نورد هنا بعضها :

فمن رسالة بعثها قائد اسطول البوغاز ضون ألفاروا دي باثان D. ALVARO DE BAZAN من اشبيلية الى ملك اسبانيا فليب الثانى بتاريخ 3 نوفمبر 1564 م. - موافق عام 972 هـ. ما تعريبه (I) « أما ما ذكرتم جلالتم فيما يتعلق بما كتب به اليكم ضون غرسية دي طوليدو عن اغلاق مدخل نهر تطوان (دقم الواد) فيجب على ان اذكر لكم انه بعد الاستيلاء على الينيون (يعنى حجرة بادس في ناحية الريف) لم يبق للسفن التركية فى البحر الابيض من الجزائر الى البوغاز مرفأ تلتجىء اليه الا ذلك الواد . ولهذا فان ما كتب به اليكم ضون غرسية ، يعتبر مشروعا عظيم الفائدة ، وأنا استطيع ان اقوم بهذا العمل ، ولدي ست من السفن الكبيرة فيلزم ان تزود بما يكفيها لمدة شهر ، وهى المدة اللازمة للمذهب فى فصل الشتاء ، وواد تطوان نهر جيد ذو قم واسع ، وأرضه رملية ، ومدخله صالح للملاحة فى أوقات دون أخرى ، ولأجل اغلاقه تلزم أربع سفن لاغراقها محملة بالحجارة والجير عند مدخله ، ولا بد لنجاح هذا المشروع من احاطته بالتكتم التام .. الخ .

وقد أجابه الملك المذكور آمرا له بتنفيذ المشروع برسالة صادرة من مدريد بتاريخ 21 نوفمبر سنة 1564 م.

وفى 10 مارس سنة 1565 م كتب ضون ألفارو دي باثان الى الملك رسالة من سبته يخبره فيها بقيامه بالمشروع وفيها يقول :

« ان تنفيذ المشروع قد تأخر بسبب أن سفينتين انجليزيتين ذهبتا من سان لوكار الى العرائش واذاعتا بين المغاربة خبر استعدادى للهجوم على تطوان أو العرائش ، فاستعد المسلمون وأرسل الشريف اليهم المدد (يعنى بالشريف سلطان فاس عبد الله الغالب ابن محمد الشيخ السعدى) ولهذا كان

(I) هذه الوثائق موجودة فى الكتاب الاسباني المسمى : LAMARINA ESPAÑOLA EN EL SIGLO XVI DON FRANCISCO DE BENAVIDES - POR IGNACIO BAUER LANDAUER. 329 — 315 صفحة

من الواجب على أن أضعف استعداداتي فجمعت العساكر من طريفة وجبل طارق وقدم الي قائد سبته العام بعض السفن والجيش ، وفي ليلة الثامن من شهر مارس سنة 1565 خرجت متوجها الى النهر ووصلناه عند الفجر فلقيناه في غاية الاهمية بالنسبة للاعداء ، ولاحظت أن اغلاقه يؤمن الشواطىء الاسبانية من هجمات القرصان الترك ويحرمهم ذلك المرفأ الامين ويزيل الخطر الذي يهدد مواصلاتنا مع الهند ، وقد كنت استصحبت معى مهندسا خبيراً بمد القناطر ، فانزلنا بعض الجيش بموسيقاها وأعلامها لتضليل المسلمين عن حقيقة غرضنا ولتشغلهم عنا لنتم عملية اغراق السفن المحملة بالحجارة واغلاق قم النهر وجعله غير صالح لمروور السفن وقد خرج الينا جيش من المسلمين فى نحو أربعمئة من الرماح وألف من الرماة. ونشبت المعركة نحو نصف ساعة بين الجانبين ، وبلغ عدد من أصيبوا من المسلمين نحو المائة ما بين قتلى وجرحى ، ومات من الاسبانين ثلاثة وجرح ثلاثون ، وقد رجعنا بعد أن قمنا بمهمتنا خير قيام « ١.هـ.

وهذه الحادثة ننقل تفاصيلها كما ترى عن مصدر اسباني، لاننا لم نجد لها ذكرا فى المصادر العربية .

ولا نعرف من هو الشخص الذى كان حاكما بتطوان فى ذلك التاريخ.

من حوادث تطوان عام 974 هـ 1567م

١ - انقسام سكان تطوان على أنفسهم، وقيام الفتنة فيما بينهم.

٢ - السلطان يرسل جيشا لقمع الفتنة فى تطوان.

ذكر المؤرخ الاسباني مارمول (I) وكان حيا فى ذلك العصر، أن سكان تطوان انقسموا فرقتين ، فكانت كل واحدة منهما تقاتل الاخرى، وأن احدى الفرقتين طردت الاخرى من المدينة ، وانه فى سنة 1567 م (وهى توافق عام 974 - 975) دخل قائد المطرودين الى البلد فى غيبة حاكمها وقتل كل من وجد بها من الفرقة المعادية له ولاصحابه ، فقامت بسبب ذلك ثورة اضطرت السلطان لارسال قوة لقمعها، وكانت تلك القوة مؤلفة من ألف فارسى وألفى راجل ، وأن جند السلطان قصد تطوان وقبض على رئيس الثوار وأرسله سجيناً الى فاس ثم طارد انصاره، وأن قائد أولئك الفرسان بقى بالمدينة أما قائد المشاة فقد رجع الى فاس ليبلغ الخبر الى السلطان الخ.

هذه حوادث ذكرها المؤرخ الاسباني المذكور ولم يبين لا أسماء رؤساء الفرقتين المتخاصمتين ولا اسم السلطان الذي بعث الجند لقمع الفتنة ، ولكنه ذكر تاريخ ذلك وهو سنة 1567 م الموافقة لعام 974 - 975 ونحن نعرف ان السلطان الذي كان بالمغرب في ذلك العهد هو السلطان عبد الله الغالب بن محمد الشيخ السعدي (لأنه ولي عام 965 الى عام 981)

وهذا السلطان قد قرأنا في تاريخه انه وجه لهذه الناحية الجبلية جيشا وصل الى مدينة شفشاون واجلى منها بني راشد، الا ان ذلك كان عام 969 . ولم اقف في التواريخ العربية على تفصيل الحكاية التي ذكرها المؤرخ مارمول، وانما وقفت على ما ذكره ابن القاضي في كتابه « لقطه الفرائد » من انه في تاسع محرم الحرام سنة 975 . أخرج الامير ابو محمد عبد الله الشريفي الحسيني ، القائد حسين من قيادة تيطاون .

فعلى هذا يكون الذي وقع من هذه الحوادث هو ان بعض سكان تطوان وعلى رأسهم القائد حسين قاموا أولا على قائدهم الحاج علي الذيب وطردوه فانتقل الى حومة الطالعة وبنائها فانضمت اليه جماعة صار هو رئيسها فنشأ عن ذلك ان سكان المدينة انقسموا فرقتين كما قال المؤرخ مارمول ، وتكون الطائفة التي يترأسها القائد الذيب قد انتقمت لصاحبها وتغلبت أولا على القائد حسين وعلى انصاره وعزلته من الحكم وطردته من المدينة وارجعت رئيسها الذيب للحكم ، ويكون حسين هذا الذي وصفه مارمول بأنه قائد المطرودين هو الذي ثار ودخل المدينة في غيبة حاكمها الذي تولى بعده وهو القائد الذيب فقتل حسين من قتل فجاءت قوات السلطان وتغلبت عليه واخذته سجيناً الى فاس كما قاله ابن القاضي في اللقطة (I).

القائد علي الوسخ

لم يذكر المؤرخان السكيريج والرهوني اسم القائد حسين الذي تقدم لنا انه هو الذي قاوم القائد الذيب الى ان نقل سجيناً الى فاس ، بل اقتصرنا على ان الذي تولى حكم تطوان بعد عزل القائد الحاج علي الذيب ، هو القائد الوسخ ، وقد ذكر السكيريج ان اسمه علي ، وذكر الرهوني ان اسمه محمد ، وذكرنا معاً انه بقي حاكماً الى ان توفي ، وعلى ذلك يكون القائد الوسخ هو

(I) علمت ان الاندلسيين كانوا طوائف ، منهم كرام ، ومنهم دون ذلك وكان اصحاب المنظرى من الخيرة المختارة ، ويظهر ان قوم الذيب كانوا من الاغممار .
ت.و.

غير القائد حسين . والذي يظهر والله اعلم ان الوسخ انما هو لقب لهذا القائد ولعل خصومه هم الذين لقبوه بذلك ، ولم نقف على تحقيق اسمه ونسبه كما لم نقف لا على تاريخ توليته ووفاته ، ولا على شيء آخر من حوادث عصره .

القائد محمد الصبان

ذكر شيخنا الرهوني ان القائد محمدا الصبان تولى حكم تطوان بعد القائد الوسخ ولم يذكر تاريخ ولايته ووفاته بالتدقيق ، اما ابو محمد سكيرج فانه لم يذكر هذا القائد في تاريخه .

القائد محمد بوردان

ذكر ابو محمد سكيرج وشيخنا ابو العباس الرهوني ان القائد محمدا بوردان (I) تولى حكم تطوان في هذا العهد ، اى بعد القائد الوسخ على ما عند سكيرج او بعد الصبان على ما عند الرهوني وانه بقى قائدا بها الى ان توفاه الله . ولم نقف لا على تاريخ ولايته ووفاته ، ولا على شيء من حوادث عهده .

القائد عبد الرحمن العليج

ذكر المؤرخان المذكوران ان الذى تولى بعد القائد محمد بوردان هو القائد عبد الرحمن العليج ، وانه بقى حاكما الى ان توفاه الله ولم نعرف عنه اكثر من ذلك . ويظهر ان هؤلاء الولاة الاربعة هم الذين تولوا حكم تطوان في الربع الاخير من القرن العاشر والله اعلم ولا تنس ان تطوان في هذا العهد كانت عامرة برجال الحرب من الرماة والفرسان ، فلم يكن يتولى الحكم بها الا من كان كفوا للرئاسة على ابطال المحاربين .

القائد المؤرخ ابن القاضى وارجاعه الى تطوان سنة 995

العلامة المشارك المدرس المؤرخ ابو العباس احمد بن محمد ابن القاضى الكناسى الفاسى ، هو مؤلف كتاب «جنوة الاقتباس» ، فيمن حل من الاعلام مدينة فاس « وكتاب «درة الحجال» ، فى اسماء الرجال» وكتاب «المنتقى قصور» على مآثر الخليفة ابي العباس المنصور» وغير ذلك من الكتب القيمة ، وقد نكب باسر النصارى له وتعذيبهم اياه ، فانقذه السلطان ابو العباس احمد المنصور السعدى ، وقد كان ركوبه البحر قبل اسره من ميناء

ت. و.

(I) لا يزال بتطوان اولاد بوردان

تطوان كما كانت عودته بعد انقاذه من الاسر الى هذه المدينة ، وقد بين ذلك معاصره مؤرخ الدولة السعدية ابو فارس عبد العزيز الفشتالى فى كتابه «مناهل الصفا» لدى كلامه على كرم السلطان المذكور، فانه ذكر ان ابن القاضى المذكور ارتحل الى المشرق وأدى به فريضة الحج ولقى مشيخة العلم ، واخذ عنهم واجازوه ، ورجع للمغرب واتصل بالسلطان المذكور ، ثم بدا له السفر مرة اخرى الى الشرق ثم قال الفشتالى ما نصه :

« ثم تاب له رأى فى معاودة السفر الى البلاد المشرقية بقصد التطوع بحجة اخرى واستزادة العلم والتحصيل ، وكانت له نية بالغة فى نشر ماثر امير المؤمنين ايده الله فى الآفاق فجمع من مفاخر الدولة وفتوحها ومآثرها وامداحها ما امل بثه فى الاقطار ، ونشره فى المشارق لو ساعدته الاقدار ، واستأذن امير المؤمنين ايده الله فى ذلك فأذن له ووصله وتوخى الطريق على البحر، فركب السفين من ثغر تيطاون فاعترضتهم اساطيل العدو فى بحر الزقاق فاسرتهم وحصل فى ورطة عظيمة لولا ما تداركه من ألطاف الله تعالى وشمله من عنايته على يد امير المؤمنين ايده الله بعوائد صلاته ومآثره الفخمة ، التى تجلى الخطوب المدلهمة ، وتفك عن العناة قيود النوائب الملمة ، فطير الى ابوابه العلية كتبه من ارض العدو ضارعا ومتطارحا عليه وناشدا للموات التى لا تخفر ذمامها لديه ، فانبعث لها ايده الله وحفظ له عهودها، ووصل اليه ايضا أخوه العدل الشهير من صنف الحضرة بفاس بوفور العقل وكمال الدهاء محمد شقرون ابن القاضى فى جملة من اهل بيتهم بفاس ، واشفق منه وترحم له ووعدته بخلاص اخيه وهناه مما اهمه من امره ، وكتب ايده الله فى شأنه الى قائد ثغر تيطاون والى الامين بها على اخماسها ومغانمها التاجر الارضى احمد المفضل يحرضهما على السعاية فى افتدائه وصرف العناية الى استخلاصه بكل وجه يمكن ، وكان الكفرة قد توسموا فيه مخايل الشراوة ، وتنسموا منه رائحة الحسب والاصالة ، فانبعثت مطامعهم اليه ، وشططوا فى الفداء عليه ، وبعث الى اهله فى ولد نصراني معلم ماهر قد نصبه طاغية قشتالة لصناعة أكوار الانفاط وعمل السلاح بحجرة بادس ، فكان له بذلك خطر وبال ، وزعم النصرانى لابن القاضى بافتدائه لولده ، وكان من أسارى الجنب العلى الامامى ومن سبى وادى المخازن ، فتقدم بنو القاضى الى امير المؤمنين ايده الله فيه ، وكان لديه ايده الله من أهل الفدية والمقاطعة بالاموال الطائلة ، فدفعه اليهم ولم يكن شىء اسهل عليه من بذله لهم على خطرهم ، فذهبوا به لفاس لينطلقوا به الى تيطاون للموعد الذى ضربوا به مع والده ، فوافق ذلك ما كان من خلاص اخيهم الفقيه السيد الحاج احمد وخروجه من سبته الى تيطاون بتدبير التاجر الارضى السيد الحاج الفلوسى من اهل

مكناسة الزيتون امنها الله ، كان في بلاد العدو منذ أعوام يخاصم في مقاطعات بعض الاسارى غدره بها علج ارتد الى دينه الاول وممر في طريقه الى جبل الفتح بالسيد الحاج ابي العباس احمد ابن القاضى فاحتال وتلطف حتى قاطعه بمال لم يخل عن رفق لمكائد اعتمل في استخلاصه بها ، فلم يتفطن لها الكفرة الا بعد عبوره الى سبته فأدركتهم الندامة وطيروا السفن اثره فافلت من حبالتها ابن القاضى وحصل في انشوطتها الحاج الفلوسى مستخلصه ، فلم يتخلص منها الا بعد عصب الريق ، وبجاء امير المومنين ايده الله وعنايته واغلاظه على من تحت ايالته من اساقفة الكفرة وقسيسيهم الذين على يدهم مفاداة اسارى المشركين ، فعمل الحاج ابو العباس ابن القاضى وقومه وجوهم الى امير المومنين ايده الله يسألونه الانعام عليهم بما تقاطع به من المال لبقاء الحاج الفلوس رهينة فيه هو وسلعه بسبته ، فلقاه ايده الله برا واكراما وامر بتلك العدة من المال فدفعت اليه من حينه وشفعها له بصك سوغه به ايده الله ما حصل منه على ربح عظيم اورثه الثروة ، وكان صاحبنا الحاج ابو العباس يزعم ان جملة المال مما بذل له امير المومنين ايده الله فى المقاطعة وما حصل عليه من الربح بسبب ما سوغه وبما طرح عنه من الملازم بعنايته وجاهه ، تناهز عشرين ألفا ، يعدها عدا ويفصلها تفصيلا « ا ه كلام الفشتالى من «مناهل الصفا»

وكان أسر ابن القاضى فى رابع وعشرى شعبان عام 994 . وانقاذه من الاسر فى سابع عشر رجب عام 995 . فكانت مدة اسره نحو احد عشر شهرا . وقد قال فى كتابه «المنتقى المقصور» ، حكاية عن السلطان ابي العباس المنصور ما نصه :

«وقد اخرج من بلاد الكفرة من الاسارى ما لا يحصى كثرة ، بالاموال الطائلة التى لم يسبق الى بذل مثلها ملك قبله ، وفدانى ابقاه الله تعالى من يد العدو الكافر ، بما يعادل عشرين الف أوقية وقام بمسألتى معهم اتم قيام ، عامله الله باحسن مما عاملنى به ، ولا نعمة تشبه نعمته على ، اذ كنت مع العدو الكافر فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق ، والضرب وغير ذلك مما لا يمكن وصفه من عذابهم اذلهم الله تعالى . والآن فيها أنا حسنة من حسناته الخ .

ومن جملة ما خاطب به السلطان المذكور قوله وهو فى اسره مستعطفا :

هموم سرت فى الجسم فى كل مفصل
بسيمة خير الخلق فى كل محفل
به قد تحلى كل جيد معطل
وحلى جيد منه بالدر والحلى

تجلت عن العانى الاسير المكبل
بذكر الامام الهاشمى الذى سما
امام العلا المنصور فخر أئمة
به راق وجه الارض وافتر ثغره

امام الهدى بحر الندى قسور الردى
بحق الذى اولاك ملكا فنجنى
وكن يا امام العدل فى عون حائر
لقد مزقت ايدى الزمان وريده
واخنى عليه الدهر من كل وجهة
الى المعتفى والقاجر المتضلل
من الهلك يا قصد السبيل المكبل
اسير كسير ذى جناح مذل
ودارت عليه الدائرات كجلجل
وداست عليه النائبات بأرجل

ومما مدحه به بعد انقاذه من الاسر قوله :

فرع النبوة اصل كل كريمة
كم أضحك الخيرات وسط يمينه
بحر المكارم اصلها المنصور من
ناديته لمصيبتي فكانه
أخرجتنى من ضيق اسر نالنى
اذ كنت اسحب للحديد خلاخلا
لازلت تكشف كرب كل موله
ورث السيادة أشرفا عن أشرف
وأسال عبرة كل سيف مرهف
نادى به فى العضلات لقد كفى
لشفائها أم الكتاب لمشتفى
ومنحتنى اسماع ءاى المصحف
وسلا سلا أغلالها لم توصف
ما اصحب المحزون باللفظ الخفى

وكانت وفاة ابن القاضى بفاس سنة 1025 رحمه الله.

ايها
ابى تطوان باهالى سبتة سنة 997 هـ.

جاء فى الاستقصا ما نصه (I) :

« وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وتسعمائة (996 هـ 1588م)
فى ذى الحجة منها سافر المنصور الى فاس وبينما هو فى الطريق (أى بعد
دخول سنة 997) وافته بشرى بالفتك بنصارى سبتة ، وان زعيم الفئة
الجهادية وهو المقدم احمد بن عيسى النقسيى التطوانى ، كمن لهم مع جماعة
من الفرسان فى موضع ، فخرج النصارى باولادهم وحشمتهم فحال النقسيى
بينهم وبين سبتة ، ووقع بهم ، وكاد يفتحها ، وسر المنصور بهذا الخبر ،
وانشده فى ذلك الكاتب ابو عبد الله محمد بن على الفشتالى بيتين زجر له
منهما الفال باستيلائه عليها وهما :

هذه سبتة تزف عروسا
وهى بشرى وانت كفء اللواتى
نحو ناديك فى شباب قشيب
كافأت بعلمها بفتح قريب

«قلت» ووجدت بخط الشريف العلامة سيدي مفضل افيلال ما نصه :
 « وفي يوم الجمعة 22 محرم 997 كانت وقعة عظيمة وغزوة جليلة جسيمة
 نصارى سبته على يد المقدم احمد النقسييس الذي تنسب اليه زنقة المقدم من
 تطوان . »

وقال ابن القاضي في لقطة الفرائد : « في سنة 997 كانت غزوة عظيمة
 طاهر سبته صدرت من أهل تيطاون »

وقد تعرض الفشتالي في مناهل الصفا لهذه الغزوة ، وفصلها تفصيلا
 لم تقف عليه عند غيره ، وهذا نص كلامه :

« ذكر خبر غارة المجاهدين على النصارى أهل سبته وما أفاء الله عليهم
 فيها من السبى والغنائم »

كانت هذه الغارة المباركة ، والغزوة المتداركة ، يوم الجمعة الثانى
 والعشرين من المحرم الحرام ، فاتح عام سبعة وتسعين وتسعمائة . وكان من
 الخبر فى ذلك ، ان العصاة القائمة بفرض الجهاد من المسلمين بمدينة تطاون
 حاولوا انتهاز فرصة فى المشركين أهل سبته ، فاجتمع زعمائهم الذين مارسوا
 خدائع الحرب على تدبير مكيدة توصل الى استيصال شأفة العدو والاستبلاغ فى
 تكايته وتمنحهم رضا الله تعالى ، فانتدب لذلك منهم زعيم الفئة ابو العباس
 احمد بن عيسى النقسييس ، وكان احد المقدمين على الرجال من حامية الثغر
 وله فى الجهاد والغزو معاهد مشهورة ، ومشاهد مذكورة ، وتقدم فى جماعة
 من اصحابه الذين عركتهم مشاهد الحروب مع المشركين الى فحص سبته ،
 وكان اعرف الناس بمكانه ، واخبرهم بمسالكه واماكنه ، لطول ممارسته ،
 فتتكب عن المكامن التى يعتاد المشركون انبعاث خيل المسلمين منها وطاوع
 طلائعهم من جهاتها ، وعدل الى جهة مأمّنهم من جانب الشمال ، وكان المكان
 لا يطرقة انسان من كثرة العشب والشجر وكثرة محاماته لاقترابه من العدو
 فعكف هو واصحابه على تسوية الطريق وتمهيده ليجوز المسلمون من تلك
 الناحية ، بقطع الشجر وتنقية الصخر ورضه بالفؤوس الكهام حتى تأتى لخيل
 المسلمين المجاز منها ، وبعث فى اليوم السادس من مقامهم الى قائد الثغر (يعنى
 تطوان) يستحثه على المسارعة والوصول اليه فى حامية الخيل والرجال ،
 فتلقاهم وقص بهم الطريق الى الجهة التى سواها وارتادها لشن الغارة منها ،
 وكان المشركون قد أنسوا راحة من خيل المسلمين فى تلك المدة ، لانكماشهم
 عن معاورتهم واعراء مكانهم عن الوصد مكرًا بالمشركين وخديعة ، حتى آمنوا
 واطمأنوا وظنوا بالمسلمين الفشل والملل ، فاجمعوا امرهم على البروز من
 سبته بسائر سوادهم رجالا ونساء وولدانا برسم النزهة والراحة والتقلب فى
 الفحص ، وسرحوا مع الصباح عيونهم الى مكامن المسلمين المعروفة عندهم

ليستكشفوا خبرها ويأخذوا لانفسهم بالاحتياط من جهاتها على المعهود من امرهم في ذلك ، فلم يتراء لهم شخص بالفحص ، ولا انسوا للمسلمين به حركة وكانوا لهم بالمرصاد من جهة مآمنهم من الشمال وهم لا يشعرون ، ولما ايقنوا بالبراءة من الفحص ووثقوا بالعافية من جهة المكامن التي يعتادون انطلاق الغارات منها ، أذنوا لآخوانهم المشركين بالبروز من سبتة فانتشر سوادهم بساحاتها رجالا ونساء وولدا ، وماج فيها سرحهم ، واقبل كل على ما بدا له أمنين مطمئنين فاستبشر المسلمون بالفتح ، فقرعوا الطبول ، ونادوا بشعار النصر فلم يرع المشركين الا طلوع خيل المسلمين عليهم من حيث لا يحتسبون ، فانطلقت عليهم مغاورة المسلمين عنانا واحدا فحالت بينهم وبين سبتة ، وتدافعت الساقة تحت الاولوية اثرهم ، فمنحهم الله الظفر ، واستولوا على سائر سواد المشركين ما بين الاسر والقتل ، واكتسحوا سرحهم وكادوا ان يستولوا على سبتة بما اتيح لهم من الظهور باستيصال عامة اهلها وانتهاء الفرصة في حاميتها ، ولكن الله أملى لها حتى ينجز فيها وعده الكريم ، ونظم المسلمون من تخطاه الاجل من المشركين في السلاسل والحبال ، وحملوا رؤوس القتلى على عجلات اكتسحوها مع السرح للنصارى ، وقفل المسلمون اعزاء ظاهرين فرحين مستبشرين ، واستاقوا السبي بين ايديهم الى تطاون ، فبرز الناس لمشاهدته ، فكان يوما مشهودا عندهم ، وكتبوا بالفتح الى السلطان مولاي احمد ايده الله فوافاه الرسول بالكتب بمخيمه من ساحة قلعة الكرار وذلك ان السلطان ايده الله لما طال مكثه بحضرة مراکش امنها الله ، وغاب بها عن فاس صانها الله نحو من سبعة أعوام قبل تاريخه ، وأراد القدوم عليها ، ضرب عسكره بباب أغمات ، وخرج اليه يوم الخميس موفى عشرين من ذى الحجة عام ستة وتسعين ، فاقام هنالك نصف شهر او نحوه فارتحل منه الى وادى السد وتناقل في الطريق اياما ونزل بساحة قلعة الكرار اياما فوافته البشارة بما فتح على المسلمين من المشركين اهل سبتة ، وكتب لقائد الثغر بالتقائه بالسبي لفاس ، وارتحل ايده الله لتادلا ، ومنها لمكناسة الزيتون امنها الله ، ومنها لفاس صانها الله ، مع احوال واشغال ثم وصل قائد الثغر والمقدمون على الغزاة بسبي سبتة ، وشقوا به فاسا على التعبئة والاولوية وبرز العذارى والمخدرات لمشاهدة ذلك من وراء حجابها فكان يوما مشهودا عند اهل فاس ، وعرض السبي على السلطان ايده الله وسلم عليه اهل الثغر وفرح بهم السلطان غاية الفرح ودعا لهم باحسن الادعية ، وحررضهم وكافأهم ووصاهم فكان من الايام التي اعز الله تعالى فيها الاسلام ، واذل فيه عبدة الاصنام ، وفي ذلك قال صاحبنا وبلدينا ابو عبد الله محمد بن علي الفشتالي اصلحه الله بيتين وهما :

هذه سبتة تزف عروسا نحو ناديك فى شباب وشيب
وهى بشرى وانت كفاء اللواتي كلفت بعدها بفتح قريب

زجر له منهما الفال بانه يستولى على سبتة وينقاد له ما وراءها من
الثغور ويكمل بذلك الفرح والسرور « ا ه كلام الفشتالى .
ثم ان الذى يظهر - والله اعلم - ان سكان تطوان
ونواحيها نظرا لبعدهم عن مركز الحكم والسلطة فى
الدولة المغربية وانقطاعهم للكفاح والرباط فى الناحية الشمالية للبلاد ، لم
يفكروا فى الانغماس فى الاختلافات الداخلية التى كانت بين العائلات والاحزاب
المتخاصمة على الحكم من الوطاسيين والسعديين واكتفوا بقيامهم بواجب الجهاد
ومحاربة أعدائهم الالاء الذين اخرجوهم من ارضهم وديارهم وطردهم من
رياضهم وفردوسهم ، وحرموهم من خيراتهم ونعيمهم ، فكانوا يناوشونهم
ويضايقونهم برا وبحرا ويرابطون فى الحدود الشمالية حتى لا تتكرر بالمغرب
مأساة الاندلس مرة اخرى والهجوم قد يكون من وسائل الدفاع كما يقولون .
هذا ما وقفت عليه من اخبار ولاية تطوان وحوادثها فى القرن العاشر ،
وهو كما ترى ضئيل جدا ، وذلك لقلة المصادر وطول العهد واضمحلال جل
بل كل وثائق تطوان ومستنداتها التاريخية فى ذلك القرن والامر لله .

الفصل الثانى

من الباب الثالث

قضاة تطوان وعدولها فى القرن العاشر

حول الحكم وأنظمة الحكم فى مدن المغرب

كانت العادة فى عدد من مدن المغرب - ومنها تطوان - أن سلطة الحكم فيها موزعة بين ثلاثة حكام هم :

الباشا ، أو القائد

القاضى

المحتسب

يضاف اليهم لمباشرة بعض الاعمال الرسمية الحكومية، موظفون اداريون آخرون لم تكن لهم سلطة الحكم ، مثل الامين ، والناظر ، وابى المواريث ، ووكيل الغياب الخ .

أما الباشا أو القائد - وكان لكل مدينة باشا أو قائد ، وعامة الناس يقولون ، القايد ، ويجمعونه على قياد - فهو الحاكم الذى يحكم فى القضايا المدنية أى الخصومات العادية ، وفى الاعتداءات البسيطة ، وغير ذلك من الامور التى لا ينظر فيها القضاة والمحتسبون واذا عرضت له حوادث مهمة أو جنايات كبرى فانه يرفعها او يرجع فى أمرها، أما للسلطان نفسه واما لوزيره أو لمن يقوم مقامهما فى مركز الدولة والنظر فى شؤونها .

وكان الحكم يستندون فيما يصدرونه من احكام ، على الاعراف والعادات والتقاليد التى لا تنافى اصول الاسلام والاحكام الشرعية .

ولم تكن - فيما عرفنا - لدى اولئك الحكام ، قوانين رسمية عامة مدونة يرجعون اليها ويحكمون بمقتضاها ويقفون عندها ، وان كان هناك شيء من ذلك فهو نادر ومحدود ، فلذلك كان الحكام ينظرون ويجتهدون ويحكمون حسبما يظهر لهم ، فكانت احكامهم تختلف باختلاف شخصية الحاكم وعلمه ونباهته ونزاهته او ضد ذلك .

وهذا النوع من الحكم هو الذى كان شائعا فى مختلف العصور الماضية حتى فى عهد كثير من الدول الراقية فى الامم المتحضرة ، وهو نظام له حسناته وله سيئاته ، وجل اهل عصرنا يرون ان سيئاته اكثر من حسناته، اما وجهة نظر اصحاب هذا النظام والمبررين له او المؤيدين له والمفضلين له على غيره ، فهى انه ينظر فى القضايا والمشاكل بمجرد حدوثها ورفعها للحاكم ، فلا يتوقف البت فيها الا على اجراءات محلية لا تتعدى فى الغالب سماع الحجج او كلام الشهود ان كانت القضية تستدعى ذلك ، والا وقع الحكم والتنفيذ فى آن واحد دون تحمل اتعاب ومصاريف ، ولا اتخاذ اجراءات طويلة وتأجيلات عريضة يضيع معها من الوقت والجهود والاموال والمصالح الشيء الكثير ، بل ان الحقائق والعدالة والحقوق قد تضيع مع تلك الاجراءات التى كثيرا ما تدعو للحبس الاحتياطى لمدة طويلة ثم يكشف الحال ان الاشخاص المحبوسين كانوا مظلومين او انهم كانوا ضحية خطأ او انتقام النخ.

وكان اهل العلم والمعرفة من اصحاب هذا الرأى يرون ان الشرط الاساسى لصلاح هذا النوع من الحكم، هو عدم اسناده الا لاهل العلم والمعرفة والنزاهة التامة - والامة لا تفقد ابدا من تتوفر فيه هذه الصفات - والا كان الظلم والعدوان وتضييع الحقوق ، وخصوصا حقوق الضعفاء والمساكين.

ولا يخفى ان هذا النوع من الحكم ، كان اصحاب الاستبداد وانصاره يجدون فيه بغيتهم سواء كانوا من اهل العدل والانصاف ، او من اهل الظلم والطغيان ، واذا استثنينا بعض الاقطار الواقعة تحت السيطرة الاستبدادية الفردية او الجماعية فان هذا النظام بالرغم من كل ما قيل فيه وما برر به، لم يبق له الا آن وجود الا لدى الامم المتأخرة ، والشعوب التى تفضل الفوضى على النظام، او الدول الضعيفة التى تعجز عن التنظيم وحماية القوانين ، فالشعوب المتحضرة الراقية المجارية لانظمة الحكم العصرى كلها نظمت محاكمها وحددت قوانينها وصانت الحقوق العامة والخاصة لافرادها وهيأتها ، واصبح كل فرد منها يعرف ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات ، ويعلم انه اذا لم يخالف القوانين المشروعة ولم يعتد على احد ، فانه لا سبيل عليه ، لا للافراد ولا للجماعات ، بل ولا حتى للحكومة نفسها ، لان القانون العام يحميه من كل اعتداء .

والرأى والله اعلم ، أنه ينبغي أن يكون فى البلاد نوعان من المحاكم ، الاول محاكم لها قوانين مدونة محكمة جامعة للاحكام التى لا تنافى الشريعة المطهرة السمحاء ، ولها من الانظمة والاجراءات المناسبة للنهضة الحديثة ما يصون الحقوق لجميع الطبقات ، وينصف المظلومين من الظالمين ، كما هو الشأن فى جميع انحاء العالم المتحضر .

الثانى محاكم اولية تنظر فى القضايا البسيطة المستعجلة ، وتبت فيها دون احتياج للاجراءات المطولة المضیعة للوقت والمال بغير حق ، وبذلك يوخذ احسن ما فى النظامين .

ومن الغريب ان ذلك النوع القديم من الحكم الذى كان مستعملا فى العصور الوسطى ، هو الذى ما زال العمل به جاريا فى جل الجهات من وطننا العربى العزيز ، والله اعلم بالاسباب الداعية لذلك (I)

واما القاضى فهو الذى يحكم فى القضايا الشرعية ، فينظر فى المسائل الشخصية من نكاح وطلاق ونحوهما وفى البيوعات وسائر العقود والالتزامات وجميع المعاملات المالية وغير ذلك من ابواب الفقه على مقتضى الشريعة الاسلامية ، وعلى مذهب الامام مالك بالخصوص وكان الشأن فى القاضى ان لا يكون الا من العلماء الذين درسوا العلوم الاسلامية والفقه المالكى دراسة واسعة ، واشتغلوا بمسائل القضاء والفتوى ومارسوا خطة العدالة الخ . ولقب القاضى لم يكن يوصف به الا القاضى الشرعى لانه لم يكن هناك قاض سواه .

وأما المحتسب فهو الذى كان ينظر فى الاسواق واسعارها ومسائل صاحبها وما يتعلق بذلك من المصالح البلدية ، وينظر فى الحرف والصنائع وصاحبها ومنتوجاتهم ، ويحكم فى القضايا التى ترفع اليه من هذا القبيل . أما الحكام والسياسيون بتطوان فى هذا القرن - أعنى القرن العاشر للهجرة وهم الولاة والمدنيون ، فقد أثبتنا فيما تقدم - ما عرفنا من أسمائهم واخبارهم ، واما محتسبوها فيه فلم نقف على اى شىء يتعلق بهم ، واما القضاة فى الحكام الشرعيون ، فاننا سنذكر فى هذا الفصل ما عثرنا عليه من اخبارهم وان كان الذى وصلنا من ذلك قليلا جدا . فقاضيان اثنان فقط هما اللذان استطعت ان نعرف اسميهما من بين اسماء القضاة الذين تولوا الحكم بتطوان فى القرن العاشر ، وهما القاضى محمد الرزيني والقاضى محمد الكراسي .

(I) ترك هذا الفصل - ومنه هذه الفقرات - كما كتب فى عهد الحمايةتين ، الفرنسية والاسبانية بالمغرب ، وهو يصور الحالة كما كانت فى ذلك العهد .

اما غيرهما من القضاة ، وقطعا كان بتطوان قضاة غيرهما فى هذا القرن - فلم نعرف حتى اسماءهم فضلا عن اخبارهم ، وذلك لطول العهد واضمحلال رسوم ذلك التاريخ.

وكذلك اسماء عدول هذا القرن فانى لم اقف على شىء منها كما انى بحثت كثيرا عما عسى ان يوجد من وثائق ورسوم شرعية كتبت بتطوان فى هذا القرن لاثبتها هنا كنماذج ، فلم اعثر على شىء من ذلك ايضا .

القاضى محمد الرزىنى 934 هـ

القاضى ابو عبد الله محمد الرزىنى «نسبة الى «بنى رزين» (I) هو اقدم من عثرت على اسمه من بين قضاة تطوان. وقد ذكره ابن القاضى فى كتابه «درة الحجال» ونص كلامه (2) «محمد الرزىنى - ابو عبد الله القاضى بتطوان. كان فقيها نوازليا - توفى بعد 930 هـ»

وفى لقطة الفرائد (3) لابن القاضى المذكور ، انه : « فى سنة 934 توفى القاضى بتطوان محمد الرزىنى الاندلسى »

القاضى محمد الكراسى 964 هـ

كان الفقيه القاضى ابو القاسم محمد بن عبد الرحمن الكراسى قاضيا بتطوان فى النصف الثانى من القرن العاشر ، وقد ترجم له معاصره ابن عسكر فى كتابه «دوحة الناشر» (4) وذكر انه تولى القضاء بتطوان وبقي على خطته االى ان توفى فى حدود سنة 964 هـ . وقد ذكره باسم (ابى عبد الله محمد) ووجدت فى تقييد قديم ان اسمه ابو القاسم الكراسى البكرى البقيوى ، وباسم

(I) بنى رزين فى عهدنا هذا ، اسم لاحدى قبائل غمارة الجبلية الواقعة فى الجنوب الشرقى لتطوان . وتبعد عنها بنحو مائة واربعين كيلومترا وقد كانت لبنى رزين فى بلاد الاندلس مكانة وشهرة وحكم والدوام لله
(2) درة الحجال ، الجزء الاول ص 227 . فى الترجمة التى رقمها 615 من طبعة الرباط سنة 1934 .

(3) لقطة الفرائد ، مخطوط مختصر وقفت عليه فى الخزانة الاحمدية بفاس لدى صديقنا الفقيه المؤرخ السيد عبد السلام ابن سمودة حفظه الله.
(4) دوحة الناشر ص 17 طبع فاس عام 1309 م

ابى القاسم ذكر ايضا فى رسوم كتبت بتطوان ، وقد اثبتتها الزياتى فى نوازل
الحجر من نوازله المسماة «الجواهر المختارة» (I) .

ومن المعلوم ان من اسمه محمد يكنى بابى عبد الله وبأبى القاسم،
فيظهر ان القاضى الكراسى كان يعرف بكنيته ويدعى بها اكثر من اسمه الذى
هو محمد . وان شئت فانظر ترجمة هذا القاضى واوصافه ومنظومة تاريخية له
فى فصل التراجم من هذا الباب ، وهو الفصل الثالث الموالى لهذا الفصل .

(I) هو مجلد كبير مخطوط توجد منه نسخة جيدة فى خزانتنا
الداودية بتطوان .

الفصل الثالث

من الباب الثالث

من رجال تطوان فى القرن العاشر

علمت ان جل السكان الاولين لتطوان الحديثة ، كانوا من مهاجرى
الاندلس مع من انضم اليهم من اهل فاس والريف ومن القبائل المجاورة ، ومن
الطبيعى ان يكون من بين اولئك السكان رجال من اهل الفضل وذوى
الخصوصية ، وما ظنك برجال ونساء تركوا ديارهم واموالهم واصحابهم
ومهاجروا من وطنهم ليحافظوا على دينهم ويعيشوا فى ظل الحكم الاسلامى
النزيه الذى يحافظ على حقوق جميع المواطنين من أى ملة كانوا ، ويضمن
حرية التامة لسائر الاديان والمتدينين . الا ان الاشخاص الذين لا تكتب
تراجمهم ولا تسجل اخبارهم فى عصرهم او فيما قاربه ، يضيع تاريخهم مع
الايام ، والكلمة التى قالها العلامة ابو حامد الفاسى (I) فى اول كتابه «مرآة
الحاسن» هي كلمة فيها كثير من الحق والصواب فى كثير من الاحيان ، وهي
قوله : (2)

«ووسموا المغاربة بالاهمال ، ودفنهم فضلاءهم فى قبر تراب واخمال ،
فكم فيهم من فاضل نبيه ، طوى ذكره عدم التنبيه ، فنار اسمه مهجورا ،
كان لم يكن شيئا مذكورا الخ . ورجال تطوان فى القرن العاشر قد ضاعت

(I) سيدى العربى ابن الشيخ يوسف الفاسى هذا توفى بتطوان سنة

(2) مرآة المحاسن ص 4 من طبعة فاس عام 1324 .

اخبار جلهم (I) وقد بحث فيما وقفت عليه من الكتب والتقاييد فلم اعثر الا على النزر اليسير من اسمائهم واخبارهم وسأثبت هنا ما عثرت عليه من ذلك

الشيخ علي الفحل 964

كان الشيخ علي الفحل من صلحاء تطوان ، وهو مدفون في اعلى مقابرها وقد ترجم له معاصره القاضي ابن عسكر في دوحة الناشر بقوله (2) .
«ومنها الشيخ ابو الحسن علي المعروف بالفحل ، كان هذا من الذين اذا رؤوا ذكروا الله تعالى مستغرقا في بحر الشهود غائبا في مذهب الحي الذي لا يرى في الوجود الا الله تعالى وما عليه من احد ، ولسانه لا يزال رطبا بذكر الله تعالى ، وله سمة حسنة ونور يتلأأ في وجهه ، له احوال سنية على طريق اهل الجذب ينطق بالمغيبات من غير اختيار منه فتكون على وفق ما ذكر . وكان اكثر مأواه بين قبور الموتى . كنت اذا لقيته قبلت يده فيقول الله الله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ، ثم ينصرف . توفي رحمه الله في الطاعون الذي كان سنة اربعة وستين (يعني 964) بمدينة تطوان وقبره خارج الربط معروف» .

«قلت» لا يزال قبر هذا الشيخ معروفا بتطوان خارج باب المقابر فوق قبر الشيخ ابي الحسن المنطري والعامية يقولون له «سيدي علي الفحل» وقد بنى عليه بيت في صورة مسجد يقصده الناس للصلاة به وللزيارة والتبرك به حتى الآن. و«الفحل» هو لقب عائلة كانت معروفة بتطوان .

الفقيه القاضي محمد الكراسي 964

الفقيه القاضي أبو القاسم أو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكراسي، ترجم له معاصره القاضي ابن عسكر في كتابه دوحة الناشر بقوله (3) :
«ومنها القاضي ابو عبد الله محمد الكراسي الاندلسي . كان اديبا شاعرا تولى خطة القضاء بمدينة تطوان وبقي على خطته الى ان مات في حدود اربعة

(I) لكل امة رجال افذاذ لهم اثر بالغ في سير الحياة العامة لتلك الامة ، وقد كان الفرسان والملوك الاوربيون في العصور الوسطى يتخذون موظفين لا شغل لهم الا تسجيل مناقبهم ، وفي الفشائلة واكنسوس مثالا وابن زيدان اثارة من هذه الفكرة الجميلة ، اما الشعب فيجب ان يكتب تاريخه ابناء الشعب للشعب .
ت. و.

(2) دوحة الناشر ص 33 من طبعة فاس عام 1309

(3) دوحة الناشر ص 17 طبعة فاس سنة 1309

وستين وهو ابن تسعين سنة ، ودفن بجبانة باب الربض (I) من مدينة تطوان
ولقي مشايخ غرناطة فى صغره منهم المواق وابن الجقواله (2) وغيرهما واخذ
عن ابي الحسن البياضى واجازه فى كتابى السنن والتاج والاكليل ،
لاى عبد الله المواق (3) وكان المواق اجاز البياضى فيهما . واجازنى فيهما
القاضي المذكور ، ولقى ايضا مشايخ فاس ، الونشريشى (4) وابن غازى (5)
وابن الزقاق (6) وابن هرون (7) وغيرهم ، ولقى الشيخ العارف بالله ابا
العباس احمد زروق (8) وحدثنى قال ، لما اقبل سيدى احمد زروق من المشرق
وقدم على فاس خرج الفقهاء الى لقائه وخرجت انا معهم فلما سلمت عليه وجلسنا
اخذ يسأل الفقهاء عن اسباب معاشهم فقالوا اكثرها من الاوقاف المحبسة على
قبور الموتى فقال الشيخ ، الله اكبر حيث جعلكم تقتنصون من الموتى قال
فكتوا ثم قال له ابن الدقون الحمد لله الذى جعلنا نقتنص من الموتى مع ان
الجنة سوغها الشارع عند الضرورة ولا جعلنا نقتنص من الاحياء الذين لا سبيل
اليهم بوجه ولا بحال ، فصاح الشيخ وسقط مغشيا عليه ، قال فخرجنا عنه
وتركناه كذلك »

وقال ابو زيد ابن عبد القادر الفاسى فى كتابه استنزال السكينة
لتحديث اهل المدينة (9) ما نصه :

«الحديث التاسع عشر ، مسلسل أوله بالاندلسيين ايضا . حدثنا به
احازة فخر المجالس عن والده اعلاما عن قاضى تطوان الفقيه ابي عبد الله
الكراسى الغرناطى عن ابي عبد الله المواق عن المنتورى عن ابي بكر بن جزى

- (I) باب الربض هو الباب المعروف اليوم بباب المقابر
- (2) فى نسخة الجفدالة
- (3) المواق هو صاحب الشرح المشهور لمختصر الشيخ خليل . وقد
توفى سنة 897 هـ فى نفس السنة التى احتل الافرنج فيها بلده غرناطة .
- (4) هو أبو العباس احمد بن يحيى الونشريشى مؤلف كتاب المعيار
توفى بفاس عام 914
- (5) هو الشيخ العلامة محمد بن احمد ابن غازى المكناسى المتوفى بفاس
عام 919 هـ .
- (6) هو الشيخ علي بن قاسم الزقاق المتوفى بفاس عام 912
- (7) هو الشيخ علي بن موسى بن هرون المتوفى بفاس سنة 951
- (8) هو الشيخ الكبير ابو العباس احمد بن احمد زروق الملقب بمحتسب
الصوفية المولود بفاس عام 846 والمتوفى بارض طرابلس عام 899
- (9) هذا الكتاب مخطوط وقفت على نسخة منه فى الخزانة التطوانية
سلا وأوله ، حمدا وشكرا لمن أخرج من ارض النبوة شجرة الاسناد ، مفترقة
تور افنانها عن ثمار الفنون رزقا للعباد الخ .

عن ابيه عن ابي جعفر ابن الزبير عن ابي الحسن الغافقي عن ابي العباس بن العريف عن ابي علي الصدفي عن الباجي عن ابي بكر بن ثابت الخطيب الحافظ انبأنا القاضي ابو محمد الحسن بن الحسن بن رامين الاسطر اباذي ، حدثنا ابو احمد عبد الله بن علي الجرجاني الحافظ انبأنا ابو قصي اسماعيل بن محمد السلمى عن علي بن مسلم البكري عن ابي صالح الاشعري عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاحدين »

وقد وجدت في مخطوط قديم ان الفقيه الكراسي الذي تولى القضاء بتطوان هو ابو القاسم الكراسي البكري البقيوى نسبة الى بقيوة احدى قبائل الريف ، وانه كان احد الريفيين الاربعمئة الذين وفدوا على تطوان وسكنوا بها عقب بنائها الاندلسي الاخير ، وارى انه لا منافاة بين وصف الكراسي بالاندلسي كما في الدوحة ، وبالبقيوى كما في المخطوط المذكور ، فمن المحتمل ان اصله من الاندلس وانه انتقل منها الى الريف عند استيلاء الافرنج على غرناطة ، وقد كان عمر الكراسي عند ذلك الاستيلاء سبعة وعشرين عاما ، كما ان من المحتمل ان اصله من الريف وانه ينسب للاندلس لانه درس بها واقام بها مدة طويلة والله اعلم . وقد رايت في كلام الدوحة انه دفن بمقبرة باب المقابر ، ومحل قبره ما زال معروفا الى الآن بمقابر تطوان وهو واقع جنب ضريح سيدي علي الفحل وكانت فوقه قبة كبيرة تهدم جلها ولم تبق منها الا قطعة من جدار .

منظومة لقاضي تطوان في تاريخ الوطاسيين

وجاء في كتاب «دليل مؤرخ المغرب الاقصى» لصديقنا الفقيه المؤرخ ابي محمد عبد السلام ابن سودة ما نصه (I)

«1565. عروسة المسائل ، فيما لبنى وطاس من الوسائل ، رجز في تاريخ الدولة الوطاسية من دول المغرب لناظمه ابي عبد الله محمد الكراسي كما سمي نفسه في آخر النظم. فرغ منه في ذي الحجة متم سنة 950 خمسين وتسعمائة موافق سنة 1543 (2) استهله بقوله :

(I) ص 470 طبع تطوان سنة 1369

(2) بل ان شهر ذي الحجة من عام 950 يوافق شهرى فبراير ومارس من سنة 1544 م

الحمد لله العزيز القادر عالم كل وارد وصادر

يقع في نحو الثلاثمائة من الابيات ، يوجد بالخزانة الفاسية ضمن مجموع «قلت» لقد أوقفني على هذه المنظومة صديقنا العلامة سيدي العابد الفاسي اثناء زيارتي لفاس في ربيع النبوي عام 1370. موافق دجنبر سنة 1950
الا ان النسخة التي وقفت عليها بتر كبير ومحو في كثير من الابيات بسبب قدم النسخة وتأثرها بالرطوبة، وقد اخذت منها نسخة أرى من المناسب اثباتها هنا بنصها على ما فيها من بتر كأثر تاريخي لا ينبغي تركه عرضا للضياع ونصها : (I)

عالم كل وارد وصادر
ونستعينه على ما نذكره
على نبي الله مصباح الانام
وتابعيهم من خيار المومنين
قصدت نظما تابعا للسنن
ويعرف الامر على ثبات
في ذكر كل ملك معزوز
في الخلفاء والملوك في الملل
تقدموا من الملوك قادة
من آل وطاس الشداد الباس
من جاز قبلهم من الملوك
ولمحاسن اتت بيانا
في ملك وطاس بارض المغرب

الحمد لله العزيز القادر
نحمده سبحانه ونشكره
من بعد تكميل الصلاة والسلام
وءاله وصحبه والتابعين
وبعد فاعلم يا أخى فأننى
يبقى به الذكر لمن قد يأتى
تبعث فيه السيد الملزوزى
وابن الخطيب ذاكرا رقم الحل
واننى لما رايت سادة
من خلفاء من خيار الناس
أردت نظمهم على سلوك
لان ترى اخبارهم عيانا
في رجز مقرب مهذب

ذكر دولة الاول منهم وهو ابو عبد الله
محمد الشيخ بن أبى زكري رحمة الله.

محمد الشيخ بلا منازعة
وزير دار الملك ذى المحامد
شيخ بنى وطاس المفخم
على اتفاق من ذوى المشورة
ودولة سعيدة توالى
ومن اليه نظر فى كل حال

أولهم من حازه مبايعة
ابن أبى زكري الجليل الماجد
وهو الامام الفاضل المعظم
قام بأمر الله عن مشورة
فعاش فى عز رفيع عال
والغرب كان خاليا من الرجال

(I) هذه القصيدة لها قيمة تاريخية عظيمة ، لان المصادر عن الوطاسيين
نادرة الوجود . ت. و.

ما ان لهم فى الفحص من وجيه
لاينج من شخص (I) بها الاسراب
لمن يريد الوقد او انفاره
لاذو بفحص غيران النحاس
فى يوم صديننا المليك الوارد
ذاقوا به كأس الهوان الفانى
كالنمل فى العشاء اذ يلمسنا
فيه ابا والهرب من دون كسا

والشرفاء قبل كانوا فيه
وكانت الشاوية الاعراب
كان لهم فى السكك المدارة
حتى اتى شيخ العلى الوطاسي
ونال منهم اكمل المقاصد
ابادهم بالضرب والطعان
وصار باقيهم الى تامسنا
يراقبوه فى البكور والمسا

ذكر مجيء النصارى الى عمارة جزيرة مليحة.

بكل اسطول وكل ميرة
ذاقوا به الهوان بالنكوس
واسكنوا فيه الطغاة والعدا
وكان للغرب نصيرا ما ونا
قطع قصد الكافر البئيس
من فاس والانجاد اجمعينا
وقد أداروا سور لوح معمل
من صانع وقائد من الفئة
ورد فى شماله الاعيادى
ورأى سديد ردهم جليب
من قصب وبالصخور تمتلى
وقطع الوادى بلا تلبيت
فايقنوا بالهون والخسران
وفوق موجه الصخور تحمل
ابطل للكافر ما قد املا
ويئست من تحتها الخروج

وجاءت الروم الى الجزيرة
ودخلوا فى وادى (2) ءال كوس
هناك اذ ذاك اقاموا بلدا
جيش اهل الغرب طرا ودنا
جاهد بالمال وبالنفسوس
ولم يزل مع المجاهدين
لحقهم قبل تمام العمل
وجيشوا فيه بستين مائة
نازلهم على شفير الوادى
وكان من ذا الرأى الحبيب
ان قطع الوادى بجعل سلل
انزلها بعمل التثبيت
وامتنع الطلوع بالاجفان
عمل فى ذاك اشد العمل
حتى اذا بلغ قصدا وعلا
طاعت له وذلت العلوج

(I) فى نسخة : من اشخاصها.

(2) ءال كوس اسم للنهر الذى يصب على مقربة من العرائش. ويظهر ان اسمه هذا آت من مدينة «ليكسوس» المسماة عندنا بالشميس وهى انقاض مدينة فنيقية كانت قديمة قريبا من مصب النهر الذى سمي باسمها . ومعنى «ليكسوس» باللغة الفنيقية «الذئب» ولم يجد العرب صعوبة فى تحويل ليكسوس الى ءال كوس، ثم الى «لكوس» . ت. و.

طلب اعطوه له متمما
والناس تباع لذاك قهرا
شاوية وغيرها فحالفه
عواقبا لا مثلها يؤخر
واجفل الكافر عنه وانجلا
وكان ذاك باكتمال الفرح
عشرين بعد خمسة سنينهم
وازدانت العباد والبلاد
على فساد الصلح طول الحيا
علي ابن راشد السني
وجهة الهبط فكلا دمروا
وصار جيش الكفر غير مسلم

ثم فدوا نفوسهم بكل ما
من بعد ما دام الحصار شهرا
وكان للسلطان ضد خالفه
فخاف ان ابطأ شهر آخر
غلب اذ بلغ قصدا واعتلا
وغلب الاسلام بعد الترح
عقد صلحا بعد ذاك معهم
حتى ربا المكسب والتلاد
عزم نجله الوزير (I) يحيى
مع الشريف الا سعد الجلى
اخلى جميع ما النصارى عمروا
وعاد للاسلام كل مسلم

ذكر حركة السلطان ابى عبد الله محمد
الشيخ بن أبى زكري الى شفشاون

ذاك الشريف العادم المثالا
ان يدخل الحضرة من حيث طلع
خاف وخاب رأيه ما كانا
فاس ومكناس لهم بنود
اذ عيبت افعاله الجماعة
ولده يحيى الوزير المكرما
ورحل الوزير فى حميته
وظهر الغلب باخراب القرار
واحرق الدار فصارت محرقة
بالانقطاع وتمام الحيل
لاموه عما كان من تحريف
وتبعث شفشاون بالطاعة
ومر راحلا ووفى العملا (2)
ساق ابنه رهنا . . . رحلته
عاهده من عنده لا بد له

وثار فى شفشاون وصالا
دعا لنفسه وجاءه الطمع
على بلاد مغرب سلطانا
تحركت لداره الجنود
دخل فاسا تحت حكم الطاعة
حتى الى سبته كرها قدما
وبقى السلطان فى محلته
نزل فى شفشاون تحت الديار
مر وخلقى داره ومرفقه
فانحصر ابن راشد فى الجبل
فقطع السادات للشريف
دخل فى الطاعة والجماعة
واقلع الوزير عنه النزلا
وبلغ السلطان فى محلته
ومعه علامه المعروف له

(I) فى نسخة عزم نجله الامير

(2) كانت الحياة السياسية بالمغرب جحيما لا يطاق ولا سبيل الى
الحياة فاما مع قائم واما مع آخر ولعل فى هذه الحادثة ما يفسر المصاهرة
التي تمت بين الشرفاء الراشدين والوطاسيين . ت.و.

ودخلوا الى ديار فاس
وجاء بعد ذلك ابن راشد
قابلته بالصفح والاغضاء
اجرى عليه الرزق والانعاما
وبعد ذاك يوم ميز العيد
وعادت البلاد كيف كانت
وبقيت بينهما المحبة
وكان ذا اوائل المحرم
هذي عوائد الكرام السادة

فى ظل امن الملك الوطاسى
لدار مولانا الكبير الماجد
عما جناه فى الخلاف . . .
وما يخص داره دوامها
جا طبله بعلم ج
كانها من يده ما بان
حتى قضى الشريف فيها نحبه
من بعد تسعمائة
من ءال

ذكر حركته رحمه الله الى دبدو

وثار فى دبدو بذاك الحين
دعا لنفسه وعاث فى البلاد
قام له الشيخ ابو عبد الله
فجيش الغرب له بجملته
وكان فيها نجله الامير
وعمدة القياد والاولاد
وجملة الخلط والعربان
واهل فاس وكذا مكناس
والعلماء والمرابطون
تقدم الامير ذاك زيان
مما يلى المنعة للدبادة
فقدوا صلحا مع السلطان
وجاء رهنا ولد الدبدوبي
من كونه من جملة الاختان
هذى عوائد الملوك ابدا
واجتمع الصالح والمصالح
فالله يجزيهم عن العباد
والصلح خير وهو خير الخير
. سنة خمس جازت
. عار المسلمين
. تسعمائة

محمد بن احمد المرينى
ورام بعد الصلح امرا بفساد
سلطان فاس مبرز المحلة
وحاصروه تحت وادى منعتهم
يحيى همام الدولة الوزير
وتابعيهم جملة الاجناد
كذا بنو غمارة الطغيان
واهل بطوية والاكياس
والسادة الاخيار أجمعون
ابن الحلو بجيشه والعربان
على يديه الصلح والمغاربة
ورجعوا فى نعمة المنان
حتى بفاس جد فى الركوب
وصل دار الملك فى الاخوان
العفو عن جاءهم القى اليدا
وكان ذا من اعظم المصالح
خيبرا لقفو طرق السداد
ومانع الصلح هزيم الضير
من بعد تسعمائة وفازت
الى وفاة شيخ وطاس الامين
وقط ما خلا من امر التهيئة

دام له الملك . وقاد رسمه
وكانت الايام كالمواسم
عليه منا افضل الرحمات
ثلاثة بعد ثلاثين سنة
مع الرضى وقلة المظالم
ما تليت على النبى صلاتى

ذكر دولة ولده السلطان ابى عبد الله محمد رحمة الله عليهما .

وقام من بعد ابنه المجاهد
اعطاه ربى النصر حيثما بدا
زانت به الارجاء والقصور (I)
زاد على ما كان فيها من عمل
كمثل تطاون والعرائش
محمد السلطان ليث عاهد
اطلع فى المغرب بدرا وهدى
وعمرت فى وقته الثغور
بعد ابيه وبه السعد اكتمل
ولم يكن فى قوله بفاحش

ذكر حركته رحمه الله بسوس .

وقد غزا السوس وارض حاحة
اوقف فى مراکش الشريف
فى عام واحد وعشرين سنة
وظهرت نيته فيمن وقف
لابد ما نرجع للقضاء
هذا قضاؤه وما شاء فعل
وكل قطر ابتغى إصلاحه
وسار والسعد له أليفا
من بعد تسعمائة مبينة
لو انه ارضاه فيما قد
ما السر الا فى ات
كل ميسرا

ذكر نزول الطاغية البرتغال معمورة وادى سبو

فى غيبة السلطان جاء عازما
فى مركب فى البحر والاسطول
فيه اقام بلدا متينا
وعمره بالرجال والعدد
وكان قد خلى اخاه الناصرا
واعمل الجلال والزعامة
ولم يدع من فل او زل ولا
واستعمل الانفاض للاجفان
واهل فاس مع مكناس بها
طاغية الك
ارسى بوادى
مدورا
وكل ما يحتاجه اهل الجلد
وزيره فجاءهم محاصرا
وحكم الجيش وذا الكرامة
جسر من يقدم حتى لسلا
وايقن الكفار بالخسران
تجار بالعون لها لربها

(I) هذه مغالطات يذكرها المؤرخون المغاربة ، فينسبون الهجرة والهزيمة
للاندلسيين وينوهون باستبحار العمران فى عهد الوطاسيين . وارتفاع ثمن الدور
بفاس وببقية مدن المغرب ، وما كان ذلك العمران الا شظايا الاندلس
التي هلكت . والا فان حالة المغرب المضطربة ما كانت تسمح بزيادة العمران . ت . و .

يا ناصر الاسلام تدعو كل حين
وطمع الكفار في المحال
راموا يباكروا المحلة صباح
لقوا عبادا صبروا على اللقا
ثم اتى على بناء البلد
فركبوا الاجفان كيما يخرجوا
وكان في الوادي جسور من حجر
..... مات من الاجفان
..... ش اهل الله
..... الرمال
..... فا
..... رورة
.....
..... رؤوس
..... لفاس
.....
في صيف عام واحد وعشرين

انصر جيوش المسلمين الصالحين
تحدثوا اذ ذاك بالمجال
فلم يلاق رايتهم فيهم رباح
وصار كل للعدا معشقا
فدخل الرعب لكل جلد
للبحر في اسطولهم ويدلجوا
منعت الاجفان من درك الوطر
من الخروج أيقنوا بالخسران
في قتلهم بالرمل بالدواهي
وكلهم ماتوا على التوالي
على الهلاك بعد ما قد تلفا
أفنى الاله سنة المعمورة
فوجد الجيش جميعا حاصر
وصار يعطى ذهباً مثل الفلوس
وسيقت الرؤوس من غير التباس
باب الشريعة بطول السور
من بعد تسعمائة بالتبيين

ذكر رجوع السلطان من حركته من سوس

واذ اتى المولى محمد الامير
نزلت المحلة العلالى
الى وادي سبو الى المعمورة
اتاه ذاك الاسد المهاصر
ومعه الاسلاب والغنائم
مهنئا بما اتاه الله
يا من تولى وتلا حزب الجهاد
لولا الجهاد لم تلاق مسلما
هذي فعال و طاس الكرام

من حركة السوس بأعلام النذير
وسار سير الخرد الغوالى
وجدها خالية مغمورة
حامى الحما الليث أخوه الناصر
وكانت الايام كالمواسم
مستبشرا به وما أولاه
اغتنم الفرص تملك الوهاد
وكل من تلقاه يلقى ظالما
عليه ماتوا وثووا اعلى مقام

ذكر حركة السلطان لمراكش عام البسباس

وبعد ذا حركة البسباس
وكان حال المسلمين يوما
وكانت الصولة للسلطان

الى الشريف
ستر فيه الله
وقال خا
.....

من بعد ما ابصره عيانا
 ابصر ما لم يبصر الاناس
 ثم عفا الله بفتح الخير
 وفي رجوع السيد الوطاس
 اباد فيه جيش ااصلاء
 وقتل الفرسان والاجنادا
 سبجان من يملك
 فكم له من صولة على العدا
 وكم رمى بالنفس في المهالك
 والذكر باق والاناس تحفظه
 هذا وكل ينتهي الى اجل
 عاش سعيدا في ظلال وافية
 عام اثنتين وثلاثين ترى
 وملكه دام له ثلاثة

رءاله في
 في ق
 و
 ج

 وكم له من فتكة فيمن عدا
 وربيه ينجيه نعم المالك
 وكل معمول فربى يلحظه
 والروح واصل اذا تم الاجل
 وموته على سرير العافية
 من بعد تسعمائة مسطرا
 من بعد عشرين على وراثه

ذكر دولة اخيه ابي الحسن علي بن محمد
 المدعو بوحسنون بتوليته اياه رحمهما الله

ثم ولي عهده الميمون
 بقى اشهرا تعد قلعة
 وكان في البخل على امواله
 ان المال قد ينجيه
 بالاشهاد
 على العادات
 علي المالا
 مؤلف
 مطاه

اخوه ذا المولى ابو حسون
 وكان ذا مكانة مقلعة
 ما لم يكن في غيره من ءاله
 من كل ضيق او لما يلجيه
 والاتفاق من اولى السداد
 في كل مخلوع من الولاة
 هذا قضاء ربنا تعالى
 لغيره وصيرت في التلف
 وما اراد الله ان يخطو خطاه

دولة السلطان ابي العباس احمد بن
 محمد بن محمد الشيخ ايده الله

ابو محمد الرضى الوطاس
 يساير الزمان حيثما سرى

. ابو العباس
 الامرا

(هنا يقع بتر كبير)

سميتها عروسة المسائل
وهذا بحر منه زبد الخبر
فى دار فاس الملك والولاية
انطقنى الله الذى قد انطقا
والغرب كان وله ملوك
اثارهم شرقا وغربا بنفوس
لولا بقاؤها لنا فى الكتب
والناس قبلنا لهذا سبقوا
وان يكن قولى على عقلى سريع
لكن تمنيت بقاء الذكر
جهد المقل وقبول عذرى
هذا بما فى قلبه قد شغلا
شيخ على كبره اتاكم
قولوا له يدخل حتى تسمعوا
فى دارنا من مثله كثير
لولا رجاء ملككم ما فاهها
لكن الى الحق الرجوع جملة
والله ارجو ان ينيل عفوه
عدده (مفد ونسج) من سطر
وبالصلاة والسلام فى الختام
وءاله وصحبه افضل جيل
على يدى محمد الكراسى
آخر شهر الحجة الحرام
من بعد تسعمائة لهجرته

فيما لوطاس من الوسائل
عمى تولى بصحيح النظر
على اتفاق من أولى الدراية
وكل شىء ربنا قد خلقا
الحكم والدولة والسلوك
ابية حتى ملوك الاندلس
لم ندر ما كان لهم من رتب
والحق اولى ان يكن تحقق
فلمست فى امثال ذا بمتبدع
لمن شغلت بحلاه فكرى
من حبه كحب آل عذرى
على رجا ان تقبلوه عولا
ولبنات فكره اهداكم
كلامه ومثله ترفعوا
شيخ كبير ناصح خبير
بكلمة ولم يحل فاهها
وهذا اصل من اصول الملة
بستر ما كانت له من هفوة
اللدبه ناظمه قضى الوطر
على نبي الله مصباح الظلام
ومن مشى فى اثرهم على سبيل
ناظمها بسمح اهل فاس
متم خمسين على التمام
لطيفة طابت بطيب تربته

ويلاحظ على هذه المنظومة انها ذكرت فيها حوادث واخبار لهم نجد لها
ذكرا فيما هو متداول لدينا من الكتب التاريخية التى تكلمت على دولة
الوطاسيين .

ويلاحظ ايضا ان نظمها كان عقب زيارة السلطان احمد الوطاسى لتطوان
وزواجه فيها بحاكمتها الست الحرة عائشة ابنة سيدى على بن راشد. ومن
المعلوم أن ذلك الزواج كان سنة 949، وان الفراغ من نظم هذه القصيدة كان فى
سنة 950، كما ذكره الناظم نفسه فى آخرها .

ويفهم من ابياتها الاخيرة ان ناظمها الشيخ القاضي علي كبر سنه قد حملها الى عاصمة فاس وقدمها هدية الى السلطان احمد المذكور لانه قال في آخرها :

شيخ على كبره اتاكم ولبنات فكره اهداكم
قولوا له يدخل حتى تسمعوا كلامه الخ.

أما عدد ابيات هذه المنظومة فلا نعرفه على سبيل التحقيق والذي ذكره صاحب دليل المؤرخ انه يقرب من ثلاثمائة والذي وقفنا عليه من ذلك واثبتناه هنا هو نحو مائتين فقط وربما كان العدد هو 483 لانه هو الذي يفهم من قول ناظمها «عده (مقد ونسج) والله أعلم».

الشيخ احمد الشاعر اليجمي 965

الشيخ الصالح ابو العباس احمد الشاعر اليجمي ، منسوب الى قبيلة بنى يجم التي تسمى الآن بني حزمr المقابلة لتطوان وكانت سكناه بمدشر بوخلاد القريب من مدشر دار بن قريش ، وكان رجلا عابدا زاهدا كثير التردد على مدينة تطوان لصلاة الجمعة بها وقضاء اغراضه فيها . وقد ترجم له معاصره الشيخ ابن عسكر في كتابه دوحه الناشر بقوله (I)

«ومنهم الشيخ ابو العباس احمد الشاعر اليجمي من بنى يجم من حوز تطوان . كان رحمه الله فقيها نزيها عارفا بالله تعالى كثير الورع والزهد حافظا للتاريخ ومولعا به كثير الاطلاع ، شأنه الفكرة والاعتبار يذهب في كل يوم جمعة على قدميه الى مدينة تطوان ليصلي بها صلاة الجمعة . ومنزله بوخلاد على قدر اثني عشر ميلا ، وكان عاملا على التوكل فلا يحترف بشيء ، وكانت له عريضة بازاء داره يزرع فيها شيئا من الزرع وينبشها بفاس بيده فما جاء فيها من الزرع فذلك عولته وعولة عياله ويطعم منه الطعام لكل من نزل بالمسجد الذي بازاء داره على محجة الطريق من ابناء السبيل، ومن راءها يقطع بأنها لا تكفى شخصا واحدا ، وكان لا يقبل من احد شيئا ، واذا ذهب الى تطوان حمل قفة في يده اليسرى فاذا اراد احد من المارين معه ان يحملها عنه امتنع من ذلك وقطب وجهه اخذت عنه رحمه الله علم التاريخ والاعتبار ، وكنت اذا لقيته في سنين كثيرة لا يتكلم معي الا في علم التاريخ واخبار من تقدم من

العلماء والصالحين والملوك وغيرهم ، فاذا فرغ من حديثه قال ، البقاء لله ، الا الى الله تصير الامور ، كل شئ هالك الى وجهه ، ثم يصفر لونه ويعتريه حال ثم ينصرف . توفي في حدود خمسة وستين من القرن (يعنى العاشر اى سنة 965) ودفن بازاء مسجده رحمه الله»

(قلت) وقبر هذا السيد ما زال محفوظا مشهورا بازاء مسجده المذكور فى مدشر بوخلاد ، وقد وقفت عنده مرارا ، ومظهره بسيط على عادة اهل البادية فى قبورهم الا ان عليه اثر النور لمن يتفكر ويعتبر ، وما زالت عائلة هذا الشيخ موجودة بذلك المكان وقد اجتمعت فى سنة 1367 بشيخ منها يزيد عمره على الثمانين ووجهه الابيض الازهر بلحيته المسدولة البيضاء يتلأأ نورا ، وكنا جالسين بمسجده المذكور جنب ضريح المترجم ، فسألته عنه فقال لى انه من ذريته ، وحكى لى عدة كرامات متواترة عنه على عادة كثير من الناس الذين لا يعرفون عن الشيوخ الا كراماتهم . وذكر لى ان مسجده كانت تقام به الجمعة الى ان حولت منه الى مسجد آخر قد بنى منذ بضع سنين .

رحم الله الشيخ الصالح ، وبارك فى ذريته اهل الفضل والصلاح.

الشيخ الجاسوس

هذا الرجل لا نعرف لا اسمه ولا اصله وانما يعرف بلقبه الذى هو الجاسوس ، ولم اسمع احدا من شيوخ تطوان يذكره بوصف الولاية والصلاح وقد كان من سكان هذه المدينة فى القرن العاشر وقد ترجم له معاصره ابن عسكر فى دوحة الناشر (I) واطال ترجمته فى نحو صفحتين ، وعده من الاولياء اصحاب الكرامات ، وطلب من الله ان ينفعه به وبالاولياء امثاله ، وذكر أنه كان على طريق الملامتية ، وأنه لقيه بباب مسجد جامع تطوان وطلب منه أن يدعو له بخير الخ. وانه اشتهر عنه ظهور الكرامات فكان الناس يزدهمون عليه وهو يفر منهم ، وانه توفي فى العشرة السابعة (يعنى عام نيف وستين وتسعمائة). «قلت» قبر هذا الرجل غير معروف الآن ، وبعض الناس يشكون فى حالته المريبة ، وفيما حكاه عنه صاحب الدوحة ما يبرر ذلك الشك ، والله أعلم بالحقيقة (2).

(I) دوحة الناشر ص 34

(2) شهادة صاحب الدوحة فى الجاسوس ليست بشئ ، لان صاحب الدوحة مات فى ركاب البرتغاليين ، متعاوناً معهم ضد الوطن ، ثم نقل ودفن بشفشاون وامره موكل الى الله . وقد ستره اشراف شفشاون لعلمه وفضله ونسبه فيهم . ت.و.

الفقيه ابو القاسم بن سلطان

كان الفقيه ابو القاسم بن سلطان القسنطيني من سكان تطوان في القرن العاشر ، وقد ترجم له معاصره ابو العباس ابن القاضي في كتابه درة الحجال بقوله : (I)

«ابو القاسم بن سلطان القسنطيني، الفقيه المعقولي الخطيب بقصبة تطاون وله كتاب في مجلدين في الرد على الطائفة الاندلسية اجاد فيه كل الاجادة وناضل فيه عن السنة السمحاء ، أطلعني عليه سنة 995 ، عامله الله بقصده ونيتته ، وهو رجل زاهد ورع محافظ على دينه ، اخذ عن ابي العباس احمد المنجور ، وله رحلة الى الشرق ادى فيها فريضة الحج ولقى جماعة هناك اخذ عنهم كابى زيد التاجورى وابى الحسن البكرى الصديقى وغيرهم ، ولد تقريبا بعد 930»

ولما تكلم ابن القاضي المذكور في نفس الكتاب على الشيخ محمد الاندلسي رئيس الطائفة الاندلسية وشنع على هذه الطائفة قال ما نصه (2) .
«ومن اراد الوقوف على شناعتهم جملة وتفصيلا وما قيل في هذه الطائفة الملعونة، فليطالع تأليف الفقيه الخطيب ابي القاسم بن سلطان القسنطيني تزيل تطوان ، فقد ابدع فيهم وزيف اقوالهم وبين فسادها ، وهو في نحو مجلدين»

«قلت» يظهر والله اعلم ، ان الكتاب المذكور قد اضمحل ولم يبق له اثر ، اذ لم نعرف عنه وعن مؤلفه شيئا زائدا على ما ذكره ابن القاضي رحم الله الجميع .

(I) درة الحجال م 2 ص 465 . في الترجمة التي رقمها 1344 ، طبعة الرباط سنة 1354

(2) درة الحجال ، م I . ص 167 .

الفصل الرابع

من الباب الثالث

من زوار تطوان في القرن العاشر

الاديب التمجروتي مؤلف «النفحة المسكية»

الفقيه الاديب ابو الحسن علي بن محمد التمجروتي الدرعي الجزولي مؤلف كتاب «النفحة المسكية في السفارة التركية» ترجم له اليفراني في الصفوة (I) والقادري في نشر المثاني (2) ووصفاه بالشيخ العلامة وذكره أنه كان مشاركا في العلوم النخ. وان السلطان ابا العباس احمد المنصور السعدي وجه بهدية لملك الترك بالقسطنطينية العظمى (3) وانه ألف في ذلك رحلته المسماة بالنفحة المسكية في السفارة التركية ، وان هذا الكتاب مفيد (4) وان مؤلفه توفي بمراكش سنة 1003 ودفن بروضة القاضي عياض . والذي كان على عرش الدولة العثمانية في ذلك العهد ، هو السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان ، وكانت تلك السفارة سنة 997 . وقد قضى المؤلف في هذه الرحلة ما يزيد على السنة وزار مدينة تطوان قبل الرحلة ومنها ركب البحر الى تركيا ثم لما عاد من رحلته نزل بتطوان ايضا قبل رجوعه على السلطان المذكور .

(I) صفوة من انتشر ص 106 وذكره باسم التمجروتي .

(2) نشر المثاني ج I ص 31

(3) في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري اشتهد تدخل العثمانيين في سياسة المغرب . ت.و.

(4) قد طبعت هذه الرحلة اخيرا في سفر يقرب عدد صفحاته من الاثنين ولم يذكر فيه لا اسم المدينة التي طبع فيها ولا تاريخ طبعه ولعل طبعه كان في اوربا .

وقد ذكر المؤلف ان رفيقه الرسمي في هذه السفارة ، هو الفقيه الكاتب الشاعر ابو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ثم قال ما نصه: (I) «فوردنا ثغر تيطاوين يوم الخميس لخمس بقين منه (يعنى من شهر جمدى الاخير عام 997) فاقمنا بالثغر ثلاثة اشهر رجب وشعبان ورمضان ننتظر ورود السفينة علينا من الجزائر فما وردت الا لليلتين بقيتا من رمضان بعد ان سردنا صحيح البخارى وختمناه ، وركبنا البحر اثر ختمنا له ووجدنا له بركة عظيمة في سفرنا .

وكان قد بلغ السلطان ايده الله تعالى ان سفينة الرايس قبطان الجزائر وردت لرفع رسل الترك فاشخصنا السلطان وازعجنا اليه معهم لما ورد عليه كتاب صاحب السفينة ، وحين وردنا الثغر وجدنا السفينة صارت الى الجزائر قبل ورودنا بليلة واحدة زعم رئيسها ان اغربة (2) للفرنجة دمرهم الله تحركوا بأطراف سبتة اعادها الله للاسلام ءامين فخاف منهم، وان تيطاون ليس لها مرسى تمنعهم منهم .

ثم سافر من تيطاون وركبنا البحر يوم عيد الفطر وهو يوم الاحد لليلتين خلتا من شهر غشت (يعنى من سنة 1589 م) ثم قال بعد ذلك ما نصه: (3) «وقد ذكر لنا اهل تيطاون ان النصارى دمرهم الله اتبعونا من سبتة بشمانية سفن فخذلهم الله وردهم خائبين بسبب هذه الشرقية (يعنى الريح الشرقية القوية التى يهيج معها البحر فى تطوان) ثببتهم عنا حتى فتناهم والحمد لله ، ذكروا لنا ذلك فى رجوعنا اليهم »

وبعد ان وصف المؤلف رحلته الى عاصمة الدولة التركية ذهابا وايابا ، وما لاقاه فى سفره من الاهوال والاطوار ، وشاهده فى اصطانبول من العجائب والآثار ، ذكر اخيرا انهم وصلوا فى مركب بحرى الى مرسى تطوان عشية يوم الجمعة حادى عشر محرم الحرام عام 999 فحاولوا النزول بالبر فمنعتهم شدة الريح من ذلك وردتهم على اعقابهم الى وادى لو (مرسى بقبيلة بني سعيد الجبلية فى الجنوب الشرقى لتطوان) (4) فنزلوا به وباتوا ليلتهم ، ثم ساروا لتطوان وأقاموا بها ينتظرون ان يرد عليهم امر امير المومنين من مراکش، وفى اثناء ذلك زاروا ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بجبل العلم (من قبيلة بنى عروس)

(I) النفحة المسكية ص II

(2) أغربة ، كلمة عربها المغاربة لان «غراب» معناها بالبربرية سفينة ، فجمعوها على اغربة . ت.و.

(3) النفحة المسكية ص I3

(4) كانت مرسى وادى اللو تابعة لشفشاون، فكانت مرسى لهذه الامارة، اما تطاون فمرساها نهرها . ت.و.

ثم ورد عليهم امر امير المؤمنين بالقدوم على حضرته ، فرحلوا من تطوان غرة شهر صفر من العام المذكور ومعهم رسل السلطان العثماني ، ثم قال المؤلف في آخر الكتاب ما نصه : (I)

«ومما كنت أسلى به النفس ، عند اشتداد الكرب واليأس ، واجعله هجراى واطلب به النجاة ، ابيات ركيكة سمح بها خاطر الكليل ، والقلب العليل ، على منهوك الرجز ، ابتدأتها من تيطاوان لما اشرفنا على البحر ، واتممتها بالقسطنطينية ، وهى هذه :

الحمد للموفق	لذكره ومنطق
صلى على الهادى الذى	به الى العرش ارتقى
وءاله وصحبه	ممن لقربه انتقى
يا رب ما عودتنى	سوى الجميل المطلق

الى آخر مائة بيت وتسعة عشر بيتا كلها على هذا الروى ، ثم قال ما نصه : (2)

ومما قلته بتيطاوان ونحن ننتظر ورود السفينة على بساط المؤانسة مع الرفقاء وصاحب المنزل الذى نحن فيه ، وهو السيد احمد بن محمد بن احمد ابن المفضل الاندلسى الغرناطى ، وهو من اهل اليسار والسعة بها ، وهو المتولى قبض السلطان مما يخرج من عند النصارى من سبته وما يدخل اليها من التجارة والاسارى وغير ذلك (3) وكان اكرم مثوانا وبسط علينا فى الاقامة ، وما غير علينا شيئا مما اقمنا به اول يوم الى آخر ثلاثة اشهر جزاه الله خيرا ، ونحن مع ذلك فى غاية الضيق من الوحشة والغربة وطول الانتظار ، مع استقبال السفر البعيد وأهوال البحر وخطره فى قرب أوطاننا واستدبار ديارنا وما وجدنا فيها سبيلا .

وفى نظر الصادى الى الماء حسة اذا كان ممنوعا سبيل الموارد

وقد عظم علينا الخوف ، وكاد ان يغلب علينا اليأس من الرجوع الى بلادنا لولا فضل الله الواسع وكرمه العام :

قال الفقير الى الله الكريم علي	نجل محمد الدرعي بالوطن
سابع تسعين مع تسع مئين مضت	بتطاوان نزلنا منزل السكين
يا رب كاف ابا العباس مالكة	نجل المفضل بالخيرات والمنن

(I) النفحة المسكية ص 177

(2) النفحة المسكية ص 184

(3) يعنى ان ابن المفضل المذكور كان هو امين المداخل المالية للسلطان بمدينة تطوان وناحيته .

ما كان أسعدنا من فعله الحسن
محمد وهو يدعى ابن أبي الحسن
وطيب عشرته يسلمو أخو شجن
أنشأ الرسائل فاق كل ذي لسن
حوز السلام (ة) في البحور والسفن
مبيد كل العدا الخليفة الحسن
جهاد أهل اعتقاد الكفر والوثن
ملك الملوك وملك الخلد في قرن
لنا السلامة ثم العود للوطن

وهب له صالح النسل السعيد على
والكاتب الفشتالي مرافقى سيدي
ذاك الأديب الذي من حسن أخلاقه
ما ابن العميد وما عبد الحميد إذا
موجهين لقسطنطينة ولنا
من الإمام أبي العباس بحر ندا
المالك العادل المنصور همته
ياربنا هب له إذ كان أولى به
يا من يطالع قلبي قل ءأمين وسل

ثم قال بعد ذلك ما نصه : (I)

«وكنّا خرجنا في اثناء اقامتنا بتيطاون الى بستان الابر المفضل وفيه قصر
مبنى مشرف على الرياض ، فجلسنا في علوه وتحتة بيت للنصارى خدمة
البستان وهم لا ينفكون عن الشراب ولا يفارقونه ، فقال الكاتب ارتجالا ونحن
هناك :

وبسيط يطرز النهر في جا نبه برد خزه ووشاحه
قد نعمنا بنزهة كان فيها بيت راح وفوقه بيت راحه
في رياض تبسم الزهر لما اطلع الياسمين فيها صباحه
وتغنت ام الحسين على عيـــــــــــــــــدانها بالحسين شعر الفصاحة

كان ذلك يوم الاربعاء ثانى عشر رجب الفرد عام ثمانية (بل سبعة)
وتسعين وتسعمائة ويسمى هذا الرياض الصوير «
وبهذه الجملة ختم المؤلف هذه الرحلة.

«قلت»، المظنون ان هذا البستان الذي يحدثنا عنه الأديب مؤلف «النفحة
المسكية» هو الذي صار بعد مرور نحو ثلاثمائة سنة من ذلك التاريخ ، ملكا
للأمين المرحوم الحاج عبد الكريم بريشة ، ثم لصهره الأمين المرحوم الحاج
العربي بنونة ، ثم لنجله الوجيه المرحوم صهرنا الحاج عبد السلام بنونة، ثم
لابنائهم النبلاء من بعده ، وهو المعروف بغرسة العدو المشهورة التي كانت اكبر
بساتين تلك الناحية واشهرها.

ان كان هو نفسه فكم اقام فيه هؤلاء السادة الابرار من نزه وحفلات ،
 وكم طربوا واطربوا فيه بالموسيقى الاندلسية وبالاصوات الحسان وحلو
 النغمات ، وكم مدوا فيه من موائد كانت تكتظ بما امتازت به تطوان من لذيذ
 الاكولات ، وكم اداروا فيه من كؤوس الا انها بلورية مترعة بالالتاي المعبر
 الحلال ، وكم جمعوا فيه بين رجال الدين واقطاب الشريعة واهل الفضل
 والصلاح ، ورجال العلوم والفنون والاداب ؟!

لقد حسنت نياتهم ، وخلصت ديانتهم ، فطابت اوقاتهم ، وكثرت
 خيراتهم ، وتوالت نعماتهم ، فاستفادوا وافادوا .
 طيب الله ثراهم ، وخلصهم في جنات النعيم .

الفصل الخامس

من الباب الثالث

ملخص عن حالة تطوان في القرن العاشر

هذا فصل لا نستطيع ان نكتب فيه سوى كلمة مختصرة فقط ، لاننا لم نجد من المستندات والمعلومات ما يسمح لنا بالافاضة في القول والاطناب في التعليق ، الا ان ما لا يدرك كله لا يترك كله .

من الناحية السياسية

علمنا ان القرن العاشر قد دخل وتطوان تحت حكم القائد المجاهد ابي الحسن المنظري الاندلسي الذي كان هو المجدد لها واول حاكم بها . وقد مضى عليها النصف الاول من هذا القرن تحت حكمه وحكم افراد من عائلته ، وكانت تطوان في ذلك العهد شبه ولاية مستقلة عن بقية المغرب ، لان حكومة المغرب في ذلك العهد وهى حكومة الوطاسيين ، كانت ضعيفة لاشتغالها بمدافعة السعديين الذين كانوا يزاحمونهم ويريدون القضاء عليها وخصوصا في الجنوب الغربي ، وقد حاول آخر سلاطين بنى وطاس وهو احمد الوطاسي ان يقوى جانبه باستجلاب عطف اهالى تطوان وناحياتها وتأبيدهم له للتغلب على خصوم دولته ، حتى انه تزوج بتطوان من «الست الحرة» التى كانت تحكم هذه المدينة كما تقدم . ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا امام القوات العظيمة التى تدفقت عليه من جنوب المغرب ، لان تطوان انما كانت تبدو قوتها ويظهر تفوقها حينما تحارب الاجانب المعتدين ، اما عند ما يغضب الله على الامة فتتنقسم على نفسها وتتقد فيها نيران الحروب الداخلية التى يقتل فيها المواطنون بعضهم بعضا ، فان تطوان فى الغالب تنكمش على نفسها ولا تكون لها فى ذلك الميدان جولة ولا صولة .

وكان مثال الدولة الوطاسية هو الانقراض - ولا بد لكل دولة من الانقراض - فتم الامر للسعديين سنة 961، وبقيت حالة تطوان على ما كانت عليه فكانت سلطة ملوك فاس عليها في الغالب انما هي اسمية فقط .

ثم تردد على حكم تطوان ولاية لم تكن لاسمائهم شهرة ، ولم يبلغنا من اعمالهم واخبار عهدهم الا الشيء القليل حتى ان بعضهم لم نعرف عنه الا اسمه فقط، وربما كان هناك ولاية لم نعرف حتى اسماءهم، لطول العهد وفقدان المستندات (I)

على ان اهم اعمالهم جميعا هو القيام بواجب الجهاد والرباط لحماية البلاد من احتلال الافرنج الذين كانوا قد احتلوا جل الشواطىء المغربية، ولكنهم عجزوا عن الوصول الى تطوان.

وكان ابرز من ظهر من رجال تطوان ومجاهديها في اواخر هذا القرن، هو البطل المجاهد المقدم ابو العباس احمد بن عيسى النقسي رحمه الله .

ولا تنس ايقات مجاهدى تطوان باهالي سبتة في اواخر هذا القرن ، تلك الواقعة العظيمة التي سارت بذكرها الركبان، وقد انتقل كماء تطوان عقبها بغنائمهم واسراب اسراهم الى فاس حيث استقبلتهم تلك المدينة الخالدة بالاجلال والاكبار، وكان افاضل اهلها يرون في مجاهدى تطوان خير مثال لرجال السلف الصالح الذين كانوا يقومون بالرباط والجهاد لحماية بيضة الاسلام لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وينبغي ان لا ننسى ما تقدم من ان اهالي تطوان قد كونوا اسطولا بحريا كانوا يغيرون به على شواطىء الافرنج فيعودون منها وقد امتلأت ايديهم وسفنهم بالغنائم والاسرى .

كما ينبغي ايضا ان لا ننسى أن أندلسيي تطوان كانوا دائما يحنون الى العودة الى اندلسهم الفردوسية ، فكانوا من حين لآخر يحاولون اثاره الفتنة وايقاد نار الحرب ضد الذين تسلطوا على بلادهم ، لعل حركة المقاومة تنجح فيعود الحكم الاسلامي العربي الى وطنهم ، ويرجعون هم الى مدينتهم المحبوبة،

(I) والذي زاد في غموض الحالة بتطاون في هذه المرحلة من التاريخ ، ان النظام الذي كانت عليه ، كان نظاما عاما منتشرا في المغرب ، حتى سمي بعض المؤرخين هذه الفترة العصيبة بأنها كأيام ملوك الطوائف بالاندلس ، والا فان تطاون ، كانت مع شفشاون تكون ولايتين متحالفتين ، فكانت مرسى وادى اللو لولاية شفشاون ، ومرسى تطاون لاصحابها التطاونيين . واتفق ان قد تضخمت مرسى تطاون وباديس ، فضعف شأن مرسى وادى اللو ، وزاد في ضعفها اضطراب الاحوال في شفشاون ، المدينة المجاهدة التي نكاد لا نعلم عنها شيئا في هذه الفترة . ت.و.

غرناطة الجميلة ، ليستأنفوا حياتهم السعيدة بها ويحصنوا بلادهم من جديد حتى لا تخرج مرة اخرى من حظيرة الدولة الاسلامية العربية ، الا ان تلك المحاولات كلها ذهبت ادراج الرياح ، وتلك الامانى العذبة تبخرت مع الليالى والايام .

من الناحية العلمية والادبية

اذا بحثنا فى حالة تطوان من الناحيتين العلمية والادبية ، فاننا بكل سهولة نستطيع ان نحكم بان هذه المدينة لم تكن فى القرن العاشر وما قبله دار علم وادب ، وانما كانت دار رباط وجهاد من ناحية ومركزا صناعيا زراعيا من ناحية اخرى .

واذا كان صديقنا وحبينا العلامة المختار السوسى « نابغة الجنوب الغربى فى عصرنا هذا » قد استطاع ان يؤلف ما اطلعنى عليه من المجلدات الضخمة فى أدباء سوس وعلمائها، والآثار الادبية الخالدة التى خلفوها بلغتنا العربية ، فان هذه المدينة - ككثير من المدن المغربية - ما أظن انها فكرت فى ان تدخل يوما ما مباراة من هذا القبيل .

ونحن حينما رجعنا الى لائحة الاشخاص الذين عرفنا شيئا عن حياتهم من مشاهير رجال تطوان القديمة، لم نجد غير ثلاثة افراد هم: الشيخ عبد القادر التبين، والشيخ ابو عبد الله الفخار ، والشيخ ابو يعلى طلحة الدريج، وهؤلاء الثلاثة كلهم مشهورون بخصوص الولاية والصلاح . والشيخ التبين وحده هو الذى جاء فى ترجمته انه كان من رجال العلم والتأليف.

وبالجملة فان تطوان القديمة لم يشتهر احد من رجالها بالعلم والادب ، شأن جل المدن الصغيرة ، بخلاف جارتها مدينة سبتة فانها مثل فاس غنية بالعلماء والادباء ، ولها الفخر بذلك على جميع الشمال المغربى.

ومما يؤكد ان تطوان القديمة كانت فقيرة من ناحية العلماء والادباء ، ان لسان الدين ابن الخطيب - وهو الكاتب المكثار الذى جاب المغرب ودرس احواله وترجم لرجالهم ووصف بلاده واخلاق اهلها - لم يذكر اى واحد من رجال تطوان ، بل لم يذكر حتى اسم هذه المدينة ، وما ذلك فيما يظهر ، الا لانه لم يجد فيها من يستحق الذكر والله اعلم .

اما فى هذا القرن - اعنى العاشر - فيظهر ان الحالة العلمية والادبية بتطوان لم تتغير كثيرا عن ذى قبل، وهذا القاضى ابن عسكر مؤلف كتاب دوحه الناشر، كان كثير التردد على هذه المدينة، وقد حطب فى كتابه خطبا فذكر من رجال هذا القرن من لهم اهمية ومن لا اهمية لهم ، ومع ذلك لم يذكر من رجال تطوان فى هذا القرن الا بضعة أفراد ليس بينهم غير رجلين اثنين عرفا

بالعلم والتأليف ، فأحدهما وهو القاضي ابو القاسم الكراسي ، له منظومة تاريخية فى دولة بنى وطاس ، والاخر وهو ابو القاسم بن سلطان ، له تأليف فى الذب عن اهل السنة والجماعة ورد كيد الزائغين ، اما غيرهما من رجال تطوان فى ذلك القرن فاما انهم كانوا ينتمون للولاية والصلاح ، او للجذب والملازمة ، واما انهم كانوا منقطعين للرباط والجهاد ، يفضلون قعقة السلاح على حفيف اوراق الكتب ، ويختارون تعهد الحراب والسيوف ، على قرض الشعر وترتيب مجلدات العلم والادب .

ولعل موقعهم ووسطهم وما كان محيطا بهم من ظروف ، هو الذى حتم عليهم ان يكونوا كذلك ، وان يتمذهبوا بقول شاعر العرب :

السيف اصدق انباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

على أنه مما لا شك فيه أن المهاجرين الاندلسيين كان منهم رجال من أهل العلم والادب ، الا أن هجرتهم لم تكن الى تطوان التى كانت معرضا للحرب والطعان بل الى فاس وتلمسان وغيرهما من الحواضر العامرة المشهورة بالعلوم والآداب اما هذه المدينة فيظهر انه نظرا لوقوعها فى حدود الرباط والدفاع ، وقربها من ميدان الجهاد والقتال ، كان المهاجرون اليها من خصوص رجال الحرب مع من انضم اليهم من الصناع والمزارعين لان جل الذين ينتمون للعلم والادب وجوههم ناعمة ، وأيديهم بضعة ، وقلوبهم رحيمة ، ان تحمسوا فالى غير الاقلام والطروس لا يهرعون ، وان حاربوا فعلى غير ألسنتهم لا يعتمدون ، وبغير القوافى لا يتقدمون .

خلق الله للحروب رجالا ورجالا لقصة من تريد

من الناحية الاجتماعية

قد علمنا ان الذين قاموا بتجديد بناء تطوان هم المسلمون الذين هاجروا الى المغرب من بلاد الاندلس ، وخاصة من عاصمة غرناطة التى اجتمعت فيها نقاية الحضارة الاسلامية العربية الاندلسية ، اذ كانت هى آخر معقل لدولة الاسلام والعروبة فى ذلك العهد .

وقد انضمت الى أولئك الاندلسيين جماعة من أهل مدينة فاس التى هى عاصمة العلم والدين ، ومركز الصناعة والفن ببلاد المغرب ، كما انضمت اليهم جماعة اخرى من ابطال رجال الريف المشهورين بالجد والعمل والبطولة فى ميادين الجهاد ، مع من لحق بهم من نخبة رجال القبائل الجبلية من الذين الفوا عيش الحرية ، وقد تعودوا الكفاح من اجل الحياة .

فمن هذه المجموعة المختارة تكون سكان تطوان الحديثة .

وكان من الطبيعي ان تجلب كل طائفة من تلك الطوائف معها ما كان لها في بلادها الاولى من اعراف وعوائد ، وحرف وصنائع ، ومعرفة وتجارب في مختلف نواحي الحياة ، وميادين الجهاد والكفاح .

وقد انصهرت مميزات تلك الطوائف وثقافتها ومعارفها ، وتكونت من ذلك كله حضارة جديدة اندلسية مغربية ، وصارت لتطوان بذلك شخصية ممتازة سيطرت على ما اتصل بها حتى اصبحت هذه المدينة بمرور الزمن وكانها عريقة في الحضارة والمدنية .

وكان من الطبيعي ان يستقر سكان تطوان في مدينتهم بعد اتمام بنائها وتحصينها ، وان يتفرغ عامة اهلها لصنائعهم (I) وحرفهم وخصوصا الاعمال الفلاحية ، وكان من الطبيعي ايضا ان يتوجه الابطال لناحية الرباط والجهاد ، والحصول على الغنائم التي كانت من اهم المداخل في ذلك العهد ، ولعل تلك الغنائم كانت اهم ما اعتمد عليه اهالي تطوان في توسعة مدينتهم وبناء ارباضها وتعويض بعض ما لحقهم من الخسائر المادية عند ما تركوا ارضهم وديارهم وهاجروا الى بلاد المغرب الكريمة المضيفة وحالتهم هذه تذكرنا بحالة السادات المهاجرين بدينهم من مكة المكرمة الى المدينة المنورة

ولقد كانت تطوان بالرغم من صغر مساحتها ، وانحصار عدد سكانها ، تعتبر هي الخط الاول للدفاع الوطني والرباط على الحدود ، اى لمواجهة اعداء الوطن وخصومه المهاجمين المعتدين ، فكان كل من يقدر على حمل السلاح من سكانها يعتبر مرابطا في سبيل الله ، وهو وان كان يقضى نهاره في معمله او متجره او حقله ، فان سلاحه يظل معلقا فوق رأسه ، أو موضوعا الى جانبه ، حتى اذا ما سمع صوت النفير المعلن بوجود الخطر ، اسرع الى تقلد سلاحه ، وتسابق الى الاماكن التي كانت محددة لاجتماع الغزاة والمجاهدين ، لمقابلة الخطر والدفاع عن الحمى ، حمى الدين والوطن .

وبذلك كانت هذه الواجهة ، اعنى واجهة تطوان ، حصينة منيعة بقلوب رجالها وشجاعة ابطالها ، حتى ان القوات الافرنجية التي كانت في ذلك العهد قتية قوية مغامرة ، فتاحة للاراضى ، متغلبة على الاقطار ، لم تحدث نفسها بالتغلب على قوات تطوان ، وان كانت قد فكرت في ذلك او حاولته فانها قد ماتت بالفشل والخذلان ، ولم تجن غير الخسارة والحرمان .

(I) واهم صنائع التطاونيين صناعة الاسلحة ، نظرا لكونها رباطا في تحرير العدو . ت. و.

وتطوان التي علمت انها كانت مدينة صغيرة ، وان سكانها كانوا فئة قليلة
لا يتجاوز عددهم بضعة آلاف، هي التي استطاعت ان تجمع في معقلها من اسارى
الافرنج المعتدين على ارض الوطن المغربى ، ما يزيد على ثلاثة آلاف كانوا
يستخدمون نهارا فى الاشغال العمومية ، ويقضون لياليهم مصفدين بالاغلال
ولكنها الايام لا تدوم على حال ، فالدهر بالناس قلب .

وأعقل الناس، من أخذ حقه وترك حق الناس .

وتلك الايام نداولها بين الناس . صدق الله العظيم .

الباب الرابع

تطوان في القرن الحادى عشر

وفيه ستة فصول :

الاول، فى ولاية تطوان وحوادثها فى القرن الحادى عشر

الثانى، فى قضاة تطوان وعدولها

الثالث، فى الشيوخ والزوايا بتطوان

الرابع، من رجال تطوان

الخامس، فى رحلات المشاهير الى تطوان

السادس، ملخص عن حالة تطوان

الفصل الاول

ولاية تطوان وحوادثها في القرن الحادى عشر

دخل القرن الحادى عشر وحالة تطوان لم يطرأ عليها تغيير ، فولاتها المحليون قائمون بشؤونها ، والمجاهدون من اهلها يقومون باعمال الجهاد والغارات على الاطراف التى اقتطعها الافرنج من بلاد المغرب ، وسلطة السلطان على تطوان كانت اسمية اكثر منها عملية . وسترى ان جل هذا القرن قد مضى على تطوان وهى مستقلة فى أعمالها واحكامها عن نفوذ سلطان المغرب وكان المتولون للحكم بها هم المقدمون المجاهدون من اولاد النقسييس التطوانيين، اذ بقى حكم تطوان مع زعامتها متوارثين بين افراد هذه العائلة عشرات السنين، الى ان كان من امرهم ما ياتى بيانه بحول الله.

فهذا القرن يصح أن يقال فيه انه قرن اولاد النقسييس بتطوان، وتاريخ تطوان فيه هو تاريخ اولاد النقسييس .

اولاد النقسييس

والمتواتر أن اولاد النقسييس كان لهم ظهور كبير بتطوان ونواحيها ، وقد تولى الحكم بها عدد منهم ، الا أننا لم نقف على كلام جامع لاسمائهم واخبارهم، ونحن نظرا لماضى هذه العائلة وشهرتها فى الجهاد، وفى حكم تطوان وسياستها ، قد بذلنا الوسع فى البحث عن اخبارها فى المصادر العربية ، ما بين مخطوطة ومطبوعة ، وكذلك فى المصادر الافرنجية المختلفة ، وكانت النتيجة أننا جمعنا من تلك الاخبار قدرا لا بأس به، الا أنه غير جامع والكمال لله . ودونك ذلك :

اننا نجد اسماء اولاد النقسييس مقرونة بلقب «المقدم» وهو لقب يظهر انه كان أولا يطلق على رئيس جماعة المجاهدين ، فكنا نجد من الملقبين به ، المقدم محمد ابو الليف ، والمقدم احمد بن عيسى النقسييس (I) الخ. ثم صار يطلق (I) ومن المقدمين الشيخ العياشى قبل ان تسمى شيخا ومنهم المقدم خضر غيلان . ت.و.

على غير اولئك الرؤساء ، «شأن بعض الالقاب الشرفية» ولعله بقى لقباً متوارثاً لدى بعض العائلات حتى بعد انقطاع رجالها عن الجهاد.

وقد وقع شيء من الاضطراب والابهام فى كلام بعض الذين نقلوا بعض أخبار أولاد النقسييس ، فالناصرى فى الاستقصا (I) ذكر أنه كان فى زمان المنصور (يعنى السعدى المتوفى سنة ١٠١٢) رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة فى قتال العدو، منهم أولاد النقسييس التطوانيون الخ.

وقد ذكر أخبار بعضهم فى حوادث سنة ٩٩٦ . (2) وذكرهم ايضا فى عدة مناسبات اخرى ، وكلام الناصرى فى هذا الموضوع صحيح لا غبار عليه . أما ابو محمد سكيرج فذكر ان اول من تولى منهم بعد القائد عبد الرحمن العليج، هو القائد محمد النقسييس، الا أنه ذكر أن ولايته كانت عام ١٠٥٠، وأن مدة ولاية أولاد النقسييس كانت اثنين وثلاثين عاما من سنة ١٠٥٠ الى سنة ١٠٨٢ ، وسيأتى لنا من المستندات والوثائق الصحيحة ما يخالف ذلك ويثبت لنا ان ابناء النقسييس كانوا متولين بتطوان قبل ذلك التاريخ.

ثم ان الناصرى لم يذكر من أسماء اولاد النقسييس الا أبا العباس المقدم احمد بن عيسى ، والسكيرج ذكر اسم المقدم محمد واخيه عبد الكريم ، وذكر ان هناك «آخرين لم يعرف اسماءهم ، ونحن قد توصلنا لمعرفة ان اربعة عشر شخصا منهم قد تولوا الحكم بتطوان ، أو على الاقل كانت لهم سلطة ونفوذ بها ، اما على المدينة واهاليها ، واما على جماعة المجاهدين بها أو بنواحيها ، الا اننا لم نعرف من أسمائهم الا عشرة فقط هى هذه :

- I - المقدم عيسى، والد المقدم أحمد «الاول» بن عيسى
- 2 - المقدم محمد من عام ١٠٠٦ ، الى ١٠١٩ - (١٥٩٧ م ١٦١٠)
- 3 - المقدم احمد بن عيسى (الاول) من عام ١٠١٩ - الى ١٠٣١ (١٦١٠ - ١٦٢٢م)
- 4 - المقدم عيسى بن احمد - واربعة من اخوته .
- 5 - المقدم عبد الله بن احمد - ١٠٣٨ هـ - (١٦٢٩م)
- 6 - المقدم محمد بن عيسى من ١٠٥٠ - الى ١٠٦٣ - (١٦٤٠ - ١٦٥٣)
- 7 - المقدم عبد الكريم بن عيسى - من ١٠٦٣ - الى حوالى ١٠٧٠ (١٦٥٣ - ١٦٥٩)
- 8 - احمد بن عبد الكريم حوالى ١٠٧١ - (١٦٦٠ م)
- 9 - احمد بن عيسى الثانى من ١٠٧١ - (١٦٦٠م)
- ١٠ - مفضل عام ١٠٨٣ - (١٦٧٢)

(I) الاستقصا ج 3 ص 58

(2) ج 3 ص 57

١ - المقدم عيسى الاول

عيسى الاول هو والد المجاهد الكبير المقدم احمد بن عيسى الشهير الذي سيأتي الكلام عليه . وقد وجدنا اسم عيسى هذا موصوفاً بالمجاهد المقدم في الحجر المنقوش على قبر ولده احمد المذكور ، مما يدل على أن عيسى ايضاً كان قسماً أى من رؤساء المجاهدين من اهل تطوان ونواحيها ، الا اننا لم نقف على ما يدل على ان عيسى هذا تولى الحكم بهذه المدينة ، وما أظن انه تولى حكمها .

٢ - المقدم محمد النقسييس (1)

من عام 1006 - الى - 1019 - (1597 - 1610) ذكر أبو محمد سكيرج في اول من تولى من اولاد النقسييس هو المقدم محمد ، ويظهر انه قد وقع شيء من الاختلاط والاضطراب في اخبار المقدم محمد النقسييس ، ولعل الواقع هو انه كان هناك شخصان اثنان كان كل منهما مسمى بمحمد النقسييس ، اذ ورد ذكر احدهما مع اخباره وولايته ووفاته في الربع الاول من هذا القرن ، كما ورد ذكر الآخر وولايته في وسط القرن ايضاً .

وقد كتب المستعرب الاسباني، سرديرة (2) عن اولاد النقسييس بحثاً مختصراً نقل فيه كلام المؤرخ سكيرج واجتهد في تدارك ما فاتته واصلاح ما عثر عليه انه خطأ .

(1) لعله اول من تولى عمل تطوان مع مقدمة الجهاد ، والا فان عيسى النقسييس وولده احمد كانا مقدمين من قبل بدليل وقعة سنة 996 هـ . فاحمد كان مقدماً سنة 996 هـ . ولم يكن عاملاً الا في سنة 1019 .

(2) كليمنطى سرديرة CLEMENTE CERDEIRA مستعرب إسباني كان مقيماً بتطوان ، وقد درس العربية بالمغرب وببيروت ثم عين ترجماناً إسبانياً بالمغرب ، وتولى رئاسة الترجمة الأسبانية بالإقامة العامة لإسبانيا بتطوان ، وكان شخصاً ذكياً مغامراً ، وقد لعب أدواراً سياسية كان آخرها عند قيام الثورة العسكرية بإسبانيا ضد حكومة الجمهورية الإسبانية سنة 1355 هـ . 1936 م . فكان سرديرة متحيزاً لناحية الجمهوريين، فلما انتصرت الثورة الوطنية فر سرديرة واستقر بباريس عاصمة فرنسا، وبها مات في حدود سنة 1940 .

وهو مؤلف كتاب نهج الازدهان في تعلم لسان الاسبان، وقد طبع في بيروت سنة 1911، وقد ترجم سرديرة الى لغته الإسبانية بعض الكتب، وكان له ولوع بالتاريخ والآثار، وقد اتصل بمخطوطات قديمة وكتب في صحف إسبانية كتابات منها البحث الذي ننقل عنه هنا وهو منشور في عدد يناير سنة 1926 من مجلة «أفريقيا» AFRICA التي كانت تصدر بمدينة سبتة .

وقد ذكر السكيرج - وتبعه الرهونى وسرديرة، حكاية ننقلها على ما فيها (I) وهى «أن سكان القبائل المجاورة لتطوان وفى مقدمتهم وادراس، كانوا فى ذلك العهد ثائرين يقطعون الطريق وينهبون الاموال ويوذون الناس اذية، وكان محمد النقسيى الذى أصله من قبيلة بنى حزم (2) المجاورة لتطوان طالبا يقرأ العلم بهذه المدينة، فلما رأى طغيان أهل الجبل، اتصل بأهل تطوان وعرض عليهم أن يسندوا اليه الامر على أن يستعين بقومه ويكفوا عنه اذاية الجبليين، ولم ير الناس بأسا فى اجابة رغبته، ففوضوا اليه الامر للقيام بذلك» .

ويقول سرديرة، ان القائد محمدا هذا طلب المساعدة من أحد أفراد عائلته وهو المقدم احمد بن عيسى النقسيى رئيس المجاهدين الذين كانوا مرابطين على مدينة سبتة، فساعده على ما طلبه، وفى مدة قصيرة وقع القضاء على الثائرين من أهل الجبل، وساد الامن والسكينة فى البلاد، وقد برهن القائد محمد النقسيى على مقدرته وكفاءته وحزمه، واستطاع المحافظة على مركزه فبقى متوليا للحكم بتطوان الى أن توفي بها، أى نحو أربعة عشر عاما، من سنة 1597 م. الى 1610 - (1006 - 1019 هـ) .

ولم نقف على شىء زائد على هذا من أخبار هذا القائد رحمه الله. وذكر سرديرة أن الذى تولى بعده هو ابن عمه القائد احمد بن عيسى النقسيى .

3 - المقدم احمد بن عيسى النقسيى

من عام 1019 الى 1031 هـ. (1610 - 1622 م) .

كل من طالع تاريخ المغرب، يعرف أنه لما توفى السلطان أبو العباس أحمد المنصور السعدى عام 1012 هـ. (1603 م.) قام الخلاف على الملك بين أبناء فبويج أحدهم بفاس وبويج آخر بمراكش، واشتبك القتال بين جيوش الاثنين، وشارك فيه بعض الاخوة الآخرين، ثم ترامى بعضهم على العرش وصارت عاصمتا المغرب، فاس ومراكش، كالكرة تتقاذفها الايدى او الارجل .

وقامت الفتن، وسفكت الدماء، وانتهكت الحرمات، ولم يبق فى المغرب سلطان له القوة الكافية لتوحيد الكلمة وجمع شمل الامة تحت حكمه ونفث

(I) قلنا على ما فيها، لان السكيرج حكاها عن القائد محمد النقسيى الذى ذكر أنه تولى عام 1050 هـ. ونقلها سرديرة على أنها وقعت للنقسيى الذى ذكر أنه ولى سنة 1597 - 1006 هـ. فهل وقع هنا تخطيط أم ان الحكاية هنا كلها ملفقة ؟

(2) المعروف أن أصل أولاد النقسيى من النقاقسة، وهو مدشر واضح فى فرقة العنصر من قبيلة بنى يدر المتصلة بقبيلة بنى حزم .

كلمة الله سبحانه بعد ذلك التاريخ، فشلت الدولة السعدية، وذهبت ريحها وضعف شأن ملوكها، فزالت هيبتهم من القلوب، وانتهز الفرصة بعض أصحاب الآمال والأغراض المختلفة، ما بين صالح منها وفاسد، فقاموا بثورات مختلفة الغايات، وكانت نية بعضهم حسنة، فتقدم للجهاد، وتدارك الانحلال وإصلاح الفساد، وكان نظر البعض الآخر قاصرا فلم يكن يهيمه إلا التسلط على الرقاب والتحكم في البلاد والعباد .

وبذلك أصبحت كل جهة من جهات المغرب مستقلة بنفسها، منفصلة عن باقي الجهات في أحكامها، وبقي الحال على ذلك زمنا طويلا سماه بعض الناس بزمان الفترة .

وفي هذا الوقت كانت ناحية تطوان أيضا كغيرها من بقية نواحي المغرب مستقلة بنفسها، وكان الحكم فيها بيد زعمائها المقدمين من أولاد النقسييس، فكانوا هم القائمين فيها بالحكم الداخلي، وبحراسة الأمن، وبالجهاد والرباط في الحدود دفاعا عن حوزة الوطن وحفظا له من الاحتلال الأجنبي . وفي الحين نفسه، كانت لهم علاقات دولية وارتباطات قانونية، كما ستطلع عليه فيما بعد بحول الله .

والمقدم المجاهد أحمد بن عيسى النقسييس، هو أشهر أفراد هذه العائلة في التاريخ، وهو أقدم من ورد اسمه في الكتب الصحيحة الموثوق بصحة أخبارها. وقد تقدم لنا عن كتاب الاستقصا (I) أنه أوقع بنصاري مدينة سبتة ، وكاد يفتحها سنة 996 هـ. فالمقدم أحمد بن عيسى كان مجاهدا بل زعيم المجاهدين المنتصرين عام 996 كما ترى، إلا أنه لم يكن متوليا حكم تطوان في ذلك العهد، وقد تقدم لنا نقلا عن كتاب «مناهل الصفا» أن المقدم المذكور - وهو الذي تولى تنظيم وقعة سبتة المذكورة - كتب إلى قائد تطوان يستحثه على الحاق به والتعاون معه على الإيقاع بأهالي سبتة، الخ. مما يدل على أن قائد تطوان في ذلك العهد، كان شخصا غيره .

وقد سبق لنا عن سرديرة أن القائد محمدا النقسييس، لما أسند إليه أمر تطوان عام 1006. استعان بقريبه المقدم أحمد المذكور، على استرجاع الأمن والسكينة، فقضيا على المعتدين من أهل الجبال في مدة قصيرة، كما سبق لنا أنه أيضا أن القائد محمدا النقسييس، لما توفي عام 1019 خلفه في حكم تطوان ابن عمه المقدم أحمد بن عيسى النقسييس. فإذا ثبت ذلك، فإن ولاية المقدم أحمد على تطوان كانت في التاريخ المذكور، أي عام 1019 هـ.

على أن الذي وجدته في مجموعة الكونت هنري دي كاستري، أن المقدم أحمد النقسييس كان حاكما بتطوان قبل ذلك التاريخ أي في II غشت سنة 1608 م. وهذا التاريخ يوافق 28 ربيع الثاني عام 1017 هـ. فإذا ثبت ذلك فإن المقدم أحمد يكون قد تولى حكم تطوان عام 1017، أو قبله. ولكن كيف يتفق هذا مع ما تقدم من أن محمدا النقسييس توفي عام 1019 ؟ إن من المحتمل أن وفاة محمد النقسييس تقدمت عن عام 1019، كما أن من المحتمل أن المقدم أحمد تولى الحكم بتطوان في حياة قريبه محمد، كما أن من المحتمل أيضا أن المخابرة التي وقعت بين السلطان محمد الشيخ والمقدم أحمد بن عيسى قبل سنة 1019 - كما سيأتي - إنما كانت بصفته مقدما وزعيما للمجاهدين بتطوان وناحيتها، وإن كان المتولى لحكم هذه المدينة، هو قريبه محمد النقسييس، وكذلك ما ورد من وصفه بحاكم تطوان، إنما هو من هذا القبيل والله أعلم .

(من أخبار تطوان ونواحيها في عهد المقدم أحمد النقسييس)

1 - فذلكة تاريخية عن الشيخ المامون السعدى

يقول لنا المؤرخون : إن السلطان أحمد المنصور السعدى قد فرق عمالات المغرب على أبنائه، فاستعمل الشيخ المامون على فاس والغرب وولاه عهده ، واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها، ولما أراد الخروج من مراكش الى فاس استخلف ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها، ثم قصد ولده الشيخ الذى كان سنىء السيرة فاسد الاخلاق، وكان قد أرشده ونهاه فلم ينته، فقبض عليه وسجنه بمكناس .

ثم انتشر بالمغرب وباء عظيم، فأصيب المنصور به وتوفى بفاس سنة 1012 وبأثر موته بايع أهل فاس ولده زيدان الذى كان معه بفاس، وبايع أهل مراكش ولده أبا فارس، لأنه هو الذى كان خليفة أبيه بعاصمة ملكه مراكش، ونشأ عن ذلك أن صار كل واحد من الاخوين يستعد لمحاربة أخيه، فلما صبح العزم على القتال، أخرج أبو فارس أخاه الشيخ من سجنه وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصيح له والطاعة وعدم شق العصا، فوعده الشيخ بذلك وخرج لقتال أخيه زيدان، والتقى الجمعان فانهزم زيدان، ثم فر الى تلمسان، ثم دخل الشيخ مدينة فاس، ونكت عهد أخيه أبى فارس، ودعا أهل فاس لنفسه فبايعوه، واستبد هو بالامر وانفرد بالسلطة، ولم يكتف بذلك، بل ألف جيشا أمر عليه ولده عبد الله وبعثه لقتال أخيه وولى نعمته أبى فارس بمراكش، وتقاتل الجيشان فانهزم أبو فارس، ودخل عبد الله مراكش، فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد .

ثم ان السلطان زيدان، رجع الى المغرب، فاستدعاه أهل مراكش وبايعوه وقامت بين الاخوة المتنازعين حروب كانت أولا سجالا بينهم، ثم انهزمت جيوش الشيخ وولده عبد الله، ودخلت فاس فى طاعة زيدان، ففر الشيخ الى العرائش ومنها ركب البحر الى ملك اسبانيا (I) مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان، وكان ذلك عام 1017 هـ. موافق سنة 1608 م.

ويقول الناصرى فى الاستقصا (2) : «ان ملك اسبانيا أبى أن يمهده فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنا ويعينه بالمال والرجال، حتى اذا ملك أمره، بذل له ما شارطه عليه، ولم يزل به الى أن شرط عليه أن يخلي له العرائش من المسلمين ويملكه اياها، فقبل الشيخ ذلك والتزمه ، وغادر اسبانيا ونزل بحجر باديس فى ذى الحجة عام 1018 هـ. ثم تقدم فى بلاد الريف». وفى كتاب تاريخ الدولة السعدية (3) ما نصه :

واما مولاى الشيخ، فانه لما استقر عند النصارى ولقيه قوادهم وعقد الكلام معهم على بيع العرائش، وأعطى المرهن فى ذلك أربعة من أولاد سودخا نيس، فلما اتفق النصرانى على ذلك وهاداه، .. وعده أن يعطيه العدة وما يحتاج اليه من المال، فطلب منه الركوب فى البحر والخروج فى تطاون، فاذن له فى ذلك النصرانى، فخرج الى أن أشرف على تطاون وأراد النزول عليها، وكتب الى المقدم أحمد بن عيسى المدعو النقسيى رحمه الله يعلمه بذلك، فرد له فى الجواب كلاما قبيحا وأغلظ له فى القول ومنعه مما طلب، فتأخر عن تطاون وخرج فى بادس (من بلاد الريف) عند القائد محمد بن يحيى أعراص، فلما وصل الخبر لولده عبد الله سبه وشتمه ودعا لنفسه فتوبع على ذلك.

2 - استيلاء الشيخ السعدى على تطوان .

ثم ذكر صاحب تاريخ الدولة السعدية (4) ان الشيخ ارتحل من جبال الريف وسار الى أن نزل على مدينة تطاون واتصل بأهل الفحص وأعطاهم أموالا كثيرة فأطاعوه وخدموه .

(I) ملك اسبانيا فى ذلك العهد هو فليپ الثالث الذى ولد سنة 1578 م وتولى الملك بعد ابيه فليپ الثانى سنة 1598 م. وهو الذى طرد من اسبانيا من بقى بها من المسلمين وعددهم نحو المليون، وقد مات سنة 1621 م.

(2) الاستقصا ج 3 ص 105.

(3) ص 92 طبعة الرباط سنة 1353 هـ. 1934 م.

(4) ص 94

وفى نزهة الحادى (I) والاستقصا (2) أنه نزل بالفحص واجتمعت عليه أمة من أهل الذعارة والفساد» والعتو والعناد، على شاكلته فعتا فى البلاد على عادته، ورحل لتطوان فأخذها وخرج منها المقدم احمد النقسيس هاربا .

3 - خروج المقدم احمد النقسيس من تطوان

ويظهر ان الشيخ كانت معه قوة كبيرة لم يستطع المقدم النقسيس مقاومتها، ولم يرض بالخضوع له، فخرج من تطوان واعتصم فى قبيلة بنى سعيد بزاوية سيدى، احمد الفيلالى (3) وقد اجتمع عليه نحو اربعين رجلا من المجاهدين .

وقد سعى الشيخ المامون فى قتل المقدم النقسيس، وخصص لمن يأتيه برأسه مالا عظيما فلم يتمكن من مراده .

4 - ولاية القائد حمو بودبيرة على تطوان

ولما تم الامر فى تطوان ونواحيها للشيخ المامون ونفذ تسليمه العرائش للفرنجة كما سيأتى، سلم حكم مدينة تطوان لقائده المشهور حمو بودبيرة. وهذا القائد كان من خاصة أنصار الشيخ، وقد سبق له أن كان حاكما على فاس ومن أخباره بها أنه لما قام الشريف مولاي أحمد بن ادريس ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف اليه أقوام وعزموا على التوجه لذلك، فت فى عضدهم ذلك القائد، أعنى حمو بودبيرة، وصرف وجوههم عما قصدوه (4) .

(I) ص 169

(2) الاستقصا ج 3 ص 106 .

(3) هكذا جاء فى تاريخ الدولة السعدية (ص 94) والمعروف لدينا أن ضريح الشيخ سيدى احمد الفيلالى يقع فى أعلى الجبل قرب مدشر تفرزة من قبيلة بنى بوزرة التى هي احدى قبائل غمارة، كما أن ضريح الشيخ سيدى احمد الغزال يقع على شاطئ البحر فى جماعة ترغة من قبيلة بنى زيات الغمارية، وضريح الشيخ سيدى محمد البوزيدى يقع على شاطئ البحر أيضا قرب مدشر تكيسات من قبيلة بنى زيات المذكورة، وهؤلاء الشيوخ الثلاثة كانت لهم مكانة عظيمة لدى قبائل غمارة الواقعة فى الجنوب الشرقى لتطوان بحيث ان من احتذى بأضرحتهم يدافعون عنه بدمائهم وارواحهم .

(4) نزهة الحادى ص 169 .

5 - من أعمال الشيخ السعدى فى تطوان ونواحيها

وجاء فى كتاب تاريخ الدولة السعدية ايضا (I) ما ملخصه ان من أعمال الشيخ فى هذه الناحية، قتله لمراد برتقيش، وهو رجل تركى من سكان تطوان، وكانت له فركاطة يغير بها على سواحل الافرنج ويتعرض لمراكبهم فيأخذ ما فيها ويعود الى تطوان بالغنائم أربع مرات أو خمسا فى كل شهر، وقد تضايق من أعماله سكان سبتة وجبل طارق فرفعوا أمره الى الشيخ فأوعز بقتله فقتل ليلا وأخفيت جثته، وقد أرسل الافرنج للشيخ هدية نفيسة جزاء له على اراحتهم من حارس البحر (مراد برتقيش).

ومن أعمال الشيخ بهذه الناحية أنه أعلن بين الناس أنه عقد مع الافرنج هدنة لمدة اربعين سنة، وأمر الناس بالكف عن الجهاد، فامتل بعض المتقدمين أمره ومنهم بعض أولاد بو الليف وأولاد حسينو، فوزع عليهم اراضى للحراثة، ثم صار يغرى بعض المتقدمين بالبعض الآخر فكثر الهرج بينهم، واحتدم القتال، ومات بسبب ذلك من المجاهدين والمقدمين رجال وابطال.

ومن أعمال الشيخ ايضا. ان بعض الاسارى المسلمين كانوا تحت يد برتغال طنجة، فوجدوا فرصة هربوا فيها فما كان من الشيخ الا أن قبضهم وردهم مع وصفانه الى يد البرتغاليين.

6 - اخراج بقية المسلمين من الاندلس عام 1018 هـ.

وجاء فى كتاب تاريخ الدولة السعدية أيضا (2) أن بعض المسلمين الذين تخلف آباؤهم وأجدادهم بالاندلس بعد استيلاء الافرنج عليها، كتبوا من اسبانيا الى الشيخ وأبلغوه أنهم أقوياء، وأن جلهم فى الجيش، وان عددهم نحو ثمانية آلاف رجل، وعرضوا أنفسهم عليه للمقيام بالثورة ضد الافرنج وارجاع الحكم الاسلامى الى الاندلس، (وكانت الفرصة مساعدة على ذلك لو كان هناك استعداد من ملك المغرب، لان ملك اسبانيا فى ذلك العهد وهو فيليب الثالث كان منهمكا فى ملاذ، وكانت دولته منهوكة القوى بسبب الحروب التى توالى عليها، فما كان من الشيخ الا أن فضح أسرار مسلمى الاندلس، وأبلغ أخبارهم الى ملك الافرنج وأشار عليه باجلائهم، ففرض الافرنج على أولئك المسلمين أموالا طائلة لا قبل لهم بها وعذبوهم وشردوهم ثم اجلوهم فتوزعوا فى أراضى المشرق والمغرب، وكان ذلك عام 1018 هـ. (1610 م).

وقد تعرض المقرئ فى نفح الطيب (I) لخبر هذا الجلاء الذى كان فى عصره وذكر أنه كان أعوام سبعة عشر والـ (2) وأن أولئك المهاجرين الاندلسيين، ذهبوا الى فاس وتلمسان وتونس وتطاون وسلا ومصر والشام والقسطنطينية، وقد استخدم سلطان المغرب من المهاجرين منهم الى المغرب عسكريا جرارا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن الخ .

وذكر أبو محمد سكيرج أن الاندلسيين الذين وفدوا على تطوان فى ذلك العهد، هم الذين بنوا الحومة التى تدعى السانية فى أعلى حومة العيون وأنها أى حومة السانية، كانت تدعى «رباط الاندلس» وأن ذلك البناء كان فى حدود سنة 1020 .

7 - تسليم العرائش للاسبانيين عام 1019

ومن أعمال الشيخ فى شمال المغرب، تسليمه مدينة العرائش للاسبانيين وقد ذكر ذلك اليفرنى فى نزهة الحادى (3) والناصرى فى الاستقصا (4) والقادرى فى نشر المثنى (5) وصاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية (6) وملخص ذلك، أن الشيخ لما استقر فى فج الفرس (7) وطال هناك مقامه انتقل الى مدينة القصر الكبير، وراود قواده ورؤساء جيوشه على أن يقفوا معه فى تمكين الافرنج من العرائش ليفوا له بما وعدوه به من النصرة بالمال والرجال، فامتنع الناس من اسعافه على ذلك ولم يوافقوه على غرضه الا قائده الجرنى (8) فانه ساعده، فبعثه الشيخ لها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحدا من المسلمين، فذهب الجرنى وكلم أهلها فى ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها، فقتل منهم عدة وخرج الباقيون تخفق على رؤوسهم ألوية الذل والصغار وهم يبكون،

(1) ج 2 ص 617 طبع مصر عام 1302 ونقله فى الاستقصا ج 3 ص 101 .

(2) لعل ابتداء ذلك الجلاء كان عام 1017 وانتهاه عام 1018 .

(3) ص 168 طبع فاس .

(4) ج 3 ص 105 .

(5) ج 1 ص 108 .

(6) ص 96 .

(7) فج الفرس موضع قرب طنجة

(8) فى نزهة الحادى وتاريخ الدولة السعدية (الجرنى) وفى الاستقصا

الكرنى - ويظهر أن هذا الحرف ينطق به كالجيم المصرية .

ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الجرنى الى أن احتل بها النصارى وذلك فى رابع رمضان من عام ١٠١٩ (١)

وذكر المؤرخ منويل كاستيانيوس الاسبانى (٢) أن الاسبانيين الذين احتلوا العرائش فى هذا العهد، كان عددهم ثلاثة آلاف رجل، وأنهم ذهبوا اليها بحرا فى تسعة مراكب عام ١٦١٠ (موافق عام ١٠١٩).

وقال اليفرنى فى نزهة الحادى (٣) وكان الشيخ لما خاف من الفضيحة وانكار العامة والخاصة عليه اعطاء العرائش بلاد الاسلام للكفار، احتال على ذلك بأن كتب سؤالا لعلماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل ببلاد العدو الكافر واقتحمها كرها بأولاده وحشمه، منعه النصارى من الخروج من بلادهم بعد أن دخلها حتى يعطيهم بلاد العرائش، وأنهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك عندهم أولاده رهنا حتى يمكنهم مما ارادوه، فهل يجوز أن يفدى اولاده من أيديهم باعطائها لهم أم لا ؟ فأجابوه بأن فداء المسلمين، سيما أولاد أمير المؤمنين، سيما أولاد سيد المرسلين وخاتم النبيئين، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم من يد العدو الكافر، باعطاء بلد من بلاد المسلمين للعدو الكافر جائز، وانا موافقون على ذلك هـ.

ووقع هذا الاستفتاء بعد أن وقع العطاء ، وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك الا خوفا على نفسه. وقد هرب جماعة من تلك الفتوى كالامام أبى عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر الشهيرة على المختصر، وكالامام أبى العباس أحمد المقرئ صاحب نفح الطيب، فاختفيا مدة مديدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما، وبسبب هذه الفتوى أيضا هرب جماعة من علماء فاس للبوادى كالامام سيدى الحسن الزياتى شارح الجمل، وكالامام الحافظ أبى العباس أحمد بن يوسف الفاسى وغيرهما هـ. ويرحم الله أولئك العلماء الحقيقيين المخلصين لدينهم، الذين لم يخونوا وطنهم بمساعدة الحاكم الظالم على ضلاله وهواه، ففازوا برضى الله وخلود الثناء عليهم من الناس.

(١) هكذا فى نزهة الحادى ونقله النصارى فى الاستقصا، ومثله فى نشر المثانى وذلك التاريخ يوافقه يوم السبت ٢٠ نوفمبر سنة ١٦١٠. وفى تاريخ الدولة السعدية، أن ذلك كان يوم السبت ثامن رمضان ١٠١٩ والذي يوافقه هو ٢٤ نوفمبر ١٦١٠ م. وذلك خطأ لان يوم السبت كان هو رابع رمضان ذلك العام لا ثامنه، ولان الثابت فى التواريخ الافرنجية هو يوم ٢٠ نوفمبر لا - ٢٤ - منه والله اعلم .

(٢) ص ٤٠٠ من طبعة طنجة سنة ١٨٩٨ م.

(٣) نزهة الحادى ص ١٦٩. ونقله فى الاستقصا ج ٣ ص ١٠٥ .

8 - قتل الشيخ وقائده فى ناحية تطوان.

وأخيرا قتل السلطان الشيخ المامون وقائده حم بودبيرة فى نواحي تطوان عام 1022 هـ (1613 م) وبيان ذلك أن أهل تطوان ونواحيها لما رأوا الأعمال الفظيعة التى سطرنا بعضها وعرفوا حقيقة نية الشيخ وسوء تدبيره وفساد أخلاقه، تمالأوا على قتله وإراحة البلاد والعباد من شره، وذلك جزاء الظالمين وقد حكى ذلك صاحب نزهة الحادى (1) والناصرى (2) وصاحب تاريخ الدولة السعدية (3) وملخص ما عندهم، أن السلطان الشيخ لم يزل يجول فى بلاد الفحص ويعسف بأهلها الى أن ملته القلوب وتمالأ أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته وتمليكه بلاد الاسلام للكفار، فاجتمع منهم المقدم محمد الصغير بو الليف والمقدم أحمد النقسييس وغيرهما، وتكلموا فى ذلك فكانت بينهم ملاقاتة وعهود، وكتبوا تدبيرهم الى يوم معلوم، فأصبح المقدم أحمد بن عيسى النقسييس على تطاون، فقتل فيها القائد حمو بودبيرة واخوانه، وسبى أموالهم، وأصبح المقدم أبو الليف على المحلة فقتل السلطان الشيخ فى وسط محله فانتهدت تلك المحلة وتفرقت جموعه. وكان قتله فى محل يعرف بفج الفرس يوم الثلاثاء سادس وعشرى رجب عام 1022 (4) وبقي الشيخ مطروحا مكشوف العورة خمسة ايام بلياليها والناس يترددون عليه لمشاهدته على تلك الحال والتحقيق من مآل من خان الله والرسول وباع أرض المسلمين للعدو الكافر، حتى خرج جماعة من أهل تطوان فحملوه مع من قتل معه كالدبيريين رهط القائد حمو بودبيرة وبعض أولاده ودفنوهم خارج تطوان الى أن حمل الشيخ الى فاس الجديد مع أمه الخيزران فدفنا به .

وفى نزهة الحادى والاستقصا أن السلطان الشيخ كان له مال كثير انتهب كله، ومن جملته نحو مد من الياقوت، وأنه بقى من أثاثه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة، فاستولى عليه نصاراها من البرتغال عند موته .

هكذا روت الكتب الثلاثة المذكورة صفة قتل السلطان الشيخ ثم نقل الناصر فى الاستقصا (5) عن منويل المؤرخ الاسبانى فى كيفية قتله، أنه

-
- (1) نزهة الحادى ص 169
 - (2) الاستقصا ج 3 ص 106
 - (3) تاريخ الدولة السعدية ص 97
 - (4) هكذا فى تاريخ الدولة السعدية ص 97. والذى فى نزهة الحادى ونشر الثانى والتقاط الدرر والاستقصا أن قتله كان فى خامس رجب 1022 .
 - (5) الاستقصا ج 3 ص 106.

وصل الى قرب تطاوين وبنى هناك أفراكا وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه، ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج الى عين ماء هناك، فاستلقى قربها فى نبات أخضر أعجبتة خضرته، فجاء أناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشذخوا رأسه فقتلوه الخ» ولا منافاة بين الروايتين فيما نرى والله اعلم.

9 - السلطان عبد الله بن الشيخ يحاصر تطوان

وكان عبد الله ابن الشيخ فى أواخر حياة أبيه مستوليا على فاس، وكان تحت أمره ونهيه يصغى له ولا يقطع أمرا دونه، فلما بلغه خبر قتل والده، استبد بفاس وما انضاف اليها، وعزم على الاخذ بشار أبيه من قاتليه أولاد أبى الليف وأزمع المسير اليهم، ووافق على ذلك زعيما فاس وهما الشريف أبو الربيع سليمان، والفقيه المربوع وأصحابهما، وامتنعت العامة من الذهاب معهم، لان الشيخ لم تبق له فى نفوس المسلمين مودة، حيث باع العرائش للنصارى، فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع، واتخذوا رؤساء آخرين، فوقع بسبب ذلك شر عظيم أدى الى قتل الشريف مولاي ادريس بن احمد الجوطى العمرانى، وسبب ذلك أن منادى أبى الربيع مر ينادى فى السوق باستنفار الناس مع عبد الله ابن الشيخ فقام اليه الشريف مولاي ادريس وضربه بعصا وسبه، فأقبل أبو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاي ادريس دار القيطون وقتلوه على خصتها، ثم بعد مدة قتل أبو الربيع المذكور الخ (I). وهكذا كان الشيخ مشئوما على الناس فى حياته وبعد مماته والعياذ بالله.

وفى نزهة الحادى (2) والاستقصا (3) «أن السلطان عبد الله بن الشيخ عادت دولته بفاس الى شبابها واستتب امره وتمهدت له البلاد ودانت له العباد، وذلك فى جمادى الاولى عام 1027 (موافق مايو 1618) بعث بعض جنده لحصار تطوان للاخذ بشار أبيه من الذين قتلوه».

ونحن نعلم أن الذى كان حاكما بتطوان فى ذلك العهد هو المقدم أبو عباس احمد بن عيسى النقسييس، وكان هذا الحاكم غير خاضع لحكم السلطان عبد الله المذكور. والمصادر العربية التى بين ايدينا لم تذكر كيف كان حصار جند السلطان عبد الله لتطوان وكيف انتهى ذلك الحصار، الا ان المستعرب الاسباني «سرديرة» ذكر ان المقدم أحمد النقسييس رد جميع الهجمات التى قام بها جند السلطان المذكور على تطوان.

(I) الاستقصا ج 3 ص 120

(2) نزهة الحادى ص 202

(3) الاستقصا ج 3 ص 121

والذى يظهر من المستندات الانجليزية التى ستأتى، أن العلاقات بين الطرفين قد تحسنت فى الجملة بعد ذلك التاريخ، وصار المقدم النقيسى يعترف بالسلطة الاسمية للسلطان عبد الله .

بين الانجليز وتطوان

- قراصنة وأسارى .

- علاقات ومراسلات .

- تقارير ومساعى .

كانت بلاد المغرب فى جل الثلث الاول من القرن الحادى عشر للهجرة (الموافق للربع الاول من القرن السابع عشر للميلاد) واقعة فى شبه فوضى حكمية، اذ توفى السلطان أبو العباس احمد المنصور السعدى فوق بين ابنائه نزاع فى الحكم «كما تقدم» وأراد كل واحد من أولئك الابناء أن يقضى على الآخر ليستبد هو بالامر، فكانت فتنة، وكان قتال وانتصار وانهزام .

وكانت الحالة أمام الشواطىء البحرية المغربية غير مستقرة ولا مأمونة فالمرائب تغدو وتروح مترصدة، والقرصان المسلحون - من المغربيين والافرنج - يهجمون على سفن اعدائهم فيأخذون ما يجدون فيها من سلع، ويسترقون من فيها من أحرار، يبيعونهم أو يستخدمونهم كالعبيد ولو كانوا من الاشراف والاعيان، لا فرق فى ذلك بين المسلمين والمسيحيين .

والاوربيون المسيحيون هم الذين يصرحون بأنهم هم الذين علموا المسلمين هذه القرصنة - اى اللصوصية البحرية - فقد جاء فى الفصل الثامن والعشرين من تقرير لجون سميث JOHN SMITH الانجليزى المكتوب سنة 1604 م (1012 هـ) ما يلى : (I)

«أحوال القراصنة وحياتهم السيئة، وكيف علموا الاتراك

والمغاربة أن يصبحوا رجال قرصنة»

... الآن حيث ان هؤلاء نشأوا مبغضين لكل الامراء المسيحيين، فانهم لجأوا الى أرض البربر ولو أنه ليس هناك كثير من المرافىء الصالحة، الا أن تونس والجزائر والمعمورة وتطوان، كانت مسالك هامة على البحار المفتوحة حيث سيادتهم الرئيسية. وأحسن مرافئهم «ماس الكبير» ومدن وهران وملييلة وطنجة وسبتة على الخطوط المستقيمة المملوكة للاسبان، وغير هذه الرؤوس

فلهم أيضا أصيلا ومازغان (الجديدة). أما المعمورة فكذلك قد امتلكوها قليلا وحصنوها (I).

وورد، البحار الانجليزى الفقير، ودنسكرو، ورجل جرمانى قد أقاموا هناك أولا مرسى حيث تعلم المغاربة كيف يبحرون بسفينة، وكان بيشوب قديما قد أحدث بعض الضرر، ولكن ايستون استطاع بقوة أن يجعل نفسه سيدا فى سينغويا، وعاش ورد كباشا فى أرض البربر. هؤلاء هم الذين كانوا أولا قد علموا المغاربة أن يصبحوا رجال الحرب فى البحر... الخ

وقد تعرض HENRY MAINWARING هنرى ماينوارينج الانجليزى فى مذكراته التى كتبها سنة 1618 م (1027 هـ) للقراصنة ومرفأ تطوان فقال : (2) «وفى تطوان أول مدينة على جانب الداخل الى بلاد البربر، يستطيع القرصان أن يسقوا، ولهم الخليج المتدفق الطيب ومخزن البارود الذى يجلب معظمه التجار الانجليز والالمان، كما يبيعون هناك بضائعهم جيدا حيث يرسون بسرعة وينزلون بضائعهم بواسطة قوارب المدينة، ولكن ليست هناك قيادة إلا أن يعتمد على رعايتهم وقد يقيمون أيضا فى الأرض الوحلة، ويجب أن يقلع للابحار اذا ما هبت الرياح الشرقية للابيض المتوسط، والاهالى هنا عادلون جدا وأمناء الخ.

ثم ان تطوان فى ذلك العهد، كانت - كما علمت - غير خاضعة لسلطان قاس، وكان حاكمها هو المقدم احمد بن عيسى النقسيى كما علمت ايضا. وكانت السفن الاجنبية التى ترد على ميناء تطوان، تطلب الاذن بالرسو فيه من الحاكم المذكور، فكان يمنحها جوازا خاصا بذلك وكانت من جملة السفن التى وصلت الى ميناء تطوان، ورسا رئيسها فيه بجواز من هذا القبيل، سفينة القبطان توشينج TOUCHING الانجليزى الا أن هذا القبطان لم يحفظ العهد، بل انتهز احدى الفرص وسطا على مركب لاولاد النقسيى الحاكم المذكور فاخذه وحرب به وبجميع ما فيه من اشخاص وسلع. وقد استاء المقدم احمد النقسيى من غدر ذلك القبطان بعد ان وثق به وسمح له بالنزول فى بلده.

ثم بعد ذلك وصل الى ميناء تطوان مركب انجليزى آخر ونزل منه جورج فريزويل GEORGE FRISWELL الانجليزى بدون اذن من النقسيى، فألقى عليه القبض انتقاما من عمل توشينج القبطان الغدار، وصادف الحال وجود ثمانية من الاسارى الانجليزيين بتطوان وكانوا يباعون ويشترون فيها كالعبيد. وذات يوم خرج مركب من ميناء تطوان وبه أناس من الاندلسيين المقيمين بهذه

(I) امتلكها الاسبان سنة 1614

(2) المجموعة الانجليزية لكاسترى م 2 ص 507

المدينة، فسطا عليهم اسطول انجليزى يقوده الاميرال روبرت مانزيل SIR ROBERT MANSELL فأسرههم مع مركبهم، ثم جاء الاميرال المذكور الى مياه تطوان وتخابر مع النقسيس حاكم المدينة فى شأن تبادل الاسرى الذين لدى الطرفين، فلم يصلا الى نتيجة، فأبحر الاميرال المذكور الى مدينة أليكانطى باسبانيا، وباع بعض اولئك الاسارى التطوانيين، وترك البعض الآخر فى ميناء قادس باسبانيا تحت اشراف جون دوبا الانجليزى. وجاء جون دوبا هذا الى تطوان وتخابر مع النقسيس من جديد فى شأن تبادل الاسرى، وعقد اتفاق بين الطرفين، التطوانى والانجليزى. وقد وقفنا على وثائق انجليزية واسبانية مهمة تتعلق بهذا الموضوع وفيها زيادة تفصيل وبيان (I)

جاء فى مجموعة م دى كاسترى من رسالة كتبها م والتر أسطون الانجليزى FRANCIS NETHERSOLE (2) الى م فرنسيس نثرسول (3) ما يأتى تعريبه

«... سير روبرت مانسيل مع ذلك الاسطول الذى هو الآن بجبل طارق حيث أنه - كما يبدو - عازم على ترتيب سفنه، وقد استولى أخيرا قسم من الاسطول على سفينة صغيرة للاتراك، ولكن مع هذا فان بعض رجال الحكومة من الحربيين قد كافحوا فى المعركة، وقد كانت الغلبة مقسمة بينهم وكانت الحرب بينهما سجالا، وقد أعلمت الآن من جديد بمهمة أخرى عظيمة وهى أن بعض الانجليز قد أسروا فى سفينة فى طريق تطوان، ولهذا فان السير روبرت مانسيل - كما أرجو - سيجيب بكل الطرق بما يتوقع منه - مدريد 12 مارس سنة 1620 (وهذا التاريخ يوافق 7 ربيع الثانى عام 1029).

فالسير روبرت مانسيل الانجليزى كان رئيس اسطول انجليزى، وكان يسطو على المراكب البحرية ويستولى عليها بما فيها، وهذا يدل على أن

(I) هذه الوثائق موجودة فى المجلد الثانى من المجموعة الانجليزية عن الدولة السعدية، تأليف الم. هنرى دى كاسترى الفرنسى : LES SOURCES INÉDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC PAR HENRI DE CASTRIES PREMIÈRE SÉRIE DYNASTIE SAADIENNE ANGLETERRE TOME II-1925 وقد ترجم لنا نصوصها الانجليزية صديقنا الاستاذ محمد بن تاوينة التطوانى (شيخ المعهد الدينى العالى بتطوان فى ذلك العهد) كما ترجم لنا ما فيها من النصوص الاسبانية، صديقنا الاستاذ حسن عسيان اللبناى قنصل دولته فى أواسط افريقيا حينما كان مقيما بتطوان موظفا فيها بإدارة المعارف اثناء رئاستى لها فى العقد الخامس من هذا القرن (الميلادى)

(2) والتر أسطون كان سفيرا لانجلترا باسبانيا من سنة 1620 الى 1625 ثم من سنة 1635 الى سنة 1638 .

(3) ص 516 .

القرصنة أى اللصوصية البحرية كانت شيئا عاديا، وكانت متبادلة بين الطرفين الانجليزى والمغربى ، وبعبارة اصح . انها كانت متبادلة بين المسيحيين، انجليز وغيرهم ، والمسلمين مغربيين وغيرهم .

وجاء فى رسالة اخرى من والتر اسطون ايضا الى جورج كالفيرط
GEORGE CALVERT ما يلى : (I)

«منذ أن بعثت (أنت) بواسطة ذينك الرسولين الى السير روبرت مانسيل الذى كنت (أنا) كذلك قد كتبت اليه معهما، لم اسمع عنه اى شىء ولا تلقيت عنه اى خبر بأن هذين الرسولين قد وجداه ولو انى أظن أن أولهما الذى ذهب الى جبل طارق قد سلمه الرسائل هناك ، وفهمت من رسائل متعددة لبعض التجار انه يهتم قريبا باتيان ذخيرته من انجلترا .

وقد أعلمت من مالقة بان السير روبرت له علم بمراكب تركية معينة بحمولتها الفنية فى وادى تطوان وهى الان فى الاستعداد للابحار الى الجزائر وقد ارسل اليها مائتين وخمسين من احسن رجاله وانضم اليهم كثير من الرجال واغلبهم من الجنود الذين قدمهم اليه حاكم سبتة مزودين بالقوارب التى كانت معدة للتمرين ، وذلك على امل ان يفاجئهم (يعنى رجال المراكب التركية التى بميناء تطوان) ولهذا اذا كان هذا الاعلام حقيقة ، فنحن عما قريب سندرك نجاحهم ، اما تبليغى فانه يقول ، ان هذه القوات قد انفصلت عن الاسطول فى 26 غشت ، فاعل سعادتك ستسر من اعلام سيدى الاميرال بهذا الصدد ، ولهذا فانى لا ازعج الآن سعادتك بأى مكتوب آخر .

مدريد 5 سبتمبر سنة 1621 . (يوافقه 18 شوال عام 1030) .

فالقرصنة كانت منظمة ، وكانت للقرصان استعلامات واستخبارات يشترك فيها اللصوص والتجار، ويتتبعها ويساعدها حتى السفراء والوزراء الرسميون كما ترى .

والمعلومات التى ذكرها السفير اسطون فى رسالته السابقة ، كانت صحيحة اذ ان المراكب التركية المذكورة قد خرجت من تطوان محملة بالسنع والمسافرين فتعرض لها الاميرال مانسيل المذكور واستولى عليها ، وممن كان بها من اهل تطوان ، أناس أندلسيون باعوا امتعتهم ليهاجروا الى بعض اهلهم بالجزائر كما سترى تفصيله بحول الله.

وجاء فى كتاب بعثه المقدم احمد النقسييس (حاكم تطوان) الى والتر اسطول (سفير انجلترا بمدير) ما مضمونه (2) انه وصل جون دويا الانجليزى

(1) JOHN DUPPA الى تطوان مكلفا من الاميرال روبرت مانسيل للمفاوضة معه فى مبادلة الاندلسيين الذين اسرهم الاسطول الانجليزى ، وقبل هذا كانت قد جرت مفاوضات مع روبرت مانسيل الذى جاء الى تطوان مع اسطوله ، وقد قدم الاميرال الانجليزى للمقدم شكاية بخصوص اسر جورج فريزويل ، فاجابه المقدم بان ذلك كان انتقاما لزورق اولاده الذى اسره القبطان توشينج ، اما ما يتعلق بمبادلة الاسارى الاندلسيين الذين كانوا على ظهر باخرة روبرت مانزيل بالاسارى الانجليزيين ، فان المقدم قدم مطالب غير مقبولة وكان الاميرال قد ذهب الى اليكانطى «باسبانيا» حيث باع بعض الاسارى وبعد ذلك ابحر الى انجلترا تاركا بقية الاسرى فى قادس تحت حراسة جون دويا واثناء ذلك كان المقدم قد افتدى ثمانية عبيد انجليزيين من مواليتهم وطلب أن تقع مبادلتهم بالاندلسيين الستة عشر الذين بقوا فى قادس ، وان تجرى تلك العملية فى سبته ، وفى نفس الوقت قدم مشروع معاهدة تعقد بين تطوان والانجليز على اساس المواد الآتية :

اولا - يمنع بيع وشراء الرعايا الانجليزيين فى تطوان ، ما عدا من هو موجود منهم الآن تحت الاسر .

ثانيا - ان الاشخاص الذين يحضرون الى تطوان حاملين للجواز ، يمكنهم ان يتاجروا بحرية

ثالثا - كل مركب يغرق فى الشاطئ تكون حمولته ملكا للسلطان ، اما البحارة فيطلق سراحهم

رابعا - ان السلع التى تنزل فى تطوان يمكن بيعها بعد دفع تعريفه الاعشار .

خامسا - كل اسطول انجليزى ياتى الى تطوان ، يمكنه ان ياخذ الماء ويتمون من المدينة .

وطلب من والتر أسطون أن يعطى جون دويا تعليمات لابرار هذه المعاهدة كما طلب البحث عن القبطان توشينج ومعاقبته ، ودونك النص الكامل لكتاب المقدم احمد النقسييس (2) .

« يا صاحب السعادة ، وصل الى هنا جون دويا السيد الانجليزى للمفاوضة فى فدية الاسرى الاندلسيين الذين قبض عليهم اسطول ملك بريطانيا العظمى ، وبناء على الامر الذى عنده من قائده ، لا يمكنه ان يفديهم الا نفسا بنفس ، وعليه فانى افيد سعادتك ان هؤلاء الناس قد خرجوا كمسافرين من نهر هذه

(I) جون دويا هذا كان ترجمانا لاسطول السير روبرت مانسيل الانجليزى .

(2) الاصل باللغة الاسبانية فى ص 522 من المجموعة الانجليزية

المدينة على مركب تركى (I) واثقين من الصداقة التى حصلت، وكانوا ذاهبين الى منازلهم ولم يكونوا قاصدين الى أى مهرجان، بل كانوا تجارا يعتقدون انهم وان صادفوا أسطول الملك المذكور فلن يصيب احدا منهم ضرر ما، وعليه قلدى خروج المركب المذكور الى البحر تلاقى مع الجنرال روبرت مانزيل الذى أسرهم جميعا، وبعد ذلك وصل الى هذا المرفأ مع جميع أسطوله، وأرسل بعض رجاله الى البر للمفاوضة فى فدية هؤلاء الناس الذين أسرهم، وقد سئلت لماذا أسر جورج فريزويل فأجبت بأنه كان قد وصل قبلا الى هذا المرفأ تاجر يدعى توشينغ، وقد حصل على اذن منى فأخذ من نفس المرفأ مركبا لاولادى بمن فيه، وذهب الى مالقة حيث باع المركب والمسلمين، وبعد ذلك عند ما وصل جورج فريزويل دون الحصول على اذن منى نزل الى البر، فعند ذلك صاحت نسوة المسلمين الذين بيعوا فى مالقة وطلبن العدالة وهى أن يعتقل حتى يطلق سراح المسلمين والمركب، أما بشأن المصيبة التى حلت هؤلاء الاندلسيين فقد طلب منى الجنرال أخذ الاندلسيين والركاب مقابل الانجليزيين رعايا ملك بريطانيا العظمى الذين بتطوان، غير ان الاندلسيين وبقية المسلمين لم يقبلوا ذلك دون ارجاع الامتعة التى أخذت من هؤلاء الناس المساكين دون حق. فعلا لدى عدم قبول هذا، ذهب الاسطول وباع بعض اولئك الناس كعبيد فى اليكانطى، وبعد ذلك توجه الاسطول نحو انجلترا تاركا بقية هؤلاء الناس المساكين فى قادس مع جون دويا المذكور بحالة يرثى لها، لانهم فقراء جدا وليس لهم أقارب أو متاع فى تطوان او فى اية جهة اخرى، وقد حركتنى الشفقة فأعطيت أوامر لجمع صدقة من بين الاندلسيين توازى ثمانية انجليزيين مقابل الاندلسيين الستة عشر الذين فى قادس بقبضة جون دويا وادموند كارسون الانجليزيين (2) وعند احضارهم الى سبتة يسلمون لجنرال القوة (3) الذى يتسلم الانجليزيين الثمانية وصكا موقعا باسمى وبخط يدى ومن اولادى وقاضى المدينة وسكانها أنه لا يباع بتطوان أى انجليزى أو اسقوسى أو ارلندى من رعايا جلالة ملك بريطانيا العظمى باستثناء الاسرى الموجودين حاليا. وأن أى تاجر من رعايا الملك المذكور اذا وصل الى تطوان، يمكنه باذن منى أن ينزل الى المدينة للمتاجرة والتعاقد مع جميع التجار، سواء فى هذه المدينة او فى فاس وفى جهات أخرى من بلاد البربر، على أن يحضر سلعة جيدة، وأن يعامل معاملة حسنة دون خداع. أما اذا جنح أحد المراكب الى البر فيفهم أن محتوياته تعود

(I) هذا المركب أصله فرنسى ولكن الاتراك كانوا قد أسروه .

(2) ادمون كارسون كان قنصلا لبريطانيا فى جبل طارق

(3) هو لويس دى نورونها D. LUIZ DE NORUNHA

للملك (I) أما الرجال فيطلق سراحهم. وإذا كان تخوف من القرصان يمكن للمراكب أن تنزل بعض السلع بحرية وتبيعها بعد دفع ضريبة العشر كالعادة دون أن يؤخذ أى عبد .

وإذا وصل أى أسطول للملك المذكور الى هذا المرفأ، فيمكنه أن يأخذ الماء على حسب طريقته وما شاء من الزاد، وإذا لم يعتدوا على أحد فى البر، فيقدم لهم جميع الاحترام اللازم. وهذا ما لزم كتبناه لسعادتكم لتعطوا الامر لجون دويا المذكور ليبرم هذا العمل الطيب، وبالفعل هو كذلك وعلى المحبة واجيبونا حفظكم المولى .

تطوان 2I دجنبر 162I (يوافقه 6 صفر 103I)

وأريد من سعادتكم أن تفتشوا - وهذا تذكرته بعد ان كتبت المسطر أعلاه، ليتم كل شىء على ما يرام - وتعاقبوا من اخذ المركب الذى كان تحت حمايتى وأن يفتش عنه ويعاقب فى اسبانيا او انجلترا.

التوقيع : المقدم احمد النقسييس حاكم تطوان

وفى 28 ديسمبر 162I كتب جون دويا الى ولتر اسطون رسالة بين فيها مهمته فى تطوان ونتيجة سفره اليها، وكان مانزىل قد عهد الى كارسون ودويا بمبادلة الاندلسيين الذين أسرهم أسطوله نفسا بنفس أى بالانجليزيين الذين هم اسارى بتطوان، والا ففداء هؤلاء بالدراهم التى يقدمها اولئك فدية عنهم، وكانت المبادلة نفسا بنفس متعذرة بسبب فقر الاندلسيين الذين أسروا مع جميع ما يملكونه، وكونهم من عائلة واحدة، ولا تنتظر اية مساعدة لهم من أقاربهم الذين بقوا بالمغرب الخ .

ودونك النص الكامل لترجمة الرسالة المذكورة عن الانجليزية (2)

سيدى الفاضل المكرم.

بما أنى أعلم أن سعادتكم لكم ميول متحمسة واستعداد لكل ما فيه صالح يرجع الى بلادنا او الى حكومة صاحب الجلالة، فانى أجرؤ فى الوقت الحاضر على أن أخبر سعادتكم باجراءاتى وبما قد تم بينى وبين مقدم تطوان قريبا بحيث اذا كنت قد تخطيت حدود تفويضى فأرجو أن يعزى ذلك الى خبرتى القليلة، لا الى أى غرض جرأنى لاجل مصلحة خاصة بنفسى، وذلك جميعه يعتمد على نقد سعادتكم الملائم .

(I) المقصود هنا سلطان فاس مولاي عبد الله الذى كان المقدم النقسييس يعترف بسلطته الاسمية فى هذا العهد.

(2) نصها فى ص 525 من المجموعة الانجليزية

قد كنت أخبرت سعادتك سابقا بالتفويض الذى جعله لى وللمستر غرسون MR. GARSON السيد روبرت مانسيل SIR. ROBERT MANSEL حول الاندلسيين الذين وقعوا فى أسر أسطولنا، وهم الان مقبوض عليهم فى قالص .

اولا - انى سأطلق سراحهم مقابل الاسرى بتطوان الذين ينتمون الى حكومة صاحب الجلالة، وذلك رأسا برأس، وفى حالة ما اذا لم أستطع اطلاق سراحهم فانى سأفديهم بالمال الذى تجمع من تلك الوسيلة الى اقصى ما يفى به ذلك المال فى فداء هؤلاء الاسرى المواطنين كما سبق ذكره، لان الاندلسيين قد انكروا. ولهذا فان التبادل يبدو مستحيلا من أجل فقرهم، وان اولئك الانجليز كان أناس قد اشتروهم بأموالهم.

ثانيا - الاسرى المذكورون كانوا قد احتفظ بهم بعشرين ريوالا يوميا فى مدة اربعة أشهر، ولا يمكن أن يحصل من تطوان على وسيلة يفتدون بها . وقصة هؤلاء الاندلسيين أنهم كانوا يقطنون على رؤوس الجبال القريبة من تطوان، الى أن جاء أخ لهم من الجزائر، وبحث عن هؤلاء الذين كان اغلبهم ينتمى الى عائلة واحدة، وهم من اقربائه، فزين لهم ان يبيعوا كل بيوتهم ومواشيهم وكل ما يمتلكون، وأن ينقلوا أموالهم وما بقى لهم من بضائع الى الجزائر، فعمل هؤلاء المساكين بنصيحته فكان من الصدفة أن أتوا الى تطوان واستصحبهم الاتراك المسافرون الى الجزائر، ولما انخرطوا فى سلك المسافرين وكانوا فى عرض البحر أسروا بواسطة أسطولنا الانجليزى الذى نهب فى الحال أموالهم وبضائعهم التى كانت معهم، ولم يكونوا قد تركوا خلفهم فى تطوان بضائع أو أحدا من أقاربهم يمكنه ان يخلصهم أو أن يواسيهم، وعندئذ نظرا الى فقرهم والى فقر اسرانا الانجليز والى أنى ليست لى سلطة واضحة فى تفويضى لبيعهم ... ؟

وقد كان هناك فى قالص أحد تجار لندن ذاهبا الى تطوان واسمه طوماس أسطون MR. THOMAS ASTON صممت على أن أذهب معه املا فى أن أقوم بمفاوضة وأنا على ظهر السفينة مع الاندلسيين على أستطيع أن أحصل على نتيجة حسنة لحرية هؤلاء الناس، فلما وصلت الى هناك سمع مقدم تطوان بانى قدمت، وأنى على ظهر السفينة فبعث الي بضمانة، وكتب الي رسالة قال فيها أنه سيتداول معى حول اطلاق سراح الاسرى المذكورين وكبرهان على حسن نوايا بلاده والصنيع المختص بمواطنينا والتجار الانجليز الذين يرعون رعاية حسنة، فانه أمر برهينة ترسل الى ظهر السفينة الى ان أعود. وقد نفذ ذلك بالفعل، وفى اليوم التالى توجهت الى المدينة حيث كان المقدم قد اتى وبعث الى رؤساء الاندلسيين بالمدينة، ولما اتوا طلب

منهم فى حضور اولاده أن يجيبوا بما يرون بناء على المهمة التى جئت من أجلها وهى تحرير المنتمين اليهم (أى الاندلسيين الذين أسرتهم القوات الانجليزية) فأجابوا بأن هؤلاء الناس لا شأن لهم بهم، بل ولا اصدقاء لهم أو اقرباء بين ظهرانيهم ، ومع هذا فانهم يستطيعون أن يجمعوا من الزكوات أموالا تقى بأن يشتروا من أسرى الانجليز ثمانية . هذا كل ما سيقدمونه فأجبتهم بأننى اذا كنت أعلم أن عزمهم سيكون هكذا فانى كنت قد وفرت على نفسى تعب الاتيان من هناك ، والآن ليس لى أن أعمل من تلقاى خلاف ذلك الا ما يسمح به التفويض الموكول الى .

حينئذ قال لى المقدم بواسطة ترجمانه ما يلى :

تصريح المقدم احمد النقيس (1)

«فى كل عهد الملكة اليزابيث ELIZABETH وكثير من السنوات قبلها ومنذ أن توج صاحب الجلالة وبلادنا الريفية فى سلام وعلاقة حسنة مع الشعب الانجليزى ونحن نسعى ليستمر ذلك كما كان، ولكن حصل أن أتت عبر بلادنا سفينة انجليزية يدعى قبطانها أو رئيسها توشينج، وكما هى عادة التجار فقد طلب ضمانى ليتعامل معنا، ولكن تصادف أن كان ملكنا اذ ذاك قد نزل مع قوة من العرب أحاطت بمدينةتنا (2) بحيث انه (أى التاجر) لم يكن قادرا على انزال بضائعه حينئذ رفع المرساة وأبحر الى بعض الموانئ الاخرى حيث اكتشف فى طريقه مركبا آتيا من ناحية سبتة، فاستولى عليه وأجراه الى مالقة حيث باع كلا من الركاب والمركب، وكان هذا المركب من مراكب أولادى التى يجهزونها فى بعض الاحيان ويرسلونها الى حماية شواطئنا من سفن سبتة وطنجة، وأيضا لىباغتها اذا استطعنا، ولكنهم ما أخطأوا قط، لا فى حق الانجليز ولا فى حق الشعوب الاخرى، ولكن فى حق خصومنا الذين نحاربهم فى كل يوم.

هذا الضرر الذى لحق بنا، والذى أفقدنا أحسن دفاع عن الشواطئ البحرية، الى جانب الصرخات المتوالية من زوجات أولئك الاسارى لفقد أزواجهن الذين وقعوا فى العبودية، كان من نتيجته أن صمم أولادى ورئيس هذه المدينة (3) على أن يستعبدوا كل من ينتمى الى حكومة ملك انجلترا. وقد أحضر منهم من بيع، كما صمموا على أن يضعوا أيديهم على أول تاجر انجليزى

(I) نصه الانجليزى موجود فى صفحة 527 من المجموعة المذكورة .

(2) تقدم لنا أن حصار السلطان عبد الله بن الشيخ لتطوان كان عام

1027 هـ. موافق 1618 م.

(3) هل كان لتطوان رئيس مدنى الى جانب النقيس الحاكم

العسكرى ؟ ت. و.

يأتى الى هذه الناحية، وطبقا لذلك فقد وقعوا على أحدهم واسمه GEORGE FRISWELL جورج فريزويل وهو رجل اسكتلندى اتى هنا بسفينة راكنا الى الحرية التى كان قد نالها فى هذا البلد سابقا، فأتى الى الشاطئ بدون ضمانه منى، وقصد الى المدينة حيث وقع فى الاسر الى أن يرضى أولادى ويسترجعوا مركبهم ورجاله، أو أن يتمكنوا من وعد صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى بعقوبة توشينج TOUCHING المذكور الذى أوقع الاذى بنا والذى خرق السلام بيننا وبين الشعب الانجليزى .

والآن نعتبر أننا قد حل بنا ضرران، الاول الذى ارتكبه فى حقنا التاجر المذكور، والثانى ما قامت به القوة الانجليزية من بيع بعض الرجال واستعباد الآخرين من المسافرين المساكين الذين كانوا قد توجهوا من هذا البلد الى الجزائر، وفيما يتصل بالخصوص الاخير فأنت تقول انك لا تستطيع أن تغير الاوامر التى أسندت اليك من الجنرال الانجليزى ان لم يكن ذلك من صاحب الجلالة، سواء من انجلترا او من سفير صاحب الجلالة فى مدريد، فكلاهما يصدر اليك الاوامر الخصوصية، ومهما يكن فانى صادرا عن الرغبة فى تجديد صداقتنا السابقة مع شعبك، سأكتب الى سفير صاحب الجلالة بمدريد، ليمكنك من القدرة والسلطة حتى تستخلص الحرية. وبصرف النظر عن الاندلسيين الذين قد تركتهم فى الاسر فى مدينة سبتة، حيث انك فى المبادلة ستسلم ثمانية من الانجليز، فان على السفير المذكور أن يمكننى من الوعد بأن العدالة ستنال توشينج المذكور .

وحينئذ سواء فى سبتة أو اذا كنت ستأتى الى تطوان، فانك ستسلم رسالة ممضاة بخط يدى وأولادى وقاضى مدينة تطوان حيث انه فى الوقت الحاضر، كل له الحرية فى أن يشتري أو يستعبد أى واحد ممن ينتمون الى حكومة ملك انجلترا، ومن يوم ما توقع الرسالة المذكورة فاننا سنأمر بايقاع العقاب على كل من يشتري أو يبيع أو يستعبد أى فرد ينتمى الى حكومة صاحب الجلالة المذكور، ولكن كل هؤلاء الذين هم من الشعب المذكور وأتى بهم الى هنا باستثناء أولئك الذين هم الآن رقيق، سينالون حريتهم فى الذهاب الى سبتة او طنجة، وفوق هذا اذا صادف أن كانت هناك أية سفينة من السفن المنتمية الى حكومة ملك بريطانيا العظمى وقد طاردها القرصان الى هذا المعبر أو الى أى ساحل من السواحل التى فى حكمنا فاضطرت الى أن تلتجئ الى الشاطئ، فالسفينة والبضائع التى أمكن أن تسلم، يتصرف فيها بحرية كما يراد، أما بالنسبة الى رجالها فهم سيكونون أحرارا وينجون من العبودية او السجن .

كما أنه اذا اصببت سفينة بعطب بسبب الرياح الهوج أو الاهمال، ففي مثل هذه الحالة كل من فى السفينة والبضائع يصادر الا رجالها فأحرار . الى جانب هذا فاذا أتت من جانبكم الى طريقنا قوة تنتمى الى ملك بريطانيا العظمى، فانها ستعامل بكل كرم، وستكون لها الحرية التامة فى أن تشتري بأموالها ما تحتاج اليه من زاد وأطعمة أو أى شىء آخر مما يعرض فى بلادنا عليها، الا اذا أبدت غدرا أو ارتكبت ضررا فى حق مواطنينا.

واخيرا فان أى تاجر ينتمى الى حكومة صاحب الجلالة، يمكنه ان يتاجر فى أى ثغر أو أى مكان فى داخل حكمنا ، وكذلك اذا صادف انه لم يستطع ان يصرف بضاعته كما يرغب ، فله أن ينتقل بأية بضاعة أراد ، وأن يخرج بها من مدينتنا تطوان بعد أداء واجب الجمرك ، وحينئذ فله ان ينقل بضاعته الى فاس مثلا أو الى أى مكان آخر يرضيه .

والآن وقد سمعت قولى فى المسألة ، فانك ستتأكد بنفسك من ان السفير وقد ادرك هذه الاشياء ، سيخضع راضيا الى تخليص هؤلاء المساكين بمقتضى تلك الشروط الشريفة الملائمة . واذا كنت ستظل هنا الى ان تحصل على جواب السفير ، فانك ستقيم عندنا ضيفا لانجاز هذا العمل الذى أرغب فيه كثيرا وارى ان سيكون له الاثر الفعال فى صالح كل من الشعبين «(I)

وهكذا فانى قد أعطيت لسعادتكم بيانا عن اجراءاتى التى قمت بها مع المقدم حول الاندلسيين الذين لا زالوا فى عهدتى والآن ارجو من سعاتكم ان تمكنونى من السلطة التى اتصرف بها معهم ، واذا رأت حكمتكم طريقا احسن فانى سأسلكه بكل احتياط وكل اجتهاد ، وكذلك اذا شاءت سعادتكم فانى سأعطيكم بيانا عن عهدتى التى كانت للمستمر غرسون بما يتعلق بكل من هؤلاء اليهود الذين اذا كنت ترى ذلك لاثقا - سنتسلم منهم خمسمائة قطعة من ذوات الثمانية ، والباقى على ضمانه بعض الاشخاص القاطنين فى قالص وهم قادرون وملتزمون على تأدية الباقى من الالف قطعة من ذوات الثمانية خلال ستة اشهر ، ولذا سنكون احرارا من أى عهدة فيما بعد ، وسيكون لنا المال لتسديد ما كان قد انفق من ذى قبل ، فاذا شاءت سعادتكم فانى سأعطيكم بيانا خاصا عن الجميع .

أرجوا من سعادتكم المعذرة الخ .

28 ديسمبر سنة 1621 (يوافقه 13 صفر 1031)

والذى يقرأ هذه التصريحات الصادرة من مقدم تطوان وحاكمها ابى العباس النقسييس ، يدرك مدى المرونة السياسية ، والكرامة القومية ، والعزة

(I) هنا ينتهى تصريح المقدم احمد النقسييس . والكلام الذى يليه هو تنمة رسالة م. جون دوبا الانجليزى الى سفير دولته بمدير .

الوطنية التي كانت لدى اولئك التطوانيين جدد الله عليهم سحائب الرحمت .
ثم انه فى 10 يناير سنة 1622 . اى بعد بضعة عشر يوما من تاريخ
الرسائل السابقة ، أرسل جون دوپا ايضا الى ولتر أسطون المذكور ، رسالة
اخرى جاء فيها قوله : (I)

« منذ اتيانى الى جبل طارق ، وقنصل جبل طارق (2) يلح علي فى ان
اكتب الى سعادتك لتوافق مشيئتك على تمكينه وتمكينى من الامر بمنح الخمسة
اليهود الذين لا زالوا معه وهم الآن فى السجن ، حريتهم - وقد وضعوا فى
السجن هنا بأمر السير روبرت مانسيل - الى أن يؤدوا مقدار مائتى ليرة
كانوا قد وعدوا كتابة بان يؤدوها فى خلال شهر ، المال الذى كان مخصصا
لتاجر اسمه جيلس بن - GILES PEN - كان هذا التاجر قد سلف الى
الاسطول مقدار خمسمائة وخمسين ليرة ليقضى بها مآربه ، فكان المبلغ المذكور
جزءا منه ، وكان سيتسلمه من اليهود المذكورين ، كما سيتسلم قسما منه فى
مالقة ، والباقي فى انجلترا ، ولكن لا احد من هؤلاء قد ادى .

وفيما يخص اليهود المذكورين فليس لهم اصدقاء فى تطوان ، بحيث أن
احدهم يعاملهم ، ولهذا فانى متأكد من انهم سيقاسون فى السجن مع الحديد
فى ارجلهم خمسة اشهر اذا هم استطاعوا ان يبحثوا عن علاجهم او وسيلة
تخلصهم ، ولكنهم يقولون بواسطة تهديد من الجنرال ، انهم قطعوا انفسهم فى
الحصول على مائتى ليرة ، ولكنهم كانوا غير قادرين على انجاز ذلك . ولهذا
فاذا وافقت مشيئة سعادتك على ان يفك سراحهم مقابل اطلاق سراح خمسة
اسرى من الانجليز وهم فى تطوان ، حيث ان هناك بعض اليهود يملكون بعض
الانجليز وهم متأكدون من انهم سيفك سراحهم منهم ، ولكن اترك هذا لمشية
سعادتك التى انا فى استعداد لاطيعها . . . ومكافئا لكل الخدمات ، فان كل
رغباتى هى أن أجعل قنصلا لشؤون صاحب الجلالة التى اقوم بها فى تطوان ،
وارجوا ان احصل على ذلك من الرسالة التى تتكرمون بها من لدن سعادتك ولو
ان الفائدة التى سأحصلها من ذلك قليلة ، الا ان رجاءى هو ان استطيع تخليص
مواطنى من الرق بواسطة سكنائى هناك (اى فى تطوان). هذا هو الهدف الرئيسى
الذى اهدف اليه ، فأرجو ان احصل على ما يتطلبه منكم خضوعى .

وفيما يخص رسالة المقدم التى كنت سأبعثها مع رسالتى ، فانى لم ابعثها
حتى كنت اتي الى قالص حيث ستكون هناك اضمن . وقد عزمت بواسطة الامر
التالى من قادس ان ابعثها الى سعادتك ...

جبل طارق 10 يناير سنة 1622 . (يوافقه 26 صفر 1031)

(1) ص 531

(2) قنصل انجلترا بجبل طارق فى ذلك العهد، هو ادموند كرسون

ثم بعد ثلاثة ايام كتب اليه رسالة أخرى جاء فيها قوله (I) : «أرجو منكم
المعذرة لتجرتي على ازعاج سعادتكم بتقريراتي، ولكن لاجل الالحاح الشديد
من جانب المستر توماس أستون (2) الذي كان معي في تطوان فألح علي في
ارسال رسالة الى سعادتكم، لهذا فاني لم أستطع أن أمتنع من ارسالها أمام
هذا الاستعطاف. وبهذه الرسالة فانكم ستدركون بواسطة تاجر يتاجر هناك،
السلام المستقر الذي يعم نفعه أولئك الذين يتاجرون هناك، فذلك أكثر نفعاً
بالنسبة الى مملكتنا من بيع الستة العبيد، ومع هذا فاني أترك ذلك لما
ترى سعادتكم .

لقد فكرت منذ يومين في أن أذهب الى قالص، ومن هناك أبعث الى
سعادتكم رسالة حاكم تطوان، ولكن حيث اني غير متأكد من أن الجو سيسمح
لي بذلك، فاني أبعث الآن هذه الرسالة الى سعادتكم، وأتوسل الى سعادتكم
أن تسمحوا لي بالجواب الى قالص حيث اني لا أشك في أنني سأكون هناك
خلال أيام قلائل، وأملئ أن يكون سفرى غداً. وأخيراً أرجو من سعادتكم أن
أن تغفروا لي ازعاجي الخ.

جبل طارق 13 يناير سنة 1622 (يوافقه 29 صفر 1031 هـ).

ثم في عاشر يولييه سنة 1622. كتب اليه رسالة جاء فيها قوله (3)

سيدي ...

خدمتي المتواضعة تذكر سعادتكم، وقد عدت من طنجة، بأني رأيت من
اللائق أن أعطي سعادتكم تقريراً عن اجراءاتي التي قمت بها مع الموريسكوس (4)
الذين لا زالوا في عهدي، وأيضاً عن الحالة الراهنة للبلاد من طنجة الى فاس
حيث اني سأنجز - حسب اشارة سعادتكم - بتثبيت أوامر الجنرال الذي
استخدمني. وسأكون حينئذ قد تأكدت من ذلك حيثما سأدعي للتقرير فتسر
اجراءاتي هناك الجميع .

كنت أخبرت سعادتكم سابقاً بأن السير روبرت مانسيل قد غادر مراکش
معي ليخلص كثيراً من مواطنينا من الاسر في تطوان، وبما أنهم كانوا عديدين
وأن فداءهم لا يمكن الآن انجازه، فاني كتبت الى السير روبرت مانسيل بكل
من طريق البحر وطريق البر حتى أعلم السبيل الذي سأسلكه معهم، ولكن
حتى الآن لم أتلق أي جواب منه، بل ولا أي انسان من انجلترا - والى جانب

(I) ص 533 .

(2) هو تاجر من لندن .

(3) ص 535 .

(4) يطلق لفظ الموريسكوس على بعض المسلمين الاندلسيين (المطرودين

دون المهاجرين) .

هذا فان السير روبرت مانسيل قبل سفره الى انجلترا كان قد أرسل الى الموريسكوس المذكورين ليقصدوا سفينته، ووكلمهم الي حتى لا يباعوا، والشئ الذي فكرت فيه وأدركته، أنى لست قادرا على تنفيذ أوامره فى الحين كما أمرت وقد صممت تماما على أن أحملهم الى طنجة، ومن هناك بواسطة الرسائل المتداولة مع مقدم تطوان، انتهيت معه الى أن يؤدى الموريسكوس مصاريف الطعام الذى نصرفه لهم، وأن يسلم ثمانية من الانجليز، وحيث إنه ليس فى الامكان الحصول على أكثر، فقد أحضرتهم معى الى قالص. وزيادة على ذلك فان المقدم المذكور قد أصدر أوامره بان لا يباع أو يشتري أى انجليزى أو اسكتلندى ينتمى الى صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى (أكثر من هؤلاء الذين ظلوا هناك فى الوقت الحاضر وهم ستون) فلا يسمح بذلك سواء فى المدينة أو فيما تحت حكمه من البلاد، كما يتضح من رسالته التى أرفقتها هنا بما أرسله الى سعادتكم. وقد عزم على أن يبين السبب الذى قام من أجله بهذا العمل لمولاي عبد الله ملك فاس الذى يعترف به ملكا له، بحيث ان الملك المذكور ربما سيصدر فى مثل هذه الحالة أمرا فى كل أقسام البربر التى هى تحت حكمه بأن لا يباع أى شخص ينتمى الى ملكنا او يشتري. وبموجب هذا فان تجار بلادنا فى كل الموانئ سيعاملون معاملة حسنة ويتاجرون بكل عدل واحسان .

ولكن لاجل النتيجة النهائية التى أسفرت عن صنيع حسن سيتمتع به تجارنا، وأيضا عن حرية هؤلاء الذين ينتمون الى شعبنا والذين ربما يحضرون الى بلاد البربر ليباعوا، فان المقدم المذكور طلب من صاحب الجلالة أن يرسل الى تطوان من يحمل منه رسالة التصديق الى ملك فاس، وبمقتضى رسالة صاحب الجلالة هذه يتعامل المغاربة والموريسكوس مع شعبنا من غير ما يقع على جانبهم حيف منا، ولكن يتمتعون بالعدل سواء فى المكان الذى حدث فيه الخطأ او فى انجلترا بناء على طبيعة الاسباب (حسب طبيعة الحال).

وفى هذا الخصوص اذا رأيتم سعادتكم أنه يليق بعرضه على صاحب الجلالة، وأن صاحب الجلالة سيوافق على استخدام خديم له هنا للقيام بهذه المهمة فانى سأكون مدينا لسعادتكم جدا فى أن أعين لذلك، حيث إنى قد قمت بمثل هذه الاعمال وتقبلتها، ولو أنى حتى الآن لم أتلق أية مكافأة أو أى وعد بها عما قمت به من أعمال وانفقت فيه من الزمان سنتين فى مثل هذه الخدمة وفى خدمة أسطول صاحب الجلالة .

وعلى كل فانى أعتبر نفسى أكثر مكافأة وشرفا، وأملئ ليس فى أن أصبح غنيا بواسطة هذه الوظيفة، ولكنى متأكد من أنى ستكون لي تعزية بالنسبة الى هؤلاء الذين هم فى ذلك القطر فى ضائقة من رعايا صاحب الجلالة .

واني سأمنع أن يقع مثل ما كان يقع على كثير من البحارة المساكين، وبعطف النظر الى الحالة الراهنة في بلاد البربر (I) فان مولاي زيدان يحكم من فاس الى مراكش، وفي فاس الملك عبد الله ويلقب نفسه بملك فاس وكل البلاد او الشواطىء البربرية القريبة من الشواطىء المسيحية، ولكن مولاي محمد (2) باغتصابه للسلطان خلال ثلاث سنوات وتملكه حكم القصر الذي كان مدينة القوة والمباني الجميلة، الى أن أراد مولاي محمد هذا أن يمكن لنفسه هناك فأصابها كثير من التخريب - عند محاولة امتلاك القصر - وبعد هذا ليس فقط في المدينة، حيث كان قد اطيع، وحينما أدرك من أحد المغاربة الذي كان معتبرا لقدره ولحبه بين الشعب فخوفا من أنه ربما يستميله (الشعب) فانه بعث اليه خصيصا من يدعوه ظاهريا لاجل بعض الشؤون الطارئة، وليقطع حلقومه في واقع الامر بعدئذ .

وقد مرت بعض السنوات كان البرتغال الذين هم في طنجة لا يجرؤون على أن يذهبوا خارجا عن الابواب من أجل الهجمات المتوالية التي كان يشنها المغاربة الشهيرون وذوو البال، والآن وقد قطع مولاي محمد المذكور رؤوس كثير من هؤلاء المغاربة بخيانة، فان البرتغال في كثير من الاضطراب والهجوم، يخرجون في بعض الاحيان الى عشرة فراسخ بعيدين عن طنجة .

وهكذا فقد قدمت كثير من الشكاوى الى ملك فاس من ظلم وطغيان مولاي محمد، فأتى ملك فاس المذكور غير بعيد جدا عن القصر ليطرد ذلك الطاغية خارج القطر او يستل روحه من بين جنبيه، وقد كان هذا بسهولة حيث ان سكان البلاد كانوا يكرهونه، وكان البرتغال قد أرسلوا اليه سابقا يخطرونه بأنهم لن يحموه ولن يتقبلوه في مدينتهم، ولهذا فانه بموته سيجنى مولاي عبد الله

(I) هذا الكاتب (مثل كثير غيره من الاوروبيين) يطلق بلاد البربر على جميع بلاد المغرب مدنها وقبائلها، لا فرق بين الجهات التي يسكنها البربر حقيقة، والجهات التي يسكنها العرب الاقحاح الذين لا علاقة لهم بالبربرية . وهم كثير .

(2) زيدان هو ابن احمد المنصور، وعبد الله ومحمد (زغودة) هما ابنا محمد الشيخ ابن احمد المنصور - وكان أهل البلاد الهبطية قد اجتمعوا على محمد (زغودة) في ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بدعوة الشيخ علي بن محمد بن علي بن ريسون فبايعوه على الكتاب والسنة واحياء الحق وامانة الباطل الخ. وقد جاء في هذه الرسالة أن الملك عبد الله قصد مدينة القصر لقبض محمد زغودة أو قتله، الخ. وتتمة الخبر أن عبد الله كان قد قصد أخاه محمدا المذكور ولكنه انهزم أمام قواته وتقدم محمد الى فاس وملكها، ثم بعد قليل عاد اليه عبد الله وأخرجه منها. ثم خرج عبد الله لقتال أخيه المذكور ف وقعت المعركة بينهما بوادي بهت فانهزم محمد وفر شريدا الى أن قتل .

المذكور كثيرا من الهدوء فى بلاده مما يجعل القوافل ستسير أكثر سلامة وأمنا من أبواب الثغور الى المدن التجارية المهمة. ها أنذا قد أعطيت لسعادتك هذا التعليق عن الحالة الخ .

قالص ١٥ يولييه ١٦٢٢ (يوافقه ١ رمضان ١٠٣١)

وفاة المقدم احمد النقسيى عام ١٠٣١

وتوفى المقدم المجاهد أبو العباس احمد بن عيسى النقسيى حاكم تطوان وزعيمها يوم الاثنين ثامن عشر ذى الحجة الحرام عام ١٠٣١ موافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٦٢٢. ولم نقف على بيان الصفة التى مات عليها، فلا ندرى هل مات فى الجهاد أم مات موتا طبيعيا، كما لا ندرى هل مات داخل تطوان أم خارجها، الا أن الغالب على الظن، أنه مات فى داره بين أهله وذويه بتطوان .

أما قبره فهو معروف (١) بأعلى مقابر تطوان، وهو القبر الوحيد الذى ما زال معروفا من قبور أولاد النقسيى، وعلى هذا القبر حجر منقوش عليه اسم المقدم ولقبه وأوصافه وتاريخ وفاته. وهذه الكتابة هى الوحيدة الباقية فى مقابر تطوان من ذلك العهد .

وقد وقفت على هذا القبر ورأيت الحجر المذكور وقرأت تلك الكتابة التى تأثرت حروفها بتوالى السنين فأصبحت لا تقرأ الا بتعب، ودونك ما استطعت أن أقرأه منها :

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله
- ٢ - هذا ضريح نصيح البلدة التيطاونية و
- ٣ - ومن عليه فى كل المهمات مدارها، من سيفه
- ٤ - على الاعادى مسلول، وحبل عنايته بالتأييد
- ٥ - الالهى موصول، الذى لولاه لفغرت طواغيت الكفار
- ٦ - أفواها، ولاصبحت ملة الاسلام تنادى
- ٧ - ان طلع شمس الدعة وسنى ضحاها، المسكن روعة
- ٨ - الشيخ والكهل والوليد، السالك فى جهاده سبيل
- ٩ - خالد بن الوليد، الاسنى السرى الاحمد المقدم المجاهد أبى العباس

(١) من أراد الوقوف على قبر المقدم أبى العباس النقسيى فليطلع لأعلى مقابر تطوان، وليقف بباب قبة سيدى قاسم بوكوارع، وليجعل وجهه مسامتا لصومعة الجامع الاعظم ثم ليخط نحو ثلاثين خطوة فى ذلك الاتجاه، فهناك يجد القبر وعليه الحجر المذكور الذى طوله خمسة وستون سنتيمترا وعرضه خمسة وأربعون، وسمكه ثلاثة عشر سنتيمترا، وعدد سطوره اربعة عشر. وهذا الحجر ما زال بمكانه المذكور الى تاريخنا هذا الذى هو (١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م)

- IO - احمد بن المجاهد المجالد الخير الدين الحاج المقدم (I)
 II - عيسى النقسييس، وكانت وفاته يوم الاثنين الثامن عشر
 I2 - من الحجة متم احدى وثلاثين وألف سنة ودفن من الغد. بعد
 I3 - أن صلى عليه جم غفير ينيف على عشرة آلاف ما بين شيخ
 وكهل وصغير .

I4 - أخلى ظهور عباد سالف القدر ومنزلا كان معمورا من الخفر
 وهكذا قضى هذا الرجل الشهم النبيل المجاهد البطل الذي عرف كيف
 يدود عن الشرف ويحافظ على الكرامة، ويبث الرعب والهلع في قلوب الافرنج
 المعتدين على الحمى، ولنعمت المواقف مواقفه، ولنعم الكفاح كفاحه، عليه من الله
 الكريم الرحمة والرضوان .

أبناء المقدم أحمد النقسييس عام 1031

تقدم لنا ان المقدم احمد بن عيسى النقسييس توفي عام 1031 هـ. (I622 م)
 حسبما هو منقوش على قبره .

ومن المعلوم ان تطوان في ذلك العهد لم تكن خاضعة عمليا لا لعبد الله ابن
 الشيخ سلطان فاس، ولا لزيدان سلطان مراكش، ولا لغيرهما من حكام النواحي
 الاخرى كما أن من الثابت أن حكمها بعد وفاة المقدم أحمد، قد بقى بيد أبنائه.
 ومما وقفنا عليه من أخبار تطوان وأولاد النقسييس في هذا العهد ما جاء
 في رسالة كتبها جون هاريسون الانجليزى الى كومنندان الاسطول البريطانى من
 تطوان في 20 يولييه سنة 1625 م (موافق 14 شوال سنة 1034 هـ) ومضمنها الاعلام
 بوصول كاتبها هاريسون المذكور الى تطوان، وبموت المقدم القديم (2) وحكم
 أولاده الاربعة أجمعين (3) ومقابلتهم لهاريسون في اجتماع سرى، والفرح الذى
 حدث بتطوان عند ما شاع استعداد انجلترا ضد اسبانيا، وان المقدمين حكام
 تطوان قالوا لهاريسون انه بسبب الفوضى الحاصلة في المغرب، لا يمكنه أن
 يسافر برا الى مقر السلطان زيدان، وان المقدمين المذكورين طلبوا استقلال
 دولتهم استقلالا تاما، وأظهروا اخلاصهم لملك انجلترا وعرضوا مساعدتهم له ضد
 اسبانيا .

(I) من هنا عرفنا ان عيسى والد أبى العباس، كان مقدما ايضا .

(2) يعنى احمد بن عيسى النقسييس

(3) لم نعرف من اسماء هؤلاء الاولاد الاربعة الا عبد الله وعيسى، والذى
 يظهر من هذه الرسالة انه بعد وفاة المقدم احمد الذى خلف ستة اولاد، بقى
 حكم تطوان وناحياتها مشاعا بين اربعة من ابنائه، ومنهم عبد الله وعيسى،
 ثم بعد مدة قتل عيسى مع اثنين من اولئك الابناء، فبقى الحكم بيد عبد الله
 الذى ضم اليه أخوين آخرين يظهر انهما كانا صغيرين .

وذكر هاريسون أنه من مقابلاته مع الموريسكوس (I) تحقق لديه حبههم للبروتستانتية وبغضهم لاسبانيا، وأنه حرر ثلاث رسائل المدعاية الدينية بين المسلمين واليهود والاسبانيين (2) وقد بقي بتطوان حتى يتلقى الاوامر من رئيس الاسطول البريطاني .

ثم بين هاريسون النتائج الحسنة التي يمكن لانجلترا ان تحصل عليها من احتلالها لسبتة، للتجارة ولنشر الديانة البروتستانتية، وأن هذه النتائج تزداد باحتلال جبل طارق (3) والمعمورة الخ وأنه نزولا عند اشارة المقدمين، عدل عن الذهاب برا الى السلطان زيدان واكتفى بالكتابة اليه ... الخ

ودونك النص الكامل لترجمة هذه الرسالة التي فيها زيادة على ما ذكر فوائد مختلفة لا عن تطوان فحسب، بل عن أحوال المغرب كله، وعن المحاولات والاماني الانجليزية في ذلك العهد، وغير ذلك مما لا نجده في تواريننا القومية العربية .

قال المستر هاريسون الانجليزي مخاطبا لقومندان الاسطول البريطاني ما ترجمته : (4)

سيدي

كان قد أمرني السكرتير المستر مورتون MORTON بأنه بمجرد ما أسمع بالاسطول يرسو على هذا الشاطئ، أرسل رسائلتي بكل سرعة، وبما أنني لا أعلم بعد خروجي من انجلترا، بمن سيحل قائدا رئيسيا في هذه الخدمة، فاني ألتمس المذرة اذا كنت قد أخطأت في حق الصيغة أو أمور أخرى، ومهما يكن فلنصل الآن الى جوهر الموضوع من حيث اتصاله بعملى الحاضر لصاحب الجلالة، أما من حيث اعطائي التقريرات فشكرا لله أن بعث الينا ريحا رخاء طيبة من انجلترا، حيث اننا كنا في تسعة ايام على الاكثر على فم المضيق، ولكن هناك التقينا بالرياح الشرقية للابيض المتوسط بعض الايام.

(I) يعنى بهم الاندلسيين الساكنين بتطوان .

(2) يظهر من كلام هاريسون هذا أنه كان من الرهبان المبشرين بالمذهب البروتستانتى ، وانه كان يتستر بالتبشير لخدمة سياسة دولته ، كما يظهر ان اهل تطوان وخصوصا الاندلسيين منهم ، وكذلك الحكام من ابناء النقسيس، أدركوا مراده، فارادوا هم أيضا استغلاله لخدمة مصالحهم السياسية والحربية والاقتصادية .

(3) من المعلوم ان جبل طارق كان فى ذلك التاريخ بيد اسبانيا التي انتزعتها من العرب ، وان انجلترا انما انتزعتها من يد اسبانيا سنة 1704م الموافقة لعام 1116 هـ أى بعد تاريخ الرسالة المذكورة بنحو ثمانين سنة .

(4) ص 573 من المستند السابق الذكر

وفى ثالث يونيه وصلت هنا فى طريق تطوان هذا وفى نفس الليلة نزلت الى الشاطئ، وكتبت الى المقدم بوصولي مصحوبا برسائل صاحب الجلالة، وفى الصباح التالي بعث الى برسالة يهنيني فيها بسلامة الوصول، ومنها علمت ان المقدم الشيخ كان قد توفى قريبا، وقد كان على قيد الحياة حينما كنت هنا فى المدة السالفة، وكان قد كتب رسائل الى مولاي زيدان وطلب منى أن أشهد له بأنه لم يعترف بأى ملك غيره قط، وما زالت رسالته عندي للاطلاع عليها، ولكن أولاده الاربعة الآن كل منهم يحكم بالتداول، يخرج ثلاثة منهم الى الخارج وكل واحد منهم مصحوب بالفرسان والرجل كما هى العادة عندهم فى نضالهم ضد اسبانيا بسببة وطنجة، ورابعهم يبقى للمحافظة على المدينة، وهو الذى ذهبت اليه وسلمته رسالة صاحب الجلالة حيث سر بذلك سرورا عظيما وبعد يومين او ثلاثة كان الاخوة الثلاثة الغائبون قد رجعوا وعقدوا بينهم اجتماعا وأرسلوا حولى، لما حضرت لم يأذنوا لاحد أن يحضر معنا الا مغربى ولا يهودى الا السكرتير وهو أحد الموريسكوس مترجم بالاسبانية، فأعربوا جميعا بواسطته عن ترحيبهم بى وأنهم يعتبروننى سفيرا لأعظم أمير يحفظون له الوداد والصدقة، ويشيدون بفضله، فأجبتهم بما يناسب، وقد أدركت أنه كل من المغاربة واليهود قد سرروا بهذه السفارة، خصوصا الاندلسيين أو الموريسكوس الذين طردوا من اسبانيا، وهم فى هذا الجزء من بلاد المغرب وفى فاس كثير العدد، وهم جميعا لهم اعتقاد سالف بأن صاحب الجلالة له أعظم قوة حربية هلى استعداد، ولهذا فان اتيانى جعلهم يظنون أنه من أجل أعمال ضد اسبانيا فى هذه الاجزاء .

قلت لهم، ان معى رسالة من مولاي الملك الى مولاي زيدان تتعلق بالاسرى الانجليز وبأشياء اخرى، وانى امل أن أذهب اليه لتقديمها بكل سرعة، والاولى أن اتخذ سبيلى من هذا الطريق اليه، وانى لما كنت هنا أخيرا كتب لى أبوهم (أى أبو المقدمين اولاد النقسيس) الرسالة التى أريتهم اياها بأنه يعترف بمولاي زيدان ملكا لا غيره، فقالوا لى ان سفرى عن طريق البر مستحيل، لان البلاد مضطربة، والطرق خطيرة، ففى فاس ملك هو مولاي عبد الملك، وهو شاب حدث، وفى القصر ملك آخر وهو مولاي محمد، أما مراکش فملكها زيدان، وقد خلفه الآن سيدى يحيى (بن عبد الله) وسيدى على (بن موسى) أعظم أولياء سوس، فهما يقران عزله ويحاولان أن يقيما ملكا آخر هناك، ولهذا فان مولاي زيدان قد بعث قريبا يطلب ألف رجل من الموريسكوس من سلا حيث يعتمد عليهم فى هذا الحادث كأحسن جيوش له.

اما فيما يتصل بهم فقد أقروا لى بأنهم لا يعترفون بهؤلاء الملوك ولا بأى ملك آخر جديد، وأنهم لا يقرون الا بالله، وهم قد أدوا خدمات سابقة

لمولاي زيدان، ولكنه عاملهم معاملة سيئة، وزيادة على ذلك فقد أبرز نفسه بأنه الطاغية القاسى فى حكمه، ولهذا فلهم الحق أن يقفوا عند الاعتماد على أنفسهم، ويعتبروا أنفسهم حكاما مستقلين كما هو الشأن فى البندقية والاراضى الواطئة وهم يدعون أن الزعيم الذى تتمثل فيه قساوة اسبانيا كما تبدو من هنا، يجعل فى باقى القطر اسم الملك ممقوتا بينهم، كما كان فى الايام الغابرة بين الرومان .

وفى الوقت الحاضر لا احد من هؤلاء الملوك له ما كان لأولئك، وكما هو واضح فليس للملك عليهم حكم عظيم، وانما له اسم الملك، فها هى فاس قد قسمت بين الاندلسيين والمغاربة، وهم فى تنازع مستمر، لان الاندلسيين سرعان ما يتجمعون فى كل مكان، وهم كما قلت أحسن الجنود، وبتجمعهم تحت رئيس واحد يستطيعون أن يؤدوا خدمات جلية جدا .

المقدمون قد مكنونى من الحرية فيما اجتمعت عليه كلمتهم، وهو انه اذا كان صاحب الجلالة أو هؤلاء الذين يقومون بتمثيله، يرغبون فى أن تهاجم سبتة أو أى مكان قريب منهم، فانهم سيساعدون فى هذا العمل بعشرة آلاف رجل من البر، ولن يعمل الانجليز الا فى البحر، وبقوة صغيرة، وبمجموعة من البطاريات فى البر، وهؤلاء سيديرون أنهم سيموتون دونهم، وذلك سعيا فى أن يقوموا بخدمة ملك الانجليز ضد اسبانيا. وحينئذ سواء هم أو فى المدينة الآهلة بسكانها أو أحوازها من أقصى ما يحكمون الى أقصاه، كل ذلك فى خدمة صاحب الجلالة ملك الانجليز كتابع له عاملين ان يضعوا أنفسهم تحت حمايته، وهم لا يطلبون منى الا شيئين فقط، أن أعمل على مساعدتهم ببعض البارود ليقوموا بخدمة صاحب الجلالة، وليدافعوا ضد عدوهم، كما أن لهم بعض القطع الحربية قد عطبت هنا وصارت غير صالحة للاستعمال، فيرجون أن تحمل الى انجلترا لتصلح وتجدد ثم ترد اليهم، زيادة على ذلك فهم يعرضون كل أنواع المؤن والضروريات التى يمكن أن تقدمها هذه البلاد، سواء لسفن صاحب الجلالة أو لاغراض أخرى مما هو مرغوب فيه بالتفصيل فى رسالة صاحب الجلالة .

وبما ان لى التفويض فى أن أثير أقصى المسائل حتى أطلع على جليات الامور، وقد رأيت اندفاعهم (مع قلة اكتراث فى التكلم حيث وضعوا فى أعظم ثقتهم كما أفضوا الي بأسرارهم، فانى سألتهم عما اذا كانت هناك بعض الدواعى ربما تقتضى كثيرا من السرعة (وأنا نفسى لا أذكر الترتيبات الخاصة) فى تقديمهم للمساعدة فى البر كما وعدوا بها، فهل أولئك الموريسكوس أو غيرهم يمكن أن ينقلوا الى بعض الجهات الأخرى حيث يعاملون معاملة حسنة ،

فأجابونى بأنهم لا يمكنهم أن يكرهوا أحدا على الخروج أو ترك بلدته مجردا غير محروس خوفا من أعدائهم، ولكنهم يمنحون حرية المغادرة لكل من المورييسكوس أو اليهود أو غيرهم، فيذهبون باختيارهم حيث شاءوا، ولكن اذا كان ذلك بواسطة البر - كذى قبل - تجاه سبتة أو أى مكان قريب منها فانهم يذهبون شخصا الى كل الجهات القريبة من بلدهم، مع القوات التى يستطيعون أن يجهزوها، مؤكدين لى أنهم سيقفون عند وعودهم، وهم لن يعدوا بأكثر مما يقصدون الى تنفيذه .

وبهذه الترضية الطيبة انفصلت عنهم، ولكن ما انجزناه بيننا مقدما طبقا لذلك التكتم الذى التزمته فى أول الامر محافظة على الاسرار (حيث ان سبتة قريبة منا، وعلى اشارة اليد وان سفينة ببعض الرجال قد أرسلت من هناك الى هنا لفك الاسرى) هو أننا اتفقنا على أن يجاب كل ما طلب منى فيما يخص عملى (وهذا كان رأى المقدم، وهو أننا يمكن أن نوافق على كل شىء فى مرة واحدة كما أفضى بذلك السكرتير) وأيضا قد أدركوا أنى جئت لفك الاسرى ولاثبت السلم وأقر التعامل التجارى ثم لنعمى أعين الاسبانيين فى النهاية.

وفى بضعة ايام بعد ذلك أذيع قرار يقضى بأن لا يباع أو يشتري أى انجليزى من الآن فصاعدا سواء من الاتراك أو ممن وقعوا فى الاسر، ولكن يعامل معاملة الاحرار كما كان سابقا، ومن خالف تجرى عليه اقصى العقوبات، على أن برتغاليا من هؤلاء الرجال كان يأتى فى أوقات متعددة يزورنى، ولكن فى الحقيقة كما لاحظت كان يأتى ليفحصنى حيث أجبته طبق المرغوب.

كان هؤلاء المورييسكوس باستمرار يلازمى واحد منهم أو أكثر، ولا يرغبون فى سماع شىء كما يرغبون فى أخبار الحرب ضد اسبانيا، ويتداولون معى الاحاديث ويقرأون فى الانجيل الاسباني الذى كان معى، كما كان معهم ايضا انجيل يمتلكونه فيما بينهم، ولكنهم كانوا يشناقون الى الذى معى كما يشناقون الى كالفين CALVIN (I) والى كتب اخرى فى ديننا، وقد وعدتهم بأنهم سيحصلون عليها بكثرة فى اللغة الاسبانية .

نعم كل من المغاربة واليهود جميعا لا ينصتون الى شىء كما ينصتون الى أخبار الحرب ضد اسبانيا، والسلم والصداقة مع انجلترا، مع عطف عام ورغبة صادقة نحو شعبنا، بل حتى نحو ديننا المسيحى، مراعين بلا ريب أن الله له أصبع يقلب بها قلوب جميع الخلق، وأنه يستطيع أن يوجهها الى أى طريق يرضاه بل حتى قلوب الملوك كما يقول سليمان .

أنا أعتقد أنه من واجبي لله ولصاحب الجلالة أن لا يضيع هذا الوقت من عملي سدى. كل المسيحية الآن في السلاح، ولكن لتنفخ في تلك النار التي أوقدت من قبل، وان شاء الله سأثني هذه الاجراءات بتلك الحملة التي بدأتها بأن ذلك ربما سينمو مع الزمان ويتحول الى أعظم شعلة تقضى في النهاية على العدو، كلا بل أتجرأ فأزعم في ذلك أن فم الله قد نطق به فان بابليون (I) BABYLON سيسقط كما هو في الوحي، اعملوا فضلاء أيها الانجليز النبلاء، سيروا بشجاعة كما كنتم في الازمان السابقة فانه واقع انه واقع الخ.

وأخيرا اتى الى فكري - وأرجو أن يكون ذلك من الله أيضا - أن أكتب منشورين عامين بالاسبانية، أحدهما الى المغاربة والآخر الى اليهود، وبمجرد ما سمعت أن الاسطول كان على الشاطئ (2) ناولتهما الاندلسيين ليقوموا بتوزيعهما، كما كتبت منشورا وتحذيرا آخر بالاسبانية الى الاسبانيين أنفسهم والى البرتغال، وكل هذه المنشورات الثلاثة في أسلوب لا يمكن أن يستثنى لا المغاربة ولا اليهود ولا الاسبان، أما بالنسبة الى الاول والمغاربة فأنا متأكد من أنهم لن يستثنوا أنفسهم، لانهم كانوا من ذى قبل قد تقبلوا ذلك واتخذوا الطريق الى تنفيذه، واما بالنسبة الى الآخرين فانهم اذا لم يدعنوا فلن يقدرُوا جميعا - ودمهم سيكون على رؤوسهم - أمر الله وكلمته، لا بد من تنفيذه، وذلك بكل صرامة كما يبدو في ذلك.

وقد أرسلت نسخة من المنشورات مع الرسول الذي يستطيع ان يبلغ الى سعادتك هناك مهماً آخر حيث انه من الممل جدا أن يكتب هنا وهكذا بالنسبة الى حالة البلاد في الوقت الحاضر، فاني أرى من واجبي جدا أن أخبر سعادتك بما يجرى فيه، وأن أظل هنا الى أن أعلم مدى مشيئة سعادتك، غير مدرك مقدار ما يهم هذا المكان في الخدمة الحاضرة (وما عزم عليه أقصد اليه) من حيث ان الاسطول قد يكون أحسن وأسرع تزويدا هنا من أى مكان آخر من أراضي البربر، كما أنى غير مدرك مدى ما تلاحظه سعادتك في عرض المقدم .

وفيما يخص احتلال سبتة، فان ذلك يكون مناسبا جدا لمصلحة سفننا التجارية المرتبطة بالمضيق حيث انها ستتقوى وتزود بكل الضروريات من وقت لآخر ومن انجلترا، وحيث اننا اكتسبنا صداقة تطوان وكل البلاد التي حولها، وقد وعدت بكل المساعدات فان أقل حامية تستطيع أن تحتل هذه المدينة، ومن هناك يمكن لتجارنا ان يروجوا تجارتهم بكل سلام ويتمكنوا من الاسواق

(I) هى عاصمة الكلدانيين او اية مدينة سيئة او روما.
(2) شاطئ قالص.

بكل بضائعهم، سواء في مملكة فاس أم في أمكنة أخرى تحس بالحاجة الملحة اليها وتدعو الى التجارة (معنا) ولكن الشيء الرئيسي والجدير بالاعتبار قبل كل شيء، هو مجد الله ومزرعة الدين في هذه الاجزاء الخصيبة بالايمان المسيحي الذي صاحب الجلالة حاميه الرئيسي، فاذا وضع ذلك في الميزان، فانه سوف يرجح الجميع، حيث ان له هناك أعظم أرجحية كما يبدو، سواء بالنسبة الى اليهود أو الموريسكوس الذين هم في معظمهم مسيحيون بقلوبهم من ذى قبل، كل هؤلاء سيكونون رعية (لنا) نعم وحتى المغاربة أنفسهم حيث إن صاحب الجلالة لا يحتاج الى تزويد، سواء من الرجال او من كل ما تنتجه هذه البلاد الا عرض عليه من وقت لآخر، واذا امتلك صاحب الجلالة جبل طارق فانه يتحكم في المضائق وبقية بلاد البربر التي هي على الشواطئ والتي احتلها الاسبان، ولا تستطيع أن تعيش طويلا لافتقارها الى القمح ومواد أخرى من الذخيرة بحيث يقال انهم في الوقت الحاضر يقعون عند أعظم احتياج الى ذلك. نعم، وحتى في اسبانيا نفسها، ولكن في هذا المكان من بلاد البربر توجد اعظم ذخيرة، على أنى أمل أن تكون المعمورة أيضا في قبضة صاحب الجلالة للأسباب المذكورة سابقا، ولان النهر يجرى منها الى فاس، حيث إن صاحب الجلالة تكون له السيطرة على اسبانيا بواسطة البحر، وتكون هذه المدينة ملاذا لسفننا في كل العمليات الواجب اتخاذها. . مولاي زيدان يحتل سلا، وهي بعيدة عن المعمورة بخمسة عشر ميلا، ولكن أى حكم له هناك ؟ انه فى الوقت الحاضر يعتمد على العرب الذين قوتهم الرئيسية فى خيولهم، أنا لا أدري قوة هذا الحكم . عملت حينما تقلدت اولا مهمتى فى هذه الخدمة، على أن يكون لي حكم على بعض السفن الصغيرة أو غيرها، لنضع اولا تحت حوزتنا سلا، ومن هناك نملك باقى المدن من القطر، مدركا أن يكون ذلك بأسباب مختلفة، وبتبديل الخطة حسب الطوارئ، وقبل هذا الوقت بزمان طويل كنت أستطيع أن أحقق ذلك بواسطة مولاي زيدان، ولكن الآن أنا غير عالم كذى قبل بمدى ما يسعفنا هذا المكان فى المهمة الحاضرة، أرجو الله أن يسير كل الامور الى أحسن .

وقريبا أتى بعض الاسرى من سلا الى هنا ليباعوا، وقصوا علي كيف كانوا والاسرى الآخرين الانجليز يعاملون هناك بقساوة، وأنهم قد أسروا بواسطة هذه السفن المنتمية الى سلا التي هي تحت حكم مولاي زيدان (طانين) أنهم قد أتوا الى القنوات الانجليزية وليست بعيدة عن سلا) وهناك رأيت الاسرى وهم على الاغلب ستون ينتمون الى الارض الجديدة، والآن هؤلاء المقدمون وقد وقفوا على مثل الشروط مع مولاي زيدان، ولهم أعظم حكم هنا سواء فى المدينة أم فيما جاورها من البلاد، فانى أرى من واجبى أن أعلم سعادتك بكل هذه المسالك، موضعا بخضوع كل شيء لسعادتك، مفتقرا الى

صائحك الغالية لتشيروا علي بما يجب عمله، سواء في صيانة شرف صاحب الجلالة، وتوجيه الخدمة الحاضرة التي يوفقها الله وأعمال صاحب الجلالة الحسنة، أم في الاسرى المذكورين سابقا، والتجار الذين يتعاملون هنا أو في أى مكان آخر. والذي في نظري انه الخطة المثلى هو ان نحصل على مفاوضة مع الجميع فى اسرع ما يمكن ، حيث ان التجارة هنا أحسن وسيلة وسياسة تخدم بها امراء المسيحية ، لنفدى اولئك المدنيين والحرييين من الكفار بعناية الله الخاصة التى بعثت بينهم، وايضا فان هؤلاء سينمون اقوياء خصوصا الآن. إن العالم المسيحى جميعه فى حيرة عظيمة فلنوجه قوتنا الى كل الاطراف.

وهناك على الخصوص نقطتان قد سلف ذكرهما ، وهما سببة والمعورة، ومن السهل الاستيلاء عليهما ، وبواسطة الطريقة التى سبقت ان نضع باتفاق قوة فى الداخل وأخرى فى الخارج من المضيق، نعم حتى من الاسبانيين أنفسهم فاذا امتلك صاحب الجلالة جبل طارق أو أى ثغر قريب الى تلك الجهة، فواحد يشئ الآخر ولا أشك فى احتلال اسبانيا نفسها أو البرتغال، كما لا أشك فى أن بلاد البربر التى تئن تحت نير ينافى المسيحية، ستسقط الى جانب أو تفر الى آخر كما يشاء الله، صادرا هذا عن بابيلون بالنسبة الى اولئك الذين بعثت اليهم (I) برسالتى او تحذيرى، فقد وصلهم ذلك وأرجو أن يكون وفق المطلوب، كما يكون للطائفتين الاخرين (2) بدون كل استثناء، فيتخذ ضد أية واحدة منهما كما قلت أى استثناء معين، وأنا لا أشك فى أن الله قد وضع من ذى قبل فى قلب صاحب الجلالة الذى هو الحامى الحقيقى للايمان وأمراء المسيحية الآخرين، أن يصنع جميلا، ففى هذا أيضا قد ملكت التفويض الكافى الذى يحفزنى على العزم .

أما ذهابى الى مولاي زيدان برسائل صاحب الجلالة، فان ذلك يجب أن يكون عن طريق البحر لا البر، حيث ان حالة القصر الآن واقفة، بل حتى المقدمون مع خلو ذمتهم، لا يسمحون لى بذلك لانهم يقولون لى اذا أنا فقدت فسيكون ذلك فى حرمتهم أو تحت مايجأ مقدس، وستتوجه اليهم من أعظم أمير تهمة فى حق كفالتهم، ولكنى بعيدا استطعت ان أقارن بين كلامهم وكلام الآخرين، فعلمت أنهم لا يهتمون مطلقا بذهابى الى مولاي زيدان، قائلين، انه يعد كثيرا ولكنه ينجز قليلا، أما هم فانهم سيكونون أحسن من وعدهم حينما يحين الوقت المناسب، لهذا فانى باق هنا، وسأظل فى حيرة حيث انى لا أعلم كذى قبل ما هى مشيئة صاحب الجلالة، لانى اذا ذهبت الى مولاي زيدان فهؤلاء المقدمون ربما سيغارون كثيرا من ذلك، وربما من خوفهم منه سيركنون

(I) يعنى الاسبان والبرتغال.

(2) هم المغاربة واليهود .

الى الاسبان، حيث اننا لن تكون لنا حينئذ أية نجدة من هذا المكان، وحاكم سبتة (كما قال بعضهم) كان قد أرسل لهم من ذى قبل فى ضمانه او حماية اذا هو وضع عند الاستعانة به، وهنا رجلان مقيمان للجاسوسية فقط، وللإعلام بكل الحركات، ولكن فى الوقت نفسه فانى قد كتبت الى مولاي زيدان بوصولى هنا حاملا رسائل صاحب الجلالة حول الشروط العامة التى سبقت بينى وبينه، مذكرا اياه بوعده السابق، لاعلم مدى مشيئته، فاذا سر سعادتكم أن أذهب الى هناك، فانى سأكون عند أول ريح تهب من هنا فأسافر عن طريق البحر مع أول ريح شرقية (الابيض المتوسط) فى أى مركب صغير سأكون مستعدا ان شاء الله .

لهذا فانى فى انتظار العلم بمشيئة سعادتك الخ. الامضاء
جون هاريسون

تطوان 20 يولييه سنة 1625 (يوافقه 14 شوال 1034)

(ملحق)

«الاندلسيون هنا قد كتبوا الى أصدقائهم فى سلا وفى أماكن أخرى ليستعدوا، وقد ترك احد الموريسكوس هذه الاسطر معى وهى مرفقة هنا حيث تدرك سعادتك منها الاتجاه العام للجميع، وفيها أيضا بعض التنبؤات القديمة لهم تؤول الى ذلك التأثير الذى أرى من المستحسن أن يثنى بتفسيرها بأمانة حقيقية لنا - صادرة عن كلمة الله - وهذه هى الاسطر المذكورة :

CON EL FAVOR DE DIOS LOS MOROS Y LOS YNGLEZES TOMARAN A ESPAÑA Y CON LOS SANTOS Y CRUCES GUIARAN LAS COMIDAS Y DESTROYRAN A ESPAÑA Y SERAN TOTOS ERMANOS Y AYUDARÁ DIOS A LOS QUE MANDAMIENTOS SEGIEREN Y DIOS SOBRE TODO.

وتعريب هذه الفقرات التى هى باللغة الاسبانية هو ما يلى :

بفضل الله، الموريسكوس والانجليز سيسيطرون على اسبانيا وبفضل الاولياء والصلبان يقومون بطهى الاطعمة ويحطمون اسبانيا فيصبحون جميعا اخوة يتعاونون - بفضل الله - مع الذين يتبعون اوامره، والله فوق الجميع .
ثم كتب هاريسون المذكور أيضا الى م. بوشنكام Buckingham ما يلى (I) سيدى. قد أرسلت قريبا رسولا عن طريق البر الى سلا، ولم أسمع هنا أى خبر أكيد عن الاسطول .

أبواب سبتة وطنجة مغلقة من زمن طويل، ولا يسمح لا لمغربى ولا ليهودى بالدخول اليهما ولا بالخروج منهما، واخيرا قد فرت سفينة انجليزية من مالقة وأتت الينا بخبر عن الوصول الثانى للسعيد للاسطول الانجليزى الى قالص فاستقبل ذلك بالشكر لله.

أرجو أن تكون رسائلى الأخرى عن نفس طريق سلا قد وصلت الى سعادتك قبل هذه، كما أن تكون الأخرى قد وصلت مع رسل آخر حول الاشاعة الكاذبة بأن الاسطول كان رثى بجوار الموانىء. وقد كنت بعثتها فى سفينة ألمانية، ولا أعلم ما اذا كانت قد وصلت الى سعادتك شخصيا بهذا الخصوص حتى الآن بواسطة هذه السفينة. ولهذا فانى أرجو من سعادتك أن تسامحنى اذا كنت أخطأت أى سبيل فى هذه الرسائل، ومهما يكن فانى متوقف ومقيم هنا الى أن أعلم من سعادتك مدى مشيئتك وخوفا من ان تكون رسائلى السابقة لم تصلك فانى قد ارسلت ايضا رسولا ثالثا يمكن ان يقص على سعادتك كل الحوادث هنا. وكنت أود أن أقدم بنفسى، غير ان المقدم ربما لا يسمح لى بذلك الى أن تأتى أخبار أخرى أكيدة أرجو الله ان يحقق آمال سعادتكم النخ.

تطوان 3 نوفمبر سنة 1625 (يوافقه 2 صفر 1035).

ثم ان هاريسون المذكور كان قد كتب من تطوان ايضا فيما بين 13 يونيه و 30 يوليه سنة 1625 (رمضان - شوال 1034) رسالة وجهها الى السلطان مولاي زيدان، وقد جاء فيها ما يلى (I)

... بصرف النظر عن كل المكدرات الفارطة وخدماتى السابقة المؤلمة ورحلاتى التى كانت تهدف الى السلام والاتحاد بين جلالتك وبين مولاي الملك أمير السلام الذى هو الآن بحمد الله قد سرى مفعوله من زمن قريب حتى الآن، وذلك الموجب الذى قد عرض - حيث انى لا محالة كنت قد أخطأت فى حق جلالتك بمثل تلك الاجراءات الخارجة عن حد الصبر، اذ وضعت على طول الطريق سفينة فى ذلك الوقت فى طريق اسفى كانت تعلو وتنحدر طول سنة بأكملها بدون الحصول على أمر مطلقا من لدن جلالتك او أجوبة منكم عن رسائلى مولاي الملك مما جعلنى أعتبر ذلك أعظم اهانة متجهة الى اعظم أمير قد اتيت من عنده والآن وقد عدت مرة أخرى برسائل مولاي الملك الذى هو الآن الملك شارل CHARLES وهو بناء على توضيحاتى راغب فى تجديد الصداقة السابقة التى ابتدأت بين كل من أسلافكما واضعا اياى موضع الثقة فى أعمال هامة ترسل الى جلالتك - كما ستبدو من هذه الرسائل، ولكنى وقد رسوت فى تطوان على سفينة من سفن المضيق، فكرت هنا فى أن أذهب الى سلا، ومن هناك بالبحر الى أسفى، ولكن المقدمين قالوا لى ان الطريق البرى مخوف جدا. ولهذا فانه من المستحيل علي أن أسافر بواسطة البر، بل انهم لن يسمحوا لى بذلك قائلين، انى كنت فى حمايتهم، فاذا حصل أن هلكت فى طريق البر فربما يأتى من أعظم أمير اتهام يقع عليهم .

ولهذا فأرى أنه من واجبي أن ألفت نظر جلالتيكم الى أنه اذا كانت هناك أية سفينة من الاسطول راسية على ميناء أسفى أو سلا فى هذه الايام لتستعلم عنى، فلعله مما يسر جلالتيكم أن تكتبوا الى قوادكم هنا للمداولة معهم ممن يكون له نفس التفويض الذى حصلت عليه من مولاي الملك أو قائده الاعلى فى الحالة التى ربما أضيع فيها والتي من الحكمة أن تتدارك فيها مثل هذه الحوادث، ومهما يكن فانى على العموم فى احتياج كبير الى ما تقترحه جلالتيكم سلفا، ومن هناك يمكن لجلالتيكم أن تدركوا أكثر من كل أحد أنه حينما كنت معكم، كان يسر جلالتيكم أن تتذكروا أنكم وعدتمونى بأنه اذا كانت هناك حالة شبيهة بالحرب وتسترعى انتباه جلالتيكم، فانكم ستقدمون لنا مساعدتكم، وها هو الوقت الآن قد حان والا فلا ليتوجه كل من الانجليز والمغاربة ضد عدوهم المشترك، وأنا لا أقول أكثر من هذا، أنا فى انتظار مشيئة جلالتيكم الخ

رسالة من المجاهد العياشى الى ملك انجلترا عام 1036

وهذه رسالة بعثها الشيخ المجاهد أبو عبد الله العياشى من سلا الى شارل الاول ملك انجلترا، وقد تعرض فيها لذكر تطوان (I) الى الامير الاعظم .

ان العلاقة التى قام بها معكم جون هاريسون خادم جلالتيكم، والتى أحكمها معى فى سفرته من تطوان الى هذه المدينة من سلا كانت عملا صغيرا فى حق المعاهدة والالتزام الذى كان على كل منى وهذه المملكة أن يقوم بالخدمة على مقتضاها لجلالتيكم واسمكم، والعظمة التى أنتم جديرون بها، لهذا فانى أرجو أن تأمرونى بكل ما عساه أن يسر مشيئة جلالتيكم وخدمتكم (2) .

أنا مسرور جدا من السلام المعقود بين سكان هذا الحصن من الاندلسيين ففيه كل خير وصلاح لجلالتيكم وللجميع هنا ولتأييد ما كان قديما بين المملكتين والله يحفظ ويوفق جلالتيكم ويزيد فى قوة مملكتكم.

من معسكر سلا، 2 رمضان سنة 1036 (3).

(1) ترجمها لنا الاستاذ محمد بن تاويت عن الاصل الانجليزى الموجود فى ص 23 من المجلد الثالث الانجليزى. طبع باريس سنة 1936.

(2) إما أن كاتب أصل هذه الرسالة كان ترجمانا يهوديا متعودا مثل هذا الخضوع المزرى، وإما أن الشيخ العياشى كان من الدهاء والمرونة بدرجة تسمح بمثل هذه المجاملة سعيا وراء الحصول على ما كان فى حاجة اليه من مواد حربية او غيرها .

(3) هذا التاريخ يوافق 18 مايو سنة 1627 وان شئت فانظر فيما يأتى رسالة كتبها الملك شارل المذكور الى المجاهد العياشى بتاريخ 12 اكتوبر 1627 موافق 1 صفر 1037 .

تقرير انجليزى عن احوال المغرب وتطوان عام 1036 هـ - 1627 م.

وكتب المستر جون هاريسون JOHN HARRISON الانجليزى الى شارل الاول ملك انجلترا تقريراً ضافياً ضمنه من أخبار المغرب عموماً وتطوان خصوصاً، ومن مساعى الشيخ المجاهد أبى عبد الله العياشى ومواقف السلطان زيدان وأمانى أندلسيى تطوان والرباط وسياستهم ومغامرات الانجليز ومساعيهم الخ ما لا نجد له تفصيلاً فى مصادرنا العربية، ودونك ترجمة أهم ما فى ذلك التقرير (I) المؤرخ بحادى عشر سبتمبر سنة 1627 م (الموافق لثم ذى الحجة عام 1036 هـ) :

لتسعد جلالكم. قبل الحملة الاخيرة لاسطول جلالتم الملكى العظيم الى قالص، شئت جلالتم - بناء على بعض الانباء التى كنت سلمتها الى السيد البرطوس مورتون SIR ALBERTUS MORTON وقد ترك منصبه كاتباً رئيساً فى حكومة جلالتم - أن تستخدمنى من قبل فى أرض البربر لاختبر وداد واتجاه هؤلاء الناس، وخصوصاً الاندلسيين أو الموريسكوس الذين طردوا من اسبانيا، والقسم الاعظم فى أرض البربر، يصلح للعمل مع القوم، بحيث إن لجلالتم أن تعملوا أعظم عمل على كل الاحوال، مدركين أن القطر الاسباني قريب ومتأخم جداً، ولتتخذوا السبيل لمهمات أخرى من مثل الزاد والمأكولات وحاجيات الاسطول التى ربما تشتد علينا الحاجة اليها.

والحمد لله أن جعل طريقى قصيراً بحيث إننا فى تسعة أيام كنا قد أبحرنا من دوفر DOVER ووصلنا الى شاطئ أرض البربر، وعند وصولى الى تطوان داخل المضيق حيث يقطن اعظم عدد من الموريسكوس، قد وجدت كلا منهم ومن المغاربة مستعدين ومتحمسين الى أقصى ما كنت أتوقع. فكلهم يعرض خدماته على جلالتم وعلى حسابهم الخاص وسلاحهم وكل ما يحتاجون اليه من زاد وغيره، وبالجملة فهم مستعدون للمخاطرة بأرواحهم مثل رعاياكم منتظرين بفارغ الصبر تلك القوة العظمى على حد تعبيرهم، الشهيرة والمرعبة والتى جعلت كل شواطئ اسبانيا والمغرب تضطرب حيث إن الاسبانيين يجلبون حامياتهم من وقت لآخر كما قال لى المغاربة، ولكن النتيجة وهى لا تجيب بشئ عظيم متوقع، حيث إن اشارة صاحب الجلالة على إثر تتويجه، كانت كأولى أعمال الملوك ملاحظة، مما ألصق بجلالتم ما ينافى الشرف كثيراً والخزى بكل من شعبنا وعقيدتنا، هذا الشعب المحب للحرب قد فقد فكرته الاولى فيها هو العدو قد كان مرتجفاً والآن منتصر مع كثير من الغرور والصلف مع أن

المغاربة واليهود قصوا علي قصة عن اسبانيين انفسهم من سبتة وطنجة، أنهم يقولون ان ليس الآن في انجلترا غير البط فكلهم دجاج في ثياب الشجعان .
المغاربة وخصوصا الموريسكوس يأملون ان تكون الساعة قد حلت لارجاعهم اسبانيا بناء على تنبؤاتهم القديمة، وهم يميزون حنقا وغضبنا لهذا السبب مثل رعاياكم .

لا سفينة بالمرّة ولا رسائل الاشارات أو التلميحات تأتي الي كما كانت موعودا بها وقد أثّرت شبهة في بعضها أنى جئت كجاسوس وأشياء أخرى، ولكن لكوني طالما كنت عاملا في هذه النواحي من ذى قبل ومعروفا بينهم، فقد جلب ذلك الي أحسن أنواع الآراء في، وعلى ذلك فقد كتب لى مقدمو تطوان الى جلالتم عارضين فى أية فرصة مساعداتهم على جلالتم بكل قواتهم ، وكذلك مقدم أنجرة القبيلة المجاورة لهم، وكذلك الموريسكوس الذين يحكمون الآن فى سلا قد بعثوا الي بأنه اذا جئت اليهم للتعامل معهم، فانهم سيخلعون مولاي زيدان الحاكم الطاغية الذى كان السبب فى أسر كثير من رعايا جلالتم وفقد سفنهم وضياع بضائعهم وأرواحهم، وهم يضعون أنفسهم جميعا تحت حماية جلالتم كرعاياكم الخاصة بكم، وللقيام بخدمة جلالتم قد اتخذت أشد الاسفار خطرا مسافرا من تطوان الى سلا مختفيا فى شخص قاطن مغربى (والبلاد خطرة جدا لسفر الاجانب، والجميع فى فوضى لا يعترف بملك) ثم أدركت أن الاسبان يتربصون بى الدوائر ليغتالونى بواسطة الاعراب الذين يبيعون آباءهم بالمال، وقد سافرنا فوق الجبال العالية وملكنا الربى القريبة من فاس لتجنب هذه الاخطار، وتلبست بشخص مغربى فى جماعة أعظمها راجل مكشوف السيقان فى صفة حجاج، على أننا قد أتينا السهول وأقمنا بجانب القصر حيث كان معلوما لنا أكبر خطر يهددنا، فهناك من يترقب اغتيالنا مقابل ألف دوكة تحمل الى العرائش او المعمورة، ولكن والحمد لله أن التقيت برجلين شريفين من المرابطين او الصالحين الذين كانوا محترمين جدا فى ذلك البلد (فأتى أحدهم ليقابلنى بسلا وهو ولي مصمودة) وشيخين شريفين يحكمان بمحلهم أو قبيلتهما فنقلنى هؤلاء من مكان لآخر مرة فى النهار ومرة فى الليل الى أن وصلت سلميما من كل خطر الى سلا القديمة حيث الولي الاعظم سيدى محمد العياشى الذى يخضع لحكمه الجميع، الذين عرضوا على جلالتم خدماتهم لاحتلال المعمورة أو العرائش أو أى مكان احتله الاسبان من شواطئ البربر، راغبين أن تقع هذه الشواطئ بأيدي جلالتم بناء على تلك الصداقة القديمة والصناعة والتجارة التى كانت تتبادل دائما بين الانجليز والمغاربة قديما، ولكن يستحسن أن يزحف ليلا الى المعمورة عن طريق البر وتهاجم من طريق البحر على بعد ميلين منها .

ولما أتيت الى سلا التي هي على الجانب الآخر شمالا والموريسكوس الذين يحكمون على القلعة المدينة المبنية حديثا على الجانب الآخر جنوبا قد أرسلوا لي هنا أن أبقى حتى يبعثوا قائد مولاي زيدان - عبد العزيز الزروري - وكذلك قد أشار علي الولي مضيفا اياي بمنتهى الكرم، طالبا أن أعده بأن أرجو من جلالتك أن تحتلوا المعمورة ؟

وبعد ما ذهب قائد مولاي زيدان، بعثوا وراى فى الحال الى القلعة، عارضين خدماتهم أيضا على جلالتك بكل حرية، واطلاق سراح كل رعايا جلالتك الذين أسروا فى حكومة مولاي زيدان وبيعوا واشتروا من جماعة الآخرين، بأن يرضوا مواليهم بعروض أخرى، وهم راغبون فقط من جلالتك فى 14 قطعة نحاسية من المدفعية، وكمية من البارود والفسك ليدافعوا عن أنفسهم الاسبان وأعداءهم الآخرين، ولكن مع كل فانهم يعرضون أنفسهم جميعا على مشيئة جلالتك فى كل حال كما يبدو من أقوالهم، وعندئذ وعدت بأن جلالتك ستجازونهم وتعاملونهم بكل ثقة ونبل كما هو الشأن فى الملوك العظام .

ولما اتخذت طريقى على هذه الشروط، أبحرت راكبا كل الاخطار فى سفينة صغيرة لفلامنكي من رجال القرصنة كان قد رسا هناك صدفة ليصلح بعض الخروق فى سفينته مزودا بزد خمسة أشهر، وعلى أمل معاكس أن يلتقي بسفينة أو أكثر فى البحر تنتمى الى انجلترا، ولقد بعث قبطانو القصر لاجل الازدياد فى السلامة معى القبطان جون وهو ألمانى مرتد، ولكنه صديق جدا لشعبنا، مع سفينتين تقلعان بى من الشواطىء خوفا من الاسبان وأربعة من السفن التى كانت فى الطريق، ولكن قبل بضعة ايام والحمد لله.

بعد يوم أو يومين وقد فقدنا القبطان جون فى الليل، التقينا مع ثلاثة من السفن الاسبانية كانت احداها سفينة العبور - (احدى سفن الملك) فأتينا معهم فى اطلاق القذائف معتمدين على بحارتنا، وبعد ما أطلقوا القذائف علينا اشتبكوا معنا، ولكن استرسلنا مع الريح وأحسننا الابحار، وبعد لحظة أخذوا سبيلهم وتركونا فعجبنا لذلك واتجهنا فى طريقنا ووقفنا بعدهم حيث بعثنا فى الحال أحدا الى المركز الرئيسى ليطلب خمسة من البحارين زيادة على ما كان لنا ثم بدا أن القراصنة الاسبان ظنوا أنهم منا فتركونا حينئذ، والحقيقة أنه امتحان للقبطان جون الذى فقد منذ اسبوع، والذى كان قد أسر اثنين من HAMBURGERS كانا آتين من مالقة وخمسة من تجارنا الانجليز فى طريقهم الى وطنهم، وقد أطلق سراحهم وسلم قيادهم الي كما يصنع دائما مع الانجليز فلا يضر احدا منهم ولكن البضائع يأخذها، وقد وضعناهم فى قارب صغير

وسيرناهم فى الطريق ليأتوا معنا هم والـ HAMBURGERS المنتمين الى هولندا وكانوا قريبا ما نهبوا بواسطة الاتراك .

وفى هذه السفينة الصغيرة التى لا تزيد على أربعة أطنان، لم يكن فيها أكثر من قطعة مدفعية للدفاع عن انفسنا، بل بالكاد لم يكن الزاد الا ما أعطاناه القبطان جون فوضعت نفسى بين مواطنى وظللت معتمدا على العناية الالهية التى لم تضيعنى أبدا - ولا أنا أرجو جميلا - خصوصا فى النهاية وفى رحلاتى هذه اولا واخيرا متاحة لى فرصة بعد اخرى من العظمة بمكان كما لو كانت الظروف كلها فى كل يوم محسوبا حسابها لى، ولهذا فلا يمكن ان يفكر ان لله أصبعا فى ذلك تسيرنا على خط مستقيم والحمد لله بدون ان نرى بحارة آخرين الى أن وصلنا الى الموانئ الانجليزية .

وصلنا الى FALMOUTH فى 14 من ماى سنة 1626. وكنا فى نفس اليوم من الشهر الذى بدأت فيه اول رحلة من انجلترا الى بلاد البربر 1610 (الى أن قال الكاتب (I) : وفى يوم الخميس 11 يناير سافرنا مرة أخرى على ظهر سفينة DARTMOUTH وكان فى رفقتنا أيضا ثلاث سفن أخرى تتجه الى ناحية الجنوب، وفى الصباح التالى باكر كنا قد وقفنا مع DUNKIRKER فأطلقنا عليه القذائف، ولكنه لم يجبنا مرة أخرى ولا هو ضرب، واستعد بقايا بحارة السفينة للمخاطرة وتركناه لكونه فى العميق وليلا نضيع على التجار رحلتهم ، وكانت الريح قليلة الى يوم الاحد حول الظهر فارتفعت فحمدنا الله على أن أرسل الينا عاصفة طيبة منعشة بحيث اننا فى سبعة أيام بعد ما سافرنا من انجلترا وصلنا الى شواطئ البربر، وكذلك كنا سلطنا الممر الخطير الى تطوان، وكان سلوكنا سليما أيضا، وتعجب من ذلك البحارة انفسهم قائلين - كما صنعوا فى الرحلة الاولى من ذى قبل - انهم بالتأكد أدركوا أن ذلك كان وفق بعض الاعمال الطيبة حيث ان الله أرسل علينا ريحا طيبة عجيبة، وسرعان ما كنا فى ظرف يوم سمرسو على شواطئ سلا فى الشمال، ولكن أولئك التجار - وكان لهم حمل ثقيل من البضائع - ترجونى أن يرسوا أولا عند أسفى فى الجنوب ليمارسوا ما عساهم يستطيعون أن يعملوا هناك، وربما كنا من قبل بعيدين عن المغرب خوفا من القرصان الاسبان حيث قالوا انهم استطاعوا بصعوبة ان يأتوا الى سلا التى بها نزلت بمأموريته السابقة، وأذنت للتجار بناء على هذه المناسبة، أن تكون لهم الحرية فى تصريف بضائعهم فى سلا ... (الى أن قال) ... (2) : كان الهواء فى ذلك اليوم أكثر

تشعبا بالبرطوبة وقد اضطرتنا الرياح الهوج الى أن نتوقف عن الابحار خمسة او سبعة ايام حيث لطف الجو بعض الشيء ، فاتينا الى المعبر مرة اخرى ، واضطرتنا الى ان نعبر المضيق نحو تطوان ، وفي الحال ابتدأت الرياح تهب منعشة مما جعلنا نخرج مرة اخرى الى عرض البحر ، ولكننا لم نستطع حيث ارتفعت الرياح واشتد هبوبها اكثر من ذي قبل متجهة الى ناحية الغرب ملقية بنا في البحار العظيمة (المحيط) وحينئذ خفنا على انفسنا من ان نقيم الصواري العالية والقوائم على ظهر السفينة ، وبقينا بين الحياة والموت ثلاثة ايام
الي ان قال : (I)

... الحكام جميعا قد استنكروا اعمال مولاي زيدان الطاغية المذكور وحكمه القاسى الذى هو اصل لكل هذه الشرور ، وقد كرسوا انفسهم جميعا ليكونوا فى خدمة جلالتم ، وقد وجد عليهم مولاي زيدان لاطلاقهم سراح رعاياكم (وخصوصا بعض اطفال الانجليز الذين ختنوا واصبحوا مغاربة مضطرين) ليذهبوا الى بلادهم ويعودوا مرة اخرى الى المسيحية لهذا كتب اليهم رسالة مستعجلة جدا يوغر فيها المغاربة على الاندلسيين بانهم قاموا بمؤامرة سرية ليخلصوا القلعة - قصبة الودايا - الى ايدي جلالتم ، وليصبحوا مسيحيين ، وان سلا مع ميعد مع الموريسكوس المحنقين فى كل اقطار المغرب ليتجمعوا هناك والحقيقة ان لهم الحق فى ان يظنوا ذلك .

القلعة الآن محصنة بالمدافع النحاسية والصخور ، وهى على استعداد لتعبئة هؤلاء الذين هم - على كل حال - أشباه المسيحيين ، وقد انصاعوا هناك الى رئيس ، مما جعل مولاي زيدان يأمر بعض رؤساء الاندلسيين فى مراکش وترك الباقي فى عزلة تامة وهذا سيكون ايضا موجبا آخر لا كراههم على أن يعودوا ويتقهرقروا من كل النواحي الى سلا ، وقد أتت عشر عائلات دفعة واحدة من تطوان .

وحتى الآن لا زالت مكاتبات عزيمة مع الولي العظيم سيدى محمد العياشى الذى يحكم تلك النواحي من سلا الى تطوان وله رغبة أكيدة نحو جلالتم وعداوة شديدة نحو الاسبان ، ولهذا فهو يعرض مساعدته على جلالتم بكل قواته لاحتلال المعمورة أو لتأدية اية خدمة أخرى كما وضحت قبل لجلالتم . وقد سلمت اليه رسالتكم فى سلا القديمة وهى على الجانب الآخر من النهر فسر بذلك سرورا عظيما وعاملنى بمنتهى التقدير والاحترام كما صنع فيما قبل حينما أتيت اليه من تطوان ، وقد ذهبت اليه مرتين فكان فى كل مرة يحدث ان السماء تمطر امطارا غزيرة حينما أكون مجتمعاً معه ، فلاحظ ذلك بعض المغاربة واعتبره دليلا حسنا على أنى قد أتيت اليهم بحظ وسعد عظيم ، لان

ندى السماء مرغوب فيه جدا فى ذلك القطر الحار الناشف ، وقد قادونا فى أول لحظة الى قاعته او خلوة عبادته حيث انه لم يصل الى ذلك المكان أى مسيحى من قبلى لان أولئك الاولياء لا يسمحون لى مسيحى أن يتخطى أبوابهم بناء على أن معابدهم تتلوث منهم . وفى أثناء أحاديثه قال لى :

ان جلالتم لكم من التشريف والحب بين المغاربة أعظمه ، خصوصا لو جددتم الصداقة القديمة التى ابتدأت قديما بين هذا الشعب والشعب الانجليزى وأيضا فانهم قد وضعوا فى ثقتهم التامة فى أن أنفذ ما وعدت به وأن أرجع اليهم برسائل من جلالتم وبتراضية حسنة على كل حال ... (الى ان قال) :

وعلى وصولى الى تطوان ، كان الاسطول قد خرج من انجلترا وأرسل الله اليه ملكا يسير بين يديه ليلقى الرعب فى قلوب الاسبان كما فعل فى أيام يسوع حيث لم يكن هناك مسيحيون فى تلك الايام ليقاتلوا أبطال المعارك الذين سقطوا فى الميدان ...

قتل ثلاثة من أولاد النقسيس

ثم قال المستر هاريسون الانجليزى فى تقريره المذكور ما يلى (I) : «أما رسائل جلالتم - يخاطب شارل الاول ملك انجلترا - الى مقدمى تطوان، فلا يمكننى الآن ان أسلمها اليهم ، لاننى ليست لى سفينة تحملني اليهم غير سفينة التجار التى أتيت فيها ، وقد ارتفعت الضوضاء حولى حيث انى ساعزم على الذهاب بعيدا الى سلا خوفا من الاسبان ، ولو أن جلالتم قد اعطيتهم تحذيرا ملكيا فى تلك الخدمة 280 لبرة لم يسمحوا الا باربعين منها لشركة السفن ، فانهم يكررون تدميرهم فى هذا العمل ، وقد كنت على استعداد لان أمكنهم من قسطنى وستين لبرة زيادة على هذا يجعلهم اكثر رضى

واذا سافرت من سلا الى تطوان بطريق البر ، فان ذلك يكون متعبا جدا وبحراسة فوق العادة وفي خطر عظيم كما قد لقيت فى المرة الاخيرة ، لان حالة تطوان وحكومتها قد تغيرت تغيرا كبيرا عما كانت عليه منذ أن كنت هناك وهى لا تزداد الا خطرا بعد خطر ، فقد ذبح الاندلسيون فى مرة واحدة ثلاثة من المقدمين ، وكان احد الاندلسيين من اقدمهم وهو ابو على (احمد أبو على) وانحاز الباقي اليه قائلين ، انهم كانوا حكام المدينة فيما سبق الى ان كان والد هؤلاء المقدمين النقسيس البربرى أو الجبلى وتبعه خلفه فتمكنوا من الحكم بالقوة وجمعوا بها وبالطعام ، الناس حولهم فاغتصبوا السلطة فنجح أولاده الستة واعتصبوا عصاة اخوان مغاربة أقوىاء ، وسادوا بالدهاء وبالقساوة كما هو شأن

كل الطغاة الاتراك الحاكمين فيما سبق . ثم بحثوا عن التمكين بانفسهم وقبضوا على المدينة جميعها واستبدوا بشؤونها منذ وفاة أبيهم الشهير بالدهاء والقدرة - واتخذوا لانفسهم مظاهر للهيبة خصوصا أحدهم فانه كان أكثر هيبة من باقيهم وهو سيدى عيسى الذى كان أبوه وهو على سرير الموت قد أوصى اليه برئاسة شؤون العدالة، مستعملا قليلا من العدل وكثيرا من السيف ، ولم يمكن الباقي من مشيئتهم، وكان عدد من هؤلاء الاندلسيين قد سقطوا مع الباقي عند حافة ذلك بدون استحقاق كما قالوا، والى جانب ذلك كانت المطالبة بالوعود ... من كلا الطرفين مما جر الى انتهاكات أخر للحرم كثيرا. ومن بين الباقي سيدى عيسى الذى لاجل انتهاك عرض نساء الاندلسيين واخواتهم «حالة فظيعة جدا فى تلك النواحي»

وكانت آخر الحوادث كما سمعت، أن احدى بناتهم تزوجت حديثا وبينما هى عروس بعث بمن يأتى بها فى نفس ليلة الزفاف وشدد على أبويها بواسطة الاصدقاء والاتباع. وكان أبو علي هذا أول الاندلسيين ورئيسهم، فأتى هو وجماعته اليه وكان هو وأخواه الآخرون فى مجلس الشراب - كما هى عادتهم فى كل ليل ونهار - فى بيت أحد اليهود فذبحوهم جميعا بثلاثتهم فى ذلك اليوم. وهذا البيت كان أول بيت أقيمت فيه، بحيث ان الاخوة الآخرين وأحد رؤسائهم سيدى عبد الله أبحروا فى ذلك الوقت وجمعوا حولهم كل أصدقائهم وقواتهم لاجل الانتقام من القاتل الرئيس أبى علي الذى كان قد فر فقتلوا بعض الاندلسيين وعاملوا بقيتهم معاملة طيبة حتى يبقوا فى بيوتهم ويحتفظوا هم بأموالهم كما كان ذلك من ذى قبل فى حالة السلام ، مما جعل الجميع يرجعون الى بيوتهم .

حينئذ تمكن هؤلاء الاخوة الثلاثة من المدينة ولكن فى خوف عظيم وحراسة متوالية قوية حول أشخاصهم، وقد أرسل سيدى عبد الله من قبل كل ماله الى سبته محتما بالاسبان متوقعا أن المدينة ستظل حامية زمنا طويلا بينهم وبين الاندلسيين، لانهم لا يطمئنون الا الى القائم على حفظهم ويتوقعون فى كل يوم أن يعود اليهم أبو علي ويدخل المدينة مرة أخرى ويمكنه أن يقيم فى المدينة حكومة أخرى أقوى معضدا بكل الاندلسيين وغيرهم الى جانب أن له أصدقاء آخرين عظاما فى طريقه الى المدينة، وقد عقد مصاهرة مع مقدمى أنجرة المتأخمة لطنجة، وهم أشد الناس وفاء لجلالتكم، وقد كنتم جلالتم قد كتبت اليهم، فللاسباب السابقة المذكورة ولانه من المظنون أن هذه المدينة - تطوان - ستسقط فى يد الاندلسيين، ستكون النتيجة مع الايام أن كل البلاد من تطوان الى سلا ستساق مرة واحدة الى رياسة واحدة مثل ما ابتداء الآن من كل النواحي والجهات أنهم يطلبون حقيقة أن يضعوا الاساس من هناك، من سلا الى حيث أول مركز لتطوان، كما صرحوا أن الاندلسيين فى الازمان الماضية بكدهم

واجتهادهم - وقد أتوا أخيرا من اسبانيا - قد جعلوا من مزبلة رياضا وأجنة
مثمرة بهجة خصوصا مزارع الكرم التي غرسوها فى كل النواحي، واتخذوا
لانفسهم ذخائر ومؤنا وهي فى ازدياد دائما، لهذا فكرت فى هذه الاسباب
لاقدمها الى جلالتك ولاعلم مشيئتكم فيما بعد، وأكد علي أن أبقي كما وعدت
الولى العظيم والاندلسيين كذلك الذين يتوسلون الى جلالتك باحتلال المعمورة

سبب قتل أولاد النقسيس

قد رأيت فى كلام هاريسون السابق، أن أولاد النقسيس - كلهم أو
بعضهم - كانوا ينتهكون أعراض الناس، وأن سبب قتل ثلاثة منهم هو قضية
لها علاقة بمحاولتهم انتهاك بعض الاعراض، الخ. والذي ذكره هاريسون من
ذلك يغلب على الظن أنه صحيح .

وقد حكى لي صديقي السيد محمد مدينة نقلا عن المسن المرحوم السيد
محمد القطان، أن السبب المباشر لتآمر بعض أهل تطوان على أبناء النقسيس
وقتلهم، هو حكاية أخرى لها علاقة أيضا بمحاولة بعضهم انتهاك عرض إحدى
السيدات الطاهرات وقتلهم لولد لها فى سن الرضاع، وملخص تلك الحكاية،
أن أحد اولاد النقسيس، ولعله كان شابا مستهترا، وربما كان هو المقدم عيسى
ابن احمد نفسه، انتهاز فرصة ساعة الزوال من يوم الجمعة، وهى الساعة التى
يهرع فيها جميع الرجال المؤمنين الى بيوت الله لاداء صلاة الجمعة، وتبقى
النساء وحدهن في بيوتهن، فاقترح فى تلك الساعة إحدى الديار، وأراد أن
ينتھك عرض امرأة شريفة متزوجة، فما كان منها الا أن فرت منه محافظة على
شرفها ودخلت بيتها وأغلقت بابه عليها دون أن تتمكن من حمل ولدها الرضيع
وادخاله معها للبيت، فطلب منها ولد النقسيس أن تمكنه من نفسها فامتنعت،
فهددها بقتل رضيعها ان لم تلب رغبته الخسيسة، فأصرت هى على المحافظة
على عرضها ولو كان فى ذلك قتل ولدها، وذبح فلذة كبدها، ويثس ابن
النقسيس من اذعانها، فنفذ وعيده وذبح ابنها الرضيع وهى تنظر اليه من
شباك بيتها ثم ذهب لحال سبيله دون أن يصل الى غرضه الدنىء منها، وعاد
الزوج المسكين من مصلاه الى داره ليتناول الغذاء مع زوجته - وكان معلما
دباغا - فوجد ابنه الرضيع مذبوحا غارقا فى دمه. وحكت له زوجه الطاهرة ما
وقع، فقال لها، أحضرى الغذاء وتغذى ثم وضع ابنه الذبيح فى قفة وحملها
تحت جلابته ثم صار يطوف بها على رفقاءه من الدباغين وغيرهم فغلى الدم فى
رؤوس ذوى الغيرة على الاعراض والفضيلة، وقرروا أن يغيروا المنكر وأن
يوقفوا أصحاب الفجور والفسوق عند حدهم . فكانت المؤامرة من أصحاب الحرف
وكان الهجوم على الفساق من أبناء النقسيس وهم سكارى فى محل فجورهم ،

وكان ذبحهم فيها ذبح العجول ، وهكذا كانت نهاية الفاسقين « وأرى أنه لا منافاة بين هذه الحكاية وبين ما ذكره المستر هاريسون من وجود حزازات أخرى سياسية وغيرها بين الاندلسيين وأبناء النقيس الجبليين المسطيريين على حكومة تطوان، وأن تكون هناك أيضا محاولة أخرى لهتك عرض عروس في صبيحة يوم زفافها الخ. فالاسباب قد تتعدد وتكون نتيجتها واحدة. وهكذا تحقق المثل التطواني : «من شوكة وردة، ومن وردة شوكة» فبعد أن كان أبناء النقيس خير مثال للشهامة والبطولة والجهاد في سبيل الله، جاءت بعدهم شرذمة كانت شر مثال للفسق والفجور والعياذ بالله .

رسالة من ملك انجلترا الى المجاهد العياشي بسلا سنة 1037 هـ.

قد تقدمت لنا رسالة كتبها الشيخ المجاهد أبو عبد الله العياشي من سلا الى شارل الاول CHARLES I^{er}. ملك انجلترا، وهذه رسالة من الملك شارل الى المجاهد العياشي (I) .

... الى الحاكم المجيد العالي

قد تسلمنا رسائلكم التي تعبر عما أسديتم من معروف الى خادمنا جون هاريسون في هذه الرحلة التي كانت من تطوان، فنكرر لكم شكرنا وسنجازي بما يجازي به مثل هذا الصنيع. وقد أحطنا علما بأنه بواسطة تعضيدكم ومساعدتكم الاندلسيين في تغلبهم على سلا لطرد أولئك القواد الذين كانوا العاملين في التلف الواقع على رعايانا، وليقررروا الحكم الافضل المظمن هناك فنلتمس منك أن تجدد معروفك فيهم ...

I2 اكتوبر 1627. (يوافقه فاتح صفر 1037).

وجاء في تعليق لجون هاريسون المذكور على الاجراءات المتخذة في بلاد المغرب لاجل السلام مع سلا وتطوان ما يلي : (2)

... على أنه أخيرا قد كانت قطعة صغيرة من المدافع قد سرقها من حكام تطوان رجل انجليزي، والآن قد صدرت أوامر بارجاعها ثانية، وإذا رأي أنه من المناسب أن تضم الى ما سيرسل اليهم، فمن المستحسن أن تحمي الطريق تلافيا لهذا ولبعض الاخطاء التي وقعت أيضا في حق ذلك المكان، حيث انه غالبا ما تضطر سفننا الانجليزية للرسو هناك، كما أنه مما تجب مراعاته جيدا، أنه أيضا كان بعض الانجليز قد بيعوا هناك فيما مضى بواسطة الاتراك كأسارى

(I) ص 60 من المجلد الانجليزي الثالث

(2) ص 71 من المجلد الانجليزي الثالث

هناك، وأن حكام تطوان هؤلاء قد عرضوا أيضا خدماتهم على صاحب الجلالة كما يبدو ذلك من رسائلهم.

هاتان الناحيتان، تطوان وسلا، واحداهما داخل المضيق والاخرى خارجه - ونحن الآن نحارب كلا من الاسبان والفرنسيين - كثيرا ما تجب رعايتهما، حيث إن سفننا يمكن أن تمون نفسها بالماء والطعام وبعض الحاجيات الاخرى فى جميع الاحوال كما قد وعدوا بذلك.

نعم ان سلا ستمون سفن صاحب الجلالة فى كل احوال الضيق بحرية ومن غير مقابل كما رفعت الى النظر العالى، وليست هناك أية مصلحة تخصني بالذات، ولكن واجبي وقد وظفت من قبل صاحب الجلالة، أن أقدم خدماتي الى صاحب الجلالة، وأن أدعو الى الديانة المسيحية لتكون فى حيز مصالحى الشخصية، كما هو الامل الاعظم هناك أن تشفع هاتان البدايتان الطيبتان ... والآن فاني أقدم الى صاحب الجلالة والى مجلس الشورى الشريف تقريراً عادلاً صادقاً عن أعمالي هذه، وسأكون راضياً بعد رحلاتى الشاقة ونفقاتى الباهظة وراغباً فى أن أعتزل وأن أدعو الله لانجاح شؤونهم ...

متم سنة 1627. (يوافقه ربيع الاول 1037)

منشور من ملك انجلترا عن سلا وتطوان وغيرهما عام 1038 هـ.

وهذا منشور أصدره شارل الاول ملك انجلترا محذراً فيه أصحاب المراكب الانجليزية من الاعتداء على أهل الجزائر وتونس وسلا وتطوان، آمراً لهم بحسن معاملتهم الخ. ومهدداً بالعقاب كل من يخالف ذلك الامر من الرعايا الانجليز ونصه : (I)

«إنه حيث إن الشكاوى المتنوعة قد وصلت إلينا أخيراً من سكان الجزائر وتونس وسلا وتطوان والبلاد التى هى تحت الحكومات السالفة، بتلك الاخطاء المختلفة العظيمة التى وقعت عليهم من جانب رعايانا فى البحر، والتي لو كانت قد حصلت فانها تخالف رعايتنا الملوكية، وانها بدون أى تفويض من جانبنا، وعليه فاننا قد أخذنا ذلك بتبصرنا الاميرى وأكدنا تماماً وعدنا بحسن المعاملة لهؤلاء الذين لهم تعامل تجارى مع رعايانا او سيكون منهم تبادل كما يقتضى به الاحسان والسلام المعقود لرعايانا التجار فى تلك النواحي برغبة من مجلسنا الخاص، فليعمل بهذا المنشور الذى ينص على ارادتنا الملوكية، وبهذا التفويض المطلق، ونأمر كل رعايانا المحبين بذلك وليقدروا الدرجة والكيفية على ذلك النحو والمصلحة التى تفرض عليهم أن يمتنعوا من الآن فصاعداً من

كل أعمال العدوان، وأن لا يبدوا أية قسوة أو معاملة سيئة لاي شخص من الاشخاص أو السفن أو البضاعة التي تتعلق أو ستتعلق بالجزائر أو تونس أو تطوان أو سلا أو أى ميناء آخر أو ناحية من الاقطار التي هى تحت نفس الحكم، وليجيبوا بالعكس عند اخطارهم وليتجنبوا سخطنا العالى الرفيع والعقوبات العظيمة التي سيحلها بهم قانوننا اذا ما ازدروا بهذا وأهملوا فى شأنه...
صدر بقصرنا فى WHITHALL فى الثانى والعشرين من اكتوبر سنة 1628 م (يوافقه 23 صفر 1038 هـ)

المقدم عبد الله بن أحمد النقيس عام 1038 - 1629 م.

المقدم عبد الله بن أحمد النقيس، هو أحد الابناء الستة الذين خلفهم المقدم المجاهد أبو العباس أحمد بن عيسى النقيس، وقد تولوا الحكم من بعده. وقد سبق لنا أنه عند ما توفي المقدم أحمد، بقي حكم تطوان بيد أربعة من أبنائه، وهم عيسى وعبد الله واخوان آخران لهما، ثم قتل عيسى مع أخويه المذكورين، وفر اخوهم عبد الله وتسلم الحكم جماعة من أهل تطوان الاندلسيين وفى مقدمتهم أحمد أبو على، ثم عاد عبد الله النقيس بقواته الى تطوان وتغلب على خصومه واسترجع الحكم من أيديهم وضم اليه أخوين آخرين له النخ .

بين عبد الله النقيس وملك انجلترا

وقد أرسل عبد الله المذكور الى شارل الاول ملك انجلترا بعض الهدايا مصحوبة برسالة أجابه عنها الملك المذكور برسالة أخرى هذه ترجمتها نقلا عن النص الانجليزى : (I)

من شارل الذى هو بفضل الله ملك بريطانيا العظمى وفرنسا وارلندا وحامى العقيدة المسيحية... الى السيد الرفيع العظيم سيدى عبد الله النقيس حاكم تطوان، أحييكم .

وبعد فقد تسلمنا رسالتكم من خادمنا جيلس بن JYLES PEN مع طائفة من الصقور أرسلتها الينا معه، وقد أنفذناه اليكم مرة أخرى مع تشكراتنا عليها ءاملين أن تمنحوه اذنكم وسماحكم له بأن ينقل من هناكم الينا صقورا أخرى وأفراسا من أحسن الاصول وأجود الانواع هناكم، وباسمنا فانه سيفضى اليكم بما نرجو أن تكونوا على استعداد لتمكنوه منه تحقيقا لطلبنا، وحيث أن خادمنا المذكور قد بين لنا العلاقة الحسنة والمعاملة التجارية التي يجدها رعايانا فى مينائكم هناك ، فنحن لاجل ذلك ولما أبديتموه من تقدير نحونا، نبعث اليكم

بتشكراتنا الملوكية راغبين في استمرار وتنمية تلك العلاقات الطيبة التي سبق أن أنشئت معكم ، مؤكدين لكم أن كل ما تأمرون به من بضاعة مهما تكن في أية ناحية من نواحي مملكتنا، فهي في خدمتكم. وأخيرا قد أصدرنا الاوامر الى تجارنا بأن يترددوا على مينائكم المذكورة ومدينتكم ببضائعهم، وأن يتاجروا هناك ما داموا يجدون أسواقا ملائمة لتجارتههم ومعاملة حسنة لاشخاصهم مما ليس لنا فيه أدنى شك .

وعلى كل فنحن ايضا قد تركنا الكتابة اليكم وبعثنا خادما المذكور - جليس ين - ليعقد معكم باسمنا الاتفاق، وقد مكناه من تلك السلطة ، فنأمل منكم أن تعتمدوا عليه تمام الاعتماد ، وأن تضعوا فيه ثقتكم .

صدر تحت خاتمنا وامضاء يدنا في بلاطنا الشريف COURTE HAMPTON في اليوم... من اكتوبر من السنة الخامسة عشرة (I) من ملكنا - (يعنى سنة 1629) (وأوائل اكتوبر سنة 1629 . توافق أواسط صفر عام 1039) .
وقد وجدت في كناش الفقيه بن رحمون التطواني أن عبد الله النقسيي أخرج من تطوان عام 1040 ، ولكنه لم يبين كيف كان اخراجه والى أين ذهب . وذلك ما وجدناه مبينا في المصادر الافرنجية كما سيأتى لنا بحول الله .

من أخبار تطوان في هذا العهد

ومن أخبار تطوان والمغرب والمساعي الانجليزية فيه في ذلك العهد ، ما كتبه المستر هاريسون الانجليزى في تقرير رفعه الى ملك انجلترا بتاريخ ثامن اكتوبر سنة 1630. (الموافق لفتح ربيع الاول عام 1040)، ومما جاء فيه ما يلى: (2)
« وفي ظرف عشرة أيام كنا على شاطئ أرض البربر ، وكانت الهبة نفسها من الريح - وأنا متأكد أنه الله نفسه - حيث كانت الرحلة من قبل ومن نفس المكان DARTMOUTH . وقد هبت الريح بنا فى سبعة أيام وثمان ليال وكانت الرحلة الاخرى من قبل قد استغرقت تسعة أيام من DOWNES الى قم المضيق من حيث اتجهنا الى تطوان ... الى أن قال : (3)

« توسلت الى الحكام لينادوا على اصحاب الجمرى وقد فعلوا مدعين أن كثيرا من الاخطاء قد ارتكبت فى حقهم من جانب قرصاننا الانجليز فى البحر منذ أول معاهدة ، وقد ألقوا برجالهم على ظهر السفينة وسلبوهم بضائعهم ومقدراتهم ، فقلت ان ذلك كان من غير علم من جلالتك ومخالفا لارادتك ومشيتكم ، وعلى ذلك فلاجل منع كل هذه المخالفات من الآن فصاعدا فإن

(I المعروف أن شارل الاول تولي الملك سنة 1625 م.

(2 ص 104

(3 ص III.

جلالتكم ستنشرون اعلانا صارما أطلعتهم عليه وعلى الغرامات فى ذلك الصدد .

وحيث انى قد اخذت أعظم قصاص وخاطرت بنفسى أولا بواسطة سفرى عن طريق البر من تطوان الى سلا، وقبل ذلك سافرت بحرا مرتين لآتى اليهم ، فقد كانوا مسرورين ليعلموا لى شكواهم السابقة حينئذ فوعدهم بأنه فيما بعد لن ترتكب فى حقهم أخطاء أيضا ... الى أن قال : (I)

... وفى خلال بضعة أيام تسلمت رسالة من سيدى محمد العياشى بواسطة رسول أرسله الي خصيصا، وقال : ان الولى راغب جدا فى أن يتكلم معي، وكذلك مقدم تطوان (عبد الله بن أحمد النقسيى) وكذلك تسلمت رسالة أخرى من تاجر انجليزى بتطوان فى هذا الغرض شارحا لى كيف أنه كثيرا يعتمد على الولى لتخليص أصيلا بعد تحطيم أسطوله الذى ذكر أنه عمل وفقا لاقتراحاتى أو لاوامر أرسلت اليه من هنا ...

وتسلمت أخرى من أحد الاندلسيين بتطوان حيث فر انجليزى من سيده الذى كان يعامله بقساوة وقد أدى قبله خمسين دوكة بربرية، وكان سيبقى معه الى أن يؤدى ذلك المال الكثير لتعود اليه الحرية مرة أخرى ومع أنى بعد انفصالي عنهم قد ذهبت فى سفينة انجليزية كانت تحمل قطعة صغيرة من المدفعية، فانها كذلك قد سرقت من شاطئى ينتمى الى حكومة المقدم الذى شكوته الى رؤساء القناصل بواسطة من تركته هناك، وأتيت فى نفس الوقت الذى كنت مأمورا بالرجوع مرة أخرى، وكان المال بالاندلس قد وضع عند SIR HUGH HAMERSTRYES ALDERMAN لندن الذى كما يقول خلص ذلك أو أرسله من هناك الى القبطان LEATES حالة كانت سفينته قاصدة الى هناك فى رجوعها بناء على السلام الذى كان معقودا بين كل ...

ولكن القبطان مخجل جدا بيننا جميعا حيث اننا رجال مكان ثقة وان هذا الامر يلصق بجلالتكم أعظم اهانة وخزى...

جماعة الاندلسيين من حين لآخر يكتبون الي بما يرون ابداءه من عدم الارتياح الى الموقف الذى ينافى الشرف (2)، وقد وقع سادة المجلس الشورى والعهد الملقاة على عاتقي حيث انى لا أجرو على العمل ...

(I) ص II2 .

(2) يشير الى الصرامة التى ظهر بها البرلمان الانجليزى أمام التصرفات الاستبدادية التى كان يتصرفها كـرلوس الاول (شارل) ملك انجلترا، وانتهى الامر بأن قتل البرلمان الانجليزى هذا الملك المستبد سنة 1649 م . ت. و .

من المساعى الانجليزية بالمغرب فى هذا العهد

ومن المساعى الانجليزية بالمغرب فى هذا العهد، ما جاء فى تقرير كتبه المستر هاريسون الانجليزى السابق الذكر عن المعمورة بتاريخ 8 اكتوبر سنة 1630 م (الموافق فاتح ربيع الاول عام 1040) ومنه ما يأتى : (I)

«قد عرض مقدمو - أو - حكام تطوان برضاهم، خدماتهم علي ومنذ أن كان حاكم تطوان هو سيدى عبد الله وحده، فقد كتب الى جلالتم مرة أخرى بواسطة الكابتن PEN وبعث معي كلمة الى سلا بأنه كان متعجبا جدا من أنه لم يسمع بأى شىء بالمرّة منى حالة كوني قد وظفت فى ذلك الوقت لاجل تلك الحالات التى أوجبتها جلالتم، لهذا فان هذين المكانين يمكن أن يستغلا للتمكن من جبل طارق وسبتة، وبذلك نقبض على المضيق كما فعل ملوك الدانمرك فى المضيق SOUND فاذا قمنا بهذا العمل النافع، فان له من بعد كل بلاد البربر الصديقة كما صرحوا بذلك أنفسهم فى رسائلهم وعهودهم الاخيرة حيث إن فى ذلك الوقت على عودتي كنت أعطيت جلالتم ومجلس الشورى حسابا مقررًا، ومنذ ذلك الوقت توسلوا الي من وقت لآخر كما رغب المغاربة أنفسهم فى أن أكون على الحاح مترقبا الجواب كدى قبل .. الخ. وجاء فى مذكرة أخرى له كتبها عن المغرب بتاريخ 25 يولييه سنة 1631 م (26 حجة عام 1040 هـ) ما يلى : (2)

«بمناسبة تلك الخدمات السالفة التى قمت بها فى أرض البربر خلال أيام سكنائى هناك فى مرات متعددة ، وأماكن مختلفة ، فانى لاحظت حالة القطر ومركز الشعب منه، وقد داخلت الموريسكوس أو الاندلسيين الذين طردوا من اسبانيا ، والذين كثير منهم قد اعترفوا لي بأنهم فى داخليتهم مسيحيو القلوب وهم يتظلمون بمرارة من تلك الطردة القاسية، ويعرضون خدماتهم باسم جميعهم اذا كانت هناك أية حالة حرب ضد اسبانيا. مشتاقين بحرقه الى أن يصبحوا تحت حكم مسيحي مرة أخرى

«قلت» ان هذا السياسى الراهب الجاسوس كاتب هذا التقرير ، كثيرا ما يتهم أندلسيى المغرب بالحنين الى المسيحية والعطف عليها وتمني دخولهم فيها الخ. وعمله هذا لا يخرج عن كونه صادرا عن بلادة وغباوة فى نفسه ، أو تدجيل وتضليل لحكومته، والذى نرى أنه ان كان قد وقع شىء من ذلك ظاهريا ، فانما هو ناشئ عن السياسة التى كان أولئك السياسيون المسلمون الاندلسيون يعاملون بها هذا الراهب الذى يظهر انه كان يسره أن يسمع الثناء على الدين الذى يعمل لنشره، والعقيدة

التي يدعو اليها، لقد شعر اولئك السياسيون المرنون بنقطة الضعف في هذا المبعوث السياسي من دولته لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية وغير ذلك فصاروا يضربون على وتره الحساس لاستجلاب عطفه عسى أن يتمكنوا من حمل دولته على تأييدهم فيما كانوا يرغبون فيه من محاربة أعدائهم الذين حاربوهم في دينهم ، وطردوهم من وطنهم .

لقد كان اولئك الاندلسيون يعملون بكل ما في وسعهم لاضعاف قوة الاسبانيين واخراجهم من المراكز التي كانوا قد احتلوها بالمغرب ثم العمل على تأليب الدول عليهم لخضد شوكتهم واضمحلال دولتهم لعل الحكم الاسلامي يعود الى الاندلس، فيعود اولئك المهاجرون الى وطنهم الذي عاشوا فيه كما عاش أجدادهم ما يزيد على ثمانمائة عام .

واذا كان لديهم حنين حقيقة، فانما هو الى ذلك الوطن المحبوب، لا الى الديانة المسيحية التي منها ومن طغيان رجالها فروا الى بلاد الاسلام شرقا وغربا، وانظر كيف يصرح هذا السياسي في تقريره بأن أولئك الاندلسيين « يعرضون خدماتهم باسم جميعهم اذا كانت هناك أية حرب ضد اسبانيا »

وليت شعري كيف يتفق مع هذا ما جاء في كتاب الاستقصا من أن أندلسي سلا «يعنى أهل رباط الفتح كانوا ناصحين للكفر وأهله، الخ. حاشا ثم حاشا ومعاذ الله أن ينصح للكفر وأهله، من ترك وطنه ووطن آبائه وأجداده وأهله وأصحابه وجميع ما يملك من متاع الحياة الدنيا، لا لشيء سوى أن يتمكن من المحافظة على دينه الاسلامي الحنيف، والعيش في وسط اسلامي يؤدي فيه شعائره الدينية بحرية، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين .

الا قبح الله السياسة التي تعمي وتضم وتوقع في شراكها المغفلين من المنتمين للعلم او الصلاح .

ثم قال م. هاريسون الانجليزى في تقريره ما يلي : (I)
« قبل حملتنا العظيمة الاخيرة الى قالص - كما كان واجبي - أعلمت السير البرطوس مورتون - SIR ALBERTUS MORTON ثم سكرتير الدولة وهو بعد ذلك صاحب الجلالة والدوق بوكنگام DUKE OF BUCKINGHAME مع الخبر الذي علمته مؤكدا لهم أنه اذا كان الغرض في هذه الانحاء فانه يستحسن أن يعامل معاملة طيبة، ذلك القطر وأولئك الاهالي حالة كونه اهلا بالناس والتجار، قاطعا على نفسي أن أحصل على عشرة آلاف من هؤلاء الموريسكوس المستعدين الى خدمة صاحب الجلالة في ذلك الظرف ، حيث كان قد فهم جيدا وأدرك أنه في الحاضر عندئذ قد أخذت مكاني الى البربر قبل أن يبحر الاسطول وأنه كان لي عبور سريع جدا بحيث إنه في تسعة أيام كنت قد

[illegible]

قالوا ان صاحب الجلالة عليه أن يحتفظ بالسفن طول مدة الصيف ليضايق العدو الخ.

استيلاء أصحاب المجاهد العياشي على تطوان عام 1040

وقفنا في مجموعة الوثائق الفرنسية للكونت هنري دي كاستري (I) على تقرير رسمي كتب في 31 أكتوبر سنة 1631 (وهو يوافق 5 ربيع الثاني عام 1041) وفيه معلومات مهمة عن حوادث تطوان في ذلك العهد، وملخصها أن حاكم تطوان المقدم عبد الله النقسييس لم يكن خاضعا لحكم المجاهد أبي عبد الله العياشي الذي كان بسلا (2) ولم يقبل أن يسلم له تطوان، فكان العياشي يتأسف لبقاء هذه المدينة خارجة عن حكمه، وقد أراد أن يضمها الى منطقة نفوذه بدون إراقة الدماء، فبعث بعض أنصاره اليها وقاموا بدعاية سرية للثورة ضد المقدم عبد الله النقسييس والانضمام الى العياشي ولم تعد هذه الدعاية أنصارا فانضم الي أصحابها خصوم عبد الله النقسييس وتمت المؤامرة وفتح المتآمرون أبواب المدينة فدخلها أصحاب العياشي وعلى رأسهم سليمان بن يوسف مقدم الخروب وأحمد أبو علي الذي كان من أكبر خصوم عبد الله النقسييس وعائلته.

فرار عبد الله النقسييس الى غمارة

وقد فر المقدم عبد الله النقسييس الى تارغة من بلاد غمارة في الجنوب الشرقي لتطوان، وأمر أبو عبد الله العياشي قائده سليمان بن يوسف أن يجمع من أهل تطوان ونواحيها نحو ثمانية آلاف شخص ويبعثهم لقبض عبد الله النقسييس أو قتله، وفعلوا جمع هذا الجيش وخرج لتنفيذ ذلك الامر في 25 أكتوبر سنة 1631 م (29 ربيع الاول عام 1041)

(1) ج 3 ص 422 من سجلات فرنسا.

(2) أبو عبد الله العياشي هو الشيخ المجاهد أبو عبد الله محمد بن احمد المالكي الزياتي المعروف بالعياشي ونسبته الى بني مالك الهلاليين من عرب الغرب. وكان رحمه الله من أبطال المجاهدين، وقد قاتل برتغال الجديدة وضيق عليهم، ولما كان زمن الفترة او الفوضى المشهورة في انحاء المغرب، اجتمع عليه كثير من الناس وقدموه على أنفسهم وبايعوه على الجهاد والتزموا نصرته عام 1023. فقاتل الاجانب الذين كانوا قد احتلوا بعض نواحي المغرب، وأوقع ببرتغال الجديدة، ودخلت في طاعته بلاد مغربية كثيرة في مقدمتها مدينة فاس، ثم حصلت خلافات داخلية أدت الى النفرة بينه وبين أهل الدلاء حتى أفضى الحال لنشوب القتال بينهما، ثم ان جماعة من الاعراب غدروا بأبي عبد الله العياشي فقتلوه واحتزوا رأسه في تاسع عشر محرم الحرام عام 1051. وقد كان من أكابر أصحابه، المقدم المجاهد أبو العباس الخضر غيلان رحم الله الجميع.

وقد نقلنا من الكناش المخطوط للفقيه سيدي التهامي بن رحمون التطواني ان اخراج المقدم عبد الله النقسييس من تطوان كان عام 1040 ثم لا ندرى ما ءال إليه أمر تلك الحركة، الا أن من المحقق أن أصحابها لم يتمكنوا من القاء القبض على النقسييس المذكور .

النقسييس ملتجئ عند اسبان سبتة

ثم ان عبد الله النقسييس لم يبق مقيما في تارغة من أرض غمارة ، وكأنه خشي من القاء القبض عليه وتسليمه لخصومه في تطوان، فانتقل الى سبتة والتجأ بها عند الاسبانيين، وقد وقفت في الكتاب المسمى LIBRO DE LGS VEEDORES DE CEUTA (I) على نص رسالة بعثها ملك اسبانيا من مدريد الى حاكم سبتة في ذلك العهد بتاريخ 11 مايو سنة 1633 م (موافق ثانی ذی القعدة الحرام عام 1042) والمفهوم من تلك الرسالة، أن عبد الله النقسييس، ومن معه قد لجأوا الى سبتة، فأمر ملك اسبانيا حاكمها بأن يحسن استقبالهم ويدفع لهم المال من المصاريف السرية، ولكن مع الاحتراس منهم الخ.

وهذه ترجمة الرسالة المذكورة مع عنوانها من الكتاب المذكور (2)

رسالة من ملك اسبانيا في شأن النقسييس

وثيقة صاحب الجلالة المتعلقة بقضية عبد الله النقسييس المسجلة «خورخي سيكو» بمحول الصفحة رقم 191 .

الى الحاكم من طرفنا على مدينة سبتة.

ان رسائلك ورسائل كل من حاكمي طنجة والعرائش، تفيد أن عبد الله النقسييس والكلاطي الانجری ومفضل، قد دخلوا هذه المدينة، كما أنهم تطارحوا على حامية طنجة والعرائش وتعلقوا بالشيخ لكي تسوى نزاعاتهم حتى اذا انتظم لهم ما يحبون من جمع الكلمة، خفوا لمحاربة أتباع المرباط (3) الذين نزعوا عبد الله النقسييس من حكم تطاون، وحدث أن الكلاطي ومفضل عند ما قصدوا مدينة العرائش كان في رفقتهم الشيخ يحيى ومسلمون تابعون لحاكم القصر الكبير، وفي اجتماعهم هذا أخذوا يتجادلون في القضايا التي كانوا يحاولون بحثها

(1) مؤلفه JOSE DE ESAGUY وقد طبع بطنجة سنة 1939 وهذه الرسالة موجودة في ص 147 منه.

(2) هذه الترجمة الى العربية من الاسبانية بقلم صديقنا الاستاذ سيدي التهامي الوزاني حفظه الله.

(3) يعني باتباع المرباط، أصحاب أبي عبد الله العياشي

كما أنهم تجادلوا في حدود املاكنا، وهذه الاجراءات أحسبها خدمة جليلة لجلالتنا فلحضرتمكم منا جزيل الشكر على الاعتناء الشديد الذي أوليتوه هذه القضية وأمركم أن تسيروا على هذه الوتيرة، وإذا وقع ونزل وعاد هؤلاء المسلمون الى هذه المدينة فأجملوا مقابلتهم، وأسرعوا في امدادهم بالمال المعتاد أن ينفق على الطرقات السرية، وإن هنالك حكاما يعرفون بما لهم من حزم ورزانة كيف يواجهون مثل هذه الشؤون، وإذا لم تكن لكم ثقة بهم فعليكم في سائر الاحوال أن تأخذوا الحذر اللازم، وقد أمرنا حاكم مدينة صيدونيا بأن يتعامل معكم في هذا الامر، فعليكم أن تعلموه حتى يكون عالما بما يحسن لخدمتنا، وبهذا أحسب أنني مخدم.

مدريد II مايو 1633

الملك

بين حاكم تطوان وملك انجلترا عام 1041

ثم ان سليمان بن يوسف - حاكم تطوان الجديد - سعى في ربط علاقات ودية مع الحكومة الانجليزية، وقد بعث الى شارل الاول ملك انجلترا رسالة كتبها بتطوان في 30 مارس 1632 م (9 رمضان 1041) ومما جاء فيها (I) ما مضمونه : «انه علم من بعض تجار تطوان أن ملك انجلترا كان قد أوصى مقدم تطوان السابق عبد الله النقسييس بأن يحسن معاملة الرعايا الانجليزيين الخ. وأنه - أي سليمان - يتعهد للملك انجلترا باسم رئيسه سيدي محمد العياشي بتنفيذ رغباته، وبمعاملة الرعايا الانجليز بأحسن مما كان يعاملهم به الحاكم النقسييس، وفعلا بعث اليه ورقتي جواز، احدهما لتجار لندن، والاخرى لتجار بريستول، وذكر له أن التجار المذكورين يمكنهم أن يصلوا بمراكبهم الى ميناء تطوان ءامين اعتمادا على الورقتين المذكورتين الخ. وقد كتب في آخر هذه الرسالة بالحروف العربية ما نصه :

«وكتب مملوك سدي محمد العياش (كذا) سلمن (كذا) بن يوسف»
ثم ان الذي يظهر، أن سليمان بن يوسف هذا هو الذي كان حاكما لهذه المدينة من قبل رئيسه أبي عبد الله العياشي حاكم سلا وما اليها، أما أحمد بوعلی الاندلسي التطواني فانه كان زعيم أندلسيي تطوان، وهو الذي سبق له أن سعى في قتل خصومه الحكام الثلاثة المستهترين من أولاد النقسييس، اخوة المقدم عبد الله الذي فر بعد ذلك الى غمارة ثم الى سبتة الى آخر ما تقدم

ثم ان نفوذ أبي عبد الله العياشي، ظل قائما بتطوان الى أن وقع الخلاف بينه وبين الدلائيين، وقامت الحرب بينهما، فضعفت شوكة العياشي واستقلت

(I) أصل هذه الرسالة مثبت باللغة الاسبانية في ص 182 من المجلد الثالث من المجموعة الانجليزية

هذه المدينة بحكم نفسها وبأشر الحكم فيها مجلس من أهلها الذين كان جلهم في هذا العهد من مهاجري الاندلس، ثم بعد مدة عاد الامر فيها الى اولاد النقسييس، ولم نقف على تفصيل ذلك الا أن الذي يظهر والله أعلم، ان عودة الحكم الى يد اولاد النقسييس، كانت بتضامن مقدمى القبائل الجبلية مع المقدمين من أبناء النقسييس لتبقى السلطة العليا فى هذه النواحي بيد المقدمين أى بيد رجال الحرب لا بيد غيرهم من أهالى المدن وغيرهم .

ولم نقف أيضا على بيان ما فعل الله بالمقدم عبد الله النقسييس بعد ركونه الى أسباب سبته، كما لا ندرى أين كانت وفاته وفي أى تاريخ كانت ...

المقدم محمد بن عيسى النقسييس 1050

المقدم محمد بن عيسى النقسييس هو أيضا أحد أولاد النقسييس الذين تولوا حكم تطوان، ولم أقف على اسمه في المصادر العربية المطبوعة، وانما عثرت عليه بخط الفقيه سيدي التهامي بن رحمون فى كناشه، اذ فيه أنه تولى أمر تطاون عام 1050. وتوفى عام 1063. وذكر من حوادث عهده أن الغزوة التى أسر فيها ابن القبطان بفحص سبته، كانت على يده عام 1058 (1648) وهذه الغزوة لم نعرف عنها شيئا اكثر من ذلك.

والمقدم محمد هذا هو الذى ذكره المؤرخ سكيرج وحدد تاريخي ولايته ووفاته، وذكر أنه أول من تولى حكم تطوان من أولاد النقسييس، أما التاريخ الذى ذكره فهو صحيح كما علمت من كلام ابن رحمون، وأما أنه هو أول من تولى من أفراد عائلته، فقد علمت مما سبق ما فيه. وفى هذا الموضوع يقول صديقنا ورفيقنا الاستاذ سيدي التهامي الوزانى ما نصه :

«الظاهر من نظام ذلك العصر، أن مقدمة الجهاد لم تكن ملازمة للعمالة، بل كانت منظمات شبيهة بمنظمات الاحزاب الفاشية تسند الحكومة القائمة وتعمل بالاتفاق معها، وعند ضعف الحكومة المركزية يستقل المقدمون بالبوايدى والثغور، وربما استبدوا حتى بالمدن والعواصم، وفى عهد مولاى اسماعيل السجلماسى تقوت الحكومة المركزية فاصبح كل شيء للسلطان، وكان فى طول عصر مولاى اسماعيل ما أكد هذا النظام طيلة حكم العائلة العلوية. أما السعديون فقد وجدوا مقدمة الجهاد قائمة، بل هم كانوا من مقدمى الجهاد فأيدوه، ومن هنا نعلم أن كلام السكيرج قد يحمل على هذا المعنى بحيث كانت مقدمة الجهاد منفصلة عن العمالة، وأول من جمع بين الوظيفين من أولاد النقسييس هو المقدم محمد بن عيسى والعلم لله اهـ. وهو توجيه لطيف وجيه، ولكن ماذا نقول فى المستندات الرسمية التى تصف عبد الله النقسييس وغيره من المقدمين أولاد النقسييس بأنهم كانوا حاكمين بتطوان، أى أنهم كانوا جامعين

بين المقدمة والحكم معا، وقد سبق لنا فى رسالة ملك اسبانيا الى حاكم سبتة عام 1042 أن اتباع المرابط - أبى عبد الله العياشى - عزلوا عبد الله النقسييس من حكم تطوان لا من مقدمة الجهاد فقط.

واذا لم نتسرع بتخطئة المؤرخ سكيرج، فانه لا يبقى لنا فى تبرير كلامه، الا أن نفهم أنه أراد أن محمد بن عيسى النقسييس هو أول نقسييس تولى الحكم بتطوان مستقلا به، وقد يصح لنا أن نفهم هذا لان أبا العباس النقسييس الكبير الاول، انما كان أولا مقدما للمجاهدين فاتسع نفوذه حتى طغى على نفوذ كل من عداه بتطوان من مقدمين وحكام، فلما توفى بقي الحكم بيد أربعة من أبنائه مجتمعين، ولم ينفرد بذلك الحكم أى واحد منهم حتى عبد الله نفسه فانه لما تولى بعد قتل اخوته الثلاثة، كان الى جانبه أخوان له أيضا. فلما تولى محمد بن عيسى منفردا بالحكم كان هو اول من تولى الحكم من أبناء النقسييس بهذه الصفة والله اعلم.

ثم ان الذى يظهر، أن محمدا هذا هو ابن عيسى بن احمد، أى أنه حفيد المقدم الكبير، أبى العباس أحمد بن عيسى النقسييس. وقد طالت مدة حكمه كما رأيت ثلاث عشرة سنة، ويظهر أن الاحوال الداخلية فى عهده كانت مستقرة حتى إنه كان يقوم بغزو سبتة ويعود من غزوه بالاسارى .

وفى عهد محمد هذا ظهر أول ملوك الدولة العلوية، وهو المولى محمد ابن الشريف، الا أن نفوذه لم يمتد الى ناحية تطوان التى هي فى أقصى الشمال من بلاد المغرب، فبقيت الحالة فيها على ما كانت عليه من قبل كما سيأتى بيانه بحول الله .

المقدم عبد الكريم بن عيسى النقسييس 1063

المقدم عبد الكريم بن عيسى النقسييس، هو أيضا أحد الافراد الذين تولوا حكم تطوان من هذه العائلة، وقد ذكر أبو محمد سكيرج اسمه، وأنه تولى بعد وفاة أخيه المقدم محمد - الذى سبق لنا أنه توفى عام 1063 وهو كذلك، فقد وجدت فى كناش الفقيه بن رحمون أن عبد الكريم هذا تولى أمر تطاون عام 1063. وذكر السكيرج أيضا أنه لبث حاكما بها تسعة أعوام، وفى بحث المستعرب سرديرة الاسبانى، أنه حكم تطوان سبع سنوات فتكون نهاية حكمه عام 1070 - او - 1071 .

وقد وقفت أيضا فى مجموعة المصادر التاريخية المذكورة انفا (I) على رسالة جاء فيها أنه فى يونيه سنة 1056 م (1066 هـ) وصل بعض الانجليزيين البحارين الى ميناء تطوان وكان حاكمها اذ ذاك هو المقدم عبد الكريم النقسييس

فسمح لهم بأخذ الماء واللحم، وعاملهم معاملة حسنة، ثم كانت لهم معه علاقات ودية الخ .

وسيأتى لنا بعض ما وقع فى عهد عبد الكريم هذا من حوادث.

تطوان تحت حكم الغزوانى صاحب الخضر غيلان

يقول المستعرب سرديرة الاسباني فى بحثه، ان عبد الكريم النقسييس بعد أن حكم سبع سنوات، توفى فخلفه الغزوانى صاحب الخضر غيلان، وقد قدرنا أن وفاة عبد الكريم المذكور كانت سنة 1070 - او - 1071. فتطوان قد دخلت فى حكم المقدم الخضر غيلان، والذي كان حاكما بها نيابة عنه هو الغزوانى هذا. ولا نعرف شيئا من تفاصيل هذا الحكم ومدته وحوادثه بالتدقيق، الا أن سرديرة ذكر أن هذه المدة كانت قليلة، وأن أحمد بن عبد الكريم النقسييس خلف الغزوانى المذكور فى حكم تطوان .

أحمد بن عبد الكريم النقسييس عام 1071

نقلنا عن بحث سرديرة أن الغزوانى صاحب الخضر غيلان بعد أن حكم بتطوان مدة قليلة، حل محله أحمد بن عبد الكريم النقسييس، فان صح ذلك، فمن المحتمل أن أهل تطوان عموما لم يرضوا بحكم الغزوانى المذكور فعزلوه وولوا النقسييس المذكور مكانه، ومن الممكن أن تكون عصابة اولاد النقسييس بالخصوص هى التى تغلبت على الغزوانى وطردته وأسندت الحكم الى أحدهم أفرادها، وقد نتج عن طرد الغزوانى أن رئيسه المقدم الخضر غيلان، عاد لمهاجمة تطوان من جديد، الا أن الخلاف بين الطرفين لم يطل، وانعقد الصلح فيما بينهما كما سيأتى.

وقد ذكر السكيج أن الذى تولى بعد عبد الكريم النقسييس هو أخ له لا ابنه، الا أنه لم يعرف اسمه، وذكر أن هذا الاخ مات مقتولا، وأن الذى قتله هو أحد اولاد الرموز دفاعا عن عرضة وسرفه، لأن النقسييس المذكور أراد الاختلاء على وجه غير شرعى باخت جميلة للرموز المذكور. وعلى ذلك يكون هذا هو رابع أربعة من اولاد النقسييس قتلوا بتطوان فى حالة سيئة لاسباب غير شريفة والكمال لله .

المقدم الخضر غيلان وأولاد النقيس

تكرر ورود اسم المجاهد المقدم (I) الخضر غيلان فى أخبار هذا العهد ونحن نتميز للفائدة نأتى هنا بفذلكة من أخباره، خصوصا وان لبعضها علاقة بأولاد النقيس وتاريخ تطوان .

فقد ذكر الناصرى فى الاستقصا (2) أن المقدم أبا العباس الخضر غيلان الجرفطى (3) كان من أصحاب الشيخ المجاهد أبى عبد الله العياشى، وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط فلما قتل العياشى فى التاريخ المتقدم (أى عام 1051) استقل غيلان برئاسة تلك الجهة واستمرت حالته الى سنة 1063 فثار فى الفحص وزحف الى القصر الكبير، فقاومه أهله ثم انهزموا فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة من أعيانه وبقي متغلبا على تلك الناحية... ثم ذكر فى الاستقصا (4) أيضا أن السلطان المولى الرشيد بعد أن استولى على فاس فى أواخر عام 1076، وبويع بها، خرج الى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الشائر ببلاد الهبط وكان بقصر كتامة، فزحف اليه المولى الرشيد فانهزم الخضر الى أصيلا اه.

وفى كتاب «الجيش» (5) أن ذلك كان عام 1077.

وقد قرأنا فى تاريخ طنجة (6) أن المقدم الخضر غيلان قد عقد معاهدة مع الانجليزيين الذين كانوا بمدينة طنجة عام 1666 م (1076 هـ) فكانوا بمقتضى تلك المعاهدة يمدونه بكل ما كان يحتاج اليه طول المدة التى قضاهما بأصيلا . وقد بقي المقدم غيلان وأصحابه بأصيلا الى عام 1079.

وفى الاستقصا (7) أن الخضر غيلان فى هذه السنة (يعنى سنة 1079) خلى سبيل أصيلا وركب البحر الى الجزائر.

وفى المصادر الانجليزية أنه فى يولييه سنة 1668 م. جاء الخضر غيلان من أصيلا الى طنجة ومنها ركب البحر الى الجزائر .

(I) ثلاثة ألقاب كانت شائعة فى عهد السعديين، وهى الشيخ، وهو خاص بالسلطين، ولقب بابا، وهو خاص بأبناء السلطان، ولقب المقدم، وهو خاص بكبراء متطوعى المجاهدين
ت. و.

(2) ج 4 ص 14

(3) الجرفطى نسبة الى قبيلة بنى جرفط - او كرفط - الجبلية الواقعة بين مدينتى العرائش وتطوان .

(4) ج 4 ص 17

(5) ص 59 طبع فاس سنة 1336

(6) ج 4 ص 19 .

(7) مجلة السلام م I - ج 6 ص 6.

وفى أول الامر كانت العلاقات سيئة بين المقدم الخضر غيلان وأولاد النقسييس، لما علمت من أن غيلان كان من أصحاب أبي عبد الله العياشى وأن أولاد النقسييس كانوا من أضداد الشيخ المذكور، فكان غيلان يهاجم تطوان وكان المقدم عبد الكريم النقسييس يقاومه ويرد هجماته، واستمر الحال كذلك الى أن توفى عبد الكريم المذكور، واذ ذاك دخلت تطوان فى حكم غيلان وتولى الامر بها نائبه الغزوانى ثم ابدل الغزوانى بأحمد بن عبد الكريم النقسييس كما سبق فاغتاز غيلان من ذلك وعاد الى مهاجمة تطوان من جديد، ويظهر ان الخضر غيلان لما يئس من التغلب على تطوان واقتحامها عنوة كما فعل فى القصر، عقد الصلح مع أولاد النقسييس.

وفى بحث سرديرة أن الذى باشر عقد الصلح مع الخضر غيلان، هو أحمد بن عبد الكريم النقسييس، والذى وجدته بخط الفقيه بن رحمون أن هذا الصلح كان عام 1072، وأن ولاية أحمد بن عيسى النقسييس كانت عام 1071، ورواية ابن رحمون عندنا أقدم وأصح، وعليه فإن الذى عقد الصلح مع غيلان هو أحمد بن عيسى النقسييس، لا أحمد بن عبد الكريم النقسييس، وزاد سرديرة أن هذا الصلح كان على أساس أن يبقى النقسييس حاكما بتطوان ولكن بشرط أن يقبل نائبا مراقبا من قبل الخضر غيلان، وأن يقدم لغيلان رجالا يعينونه على مقاتلة الانجليزيين الذين كانوا بطنجة فى ذلك العهد، وهذه الشروط يظهر منها أن قوات الطرفين كانت متكافئة.

ثم ان الحال لم يقتصر على عقد الصلح بين الخضر غيلان وأولاد النقسييس بل ان كلا من الطرفين اعترف بمكانة الآخر وتحولت العلاقات الى صداقة ومصاهرة كما ستعلمه مما يأتى

المقدم أحمد الثانى بن عيسى النقسييس 1071

تقدم لنا أن المقدم أحمد بن عيسى النقسييس كان عام 996 زعيم المجاهدين الذين كانوا يهاجمون سبتة كما فى الاستقصا، وقلنا انه تولى حكم تطوان الى أن توفى ودفن بها عام 1031 كما هو منقوش على قبره، وقد ورد ذكر أحمد بن عيسى النقسييس أيضا فى حوادث وقعت بعد ذلك التاريخ بعشرات السنين وربما أوقع ذلك بعض الناس فى حيرة، والواقع أنهما شخصان، أحدهما هو الذى ذكرنا تاريخه وأخباره فيما مضى، وهو الذى كان مجاهدا عام 996 وتوفى عام 1031، والثانى هو هذا، وهو حفيد الاول، اذ أنه أحمد بن عيسى بن أحمد بن عيسى، وقد وجدت بخط الفقيه العدل سيدى التهامى ابن رحمون التطوانى، أن أحمد هذا تولى حكم تطوان بعد المقدم عبد الكريم

النقسييس عام ١٠٧١ (١٦٦٠) وقد سبق لنا عن سرديرة أن الذي تولى بعد عبد الكريم هو الغزواني صاحب الخضر غيلان ثم استبدل بأحمد بن عبد الكريم النقسييس الخ. والظاهر أن مدة حكم الغزواني وأحمد بن عبد الكريم كانت قصيرة جدا فلم يعتبرها ابن رهمون، وحكى أن الذي تولى بعد عبد الكريم هو أحمد بن عيسى لأنه هو الذي رسخ حكمه وطالت مدته دونهما .

وذكر سرديرة في بحثه أن أحمد بن عيسى هو ابن عم أحمد بن عبد الكريم والذي يظهر أنه عمه لا ابن عمه.

ثم ان المقدم أحمد بن عيسى (الثاني) بقي حاكما بتطوان الى أن قبض عليه السلطان المولى الرشيد كما سيأتى تفصيله بحول الله

تطوان في عهد الدولة العلوية الشريفة

«فذلكة» - أول من تولى الحكم من الاشراف العلويين، هو المولى محمد بن الشريف، وكانت بيعته بتافيلالت - سجلماسة - في حياة والده المولى الشريف بن على سنة ١٠٥٠ فقام بقتال خصومه وتغلب عليهم واستولى على فاس مدة ثم خرج منها.

وكانت تطوان في ذلك التاريخ وقبله كما علمنا، غير خاضعة لحكم السلطان، بل كان حكمها مستقلا يتولى السلطة فيها غالبا زعماءؤها ومقدموها أولاد النقسييس .

وقد تقدم لنا أن الشيخ المجاهد أبا عبد الله العياشى قد امتد نفوذه اليها مدة ثم لما ضعف أمره عاد حكمها لأولاد النقسييس، وقلنا أيضا، إن المقدم الخضر غيلان قد صارت له مع تطوان علاقة ودية أيضا، وخصوصا حينما تعاهد وتصاهر مع حكامها من أولاد النقسييس.

وفى تاريخ بيعة المولى محمد بن الشريف كان حاكم تطوان هو المقدم محمد بن عيسى النقسييس كما سبق، وكان حاكم البلاد الهبطية هو المقدم الخضر غيلان كما مر أيضا، وهكذا كانت تطوان والبلاد الهبطية بسبب بعدهما عن عاصمتى فاس ومراكش، يتأخر امتداد النفوذ السلطاني اليهما .

ثم قام المولى الرشيد فى ناحية تازا طالبا للملك، فقصد أخوه المولى محمد والتقى الجمعان فقتل المولى محمد رحمه الله عام ١٠٧٥ وبوفاته بايع الناس المولى الرشيد، فتصدى لفتح بلاد المغرب واحتل مدينة فاس سنة ١٠٧٦ ثم خرج منها لفتح بقية البلاد المغربية، وهنا تبتدىء علاقة المولى الرشيد بتطوان وحكامها أولاد النقسييس .

المولى الرشيد يقبض على المقدم احمد النقيس عام 1078

قلنا ان السلطان المولى الرشيد تولى الحكم عام 1075 ثم فتح مدينة فاس عام 1076. ثم خرج منها لفتح بقية بلاد المغرب. وقد حكى الناصرى ذلك فى الاستقصا، وبعد أن ذكر عدة حوادث قال ما نصه (I) «ثم مال المولى الرشيد الى تطاوين فقبض على رئيسها أبى العباس النقيس فى جماعة من حزبه، وقدم بهم الى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وألف (1667 م)» ومثل ذلك فى كتاب الجيش (2)

وقال القادرى فى التقاط الدرر ما نصه: «وفى صفر 1078. نزل المولى الرشيد على تطاون فأخذ رئيسها فسجنه مع جماعته ورجع الى فاس فى أوائل ربيع الاول» الا أن أولاد النقيس قد عادوا بعد ذلك لحكم تطوان كما سيأتى.

استغراق ذمة أولاد النقيس وبيع أملاكهم عام 1078

بعد ما وقع القبض من السلطان المولى الرشيد على حاكم تطوان ومقدمها أحمد بن عيسى النقيس وعلى أنصاره كما تقدم، صدر الامر باستغراق ذمة أولاد النقيس وبيع جميع أملاكهم، ودونك رسم شهادة جماعة من أهل تطوان بظلم أولاد النقيس وطغيانهم، «والويل للمغلوب او المعزول فى كل زمان وفى كل مكان» ونص الرسم المذكور :

الحمد لله شهود الموضوعه اسماؤهم عقب تاريخه، يعرفون ويتحققون جملة أولاد النقيس التطاوينيين معرفة كافية، وعلى تفصيل أحوالهم آتية، ويشهدون مع ذلك بأنهم منذ ولوا أمر الثغر التطاوينى حاطه الله كانوا موسومين بالاقلال والاقتار، والفقر والافتقار، ولا شأن لهم به النقض والابرام، والتوقيير والاحترام، الى أن تراصت لهم حال الجرأة والذعارة، والتمادى فى السيابة والجسارة، واستظالوا فى البلاد، وقاموا وقعدوا فى الفساد، وتعصبوا بالعصائب، وتحزبوا بالاحزاب والكتائب، ولم يزالوا فى البلاد التطاونية يضرمون نار الحروب، ويشيرون المحن والكروب، والاهواء تلعب بهم، والاغواء تسوسهم حتى طلبوا الامارة، كما سولت لهم نفوسهم الامارة، وصالوا واستظالوا مع أشياعهم زمن الفترة من الملك فى الفتن واستغاثتهم وتغلبهم على ما هو معروف كبيت مال الله وقهر الضعفاء والمساكين من عباد الله، وخاضوا فيما يلوح لهم من المال المستحق لبيت مال المسلمين برا وبحرا، وعمارة وقفرا،

(I) الاستقصا ج 4 ص 17
(2) الجيش ص 59 طبعة فاس سنة 1336

من كل ما يتعين لله، ويستعان به على إقامة دين الله، ووثبوا على ما يبدو لهم من متروك من انقطع، ويتحكمون فيمن أبى وامتنع، الى أن غرسوا بذلك وبنوا، واشتروا العقار والاصول والامتعة واستغنوا، وصاروا بسبب ذلك مستغرقين الدم مما ذكر، وقرر وسطر، لا ينتفعون بذلك حقيقة في حياتهم، ولا غيرهم ارثا بعد وفاتهم، لكون ما بأيديهم لا يفي ببعض ما حصل في ذمتهم، وحين أراد الله جل وعلا اظهار نوره، واعلائه وظهوره، أقام سبحانه من بيت النبوة عمادا، وشيد للدين حصنا حصينا اشتد به ركن الاسلام اشتدادا، جامع أشتات الفضائل والفواضل، ومحیی رسوم ملوك العدل الاوائل، وهو الامام الهمام، ملاذ الانام، وعز الاسلام الواثق بالله السعيد، الموفق مولانا الرشيد، بن مولانا الفاطمي الشريف الرفيع القدر المنيف، مولانا الشريف بن مولانا علي، المرتدى ما ليس في الاطواق من المجد العلي، المتصل بسلسلة نسبته الذهبية الى فاطمة البتول وأخي الرسول أمير المؤمنين علي، أطال الله بقاءه، وأجرى معه عوائده الجميلة على وفق ما رامه وما شاءه، ومهد بمعونة الله أمر العباد والبلاد ورفع عن الناس الشرور والفساد، فانتظمت بحمد الله الامور، واتصل بحبل الله العامة والجمهور، وبنى أمر الخلافة على أساسه، ورد الفرع بسياسته الى أصله وقياسه، فهو أيده الله باكف الجميع لاشتات تلك الاموال حقيقة، وأولى من يضمها الى بيت المال فينفذ فيها أمره بالجمع والتفريق، ويمضي فيها نظره السديد ورأيه الموفق الوثيق، بكل ذلك يتحققون ويشهدون، على مضمونه يؤدون اذا سئلوا ويفصحون، في الثاني والعشرين من شوال عام ثمانية وسبعين وألف. عبد الله محمد بن يحيى الشريف المذبحي، والمقدم الحاج علي الشاط ويوسف بن محمد الرثوث واحمد بن عبد الرحمن بن عمر، وعبد الله بن احمد الخطيب، ومحمد بن عبد الرحمن الشرقي، وعبد الكريم بن احمد طانية ومحمد ابن علي الزكيك ومسعود بن احمد اجانة، وعلي القر، وعبد القادر بن احمد طانية، وعلي بن احمد مرشك وقاسم عاشر، وعلي بن محمد الشودري ومحمد بن محمد ناصح، ومحمد بن علي اللقنتي، والحاج عاشور بن محمد تميم، وسعيد بن عبد الكريم بن طريقة، وأحمد بن عبد القادر المنصوري، وعبد العزيز بن علي الفاسي، وعبد الوهاب بن محمد بن زاكور، ومحمد بن محمد الشودري، وعلي بن الحاج أمسنو، ومحمد بن محمد الشويطي، ومحمد بن محمد الفاسي الغازي، واحمد بن محمد قشتلي والحاج محمد بن علي قشتلي، ومحمد بن عبد السلام بوسداجة، ومحمد بن الحسن خديم، واحمد بن قاسم قرضناش، وقاسم بن سعيد الدودار وعلي مرين، واحمد بن محمد الحاج، واحمد بن محمد الكحيل، وقاسم منظور، والحاج محمد منصوصه، وقاسم بن علي بن ظنو، وقاسم بن سعيد الخنشوف، وعلي بن محمد المصمدي، ويوسف بن محمد الشودري، ومحمد الديانسي وأحمد

ابن سعيد الدودار والحاج عبد الرحمن الريفى، والحاج على الريفى، وموسى ابن احمد الريفى، وقاسم الشيبو .

وبعد أن تمت الشهادة المذكور أمر قاضى تطوان فى ذلك العهد باستغراق ذمة أولاد النقسيس ونزع ملكيتهم عن كل ما كانوا يملكونه وصرف جميع ذلك لبيت مال المسلمين .

ودونك الشهادة الرسمية بذلك، ونصها :

الحمد لله لما استقل وثبت لدى الفقيه الاجل الافضل الاكمل القاضى بمدينة تطاون وعمارتها وهو محمد بن سعيد بن قريش أعزه الله تعالى وحرسها رسم الاسترعاء أعلاه، فى شأن المشهود فيهم بالدعارة، والتعدى حسبما سطر وقرر أعلاه، وصح عنده أصله ومبناه، وسئل منه حفظه الله النظر فى ذلك والتأمل فى تلك المسالك، اقتضى نظره السديد، ورأيه الموفق الرشيد، أن حكم بتغريق ذمتهم لبيت مال المسلمين عمره الله. وإضافة جميع ما يملكونه له وارتفاع يد ملكيتهم عن جميع ما كانوا يملكونه وصرفه للجانب المذكور، حكما ألزمه وأمضاه، وأوجب العمل بمقتضاه شهد على إشهاد من ذكر دامت كرامته بما فيه عنه وهو بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، وفى التاريخ أعلاه صح بـ يوسف بن محمد الرثوث وفقه الله وعبد الله بن احمد الخطيب وفقه الله .

ثم بعد ذلك أمر السلطان المولى الرشيد ناظر المواريث بمملكته، وهو الفقيه السيد محمد بن على بن سودة أن يبيع جميع أملاك أولاد النقسيس المذكورين، ودونك الامر الرسمى بذلك ونصه :

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ثم الطابع السلطانى للمولى الرشيد وبعده .

وعلى خديمنا الانصح، الطالب محمد بن على بن سودة السلام التام، هذا وإن أصول الظلمة المستغرقين الذمم النقاسية وحسين العباس فنقد البيع فى جميعها وأمضاه وبرىء من تجب براءته، واقبض الثمن، وكذلك أمتعتهم ابحت عليها بتطاوين وغيرها واقبضها من عند من كانت عنده وتعينت ولا بد ولا بد والسلام وكتب خامس ذى القعدة الحرام عام ثمانية وسبعين والـف .

وبعده بخط قاضى تطوان ما نصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله. أعلم بثبوت الطابع الشريف عبد الله تعالى محمد بن سعيد بن قريش وفقه الله.

ودونك نموذجا للشهادات التى وقع بها بيع ابن سودة المذكور للاملاك التى أمره السلطان ببيعها بتطوان ونصه :

الحمد لله من الفقيه النبيه، الحسيب الوجيه، ناظر المواريث السعيدة . بسائر المملكة الرشيدية المديدة، وهو محمد بن على بن سودة، أعزه الله تعالى

وأجمل خلاصه، اشترى التاجر الابن الحاج عمر بن الرايس على الذيب به عرف التطاوني نائبا في الشراء ودفع الثمن عن نفسه وعن شاركه في مشتراه وهو المعلم احمد بن الحسن الرضنضو، والمكرم قاسم كحلين، والتاجر محمد قلينة، والتاجر محمد بن محمد قبريرة، والتاجر محمد الصحاف، والمعلم احمد البرجي، والتاجر محمد الرفعي، يختص الذيب والرضنضو وكحلين بالنصف الواحد . والنصف الآخر لمن عداهم، جميع الغرسة الكائنة بكيتان المتصلة بملك هرنندو وعسيلة والحبس والوادي بمنافعها ومرافقها وكافة حرماها اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لها ثلاثة آلاف أوقية وخمسون أوقية صحيحة شقوبية أحضرها المشتريون (كذا) المذكورون وقبضها البائع النائب المذكور وأبرأهم من درك القبض بحكم ما بيده من أمر مولانا الامام أيده الله حسبما سطر بمحوله، على أن نصف العدة المذكورة دفعها الذيب المذكور ومن شاركه على السواء والاعتدال، والنصف الآخر دفع قلينة المذكور منه خمسمائة أوقية وخمسة وعشرين أوقية، ومحمد قبريرة ثلاثمائة أوقية، ومحمد الصحاف مائتي أوقية ثنتين والبرجي مائتي أوقية ثنتين وخمسين أوقية، والرفعي مثل ما دفع البرجي المذكور يأخذ كل واحد من المبيع المذكور بنسبة ما دفع من ثمنها وملكهم البائع المذكور المبيع المذكور تملكا صحيحا تاما على السنة والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ووقوف أرباب البصر ومن له معرفة بذلك، اذ هو المعين اليها عن اذن من يجب، وهما المكرمان ابراهيم بن قاسم الفردال، ومحمد ابن الحسين عمير واشهادهما أن لا غبن في ثمن ما بيع به المبيع المذكور ولا بخس، وأن ذلك أكثر ما يساويه عرفا قدره شهد على اشهاد من ذكر دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله بالحالة الموصوفة من أشهده من عداه بما فيه عنهم وهم بحال كما له في أوائل رجب الفرد المبارك تسعة وسبعين ألف وفيه بأن مناب الذيب المذكور من ثمن نصف المبيع المذكور خمسمائة أوقية، ومناب كحلين المذكور من النصف المذكور مائة أوقية واحدة، وخمسة وتسعون أوقية ومناب الرضنضو المذكور فيها ثمانمائة أوقية وخمسون أوقية، وفيه بأن زيد في قيمة المبيع المذكور مائتا أوقية وسبعة وثلاثون أوقية ونصف أخذ منها الابن قلينة المذكور خمسا وسبعين أوقية ومحمد بن موسى لبارش ... مائة أوقية ولعبد الله عبيس اثنان وستون أوقية ونصف فأخذ كل واحد بنسبته من المبيع المذكور على حسب ما أدى عنه عبد الله الخطيب وفقه الله ويوسف الرثوث وفقه الله.

ولاية احمد بن يعقوب على تطوان عام 1078

نقلنا عن الاستقصا والجيش، أن السلطان المولى الرشيد قبض على المقدم أبى العباس أحمد بن عيسى النقسي وحمله الى فاس مع جماعة من حزبه عام 1078، وقد ذكر سرديرة في بحثه أن السلطان المذكور بعد أن فعل ذلك ولى على تطوان القائد أحمد بن يعقوب، وأن ابن يعقوب هذا هو الذى بنى بـرج - امسا - (I) ولا نعرف من أخبار هذا القائد أكثر من ذلك.

ولاية قاسم فرشيش على تطوان عام 1081

وذكر سرديرة أيضا - ولا ندرى مستنده - أن القائد قاسم فرشيش هو الذى خلف القائد احمد بن يعقوب فى حكم تطوان، وأنه هو الذى أعاد بناء سور القصبة سنة 1670 (1081) ولم نعرف من أخبار القائد فرشيش أكثر من ذلك.

مفضل النقسي يحكم بتطوان، ويساعد الخضر غيلان عام 1083

وذكر سرديرة فى بحثه أيضا، أن بعض أولاد النقسي عاد مرة أخرى الى حكم تطوان مدة قصيرة سنة 1672 (1083) وهذا هو التاريخ الذى عاد فيه الخضر غيلان من الجزائر الى تطوان .
ثم ذكر سرديرة أن مفضل النقسي هو الذى ساعد صهره (2) الخضر غيلان على النزول بتطوان حين عاد من الجزائر فى البحر، وأنه فتح له أبواب تطوان فأعاد تنظيم جيوشه واستعد لقتال السلطان المولى اسماعيل .
وفى المصادر الانجليزية، أن الخضر غيلان لما عاد من الجزائر، جاء معه عدد من الاتراك .

وفى الاستقصا (3) أنه لما توفي المولى الرشيد عام 1082 وتولى أخوه المولى اسماعيل، انتقض عليه أهل فاس، فزحف اليهم وحاصروهم واستمر القتال بينهما أياما ثم بعثوا الى ابن أخيه المولى أحمد بن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه.

(I) أمسا - أحد أقسام قبيلة بنى سعيد الجبلية قرب تطوان، وبه عدة مداشر، والبرج المذكور واقع على شاطئ البحر الابيض المتوسط، وهو مسامت للبرج المسمى ببرج رأس الطرف - الذى بين سبتة وتطوان .
(2) من هنا نعرف أن الخضر غيلان كان متصاهرا مع أولاد النقسيين .
وأنهم جميعا كانوا مقاومين لحكم الدولة الجديدة التى قامت بالمغرب فى ذلك التاريخ .

(3) الاستقصا ج 4 ص 22 ومثله فى الجيش ج I ص 64 .

فقدم دبدو وأنزل على ملوية، وبعث اليهم رسوله يعلمهم بمجيئه، فأعلنوا بنصره، وذلك يوم الخميس العشرين من جمدى الثانية عام 1083. وفى سلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قدم من ثغر الجزائر فى البحر، وأنه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس .

وفى نشر المثانى والتقاط الدرر، أنه فى يوم الثلاثاء ثانى رجب (1083) أصبح رقاص الخضر غيلان بفاس، وأنه وصل تطوان ودخلها مع أولاد النقسيس فى بعض السفن من الجزائر .

قتل الخضر غيلان وفرار أولاد النقسيس الى سبتة عام 1084

ذكر الناصرى فى الاستقصا (I) أن السلطان المولى اسماعيل نهض الى ابن أخيه أحمد بن محرز الثائر عليه، فحاصره فى تازا ففر ابن محرز ودخل الصحراء، ولما علم السلطان بفراره عدل الى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان، فحاربه الى أن ظفر به وقتله يوم الاحد عشرى جمدى الاولى سنة 1084 والذى وجدته بخط بعض الفقهاء أن وفاة الخضر غيلان كانت فى شهر رجب، وفى بعض المصادر الاجنبية، أنه كان فى 18 سبتمبر سنة 1673 م وهو يوافق 6 جمدى الاخيرة، والله أعلم بالصواب من ذلك. ثم ان من الثابت أن أولاد النقسيس الذين كانوا بتطوان فى ذلك العهد، فروا منها ولجأوا الى سبتة وبقوا بها إما مقيمين بها وإما مترددين عليها تحت رعاية الاسبانيين وحمائتهم، ثم خرجوا منها أخيرا. وقد حكى السكيرج ذلك باختصار فذكر أنه لما انتصر السلطان المولى اسماعيل، كان الباقون من أولاد النقسيس أربعة هربوا الى مدينة سبتة، وقال سرديرة فى بحثه، انه فى سبتمبر سنة 1673 مات الخضر غيلان وانهزم حلفاؤه أولاد النقسيس الاربعة، فالتجأوا مع أهلهم وأقاربهم الى سبتة حيث أكرم وفادتهم حلفاؤهم الحكام الاسبانيون الذين كانوا قد عقدوا معهم هدنة منذ عام 1661. (1072) وجددت سنة 1672 (1083) من قبل الحاكم الماركيس دى طريس فدراس MARQUES DE TORRES VEDRAS وزاد أن أولاد النقسيس وأقاربهم صحبوا معهم الى سبتة 60 رجلا و 18 امرأة، وهذا العدد نفسه هو الذى ورد فى تاريخ مانويل كاسطيانوس (2).

وقد وقفت فى الكتاب الاسباني المسمى علاقات افريقية (3) RELACIONES DE AFRICA على رسالة كتبها أحد الضباط الاسبانيين من سبتة الى أحد

(I) الاستقصا ج 4 ص 22 ومثله فى الجيش ج I ص 64

(2) ص 441 .

(3) ص 21

أصدقائه، وقد حدثه فيها بأخبار سبتة وغيرها، ومن جملة ما فى تلك الرسالة تفاصيل عن قتل الخضر غيلان وفرار أولاد النقسييس من تطوان الى سبتة. ونحن ننقل من تلك الرسالة ما ملخصه، أن اسبانيي سبتة قد تمكنوا فى ذلك التاريخ من أخذ مواشى لاهل تطوان دون أن يتكبدوا خسائر (I) وأنه فى 14 سبتمبر 1673. (موافق ثانى جمدى الاخيرة عام 1084) وصل الى سبتة رجل مغربى يحمل من قاضى انجرة رسالة يطلب فيها من الحكام الاسبانيين أن يسمحوا له بأن يلتجئ مع عائلته الى سبتة فأذنوا له فى ذلك، وفى اليوم التالى جاء أيضا من يطلب السماح لعائلة النقسييس بالالتجاء الى سبتة فأذن حاكمها بذلك، وفى مساء نفس اليوم وصل ستة من الركاب ومعهم ست نسوة احداهن هى زوجة (2) BENSAYMAN والخمس الباقيات خادمت، وقد قابلهن حاكم سبتة وسكانها بكل اجلال واحترام.

وفى 17 منه وصل أولاد النقسييس ومعهم أولاد (3) MONSADAL وأكثر من 150 شخصا، وقد فروا من تطوان بعد أن تدلوا من اسوارها، لان أهاليها فكروا فى تسليمهم للسلطان (4).

وفى يوم 18 منه خرج الخضر غيلان مع أربعة آلاف من الخيل ليحارب جيوش السلطان، وفى نفس الليلة بعد ما ذهب المقدم غيلان المذكور الى محل نومه، دخل عليه رجال وقتلوه وثار أصحابه وانضموا لجيش السلطان، وقد أشهر أصحاب السلطان جثة الخضر غيلان وطاقوا بها فى شوارع تطوان، أما بقية الموالين لغيلان فانهم فروا الى سبتة فقبلوا فيها بمزيد الاحترام.

(I) يظهر من هذا أن معاهدة الصداقة انما كانت بين حاكم سبتة وأولاد النقسييس، أما أهالى تطوان وسبتة فلم يكونوا على وفاق، بل كان كل طرف منهما يغير على ناحية الآخر ويختطف منها ما تصل اليه يده.

(2) لم نعرف صاحب هذا الاسم ولعله بن سليمان .

(3) المفهوم أن المراد هنا أولاد مفضل ومن الممكن أن يكونوا هم أولاد مفضل النقسييس الذى سبق أنه حكم تطوان أخيرا وساعد صهره الخضر غيلان على حركته الاخيرة عند عودته من الجزائر، كما أن من الممكن أنهم أفراد من عائلة مفضل التى كانت لها ثروة وشهرة بتطوان. وقد سبق للسيد أحمد مفضل أنه كان نائبا وأميناً للسلطان على حدود تطوان سبتة .

(4) نحن نعرف أن السلطان الذى كان فى ذلك العهد، هو المولى اسماعيل، وكان فى ذلك التاريخ قد قصد بلاد الهبط القريبة من تطوان ليقتضى على حركة المقدم الخضر غيلان، فيظهر أن أهالى تطوان خافوا من هجوم السلطان عليهم للقضاء على أنصار غيلان وفى مقدمتهم أصهاره أولاد النقسييس، فخاطبواهم فى شأن الاستسلام للسلطان فامتنعوا من ذلك نظرا لما كانوا يعرفونه من بطشه وانتقامه، وفضلوا الفرار الى سبتة الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وفى فجر يوم 19 منه وصل سبتة رسول من تطوان باسم السلطان ودعا أولاد النقسيس للاستسلام للسلطان وأعطاهم الامان على أنفسهم وأملاكهم فجمع حاكم سبتة بعض رجاله، وبعد المذاكرة معهم رفض طلب ذلك الرسول. وفى مساء اليوم نفسه وصل من تطوان شخص آخر وأخبر أولاد النقسيس بأن السلطان عازم على قتلهم، فتأثروا من ذلك وصمموا على عدم الاستسلام له مهما كلفهم الامر ... الخ الرسالة وتاريخ الرسالة التى وردت فيها هذه الاخبار هو 23 سبتمبر سنة 1673 م (II جمادى الاخرة عام 1084 هـ) ثم تردد على أولاد النقسيس رسل كان بعضهم من جهة السلطان وبعضهم من جهة خصومه، أولئك يراودونهم على الخضوع، وهؤلاء يحذرونهم من الوقوع، أما هم فقد قرروا البقاء بسبتة الى أن كان من أمرهم ما يأتى بحول الله (I).

مهمة أولاد النقسيس وعلاقاتهم الخارجية

عرفنا أن تطوان كانت فى عهد أولاد النقسيس غير خاضعة لحكم سلاطين المغرب الذين كانوا فى جل ذلك العهد كملوك الطوائف لا هم لكثير منهم الا الانغماس الشخصى فى الملاحى والملذات، وارسال الجيوش الوطنية لمحاربة جيوش وطنية أخرى فى سبيل الاغراض الخاصة، وكان من نتيجة ذلك أن استغل الاجانب تلك الاختلافات وذلك الضعف، وصاروا يقتطعون مما بقى من أطراف المغرب شيئاً فشيئاً الى أن كادوا يأتون على جميع الشواطىء البحرية بالمغرب (2).

أما أولاد النقسيس فانهم لم يشاركوا فى تلك الاختلافات الداخلية وحروبها الاهلية بل احتفظوا بقواتهم المادية والادبية، واستبدوا بتطوان ونواحيها وبقوا قائمين بأعمال الجهاد والرباط على الحدود حفاظاً لناحياتهم من الاحتلال الاجنبى، فكانت نتيجة عملهم هذا أن تطوان بالرغم من قربها من الحدود الاجنبية برا وبحرا، بقيت كما كانت فى أيام المنظرى محتفظة بحكمها الاسلامى الوطنى، فكان مقدموها وحكامها هم الذين يباشرون جميع شؤونها الداخلية وكانت لهم مع الدول الاجنبية علاقات ومعاهدات ومكاتبات، ومن الاسف أن المصادر العربية التى بين أيدينا لا نجد فيها شيئاً من الوثائق المتعلقة بهذا

(I) ان شئت فانظر بعد هذا حوادث سنتى 1088 و 1098.

(2) كان الاجانب فى ذلك العهد مستولين على مليلية وحجر بادس شرق تطوان، وعلى سبتة شمالها، وعلى طنجة غربها، وعلى أصيلا والبريجة (الجديدة) وفى سنة 1019 استولوا على العرائش، وفى سنة 1022 استولوا على المعمورة - المهدية الخ

الموضوع، أما المصادر الافرنجية فقد عثرنا فيها على بعض معلومات يمكننا استنادا عليها أن نحكم بأن علاقات اولاد النقسيس وأهالي تطوان بالدول الاجنبية قد مرت عليها فى ذلك العهد أطوار أربعة نلخص ما عرفناه عنها فيما يلى :

الطور الاول - فى عهد المقدم احمد بن عيسى النقسيس

- مع اسبانيا .
- مع انجلترا .
- مع هولندا .

مع اسبانيا

كان السلطان زيدان بن احمد المنصور بمراكش ، وكان أخوه محمد الشيخ المامون يحاربه، وانهزم محمد الشيخ فلبأ الى ملك اسبانيا فليب الثالث، وطلب منه أن يساعده على أخيه زيدان، وكان المقدم أحمد بن عيسى النقسيس ضد محمد الشيخ فنشأ عن ذلك أن صارت بين السلطان زيدان والمقدم النقسيس علاقات وصداقة لمصلحة الطرفين ضد عدوهما محمد الشيخ. وفى هذا الوقت حاول المقدم احمد النقسيس أن يربط علاقات ودية بين صديقه السلطان زيدان وملك اسبانيا فليب الثالث كما فى مجموعة م. هنرى دى كاسترى، وكأن النقسيس كان يقول لملك اسبانيا، ان كان ولا بد من أن تكون لدولتكم علاقة وصداقة مع حكام المغرب، فلتكن مع مولاي زيدان السلطان الشرعى صاحب القوة والسلطة، لا مع محمد الشيخ التائر الضعيف الملتجئ ، ولكن ملك اسبانيا كان كجل سياسة الدول فى ذلك العصر - وفى هذا العصر أيضا - لا يفكرون لا فى الحق او الباطل، ولا فى العدل او الظلم، ولا فى المبادئ السامية والمثل العليا من الانسانية والشفقة والرحمة، أو ضد ذلك، من الاستعمار والاستعباد والوحشية، كل ذلك لا يهمهم، وانما يزنون الاشياء بميزان مصالحهم الخاصة لا غير، انما يؤيدون بمقابل، ويخذلون بعوض، أو فى انتظار عوض، فلذلك كان فليب يرى خلاف ما كان النقسيس يراه لان السلطان زيدان لا يسمح بأكثر من تبادل المصالح العادية بين الطرفين، أما محمد الشيخ فقد وعده بتسليم مدينة العرائش له وبغير ذلك من الاشياء التى كانت كلها فى مصلحة اسبانيا دون المغرب. وهكذا فشل النقسيس فى محاولته

السياسية، وكانت نتيجة ذلك أنه صار يعمل ضد مصالح اسبانيا التي صادقت
عدوه محمدا الشيخ - وصديق العدو عدو - كما يقول العرب (I)

مع انجلترا - والمعروف عن المقدم أحمد بن عيسى النقسي، أنه
كانت له مع الانجليزيين مراسلات وعلاقات ودية، وقد سبقنا لنا الإشارة الى
شيء من ذلك، والى أنه قد وقعت بين الطرفين مفاوضات انتهت بعقد معاهدة
صداقة وتبادل المصالح بينهما، ومن المعلوم أن انجلترا كانت في ذلك العهد
في خصومة مع اسبانيا .

وقد وقفت في مجموعة الكونت دي كاستري على رسالة كتبها حاكم
طنجة الاسباني (2) بتاريخ 9 ابريل عام 1622 (1031) وفيها أنه عشر على رسائل
تبودلت بين حاكم تطوان المقدم أحمد النقسي وسفير انجلترا وتاجر انجليزى
كان مقيما بقادس (اسبانيا) ومضمونها المخابرة فى شأن تأسيس دار تجارية
انجليزية بتطوان. وقد أشار الحاكم الاسباني المذكور بمقاومة ذلك المشروع بكل
ما فى الامكان، لان فيه تأييدا للنفوذ الانجليزى وضررا بمصالح دولة اسبانيا الخ.

مع هولندا

وكانت للمقدم أحمد النقسي أيضا علاقات تجارية مع التجار الهولنديين
ومراسلات مع حكومة هولندا، وفى مجموعة دي كاستري رسائل كثيرة تبودلت

(I) جاء فى آخر الرسالة التي أجاب بها السلطان زيدان بن المنصور
المربط يحيى بن عبد المنعم الحاجى ما يلى :
«وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا، ولو أردت خمسمائة ألف
مثقال من أصحاب أفلامك أو من أصحاب الانجليز وكتبت اليهم فى ذلك ما تأنوا
فى بعثه ولا لاذوا فيه بمعذرة» .

وتاريخ هذه الرسالة كان حوالى سنة 1025 هـ. ثم ان غيلان وحزبه كان
متفرغا فى الكثير للرباط على طنجة وهى فى حوزة الانجليز اذ ذاك، أما قدماء
أولاد النقسيين الذين كانوا ضد غيلان وشيخه العياشى فانهم كانوا يحاربون
الاسبانيين بسبته وقد كان العداء مستحكما فى هذا التاريخ بين الدولتين، فقد
تحاربا فى قضية الاصلاح الدينى الذى كان يسمى به القرن السادس عشر
الميلادى، ثم اتت حرب الثلاثين سنة (1618 - 1648 م) وهى من معنى ما قبلها.
ت. و.

(2) من المعلوم أن طنجة كانت بيد البرتغاليين منذ سنة 876 هـ
(1471 م) فلما انضمت البرتغال الى اسبانيا سنة 989 (1581) صارت طنجة
تحت حكم اسبانيا، وبقيت كذلك الى أن انفصلت البرتغال عن اسبانيا سنة
1050 (1640) فاز ذاك عادت الى حكم البرتغال الى أن سلموها للانجليز سنة
1072 (1662) .

بين النقسيس المذكور وحكومة لاهاي وخصوصا فى قضية رفعها النقسيس الى الحكومة المذكورة ضد تاجر هولندى هرب بمركب فيه زيت لاهل تطوان، وقد عرضت القضية المذكورة على مجلس أمستردام فحكم فيها للنقسيس ضد التاجر الهولندى وان شئت فانظر تفاصيل ذلك بالمجموعة المذكورة فى رسائل سنة 1615 - 1616 م.

الطور الثانى - فى عهد المقدم عبد الله النقسيس

مع انجلترا - مع اسبانيا ضد العياشى

مع انجلترا

بقيت العلاقات حسنة بين انجلترا واولاد النقسيس بقية مدة المقدم احمد النقسيس، واستمرت كذلك فى عهد المقدم عبد الله بن احمد. وقد وقفت على رسالة كتبها عبد الله المذكور بتطوان فى 30 يونيه 1629 م (1038 هـ) وبعثها الى شارل ملك انجلترا، وفيها ان المقدم المذكور كان يعامل الانجليز فى بلده خير معاملة الخ. وقد تقدم لنا جواب تلك الرسالة من شارل الاول الى عبد الله المذكور، وقد كتب فى اكتوبر سنة 1629 م (1039 هـ) وفيه نجد ملك انجلترا يشكر المقدم النقسيس على حسن معاملته للانجليز وعلى الهدايا التى بعثها اليه، ويطلب منه أن يسمح للانجليز بشراء الخيل من بلاده، وأن يواصل التجار الانجليز يون تعاطى التجارة فيها الخ. ويعلمه بأن الرسول حامل تلك الرسالة سيبلغه الاشياء التى لا تمكن كتابتها. وذلك يدل على أن العلاقات كانت متينة بين الطرفين وأنها كانت ذات أسرار لا تمكن كتابتها، وكيفما كان الحال فانه لا يخرج عن كون كل واحد من الطرفين كان يستعين بالآخر على توطيد مركزه، وعلى محاربة خصومه، وذلك شأن الدول والسياسة فى كل زمان ومكان. فلا يغتر العقلاء بالتودد السياسى فانما هو برق خلب.

ويظهر أن تلك العلاقات الودية قد استمرت بعد المقدم عبد الله النقسيس وسيأتى لنا أن المقدم محمد بن عيسى النقسيس كان يرحب بالبحارة الانجليز الذين يردون على ميناء تطوان ويمد اسطولهم بالمواد الغذائية وغيرها. وكان ذلك عام 1061 هـ (1651 م)

مع اسبانيا ضد أبى عبد الله العياشى

وفى عهد عبد الله النقسييس نفسه تحولت عداوة اسبانيا الى صداقة ، فالصديقان القديمان محمد الشيخ المامون وفليب الثالث قد دخلا فى ذمة التاريخ، وأصبح أولاد النقسييس أمام حاكم جديد قد انضم اليه خصومهم، وصاروا يعملون للاستيلاء على مدينتهم وانتزاع السلطة من ايديهم، فلم يكن هناك بد فى نظرهم من مقاومة خصومهم، وأن يكونوا ضد هذا الحاكم الجديد الذى هو أبو عبد الله العياشى، وأبو عبد الله هذا وأصحابه لم يكونوا على وفاق مع الاسبانيين، فاتحدت بذلك مصالح اولاد النقسييس مع مصالح اسبانيا وصار الجميع يقاوم اصحاب أبى عبد الله العياشى. وهكذا تحول الاعداء الى اصدقاء والمواطنون المجاهدون الى خصوم واعداء ، وهكذا هى السياسة لا يعرف أصحابها الا مصالحهم قبل كل شىء الا من رحم ربك وقليل ما هم، ولكن هذه الصداقة لم تفد أصحابها كثيرا، لان أصحاب المجاهد الناصح المخلص أبى عبد الله العياشى، قد احكموا مؤامرتهم واستولوا على تطوان، فهرب منها المقدم عبد الله النقسييس والتجأ الى الاسبانيين بسبته، فزال حكم تطوان من يد اولاد النقسييس مدة ثم عاد اليهم كما تقدم بيانه .

الطور الثالث - فى عهدى محمد وعبد الكريم النقسييس

وجدنا فى مجموعة الكونت دى كاسترى (I) ملخصا عن العلاقات بين انجلترا والمغرب من عام 1642 الى 1660 (1052 - 1070 هـ) وفيه بيان العلاقات بين الانجليزيين وحاكمى تطوان فى تلك المدة، وهما المقدم محمد بن عيسى النقسييس، والمقدم عبد الكريم بن عيسى النقسييس، وقد جاء فى ذلك الملخص ما مضمنه أن العلاقات بين انجلترا والمغرب لم تنقطع فى المدة المذكورة، وأن كرومويل حاكم انجلترا فى ذلك العهد، قد اضطرت سياسته فى البحر الابيض المتوسط ، أن يعين قنصلا لدولته فى تطوان (عند مقدميها أولاد النقسييس) وقد عقد معاهدة مع محمد الشيخ الاصغر، ولكن تلك المعاهدة قد نقضها التجار الانجليز عقب عقدها ببيعهم الاسلحة للشوار ثم ذهب القائد محمد بن عسكر الى لندن سفيراً عن دولة المغرب، ولكنه لم يصل الى نتيجة مع الانجليزيين.

(I) من سجلات انجلترا م 3 من ص 552 فما بعد .

وفى سنة 1646 م (1056 هـ) اضطرت العواصف بعض المراكب الى سواحل المغرب فأُسِر من كان فيها من الانجليزيين .

وفى سنة 1656 م (1067 هـ) استطاع أحد التجار الانجليزيين انقاذ عشرة من الاسارى الانجليز بمبلغ 580 ليرة انجليزية، وقد بقيت العلاقات متوترة بين الطرفين الى أن انعقد الصلح بينهما وتم تسليم الاسرى فى سنة 1657 الخ .

ثم جاء فى الملخص المذكور ما مضمنه أنه بينما كانت العلائق بين الانجليز وداخلية المغرب متوترة كما ذكرنا، كان الحال بعكس ذلك بين انجلترا وتطوان، وكانت السياسة الدولية هى السبب فى ربط العلاقات الودية بين الطرفين المذكورين، فحرب اسبانيا التى اعلنت فى شهر فبراير 1656 م (1066 هـ) وحصار قادس الذى كان أهم حادثة فى الحرب المذكورة قد أظهرنا لانجلترا أن الحاجة تدعوها للاستيلاء على مركز مهم فى البوغاز للتوصل بذلك الى تموين الاسطول الانجليزى، ولأجل هذه الغاية خرج الاميرال بلاك ومونتاغو تحت أوامر كرومويل للاستطلاع على الحالة فى جبل طارق وجزيرة الخزامى (الحسيمة ALHUCEMAS) ولكن نظرا لضيق الوقت وفقدان الوسائل اللازمة لاحتلال المركزين المذكورين، فان الانجليزيين قد فضلوا على ذلك ربط علاقات ودادية مع حاكم مدينة تطوان، هذه المدينة التى عادت بعد موت العياشى الى يد أولاد النقسييس، بمساعدة الدلائيين، وقد كانت دائما تستقبل البحارة الانجليزيين استقبالا حسنا، وقبل هذه المدة بخمس سنوات كان القائد محمد بن عيسى النقسييس قد قدم مؤد غذائية الى القبطان وليام بن الذى كان قد أرسل الى البوغاز ليمنع السفن المعادية من اجتيازه .

وعند ما ظهر بلاك ومونتاغو أمام ميناء تطوان فى شهر يونيه سنة 1656 م (1066 هـ) لأجل تموين سفنهما، استقبلهما المقدم عبد الكريم النقسييس أحسن استقبال، ولم يكتف بأن يقدم اليهما اللحم والماء اللذين كانا فى حاجة اليهما، بل اقترح عليهما عقد معاهدة ودادية تجارية بين الطرفين، وعرض عليهما أن يتركا فى تطوان نائبا عن انجلترا للسهر على تنفيذ تلك المعاهدة. (I) الا

(I) لا نستغرب سعى النقسييس والانجليزيين فى ابرام مثل هذه المعاهدة، فالانجليزيون كانوا فى حالة حرب ضد اسبانيا، وكانوا فى حاجة الى مراكز قريبة لتموين اسطولهم بالماء والطعام وغيرهما، وميناء تطوان كان كفيلا بمرغوبهم، ومن جهة أخرى كان المقدم النقسييس فى ذلك العهد فى خصام عنيف مع المقدم الخضر غيلان الذى كانت هجماته متوالية على تطوان، فكان النقسييس أيضا فى غاية الحاجة لدولة قوية صديقة تمده بما يحتاج اليه من السلاح والمعدات الحربية وغيرها ليستطيع مقاومة خصمه الذى كان يحاول الاستيلاء على مدينته ...

أن اضطرار الاسطول الانجليزى لمغادرة ميناء تطوان بسرعة، حال دون عقد تلك المعاهدة، ولكن مع ذلك لم تنس اقتراحات حاكم تطوان، فبمجرد رجوع الرئيس باديللى BADILEY فى آخر السنة الى انجلترا - وقد كان مصاحبا للرئيس بلاك فى البحر الابيض - اقترح على الحكومة الانجليزية أن تعين قنصلا لها فى تطوان لاستغلال الاستعداد الموجود فى أهلها، وضمانة تموين السفن الانجليزية ما دامت الحرب قائمة مع اسبانيا وهذا الاقتراح الذى قدم الى الحكومة الانجليزية، قد عرض فى 18 يناير سنة 1657. على مفوضى الاميرالية الانجليزية لابداء رأيهم فيه، وبالرغم من كون أعضاء شركة الشرق لم يبدوا ارتياحهم لذلك المشروع، فان الرئيس مونطاغو قد أيد اقتراحات باديللى، وانتصر فى النهاية رأى البحارة على رأى التجار، وكان الشخص الذى اقترح تعيينه قنصلا لانجلترا بتطوان وهو المستر ناثانيل لوك NATHANIEL LUKE أحد التجار الانجليز القدماء بتطوان. وفعلنا وقعت المصادقة على تعيينه وتلقى من الاميرالية الانجليزية تعليمات مكتوبة كلفته فيها بأن يقوم فى تطوان بمهمة الحارس لمصالح انجلترا وادارة قسم الاستعلامات للاسطول الانجليزى الذى كان يحارب اسبانيا .

واجابة لرغبة المقدم عبد الكريم النقسيس حاكم تطوان تلقى القنصل المذكور أمرا بتحريير الاتفاق الذى أمضاه الدلائى الحاكم الاسمى للبلاد، والنقسيس حاكم تطوان، فى 19 غشت سنة 1657 م (1067 هـ) وهذا الاتفاق (I) ضمن للانجليزين الحرية فى أشخاصهم وأموالهم وأعطاهم من جديد مقاما ممتازا فى المغرب بالسماح لهم بتنمية التجارة، وبأن يجدوا من المغرب مساعدة ضد اسبانيا التى كانت فى حالة حرب معهم، ولكن هذه الحالة قد تغيرت تماما بسبب احتلال الانجليز لطنجة، اذ صارت تطوان صديقة لخصمها السابقين وهما الخضر غيلان ودولة اسبانيا، كما صارت عدوة محاربة لانجلترا فى طنجة .

الطور الرابع - فى عهد المقدم احمد (الثانى) بن عيسى النقسيس

محاربة انجلترا - صداقة اسبانيا

كان البرتغاليون محتلين لطنجة، وكان الوطنيون المغربيون وعلى رأسهم المقدم الخضر غيلان يحاصرونهم ويحاربونهم باستمرار، ويؤس البرتغاليون

(I) النص الانجليزى لهذا الاتفاق موجود فى ص 588 من المجلد الثالث من مجموعة دى كاسترى - سجلات انجلترا - وعليه امضاءات عبد الله الغزوانى ومحمد بن بوبكر - ملك الزاوية - وعبد الكريم النقسيس (حاكم) والحسين الهادى (عدل) .

من انقطاع تلك الحروب المضنية ، فسلموا طنجة للانجليزيين فكان احتلال الانجليز لطنجة بالاتفاق مع البرتغاليين، والصداقة السياسية كالخصومة تدور مع المصلحة حيثما دارت، وقبل هذا العهد كان أولاد النقسيس يصادقون الانجليز للاستعانة بهم على خصومهم، وكان الانجليزيون يبادلونهم الصداقة للاستعانة بهم على حرب اسبانيا، والآن وقد امتدت مطامع الانجليز الى الاستيلاء على قطعة من الارض المغربية، فانه لم يبق مناص لاهل تطوان من تغيير السياسة بازاء هؤلاء الاجانب المحتلين لقطعة من أرض الوطن المقدس . وكانت بين أولاد النقسيس ومواطنهم الخضر غيلان، خصومات فتداركوها وانعقد الصلح بين المقدم غيلان وحاكم تطوان المقدم احمد بن عيسى النقسيس عام 1072 هـ (1661 م) أى فى نفس السنة التى احتل الانجليز فيها مدينة طنجة وكان من جملة ما وقع الاتفاق عليه من المتصالحين، أن يمد أولاد النقسيس حليفهم غيلان برجال يحاربون معه الاجانب الجدد. وهم الانجليزيون الذين احتلوا مدينة طنجة أخيراً، مما يدل على أن صداقة أولاد النقسيس للانجليز انما كانت مؤقتة، أى ان كل جانب من الطرفين كان يستغل صاحبه لمدة محدودة ولمصالح معينة، فلم تكن صداقة النقسيس للانجليزيين على أساس الخيانة أو التنازل لهم عن أرض الوطن، بدليل أنهم كانوا من أول المحاربين لهم عند ما تنازل لهم البرتغاليون عن مدينة طنجة المغربية.

وفى نفس هذه السنة (1072 هـ 1661 م) عقد أولاد النقسيس مع الاسبانيين هدنة بقى كل من الطرفين محافظاً عليها الى أن لجأ الباقون من أولاد النقسيس مع عائلاتهم وأصحابهم الى سبتة حينما خافوا من قبض السلطان عليهم وعقابهم، فاستقبلهم الاسبانيون أحسن استقبال ولبثوا عندهم بضع عشرة سنة الى أن غادروا سبتة باختيارهم، وكان من أمرهم ما كان . وهكذا صار أولاد النقسيس أعداء للانجليز، وأصبح الاسبانيون أصدقاء لأولاد النقسيس، وقبل ذلك استغل الانجليز عواطف أهل تطوان - كما قالوا - واستخدموا صداقتهم فى محاربة الاسبانيين، وهكذا هى السياسة، وهكذا هي معاملة السياسيين، فلا عهد ولا موثيق، الا حيث المصلحة، والا فالاعداء أصدقاء، والاصدقاء والمواطنون أعداء ! تلك هى طبيعة السياسة والسياسيين فى الماضى وفى الحال وفى المستقبل الى ما شاء الله .

حكم تطوان بعد أولاد النقسيس

قلنا إن السلطان المولى الرشيد قد قبض على المقدم أحمد بن عيسى النقسيس وحمله مع جماعة من حزبه إلى فاس، وولى على تطوان القائد أحمد ابن يعقوب عام ١٠٧٨. ثم كان القائد قاسم بن فرشيش واليا على تطوان عام ١٠٨١. ثم عاد الحكم في تطوان ليد أولاد النقسيس عام ١٠٨٣، ثم في سنة ١٠٨٤ قتل الخضر غيلان وفر الباقون من أولاد النقسيس إلى سبتة ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك التاريخ، والظاهر أنه بعد أن وقع القضاء على نفوذ أولاد النقسيس وأنصارهم، لم يبق بتطوان منازع للنفوذ السلطاني، فاجتمعت الكلمة واشتغل الناس بما يعنيهم، واتجهت الفكرة العامة إلى تأليف الجيوش الوطنية وحشد القوات وإعلان الجهاد لاسترجاع الأراضي المغربية التي كانت بيد الأفرنج.

ونحن لا نعرف بالتدقيق من هو الشخص الذي تولى حكم تطوان عقب فرار أولاد النقسيس إلى سبتة، وإن كنا نعلم أن السلطان المولى اسماعيل هو الذي عين حاكم تطوان في ذلك التاريخ، ولعل الذي تولى بعد أولاد النقسيس مباشرة هو القائد أحمد بن حدو والله أعلم.

ولاية القائد أحمد بن حدو على تطوان عام ١٠٨٤

القائد أحمد بن حدو الحمامي التمسمانى الريفى ينسب إلى قبيلة تمسمان من القبائل الريفية الشرقية، وقد ذكر أبو محمد سكيرج أنه هو الذي تولى حكم تطوان بعد أولاد النقسيس، وقد سبق لنا أن فرار من بقى من أولاد النقسيس إلى مدينة سبتة، كان عام ١٠٨٤ فإذا صح ذلك كان القائد أحمد قد تولى حكم تطوان في هذه السنة (١٠٨٤). وقد كان رحمه الله من أبطال المجاهدين الريفيين، وكان من رؤوس عائلته الشهيرة التي قال فيها الناصري في الاستقصا ما نصه (١)

... «وكان أولاد الريفى هؤلاء من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة ومكائد الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبى الليف وأضرابهم رحم الله الجميع»

وذكر أبو محمد سكيرج، أن القائد أحمد هذا إليه تنسب الزنقة المعروفة في حومة الطرنكات بزنقة القائد أحمد، لأنه كان يسكن بها، وأن الدار التي كان يسكنها كانت ما تزال معروفة إلى عهده الخ. ولعلها هي الدار التي كانت إلى

وقتنا تعرف بدار الحمامي، عن يمين الذهاب من الطرنكات الى ساحة الفدان والله اعلم .

ولا نعلم بالتدقيق ما هي المدة التي قضها القائد أحمد في حكم تطوان وغاية ما نعلم عن ذلك أن مدة حكمه بتطوان لم تطل، لان الباشا علي بن عبد الله تولى حكم تطوان سنة 1090 كما سيأتى .

من أخبار القائد أحمد رحمه الله

قرأنا في أخبار فتح المهدية (1) أن استرجاع المسلمين لها كان عام 1092 هـ (1681 م) وأن المجاهدين لما فرغوا من أمرها، ارتحلوا مع أميرهم القائد عمر ابن حدو البطوئي، فأصابه الوباء، فمات في الطريق، وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد بن حدو واقتسمها هو والقائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفى (2) .

فالقائد أحمد كما ترى كان في مقدمة المجاهدين الذين افتتحوا المهدية - المعمورة - وكان من أعيانهم حتى إنه تولى رئاستهم بعد وفاة قائدهم، وتاريخ فتح المهدية كما قلنا كان سنة 1092 ومن الثابت أيضا كما سيأتى أن القائد علي بن عبد الله تولى حكم تطوان ونواحيها بأمر السلطان المولى اسماعيل عام

(I) «المهدية» ويسمى بعضها بالمعمورة، هي ميناء مغربى على المحيط الاطلسي شمال مدينة سلا، وقد نقل الناصرى في الاستقصا (ج 2 ص 172) ان الذى اختطها هو المهدي الشيعي على يد بعض عماله، وأن بعض الافرنج زعم أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدى، وقد احتلها البرتغاليون سنة 921 هـ (1515 م) واستقروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم، ثم استولى عليها الاسبانيون سنة 1023 هـ واستمروا بها نحو سبعين سنة الى أن استرجعها المسلمون منهم سنة 1092 هـ.

وقد وجدت بخط الفقيه العلامة سيدى محمد بن الهاشمى افيلال رحمه الله ما نصه : «كان افتتاح مدينة المعمورة واستيلاء المسلمين عليها في خلافة مولانا اسماعيل الشريف العلوى رحمه الله وذلك في صبيحة الاربعاء حادى ربيع الثانى عام 1092 .

وفى الاستقصا (ج 4 ص 30) والجيش (ج I ص 72) أن السلطان المولى اسماعيل، لما بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد اشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره، نهض اليهم وحضر الفتح وأخرج رئيس النصارى وأمنه هو وأصحابه وكانوا 306 أنفس وأما الغنيمة فقد احرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوئي .

١٠٩٠ فيظهر ان السلطان المذكور اسند حكم تطوان أولا الى القائد أحمد عام ١٠٨٤، ثم اخره عن ذلك وولى مكانه القائد علي بن عبد الله عام ١٠٩٠ ثم لما كانت سنة ١٠٩٢. كان القائدان معا فى مقدمة المجاهدين الذين افتتحوا المهديّة تحت رئاسة قائد الجيش عمر بن حدو، فلما مات هذا القائد الكبير، تولى مكانه أخوه القائد أحمد واقتسم رئاسة المجاهدين مع القائد علي بن عبد الله.

على أن أولئك القواد كلهم كانوا من أبطال المجاهدين، والسلطان المولى اسماعيل كان همه الأكبر فى ذلك العهد كما قلنا، منصرفا الى الجهاد واسترجاع البلاد المغربية من أيدي الأجانب المترايمين عليها، وقيام أولئك القواد بأعمال الجهاد، لا ينافى ان بعضهم كان يسند اليه حكم بعض البلاد ثم ينقل منها الى غيرها، أو يكلف بالرباط فى بعض الجهات .

ومن أخبار القائد أحمد «رحمه الله» كما سيأتى لنا تفصيله فى أخبار القرن الثانى عشر. أنه شارك فى فتح مدينة العرائش سنة ١١٠١، وان السلطان أمره بأن يبني داره بقلعتها كما فى الاستقصا (١) فيظهر أنه اتخذ العرائش مسكنا له ثم شارك فى فتح مدينة اصيل سنة ١١٠٢ .

والظاهر أن السلطان أسند اليه حكم تلك النواحي والله أعلم.

أبا حدو

فى القبائل الريفية الواقعة شرقى تطوان، يقولون لأحمد - حدو - كما يقولون لمحمد موح .

واسم «أبا حدو» معروف كثيرا فى قبائل غمارة التى هي من القبائل الجبلية، ولكنه اسم يقرن غالبا باللعنة، فمن هو هذا أبا حدو الذى يلعنه الغماريون كما يلعن الناس الشيطان ؟ لقد سألت بعض من يظن بهم العلم من رجال غمارة فلم أجد عندهم تحقيقا - ولم أعرف هل ذلك منهم جهل أو تجاهل الا أن بعضهم يظن أن أبا حدو ليس سوى القائد أحمد قائد تطوان وحاكم قبائلها ومن بينها غمارة .

وأبا حدو هذا قد اجمع أهل غمارة على أن لا يرحمه أحد منهم، لا فرق فى ذلك بين العوام والخواص، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، داخل قبائلهم وخارجها. ويذكر بعضهم فى سبب ذلك، أنه كان حاكما عليهم، وفى بعض سنوات المسغبة، وزع عليهم حبوبا على أن يزرعوها وعند ما يحصدون يأخذون حظهم ويأتونه بحظه، أو حظ المخزن الذى يمثله - أى الحكومة المغربية - فما كان منهم

الا أنهم وزعوا تلك الحبوب فيما بينهم وأكلوها أكلا فلما كان وقت الحصاد تقدموا الى ابا حدو متأسفين واعتذروا له بأنهم زرعوا القمح ولكن المحصول كان شوكا، فقبل عذرهم الا أنه أمرهم بأن يحصدوا ذلك المحصول ويجعلوه أكواما أكواما، ثم بعث اليهم من جنوده رجالا أقوياء الزموهم أن يدرسوا ذلك الشوك بأرجلهم بعد أن ألبسوهم أحذية مصنوعة من كاغد، زيادة في التنكيت والتبكيت .

ولا تسل عما كان لذلك من وقع فى نفوس أهل غمارة، وما ظنك بمن يرغم على دوس الشوك برجليه، والسياط تنهال على ظهره وكتفه، زيادة على الفضيحة بين القبائل وما يتلو ذلك من شماتة الاعداء وارسال النكت والامثال، وتغنى النساء بذلك فى البيوت، والرجال فى الاسواق، مما جعل أهل غمارة مضغة فى الافواه وأهلا للتندر بهم وعليهم فى المجتمعات.

وكثيرا ما سمعنا شخصا يخاطب أحد الغماريين بقوله، ارحم ابا حدو فيجيبه الغمارى بقوله، الله لا يرحم فيه عظم، وأجاب آخر بقوله، الله ينعلو (يعنى يلعنه) وينعل جدو - وسمعت مرة أحدهم يجيب مخاطبه بقوله، الله ينعلك وينعلو وينعل جدك وجدو - وكان عندي خادم - فى البناء - وهو رجل غمارى فى نحو السبعين من عمره، صالح عابد يأكل من عمل يديه زهدا وورعا، فقلت له ذات يوم لماذا ياسى أحمد لا يرحم أهل غمارة ابا حدو، فقال ان لذلك سرا لولا أنك محل ثقتى ما أطلعتك عليه، فقلت هو ماذا ؟ قال لو كان الرجل مسلما لكنا نترحم عليه كما نترحم على جميع المومنين والمومنات، والمسلمين والمسلمات فقلت وماذا كان الرجل ؟ قال، لقد كان اللعين يهوديا يتستر بمظاهر المسلمين ويعذب المومنين، وهل تطيب نفسك يا سيدى الفقيه بالترحم على أحد من الكافرين ؟ ان اللعين كان يهوديا، نعم يهودى مخزى فكن يا سيدى الحاج واثقا من أنه كان عدوا للاسلام والمسلمين عليه لعنة الله الى يوم الدين. وكانت عندي خادمة - فى البناء ايضا - وهى امرأة غمارية فى نحو الستين من عمرها الا أنها قوية البنية، وذات يوم جاء رجل من قبيلة بنى سعيد - المجاورة لغمارة - فجلس بالقرب من محل البناء وأخذ يتلو بصوت مرتفع سورة يس (وقصده التنكيت على من هناك من أهل غمارة) فتقدم رجل غمارى من تلك المرأة وقال لها، أتدريين على من يقرأ هذا الرجل سورة القرآن فقالت، لعله تذكر والديه فأراد أن يهدى لهما هذه السورة فى هذا الصباح، فهز رأسه وتبسم مستهزئا وقال كلا انه يقرأها على ذلك اللعين الذى لا أستطيع ذكر اسمه فقالت هل هو ابا حدو فقال، هو ذاك نعم نعم. فما كان منها الا أن تغير وجهها وفقدت توازنها وحملت حجرة كبيرة وقصدت جهة الرجل القارىء ورمت بها على وجهه بكل قواها، ولولا أنه شعر بها وانحنى قليلا لشوهت تلك الحجرة وجهه

تشويها ، ثم هجمت عليه بنفسها لتنهشه بأظافرها ، ففر هاربا فتبعته كالمجنونة ولولا أنه كان أصغر منها سنا وأسرع منها جريا لهشمت وجهه ، وبعد ان يئست من اللحاق به ، عادت لشغلها وقضت يومها كله تأوها وتوعدا ... وموقف أهل قبائل غمارة من ابا حدو بالرغم من مرور عدة قرون على حادثته - ان صحت - ان دل على شيء فانه يدل على تضامن عجيب ، أو تقليد غريب ، ولا أعرف في بلاد المغرب شخصا آخر يتضامن أهل بلد أو قبيلة على لعنه كما يلعن الشيطان ، أما في بلاد المشرق ، فقد سمعت في أحد مساجد مدينة النجف بالعراق ، شيخا يسقي الناس الماء ويردد بصوت عال ، اللهم ألعن يزيد اللهم ألعن يزيد ، يعنى يزيد بن معاوية الاموى ، ولعل الرجل من غلاة الشيعة .

الا أن مما لا شك فيه ، أن انتشار العلم والمعرفة ، ينور العقول والافكار وأن اختلاط المتزمتين بالمتقفين والمتنورين ، يغير من أخلاقهم وعوائدهم ، ويخفف من تعصبهم وعقائدهم ، ودوام الحال محال .

السلطان يقطع رؤوس مساجين تطوان بفاس عام 1088

قال الناصرى فى الاستقصا بعد أن ذكر حوادث سنة 1088 ما نصه (I): «وفى هذه الايام (يعنى من سنة 1088 ولى قضاة فاس الخ وأمر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس ، وهم عشرون ، فضربت أعناقهم ورفعت على الاسوار ...

ويظهر أن هؤلاء المساجين هم اصحاب المقدم احمد بن عيسى النقسيين الذين قبض عليهم السلطان المولى الرشيد عام 1078 والله أعلم . وانظر ان شئت نهاية اولاد النقسيين فى حوادث سنة 1098 .

الوباء بتطوان عام 1088

ذكر الشيخ محمد بن الطيب القادري فى كتابه «نشر المثنى» (2) أنه وقع طاعون بتطوان وحوز قبيلة بنى زيات الغمارية عام 1088 . ثم ذكر (3) بعد ذلك أنه كان بالمغرب طاعون سنة 1089 . وأن عدد الموتى بتطوان فى ذلك الطاعون ، بلغ خمسين شخصا فى اليوم اه .

وقد وقفت على قصيدة للشيخ العلامة الصالح سيدى على بركة فى التوسل الى الله تعالى لرفع ذلك الوباء ومطلعها :

(II) الاستقصا ج 4 ص 25 . ومثله فى الجيش ج I ص 67 .

(2) نشر المثنى ج 2 ص 29 .

(3) نشر المثنى ج 2 ص 44 .

يا ربنا يا كاشف البلاء يا رافع الغماء واللئواء
وانظرها ان شئت في ترجمته الآتية :
ووقفت على قصيدة أخرى في الموضوع للشيخ أحمد بن عبد الحى الحلبي
دفين فاس ومطلعها :
يا رب بالمصطفى عجل لنا فرجا من الوباء ومن الطاعون والسقم
وأبياتها تسعة وخمسون .

ولاية القائد علي بن عبد الله سنة 1090

القائد علي بن عبد الله الحمامي التمسماي الريفي من عائلة القائد أحمد
ابن حذو السابق الذكر، وهو أيضا من أبطال المجاهدين الريفيين، ومن أكبر
القواد الذين كان السلطان المولى اسماعيل يعتمد عليهم في المهمات الحربية
وغيرها كما سنعرفه مما يأتي.

وقد وجدت في كناش للفقيه ابن رحمون ما نصه :
«تولى أمر تطاون وما والاها وجميع البلاد الهبطية والجبالي الى رأس
ورغة الى الريف وما اتصل بذلك من المدن، على يد مولانا اسماعيل الشريف
نصره الله، القائد علي بن عبد الله في منتصف جمدي الاخير عام 1090 هـ»
فولاية القائد علي لحكم تطوان كانت كما ترى عام 1090. ولم تكن خاصة
بها بل كانت عامة على جميع شمال المغرب الذي صار في عهد الحماية
الاجنبية يسمى بالمنطقة الخليفية، وكان زيادة على حكمه لهذه النواحي، يتولى
رئاسة المجاهدين، ويقوم بأعمال الجهاد كما ستقف على تفصيله .

من سياسة السلطان المولى اسماعيل

كل من طالع تاريخ المغرب، يعلم أن السلطان المولى اسماعيل لما تولى
الملك عام 1082، كان عدد من البلاد المغربية تحت الحكم الاجنبي، فمدن مليلية،
وسبتة، وطنجة، واصيلا، والعرائش، والمهدية، كلها كانت خاضعة لنفوذ الاجانب
محتلة بقواتهم الحربية، وقد سلك المولى اسماعيل في سبيل انقاذ تلك البلاد
وتطهيرها من الاحتلال الافرنجي، سبيلا واضحا هو سبيل القوة، وانتهج
سياسة رشيدة كانت نتيجتها استرجاع تلك المدن من يد مغتصبيها ما عدا
سبتة ومليلية، فانهما ما زالتا بيد الاسبان الى الآن كما لا تزال انجلترا
مغتصبة لمدينة جبل طارق من اسبانيا حتى الآن ايضا. ذلك أنه أسند حكم هذه
النواحي الى رجال عرفوا بالجهاد والجد والمروءة، وبالبعد عن ترف الحواضر
وعدم التطلع الى الاستبداد بالحكم، فكلفهم بالجهاد والرباط على تلك المدن ،
الواحدة تلو الاخرى، والتضييق على من بها من الاجانب الى ان يسلموا او يفروا.

وقد علمت مما قدمنا مقام آل الريفى الحمامي من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة ومكائد الحرب، وعرفت ان السلطان قد أسند حكم تطوان أولا الى القائد أحمد بن حدو، ثم اسند حكم هذه النواحي كلها الى القائد علي بن عبد الله، وعلمت ايضا ان القائد عمر بن حدو «أخ القائد أحمد» هو الذي كان أولا رئيس القواد المجاهدين من بلاد الريف وأهل الفحص. فلما توفي قام مقامه قريباه اللذان هما أخوه القائد أحمد، وابن عمه القائد علي بن عبد الله، فكانت هذه الناحية كلها مجموعة الكلمة، موحدة السلطة تحت رئاسة أولئك القواد المجاهدين الذين كانوا من قبيلة واحدة، بل من عائلة واحدة، ولم يبق للناس في ذلك العهد من هم الا الرباط والجهاد.

وكان السلطان يمد أولئك القواد والمجاهدين بما يحتاجون اليه من القوات والتنشيط، أما هو نفسه فقد اقتصر على تنظيم داخلية مملكته، والقضاء على كل حركة منازعة لنفوذه وسلطته، وسنلخص فيما يلي ما وقفنا عليه من أخبار القائد علي بن عبد الله مع غيره من القواد في تطوان ونواحيها، لان مدينة تطوان كانت في ذلك العهد مركز الحكم ومصدر حركات المقاومة والتحرير الوطني، أما بقية مدن هذه الناحية فكان جلها كما علمت تحت حكم الاجانب.

مقاتلة المسلمين للانجليز بطنجة سنة 1090 - 1091

قال الناصري في الاستقصا (I) «وفي أواخر المحرم من هذه السنة - يعنى سنة 1090 - أوقع جيش المسلمين بنصاري طنجة، فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين، وانتزعوا منهم قصبة بأربعة أبراج، واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله» ومثل ذلك في نشر المثاني (2) الا أنه ذكر أن ذلك كان في رابع المحرم لا في أواخره.

ووجدت في كناش الفقيه الرافعي التطواني الذي كان معاصرا لتلك الحوادث «أن أبراجا أربعة هدت بطنجة عام 1091. وأنه قتل ممن كان بها مائة ونيف وخمسون، وأسر نيف وخمسون وتوفي أخلاط من الناس».

وفي نشر المثاني (3) أنه في أواسط ربيع الثاني سنة 1091 وصل لفاس خبر أخذ المسلمين لقصبة في طنجة على يد قائد القصر عمر بن حدو البطوئي وفي زهر البستان (4) لابن العياشي وزير السلطان المولى اسماعيل، في معرض الحديث عن أعمال السلطان المذكور ما نصه: «ومع طول حركته أيده

(1) الاستقصا ج 4 ص 28

(2) نشر المثاني ج 2 ص 57

(3) نشر المثاني ج 2 ص 71

(4) مخطوط توجد منه نسخة في خزانتنا «الداودية» بتطوان.

الله ومكابدة أعباء الخلافة في تسكين الدهماء ومصالح الأمة، لم يغفل عن جهاد العدو الكافر ومحاصرة معقلهم حتى استسرى لهم منها فكم حصن دعاه صارم عزمه فأجاب، وظهر من تيسير أمره وتسهيل فتحه بتوفيق الله العجب العجائب، حتى افتتح أيده الله سبحانه من حصونهم أضرها على المسلمين نكاية، وأقواها عليهم ضررا واذاية، فلم يزل أيده الله حتى فتحها الله تعالى عليه، وألقى بأزمته اليه، من ذلك بساتين طنجة (I) التي بناها النصارى الانجليز في أيام الهدنة التي كانت بينهم وبين غيلان، فامسى أيده الله وله بالتصدي لها في أندية العدل أرفع مكان، فأمر أيده الله كبير قواده، القائد عمر بن حدو بمنازلة الثغر المذكور ومناجزته والرباط فيه حتى يفتح الله تعالى عليه، وأسند الى نظره جيش أهل الريف والمتطوعة من سائر الناس، فنازل البساتين المذكورة التي منها قبلة السلاطين، ومرشان، ودار البارود، وغيرها من البساتين، وحاصرها من كل جهة ومكان، حتى استفتحها واستولى على ما فيها، وبقي حصن طنجة نهبة للمسلمين تصل جيوشهم عند الغارة الى سوره بعد ما كانوا في أمن بتلك البساتين من مفاجأة المسلمين والغارة على سرحهم بما انشأوه من الرسق الذي أحكموا تأليف بعضه الى بعض بين تلك البساتين، وصرخوا بعضه في بعض كأنه بنيان مرصوص ممتدا من البحر للبحر في زمن الفترة، وتقلص ظل الخلافة حتى كانت تلك البساتين ستورا لفحصهم من طنجة وراحة للنصارى في سرحهم وغداوهم ورواحهم ينقلبون في ذلك الفحص بخيلهم ورجلهم، فقيض الله لهم بوجود المولى المنصور بالله جيشا عرمرما الى نظر القائد المذكور، ففض ختامهم واستنزلهم من معقلهم، وفتح الله على يده تلك البساتين فبقي النصارى في حصن طنجة منكشيين، أحير من بقعة في حقة متخوفين، فجاء القائد المذكور بالفتح للمولى المنصور، وتلوم جهد الاستراحة ورجع لمحلة أخرى. وأمر أيده الله بمعاودة منازلها فتهيا النصارى الانجليز الذين بها لملاقاة المسلمين، وطلبوا الاغاثة من جيرانهم النصارى صينيول من عدوة الاندلس عند تعذر اغاثتهم من اخوانهم الانجليز لبعدهما بين طنجة وجزيرة انقلطرة فأغاثهم صينيول بطائفة من النصارى أهل الفنطجية فخرجوا من حصن طنجة لمحاربة المسلمين، فوثب المسلمون في وجوههم وأمكنهم الله منهم فقاتلوهم قتالا ذريعا ورجعوا لحصنهم

(I) البساتين هنا ليست جمع بستان بل جمع بستيون. ولفظ البستيون يطلقه بعض أهل المضرب على الحصن الكبير. فالبساتين هنا مراد بها الحصون والقلاع. وفي مدينة فاس مركز العلم والفضل، نعرف بستيونين كبيرين لهما ذكر وشهرة في التاريخ، وهما مشرفان على هذه المدينة حيا الله أهلها وحفظهم من كل باس .

منهزمين، وطلبوا من القائد المذكور أمانا على شروط اشترطها عليهم من فك أسارى المسلمين ودفع بارود وعدة وغير ذلك مما تحملوا مما يكبر عليهم دفعه لولا خوفهم من سطوة المولى المنصور بالله. والتزموا دفع ذلك للقائد المذكور وأشهدوا على أنفسهم وشهد عليهم بذلك القسيسون والرهبان، ورجع القائد المذكور بأجر وغنيمة» اهـ. كلام زهر البستان .

ولعل هذا الصلح هو الذى حكاه القادرى فى نشر الثانى بقوله : (I) «واصطلح البطوئى مع النصارى أوائل جمادى الاولى (1091) ثم قال : «وفى منتصف رمضان ورد خبر خروج النصارى من طنجة، وأنهم تقاتلوا مع المسلمين فمات من المجاهدين أكثر من مائة شخص رحمهم الله».

سفير من تطوان الى ملك فرنسا عام 1092

علمنا مما سبق أن السلطان المولى اسماعيل كان قد أسند حكم جل الشمال المغربى الى القائد علي بن عبد الله، وفى ذلك العهد كانت تطوان (كما قلنا) هى المدينة الوحيدة التى ظلت اسلامية مغربية غير خاضعة لحكم الاجانب فى هذه النواحي، فكانت بذلك مركزا لقوات المجاهدين المغربيين العاملين لتطهير بقية المدن الساحلية من رجس الاحتلال الاجنبى وارجاع الحكم الاسلامى المغربى اليها .

ونظرا لاتساع الناحية التى كانت تحت نظر القائد علي المذكور، فانه يظهر أنه كان يولى أشخاصا ليباشروا تحت اشرافه الاحكام المدنية فى بعض النواحي ولا ندرى ما هو اللقب الذى كانوا يطلقونه على أولئك الحكام، هل هو لقب القائد أم لقب الخليفة أم غير ذلك.

والذى نفهمه من الحوادث أن الحاج محمد تميم (الاول) كان أولا أحد أولئك الحكام المحليين، أى انه كان حاكما بمدينة تطوان فى أواخر القرن الحادى عشر للهجرة، والمسيو شارل پنز الفرنسى (الآتى ذكره) يذكر لنا أن الحاج محمد تميم هذا قد تولى منصب باشا بمدينة تطوان ثم بمدينة سلا، فهل ولايته لمنصب باشا تطوان كانت بعد احتلال المسلمين لطنجة وأمر السلطان للقائد علي بن عبد الله بالانتقال اليها وللسكنى بها، أم ان ولايته لتطوان انما كانت كحاكم محلى تحت نظر القائد العام علي بن عبد الله ؟ الله أعلم .

وعائلة تميم نعرف عنها أنها كانت عائلة تطوانية مشهورة، ونعرف من تاريخها أن أحد افرادها وهو الحاج محمد تميم (الثانى) قد تولى حكم تطوان فى أواسط القرن الثانى عشر بعد قتل السلطان للباشا أحمد بن علي الريفى

عام 1156. وسيأتى لنا الكلام على ولايته وأعماله، فلعل تميما الثاني، حفيد تميم الاول، أو لعله على الاقل من أقاربه .

والحاج محمد تميم «الاول» لم نقف له على ذكر في مراجعنا العربية، ولكن المصادر الافرنجية قد تحدثت عنه كثيرا وذكرت أنه كان أول سفير للسلطان المولى اسماعيل الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وكانت تلك السفارة أواخر سنة 1681 م (عام 1092 هـ) وقد أفاض القول فى هذه السفارة المسيو شارل بنز CHARLES PENZ فى كتابه «ملوك فرنسا والمغرب» LES ROIS DE FRANCE ET LE MAROC (I) وصديقنا الاستاذ عبد الغفور الفقاي التطواني بارك الله فيه هو الذى استخرج لنا من هذا التأليف معلومات لخصت فيما يلى :

«كان الحاج محمد تميم الذى شغل منصب باشا تطوان ثم مدينة سلا، أول سفير أرسله جلالة الملك مولاى اسماعيل الى بلاط الملك لويس الرابع عشر، وذلك فى شتاء سبتمبر سنة 1681 م وقد نزل الى ميناء بريست فى 17 اكتوبر سنة 1681 ولم يصل الى باريس الا فى 30 ديسمبر. وكانت مقابلته للويس الرابع عشر فى 4 يناير سنة 1682 (24 ذى الحجة عام 1092 هـ) وعلى اثر تلك المقابلة ابتدأت المفاوضات بين تميم من جهة والوزيرين كولبير دو كرواسى COLBERT DE CROISSY وسنيلى SEGNELAY من جهة أخرى، تلك المفاوضات التى انتهت بابرام المعاهدة التجارية المعروفة بمعاهدة 29 يناير 1682 (20 محرم 1093) والتى ما زالت آثارها ماثلة حتى اليوم. ولئن كان شهرا يناير وفبراير (حيث جرت تلك المحادثات) مهمين فى تاريخ العلاقات الفرنسية المغربية، فانهما لم يكونا أقل أهمية منهما فى حياة السفير الحاج محمد تميم .

ولقد خصصت صحف ذلك العهد عدة أحاديث عجيبة عن اقامته بالعاصمة الفرنسية، ستكون لنا مساعدة على تتبعه أثناء تجوله بباريس والاشارة الى أعماله بما شاهدته من مناظر المدينة واثارها القديمة .

وفى اليوم الذى أعقب يوم المقابلة، أقام تميم مأدبة غداء تكريما للملك لويس الرابع عشر، وكان السفير يتحدث اليه باللغة الاسبانية، ويقوم الضابط البحرى دوريموندى DERAYMONDIS بمهام ترجمان أثناء ذلك الحديث. وفى نفس ذلك اليوم ذهب السفير الى مسرح سان جرمان SAINT GERMAIN لمشاهدة أوبرا أطييس ATYS من وضع كينو ولولى QUINAULT ET LULLI وقد أعجب بذلك كثيرا، كما حضر أيضا عرض «بالى» انتصار الحب LE TRIOMPHE DE L AMOUR لنفس المؤلفين، وذلك على خشبة مسرح الاكاديمية الموسيقية الملكية. ولقد سببت تلك المناظر عجبا شديدا لدى أعضاء

الوفد الذين كانوا برفقة تميم لدرجة أن أحدهم امتنع عن النظر الى ما يجرى على خشبة المسرح قائلا ان ذلك ضرب من السحر .

وبتاريخ 12 يناير، زار السفير كنيسة نوتردام NOTREDAME حيث استقبل على أنغام الارغن وصعد الى أبراجها لمشاهدة مدينة باريس، وقد قال حينئذ انه يرى بها ثلاث مدن بعضها فوق بعض وذلك لشدة علو منازلها.

وعند ما زار المكتبة الملكية، اندهش لكثرة ما ألقى بها من الكتب العربية ومن بينها مصحف، وقد اخذه ووضع على جبهته وجبينه وفمه بعلامات اجلال وتعظيم خاصة.

وفى أثناء مأدبة عشاء أقامها له لويس الرابع عشر، سأل هل كان مسرورا بمقامه بباريس، فأجاب بأنه قد بكى عند ما أمره مولاه السلطان بالسفر الى باريس، ولكن بكاءه سيكون اشد عند ما يهم بمغادرتها، ثم استفهمه الملك عن رأيه فى مدينة باريس، فأجاب قائلا انى فى حيرة لاننى اذا ما عدت الى بلادى وقصصت على الناس ما شاهدته هنا، فانهم لن يصدقوننى، ثم اضاف قائلا، انه لا غرابة فى ذلك، لانه هو بنفسه لو لم يزر باريس، لما امن بوجود ما وقع بصره عليه، وأنه قد عني بوصف كل ما شاهدته فى كتاب سماه «كتاب العجائب». ولقد أشار محرر جريدة مركاتور - MERCURE - الذى روى هذا الحديث، أن الملك سر بهذا الجواب وقال على رؤوس الاشهاد، ان السفير رجل ظريف .

وفى أوائل فبراير، زار قصر فرساي VERSAILLES فأعجب بحجره وخاصة بما وجد به من أوان فضية .

وفى اليوم العاشر من الشهر المذكور بعد ما شاهد للمرة الثانية أوبرا «أطيس» استقبل من طرف لويس الرابع عشر مقابلة الوداع، فألقى الحاج تميم خطابا بين يديه أشاد فيه بشخصية الملك وبعظمته، وعبر فيه عن إعجابه الفائق بما شاهدته بالديار الفرنسية، وعن سروره بالوصول الى الاحراز على سلام ذى فائدة كبرى لمولاه السلطان. ثم دعا الله أن يمنح كافة افريقيا لمولاي اسماعيل، وباقى أجزاء المعمورة للملك الفرنسى .

وقد مكث السفير بعد ذلك بضعة اسابيع بالعاصمة، زار أثناءها مدرسة CUATRE NATIONS فوجد بمكتبتها عدة كتب عربية، كما زار ملجأ LA CHARITE فأعجب بنظامه وبالنظام السائد فيه، ورأى راهبا يفصد بعض المرضى فأبدى استغرابه من ذلك. وذكر ان عملية الفصد لا تجرى ببلاده فى فصل الشتاء، بل ان ذلك لا يكون الا فى فصل الصيف فقط.

ثم سيق بعد ذلك الى الصيدلية حيث عرضت عليه عدة مساحيق للاحجار الكريمة، ومما استرعى انتباهه، مسحوق الياقوت الاحمر واللؤلؤ والزبرجد المرجان الاحمر والابيض والعنبر وغيرها، وعند ما سئل عن رأيه فى ذلك، أجاب بأن كل هذا يصدر من بلده مثل العلوم الطبية أيضا .

ومما رواه صحفيو ذلك العصر، أن اغرب ما لوحظ، هو ان السفير عند ما مر بحجرة الجرحى بذلك الملجأ نهض الكثير منهم ومن بينهم خمسة أو ستة كانوا منذ اكثر من ثلاثة اشهر عديمى الحركة، فلقد فعل حب الاستطلاع فى هذه المناسبة ما عجز الدواء عن فعله بمثل هذه السرعة .

ثم زار معهد السوربون ومكتبته، وحضر موسم SAINT GERMAIN DESPRÈS وشاهد أثناءه حفلة تمثيلية ايطالية، اذ أن تميم كان يعرف اللغة الايطالية، وقد رسم النطوان تروشان ANTOINE TROUVAIN العضو بأكاديمية الرسم، صورة للسفير ورفاقه وهم باحدى شرفيات المسرح ينصتون بانتباه وبصحبتهم الضابط المترجمان M. DERAYMONDIS الذى لزم الحاج تميم منذ وصوله لميناء بريست .

وعند زيارته لمطبعتين من مطابع المدينة، طلب فى احدهما أن تحضر اليه حروف عربية، فأحضرت فى الحال وركب منها بعض الاسطر، كما طبع اسمه واسم أفراد حاشيته وسلم لهم ذلك .

وقبل مغادرته لباريس بيومين وصلته من الملك لويس الرابع عشر بضع هدايا، منها مسرجتان زجاجيتان جميلتان، وساعتان كبيرتان واثنى عشرة ساعة صغيرة مختلفة الاصناف، واثنى عشر كساء من الديباج، وبندقيتان بديعتان، وطبجتان وزربية وأشياء اخرى .

وفى 25 فبراير غادر باريس ولم يصل مرسيليا الا يوم 16 مارس، وقد أمضى فى طريق عودته ثلاثة ايام بمدينة ليون، وبعض يوم بمدينة أفينيون AVIGNON وفى مدينة مرسيليا قدم له شيوخ البلدة هدية ثم توجه بعد ذلك الى ميناء طولون حيث وصل يوم 22 مارس وقد زار بها الترسانة ومختلف المعامل .

وفى 28 مارس طلب الحضور لمشاهدة صنع المدافع، فرأى كيف تم افراغ ستة مدافع، ثم أبهر بعد ذلك على ظهر سفينة لو لوريي LE LAURIER التى كان يقودها مسيو دو بيليسل M. DE BELLISLE . . . الخ .

رسائل رسمية من سلطان المغرب وولاته الى ملك فرنسا

وعاد السفير الحاج محمد تميم الى بلده تطوان، وكتب منها الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، رسالة مؤرخة بـ 27 ربيع الثانى عام 1093 هـ. موافق 5 مايو 1682 م. هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى عظيم الروم النبى اضرورا لويش الرابع عشر صاحب مملكة الفرنسيس السلام على من اتبع الهدى. اما بعد فليكن في علمكم أنا وصلنا لبلاد الاسلام بخير والله واجب الحمد على ذلك وكان ركوبنا البحر فى مركب القبطان بليله وقد أحسن إلينا غاية الاحسان وعاملنا بالبرور والامتنان وبالغ فى اكرامنا وتعظيمنا فوجب علينا شكره اليكم وعند ما وصلنا حضرة ضيفنا وسيدنا أمير المؤمنين المؤيد بالله تعالى أبى النصر مولانا اسماعيل الهاشمي الاصيل، سألنا عن حال سفرنا وملاقاتنا معكم ورجوعنا عنكم وما جرى بيننا وبينكم، فأجبناه عنكم بما عاملتمونا به من البرور والاكرام لجانب مولانا المؤيد والاعظام، وتتابع الاحسان والانعام فشكر ذلك منكم وحصل له اليقين عنكم وواعدنا بمجازاة خيركم ومقابلة احسانكم وبركم، فاذا وصل الباشضور من بلادكم ان شاء الله، فله ما يرضيه ويسره .

وعرفناه أيضا بما وقع الوفق معكم من فداء أسارى الفريقين، فأنعم بالقبول والرضى وهذا ما أجاب به أيده الله من فضله والسلام. وكتب لثلاث بقين من ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين والف .

غلام مولانا نصره الله : الحاج محمد تميم وفقه الله بمنه

وفى نفس التاريخ وجه رسالة اخرى الى الوزير SEIGNELAY الذى كان قد وقع معاهدة 29 يناير 1682 بالنيابة عن لويس الرابع عشر وهذا نصها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الى المعظم المبجل صاحب الدولة الفرنسية وخديمتها وناصحها
ال ادسل السلام على من اتبع الهدى، اما بعد فليكن في علمكم اننا وصلنا لبلاد الاسلام وفره الله بخير والحمد لله والمنة له وكان ركوبنا فى مركب القبطان بليلة ، وقد احسن إلينا غاية وعاملنا بغاية البر والاحسان وبالغ فى اكرامنا وتعظيمنا ما وقف عند الحد فوجب علينا ان نعلم بما أسداه إلينا من الخير، وعند ما وصلنا ضيفنا وسيدنا أمير المؤمنين المؤيد بالله تعالى أبى الفداء

مولانا اسماعيل سألنا عن حال سفرنا وملاقاتنا بكم ورجوعنا عنكم وعلى ما جرى بيننا وبين معظمكم وأميركم فأجبناه عن ... بما عاملتمونا به من الاكرام والاجلال والاعظام، فشكر ذلك منكم وحصل له اليقين بذلك وواعدنا بمجازاة خيركم في مقابلة احسانكم اليينا و . . . بنا فاذا ورد ان شاء الله الباشدور من بلادكم فله ما يرضيه ويسره وعرفناه بما وقع به الوفق بكم من فداء الاسارى من الجانبين فأنعم ذلك وقبله ورضيه والله تعالى يؤيده آمين والسلام وكتب في السابع والعشرين من ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين والف.

غلام مولانا نصره الله : الحاج محمد تميم وفقه الله بمنه

وفى التاريخ نفسه كتب القائد على بن عبد الله «حاكم الشمال المغربى» رسالة فى نفس الموضوع الى الملك الفرنسى المذكور وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وعن يسار البسملة طابع مستدير نقشه - خديم المقام العالى بالله على ابن عبد الله الحمامى رعاه الله) .

الى عظيم الروم أمير مملكة الفرنسيس البشزور الرابع عشر من هذا الاسم. السلام على من اتبع الهدى. اما بعد فليكن فى صحيح علمكم أن محبنا الحاج محمد تميم الباشزور وأصحابه رجعوا من بلادكم سالمين ولله الحمد فى سفينة القبطان بليله وعند ما لقينا الباشزور المذكور سألناه عن حاله منذ انفصاله عنا لبلادكم الى حين رجوعه اليينا، فذكر لنا عنكم ما وافق جميل الظن بكم وأنكم بالغتم فى تعظيمهم وإكرامهم والاحسان غاية اليهم، فشكرنا لكم ذلك، وحمدنا عنكم سلوك هذه المسالك، وأنهيينا جميع ذلك لضيقتنا الامام، أمير المؤمنين، وعرفناه أيده الله بذلك وبجميع ما صدر منكم من الجميل، والفضل الوافر الجزيل، فها هو نصره الله يعلم ذلك، وواعدنا بمقابلة احسانكم ومكافأتكم ومجازاتكم بما فيه رضاكم ان شاء الله، اذا وصل الباشزور الوارد عنكم، وها نحن بهذه الاقطار وبمراسى مولانا السلطان، ومهما تعينت بعض مراكبكم فلهم عندنا ما يرضيهم ويسرهم ان شاء الله، ولا يروا منا الا ما يوافق أغراضهم بحول الله، والسلام، وفى السابع والعشرين من ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين والف .

وقد كتب العاهل المغربي الى الملك الفرنسي المذكور رسالة أخرى في نفس الموضوع أيضا وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على من لا نبي بعده

من عبد الله تعالى الامام ملك المغرب وما والاّه من أقطار الاسلام أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسنى (ثم طابع مستدير نقش وسطه) اسماعيل بن الشريف الحسنى رعاه الله (وبدأ أثرته يميناً) اليمن والاقبال وبلوغ الآمال. (ومثل ذلك يساراً).

أيد الله أوامره، وخلد مفاخره الكريمة ومثأثره، آمين، الى عظيم الروم الامبراطور ببلاد فرنسية الرابع عشر من هذا الاسم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد اعلم أنه بلغنا أصحابنا صحبة كتابك، وذكروا لنا خيرك ومباشرتك لهم وشكروا لنا فعلك معهم واستحسنوا برورك بهم وفرحوا بجميعهم، فذلك ينبغي لك أن تكون، اذ أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدنا وسيدنا فلا نرضى نحن أن نتكلم الا معك، لانك قابض على أمرك وكلام طاعتك مقصور على رأسك، واما الاجناس الاخرى فكلامهم عند اهل ديوانهم ولا يبلغون منزلتك عندنا أيّدا لما نعلمه من علو همتك عليهم فأنت الذي تستحق أن تكون انبراضور على سائرهم ولا يستحق تاجهم الا أنت. لان يدك هي العليا عليهم بخلافهم، وفي اليوم الذي يصلنا الباشضور من عندك فلا يعود اليك ان شاء الله الا بما يسرك ويرضيك ولا لك عندنا الا ما تريده وتشتهيه في خاطرك والسلام. وكتب في خامس عشر ربيع الثاني ثلاثة وتسعين وألف (I).

ملخص المعاهدة المغربية الفرنسية سنة 1093 هـ 1682 م.

ان المعاهدة التي وقعها بتاريخ 29 يناير 1682 م (20 محرم 1093) كل من الحاج محمد تميم بالنيابة عن جلالة السلطان مولاي اسماعيل، وكولبير وكرواسي وسنييلي باسم ملك فرنسا، تشتمل على عشرين مادة معظمها يتعلق بالسلام وبالعلاقات التجارية بين الامتين .

فتؤكد المادتان الاولى والثانية أن السلام سائد بين امبراطور فرنسا ورعاياه من جهة وبين امبراطور المغرب ملك فاس وسوس ورعاياه من جهة أخرى، وأنه في امكان رعايا كل دولة منهما تعاطى التجارة في بلاد الآخر والابحار في مياهها بكامل الحرية بحيث لا يمنعون من ذلك مهما كان السبب وكيفما كانت الحجة .

وجاء في المادتين التاليتين :

«ان البواخر الحربية والتجارية لكل دولة منهما يمكنها ان ترسو في موانئ الدولة الاخرى حيث يتم امدادها هي وملاحوها وركابها بكل أنواع الاسعافات عند اقتضاء الحاجة، كما تزود بالمؤن والاجهزة وجميع الاشياء الضرورية لها . على أن تدفع عن ذلك الاثمان العادية المألوفة بالاماكن التي ترسو بها تلك البواخر .

وتشير المادة الخامسة الى تبادل المساعدة في حالة اعتداء قراصنة البحر الابيض المتوسط، وهي تنص على أنه اذا ما كانت بواخر فرنسية راسية باحدى موانئ المملكة المغربية أو مرافئها ووقع عليها هجوم من طرف بواخر معادية ولو كانت من الجزائر وتونس او غيرهما من موانئ الشاطئ الافريقي، فان مدافع القلاع التي هي بها تتولى حمايتها والدفاع عنها ثم تمنحها الوقت الكافي للاقلاع عن تلك الموانئ والمرافئ والابتعاد عنها ، وتوقف البواخر المعادية ولا تسمح لها بمطاردتها كما تتخذ الاجراءات نفسها من قبل الامبراطور الفرنسي .

ومن جهة أخرى فان البواخر الفرنسية التي قد تصاب بالغرق قرب السواحل المغربية من جراء العواصف أو على يد العدو، تمد بالنجدة بقدر المستطاع، وتقوم السلطات المحلية ورعايا الامبراطور مولاى اسماعيل بمساعدة الغرقى على الرحيل وعلى استرجاع البضائع الضائعة بدون أن يطالب أصحابها بأداء رسوم أو ضرائب على ذلك، انما عليهم أن يؤدوا اجور الذين قاموا بمد يد المعونة اليهم .

والمادة العاشرة تتعلق بالتجارة، وهي تنص على ان جميع التجار الفرنسيين الذين يصلون الى موانئ المغرب أو فاس وسواحلها يمكنهم انزال بضائعهم ومباشرة البيع والشراء بحرية على أن لا يقوموا بأداء شيء سوى

ما اعتاد رعايا المغرب أداءه، ومثل هذا يجري في مواني مملكة امبراطور فرنسا، وفي حالة ما اذا كان انزال تلك البضائع بقصد ايداعها في المخازن. فانه عند اعادتها الى تلك البواخر لا يكون أصحابها ملزمين باداء مكوس عن ذلك. وتعترف هذه المعاهدة علاوة على ذلك بحق ملك فرنسا في اقامة قنصل بالقطر المغربي، وفي هذا الصدد تقول، «يمكن لامبراطور فرنسا تعيين قنصل بمدينة سلا وتطوان أو في أي مكان يراه مناسباً، وذلك بقصد بذل المساعدة للبيعة الفرنسيين في جميع ما يحتاجونه، كما يكون من حق القنصل المذكور اقامة شعائر الدين المسيحي في بيته بحرية، وكذا جميع النصارى الذين يريدون الحضور هناك.

وكذلك يمكن رعايا الامبراطور المغربي الذين يأتون الى فرنسا، أن يقيموا شعائرهم الدينية في بيوتهم، ويكون للقنصل مطلق السلطة والتصرف في المنازعات التي قد تحدث بين الفرنسيين بدون ان يكون للقضاة المغاربة أي حق في الاطلاع عليها»

والمادة الخامسة عشرة تشير الى اعفاء القنصل من أداء جميع المكوس الواجبة عن المؤن والاشياء الضرورية لبيته.

وكل ما يحدث من نزاع بين الرعايا الفرنسيين والمغاربة فانه لن يوكل أمر الحكم فيه الى قضاة عاديين، بل يرفع ذلك الى مجلس ملك المغرب أو الباشا الذي يمثله بالثغور التي تنشأ فيها تلك الخلافات ...

ونص هذه المعاهدة مذيّل بصيغة الجواز الذي سيكون لدى السفن الفرنسية، والذي سيتولى اميرال فرنسا اصداره، وهو يخول تلك السفن حرية السفر في المياه المغربية اما السفن المغربية فستكون حاملة شهادة يمنحها قنصل الدولة الفرنسية بمدينة سلا ...

هذا ملخص هذه المعاهدة التي كان المغرب فيها سخيًا، بل مبذرا متلافا غيبًا، ولا ندري في مقابل ماذا سمح المغرب لفرنسا بتلك الامتيازات، التي كانت مفتاحا لباب المصائب والويلات، ان الحقيقة هي أن نفسية جل ولاة ذلك العهد كانت في واد، ونفسية العالم المتحضر في واد آخر، وبين العقليتين بون شامس في المعارف والانظمة والعادات، والامر لله على كل حال، وقبح الله الجهل والاغترار.

فتح المسلمين لمدينة طنجة (1) سنة 1095

ذكر الناصري في الاستقصا (2) أن السلطان المولى اسماعيل عقد للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفى على جيش المجاهدين، ووجهه لحصار طنجة فصبقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا فى البحر، وتركوها خاوية على عروشها، وذلك فى ربيع الاول سنة 1095... قاله فى النزهة. وقال فى البستان، لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار، حربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب، وشرع قائد المجاهدين علي بن عبد الله الريفى فى بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها فى فاتح جمادى الاولى من السنة ووجدت فى كناش للفقير الاديب سيدى محمد بن الهاشمى افيلال بخطه ما نصه :

«كان افتتاح مدينة طنجة عمرها الله تعالى بذكره لما خرج عنها النصارى الانجليز فى مهل شهر ربيع الاول النبوى (3) عام 1095 وقد نظم بعضهم تاريخ ذلك فى أبيات وهى :

فى أول شهر ربيع النبوى لم يبق للروم بطنجة دوي
فى عام ألف زد لنا تسعينا وخمسة مضت من السنين
وأمر السلطان بالبناء من غير تأخير ولا استهزاء

(I) طنجة مدينة مغربية قديمة واقعة على المحيط الاطلسي قرب بوغاز جبل طارق. وقد استولى عليها البرتغاليون أيام ضعف الحكومة المغربية فى عهد دولة الوطاسيين أى فى (28 غشت 1471) موافق ثانى ربيع الاول عام 876 هـ. فلما انضمت البرتغال الى اسبانيا صارت طنجة تحت حكم اسبانيا . وفى عهد فليپ الثانى تحولت الى حصن عسكري. ثم لما انفصلت البرتغال عن اسبانيا سنة 1640 م. عادت طنجة الى حكمهم، وفى سنة 1661 م. 1072 هـ. سلم البرتغاليون طنجة للانجليز وبذلك انتهى احتلال البرتغاليين لطنجة بعد أن مكثوا بها ما يقرب من مائتى سنة لم يهنأ لهم فيها عيش بسبب الغزوات المتوالية التى كانت توجه اليهم طول تلك المدة. ولما دخل الانجليز طنجة. ظل الحال بها كما كان، فلم تنقطع عنهم الغارات والمضايقات، واستولى المجاهدون على عدد من حصونهم وقتلوا كثيرا من رجالهم، فاقتنع الانجليز ايضا بأنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بطنجة فهدموا ما بقى من حصونها وبناءاتها وركبوا سفنهم وغادروها الى بلادهم عام 1095 هـ 1684 م. وبذلك ضمت طنجة الى بقية البلاد المغربية. وان شئت فانظر مجلتنا «السلام» الجزء السادس من المجلد الاول .

(2) الاستقصا ج 4 ص 31

(3) لعل مبالغة أهل طنجة فى الاحتفال بأيام المولد النبوى، يرجع السبب فيها الى أنهم كانوا فى أول الامر يحيون هذه الذكرى. ت. و.

ففى جمدى الاولى أيضا شرعوا واجتهد الناس وثم قطعوا
أعمارهم وكان أمرا هائلا فكن للطف لاله سائلا

وتعرض ابن العياشى فى كتابه «زهر البستان» لفتح طنجة على يد
القائد علي بن عبد الله فقال بعد ان ذكر وفاة القائد عمر بن حدو ما نصه :
«فتولى بعده ابن عمه القائد علي بن عبد الله، وأمره مولانا المنصور بالله على
تلك السواحل الفحصية، وأسند اليه ما كان الى نظر ابن عمه بل زاده فيها
تفويضا لما ظهر له من محبته وصدق خدمته، ففوق الى حصن طنجة سهامه
وجرد لمنازلته حسامه، ولم يزل ايده الله ونصره يؤيده بتدبير، ويمده من رأيه
بالتنوير، ويراسل العدو ويهدده ويهرهه، فكان ذلك أشد عليهم من القتال،
وأنكى لهم من المراماة بالنبال، والمقارعة بالنضال، فطلب العدو الخلاص، ولات
حين مناص، وفتح الله أغلاقه، وفك من أسر العدو أوثاقه، فأسكنه المولى
المنصور اياه، وأمره أن يستوطن به مع من جاوره من القبائل ووالاه، وبنى
بأمره الشريف ما انهدم من الاسوار، وأعاد ما تلف للمعاصم من السوار،
وبنى فيه مسجداً أعظم، ومناارا أفخم، بناء أحكم فيه وأتقن ما شا، وروثق
ما استطاع ووشى، جاريا فى ذلك على وفق ارادة مولانا الامام، وساعيا فى
تحصيل غرضه وفق المرام، فهو من وثوقه وصحة جدرانه كأنما ولدته دجاجة،
او أفرغ من زجاجة، ثم بنى مسجدا بالقصبة القديمة، قائما على سوارى
مستقيمة، وأقام فيها عن اذن مولانا الامام الجماعات والجمع، وضم اليها ما
أمكنه من المدرسين والقراء وجمع رغبة فى وفور الثواب لمولانا الامام، أبقاه
الله رحمة ونصرة للمسلمين والاسلام» هـ.

وبعد أن ذكر الفقيه الرافعى التطواني فى كناشه تاريخ فتح طنجة
— وقد كان معاصرا له — قال ما نصه : «وفيه خربت قصبة مرشان، وهدم
برج الصفيحة وبرج البحر»

ويظهر أن هذه هى اسماء الابراج التى ذكر صاحب البستان أن الافرنج
هدموها قبل جلائهم عن مدينة طنجة.

ثم قال الناصرى فى الاستقصا عقب ما تقدم لنا عنه ما نصه (I) «ثم
اتفق أن نشب بقرب ساحلها (أى طنجة) مركب قرصانى جاء مددا لاهل
سبتة، فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله واحتوا على ما فيه وألزم
السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية الى مكناسة، وأرسل الرماة من
أهل فاس لجبرها أيضا فأتوا بها لاربعين يوما والله غالب على أمره».

رسالة من قائد تطوان الى ملك فرنسا عام 1098

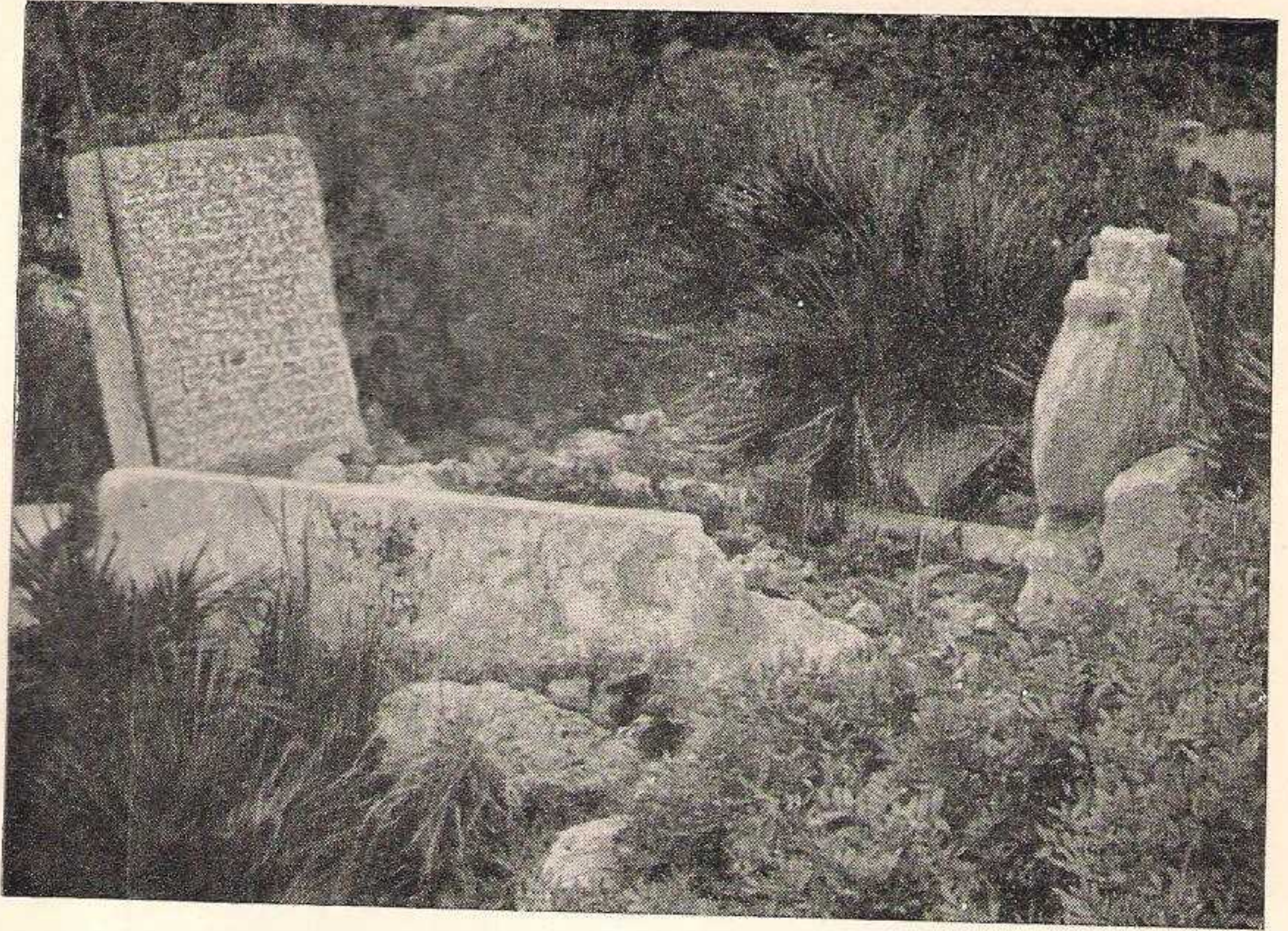
سبق لنا وصف سفارة الحاج محمد تميم الى فرنسا عام 1092 - 1093 وفى هذه السنة أى سنة 1098. توجه تميم المذكور أيضا الى فرنسا فى مهمة رسمية، ولكنه عاد منها دون أن يجتمع بملكها لويس الرابع عشر، فكتب حاكم تطوان ونواحيها الى الملك المذكور رسالة هذا نصها (I) :

الحمد لله تعالى وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الى عظيم المملكة الرومية والقائم بامور الملة المسيحية ملك اقطار بلاد جنس النصرى الفرنسيس من تسمى باسم الويش الرابع عشر، السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق الرشده وما اعتدى ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فكتبناه عن الخير والعافية والشكر لله سبحانه على توالى نعمه الضافية اعلاما منا لمقامكم وأننا كنا وجهنا خديم مولانا نصره الله الحاج محمد تميم بقصد الوصول الى دار مملكتكم والحضور عندكم وعهدنا اليه أن يقص عليكم أمورا أكيدة كان ضيفنا (2) أمير المؤمنين أيده الله أوصانا ان نعرفكم بها، ونبعث من يخبركم بحقيقتها مشافهة فوصل الى بلادكم مدينة طلون، ثم رجع منها ومنع من الوصول لحضرتكم ومخاطبتكم بما أمر به، ولم يكن له اذن الا فى الكلام معكم، ولتبقى حال المهادنة متصلة واثقة، وأسبابها بتجديد العهد متناسقة، فلما وقع قضاء الله سبحانه برجوع الحاج محمد تميم وطال العهد ولم يأتنا بجواب يعتمد عليه ويلتفت اليه مع طول المدة وتوالى الايام، فناولنا الكلام مع خديمكم الفونص صطيله المقيم عندنا هنا وتفاوضنا معه فى أمور هى بحول الله لا ثقة بالجانبين، ورأينا من أعظم أسباب الخير أن يقدم علينا رجلا (كذا) من خدامكم على العادة وله التفويض العام منكم للحل والعقد والربط فنتلقاه بالبرور والاكرام، ونقف معه على ساق الجد والاهتمام، حتى نوصله للحضرة العلية من بساط مولانا المنصور بالله، ويستوفى كل من الجانبين جميع الاغراض المهمة، على ما يرضى بحول الله ومن كان له حق ودعوى وحجة يبينها ويقع الانصاف والتفاصيل فى جميع الامور، وتصفى من الكدر وجوه المطالبات والمعاكسات، فان شؤون البحر والمراكب لا تتخطى أن يقع فيها

(I) نقلا عن صورة أصلها المنشورة أمام ص 36 من المجلد الثالث من المجموعة الفرنسية لكاسترى .

(2) كانت كلمتا «ضيف» وأضياف، تستعملان بتطوان مرادفتين لكلمتى «سيد» و«سادة» وما زال بعض أهالى تطوان حتى الآن يستعملون عبارة «اسيادو وضيافو» حينما يريدون الكناية عن أفضل الناس.



(رقم 32) قبر المجاهد الكبير، بطل تطوان وحاكمها وزعيم مجاهديها، ابي العباس المقدم احمد بن عيسى النقيس، وهو واقع في القسم الاعلى من مقابر تطوان، في سفح جبل درسة الواقع شمال هذه المدينة وقد ظهرت فيه الحجرة التاريخية التي اثبتنا نص الكتابة التي عليها في صفحة 201 من هذا الكتاب والمقدم النقيس هو اكبر واشهر حاكم تطواني في القرن الحادي عشر للهجرة، فلقد كان وطنيا غيوراً، ومجاهداً كبيراً، وبطلاً مغواراً وسياسياً محنكاً، وعهده - الذي كانت شمس الدولة السعدية فيه على اطراف النخيل - لم يكن فيه بالمغرب عاهل كبير قوى الشخصية واسع النفوذ، ممن يرضى ان يخضع له امثال المقدم النقيس من كبار القادة الابطال، وزعماء المجاهدين الاحرار، فلذلك تصدر ابو العباس للرئاسة والجهاد في تطوان ونواحيها وكان موفقاً في اعماله ناجحاً في سياسته وادارته وجهاده رحمه الله. وهذا المقدم، اليه تنسب زنقة المقدم التي بين السوق الفوقى والفرسة الكبيرة، وداره ودور اولاده هي التي تحولت لمساكن الاشراف من آل وزان في درب الشرفاء بالزنقة المذكورة .

وفي مظهر الاهمال المؤسف البادى على قبر المقدم النقيس وامثاله، عبرة لمن يعتبر من اصحاب السلطة والجاه، والفطرسية والجبروت، والبقاء والدوام لله سبحانه



(رقم 33) صورة البطل المجاهد المقدم الخضر غيلان الذي دخلت تطوان تحت حكمه
مدة من الزمن، (وما تزال عائلة غيلان بتطوان الى الان) وقد نشرت هذه الصورة
بلندن عاصمة انجلترا سنة 1075 هـ 1664 م وان شئت فانظر صفحة 234 - 235 -



(رقم 34) صورة سلطان المغرب مولاي رشيد بن الشريف، من الاشراف العلويين واحد كبار الدولة العلوية الشريفة، خلد الله مجدها بعز المغرب وعظمته. وقد احتل مولاي رشيد مدينة تطوان ونواحيها وقضى على السلطات المحلية التي لم يبق هناك مبرر لوجودها وضم هذه المدينة مع سائر الشمال المغربي لبقية المملكة المغربية، فتوحدت بذلك نواحي الوطن المغربي العزيز، وما احسن التوحيد مع العدل والانصاف. والتاريخ يعيد نفسه، فبعد مرور نحو ثلاثمائة سنة على عهد مولاي رشيد، وفي عهد تأليف هذا الكتاب بتطوان - كان المغرب فاقدًا لحريته واستقلاله راضخًا للسيطرة الاجنبية، فأعاد الله له حريته واستقلاله، وجمع شمله، ووجد ترابه، (وأعيدت تطوان وسائر الشمال المغربي لبقية المملكة المغربية) تحت حكم الملك الموفق والسياسي المحنك، ابي عبد الله محمد بن يوسف العلوي بارك الله في عمره لخير المغرب والعروبة والاسلام



(رقم 35) صورة السلطان الكبير مولاي اسماعيل بن الشريف العلوي مفخرة المغرب
والدولة العلوية الشريفة
هذا الملك العربي الحر، الشريف الابي، المسلم الغيور، في عهده وبأذنه، كانت تطوان
هي مركز الكفاح الوطني، ومقر المقاومة المسلحة، ومصدر الجهاد الديني لتطهير
موانئ المغرب من الاحتلال الاجنبى الغيضر
ففى اول عهده - والمملكة العلوية الشريفة ما زالت فى عهد طفولتها - كان جل الموانئ
المغربية محتلا من ثلاث دول افرنجية معتدية فتجمعت انقوات الوطنية بمدينة تطوان التى
كانت القوات الاجنبية محتلة لبلاد مغربية فى شرقها وغربها وشمالها، وتحت قيادة والى
تطوان وبزعامة مجاهديها، استرجع المغرب مدينة طنجة سنة 1095 هـ ومدينة العرائش
سنة 1101 هـ ومدينة اصيللا سنة 1102 هـ وحصن بادس سنة 1113 الخ وان شئت
فانظر ص 258 .



(رقم 36) قائد تطوان الحاج محمد تميم، سفير السلطان مولاي اسماعيل لدى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وقد اخذت هذه الصورة بباريس سنة 1093 هـ 1682 م

(رقم 37) صورة الرسالة التي بعثها سلطان المغرب مولاى اسماعيل بن الشريف العلوى الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر فى شأن سفارة قائد تطوان الحاج محمد تميم، وهى مؤرخة بـ 15 ربيع الثانى عام 1093 هـ الموافق 23 ابريل سنة 1682 م. ونصها الكامل مثبت فى ص 267

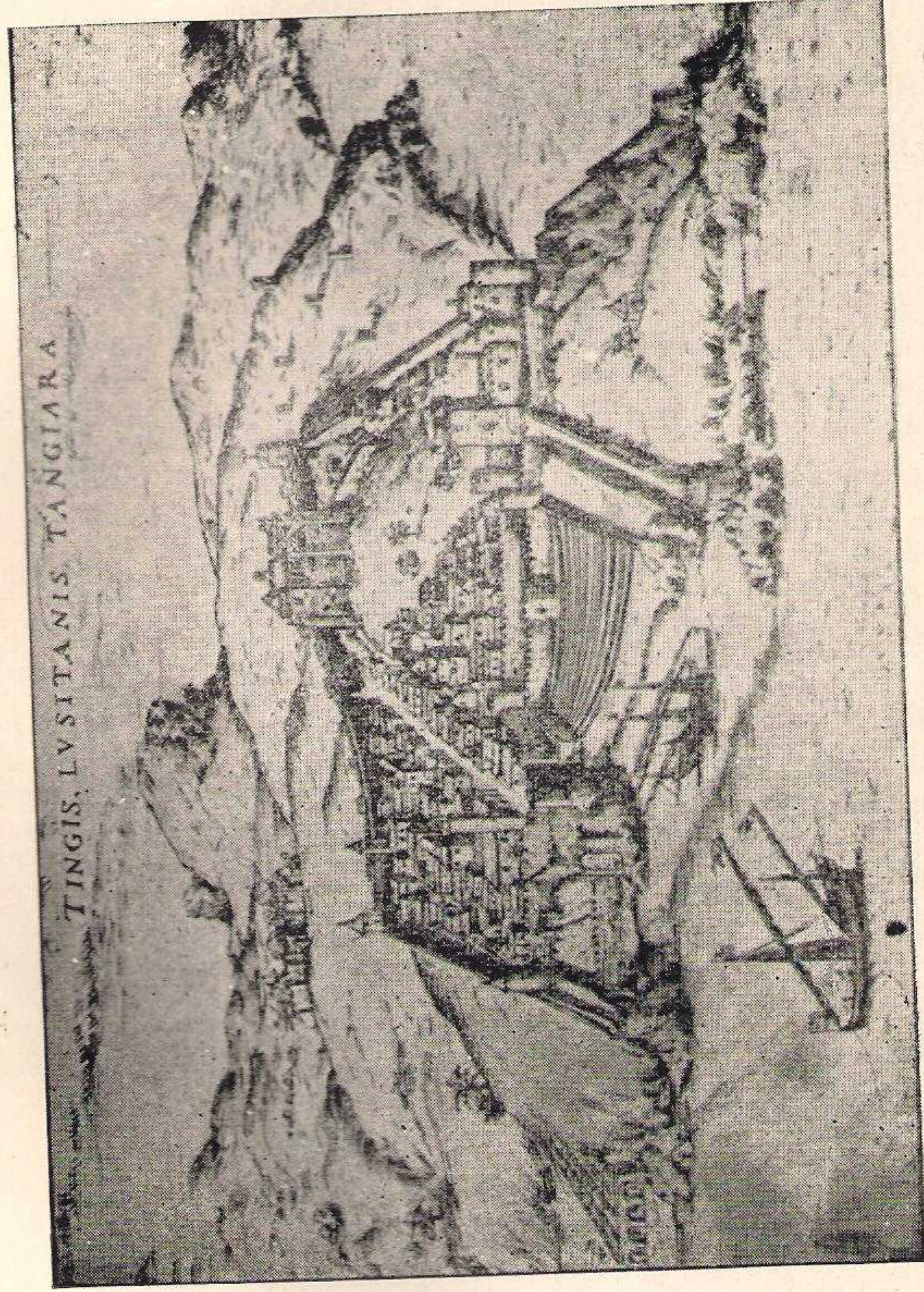
الى عليم الروح النضر صور الويستر الزمربع عشر صلوات مائة الى نعيم الصلوات
 على مراتب الاسرى اقل بعد فتيحة علمكم ان وصلنا لسلالة دكر اقبال في شبي ولله وارجو
 الحق على ذلك وكان ركونك اليهم في موكب النبهار بليته وقد احسن البياخانية راحسنان وعامات
 بالهور ورافقتان وبارخ في الزمان وتعتبنا موهبا علينا تشكر اليك وعمرنا وصلواتكم ضيقنا
 ومسير امير المؤمنين الموقر بالله تعالى الى النهر موكبا اسماعيل البلاشبي اصيل نساءك من حلال
 هجرنا وملاقاتك معكم وجوعنا معكم وماجرى بيننا وبينكم في الجند عنكم بقا عاماتكم
 به من البهور والارواح بجانبا مولانا الموقر دكر عظمنا وتنتبع راحسنان ورافقتان في شبي نداء من صلوات
 له اليغفر عنكم وواعدا بجزاياتهم ومغالبية احسنكم فيكم باذ اوصل في شبي صور من بلادكم ان شاء الله
 فله ما يرضيه ويسمى وعمرته في الاضا بما وقع الوفا وحكم مبداء اسارى اليه في شبي فاتيهم بالقبول
 وارضى ومهدا ما احباب به ايدهم الله من فضله والصلوات والاشيا فيغير من راحسنان في علم ثلاثه
 وتسعين واليه عن
 الى موكبا حكم الله الحاد

الحمد لله الذي جعل العلم نوراً

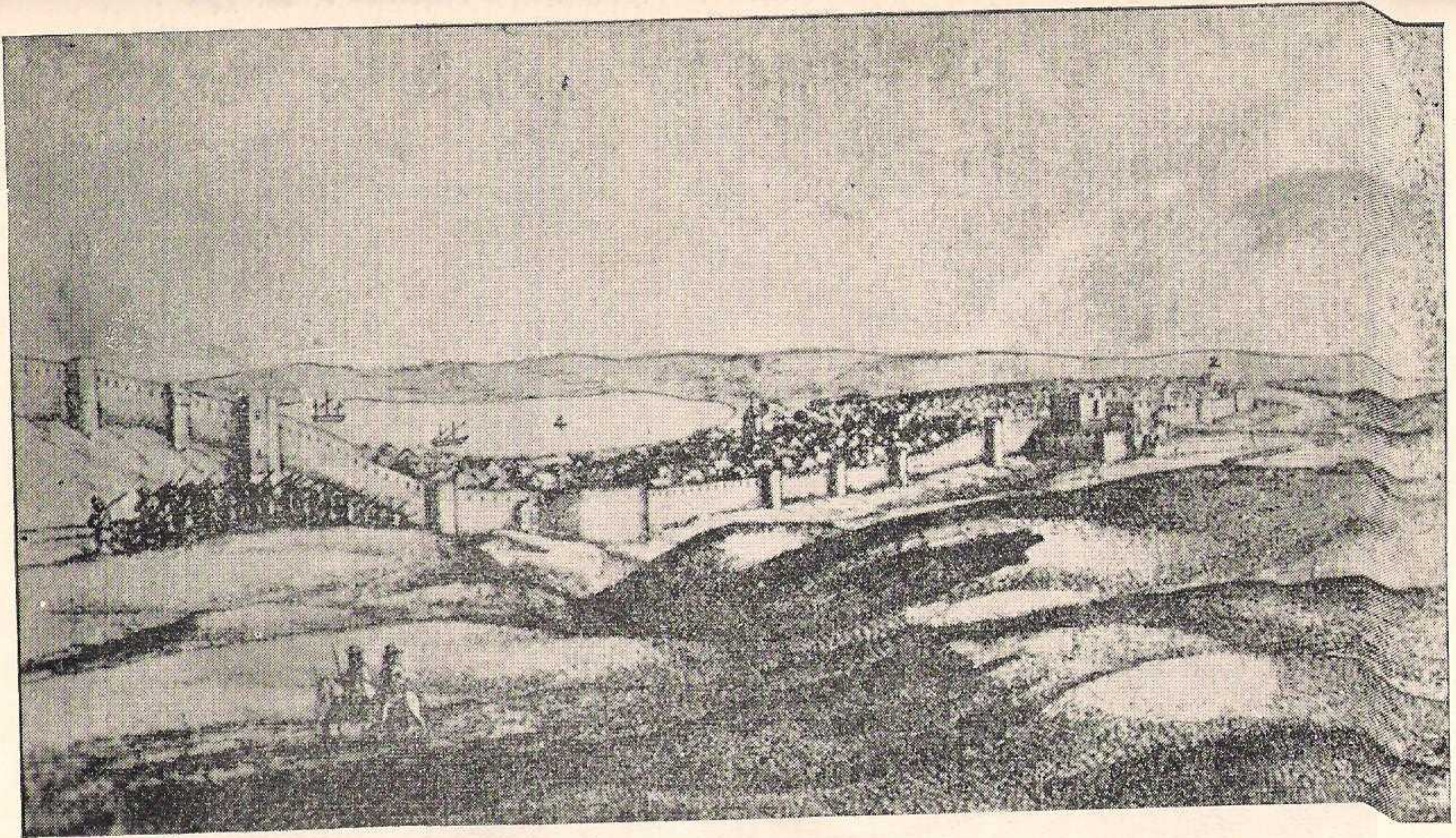
بسم الله الرحمن الرحيم

الى المصطفى المفضل صاحب الرواية العرفانية ووجه الحكمة والبرهان
 له السلام على من اتبع الهدى امّا بعد فليكن من علم اننا
 وحلفاء اهل البيت وقرابة الله وخير راي له والمؤمن له وكل من كان له
 في مركب الفطيان يلبس و قد احسن الشاغلانية وعلمنا اننا في البرور
 والاحسن وبالغ في الامناء وتعاليمنا ما وفق عن غير موجب علينا ان
 بما انصرنا اليه من الخير وعلمنا ما وصلنا ضيقا وسيرنا امير المؤمنين
 المومنين بالله تعالى اجد العباد مولانا السعيد سالتنا عن حال سبعنا وملاكنا
 محكم وزجروا عنا عنكم وعلى ما جرى بيننا وبينكم فيكم واميركم ما جئنا به
 بما علمتمونا به من الامراء والاحكام والاعمال على ما علمتمونا به من
 البقيس بنوك وراعيك بنات خبيث في مفاصلة احسن انك البنا
 بنك جازم او ربح ان شاء الله البنا منكم ورر من بلك في له ما به فيه وسير
 ايضا في وقع به الوقوف معكم من جزاء الامام من الجانيين فانتم ذلك وقوله
 ورضية والقرعة على يومكم امين والتمسك وكتب في التاج والعشرين
 من ربيع الثالث على ثلاثة وتسعين والتمسك مولانا محمد بن الله

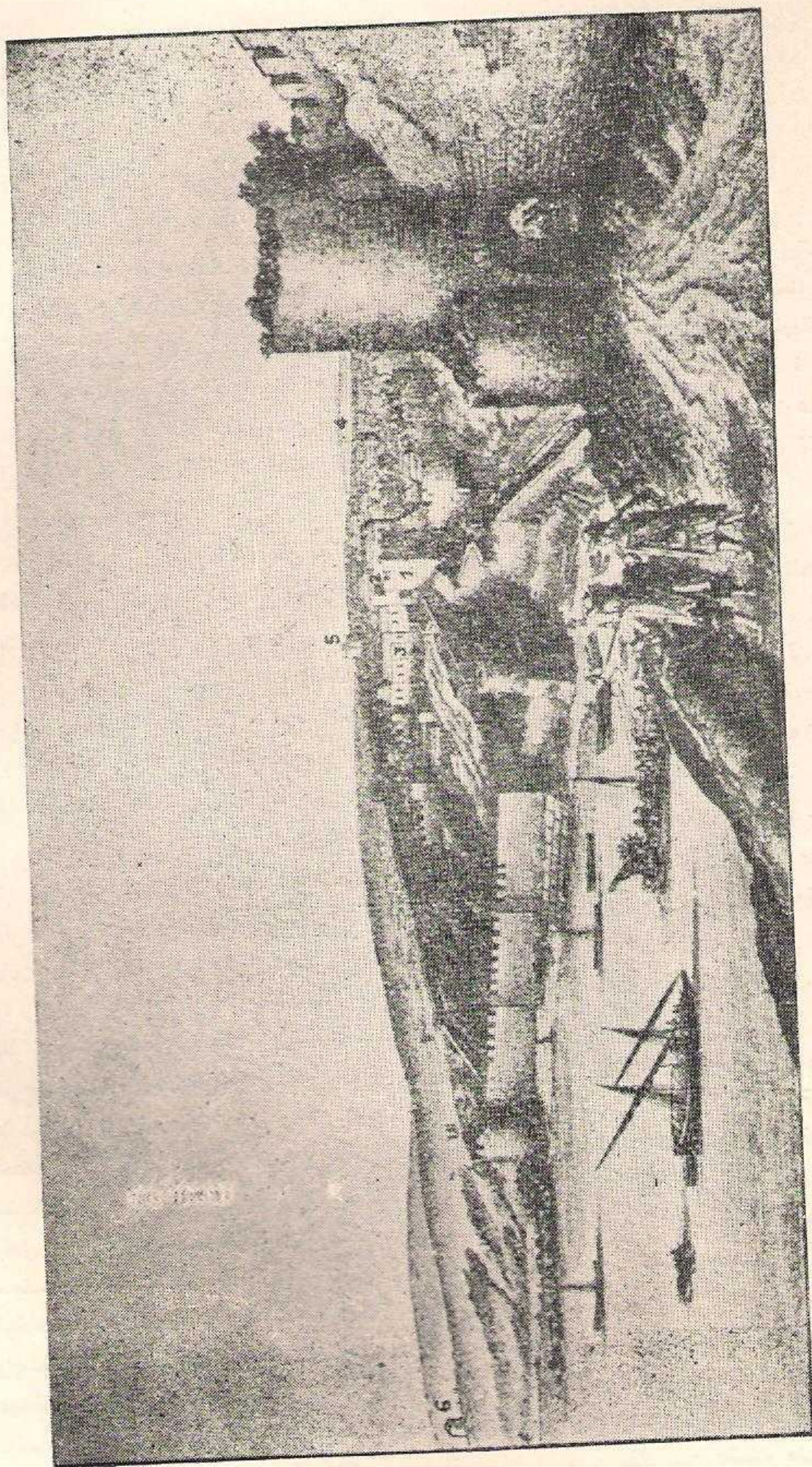
التاج محمد بن الله
 وبنه عنده



(رقم 40) منظر عام قديم لمدينة طنجة كما كانت في احدى عهود الاحتلال البرتغالي لها خلال القرون الثلاثة، التاسع والعاشر، والحادى عشر للهجرة، الموافقة للقرون الخامسة عشر والسادس عشر والسابع عشر للميلاد، وفي ذلك العهد، كان المجاهدون من اهل تطوان وبنائنها يحاصرون اولئك الحثلىين ويهاجمونهم من حين لآخر .



(رقم 41) صورة اخرى لمدينة طنجة بعد ان سلمها البرتغاليون للانجليزيين عام 1072 هـ (سنة 1661 م)، وهذه الصورة مأخوذة من مكان مرتفع من ناحية البر، وقد بين الانجليزيون بعض الاماكن المهمة فيها فذكروا ان رقم 1 - (في جهة اليمين) هو باب كاطالينا، ورقم 2 - (في اقصى اليمين) هو محل المدفعية الارلندية ورقم 3 - الذي هو المكان المرتفع في الوسط، هو محل الحراسة المركزية، ورقم 4 - الذي فيه مركبان هو ميناء المدينة .



(رقم 42) صورة ثالثة لبعض جهات طنجة أثناء احتلال الانجليزيين لها، وقد اخذت من مكان مرتفع، ويرى الى اليمين سورها العالي واحد ابوابها البرية المحصنة، وفي رقم 1 - باب البحر وحصن ساندويش، وفي رقم 2 - الكنيسة الانجليزية (البروتستانتية) وفي رقم 3 - الكنيسة البرتغالية (الكاثوليكية) وفي رقم 4 - مقر الحراسة المركزية، وفي رقم 5 المدفعية الارلندية، وفي رقم 6 حصن كامبريدج

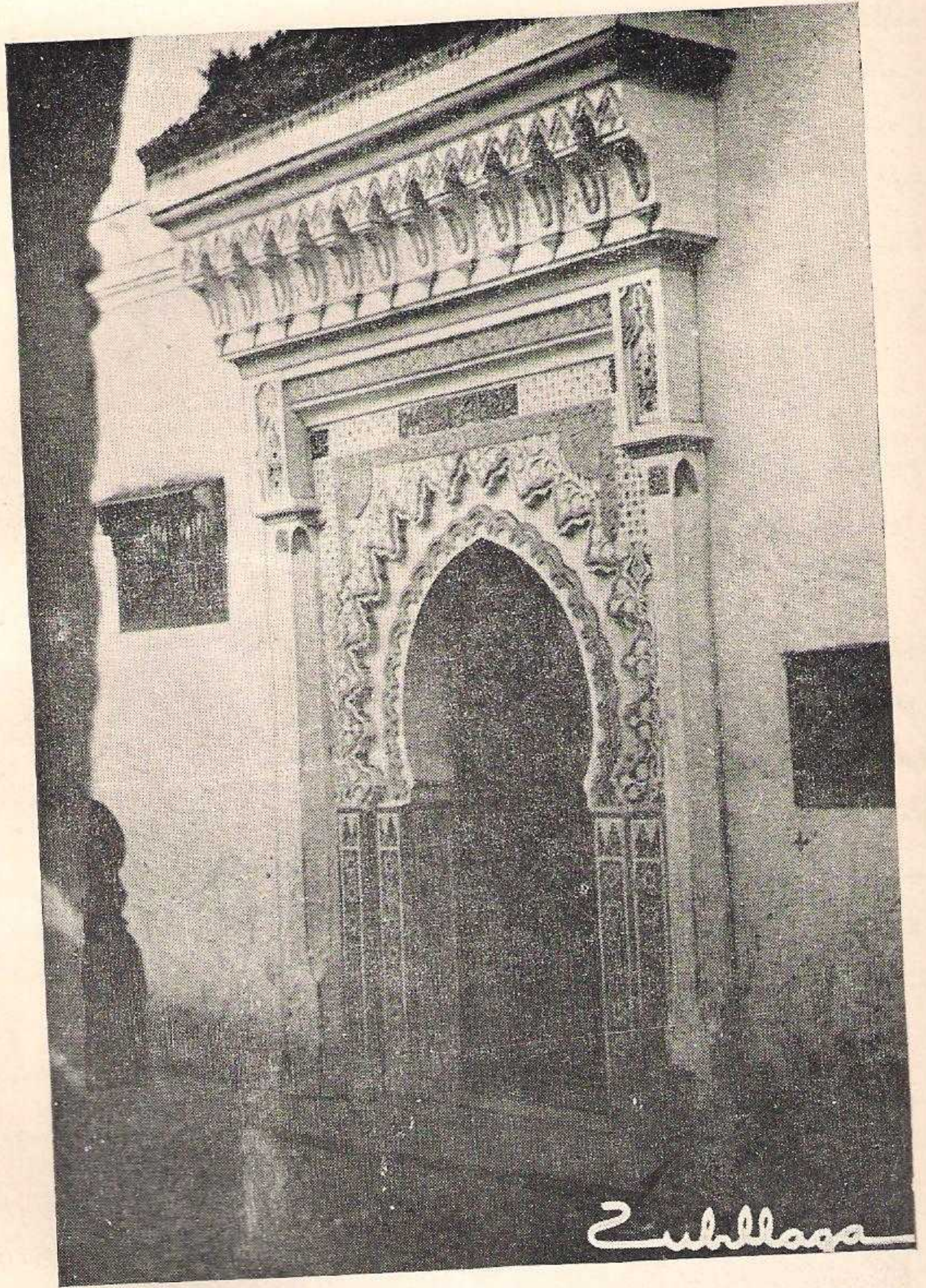
عن صور طنجة فى عهد الاحتلال الاجنبى

هذه الصور الثلاث لمدينة طنجة، مما سجلته اقلام البرتغاليين والاسبانيين والانجليزيين فى عهد احتلالهم لهذه المدينة، وقد زادت مدة ذلك الاحتلال على مائتين من السنين، ويلاحظ فى جميعها، ما كانت عليه المدينة من التحصن بأسوارها العالية وابراجها المتقاربة، ولا غرابة فى ذلك، لان الافرنج قد قضوا مدة احتلالهم لطنجة، فى ضيق شديد وثقمة متزايدة، فلقد كان مجاهدو تطوان وقبائلها، لا ينقطعون عن مهاجمة حصون تلك المدينة وضواحيها واسوارها، وعن مضايقة سكانها - الذين كانوا يعتبرونهم مغتصبين معتدين - حتى كانوا لا يذوقون للراحة طعما، ولا يعرفون للهناء سبيلا

وفى الصورة رقم (40) منظر لطنجة من البحر وقد دارت بها الاسوار والحصون من جميع جهاتها ويلاحظ فيها ان مساحة المدينة كانت فى ذلك العهد صغيرة ربما لا تسع الا الحامية العسكرية وعددا قليلا من السكان المدنيين

وفى الصورة رقم (41) يلاحظ ان مساحة طنجة قد اتسعت، وان عمارتها قد ازدادت فى عهد الانجليز، كما يلاحظ علو الاسوار وكثرة الحصون، مما يدل على ان القوم كانوا فى هلع من مضايقة المجاهدين المغربيين، ويرى فى هذه الصورة بعض الجنود يطوفون حول الاسوار وسلاحهم على اكتافهم خوفا من مفاجأة رجال المقاومة والكفاح من الوطنيين .

وفى الصورة رقم (42) يظهر ميناء طنجة وفيه مراكب يحمل بعضها الجنود والزاد الذى لم يكن لوصوله طريق الا البحر، ويلاحظ ان المدينة كانت كأنها حصن حصين حتى من ناحية البحر ، بالرغم من كون رجال المغرب لم يكونوا يهاجمونها الا من ناحية البر ، ولكن مهاجماتهم كانت متوالية مزعجة عجز الانجليزيون معها عن المحافظة على انفسهم وعلى مراكزهم، فاضطروا لاخلاء هذه المدينة وحصونها والنجاة بانفسهم بالفرار منها فى مراكبهم البحرية ليلا تحت جناح الظلام، وكان ذلك الجلاء عام 1095 هـ 1684 م. وهكذا انقذت - طنجة - مدينة الفرح والمرح، والمناظر الجميلة والموقع الممتاز، ولكن بقيت مدينتا سبتة ومليلية، محتلتين بيد الاسبانيين الى تاريخنا هذا، وذلك الاحتلال اصبح الان بقاءه من العار، لانه ظاهرة من بقايا روااسب العصور الوسطى، عصور الغزو والسطو والعدوان، ولعل من الخير لانجلترا ولسائر العالم البحر، ان تتنازل الدولة الانجليزية الرشيدة لاسبانيا عن جبل طارق الذى هو قطعة من صميم الاندلس ، ولعل من الخير لاسبانيا وللمصالح الاسبانية، ان تسلم الدولة الاسبانية العاقلة للمغرب مدينتى سبتة ومليلية - وهما المدينتان المغربيتان الصميمتان - تسليم الصديق للصديق - والجار لجاره الرفيق، وخير للشعوب العاقلة وللسلم العالمى، ان يعم التعاون والهدوء والاطمئنان ، ويسود العدل والانصاف والسلام، وانى لا استبعد مطلقا، ان يصل عقلاء دولتى المغرب واسبانيا - فى عهدنا هذا - الى حل معقول يرجع للمغرب حقه المشروع، ويحفظ لاسبانيا والاسبانيين مصالحهم المشروعة، ولكن بشرط ان يسند النظر فى ذلك - من الجانبين - الى رجال ذوى عقل ورزاة وسعة صدر، بعيدين عن العجرفة والتعصب والغرور فهل من مفكرين عقلاء منا ومن اصدقائنا الاسبانيين ؟ أظن ان الجواب سيكون « نعم »



باب الزاوية

(رقم 45) باب الزاوية الفاسية بتطوان وقد بنى أصلها في حياة صاحبها ومؤسسها الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي عام 1003 هـ الموافق سنة 1595 م وجدد بناءها في عصرنا هذا، صديقنا الفقيه الصوفي الصالح أبو العباس أحمد بن عبد القادر الفاسي الوطني التطواني الغيور حفظه الله.



(رقم 46) باب الزاوية الناصرية بتطوان، وهي من اقدم زوايا الطرق الصوفية بهذه المدينة، وقد بنيت في القرن الحادى عشر للهجرة، وان شئت فانظر ص 312 .

مغالطات ومخالفات، فيجب النظر فيها والرجوع للحق في تلافيها، فإن لم يتعاهدها من له بصيرة بصلاح الأمور فيؤدى طول مكثها الى الجفا والمحدور . والله سبحانه نسأله الهداية والتوفيق، والانقياد الى سواء الرشيد والطريق، بمنه وكرمه، وبتاريخ أواخر جمادى الاولى عام ثمانية وتسعين واللف.

خديم مولانا نصره الله : علي بن عبد الله وفقه الله ورعاه
ثم الطابع الذى نقشه (خديم المقام العلي بالله علي بن عبد الله الحمامي رعاه الله)
والتاريخ المذكور توافقه أوائل ابريل سنة 1687 م.

نهاية اولاد النقسيس عام 1098 هـ.

ذكر الناصرى فى الاستقصا (I) أن السلطان المولى اسماعيل لما بلغه أن أخاه المولى الحران وابن أخيه المولى أحمد بن محرز اللذين كانا ثائرين عليه، قد دخلا قسبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات، نهض اليهما، وبعد حروب كثيرة، اقتحم المولى اسماعيل تارودانت عنوة بالسيف واستباحها واستولى عليها فى جمادى الاولى عام 1098. ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عينوا وفدا من كبارهم وأشرفهم وعلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنية يقدمهم ولده المولى محمد بن اسماعيل فأكرم وفادتهم، وخرج أولاد النقسيس من سبتة وكانوا قد لجأوا اليها بعد مقتل الخضر غيلان فقدموا على السلطان (يعنى المولى اسماعيل) بعسكره من تارودانت فأمر بردهم الى تطاوين وقتلهم بها، وأمر بقتل من كان منهم مسجوناً بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله .

وقال ابن الحاج فى «الدر المنتخب» (2) ما نصه :

«ولما أصلح من أحوال أهل تارودانت ما اراده، وقطع دابر كل من عانده، قدم عليه اولاد النقسيس من سبتة، وكان كبيرهم عيسى بن عبد الله مات فى ربيع الاول، وتنصر بعض من كان معهم، ولما وصلوا اليه أمر بردهم لتطوان ويقتلون، فقتلوا كما سبق فى الازل، وذلك فى رمضان العام.

(I) الاستقصا ج 4 ص 32. ومثله فى كتاب الجيش ج I ص 74.

(2) الدر المنتخب ج 6 فى حوادث سنة 1098.

وفي يوم الخميس خامس شوال من هذا العام قتل ثلاثة من اولاد النقسيس بفاس الجديد، وفي يوم السبت سابع شوال هذا قتل اربعة من اولاد النقسيس كانوا بسجن تطوان وفعل بهم ذلك خوفا أن يفعلوا كما فعل من كان معهم من العوام» .

ووجدت في تقييد قديم بخط أحد قضاة تطوان في أوائل القرن الثالث عشر، أن اولاد النقسيس فروا الى نصارى سبتة فقدم بعض خدام السلطان وتحت يده أمر بأخذهم وقتلهم ولكنه أظهر لهم الامان حيلة منه، وخدع الفقيه الولي الصالح سيدي الحاج علي بركة وأخذه معه الى سبتة فاغتر أولاد النقسيس وعادوا الى تطوان صحبة الخديم المذكور مع سيدي علي بركة فلما دخلوا باب المقابر (I) وهي الباب المقابلة لسبتة، ألقى القبض عليهم ثم سيقوا الى باب القاعة (2) بالغرسة الكبيرة وقتلوا هناك وكانوا سبعة ومعه عبد لهم فلما رأى العبد المذكور ما وقع بأسياده، واجه خادم السلطان بأنه غادر فألحقوه بأسياده .

ثم ذكر صاحب التقييد المذكور أن اولاد النقسيس انقضوا بذلك ولم يبق منهم أحد (يعنى بتطوان)

وذكر ابو محمد سكيرج أن السلطان هو الذي بعث الولي الصالح العالم العامل سيدي الحاج علي بركة الى اولاد النقسيس وأمره ان يعطيهم الامان ويأتى بهم الى تطوان فلما اطمأنوا الى ذلك ورجعوا الى تطوان قتلوا بها وعلقت رؤوسهم على سور البلد بالموضع الذي به الآن القاعة في الغرسة الكبيرة . وذكر المستعرب سرديرة الاسباني ان سيدي علي بركة هو الذي سعى لدى السلطان في العفو عنهم، وأن السلطان وعده بذلك ولكن كان ما كان . وللتوفيق بين مختلف الروايات، نرى والله أعلم، أن اولاد النقسيس في ذلك العهد، كان عدد منهم في سجن فاس ومعه بعض انصارهم من عهد السلطان المولى الرشيد الذي ألقى القبض بتطوان على مقدمها أحمد بن عيسى النقسيس واصحابه عام 1078 ثم قتل عدد منهم بفاس عام 1088 وبقي البعض الآخر منهم بالسجن المذكور، وفي الحين نفسه كان البعض الآخر منهم لاجئا بسبتة خوفا على نفسه منذ قتل المقدم الخضر غيلان، فلما انتصر المولى اسماعيل على خصومه عام 1098. وفد عليه بعض من كان منهم في سبتة وبقي

(I) كان هذا الباب يسمى قديما «باب الربض» انظر ترجمة الكراسي من هذا الكتاب. ت. و.

(2) هي القاعة التي ما زالت معروفة حتى الآن بهذا الاسم في ساحة الغرسة الكبيرة وهي الفندق الذي كان وما زال يباع به السمن والزيت والعسل والتين والزيتون النخ.

البعض الآخر بها، فأمر السلطان من وفدوا عليه بعودتهم الى تطوان، ثم وقع السعى في جلب من كان باقيا منهم في سبتة بالحيلة والوعد بالامان، فلما اغتروا بذلك الامان الذي يشبه امان بعض الملوك العباسيين بالشرق، ظنا منهم أن ذمة الشيخ سيدي على بركة لا تخفر، عادوا الى تطوان، فضموا الى اخوانهم العائدين من عند السلطان وقتل الجميع .

أما الاشخاص الثلاثة الذين كانوا بفاس الجديد وأمر السلطان بقتلهم في ذلك العهد، فهم البقية الاخيرة من اولاد النقسيس مع انصارهم، الذين وقع القبض عليهم بتطوان بعد قتل الخضر غيلان وفرار البعض الآخر منهم الى سبتة، ويظهر - كما قال صاحب المخطوط التطواني - أن هذه الحادثة كانت هي القضاء النهائي على أولاد النقسيس وأنصارهم بتطوان ونواحيها، اذ لم يذكر اسمهم بعد ذلك في أى حادث من الحوادث. وهكذا كانت نهاية احفاد اولئك الابطال الذين طالما جاهدوا في سبيل الله ودافعوا عن الوطن، وانما البقاء والدوام لله وحده سبحانه.

رسالة من القائد علي بن عبد الله الى قنصل فرنسا عام 1099

وهذه رسالة نثبتها هنا كنموذج لما كان القائد علي بن عبد الله - قائد تطوان ونواحيها - يخاطب به القناصل الاجانب في المغرب، ونصها على ما فيها (I)

الحمد لله وحده
وصلى الله على جميع أنبيائه ورسله
الى النصراني القونصو جوان برلي (2) الفرنسي الجنسية السلام
على من اتبع الهدى، فقد عن غرض منا اليك فأقدم لملاقنتنا حين رؤيتك لمسطورنا هذا ولا بد ثم ترجع على طريقك ان شاء الله والسلام على من اتبع الهدى.
وكتب في أواخر رمضان المعظم عام تسعة وتسعين والـ (3)
ولنقف عند هذا الحد من أخبار ولاية تطوان وحوادثها في القرن الحادى عشر، ولنرجع الى الوراء قليلا لنطرق موضوعات أخرى من تاريخ تطوان في هذا القرن، اذ ليست الحوادث السياسية والحروب وأخبار الحكام، هي كل ما في التاريخ، بل ان هناك نواحي تاريخية واجتماعية أخرى يرى كثير من الناس أن أهميتها لا تقل عن النواحي المذكورة ان لم تكن تفوقها.
وسنذكر فيما يلي ما استطعنا العثور عليه من ذلك، ثم نعود الى الكلام على ولاية تطوان وحوادثها في القرن الثانى عشر بحول الله .

- (I) من المجموعة الفرنسية لكاسترى م 3 ص 190
(2) هو المسيو PERILLET وهو قنصل فرنسا في سلا .
(3) هذا التاريخ يوافق أواخر يولييه سنة 1688 م .

الفصل الثاني

من الباب الرابع

من قضاة تطوان وعدولها في القرن الحادي عشر

لم أقف على مستندات قديمة يمكن أن تؤخذ منها أسماء جميع الأشخاص الذين تولوا قضاء تطوان في القرن الحادي عشر، وإنما وقفت على اللائحة التي أثبتها أستاذنا الرهوني في تاريخه، وهي محتوية على أسماء بعض القضاة والتواريخ التي كانوا متولين فيها، أما ما عدا ذلك من المعلومات عنهم وعن عدولهم وأخبارهم فلم يذكر من ذلك شيئاً. وأستاذنا الرهوني رحمه الله كان عمدة في الموضوع، لأنه لبث متولياً لوزارة العدلية ورئاسة القضاة بتطوان وبقية الشمال المغربي أكثر من عشرين سنة، ولا شك أنه إنما استخلص لأئحته من الرسوم القديمة التي اطلع عليها، والمعلومات الصحيحة التي عثر عليها. وسأنقل هنا مضمناً ما في اللائحة المذكورة وإن كانت غير مستوفية لجميع قضاة تطوان في هذا القرن، وقد أزيد عليها ما أعثر عليه في غيرها من المعلومات المتصلة بالموضوع وإن كان ذلك ضئيلاً، والسبب في ذلك هو طول العهد واضمحلال كثير من المستندات ويا للأسف.

ولقد قلنا سابقاً إن أبا عبد الله الكراسي بقي متولياً لقضاء تطوان إلى أن توفي قاضياً بها عام 964 ولكننا لم ندر من هم الذين تولوا قضاء هذه المدينة في الربع الأخير من القرن العاشر، أما الربع الأول من القرن الحادي عشر، فلم نعرف من أسماء ولاته الشرعيين إلا واحداً هو الفقيه محمد بن محمد يعقوب «نائب القاضي» كما سيأتي، أما القضاة فأقدم من عثرنا على اسمه منهم في هذا القرن، هو عيسى الخشين، ودونك ما عرفناه في هذا الموضوع.

نائب القاضي محمد بن محمد يعقوب عام 1012

وقفت في نوازل الحجر من نوازل الزيآتى المسماة بالجواهر المختارة على رسم مؤرخ بأواسط ذى الحجة عام 1012، وفيه أن الفقيه الاجل محمد بن محمد بن يعقوب كان فى ذلك التاريخ نائب القاضى بالشعر التطواني الخ. ووقفت أيضا على أصل رسم مؤرخ بثالث عشر رمضان سنة 1025 وفيه أن محمد بن محمد يعقوب كان نائبا عن قاضى تطوان فى ذلك التاريخ أيضا، الا أنه ذكر فى هذا الرسم باسم يعقوب، لا ابن يعقوب أى بدون لفظة ابن ولعله هو الصواب والله أعلم .

القاضى عيسى الخشين عام 1032

أخبرنى بعض الثقات أنه وقف على رسم كتب عام 1032 وفيه أن قاضى تطوان ونواحيها فى ذلك التاريخ، هو عيسى الخشين. ولا أعرف عن هذا القاضى أكثر من ذلك.

القاضى محمد بن سعيد بن قريش عام 1037

ذكر شيخنا الرهونى أن الشخص الذى كان قاضيا بتطوان فى شهر ذى الحجة من سنة 1037. هو القاضى محمد بن سعيد بن قريش . «قلت» ولعل هذا هو أول من تولى القضاء بتطوان من عائلة بن قريش. وقد تولى مرة أخرى عام 1040 كما سيأتى. وهذا القاضى هو محمد بن سعيد ابن أحمد، وسيأتى لنا اسم قاض آخر يشبهه فى الاسم والنسب ولكنه غيره اذ هو محمد بن سعيد بن قاسم...

القاضى موسى الخطيب عام 1038

ذكر أستاذنا الرهونى أن الفقيه السيد موسى الخطيب، كان قاضيا بتطوان عام 1038 ولم نعرف عنه أكثر من ذلك .

القاضى محمد بن سعيد بن قريش عام 1040

ذكر أستاذنا الرهونى أن محمد بن سعيد بن قريش كان قاضيا بتطوان فى ربيع الثانى سنة 1040 وهو الذى سبق أنه كان قاضيا بها عام 1037 .

القاضي أحمد بن محمد طانية عام 1040

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه أحمد طانية كان قاضيا بتطوان سنة 1040 «قلت» وفي كتاب «الاعلام بمن غبر» في أهل القرن الحادي عشر» (I) أنه «في سنة 1063 توفي الفقيه القاضي أبو العباس أحمد طانية وكان فقيها فاضلا أخذ عن جماعة من أهل عصره كالشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي وغيره وكان قاضيا ببلده تطاون».

وفي ابتهاج القلوب، أن القاضي أحمد طانية هذا كان من تلاميذ سيدي العربي الفاسي وأنه توفي عام 1063

وذكر أستاذنا الرهوني أنه كان قاضيا بتطوان سنة 1041 وما بعدها.

القاضي عبد المجيد بن طريقة عام 1053

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد المجيد بن طريقة «بالتصغير» هو الذي كان قاضيا بتطوان سنة 1053. وسيأتي لنا أنه كان متوليا لقضايتها أيضا عام 1073 .

القاضي محمد بن طريقة عام 1063

وجدت في آخر نسخة عدة رسوم ما نصه : «أشهد الفقيه الاجل العالم العلامة البركة الافضل قاضي مدينة تطوان ونواحيها وخطيب جامعها الاعظم وهو محمد بن طريقة وفقه الله بمنه الخ. وتاريخ هذه النسخة هو 26 شعبان عام 1063.

القاضي عبد القادر بن أحمد طانية عام 1071

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد القادر بن أحمد طانية كان قاضيا بتطوان سنة 1071، ولم نعرف عنه أكثر من ذلك في هذا العهد. وسيأتي أنه كان متوليا أيضا عام 1080 .

القاضي عبد المجيد بن طريقة عام 1073

في لائحة أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد المجيد بن طريقة كان أيضا قاضيا بتطوان سنة 1073. وهو الذي سبق أنه كان متوليا عام 1053 .

(I) مؤلف كتاب «الاعلام بمن غبر» هو الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي المتوفي سنة 1131. وتوجد من كتابه هذا نسخة غير كاملة في الخزانة السودية بفاس، وقد وقفت عليها عام 1369.
 ب. ش. ا. ا. ا.

القاضي عبد الوهاب الفاسي عام 1075

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه أبا محمد عبد الوهاب الفاسي، تولى قضاء تطوان في حدود سنة 1075 وأنه رجع إلى فاس وتوفي بها سنة 1078. «قلت» وعبد الوهاب هذا هو الفقيه العلامة المشارك عبد الوهاب ابن الشيخ الامام سيدي العربي بن يوسف الفاسي، وقد ترجم له اليفراني في الصفوة (1)، وذكر أنه ولي القضاء بتطوان مدة ولم يذكر في أي سنة كانت تلك الولاية، كما ترجم له أيضا سيدي محمد بن جعفر الكتاني في السلوة (2) وذكر أنه تولى القضاء بتطوان وتوفي بفاس في محرم سنة 1079. ودفن في ضريح جده الشيخ أبي المحاسن. وترجم له أيضا الشيخ ابن عجيبة في أزهار البستان.

القاضي عبد القادر طانية عام 1080

ذكر لي بعض الثقات، أن الفقيه عبد القادر طانية هو الذي كان متوليا قضاء تطوان عام 1080 وذكر أبو محمد سكيرج أنه تولى قضاء تطوان، إلا أنه لم يذكر تاريخ ولايته، ولم أقف على أي رسم مسجل أو مؤدى على هذا القاضي.

القاضي محمد بن سعيد بن قريش عام 1079 - 1093

ذكر أستاذنا الرهوني أن الذي كان متوليا قضاء تطوان عام 1080 و 1095 و 1100، هو الفقيه محمد بن سعيد بن قريش (3) ولم يذكر أن غيره تولى قضاءها أثناء تلك المدة.

«قلت» كان القاضي المذكور متوليا قضاء تطوان عام 1078 أيضا وقد وقفت على رسم كتب في 22 شوال سنة 1078. وقد جاء فيه ما نصه : «لما استقل وثبت لدى الفقيه الاجل الافضل الاكمل القاضي بمدينة تطاون وعماليتها وهو محمد بن سعيد بن قريش ... الخ.

فان ثبت أن القاضي طانية كان متوليا قضاء تطوان عام 1080 فان ابن قريش هذا يكون قد أخرج عن القضاء مدة ثم أعيد إليه، والله أعلم.

-
- (1) الصفوة ص 169 طبعة فاس.
 (2) سلوة الانفاس م 2 ص 324 طبع فاس.
 (3) ان شئت فانظر ترجمته في الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا الكتاب.

وقد وقفت أيضا على رسم مسجل عليه عام 1093 ووقفت على رسمين كتب هذا القاضي تحت أحدهما ما نصه : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أعلم بثبوت الرسمين أعلاه وبمحوله عبد الله تعالى سبحانه محمد بن سعيد بن قريش وفقه الله بمنه.

ومحمد بن سعيد هذا هو غير محمد بن سعيد الذي كان قاضيا عام 1037 وعام 1040. بل هو حفيد أخيه، لأن ذاك هو محمد بن سعيد بن أحمد، وهذا محمد بن سعيد بن قاسم بن سعيد بن أحمد. وذكر أستاذنا الرهوني أن هذا هو الذي نقل الشريف العلمي كثيرا من أجوبته وفتاويه في نوازل المشهورة وقد نقل الرهوني محشى الزرقاني بعض ذلك في حاشيته. (I)

تتمة

القاضي علي الزياتي ؟

ذكر لي صديقنا الفقيه المطلع السيد محمد العابد بن عبد الله الفاسي «بفاس» أن الفقيه أبا الحسن عليا الزياتي كان من تلاميذ الشيخ سيدي العربي ابن يوسف الفاسي، وأنه تولى قضاء تطوان ...

ولا أدري في أي تاريخ كانت ولايته. وسيأتى لنا أن الفقيه الزياتي المذكور كان من العدول بتطوان في أواسط هذا القرن - أعني الحادي عشر والله أعلم .

«تلخيص» فملخص هذا الفصل، أننا عرفنا من أسماء الولاة الشرعيين بتطوان في القرن الحادي عشر، أحد عشر شخصا، هم :

- I - محمد يعقوب .
- 2 - عيسى الخشيين .
- 3 - محمد بن سعيد بن أحمد بن قريش .
- 4 - موسى الخطيب .
- 5 - أحمد طانية .
- 6 - عبد المجيد بن طريقة .
- 7 - محمد بن طريقة .
- 8 - عبد القادر طانية .
- 9 - عبد الوهاب الفاسي .
- 10 - محمد بن سعيد بن قاسم بن قريش .
- II - علي الزياتي .

من عدول تطوان في القرن الحادى عشر

أما عدول تطوان في هذا القرن - الحادى عشر - فلم أعرف منهم الا عددا قليلا، ودونك من عرفت أسمائهم مع دعائهم والسنوات التي كتبت فيها شهاداتهم التي وقفت بنفسى على أصولها أو على نسخ صحيحة منها :

محمد بن موسى المصيمدى 1019 .

عيسى بن يوسف الخشين 1019 .

محمد بن مسعود الكتامى وفقه الله 1020 - 1025 - 1036 - 1042 .

علي بن محمد الزياتى وفقه الله 1020 ، 26 ، 33 ، 36 ، 41 ، 42 ، 50 ، 58 ، 1055

محمد بن يوسف بن طريقة 1026 .

علي بن محمد العاقل 1028 .

علي العربى وفقه الله 1028 .

أحمد طانية 1037 .

أحمد اغيزان 1037 .

محمد بن احمد بوسجادة 1037 - 1040 .

محمد الدغمومى 1040 .

أحمد البزى 1046 .

أبو القاسم جويد وفقه الله 1048 .

يوسف بن محمد الرثوث وفقه الله 1050 ، 1078 ، 1079 .

محمد العاقل وفقه الله 1050 ، 1055 .

بلقاسم الجعباق وفقه الله 1052 .

محمد الفتوح وفقه الله 1052 .

احمد الشارب 1055 .

قاسم الشيبو 1055 .

محمد بن علي عاذل وفقه الله 1055 .

محمد البطوئى (قبل) 1055 .

محمد البكرى لطف الله به 1058 .

مسعود أجانة وفقه الله 1068 .

علي بن محمد الشودرى (قبل) 1073 .

أحمد بن علي حمامو (قبل) 1073 .

عبد الله بن أحمد الخطيب وفقه الله 1078 ، 79 ، 89 .

محمد بن احمد الديمانى وفقه الله بمنه 1080 ، 89 ، 93 .

محمد بن عبد الله الخطيب وفقه الله 1080 ، 1089 .

- محمد بن عبد السلام بوسجادة وفقه الله بمناه 1080 ، 1093 .
 أحمد بن محمد بركة وفقه الله ولطف به 1088 ، 89 ، 92 .
 موسى دغداغ (I) وفقه الله تعالى بمناه 1088 ، 89 ، 91 .
 محمد بن عبد القادر الحدادي وفقه الله تعالى بمناه 1088 ، 1089 ، 1091 .
 أحمد المنصوري 1089 .
 محمد بن عبد المجيد بوسجادة وفقه الله بمناه 1089 .
 عيسى بن علي بريتيل وفقه الله بمناه 1091 .
 علي بن محمد القر 1092 .
 موسى بن محمد الريفى 1097 .
 علي حماد 1100 .
 بلقاسم بن علي ابريل وفقه الله بمناه 1100 .

نماذج من وثائق تطوان ونوازلها فى القرن الحادى عشر

نثبت فيما يلى بعض الوثائق الشرعية، والنوازل الفقهية كنماذج لما كان يجرى بتطوان فى ذلك العهد من نوازل، ويكتب فيها من وثائق، ولا يخفى على اللبيب ما فى ذلك من مختلف الفوائد التاريخية وغيرها. فمثلا نعرف كيف كان أسلوب الكتابة فى ذلك العهد، كما نعرف أسماء عائلات وأشخاص وأماكن وعوائد واصطلاحات وأثمان أشياء وتواريخها الخ. وسأذيل بعض هذه الوثائق بملاحظات تبين ما فيها من مبهم او مجهول وقد تفيد الذين لا يعرفون بعض الاسماء أو المسميات والعوائد والاصطلاحات ودونك نصوص تلك الوثائق :

1 وثيقة قبض وابراء سنة 1019

فمن ذلك وثيقة قبض وابراء كتبت عام تسعة عشر والى ونصها :
 الحمد لله بمعاينة شاهديه قبض الم رابط الحسن الحايك من يد المشتري فى غير هذا عبد الله طلق من واجب المحجورتين عائشة وحليمة المذكورتين فى غير هذا أربعة وأربعين أوقية غير ربع الاوقية ليصيره لهما فى طرازهما بالعيون المتهدم سقفه وإصلاحه تطوع بذلك لله وفيه وبرئت ذمة الدافع المذكور من هذا المدفوع المذكور كون إصلاح ما ذكر صلاحا بهما ولهما شهد به عليهما بحال كمال الاشهاد وعرفهما وفى أواخر جمادى الاخيرة عام تسعة عشر والى .
 محمد بن موسى المصيمدى

(I) بعضهم يكتب اسمه ضمغضاغ بضادين بدل دالين .

وهذا الرسم يمكننا أن نستفيد منه أن قسما من حومة العيون وما اتصل بها، كان مبنيا قبل القرن الحادى عشر بكثير، حتى إن سقوف بعض أماكنه قد تهدمت، لأن الشأن أن انهدام الأماكن لا يكون إلا بعد بنائها بمدة طويلة .

2 وثيقة وكالة سنة 1032

ومن ذلك وثيقة وكالة كتبت عام 1032 وهذا نصها :
الحمد لله عن إذن الفقيه الاجل قاضى تطاوين ونواحيها وهو عيسى الخشين أعزه الله تعالى وحرسها وكلت المصونة عائشة بنت رحال محمد وأختها حليلة أحمد ابن الطالب خليفة لينوب عنهما فى المحاكمة والمخاصمة والانكار دون الاقرار وعلى سائر فصول الخصام كلها وعلى قبض ما يجب لهما قبضه من المال واليمين وعلى الأبراء بعد القبض، توكيلا عرفا قدره شهد على إشهد من ذكر وفقه الله بما فيه عنه وهو حفظه الله بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهدته المؤكلتان المذكورتان بما فيه عنهما وهما بحال الصحة والطوع والجواز وعرف بهما وفى وائل رجب عام اثنين وثلاثين وألف .

3 وثيقة شراء طراز ومصرية بحومة العيون سنة 1032

ومن ذلك وثيقة شراء طراز ومصرية بحومة العيون عام 1032 ونصها :
الحمد لله اشترى المكرم الحسن بن سعيد الجطاطى به دعي التطوانى من البائع له المكرم أحمد ابن الفقيه خليفة السعيدى البائع عن عائشة وحليمة ابنتى الحاج محمد رحال المذكورتين أعلاه عن إذن من يجب جميع الطراز الكائن بالعيون من تطاوين المتصل من القبلة بدار الحسين المنصور ومن الشرق بالزقة ومن الجوف الزقاق الخارج للطرنكات ومن الغرب بدار رحال مع جميع المصرية التي عليه بمنافع ذلك ومرافقه وكافة حرمة وبحق لذلك معلوم واليه منسوب اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لهما ثلاثمائة أوقية سكة تاريخه قبضه البائع المذكور معاينة فى ذهب ودراهم وصار بيده الى أن يبرأ منه بالموجب وأبرأه منه إبراء تاما وتملك المشتري المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب ثم طولع بذلك الفقيه الاجل المدرس (I) بتطاوين وهو عيسى الخشين أعزه الله وحرسها فوافق عليه (I) على المحجورتين المذكورتين لما رءا لهما

فيه من الصلاح والسداد (I) ثبت لديه وفقه الله بأنهما بحال حاجة وفاقه وأن المبيع (I) يخاف عليه السقوط ولا مال لهما يبني به وأنه أولى ما يباع عليهما (I) وتسويقه والنداء عليه بباب الجامع الأعظم من تطاوين مدة طويلة نحو شهر الى أن وقف على آخر زائد فيه وهو مشتريه المذكور ولم يلف زائد عليه وأن أقصى ما يساويه الثمن المذكور وأنه وجب لهما بالارث من أبيهما شهد على من ذكر دامت كرامته بما ذكر عنه فيه وهو بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بذلك وهما بحال كمال وعرفهما في الثالث عشر من شهر الله رجب عام اثنين وثلاثين وألف فلان . . . وفلان . . . (2).

يلاحظ على هذا الرسم أن كاتبه يسمي جهة الجنوب بالقبلة، وجهة الشمال بالجوف، وذلك اصطلاح قديم، اذ كانوا يسمون الجهات الاربع، بالشرق والغرب والجوف والقبلة، ويقصدون بالجوف الشمال، وبالقبلة الجنوب، ومن المعلوم أن قبلة تطوان بل جل بلاد المغرب تقع في جهة الجنوب بل الجنوب الشرقي .

أما جهة الشمال بالنسبة للمغرب فتقع فيها بلاد الافرنج (أوربا) التي كانت أراضيها مجهولة لدى جل أهل المغرب، فلعلهم سموها بالجوف تشبيها لها بما هو مجهول مما وراء الجوف مما في باطن الانسان .

4 وثيقة بيع الملكين المذكورين سنة 1037

ومن ذلك وثيقة بيع الملكين المذكورين عام 1037 ونصها :
الحمد لله اشترى التاجر محمد بن محمد قمر به دعى الاندلسي من البائع له المكرم الحسن بن سعيد الجطاطي المذكور اعلاه جميع الطراز المذكور والمحدد اعلاه مع جميع المصرية المحتملة على الطراز المذكور بجميع منافعهما معا ومرافقهما وكافة حرمهما اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لهما معا مائتا اوقية ثنتان وعشرون اوقية دراهم، سكة تاريخه قبضه البائع المذكور من المشتري المذكور معاينة في دراهم وأبرأ من ذلك كله المشتري فبرئ وتملك المشتري المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى كما يجب عرفا قدره شهد به عليهما بحال كماله وعرفهما في رمضان المعظم عام سبعة وثلاثين وألف . . . احمد طانية

(I) هنا كلمات انمحت بالרטوبة .

(2) هنا علامتا العدلين .

مما يلاحظ فى هذا الرسم أن العملة التى وقع البيع بها هى الاوقية. ومن المعلوم أن المعاملة فى ذلك العهد وما بعده الى أوائل قرننا هذا، كانت على أساس المثقال. فالمثقال كان هو الوحدة الاصلية، ويحتوى على عشر أواق، والاوقية فيها أربع موزونات، والموزونة فيها أربعة وعشرون فلسا.

5 وثيقة شراء حانوت بسوق البقالين سنة 1033

ومن ذلك رسم شراء حانوت بسوق البقالين كتب عام 1033 وهذا نصه :
«الحمد لله اشترى الطالب ابراهيم بن الفقيه سعيد الردام به دعي التطاونى نائبا فى الشراء ودفع الثمن عن جانب حبس جامع سيدى على الجعيدى من قبل الوصية التى أوصى بها المرحوم بكرم الله تعالى محمد بن احمد الردام للجانب المذكور من البائعة له المصونة فاطمة بنت علي الطنان به دعي جميع الحانوت المعروفة لها بسوق البقالين داخل تطاوين المخرجة من دارها عن يمين الخارج من الدار المذكورة وتتصل بحانوت الزعيم بمنافعها ومرافقها وكافة حرمةا اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لها ثلاثمائة اوقية وخمس وستون اوقية سكة تاريخه قبضته البائعة المذكورة بعضه معاينة وبعضه بالاعتراف وأبرأت منه ذمة المشتري إبراء تاما وتملك المشتري المذكور للجانب المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب وبأن أشهد المشتري المذكور أن سبعة وعشرين مثقالا من الثمن المذكور دفعها من ثمن الغرسة التى ابتاعها المعلم أحمد بن عمر من ورثة المعلم أحمد زيتون. شهد عليهما بذلك وهما بحال كماله وعرفهما فى أواخر جمادى الاولى عام ثلاثة وثلاثين و الف سنة ألحق فيه مثقالا صح به علي بن محمد الزياتى وفقه الله ومحمد الكتامى وفقه الله بمنه .

ورد فى هذا الرسم ذكر سوق البقالين، ولا يوجد الآن بتطوان سوق بهذا الاسم، ولا نعرف أين كان محله.

ويلاحظ أن الكاتب سمي البستان السقوى بالغرسة - بكسر الغين المعجمة وسكون الراء وفتح السين، وهو اصطلاح قديم كان وما زال مستعملا بتطوان ونواحيها. أما فى فاس ومراكش وغيرهما من بلاد الجنوب المغربى فيقولون - العرصة - بفتح العين المهملة وفتح الصاد. وفي سلا ونواحيها يسمون - الغرسة - او - العرصة - بالسانية. فهو اصطلاح، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقول العلماء .

6 تجييس طراز بحومة العيون سنة 1042

ومن ذلك رسم تجييس طراز بحومة العيون على جامع الحومة المذكورة سنة 1042 وهذا نصه :

الحمد لله أوصى المعلم ابراهيم بن الفقيه محمد الطنجي به دعى الحسناني أنه متى حدث به الموت الذي لا بد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فانه يخرج بعد وفاته الثلث الواحد من جميع متخلفه من قليل الاشياء وكثيرها جليلها وحقيرها أصلاً كان أو غيره ويوقف في الطراز المخرج من دار سكناه بالعيون من تطاوين ويجعل حبساً مؤبداً ووقفاً مخلداً على جامع سيدي علي الجعدي بالعيون المذكورة بحيث إن نصف الطراز المذكور يوقف على من يقرأ الرسالة والنصف الآخر على السوية بين إمامه والزيت وإذا فضل شيء من الثلث المذكور عن الطراز المذكور فانه يوقف في أصل ويصرف خراجه على الحكاية المذكورة قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الآخرة ومن بدل أو غير في ذلك فالله حسيبه وسأله يوم القيامة ايضاً صحيحاً شهد عليه بذلك وهو بحال كماله وعرفه أوائل ربيع بل جمدي الأولى عام اثنين وأربعين وألف سنة، علي الزيادي وفقه الله ومحمد الكتامي وفقه الله .

مما يستفاد من هذا الرسم، أن جامع العيون كان يعرف بجامع سيدي الجعدي وهذا الجعدي هو المعروف الآن بسيدي علي بن مسعود، وهو الذي بنى المسجد المذكور من ماله الخاص رحمه الله وجزاه خيراً .

ويلاحظ أن أهل الخير والدين كانوا بالرغم من فقرهم، يتركون الاوقاف على إضاءة بيوت الله، وعلى القائمين فيها بالامامة والاذان وتدريس كتب الدين، كما يلاحظ أن كتاب رسالة ابن أبي زيد القيرواني كان يدرس بتطوان في ذلك العهد .

7 وثيقة بالتزام عدم الرجوع في وصية سنة 1055

وبمحول الرسم المذكور ما نصه : « الحمد لله أشهد الموصي المذكور بمحوله على نفسه شهيديه أنه لا رجوع له في الثلث الذي أوصى به بمحوله ملتزم ذلك وأنه إن ظهر ما يخالف ذلك فلا عمل عليه وإنما العمل على ما قيد بمحوله إشهاداً صحيحاً عرف قدره شهد عليه بذلك وهو بحال كماله وعرفه أواسط ذي الحجة عام خمسة وخمسين وألف سنة علي الزيادي وفقه الله ومحمد العاقل وفقه الله . وتحت ذلك ما نصه : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعاله وصحبه . أعلم بثبوت الرسمين أعلاه وبمحوله عبيد الله تعالى محمد بن سعيد وفقه الله بمنه .

محمد بن سعيد المذكور فى هذا الرسم، هو القاضى محمد بن قريش المشهور، وقد تولى قضاء تطوان بعد تاريخ هذا الرسم بما يزيد على عشرين سنة. ويلاحظ أنه كان يبدأ الاعلام على الرسوم بالحمدلة والتصلية، ويظهر أنها عادة لم يستمر عليها عمل جميع القضاة بتطوان .

8 وثيقة شراء فدان خارج تطوان سنة 1051

ومن ذلك رسم شراء فدان بمرج حسين خارج تطوان عام 1051 وهذا نصه: «الحمد لله اشترى الفقيه التاجر المكرم السيد محمد بن محمد حمزة المدعو أيضا قبريرة الاندلسى من البائع له المكرم محمد بن الفقيه محمد الكراسى جميع الفدان المعروف له بمرج حسين خارج تطاوين يتصل بملك المشتري وبملك عبد الرحمن بوعلى وبالخندق بمنافعه ومرافقه وكافة حرمة اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بشمن قدره له ثلاثمائة اوقية بالسكة الجارية بتطاوين فى تاريخه اعترف البائع المذكور بقبضه فى ريال وأبرأ المشتري المذكور منه ابراء تاما وتملك المشتري المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا، وحل فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب وبمحضر عبد الرحمن ابي علي المذكور وموافقته على ذلك شهد عليهم بذلك وهم بحال كماله وعرفهم فى أواسط رمضان المبارك إحدى وخمسين والى الف الحق فيه فى ريال صح به . . . وفقه الله . . . وفقه الله .

يلاحظ على هذا الرسم أن العدل يستعمل اسم تطاوين بواو مكسورة بعدها ياء فنون، وكذلك كان عمل جل عدول تطوان فى ذلك العهد . كما يلاحظ ذكر لفظة الريال - الاسبانية - مما يدل على أنها كانت مستعملة بتطوان فى ذلك التاريخ . وذكرت فيه لفظة الفدان - وينطق بها فى تطوان بفتح الفاء وتشديد الدال، وهى كلمة عربية تطلق على المزرعة . وفى تطوان تطلق على كل قطعة أرضية تزرع فيها الحبوب أو الخضرا، سواء كان فيه أقل من هكتار من الارض أو كانت فيه عشرات الهكتارات، فهو اصطلاح مخالف لاصطلاح الشرقيين الذين يطلقون اسم الفدان على عدد محدود من القصبات أو الامتار.

ومن ذلك رسم شراء مصرية بحومة العيون سنة 1054 وهذا نصه :
 «الحمد لله اشترى المكرم قاسم بن الحسن بن سليمان به دعي اليجمي
 نائبا في الشراء ودفع الثمن عن جانب حبس جامع سيدي على الجعيدى وصومعته
 من وصية رحمة بنت السيد احمد السلباح من البائع له التاجر عبد العزيز بن
 على بن عبد الحق به عرف جميع المصرية الكائنة بالعيون من تطاوين المتصلة
 بدار البائع ودار سباطه بمنافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراء صحيحا لا
 شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بشمن قدره لها سبعمائة أوقية وعشرون أوقية سكة
 تاريخه اعترف البائع المذكور بقبضه وأبرأ المشتري المذكور منه إبراء تاما وتملك
 المشتري المذكور للجانب المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا وحل فيه محل ذى المال
 فى ماله على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة
 القدر كما يجب وبمحضر شقيق البائع محمد وموافقته على ذلك شهد عليهم
 بذلك وهم بحال كماله وعرفهم وتقدم الاشهاد بذلك عن تاريخه بنحو أربعة
 أشهر وقيد فى مفتتح ربيع النبوى عام أربعة وخمسين وألف الحق فيه جامع صح
 به علي بن محمد الزياتى وفقه الله ومحمد العاقل وفقه الله .

ورد فى هذا الرسم اسم المصرية، وبلاد مصر أشهر من أن تعرف،
 ونسبة المذكر اليها مصرى والانثى مصرية، وفى هذه الوثيقة أن مصرية بيعت
 بحومة العيون، فما هي هذه المصرية، هذا سؤال قد يلقيه من لا يعرف اصطلاح
 تطوان فى أسماء الاماكن والمساكن، والجواب أن المصرية هي مكان صغير يصعد
 اليه بدرج، وقد يكون ملحقا بدار السكنى وبابه بين بابي الدار، وقد تكون بابه
 مستقلة عن الدار .

وفى بعض الاحيان يستعمل لفظ المصرية فيما يستعمل فيه لفظ الدراز
 - الطراز - أى مكان الحياكة أو المأوى الخلوى لبعض العزاب

ولا نعرف أصل هذه التسمية على سبيل التحقيق، ومن الممكن أن تكون
 تلك النسبة آتية من كون جل تلك المصريات كانت مشوى للمتصابين وأصحاب
 الملذات الذين يقضون الليالي فى الطرب والغناء والشراب والتأوهات وما يتبع
 ذلك مما اشتهرت به مصر قديما وسارت بذكره الركبان. وجاءت فى الوثيقة
 أيضا كلمة - اليجمي - نسبة الى بنى يجم - بفتح الياء والجيم - وهى القبيلة
 التى تسمى الآن بنى حزم - بضم الحاء وسكون الزاى وفتح الميم. وهى
 متصلة بتطوان، واقعة فى جهة الجنوب الشرقى منها .

10 وثيقة شراء غرسنة بالسوير سنة 1059

ومن ذلك رسم شراء غرسنة بالسوير خارج تطوان سنة 1059 وهذا نصه:
الحمد لله اشترى الناظر في أحباس مسجد المرحوم بكرم الله تعالى
سيدي علي بن مسعود الجعدي الكائن بحومة العيون من مدينة تطاوين حرسها
الله وهو الفقيه الارضى السيد المرتضى أبو محمد عبد الله بن قاسم عرف بغلايب
من أعيان الحومة المذكورة من غلة أحباس المسجد المذكور جميع الغرسنة
المعروفة للسيد احمد ابن السيد علي بن عجيب بالسوير خارج تطاوين المذكورة
المشتملة على ما فيها من العود على اختلاف أنواعه مثمرا أو غير مثمر يحددها
الحبس من جهتيها وملك الخروف والوادي من البائع له مالكما المذكور بثمن
قدره خمسون أوقية خفيفة الصرف دراهم تاريخه اعترف البائع المذكور بقبض
الثمن المذكور على التمام والكمال فأبرأ منه ذمة المشتري فبرئت وقبض
المشتري الناظر المذكور جميع الغرسنة المذكورة لتكون من جملة اوقاف المسجد
المذكور وأحباسه لينتفع بغلتها في وقود الزيت به واقامته من حصور وغيرها
قبضا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد التقليب والرضى كما يجب
عرفا قدره ولم يجهلاه ولا شيئا منه شهد به عليهما بحال كماله وبحال صحة
إسناد النظر للناظر المذكور فيما ذكر وفي أوائل محرم الحرام فاتح تسع
 وخمسين والف سنة الحق المذكور، معا صح به محمد البكري وفقه الله بمنه
ومحمد وفقه الله .

ورد في هذا الرسم اسم «السوير» بسكون السين وكسر الواو وفتح
الياء المشددة. وهو اسم مكان به أراض فلاحية قرب تطوان، ويقع في الجنوب
الغربي منها، ويمر به النهر الذي يصب في البحر الابيض المتوسط ويسمى
في ذلك المكان بواد السوير، وقد أطلق العدل لفظ العود، ومراده الاشجار.
والغرسنة محرف عن الغرسنة.

11 وثيقة بيع دار بعد اثبات ملكيتها سنة 1062

ومن ذلك رسم بيع دار بعد اثبات ملكيتها سنة 1062 وهذا نصه
«الحمد لله كان على ملك الصائر الى عفو الله تعالى المكرم المعلم سليمان
ابن محمد العربي به عرف الاندلسي اللواجرى جميع داره المعروفة له الكائنة
بالمطمر من تطاوين حرسها الله المجاورة لسور البلد ولسدار محمد عياد ولد
طاطة شرقية وهي المذكورة والمحدودة بمحوله، واستمرت ملكيته لها الى ان
توفي عفى الله عنا وعنهما فورثه زوجته المصونة ءامنة بنت عبد الله الاندلسي

وأولاده منها وهم محمد وعائشة وفاطمة ثم توفيت الام الزوجة المذكورة فورثها اولادها المذكورون لا وارث لهما سوى من ذكر وكانت عائشة المذكورة باعت لشقيقتها المذكور واجبها في الدار المذكورة وهو الربع كما ذكر بمحوله بالثمن المذكور بمحوله وصار له ثلاثة أرباعها ولمن ناب عنه كما قيد بمحوله الى الآن في تاريخه. حضر محمد المذكور نائبا عن نفسه وعن شقيقته فاطمة عن إذن من يجب والتاجر المكرم احمد فرج نائبا عن ابنته مريم المذكورة وعرضا الدار المذكورة للبيع وجعلها بيد سمسار ونودي عليها بالاشادة في مظان الزيادة ليتوصل كل واحد منهم بواجبه أو واجب من ناب عنه ولترتفع عنهم مضرة الشركة وبقي النداء عليها أسواقا عديدة الى أن وقفت على آخر زائد فيها وهو المكرم الارضى الفاضل الاحظى الشريف الحسنى التاجر السيد يحيى بن السيد محمد بن ابي بكر الشريف به عرف بثمان قدره ألف أوقية واحد وخمسمائة أوقية وعشرون أوقية سكة تاريخه خفيف ولم يلف زائد عليه فعند ذلك اشترى السيد الشريف المذكور ممن ذكر جميع الدار المذكورة على حسب حدودها المذكورة بالشراء الصحيح الناجز الصريح الذي لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بالثمن الذي وقفت به أحضر المشتري المذكور ثلاثة أرباع العدة المذكورة المختص بمحمد وزوجه المذكورين فقبض منها الحسين بن عيسى بن يعط ثلاثمائة أوقية وستة وسبعين أوقية غير ربع الاوقية والتاجر علي ملضناد سبعة وسبعين أوقية والتاجر محمد السكيرج مائة أوقية واحدة واثنين وعشرين أوقية. وما بقى لكمال الثلاثة أرباع قبضه البائع محمد المذكور وصهره التاجر احمد فرج المذكور وأبرىء المشتري من درك القبض فبرىء والربع الواحد المختص بالبنت فاطمة المذكورة وقدره ثلاثمائة أوقية وثمانون أوقية خفيفة وقفت تحت يد المشتري المذكور عن إذن من يجب الى أن توقف لها فيما هو أنفع وأغبط من الجزء المبيع المذكور ويبرأ منه بالموجب وتملك المشتري المذكور بجميع مشتراه تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال في ماله وذى الملك الصحيح في ملكه على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى كما يجب، ووقوف أرباب البصر على عينها بعد وقوفها على من ذكر واشهادهما بان ذلك أكثر ما تساويه وموافقة زوج البائع محمد المذكور مريم بنت أحمد فرج على البيع والقبض ثم طولع بذلك الفقيه الاجل المدرس القاضى بتطاوين وهو (I) اعزه الله وحرسها

(I) هنا علامة القاضى وهى غير واضحة فلم نستطع معرفة اسمه ولقبه منها .

فوافق على البيع المذكور وأمضاه على المحجورة المذكورة لعدم تأتي قسمة الدار المذكورة وعدم ما تضم به صفقة المبيع المذكور لكونها لا مال لها وهى قديمة البناء يخاف سقوطها وقلة واجبها وما ثبت أيضا لديه حفظه الله بشهادة من ذكر بأن القيمة المذكورة فيها غبطة ومنفعة للمحجورة المذكورة للوجوه المذكورة ولأن البيع وقع صفقة وللصالح والسداد شهد على اشهاد من ذكر دامت كرامته بالمذكور عنه فيه وبايقاف واجب البنت تحت يد المشتري الى أن يبرأ منه بالواجب وهو بالحالة الموصوفة من أشهده من عداه بما ذكر عنهم فيه وهم بحال كماله وعرف الرجال وعرف بالمرأة تعريفا كافيا فى أوائل جمدى الثانية عام اثنين وستين والى الف الحق فيه وفقه الله وفقه الله (I) .

اللواجرى - يعنى صانع اللاجور - الآجر - أى الطين المشوى الذى تبنى به الجدران، وفي تطوان عائلة اسمها اللواجرى .

12 وثيقة تحييس ثلث فدان سنة 1064

ومن ذلك رسم تحييس ثلث فدان سنة 1064 وهذا نصه :
الحمد لله أشهد المكرم أحمد بن أحمد المؤذن به عرف الاندلسى على نفسه شهيديه أنه تصدق بجميع الثلث الواحد من كافة الفدان المعروف له بالالوان يحد بالوادى والعفاق وأولاد الغازى على المسجد الجامع المنسوب للولى الصالح سيدى علي الجعيدى بحومة العيون من تطاوين صدقة بته بتلة لا رجعة له فيها بعد قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الآخرة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا فمن سعى فى تبديل ذلك أو تغييره فالله حسيبه وسأئله ومتولى الانتقام منه وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون اشهادا صحيحا عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كماله وعرفه أواسط ذى الحجة الحرام سنة اربع وستين والى الف
هكذا كان الرجل من السلف الصالح يخرج عملا يملكه ويتصدق به لوجه الله، ابتغاء مرضاة الله سبحانه، لتقام شعائر الدين فى بيوت الله على أكمل الوجوه فرضي الله عن رجال السلف الصالح أهل الخير والدين وجزاهم على حسن نيتهم وجميل تصدعهم وجميل عملهم أفضل الجزاء .

(I) هنا علامتا العدلين الشاهدين وهما غير واضحتين فلم نستطيع أن نقرأ منهما غير الدعاء وهو وفقه الله فيهما .

13 رسم شراء غرسة بعين الجمارى سنة 1073

وهذا رسم شراء غرسة بعين الجمارى سنة 1073 ونصه :
 الحمد لله اشترى التاجر الارضى المكرم محمد بن موسى مديرة المدعو
 النيار من البائع له المكرم قاسم بن على صويلح به عرف جميع الغرسة الكائنة
 بعين الجمارى تحد بملك بوردان من جهتين والحبس وبملك النشار بجميع المنافع
 والمرافق وكافة الحرم اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بشمن
 قدره سبعة وثلاثون مثقالا اشقوبية تنقص عشر هوزونات قبضها البائع المذكور
 على الوفاء والتمام بالمعينة وأبرأ المشتري من درك القبض فبرىء وتملك المشتري
 المذكور مشتراه المذكور تملكها صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال في
 ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد
 النظر والتقليب والرضى كما يجب حضرت أم البائع المذكور وهى عائشة
 بنت محمد مومن واخته عامنة ووافقتا على البيع المذكور موافقة تامة عرفوا
 قدره شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجلين وعرف بمن عداهما غرة
 رجب الفرد عام ثلاثة وسبعين والى ألف أصلح مديرة صح به وفقه الله
 ومحمد وفقه الله تعالى بمنه .

ورد فى هذا الرسم اسم - عين الجمارى - وما زال حتى الآن قرب
 تطوان مكان يعرف بعين الجمارين، وهو فى جنوبها الغربى، وفيه عدة غراسى
 وفدادين تسقى بالعين المذكورة التى هي من أشهر العيون الموجودة فى ضواحي
 هذه المدينة .

ويلاحظ أن هذا الرسم لم تذكر فيه القيمة التى بيعت بها الغرسة
 المذكورة بالاواقى كما رأيت فى الوثائق السابقة، بل ذكرت هنا بالمشاكيل
 ووصفت بالاشقوبية نسبة الى شيقوبية SEGOVIA التى هي مقاطعة اسبانية
 متصلة بمقاطعة مدريد، فيظهر أن الدفع كان بالعملة الاسبانية، ومعلوم أن
 المعاملات التجارية فى ذلك العهد، كانت بالعملة الذهبية والفضية والنحاسية
 على اختلاف اجناسها وأشكالها، ولكل عملة سعر خاص على أساس المثقال
 والاواقى ، ويختلف ذلك السعر فى السوق باختلاف صنف العملة وجودتها
 وعرضها وطلبها وقلتتها وكثرتها الخ .

ولنا فى تكملة هذا الكتاب بحث مفصل لا بأس به حول هذا الموضوع .

14 وثيقة إرث ومفاصلة بين الورثة سنة 1076

وهذا رسم إرث ومفاصلة تاريخه سنة 1076 ونصه :
الحمد لله كان على ملك الصائغر الى عفو الله تعالى الفارس المكرم محمد
ابن محمد رحال به عرف التطاوين جميع دار سكناه الكائنة خارج باب الحديد
من تطاوين أمنها الله المتصلة بدار ابى كلو والزنقة مع جميع الفدان المتصل بها
مع جميع الدار المعروفة للمصمدي فى القديم مع جميع الفدان الكائن بزيانة
المتصل بالخطيب مع جميع الفدان الكائن بالمنجرة بقرب الفدان المذكور مجاورة
الطريق الفاصلة بينه وبين الحاج الرزيني مع جميع الفدان المعروف للرباحي
فى القديم بقرب الفدان المذكور المتصل بالطريق وشويخ مع جميع الفدان
الكائن بقاع الحافة المتصل بالقليين والتبين وفرتله مع جميع الفدان الكائن
بالدردارة المتصل بالحبس والصبان مع جميع الغرسة الكائنة بكيتان المتصلة
بملول مع الغرسة الكائنة بالعدوة المتصلة باللبادى مع جميع الجنان الكائن
بابى سافو المتصل بالوادي والطريق مع جميع الفدان الكائن باللوية المتصل
بمعزوز والزمورى مع جميع الفدان الكائن بشبريط يعرف بمرنة الدريج
المتصل بفريخ ومفضل مع جميع الفدان الكائن بقرار أبى على المتصل بالعناية
والرحموني وزروق مع جميع الفدان الكائن بالغروس المتصل بالتاجر والتازي
مع جميع الجنان الكائن بالرميلات المتصل بالطريق وحيون مع جميع الغرسة
الكائنة بالموضع المذكور وتعرف بغرسة محيس المتصلة بالخياط وديداى مع
جميع الفديدين الكائن بشبريط المتصل بالحسانى مع أثاث وأسباب وعبيد
وحيوان واستمرت ملكيته لذلك الى أن توفى عفا الله عنا وعنه فورثه زوجه
المصونة فاطمة بنت التاجر سليمان الحسانى وأولاده منها عبد السلام وعالية
ورحمة لا وارث له سوى من ذكر فى علم من علمه الى الآن فى تاريخه حضر
المكرم المعلم محمد غزيل بعل البنات العالية المذكورة نائب الزوجة المذكورة
وبنتيها المذكورتين اذ هى الوصي عليهما من قبل والدهما المذكور بمضمن شهادة
شهيديه فيهما معا والولد عبد السلام المذكور نائب عن نفسه ووافقا على الموت
والارائة وصحة المتخلف المذكور وذهبا الى عقد مفاصلة ومخارجة فى الاصول
المذكورة ليتوصل كل واحد منهما بواجبه أو واجب من ناب عنه ولترتفع
عنهما مضرة الشراكة فقدا اذ ذاك من رضا دينه وأمانته لتقويم ما قوم من
الاصول المذكورة والمقاسمة والمخارجة فيما بقى منها فقومت الدار المتصلة ببوكلو
بأربعة آلاف وخمسمائة أوقية وعن الدار الاخرى المتصلة بها ثلاثة آلاف أوقية
وخمسمائة أوقية وعن فدان زيانة ستمائة أوقية وأربعون أوقية وعن فدان المنجرة
ثلاثمائة أوقية وعن فدان الرباحي ألف أوقية واحد ومائة وأربعون أوقية وكل

القيم المذكورة بالسكة الصحيحة الاشقوبية فخرج عبد السلام المذكور بالدار الكبرى المتصلة ببوكلو بما قومت به وبفدانى زيانة والمنجرة بما قوما به وبواجبه من فدان قاع الحافة وقدره مرجعان وثمان لناحية القلين وبواجبه من فدان الدردارة وقدره ستة مراجع وثمان لناحية مدارة والحبس وبواجبه من غرسة كيتان وقدره مرجعان لناحية الجهة المقابلة للمول وبواجبه من غرسة العدو وقدره مرجعان وخمسة أثمان المرجع وبواجبه من جنان أبى سافو وقدره ستة وعشرون قصبه لناحية الوادى وبواجبه من فدان اللوية لناحية معزوز وبواجبه من مرينة الدريج بشبريط لناحية فريخ وبواجبه من فدان قرار أبى علي لناحية الرحموني وبقي لكمال واجبه ثمان وبواجبه من فدان الغروس مع ما بقي لكمال واجبه المذكور لناحية التاجر وبواجبه من جنان الرميلا وقدره ستة عشر قصبه ونصف لناحية ليون وبواجبه من غرسة محيس المذكورة وقدره اربعة عشر قصبه لناحية البيت وخرج نائب الزوجة المذكورة لها ولبنتيها المذكورتين بتلك الاصول المذكورة مخارجه صحيحة تملك بها كل واحد ما خرج به له او لمن ناب عنه تملكا صحيحا تاما على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك وتحاسبا فى ذلك وفيما عدا الاصول المذكورة مما ذكر فبقي بذمة عبد السلام المذكور لمن عداه ألف أوقية واحد وثلاثون أوقية من السكة الموصوفة دفع فيها واجبه من غرسة كيتان فى خمسمائة أوقية وما بقي لكمال ما بقي بذمته يؤديه حلولا لا يبريه الا الواجب وتبارأوا فيما بينهم بالابراء التام بحيث لا قيام بعد ولا دعوى ولا حجة ولا تباعة ولا علقه يمين بوجه ولا بحال عرفا قدره شهد به عليهما وهما بحال كماله وعرفهما وعرف صحة نيابة من ذكر وتفويض ذلك اليه بمضمن شهيديه وفى أواسط ربيع النبوى المفضل عام ستة وسبعين والى الحق فيه خمسمائة أوقية

ذكر فى هذا الرسم اسم باب الحديد، ولا يعرف الآن بتطوان باب اسمه باب الحديد، بل لا يعرف حتى مكانه، فقد زال الاسم واندرس المسمى والبقاء والدوام لله. ونظن أن هذا الباب كان موجودا قبل بناء الاسوار التى أحاطت بتطوان القديمة وأرباضها، وربما كان محله فى الربض السفلى بين ساحة السوق والسور المشرف على الجناح الأخضر فى الطريق الداهية من السوق الى المصلى القديمة وباب الرموز .

وذكر فى الرسم اسم «المنجرة» وهى قسم من حومة السوق بينها وبين المصلى القديمة، وما يزال هذا الاسم ومسماه معروفين الى الآن فى حومة الربض الاسفل .

ويظهر أن تلك الجهة كانت فى ذلك التاريخ ما تزال بها فدادين، الا أنها بنيت بعد ذلك ولم يبق بها أى مكان فارغ.

وقاع الحافة، مكان ما يزال معروفا بهذا الاسم الى الآن قرب السويقة أيضا، وكذلك جل الاسماء الواردة فى هذا الرسم .

وذكر فيه اسم الجنان، وهو فى اللغة جمع جنة بفتح الجيم، أى حديقة فيها أشجار وزهور، أما فى اصطلاح تطوان، فالجنان هو البستان الذى لا يسقى الا بالمطر، والغرسه هى التى تسقى كلما احتاجت للسقى بالماء الجارى من النهر أو العين .

وذكر فيه عند كيل الارض لفظ المرجع بفتح الميم والجيم وهو عبارة عن مساحة خاصة - تمسح - أى تقاس وتقسم - بها الاراضى فى تطوان، فيقال ان الفدان الفلانى أو الارض الفلانية بها مرجع أو مرجعان أو خمسون مرجعا مثلا، فهو كالفدان فى اصطلاح المصريين .

وكانت مساحة المرجع فى عرف تطوان، تحتوى على نحو سبعمائة متر مربع، وكان المرجع ينقسم الى أربع وستين قصبة، كل قصبة بها ستة أذرع النخ .

وقد فصلت ذلك تفصيلا مع مقارنته بالمقاييس المترية فى أحد فصول كتاب «التكملة» الذى هو ذيل هذا التاريخ .

15 رسم شراء فدان بزيانة سنة 1088

وهذا رسم شراء فدان بزيانة، وتاريخه سنة 1088 وله علاقة بالرسم الذى قبله ونصه :

«الحمد لله اشترى الفقيه الاجل الخير الافضل الاعدل الاكمل أبو محمد سيدى عبد الله بن المقدم المرحوم بكرم الله سبحانه أبى العباس سيدى أحمد الخطيب به عرف التطاوني من البائع له المكرم عبد السلام بن محمد رحال المذكور بمحوله جميع فدان زيانة المذكور بمحوله المتصل بملك المشتري المذكور والشريف والخشين والحبس والطريق بمنافعه ومرافقه وكافة حرمة وشربه من حيث عهد اشتراء صحيحا لا شرط فيه يفسده ولا علة توهنه ولا ثنيا ولا خيار بضمن قدره ثمانمائة أوقية وعشرون أوقية سلطانية اسماعيلية قبض جميعه البائع المذكور على الوفاء والكمال معاينة وأبرأ المشتري من درك القبض فبرئ وتملك المشتري مشتراه المذكور تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب شهد به عليهما وهما بحال كماله وعرفهما وفى اوائل ربيع النبوى المفضل عام ثمانية وثمانين والى ألف أحمد بن محمد بركة وفقه الله ولطف به .

زيانة - اسم كان وما زال يطلق على الارض الواقعة خارج باب السعيدة وكانت بها فدادين كلها تسقى من الماء النابع هناك أو الخارج من المدينة ما بين نظيف وغيره .

وقد عبر الكاتب بكلمة شربه، ومقصوده سقيه، لان الارض الزراعية التي هناك، كانت تباع مع الماء الذي تسقى به، فيكون صاحب الارض مالكا لها ولماؤها .

16 رسم اسقاط نزاع وامضاء بيع وابراء سنة 1090

وهذا رسم اسقاط النزاع وإمضاء البيع والابراء، وتاريخه سنة 1090 وله ارتباط بالرسمين قبله ونصه :

«الحمد لله أشهد الفقيه الاجل الناظر في الموارد السعيدة في حينه وهو السيد محمد بن سليمان على نفسه أنه أسقط النزاع عن المشتري المذكور أعلاه في الفدان المشتري وابراءه فيه الابراء التام وأبرأه بل وأمضى المبيع المذكور لمشتريه المذكور بحيث الا قيام عليه بعد في ذلك بحكم ما استظهر به الفقيه المذكور من استغراق ذمة والد عبد السلام رحال المذكور كون الفدان شمله الصلح الذي أبرمه مع عبد السلام رحال في جميع متخلف والده إشهادا صحيحا تاما عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كماله وعرفه وانتصابه لما ذكر وفي أواخر شوال عام تسعين والـ ...

مما يفهم من هذا الرسم، أن وظيف ناظر الموارد، أي أبي الموارد، كان موجودا بتطوان في أواخر القرن الحادى عشر، وأن استغراق الذمم كان شيئا معهودا لدى رجال ذلك العهد، وما أنفعه من عقاب رادع، ولكن يجب أن لا يكون الا لخصوص الظالمين الذين يختلسون أموال الدولة والشعب بغير حق ولا عدل، والا كان ظلما مآله الخراب .

17 رسم شراء فدان بقاع التوت سنة 1088

ومن ذلك رسم شراء فدان بقاع التوت خارج تطوان وهو مؤرخ بعام 1088 وهذا نصه نقلا عن أصله المحفوظ بخزانتي «الداودية» :

الحمد لله اشتري التاجر الارضى السيد الحاج قاسم بن المرابط الخير السيد محمد بن عدي التطاوني من البائعين له المكرميين الحاج قاسم ابن التاجر علي الرميرس الاندلسي وشقيقه عبد السلام جميع فدانهما المعروف لهما بقاع التوت خارج الثغر التطاوني المتصل بملك المشتري وملك القصيرى وملك جنيو وملك بيسة بمنافعه ومرافقه وكافة حرمة وشربه

من حيث علم اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بضمن قدره مائتا أوقية ثنتان وستون أوقية سكة مولانا اسماعيل قبضه البائعان المذكوران من المشتري المذكور معاينة وأبرىء المشتري المذكور من درك القبض فبرىء وتملك المشتري المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب حضرت بعد أم البائعين المذكورين عائشة ووافقت على البيع وقبض الثمن الموافقة التامة وشهد على جميعهم بما ذكر والكل بحال كماله وعرف الرجال الثلاثة وعرف بالمرأة تعريفا كافيا وثق به أوائل ذى حجة سنة ثمان وثمانين وألف الحق فيه سكة مولانا اسماعيل صح به وفقه الله، ومحمد وفقه الله .

قاع التوت، يظهر أنه اسم محل خارج باب التوت الواقع فى الجهة الغربية من المدينة .

ويلاحظ ان العدول كانوا يصفون من أصله من الاندلس بالاندلسي، وغيره بالتطاوني أو غير ذلك .

وبيسة - اسم لعائلة اندلسية يوجد منها الآن بتطوان مسلمون مغربيون واسبانيون مسيحيون، وبعض العدول يكتب اسمها هكذا بيصة بالصاد، وبعضهم بايسة ويكتبها الاسبانيون هكذا BAEZA

وعائلة «الرميرس» الاندلسية التطوانية المسلمة المذكورة فى هذا الرسم ، قد انقرضت من تطوان الآن ولم تبق بها الا سميتها عائلة RAMIRES الاسبانية المسيحية الطارئة عليها فى عهد الحماية المنتهية والدوام لله . وقد عبر العدل فى هذا الرسم أيضا بشرب الفدان، ومراده سقيه ..

18 رسم مناقلة مع حبس جامع المصيمدى سنة 1088

ومن ذلك رسم مناقلة مع حبس جامع المصيمدى التى بحومة الطرنكات بتاريخ سنة 1088 ونقصه :

«الحمد لله تناقل المكرم التاجر الارضى السيد سعيد ابن الفقيه المرحوم البركة سيدى ج. محمد الدريج به عرف التطاوني نائبا عن نفسه مع شقيقه المكرم محمد المودن بمنار جامع المصيمدى الذى بحومة اطرنكات من الثغر التطاوني حماه الله نائبا فيه عن احباس المنار المذكور عن اذن من يجب على أن خرج السيد سعيد المذكور بجميع البيت الواحد من داره التى بالحومة المذكورة المخرج من دار الحبس المتصلة بدار الطيفورى ويجاور بملك السيد سعيد المذكور وهو الحبس على المنار المذكور وخرج شقيقه محمد المذكور نائبا عن جانب الحبس المذكور فى مقابلة البيت المذكور، بجميع الحانوت المعروفة للسيد سعيد المذكور

بالحومة المذكورة المخرجة من دار المعلم محمد المراكشي السرايري وتجاور
بحانوت المراكشي المذكور وبالممر، مناقلة صحيحة تامة لا شرط فيها ولا ثنيا
ولا خيار، وبالمنافع والمرافق وكافة الحرم، تملك بها كل واحد منهما ما خرج
به له أو لمن ناب عنه عوضا عما خرج عنه تملكا صحيحا تاما على السنة في
ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب
ووقوف الامينين المعلم أحمد بن سعيد شندير البناء والطالب أحمد بن محمد
اللقنتي البناء على عين البيت والحنوت المذكورين وأدائهما لدى من يجب أن
في ذلك غبطة لجانب الحبس المذكور لكون الحانوت المذكور تساوى الآن في
تاريخه مائة أوقية واحدة وثمانين أوقية اسماعيلية والبيت يساوى في تاريخه
مائة أوقية واحدة وعشرين أوقية من السكة وان كراء البيت أوقية واحدة
الاربعة الأوقية عن كل شهر، وكراء الحانوت أوقية واحدة
وربع الأوقية تقويما تاما ووقوفا عاما عرفوا قدره ثم طولع بذلك الفقيه الاجل
المدرس الخير الافضل نائب قاضى الثغر التطاونى وحوزه وهو احمد
اعزه الله تعالى وحرسه فوافق على المناقلة المذكورة وأمضاها في حق الجانب
المذكور لما رأى له أسماء الله في ذلك من الصلاح والسداد الموافقة التامة شهد
على إشهاد من ذكر دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب
له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بالمذكور عنهم فيه وهم بحال كماله
وعرفهم وعرف انتصاب من ذكر لما ذكر وفي أواسط جمدى الأخيرة من عام
ثمانية وثمانين والى الحق فيه عن كل شهر صح به محمد بن عبد
وفقه الله تعالى بمنه. ومحمد وفقه الله بمنه .

نستفيد من هذا الرسم أن اسم اطرنكات، هكذا بالطاء، كان مستعملا
فى أواخر القرن الحادى عشر، وهو اسم للحومة الكبيرة المشهورة فى الجانب
الغربى من تطوان، وما زالت الى الآن تعرف بالطرنكات - بسكون الطاء
والنون وفتح الراء ... وان كان بعض المتفصحين من العدول وغيرهم يكتبها
الاطرنكات أو الترنكات، ونستفيد منه - كما عرفنا من غيره أيضا - أن منار
بعض المساجد قد يكون له وقف خاص به، فمنار جامع المصيمدى كان له - كما
ترى فى هذا الرسم. بيت خاص محبس عليه بالخصوص، ومن المعلوم أن البيت
كان وما زال يطلق بتطوان على الحجرة المستطيلة الواقعة بالطبقة السفلى من
الدار، أما اذا كانت فى الطبقة العليا فتسمى الغرفة الخ .

ويلاحظ ان القاضى الشرعى - ولم يكن بتطوان قاض غير شرعى - كان
هو الذى يحافظ على حقوق بيوت الله والقائمين بها، فلم يكن يسمح بأية معاملة
مع جانب الحبس الا اذا كانت فيها مصلحة ظاهرة له ، وذلك ما كان معروفا
بالغبطة . فهو لم يسمح بالتسليم فى البيت المحبس الذى قيمته مائة وعشرون

أوقية ، وكراؤه الشهري ثلاثة أرباع الأوقية ، الأفي مقابل تملك الحبس
لحانوت قيمتها مائة وثمانون أوقية ، وكراؤها الشهري أوقية وربع .
ويلاحظ ان القاضي كان يسمح للمؤذن بان يتصرف - تحت اشرافه -
فيما هو وقف على المنار الذي يؤذن به ، وكانت العادة - في ذلك العهد - دون
الان - أن كلا من الامام والمؤذن يتصرف مباشرة فيما هو محبس عليه بالخصوص
ثم مزجت مداخل الاوقاف كلها وصار الناظر هو الذي يدفع من مجموع المدخول
ما يحتاج اليه المسجد من حصر واضاءة وتبييض وتنظيف ، كما يدفع منه الاجور
المحددة للامام والمؤذن والحزابة الخ . تلك كانت عادة ، ولكل عصر عوائده ،
ومصائبه وفوائده .

19 رسم شراء دار بحومة الطرنكات سنة 1089

ومن ذلك رسم شراء دار بحومة الطرنكات سنة 1089 وهذا نصه :
«الحمد لله اشترت المصونة فاطمة بنت علي بايسة به عرف الاندلسي من
البائعين لها الاشقاء المكرمين محمد وعبد الرحمن وقاسم أولاد المعلم علي
الجندي جميع الدار الكبرى المعروفة لوالدهم بحومة الاطرنكات المتصلة بدار
القبرى وطراز مفضل بجميع منافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراها صحيحا
لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمان قدره لها ثلاثة آلاف أوقية وخمسمائة أوقية
اسماعيلية تؤدي لهم العدة المذكورة عند انقضاء أربعة أشهر تأتي من تاريخه لا
يبريها الا الواجب وتملكت المشتريّة المذكورة مشتراها المذكور تملكا تاما وحلت
فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك
والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب ، حضرت
أهمهم المصونة مريم بنت محمد الزرهونى ووافقت على ما فعله أولادها المذكورون
من بيع الدار المذكورة موافقة تامة شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجال
وعرف بالمرأتين تعريفا كافيا وثق به وفى أوائل رجب الفرد عام تسعة وثمانين
والف محمد بن عبد القادر الحدادى وفقه الله تعالى بمنه وموسى دغداغ وفقه الله
تعالى بمنه .

مما يلاحظ فى هذا الرسم ، ان كاتبه لم يذكر اسم الزنقة التى تقع بها
الدار المباعة ، واقتصر على ذكر حومة الطرنكات الكبيرة التى بها زنقات
عديدة . وعادة المتأخرين من العدول ، أنهم يذكرون اسم الزنقة التى يقع بها
الملك المبيع مع ذكر المالكين للاماكن التى تحده ...

ويلاحظ فيه أيضا أن امرأة اسمها مريم ، وذلك نادر الوجود فى تاريخ
تطوان ، اللهم الا ان تكون تلك المرأة من الاماء .

20 رسم بيع الدار المذكورة فى نفس السنة

ومن ذلك رسم بيع الدار المذكورة قبل انقضاء الاجل المحدد لدفع ثمنها.
ونصه :

الحمد لله اشترى الفاضل الابى الماجد الاغر السيد الحاج قاسم بن المرحوم بكرم الحى القيوم السيد محمد بن عدى به عرف التطاوى نائبا فى الشراء ودفع الثمن عن نفسه وعن الثلث الموصى به لاولاده من زوجه بل لاولاد اولاده من زوجه المرحومة كانت صفية بنت التاجر على الرميرس به دعى الاندلسى التطاوى حسبما فى غيره على حسب الثلثين الاثنى للمشتري المذكور والثلث الواحد للموصى لهم ولا حق له معهم فى الثلث الواحد الذى ناب فيه عمن ذكر لا فى ثمن ولا فى مثمون ويده فى ذلك يد عارية ونيابة ، من البائعة له المصونة فاطمة بنت على بيعة المذكورة مشترية بمحوله جميع الدار المذكورة المحدودة بمحوله على حسب حدودها المذكورة حيث اشير بمنافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراء صحيحا لا شرط فيه يفسده ولا علة توهنه ولا ثنيا ولا خيار بثمان قدره للدار المذكورة حيث اشير ثلاثة آلاف أوقية وخمسمائة أوقية بسكة مولانا اسماعيل نصره الله أذنت البائعة المشتري أن يدفع الثمن المذكور لها ولمن شاركها فيه من ورثة المعلم على الجندي المذكورين بمحوله فدفعه لها ولهم معاينة على الوفاء والتمام. واقتسموه على فرائض الله تعالى سبحانه وتوصل كل ذى حق بحقه وأبرئت ذمة المشتري المذكور من درك القبض ابراء تاما فبرىء وتملك بذلك مشتراه المذكور له ولمن ناب عنهم على الحكاية المذكورة تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجال وعرف بمن عداهم تعريفا كافيا وثق به وفى منتصف رمضان المعظم سنة تسع وثمانين والى محمد بن عبد المجيد بوسجادة وفقه الله بمنه ومحمد الديمانى وفقه الله بمنه.

ومن وثائق تطوان ونوازلها فى القرن الحادى عشر، ما أثبتته الشيخ عبد العزيز مهدى الزياتي (I) فى أول باب الحجر من نوازله، ونصه :

«سئل الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد محمد المقرئ (2) رحمه الله عن مضمّن ثلاثة رسوم نص الاول منها، «الحمد لله كان على ملك الفقيه القاضي

(I) الشيخ عبد العزيز الزياتي المذكور توفي ودفن بتطوان عام 1055 هـ وان شئت فانظر ترجمته فى الفصل الرابع من الباب الرابع من هذا الكتاب.
(2) المقرئ المذكور هو العلامة المؤرخ الاديب مؤلف كتابي «نفح الطيب، وأزهار الرياض» وقد توفي بمصر سنة 1041 هـ.

المرحوم بكرم الله السيد قاسم بن عبد الرحمن الكراسي جميع الدار الكائنة بحومة الجامع الاعظم من الثغر التطواني كلاًه الله تجاور دار السيد الشريف أبي العيش ومصرية السكيرج ودار النويدر والمحجة ودار الذميين بجميع منافعها ومرافقها وكافة حرمها الى أن توفى عفا الله عنه وتركها لاهل الاحاطة بآرثه وهم زوجته فاطمة زريقة المذكورة بطرته وفاطمة بنت أحمد برول وأولاده من غيرهما محمد وأم العز وأحمد شقيقته عائشة المذكورتان بمحوله ومن زريقة المذكورة رقية ثم توفيت رقية المذكورة فورثها أمها المذكورة وأخوها للام محمد بن السيد محمد الفضيلي وعصبها اخوانها المذكورون ثم توفي الولد محمد المذكور فورثه والده وأمه المذكوران لا وارث لمن ذكر سوى من ذكر في علم شهيديه فحضر الآن السيد محمد الفضيلي نائباً عن نفسه في واجبه في ولده المذكور وعن زوجه في واجبها وعن محجورتيهما المذكورتين بمحوله بتوكيلهما اياه كما قيد بمحوله كما حضر الولد محمد المذكور نائباً عن نفسه لكون التقديم بقي من والده المذكور من غير تجديد حجر عليه لموته بعد طول أمد بلوغه، والزوجة المذكورة نائبة عن نفسها أعني برولة والسيد عبد القادر بن عبد الملك نائباً عن زوجه أم العز من قبل من يجب لكونها الى نظره بمضمن أول شهيديه وذهبوا الى بيع الدار المذكورة في صفقة واحدة وعقد واحد لترتفع عنهم مضرة شركتها وليتوصل كل وارث الى واجبه منها فعرضوها للبيع والتسويق والاشادة في مظان الزيادة وغيرها من أسواق الثغر المذكور بسماط العدول منه وفي علم شهيديه أياماً عديدة نحو سنة وقفت على آخر زائد فيها وهو التاجر عبد الرحمن بن محمد بن عمر البادسي بثمن مبلغه لها ستمائة أوقية وأربعين أوقية دراهم سكة تاريخه اشتراها منهم بالثمن المذكور ودفع منه للفضيلي المذكور احدى وستين أوقية قبضها باعترافه والسيد محمد ابن صالح اثنتي عشرة أوقية كذلك دفعها لام العز المذكورة وباقي الثمن المذكور قبض منه جميع الورثة المذكورين معاينة خمسمائة أوقية وأربعاً وثلاثين أوقية ونصف الاوقية في ريال وباقي الثمن المذكور اعترفوا بقبضه وأبرأوا المشتري المذكور من جميع ثمن الدار المذكورة فبريء وملكوه مشتراه المذكور تملكا صحيحاً تاماً دون شرط ولا ثنيا ولا خيار على السنة في ذلك والمرجع بالدرك وبعد النظر والتقليب والرضى كما يجب ثم طولع بذلك الفقيه الاجل نائب القاضي بالثغر التطواني وهو محمد بن محمد بن يعقوب أعزه الله وحرسها وسئل منه إمضاء البيع المذكور بموجب الصفقة المذكورة في حق المحجورة المذكورة وتسويقه بعد أن ثبت لديه كونها الى نظره وأن لا مال لها يضم لها

به صفقة البيع المذكور فاقتضى نظره السيد ورأيه الموفق الرشيد أن سوغ ذلك البيع وأمضاه بالموجب المذكور لما ظهر له في ذلك من الصلاح والسداد شهد على اشهاد أعزه الله وهو بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بما ذكر وهم بحال كمال الاشهاد وعرف الجميع وفي أواسط ذي الحجة من عام اثني عشر والـف .

ونص الثاني الحمد لله أشهد الفقيه القاضي سيدي بلقاسم بن عبد الرحمن الكراسي به دعي التطاوني أنه جدد الحجر على ولده السيد محمد ومنعه من التصرف في ماله وألزمه حكم الولاية والحجر واليتمة التي لزمه وذلك ليلة بناء ولده المذكور بزوجه في السالف عن تاريخه بما ينيف على سنة إشهادا صحيحا عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كمال الاشهاد وعرفه وعرف الولد المذكور في فور بلوغه وقيد أواسط رمضان عام كذا (I) .

ونص الثالث الحمد لله يعرف شهوده الفقيه الاجل القاضي المرحوم بكرم الله سبحانه سيدي بلقاسم ابن الفارس المجاهد المعتزك أبي زيد عبد الرحمن الكراسي وجميع ورثته وهم زوجته فاطمة بنت احمد برول وفاطمة بنت أحمد زريق وابنته منها رقية ومن غيرها الفقيه محمد وأحمد وعائشة وأم العز محاجير فالفقيه محمد المذكور الى نظر الفارس أبي عبد الله السيد محمد بن صالح وأحمد وعائشة ورقية الى نظر زوجه زريقة وأم العز المذكورة الى نظر من يجب المعرفة الصحيحة التامة وبمثل المعرفة المذكورة يعرفون التاجر عبد الرحمن بن محمد بن عمر البادسي ويشهدون مع ذلك بأن التاجر المذكور اشترى جميع دار السيد القاضي المذكور الكائنة بحومة الجامع الكبير داخل الشجر التطاوني كلاًه الله المجاورة لدار الشريف أبي العيش والمحجة ودار الفقيه من أعلاها بيعت له في دين يزعم مدعيه وأن جميع من انعقد عليه البيع من الورثة في الدار المذكورة باع ضغطا واکراها لعدم ثبوت الدين عندهم ولعدم تمكينهم من الاعذار والدفع والمقال ويمين القضاء وغيره وكما يعلمون أيضا أن لهم أصولا وأثاثا وحيوانات مما يجب بيعه ويضم كل واحد منهم صفقة البيع لو ثبت الدين ما هو أولى من الدار المذكورة وكما يعلمون شهوده أن السيد محمد بن صالح لم يوافق على ما أبرمه محجوره المذكور من البيع ولم يزل الفقيه محمد المذكور منذ تبين ترشيده منازعا ومعارضاً ومدعياً ومطالباً لمشتري الدار المذكورة لم يرفع نزاعه عنه من الوقت المذكور الى الآن

كل ذلك في علمهم وقيدها به شهادتهم مسئولة منهم ويحوزون الدار المذكورة وما عداها من الاملاك بالوقوف عليها متى دعوا الى ذلك وفي أوائل رمضان المبارك عام كذا ...

ونص السؤال المركب على هذه الرسوم، الحمد لله. سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم جوابكم المبارك بعد تأملكم رسم البيع أعلاه ورسم الحجر ورسم الاسترعاء بعده والنازلة أعزكم الله أنه بيعت عليهم الدار المذكورة أعلاه على ما نصه رسم الاسترعاء والولد محمد المذكور البائع على نفسه كان محجورا مولى عليه لم يبع وصيه المذكور الا أنه كان حاضرا ولم تكن بيده وصيه ولا تحجير وباع الولد على نفسه كما ذكر ثم بعد ذلك عشر على رسم الوصية ورسم الحجر المفيد ورشد المحجور ورام نقض البيع وفسخه هل له ذلك أم لا والبنت التي باع عليها القاضي كان لها أصول وأثاث وحيوانات هل يصح بيع الحاكم عليها مع ثبوت ما ذكر أم لا، فان قلتم بصحته فلا إشكال، وإن قلتم بفساده فإنها ماتت قبل أن ترشد هل لورثتها القيام بعدها أم لا، فأجاب ان محمدا المذكور اذا ثبت حجره حين البيع كما ذكر فلوليه نقض ذلك البيع وله هو حين يملك أمره نقض ذلك اذا لم يعلم به وليه والله أعلم. وأما المحجورة أم السن فبيع الحاكم عليها ينقض اذا ثبت أن لها ما لا تضم به صفقة البيع في الدار المغتبطة لان الحاكم انما استند في البيع عنها الى أنه لا مال لها تضم به بحيث اذا ثبت أن لها مالا، رد ذلك البيع وينتقل لورثتها من الحق ما كان لها، وانما قلنا ببطلان البيع على الوجه الموصوف لان الشهود الذين شهدوا لدى الحاكم أن أم العز لا مال لها تضم به قد ثبت كذبهم بوجود المال لها ان ثبت، والقاعدة أن الشهود اذا ثبت كذبهم ينقض الحكم المستند لشهادتهم والله أعلم. هـ من خطه . (انتهى كلام الزياتي في نوازله) .

الفصل الثالث

من الباب الرابع

عن الشيوخ والزوايا بتطوان فى القرن الحادى عشر

نخص ما يتعلق بالشيوخ والطرق والزوايا والحياة الصوفية على العموم بعناية خاصة، لان ظهور التصوف والجماعات الصوفية ومظاهرها، كان حدثا جديدا فى حياة المغرب عموما، وتطوان بالخصوص فيما نرى .

فالسكان الاولون لتطوان الحديثة ، كان جلهم - كما علمت - من المهاجرين الاندلسيين، والغالب على الظن أن أولئك المهاجرين لم يصحبوا معهم من الاندلس الى تطوان شيئا من حياة الطرق الصوفية وعوائدها، كما أن الغالب على الظن أيضا أن من انضموا اليهم من الاهالى المغريبيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن أحوال الزوايا وشيوخها، وإنما الذى كان الناس يعرفونه فى ذلك العهد، هو أنهم مسلمون أولا ومجاهدون ثانيا، اذ كان قوم منهم هاجروا من وطنهم الذى سيطر عليه الكفار، ففروا بدينهم ليعيشوا فى البلاد الاسلامية التى لا سيطرة فيها لغير المسلمين، وكان منهم قوم آخرون يتركون أهلهم وديارهم ومصالحهم للرباط فى سبيل الله، والجهاد لاعلاء كلمة الله، والدفاع عن بلاد المسلمين ، فكانت الرابطة الاولى التى تجتمع عليها قلوب سكان تطوان أجمعين فى ذلك العهد، هى رابطة الاسلام الكبرى، وإن كانت هناك روابط أخرى ثانوية من عصبية لبعض الاقطار أو المدن أو القبائل أو اللهجات، فانها كانت روابط محدودة بين أفراد معدودين.

فلما جاءت الطرق الصوفية فى هذا العهد وفيما وليه من عهود، واتخذت الصوفية لها زوايا وعوائد ومظاهر خاصة، كان ذلك - كما قلنا - حدثا جديدا فى الوسط الاسلامي، وبدعا هاما فى الحياة الاجتماعية بتطوان .

وقد تضاربت آراء أهل العلم والفكر فى ذلك الحدث ونتائجه، فنظر إليه بعضهم بعين الريبة والاحتراس، والوقوف مع ظواهر الاسباب والمسببات فلم يروا فى ذلك الا تفريقا للكلمة، وخلقاً لخلافات وتعصبات وتحزبات كان الناس فى غنى عنها بالوقوف مع الكتاب والسنة، ورأوا فيها من ناحية أخرى نبذا للكثير من وسائل العمل والجد والاجتهاد، وسلوكاً لطريق التوكل والزهد والكسل وترك الشؤون الدنيوية، مما يضعف شأن الامة وقوتها وثروتها. ونظر إليه فريق آخر بعين الرضى والقبول والاطمئنان، فرأوا فيه من المصالح والمنافع ما لا يعادله الا ما جاء به الاسلام من جمع للكلمة ونبذ لساثر التعصبات الجنسية واللغوية، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وحض على العلم والعمل والعبادة، وعلى الجهاد فى سبيل الله، والرباط فى الحدود للمحافظة على ارض الاسلام من انتهاك الكفار لحرمتها والاعتداء على قداساتها، وحث على التعاون على البر والتقوى، ومد يد المساعدة من الاغنياء للفقراء، ومن الاقوياء للضعفاء، إلى آخر المبادئ العليا والاخلاق الفاضلة، والاعمال الصالحة التي جاء بها الاسلام ودعا اليها وحث عليها، فكانت هذه الطرق واجتماع المسلمين فى زواياها ومعابدها - فى نظر المرحبين بها - كتجديد للدعوة الاسلامية التي شغل الناس عنها، وكجمعية تبشير لنشر الفضائل الاسلامية والمبادئ السامية، وللرباط للعبادة والاستعداد للجهاد، والتقدم لميدان الاستشهاد فى سبيل الفوز برضى الله. زيادة على المحافظة التامة على قواعد الاسلام وخصوصاً أداء الصلوات فى أوقاتها، ودفع الزكوات لمستحقيها، وذكر الله الذى يظهر القلوب ويملاها نورا .

موقف سكان تطوان من الصوفية والتصوف

وقد مر على تطوان عهد كان فيه جل أهل العلم فيها من المقاومين لفكرة التصوف ورجاله وأعمالهم، فكانت منهم معاكسات ومقاومات حتى أدى الحال ببعضهم للسجون والمحاكمات كما ستعلمه مما يأتي فى محله بحول الله، ثم كان رد فعل كبير، فاندفع العوام ووراءهم أهل العلم على خلاف العادة، الى الاكباب على الطرق وما فى معناها، حتى لم يكذب ببقى بتطوان مبتعد عن ذلك السبيل، اما عن عقيدة واخلاص، واما عن انقياد وانسياق او استسلام. وهكذا هي الحياة مد وجزر، وإقبال وإدبار .

فظهر التصوف وانتشار الطرق، وخصوصاً فى أوساط العوام الذين كانوا هم الاغلبية الساحقة فى الامة، كان له ولا شك أثر كبير فى الحياة العامة وخصوصاً من الناحية الاجتماعية. وهذا موضوع يجدر بالمؤرخين أن يصوروا

حوادثه وأطواره، كما يجذر بالباحثين في شؤون الأمة وتطوراتها الدينية والاجتماعية، أن يحلوا مواقفهم، ويتتبعوا نتائجهم بنزاهة وإخلاص، وإذا سنحت لنا الفرصة فإننا سنعود للموضوع في المواضع المناسبة له في مختلف القرون بحول الله، وربما أفضنا القول حيث يجب ذلك، ونكتفي هنا بعرض موجز لما يتعلق بذلك في القرن الذي نتحدث عنه الآن وهو القرن الحادي عشر للهجرة

الزاوية الفاسية ورجالها بتطوان

ولعل أول زاوية صوفية أسست - فيما اطلعنا عليه والله أعلم، هي زاوية الشيخ أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي الفهري من جدد معاصرنا الاستاذ علال الفاسي أحد حاملي راية السلفية وزعيم حزب الاستقلال الآن. وهذه الزاوية موجودة الى الآن بحومة العيون أمام القنا الكبير، وتاريخ بنائها هو عام ثلاثة والـف كما يفهم ذلك من كلام العلامة سيدي العربي الفاسي في كتابه «مرآة المحاسن» فانه بعد أن ذكر ان والده الشيخ أبا المحاسن بنى مسجده بفاس سنة 1004، قال عن زاوية تطوان ما نصه : (I) «وقبل بناء المسجد بنحو عام، أمر الشيخ أصحابه الذين بتطوان ببناء رابطة هنالك لاورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير، فبنوها في العيون منها وقام الرسم بها أحسن قيام، ولم تزل الصلوات راتبة بها، ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرهما ثابتة فيها، واسم الزاوية جاريا عليها، ووقف الناس عليها أوقافا منها دار مجاورة لها كنا بها الى ان ارتحلنا عن تطاون».

ولعل أصحاب الشيخ سيدي يوسف الفاسي هم أول من ظهر بمظهر التصوف في تطوان، وكان مقدمهم ورئيسهم هو الشيخ أبو عبد الله محمد أنوار (2). ويظهر أن أولئك الاصحاب لم يكن عددهم كثيرا بتطوان، وأنهم لم يقوموا بالدعاية الواسعة لجلب الناس الى طريقتهم وزاويتهم، بل كانوا يعكفون على الذكر والتذكير والعبادة داخل تلك الزاوية، فلذلك بقيت الطريقة الفاسية - ان كانت هناك طريقة فاسية - في دائرة محدودة، ولعل انتماء تلك الجماعة القليلة نفسها الى الزاوية المذكورة، كان ناشئا عن تأثرها باخلاق

(I) مرآة المحاسن ص 43 .

(2) الشيخ محمد أنوار ستاتي ترجمته في الفصل الذي بعد هذا.

الشيخ محمد أنوار وعبادته وفضله، أكثر من تأثرها بالدعاية للمبادئ الصوفية بشرح أصولها وتبيين طرقها الخ (I).

الا أن الذي يظهر، أن تلك الجماعة بالرغم من قلة عددها، كانت ممتازة في ديانتها وأخلاقها، وصاحب ابتهاج القلوب، وهو العلامة الكبير أبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ عبد القادر الفاسي، قد ذكر هذه الجماعة مرارا؛ تارة باسم الجماعة التطاونية، وتارة باسم الحزب التطاوني، وقد عرفنا بأسماء مشاهير تلك الجماعة وهم : إمامها ومقدمها الشيخ محمد أنوار، وعالمها الشيخ أحمد بن يوسف الزياني، والسادات محمد السمعاني، وأحمد البريبري ويوسف بن يامون التليدي التيال، وعلي البجاني، والحسن الحايك. الخ وهؤلاء كلهم مترجمون في الابتهاج. وقد نقلنا كلامه عنهم فيما يأتي من تراجمهم، ومن تلك التراجم بالرغم من اختصارها تعرف أحوال تلك الجماعة وأخلاقها التي من أبرزها الديانة المتينة، والصدق الكامل، وعلو الهمة والاخلاص، ويكفيك في بيان منزلتها، أن تعرف أن الشيخ العلامة أبا زيد الفاسي (العارف)، كان يتصل بأفرادها ويطلب منهم صالح الدعاء، وأن العلامة سيدي العربي الفاسي والعلامة سيدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي يشرحان كلام بعضهم ويختلفان في مراده رحم الله الجميع .

ثم ان الذي يظهر أيضا، أن نشاط تلك الجماعة إنما كان في الربع الاول من هذا القرن، أعني الحادي عشر - اذ هو الذي وقع فيه بناء زاويتهم المذكورة ، أي الزاوية الفاسية التي بحومة العيون، وفيه حبست عليها الاحباس الخ. وأفرادها المذكورون في كتب التراجم هم الذين كانوا موجودين بها في ذلك العهد فقط، فيظهر أنهم لم تخلفهم جماعة أخرى من أمثالهم، اذ لم نقف حتى على أسماء فقراء فاسيين عمروا الزاوية المذكورة من بعدهم، ولم يصلنا من

(I) كانت الصوفية المغربية على طريقة السلف في العبادة والعلم ، ومثال صوفية العهد القديم، الشيخ عبد السلام بن مشيش. وجاءت الشراقة بأفاتها وبأخذها بنظريات الحاتمي أخذا مشوها، فوقع البطش بها. وفي أيام جهاد البرتغال تكونت الزوايا على أساس الاوراد والاذكار والاخذ بظاهر الشرع ومن نماذج ذلك، الطريقة الناصرية والوزانية. اما الذكر في الاسواق والرقص والسماع، فلا يعرف فيما قبل مولاى العربي الدرقاوى الذي من أشياخه السادة الفاسيون. وهذه الطريقة وقع فيها تقليد المشارقة، كما أن اصحاب الشيخ سيدي محمد بن عيسى أخذوا الشطح وتعذيب النفس والتعرض للنيران والسموم عن الرفاعية المصرية، وعنهما أخذت البيارق والاعلام والطبول والمزامير وبحث الطرق طريف لا يزال بكرا

الآخبار المتعلقة بهذا الموضوع فى الربع الثانى من هذا القرن الا ما كان من وفود الشيخ سيدى العربى ابن الشيخ أبى المحاسن الفاسى على تطوان واقامته بها فى الدار المتصلة بالزاوية والمحبة عليها الى ان توفى بها ودفن أولا بالزاوية المذكورة ثم نقل منها الى فاس رحمه الله.

الشيخ علي بن مسعود وبنائه لجامع العيون

ومن أخبار الشيوخ ومتعلقاتهم بتطوان فى هذا القرن الحادى عشر، وفادة الشيخ علي بن مسعود على هذه المدينة، وهو الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدى (I) دفين زاويته المشهورة بحومة العيون جنب جامعها الكبير الذى هو من بنائه رحمه الله.

وقد ذكر أبو محمد سكيرج ان الشيخ المذكور لما وفد على تطوان وجد بناحية العيون مساحة كبيرة فارغة من البناء، وكلها فدادين، فاشتري فدانا مبدأه من الوطنية ومنتهاه باب النوادر، وحبسه على جامع الكبير الذى بناه هناك فى البقعة التى كانت مجزرة لاهل البلد (2).

وكان الشيخ المذكور معدودا من كبار الشيوخ، وكانت له زاويته الخاصة وأصحاب ومريدون، وستعلم من ترجمته الآتية وخصوصا من تصريحاته فى منظومته التأثية، انه كان من أصحاب المقامات العالية المعروفة فى اصطلاح المتصوفين.

بين الشيخ علي بن مسعود وأصحاب الشيخ يوسف الفاسى

وذكر أبو محمد سكيرج فى تاريخه عن بناء جامع العيون حكاية مضمونها أن الشيخ الجعيدى اتصل أولا بأصحاب الشيخ أبى المحاسن الفاسى، وبقي معهم الى ان وقع بينه وبينهم خلاف فكان هو يبرى ان المكان الذى يبنونه، يجب أن يكون مسجدا عاما تقام فيه الصلوات الخمس والجمعة ويكون مباحا لجميع المسلمين، وكانوا هم يرون ان يكون زاوية خاصة بهم، واستحكم الخلاف بين الطرفين فكتب التلاميذ الى شيخهم بفاس، فأمرهم بالتخلى عن المكان المذكور للشيخ الجعيدى، وذكر لهم انه سيرسل اليه الابواب وخشب السقف حينما يتم

(I) الشيخ أبو الحسن الجعيدى له ترجمة فى الصفوة ص 78 وفى نشر الثانى ج I ص 148.

(2) وانتقلت المجازر حتى تحولت للفدان حيث قصر المقيمة ومنها لباب التوت ثم الى محلها الحالي من المرة قرب نيابة الثقافة. ت. و.

البناء الخ. وذكر السكيري ان الشيخ ابا المحاسن رضى الله عنه قد نفذ ما وعد به وأرسل اليه ما ذكر .

ثم ان الشيخ ابا المحاسن امر اصحابه بالبحث عن مكان آخر يبنون به زاوية خاصة بهم ، فامتلوا أمر الشيخ وبنوا زاويتهم التي تقدم الكلام عليها ، والتي ما زالت معروفة ومنسوبة للفاسيين الى الآن ، واستقل الشيخ الجعيدى بمسجده الكبير الجامع الى ان اتم بناءه سنة 1030 وهو قائم الوجود وعامر الى الان . وقد تكلم أبو زيد الفاسى في ابتهاج القلوب على الشيخ علي بن مسعود رحمه الله وعلى ما وقع له مع اصحاب الشيخ ابي المحاسن وعلى قضية هذا المسجد الى آخره وهذا نص كلامه :

« ومنهم الشيخ الولي الصالح أبو الحسن علي الجعيدى ، شيخ كبير السن فوق المائة . كان قد صحب الشيخ سيدى يوسف التليدى تلميذ سيدى منصور ابن عبد المنعم ، ثم انتسب الى الشيخ ابي المحاسن وانضاف لاصحابه بتطاون ودخل في حزبهم الى ان أخذوا فى بناء المسجد الذى ينسب اليه بالعيون ، وكان الشيخ أبو المحاسن بعث مادته من خشب وغيره من فاس ، فلما استقل البناء وكمل المسجد وهو معهم في ذلك كله ، انقبض عنهم ونفر وصار يقول انما كنت أحدثكم عن سيدى يوسف التليدى لا عن سيدى يوسف الفاسى ، فلما بلغ ذلك الشيخ ابا المحاسن ، بعث الى أصحابه أن يتنحوا عنه ويتركوا له المسجد . فبنوا زاوية أخرى بالعيون صغيرة هي شهيرة الى الآن ، ونسبت الاولى للجعيدى ثم صارت للجمعة والخطبة . أخبرنى بالحكاية والدنا حفظه الله . وكان عاقبة المسجد المذكور بعد ذلك ، أن ظهرت به صورة امرأة جنية (I) كانوا يزعمون انها تصيح كل يوم ببابه قتلت أولادى ياجعيدى ، أحرقتنا ياجعيدى مدة ، لان اصل المسجد كان موضع الذبائح قبل ، فبقى ذلك مدة حتى فزع منه الناس وصاروا يفرون من المسجد المذكور ولم يرتاحوا منه الا بعد حين »

رسالة من الشيخ يوسف الفاسى عن الشيخ الجعيدى

ويظهر ان العلاقات بين الشيخ على بن مسعود واصحاب الشيخ ابي المحاسن الفاسى ، ظلت متوترة مدة ، ويتضح ذلك من الرسالة التى كتبها الشيخ أبو المحاسن لتلميذه السيد محمد أنوار رئيس زاويته بتطوان وهذا نصها (2) « ولدنا الاحب الاقرب سيدى محمد نوار نور الله سريرتكم واصلح علانيتكم وجمع شملكم به وعن سواء اغناكم وزاد فى معناكم ، يسلم عليكم عبيد الله وخديم

(1) مثل هذه الفقرات ننقلها على علاقتها والكمال لله .

(2) بعض هذه الرسالة من ممتع الاسماع ص 182 . وبعضها من مرآة المحاسن ص 93 .

أهل الله يوسف بن محمد الفاسي لطف الله به في السارين
وصلنا كتابكم معربا عما نزل بكم وحل بساكتكم. اعلم ان الهدى هدى الله ،
وأحسن الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الصراط المستقيم
وما عدى ذلك أمور مختلفة وسبل منحرفة نعوذ بالله من الضلال، ونسأله العصمة
في القول والفعل والحال، وما ذكروا عن ذلك الرجل (I) لا يخفى على ذي بصيرة،
لكن غضها واجب كالبصر، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم الآية. والتغافل
عن العورات من أجل القربات وأعظم الطاعات، واعتبر قوله تعالى. ومنهم الذين
يؤذون النبي الآية. ومن حكم التابع ان يكون على قدم المتبوع، والآن لما برح
الخفاء، وبدل الود بالجفاء، ارجع الى ربك، وقف عند حدك، واصبر على ضرهم
واهجرهم هجرا جميلا، مع إفشاء السلام ان تعين، وما خف من الكلام، واعلم
أنه لو كان الناس على القدم الاولى وما كان عليه السلف الصالح من سلامة
الدين والرسوخ في اليقين، لم تر للقوم أورادا موظفة، وأحزابا مكلفة، وهو
الذي كان في الاصل (كذا) فلما قصرت المقاصد، وذهبت المشارب والموارد ،
جعل الأئمة رضى الله عنهم تلك الوظائف للمبتدئين، ومنارا للطالبيين، حتى
قليل انها من روائع الدين ومنساة له، وأما من قوى يقينه، وانشرح صدره
فهو في غنى عن ذلك كله .

واعلم أن العبد من شأنه إن وفقه الله، أن لا يتقيد بمكان ولا زمان، إلا ما
قيده الشرع، فحيث كان من يزاحمكم في موضعكم، فانظروا لانفسكم موضعا
آخر مخصوصا بكم، وهو دأب المنقطعين، وشأن الطالبين، فاعملوا على ذلك
ولا تخوضوا مع الخائضين، ولا تكونوا كالذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم
الحياة الدنيا. واعلم أنك مخاطب بهذا كله، والوصية لك وصية لاصحابك، على
حد قوله تعالى، فلا تكونن من الجاهلين، والذي نوصيك به، التنازل لآخوانك
وسر بسير ضعيفهم، وكن كالموذن بالمنار ويصلي بالارض مع سائر البشر» اه
إلا أن الذي يظهر، أن ذلك الخلاف قد زال أثره بعد ذلك، فقد وجدنا العلامة
أبا حامد العربي الفاسي - وهو ابن الشيخ أبي المحاسن نفسه، يرثي الشيخ
الجعيدى المذكور بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

أما الدموع فانهن غزار (2)

وكانت وفاة الشيخ علي بن مسعود رحمه الله عام 1032 كما سيأتي تحقيقه
في ترجمته قريبا بحول الله.

(I) يعنى به الشيخ علي بن مسعود الجعيدى رحمه الله
(2) ان شئت فانظر نص هذه القصيدة كاملة في ابتهاج القلوب لآبى
زيد الفاسي، وقد نقلناها في ترجمة الشيخ الجعيدى في الفصل الذى بعد هذا.

الطريقة الناصرية وزاويتها بتطوان

والطريقة الناصرية دخلت تطوان فى هذا القرن أيضا - وأُسست بها زاوية كبيرة بهذه المدينة ، وهذه الطريقة من المعلوم أنها منسوبة لمؤسسها الشيخ الجليل العالم العامل ناصر السنة النبوية سيدى محمد (بالفتح) بن ناصر الدرعى تلميذ الشيخ سيدى عبد الله بن حسين، وهى والله أعلم، ثالثة طريقة صوفية دخلت تطوان. ولعل زاويتها هى أيضا الزاوية الثالثة التى بنيت بهذه المدينة بعد الزاويتين ، الفاسية والجعيدية.

ومن المعلوم أيضا أن مؤسس هذه الطريقة - الشيخ سيدى محمد بن ناصر، ولد سنة 1011 وتوفى سنة 1085.

والظاهر أن طريقته وصلت تطوان وكان له مریدون بها فى حياته رحمه الله. وقد علمنا أن عالم تطوان وشيخها سيدى الحاج على بركة كان فى مقدمة المتلقين للطريقة الناصرية، وأنه أخذها عن مؤسسها نفسه كما فى نشر المثنانى (I) كما علمنا أن الشيخ أبا على اليوسى أخذ هذه الطريقة عن سيدى محمد بن ناصر نفسه أيضا ، وقد قال فيه ما نصه : « وهذا الشيخ رضى الله عنه، هو الذى أخذت عنه العهد والورد ، واليه ننتسب ، وكل من تذكره سواء فانه على طريق انتفاع ما الخ . »

وعلمنا أن هذا الشيخ العالم - نعني أبا على اليوسى - كان رحمه الله يزور تطوان من حين لآخر، ويلقن الناس بها الاوراد الناصرية .

وقد حكى الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن علي الرافعى التطوانى فى رحلته الشرقية الحجازية ، (2) أنه اجتمع فى مصر بالشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن ناصر أثناء رحلتها الى الحجاز عام 1096، وأنه عرف الشيخ المذكور بالورد الذى لقنه لهم بتطوان العلامة أبو على اليوسى وتلاه عليه فأقره على ذلك واجازه الخ .

وذكر اليفرانى فى صفوة من انتشر (3) أن الشيخ ابن ناصر أذن للشيخ أبى على اليوسى فى تلقين الاوراد نيابة عنه ، فكان يلقنها فى حياته ، فهرع الناس اليه وأقبلوا اليه يزفون ، ووقع له من اقبال الخلق عليه ما لم يعهد مثله ...

(I) نشر المثنانى ج 2 ص 104.

(2) هذه الرحلة لم تطبع ، وفى خزانتي «الداودية» بتطوان، نسخة منها.

(3) الصفوة ص 209.

ثم لا ندرى ما فعل الله برجال الطريقة الناصرية بعد ذلك العهد . أما الزاوية الناصرية نفسها ، فهي ما نزل حتى الآن قائمة محفوظة مصونة تؤدي بها الصلوات ، ويقرأ بها القرءان وبعده الدعاء الناصري المنظوم الذي أوله :

يا من الى رحمته المفر ومن اليه يلجأ المضطر

ولكنها لا تقرأ بها أوراد، ولا تقع بها اجتماعات اذ لا يوجد الآن بتطوان فقراء ناصريون ظاهرون . فالزاوية الناصرية في وقتنا هذا كبقية المساجد العامة التي يصلي فيها عموم الناس .

وفي عصرنا هذا أضيف للزاوية المذكورة فندق كبير كان مجاورا لها من الناحية الشرقية الجنوبية ، أى من ناحية القبلة ، وهو الفندق الذي كان معروفا بفندق النجار ، وقد اشترى الفندق المذكور من ملاكه ودفع ثمنه من مال الاحباس الغنية التي للزاوية المذكورة ، وهدم ذلك الفندق كله وبني من جديد على شكل مسجد وجعلت فوق مدخله صومعة عالية وأضيف الجميع الى الزاوية المذكورة فصارت مسجدا جامعا عاما تقام به الصلوات والجمعة، وكانت أولى صلاة جمعة أقيمت فيه بتاريخ 27 جمادى الآخرة عام 1375 (10 - 2 - 1956).

الفصل الرابع

من الباب الرابع

من رجال تطوان في القرن الحادي عشر

تكلّمنا فيما سبق على بعض رجال تطوان في هذا القرن، أعني الحادي عشر مثل أولاد النقسييس الحكام السياسيين والقادة المجاهدين، وخصوصاً منهم المجاهد المشهور المقدم أبا العباس أحمد بن عيسى النقسييس المتوفى سنة 1031 . وذكرنا القضاة ورجال الشرع الاسلامي واشهرهم القاضي محمد بن قريش، وأشرنا الى الشيخ علي بن مسعود المتوفى سنة 1032، والشيخ محمد أنوار وغيرهما من رجال الخير والصلاح والتصوف، ونرجع الآن لتراجم الاشخاص الذين قضوا بتطوان حياتهم كلها أو بعضها، أو توفوا بها في هذا القرن، وقد سجل المؤرخون أسماءهم وحفظوا تراجمهم، وهؤلاء الاشخاص منهم من كان مشتهراً بالعلم والعمل، ومنهم من عرف بالولاية والصلاح، والهداية والارشاد، ونحن سننقل ما عثرنا عليه في هذا الموضوع وان كان قليلاً، وسنرتب التراجم في الغالب على حسب تاريخ الوفاة .

أبو العباس أحمد بن يوسف الزياتي 1003

كان هذا السيد من شيوخ تطوان وعلمائها، وقد ترجم له العلامة سيدي الصربي الفاسي في مرآة المحاسن بقوله (I) .

«الخامس عشر الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف بن مهدي العبد الوادي الاصل ثم الزياتي، هو أخو شيخنا أبي الطيب، وقد تقدم ذكره في ترجمته، وكان من أئمة النحاة، حافظاً للفقهاء، قائماً عليه، مشاركاً في كثير من العلوم، قرأ بفاس وأوطن تطاون وخطب ببعض جوامعها، ودرس العلم بها وكان

عالمها حقيقة الى ان توفي بها سنة ثلاث والـف ودفن خارج باب العيون (I) منها قريبا من روضة سيدى طلحة، وكان قد صحب الشيخ أبا العباس الفلالي، ثم بعد موته صحب الشيخ أبا المحاسن، وفتح له على يديه فتحا استنارت به عوالمه، واتحدت به وجهته، وأقبل على الله بكليته، وأعرض عما سواه، ولم يبق له اعتبار لصورة ولا هيئة، ولا تخيير لجلوس ولا غيره، حتى قبضه الله اليه»

والذى تقدم له فى ترجمة أخيه المذكور (2) هو أنه يعرف فى بلاده بابن مهدي (3) ويعرف فى غيرها بالزياتي (4) وان أبا العباس، أى المترجم، رحل الى فاس لطلب العلم، فقرأ على مشيخة ذلك العصر فنجب وفاق غيره من اقرانه ودرس بفاس فكان من تلامذته أخوه سيدى الحسن الزياتي شيخ سيدى العربي الفاسي وشارح المشيشية والجمل وغيرهما الخ.

وترجم له أيضا أبو زيد الفاسي فى ابتهاج القلوب بقوله : «ومنهم الشيخ الفقيه المخصص بصفات الاسرار، من وصف الاغيار، والزهد فى الدنيا وحسن الوقار، أبو العباس احمد بن يوسف الزياتي شيخ قائم بالكتاب والسنة، جليل العلم والعمل، عليه من الشهود أنوار حاضرة، ونعم ظاهرة، ليس له هم الا ابتغاء وجه الله، ولا شعار ولا دثار الا ذكر الله، ثم بعد أن ذكر أنه صحب الشيخ أبا المحاسن الفاسي، ذكر انه كان من اصحابه الذين بتطاون وله قدم جليل الخ. ثم ذكر عن الشيخ أبى فارس عبد العزيز الزياتي أن صاحب الترجمة توفي عند صلاة العصر يوم الجمعة الموفي خمسة وعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث والـف. ودفن من غده لصلاة الظهر من يوم السبت بالمرّة (5) من تطاون جوف روضة سيدى طلحة. الخ. وترجم له ايضا القادري فى نشر الثانى (6) ووصفه بالفقيه الزاهد ونقل عن المطمح، أنه شارك فى علوم شتى واشتهر فى النحو وبرع فيه، وأنه ولد يوم الاثنين عند الفجر فى نصف ربيع الاول عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة ثم قال ما نصه : «ومما هو صريح لصاحب الترجمة فى علو

(I) باب العيون هى المعروفة الآن بباب النوادر.

(2) مرآة المحاسن ص 165.

(3) اولاد مهدي موجودون بكثرة فى قبيلة بني زيات من قبائل غمارة، وهم يدعون النسب وبعض الناس ينسبهم الى فارح بن مهدي الظالم المشهور . ت. و.

(4) «الزياتي» نسبة الى قبيلة بنى زيات التى أصل هذه العائلة منها وليس علما على العائلة المذكورة التى ما زال أفرادها يدعون الى الآن بأولاد مهدي .

(5) المرّة، اسم مكان خارج باب النوادر

(6) نشر الثانى. ج I ص 25.

مكانته وعزة جلالته، ما خاطبه به الامام الشهير، العارف الكبير، سيدي يوسف الفاسي حسبما نقله عنه ولد حفيده الامام سيدي المهدي بن احمد في كتابه المؤلف فيه المسمى روضة المحاسن، اذ قال الشيخ أبو المحاسن مخاطبا لصاحب الترجمة بما نصه : «فاعلم أن الحال ناداكم، والوقت أجابكم، فان تنبهت فشاهده منكم، أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه الآية. انصت لما قيل لك واجر على مقتضاه، فالله يعينك، واجعل الحق دليلك لانه يقضي ولا يقضى عليه، وارفع همتك الى الله، واقطع إياسك مما سوى الله بصدق التوجه اليه، ولا تكن بنفسك أو بشيء من عوالمك تكن مع غيره فيفوتك عذب مؤانسته ولذيد مناجاته، ومن فقد الله لم يجد شيئا، والا فراقبه في سائر أحوالك وسرك وعلانيتك، وأجر على قلبك وإن لم تحرك به لسانك، قوله تعالى، وما تكون في شأن وما تنلو منه من قرءان ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا... الى مبين، تجد بركة ذلك ان شاء الله تعالى. ومن وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء، فالله يعينك على حسب اجتهادك، ويمدك على حسب نيتك وحسن اعتقادك، فان تمت تم عفو الله لك. جعلك الله من خواص عباده، وأخذك عن مرادك واقفا عند مراده، ولا تزال تخبرنا بما يرد عليكم، فمواصلة الاقلام، تغني عن زيارة الاقدام ان صح ارتباط الارواح، فلا عبرة بالاشباح، وفي هذا العلم تتحد الامكنة والازمنة فاعلم ذلك كما قيل «شواهد أهل الصدق في الحب تعرف» اه. قال الشيخ أبو الطيب وهو سيدي الحسن أخو صاحب الترجمة، «وصية يفضي بها المرید إن وفق في أقرب زمان الى ربه» اه.

وذكره أيضا صاحب كتاب «التقاط الدرر» (I) ووصفه بأنه من أوعية العلم ومن كبار الصالحين الخ.

الشيخ محمد أنوار 1006

كان الشيخ محمد أنوار من عباد الله الصالحين في تطوان، وقد ترجم له أبو زيد الفاسي في ابتهاج القلوب بقوله : «ومنهم السيد العارف الناظر الى حسن تدبير الله له وشدة رحمته به في جميع تنقلاته، المتخذ رفض العلل شعاره في كل حالاته، أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد نوار الاندلسي البسطي ثم التطاوني أحد العارفين بالله الغائب عن قلوبهم كل ما سوى الله، لا يرى في

(I) مؤلف كتاب «التقاط الدرر» هو صاحب نشر المثاني وهو الفقيه العلامة المؤرخ سيدي محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري، واسمه الكامل هو «التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر، من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر» وقد ذكر فيه انه جعله ذيلًا للقط الفرائد لابن القاضي، وهو الذي ذيل به «شرف الطالب» لابن الخطيب القسنطيني

الوجود الا الله، ولا يخطر له التفات الى غير الله، غائبا عن الافعال والصفات، في شهود عظمة الذات، دؤوبا على القيام بوظائف الخدمة، رافضا للعلل رفيع الهمة، متلذذا بما يصدر من حضرة محبوبة لا في الصادر، والى ذلك يشير في الابيات التائية التي له بقوله :

فحسب المحب مشاهدة يقينا لما يبدو من حضرة

وقد جرى في شرحها الشيخ أبو عبد الله محمد العربي على أن المراد مشاهدة الصادر صادرا من المحبوب، والمناسب للمقام ما ذكرناه.

وكان صاحب الترجمة من اصحاب الشيخ أبي المحاسن الذين كانوا بتطاون وكان الشيخ يقول فيه، هو نور. أو قال انوار على الحقيقة. الى ان قال... وله بركات شهيرة واثار مذكورة، رءاه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن أخو شيخه أبي المحاسن جالسا بحانوت يتجر فقال له، كيف التجارة مع حالك فقال له، الجسم في الحانوت، والقلب في الملكوت، ويشير الى انه في تسببه ممثّل لامر الله تعالى، معتمد عليه في رزقه لا على البيع والشراء، ومن جلس بهذا الوصف لم يمنعه من الحضور مع الله تعالى، ثم قال، والابيات المشار اليها من نظمه هي هذه:

فلاحظ أعظم من خيبة	لمدح حب على صحة
ومن كان قصده في نيل ما	يروم فما قام بالحجة
ومن كان حظه في الوصل ما	خلا حظه فيه من علة
وأصل طريقنا رفض العلل	مع الصبر والرفع للهمة
فحسب المحب مشاهدة	يقينا لما يبدو من حضرة
وفهمك عنه جدير بأن	يعوضك المنع بالمنحة
وليس بشأن لمن ادعى	محبة مولاه في خلوة
بل الفخر للمرء في همة	تخلت عن الحور والجنة
وعد المراتب لا تقتصر	على دون أعلاه من رتبة
وأن الى ربك المنتهى	يبين ما يخفى من قولة

ذكر شارحها الشيخ أبو عبد الله محمد العربي في تأويل البيت المذكور أن المحب الصادق في محبته يكفيه طريقة ومذهبا وحالا عن غيرها من الطرق والمذاهب والاحوال، أن يشاهد بقلبه مشاهدة يقين لا يعرض لها شك ولا تزلزل، أن جميع ما يبدو في الوجود ويظهر في الكون، صادر عن حضرة محبوبة فيشاهد ذلك كذلك ويقف عند حد تلك المشاهدة، فلا يكون منه اضطراب ولا اعتراض بقلب ولا لسان، أى يكفيه ان يشاهد ذلك ببصيرته ويسكت بلسانه وقلبه. وهذا الوصف الذي ذكره يشير الى الصبر الذي في المجاهدة وان كان لم يقتصر عليه في شرح الصبر المتقدم في الابيات. وعلى ما ذكره

فلمقام العامة نصيب من تلك المحبة والصبر بمشاهدة فعل الله، وللخاصة نصيب من رؤية الایجاد من الموجد، وهم الذين أظهر الله فيهم زيادة علم على من سواهم فترقوا الى رؤية الصنع عن رؤية المصنوعات، ومثالهم في الشاهد كصاحب اليرقان لا يلحظ شيئاً الا مصفراً، وكذلك هذا لا يرى شيئاً الا رأى فعل الله سبحانه سارياً فيه، ولكنه مع ذلك محجوب عن الفاعل لوقوفه مع رؤية الفعل وأهل هذه المرتبة هم الذين يقولون، ما رأيت شيئاً الا رأيت الله معه، فقدموا رؤية الصنعة على الصانع، وفوقهم مقام أهل الجمع الذين جمع الله همهم فشاهدوا الملك كله فعلاً واحداً قام به الواحد، ورأوا الحادثات كلها بالله فلم يستدلوا به عليها، ونظروا به اليها، وهم الذين يقولون ما رأيت شيئاً الا رأيت الله قبله، ونصيب هؤلاء مما ذكره الشارح ظاهر، وفوق هذه المرتبة شهود أوصاف الله القائمة به حقيقة، كمن نزل به عارض المرض وسلب القدرة الكسبية، فانه لا يستطيع الجلوس والقيام، ولو حاول ذلك لم يقدر، فيعرف أنه لا ارادة له ولا قدرة البتة، وانما هو كالألة بيد الصانع لا تحرك لها الا بتحريكه فيما يريد، وفي أى وقت يريد، وهذا وان كان توحيده ضرورياً لا نظرياً عن كشف وعيان، لا عن دليل وبرهان، فاطلاق اسم الشهود عليه مجاز، لانه في غاية الشعور بنفسه، والشهود الحقيقي هو الذى يقع معه الفناء، وفناء الفناء، ولصاحب هذا المقام ايضاً قسمة وحظ مما ذكره الشارح، وفوقه مقام فناء الفناء لمن غيبه الحق سبحانه عن الافعال والصفات، في شهود عظمة الذات، وهذا أقرب أن يريده الناظم كما ترشد اليه اشارة الابيات الاخيرة، وان كان فوقه مقام الفناء الاكبر وهو فناء الفناء بأن يفنى عن الشهود، وتقريبه بالمثال، القمر مع الشمس، يظهر نورها فيه لصقالته، فاذا قرب منها غاب فيها وامتحى بقربها، وكذلك العبد لا يزال يتقرب الى الحق حتى يحبه، فاذا حصلت المحبة أحرقت نارها جميع أوصاف العبد وخيالات نفسه وأوهامها الحاجبة له شيئاً فشيئاً حتى يستولي عليه ويصير محواً في وجود المحبوب، فلا عين ولا اثر.

وقد ذكر عن الشيخ أبي المحاسن في مثال هذا من الشاهد، النار الحسية، فان الخشب مباين لها كل المباينة، فلا تزال تأخذ فيه وتسلب أوصافه، وهما فيه من المائية وغيرها يصعد ويذهب حتى تستولي عليه ويصير ناراً لا وصف له سواها. وفي ضمن ذلك الحب تجلى الوجود المطلق، فيظهر فى مرآة حقيقة العبد ويغلب على تعين وجوده ويقهره ويفنى الاضافة المجازية عنه فيظهر كل شئ هالك الا وجهه، يعنى التقيدات والتعينات والنسب العارضية والاضافات المجازية، الا وجهه، يعنى عين الوجود المطلق الذى هو وجه كل شئ لا يواجه شيئاً الا هو، فيفنى حكم ذلك التجلى حقيقة المحب وجميع قواه فيصير سمعه الذى

يسمع به وبصره الذى يبصر به وعقله الذى يعقل به ويده التى يبطش بها ورجله التى يسعى بها كما ورد فى الحديث فاذا تبين لك ما ذكر، فهمت أن الناظم انما يشير الى شيء من هذا المقام والذى قبله ، اذ كل من المقامات المتقدمة يؤذن بثبوت الفعل مع ثبوت فاعله ، وهو الله ما عدا مقام خاصة الخاصة، ممن غاب في شهود وصف الله عن شهود فعله وقد تقدم أنه شهود مجازى. واذا تبين مراد الناظم، صح تأويل ما يبدو من الحضرة على ان من بيانية، أى باطلاق الحضرة على الذات الكريمة أو على الابتدائية بمعنى ما يبدو من الله اليه أى ما يمنحه من المعارف الدنية والامدادات الربانية والشهودات العيانية ، وتارة ما يمنعه مما كان يرد عليه من ذلك ، وهو حال العارف كما يرشد اليه البيت بعده. وقد جرى الشارح فى سائر الابيات على ما يؤول بكل مقام ، ويصح أن أن يجرى في أحوال العوام ، ومقتضى حال الناظم أن يشير الى حال واحدة حصلت فيه أو هو قاصدها، كما يفهم من سياقته، ولولا الاطالة لبسطنا القول فى ذلك .

ومن تأمل كلامه مع ما أشرنا اليه، ربما اهتدى الى فهم مراده الجليل . وبلوغه ما أوماً اليه من ذلك القبيل .

ذكر الشارح رحمه الله أنه توفى بتطاون في الوباء العام يوم الاربعاء ثالث محرم عام ستة والـف ، ودفن بشرقي المصلى القديم خارج باب المقابر أحد ابواب تطاون حرسها الله ، وقبره هناك مشهور يزار ويتبرك به رضي الله عنه وأرضاه، اه كلام ابتهاج القلوب .

«قلت» ويكفى فى بيان مكانة المترجم رحمه الله أن يتصدى لشرح كلامه وحل اشاراته وتبيين مراده ، مثل الامامين الجليلين ، العلامة سيدي العربى الفاسى، والعلامة سيدي عبد الرحمن الفاسى الذى كان يلقب بأسىوطى زمانه . أما قبر المترجم رحمه الله فغير معروف الآن والدوام لله .

وترجم له أيضا سيدي المهدي الفاسى فى كتابه «ممتع الاسماع» (1) ووصفه بالاندلسي البسطي (2) التطواني وذكر أنه كان من أكابر أصحاب سيدي يوسف الفاسى، وانه كان عارفا بالله ربانيا، وكان اتخذ زاوية بتطوان باذن شيخه للذكر

(1) متع الاسماع ص 181

(2) البسطي ، نسبة الى بسطة ، وهي احدى المدن الاندلسية الواقعة فى اقليم غرناطة وتقع فى الشمال الشرقى منها وتبعد عنها بنحو تسعين كيلومترا، والاسبانيون يسمونها BAZA

والذكرى فانتفع به ناس كثيرون ، ونشأ على يديه رجال ظهرت خصوصيتهم وكانت لهم أحوال وأسرار ربانية، وكان يأتي هو وإياهم لزيارة الشيخ بفاس الخ.

وترجم له القادري فى نشر المثانى (I) ووصفه بالشيخ الفقيه الولي الرباني المحقق الواصل العارف، وذكر انه وقف على شرح سيدى العربى الفاسي لآبياته السابقة الذكر، وأنه فى غاية الاتقان والاطلاع على عبارات القوم وترجم له اليفراني فى الصفوة (2) وذكر أنه من الاولياء المشاهير، وأن كراماته كبيرة، ومناقبه خطيرة الخ.

أبو عبد الله محمد السمعاني 1019

كان الشيخ ابو عبد الله السمعاني من سكان تطوان فى هذا القرن، وقد ترجم له ابو زيد الفاسي فى ابتهاج القلوب بقوله: «ومنهم السيد الفاضل السالم الدين الحسن النية، القاطع للطمع فى المخلوقين، الحاج الابر أبو عبد الله محمد السمعاني التطواني من فقرائه أهل الحزب هنالك، ومن المشهود لهم بالفضيلة المشهورين بالخير والصلاح، توفي سنة تسع عشرة والف .

وذكره القادري فى نشر المثانى (3) وفى التقاط الدرر، ووصفه فيهما بالتطواني وذكر أنه من أصحاب الشيخ أبى المحاسن سيدى يوسف الفاسي ، وأنه من المشهود لهم بالخير (4)

أبو العباس أحمد البربرى 1020

هذا السيد ترجم له أبو زيد الفاسي فى ابتهاج القلوب بقوله : «ومنهم السيد الجليل المشهور السر بواردات الفوائد، الفارغ القلب من شواغل العوائد أبو العباس أحمد البربرى من أهل الاحوال العجيبة، والكشوفات الغريبة، والبصيرة النافذة، والهمة العالية الخ. وترجم له أيضا صاحب ممتع الاسماع (5) وذكر أنه من أعيان أصحاب سيدى يوسف الفاسي وذوى القدم الراسخ فى الطريق، وكان صاحب كشف وفراسة نافذة الخ .

(I) نشر المثانى ج I ص 45.

(2) صفوة من انتشر ص 78

(3) نشر المثانى ج I ص 108.

(4) سبق للقادري نفسه أنه ذكر فى نشر المثانى ص 100 وفى التقاط الدرر أيضا أن وفاته كانت سنة 1015 والله أعلم بالحقيقة

(5) ممتع الاسماع. طبع فاس سنة 1313 ص 182

وترجم له صاحب الصفوة أيضا بما نصه : (I) «ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد البريبري التطاوني ممن له قدم راسخ في الطريق، أخذ عن أبي المحاسن الفاسي وقال فيه سيدي نوار، هو شعلة من شعل نار المحبة وكان ربما كاشف السارق بسرقة فيخرجها من عنده الخ. توفي رحمه الله عام 1020

الشيخ قاسم الحاج

الشيخ قاسم الحاج ذكره الفقيه البركة الشريف سيدي الحسن ابن الشيخ سيدي محمد بن علي بن ريسون (2) في تأليفه المسمى «فتح التأيد» ووصفه بالولي الصالح العابد سيدي قاسم الحاج التطاوني الدار، الاندلسي الاصل، وذكر أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من مدينة تطاون، وأن ولاية الامر كانوا لا يردون شفاعته الخ. وقد توفي رحمه الله بتطوان ودفن في قبة سيدي السعيد ولم نقف على تاريخ وفاته بالتدقيق، وقد قدر شيخنا الرهوني أنها كانت سنة 1020 وأظن أنها كانت قبل ذلك والله أعلم.

سيدي السعيد

يقول العوام في تطوان وفي كثير من أنحاء المغرب، إن سيدي السعيد هو مولى تطوان وسلطانها أي إنه هو صالحها ووليها وحاميها وضامنها كما يقولون في مولاى ادريس إنه مولى فاس وفي سيدي علي بن راشد انه مولى شفشاون الخ وسيدي السعيد هذا بخلاف أولئك الاشخاص، وبخلاف جميع الذين ترجمت لهم في هذا الكتاب، فان أولئك كلهم معروفة أسمائهم وألقابهم وأنسابهم وتواريخ وجودهم، ولهم ذكر في الكتب الصحيحة، فوجودهم محقق لا شك فيه ولا خلاف في أسمائهم وأنسابهم وتواريخهم، أما سيدي السعيد هذا فتاريخه الحقيقي مجهول لدينا تماما، اذ وقع اضطراب في اسمه ونسبه وأصله وكل شيء يتعلق به، بل لا أعرف أحدا من المؤرخين الموثوق بهم ذكر عنه أى شيء صحيح في أى كتاب ما عدا ما هو شائع على السنة العوام، مع أن المؤرخين تكلموا على من عداه من الرجال القدماء بتطوان كما يعلم ذلك من تراجمهم فهذا القائد أبو الحسن المنظري مؤسس تطوان الحديثة، معروف الاسم والنسب

(I) الصفوة ص 80 .

(2) هو الفقيه البركة النسابة الشريف الجليل سيدي الحسن ابن الشيخ الكبير سيدي محمد بن علي بن ريسون دفين تازروت. توفي سيدي الحسن المذكور عام 1055 ودفن داخل باب الفتوح من مدينة فاس.

والتاريخ، وكذلك الشيخ عبد القادر التبين، والشيخ أبو عبد الله الفخار، والشيخ أبو يعلى طلحة الذريح، والشيخ على الفحل، والقاضي الكراسي، والعلماء من أولاد ابن قريش، والمجاهدون من أولاد النقسييس، كلهم عاشوا وماتوا بتطوان ودفنوا بها قبل مآت السنين، وتكلم عليهم المؤرخون، بل نجد في كتب التاريخ والتراجم حتى ذكر عدد من المجاذيب الذين كانوا بتطوان، فلماذا لا نجد لسيدى السعيدى ذكرا في أى كتاب أو تقييد أو أى مؤلف من المؤلفات التي تكلمت على غيره من أولئك العلماء والصالحين والمجاهدين ؟ فان قال قائل، وهذه الزاوية الكبيرة، وهذا الضريح المشهور، وهذه الشهرة العظيمة وتبرك الناس بمقامه ؟ فانا نقول، اما الضريح وزاويته فان الذى بناهما شخص معروف الاسم واللقب والتاريخ، وهو الشيخ قاسم الحاج جد أولاد الحاج الموجودين الى الآن بتطوان والشيخ قاسم المذكور عاش بتطوان فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر، وتوفي ودفن في نفس الزاوية المذكورة، وقبره جنب القبر الذى يقال انه لسيدى السعيدى تحت الدربوز الكبير الذى في وسط القبة أمام المحراب .

وأما هذه الشهرة العامة وقصد الناس وخصوصا النساء لضريحه والتبرك به الخ. فان ذلك لا يكفي لاثبات وجود الشخص، فضلا عن خصوصيته. لاننا نجد لبعض الجمادات من أحجار وعيون وأشجار وغيرها من الشهرة ما يجعل العوام يقصدونها ويتبركون بها وقد يتوسلون الى الله بجأها وحرمتها، بل يتقربون الى الله بخدمتها ... والامر لله.

كيف عرف الناس سيدى السعيدى

قلنا إن سيدى السعيدى لا يعرف على سبيل التحقيق لا اسمه ولا نسبه ولا بلده ولا تاريخه ولا ولا... ولنا اذن أن نسأل من أين عرف الناس أن هناك ولما يقال له سيدى السعيدى - أو - سيدى الصعيدى واشتهر اسمه وقد تواتر خبره حتى نسبت له تطوان وقيل انها بلد سيدى السعيدى وأنه هو مولاهما ووليها وصالحها وضامنها وحاميها الخ. وقد أجاب المؤرخ سكيروج بما يعتبر جوابا عن هذا السؤال، فذكر أن أصل الحكاية أن المحل الذى به الآن ضريح سيدى السعيدى كان خلاء وقد نبت فيه علق، وهو شوك متكتل، وذات يوم دخل كلب الى وسط ذلك الشوك وبال عليه فلم يغادر مكانه الا وهو أعشى فاقد البصر فقال الناس اذ ذاك إنه لابد أن يكون ذلك كرامة لصاحب قبر هناك، ولابد أن يكون صاحب ذلك القبر من الصالحين، وكان قرب ذلك المكان مراح به دواب ومواشي لاحد أولاد الحاج فرأى صاحب ذلك المراح في المنام رجلا قال له اننى

أنا هو الصعيدي فأظهر قبري وأشهره، فبنى عليه وأشهر قبره ودفن هو الى جانبه وجعل هناك دربوز كبير كدربوز مولاي ادريس بفاس... الخ وزاد شيخنا الرهوني أن الذي وقف على الحاج في المنام قال له. أنا الصعيدي علم على قبري ليلا يوذى أحد. فقطع تلك الشجرة التي كانت عليه وأشهره الخ. وما زال كذلك الى الآن .

وكانت الزاوية التي بنيت على ضريح سيدي السعيدى هي المسجد الوحيد في تلك الناحية من مدينة تطوان وهي قريبة من سور البلد، فصار أهل تلك الحومة يصلون بها ويدفنون بها موتاهم ويجمعون بها في أوقات الصلاة وفي المواسم الدينية، وصار الضريح مزارا كبيرة وأشهرت لسيدي السعيدى كرامات فجعلت له أحباس وصار الناس وخصوصا النساء والمرضى وأصحاب الحاجات يقصدون ذلك الضريح بالهدايا والندور، وصار ذلك موردا ماليا للعائلة الحاجية البانية للزاوية والقائمة بشؤونها والتعهدة لمصالحها وأحباسها والمتمتعة بفتوحاتها، ونظرا لان سيدي السعيدى قد اشتهر بأنه هو مولى البلد صار الاتفاقيون يتقدمون الى ضريحه بالزيارة والهدايا ليتقبلهم ضيوفا في بلده، وصار من يرد على تطوان من حج بيت الله الحرام يزور ضريحه أولا ثم يقصد داره بالطبول والغيطات، وربما صحبتته الطوائف بأعلامها واذكارها... ثم صار ذلك الضريح ملاذا لمن يقع منه اجرام، أو يخشى على نفسه من سطوة الحكام... وهكذا سددت على الزاوية وضريحها قداسة نماها الخيال حتى كان لها من الشهرة ما كان.

الترجمون لسيدي السعيدى

لم أقف «كما قلت» على ترجمة صحيحة لسيدي السعيدى، وانما ذكر عنه مؤرخا تطوان أبو محمد سكيرج وأبو العباس الرهوني ما يتناقله العوام من أوصافه وكراماته، وسأثقل هنا ما قالاه عنه بالرغم مما فيه من خلاف واضطراب. اما اسمه فقد ذكر السكيرج أنه محمد، وتبعه الرهوني في ذلك، ولا ادري من أين أخذ السكيرج ذلك، وأما نسبه فقد وقع فيه اضطراب، فبعضهم يقول فيه انه السعيدى - بالسين - نسبة الى بنى سعيد القبيلة الجبلية المشهورة في الجنوب الشرقى لتطوان، وهذه النسبة - أى السعيدى - بالسين، هي الشائعة على السنة الناس بتطوان ونواحيها، وهكذا ذكره أستاذنا الرهوني، اما السكيرج فذكره باسم الصعيدي - بالصاد، وذكر أنه وجد بخط العارف بالله سيدي الحاج علي بركة أنه رجل من أهل الصعيد - يعنى صعيد مصر، وبهذه الصيغة يذكره الاديب الرافعى التطواني في ديوانه .

ونقل الرهوني عن السيد علي الخطيب عن خاله الحاج عبد الوهاب لوقش عن الشيخ عبد القادر بن عجينة أن هذا الرجل لم يكن من أهل الصعيد بل هو من أولاد فزاكة من قبيلة بنى سعيد، كما نقل أيضا عن الخطيب المذكور عن جده الفقيه السيد محمد لوقش أن سيدي السعيد كان من أهل سبتة، وأنه كان يتعبد بجبل رأس الطرف، وهو جبل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال الشرقي لتطوان .

ووصف السكيرج سيدي السعيد بكلام مضطرب هذا نصه : «الولي الصالح المحمود المسير والسيرة العظيم الجاه والقدر الكامل الارادات من زاره حصل مراده له حالة عالية وهمة مرضية وكمال الاحوال صاحب وصال واتصال سيدي محمد الصعيدى رحمه الله بمنه وغفر لنا وله ورحمنا من بعده ءامين له رضي الله عنه كرامات ظاهرة وحجج باهرة منها أنه يجيء بالاسارى من ذلك البر النصارى دمرهم الله سبحانه لبلاد المسلمين.. حكى أن رجلا الخ. ثم حكى حكايات فيها كرامات من النوع الذى يلفت نظر العوام. ثم قال فى آخر كلامه ما نصه : «ولم أقف على حكاية من أين منزله وأين مقره».

وله كرامات

والعوام لا يستطيعون أن يتصوروا الولي الا اذا كانت له كرامات، فسيدي السعيدى - وهو في نظرهم مولى البلد - لابد أن تكون له كرامات، وكراماته لابد أن تكون كبرى. والكرامات أنواع، وأقربها الى اذهان العوام وعقولهم، ما كان له اتصال بحياتهم ومشاكلهم، وكانت تطوان - في العهد الذى اكتشف فيه قبر هذا السيد وبني ضريحه، وهو أوائل القرن الحادى عشر للهجرة - ما تزال بلدا للرباط والجهاد والقرصنة، وكان عدد من المغامرين من سكانها يقع في أسر الكفار، إما فى البر وإما فى البحر، فكان فك أولئك الاسارى من أسرهم وردهم الى أهلهم وبلادهم، من أهم ما تظهر به الكرامات، وهكذا كانت الكرامات التى تنسب لسيدي السعيدى كلها أو جلها من هذا القبيل، والسكيرج بعد أن وصفه بأوصاف أطلق مثلها على غيره من الناس، لم يزد على ذكر كرامات له من هذا النوع، وشيخنا الرهونى قال فيه من منظومته التائية في رجال تطوان :

له المكرمات الغر والعز دأبه فكم أنقذ الاسرى بلطف ومنه

ونقل الرهوني عن السكيرج ما ينسب له من كرامات انقاذ الاسارى من بلاد الكفار وزاد عليه كرامة أخرى نقلها عن كتاب فتح التأييد الذى عاش مؤلفه في عهد اكتشاف السيد المذكور، وهي أيضا مبنية على رؤيا منامية وهمية.

مبالغات

وهذا الشخص الذى قلنا ان كل شىء عنه مجهول حتى اسمه ونسبه والقرن الذى عاش فيه، بالغ بعض العوام فى شأنه حتى قالوا انه أخ للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد نقل ذلك شيخنا الرهوني فى تاريخه ورده وأبطله، وان كان مثل ذلك الهراء لا يحتاج للرد والابطال. وقال آخرون انه أموى النسب من ذرية سيدنا عثمان بن عفان الصحابي الجليل الخ. وكل ذلك فيما نرى من مبالغات العوام وتلفيقاتهم وخرافات الجهال والمضللين.

شخص غير معروف

وبالجملة فان سيدى السعيدى - أو الصعيدى - رجل غير معروف، أو على الاقل غير معروف عندنا، وقد رأيت فى كلام السكيرج المتوفى سنة 1250 أنه لم يقف على معرفة أصله وموطنه، وقال شيخنا الرهوني فى ذلك أيضا ما نصه : وعلى كل حال فهذا السيد الجليل على شهرته وعظيم كراماته لم نجد الى الآن من نص على تاريخ وجوده ولا على نسبه، بل ولا على اسمه على وجه التحقيق، وبودنا لو ظفرنا بذلك - ثم قال الرهوني، ويظهر بحسب القرائن انه لم يكن فى زمن التبين ولا قبله وأنه وجد فيما بعد ذلك بين عمارة البلد فى وقت التبين الى عمارتها فى أيام المنظرى والله اعلم .

والنتيجة فى نظرنا أنه من الممكن أن يكون هناك شخص اسمه سيدى السعيدى - أو - الصعيدى، وأن يكون هذا الشخص من عباد الله الصالحين أو من أكابر الرجال المغمورين، الا أنني متوقف فى شأنه، لاننى لم اقف على من ذكر انه عرف شخصه أو تاريخه أو اجتمع به، ولم يترجم له ترجمة صحيحة أى واحد من رجال العلم او التأليف أو التراجم ما عدا السكيرج والرهوني اللذين تكلمتا عليه كلاما مبنيًا على اشاعات عامية وكرامات خيالية ومرائى منامية وهما نفسهما كما رأيت قد صرحا بأنهما لم يقفا على مصدر صحيح يعرف منه على سبيل التحقيق اسمه أو وصفه أو نسبه أو بلده او تاريخه... واني اتمنى ان اقف فيما بعد على ما يزيل هذا التوقف ويحصل به اليقين، والعلم لله العلي الكبير .

أبو الحسن علي البجاني الاندلسي التطواني

كان هذا السيد من أصحاب الشيخ أبي المحاسن الفاسي في تطوان، وقد ترجم له صاحب ابتهاج القلوب بقوله : «ومنهم السيد الفاضل الصالح أبو الحسن علي البجاني الاندلسي ثم التطواني من فقرائه أهل الحزب بتطاون والجادين في خدمته وشدة الانتساب اليه والتعلق به وأهل المحبة الصادقة، توفي هنالك في حدود العشرين والالف»

أبو علي الحسن الحايك

كان هذا السيد أيضا من أصحاب الشيخ أبي المحاسن الفاسي بتطاون وقد ترجم له أبو زيد الفاسي في ابتهاج القلوب بقوله «ومنهم السيد الناسك الصالح أبو علي الحسن الحايك من أهل الحزب التطواني ومن أهل الجد والاجتهاد وصدق الخدمة والمحبة وخلوص النية، وقفت على كتاب منه الى جماعة أصحابه أهل الحزب التطواني رضى الله عنهم ونفعنا ببركتهم بخط الشيخ أبي محمد عبد الرحمن (I) ونصه :

«السيدان الفاضلان الفقيه الصوفي سيدي احمد بن يوسف الزياتي والعارف بالله سيدي محمد نوار نفعكم الله ونفع بكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته هذا وموجبه اليكم حفظكم الله، إعلامكم بما اتفق لنا بعد الانفصال عنكم بقصد زيارة الشيخ الكامل سيدي يوسف الفاسي رضى الله عنه ونفع به ومن على الجميع برضاه، فاعلموا علمكم الله بأننا يوم الانفصال عنكم صلينا المغرب بفج الفرس في رأس العقبة وكان القصد المبيت في منتهى العقبة عند الدردارة بالوادي الذي هنالك، ثم انه من بركة الشيخ رمى الله علينا ستة من الناس معروفين لنا فذهبنا معهم وجددنا المسير الى أن وقع المبيت في الماء الحائل حيث صلينا العصر السفرة الاخرى في نعمة شاملة لنا ولدوابنا والحمد لله ، وبعد أن صلينا الصبح ثمة ذهبنا الى الثلاثاء لنلتمس خبر الشيخ رضى الله عنه، فوجدنا من الخبر أنه كان عند سيدي أبي هدين، وبعد ذلك خرجنا الى طرف السوق فلقي سيدي الحسن الحايك رجلا فريدا في وقت الضحى فسأله عن الشيخ فقال له سيدي يوسف نزل في أخفشا وخرج القصريون يتلقونه وكان نزول الشيخ في أخفشا وخروج القصريين للقاءه في ذلك الوقت نفسه من ذلك

(I) يعني الشيخ أبا زيد عبد الرحمن العارف الفاسي أخا الشيخ أبي المحاسن الفاسي .

اليوم، ثم إنا ذهبنا من هنالك وكان المبيت بالخيمة في نعمة كما تعلمون، ثم من الغد رحلنا غدوة قاصدين القصر فوصلناه قبل الظهر وبعثنا سيدي محمد السمعاني بعد نزولنا بالسانية ليشتري لنا ما نحتاج اليه من الشعير ويلتصم لنا الصحة في خبر الشيخ، فإذا به راجع في الحين هو والمعلم أحمد ابن عمنا مستبشرين بأن الشيخ في القصر، فقرب الله البعد والحمد لله، وصلينا الظهر وسرنا اليه الى الدار حتى اذا صلينا العصر معه وجلس للميعاد والناس متوافرون فقصصنا عليه خبر الرجل الفريد الذي كان لقينا بطرف السوق على ما أسلفنا من القصة فقال الشيخ صدق الرجل، وإن هذا لمن خرق العادة والمعتاد، وتساوى القرب في المكان والزمان مع البعاد، وهذا يعرفه أهله، ولا يتعدى لغيرهم علمه. ثم أخبرناه خبركم وألقينا اليه العذر في تخلفكم، فصرح بقبول المذرة، ثم إنا ذكرنا له ما أشار به علينا سيدي علي الجعدي بمن أن اللائق أن نكون نحن الذين تسببنا في خروجه اليها، بأن نذهب اليه في موضعه بهذا القصد، وأن لا نأخذه من يد غيرنا أو كلاما يقرب من هذا، فذكر رضي الله عنه أن نحو من هذا كان من وأن يكون لما اردتم وقت غير هذا صالح به وبكم يخصكم ولا يتجاوزكم على أنه قد كان رضي الله عنه وصي حيث كان عند سيدي ابي مدين لرجل كان هنالك مسافرا الى بدم أن يسكنكم عن القدوم في هذا الوقت ويهدن روعتكم شفقة منه عليكم .

ومما اتفق أيضا أن رجلا من أصحابنا القصريين توفي ليلة البارحة من يوم قدوم الشيخ للقصر، وكان دفنه يوم قدوم الشيخ فكان من صدق نيته فيه أن حضر الشيخ لدفنه ووقف على قبره ساعة حلولة برمسه، وهذا ما حضرنا إعلامكم به بتقريب، وإنما يقع الشفاء عند اللقاء ان شاء الله وكتب محبتكم في الله ولاجل الله عبد الرحمن بن محمد الفاسي منصتا فيما أخبرتكم به لسيدي الحسن الحايك ومسعفا لمراذه بعد استيذانه للشيخ في ذلك. سلامنا على الولي الصالح سيدي علي الجعدي رضي الله عنه ونفعنا به وعلى أخينا سيدي أحمد البريبري، وعلى أخينا سيدي علي البجاني وعلى كافة الاصحاب والاحباب، ونحن مفتقرون الى التصديق علينا بدعوة خير منكم، فله الا ما أتحدثمونا بذلك والسلام عليكم والرحمة والبركة .

فما صلة بأفضل من كتاب
أقدامهم فوق الجباه
في ذكرهم عز وجاه
إذا الاحباب فاتهم التلاقي
لي سادة من عزهم
إن لم أكن منهم فلي
والسلام والتحيات والاكرام. انتهى من خطه. هـ.
ولم يذكر تاريخ وفاة المترجم رحمه الله .

أبو الحجاج يوسف بن يامون التيال 1024

هذا الشيخ كان بتطوان أيضا في هذا القرن وقد توفي ودفن بها وقبره معروف وقد ترجم له أبو زيد الفاسي في ابتهاج القلوب بقوله «ومنهم السيد الجليل المنور المستعمل في مرضاة ربه باتباع المأمورات، واجتناب المنهيات، واتباع نوافل الخيرات، أبو الحجاج يوسف بن يامون التليدي المعروف بالتيال من أهل الاحوال والتصريف والفقه والمعرفة وصون السر عن الاستيناس بجنسه حج وصحب الشيخ - يعني الشيخ أبا المحاسن الفاسي - وكان صاحب حال، ثم ذكر له كرامة وقال عقب ذلك، توفي رحمه الله بتطوان يوم الخميس سابع ربيع الاول سنة أربع وعشرين والف ودفن يوم الجمعة بجوار سيدي السعيد رحمه الله. كذا قيده صاحب المرأة بخطه .

وترجم له أيضا صاحب الصفوة (1) ووصفه بالشيخ العابد وذكر أنه ممن شارك في العلم، وله جد واجتهاد في العبادات، وذكر له كرامات الخ. وترجم له أيضا صاحب نشر المثاني (2) وقال فيه : «له حال صحيح وقدم في العبادة والدين الخ. وذكره أيضا صاحب التقاط الدرر ووصفه بالفقيه الصالح الخ. وذكر شيخنا الرهوني أن قبره في بيت صغير عن يسار الداخل لصحن المسجد الذي به زاوية سيدي السعيد وهو الواقع تحت الصومعة وأنه يعرف عند الناس بسيدي ميمون رحمه الله .

ومن المعلوم أن هذا الشيخ هو غير الشيخ سيدي يوسف التليدي المشهور دفن قبيلة الاخماس عن غير عقب عام 948 . وبمناسبة ذكر هذا الشيخ، يجمل بي أن أنبه الى خطأ وقع فيه أستاذنا الرهوني اذ أنه ذكر في نسبه انه يوسف بن الحسن بن عبد الله بن عبد العزيز الى سيدنا علي بن ابي طالب، والصواب ان السلسلة المذكورة، أولها لشيخوخه في الطريق الصوفية، فعبد الله هو الغزواني، وعبد العزيز هو التباع الخ. وآخرها لاجداد الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب «دلائل الخيرات» وقد نبه على ذلك الشيخ المهدي الفاسي في كتابه ممتع الاسماع (3) .

(1) الصفوة ص 16

(2) نشر المثاني ج I ص 127 .

(3) ممتع الاسماع ص 77

الشيخ أبو الحسن علي المصيمدي 1031

الشيخ سيدي علي المصيمدي - والعوام بتطوان يقولون المسيندي - وصفه شيخنا الرهوني بقوله، هو الولي الصالح النور الواضح أبو الحسن سيدي علي المصيمدي كان رحمه الله من أهل الخير والصلاح، والولاية والفلاح، أخذ عن الجعيدى وتلمذ له وعلى يديه تخرج الخ. وذكر اليفراني فى الصفوة (1) أنه أخذ عن الشيخ أبي الحسن الجعيدى وأنه توفي قبل سنة 1031. وترجم له القادرى فى التقاط الدرر وفي نشر المثانى (2) ووصفه بالولى الصالح، وذكر أن وفاته كانت فى العام المذكور. وهذا الشيخ هو الذى بنى الجامع المشهور باسمه فى شارع النيارين من حومة الطرنكات، وكانت وفاته ومدفنه بتطوان، وفي أعلى مقابرها قبة تعرف بقبة سيدي المصيمدي ولعل قبره بها والله أعلم.

الشيخ أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدى 1032

الشيخ الجليل أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدى، هو صاحب الضريح المشهور بحومة العيون، وقد قال فيه الشيخ أبو العباس بن عجيبة رحمه الله ما نصه: «الشيخ الصالح الكامل الورع الزاهد القطب الربانى، مربى السالكين، وقدوة المحققين سيدي علي بن مسعود الجعيدى. كان رضي الله عنه ورعا زاهدا عارفا سالكا للطريقة، جامعا بين الشريعة والحقيقة، حاملا لواء الولاية فى زمانه، وحائزا لرتبة القطبانية فى أوانه... الى أن قال: «له رضي الله عنه مناقب عديدة ومآثر شهيدة، وشهرته أعظم من أن تذكر، وأشهر من أن تشهر، وقيام نظام زاويته، وازدحام الناس على ضريحه، وتوقير من لاذ بجنابه، شاهد بصحة مقامه، مع ما يلحقه من الثواب العظيم الدائم بعد موته، بسبب مسجده الجامع الذى أسسه وبناه، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فمنذ بناءه وهو يزداد عمارة وتنويراً؛ فما يذهب عالم حتى يأتى الله بآخر مكانه، فكم درس فيه من العلوم، وكم قرئ فيه من القرآن، وكم وقعت فيه من أنواع العبادات، وكم أوى اليه من الغرباء والمساكين، وكل ذلك فى صحيفة الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به... الى أن قال، ومناقب هذا الشيخ لم تدون، فلذلك اضمحل أكثرها، وإنما بقيت تذكير على ألسنة الناس».

(1) الصفوة ص 78

(2) نشر المثانى ج I ص 140 .

وقال فيه أستاذنا الرهونى رحمه الله «هو الولي الكبير، صاحب الصيت الشهير، والخير الكثير، والكرامات الظاهرة، والخوارق الباهرة، شيخ المريدين، ومنار السالكين، سيدى علي بن مسعود ... وقد ذكر له عدة كرامات ينظرها فيه من يهمله ذلك. ثم قال، ولا زلنا نسمع أن هذا السيد الجليل أدرك مقام القطبانية، وتأييده الآقية ان شاء الله تدل على ذلك».

ثم ذكر ابن عجيبة أن طريقة الشيخ الجعيدى شاذلية، وأنه أخذ عن شيخه سيدى منصور بن عبد المنعم الصنهاجي عن الشيخ يوسف التليدى عن الشيخ عبد الله الغزوانى عن الشيخ عبد العزيز التباع عن الجزولى صاحب دلائل الخيرات، بسنده الصوفي المعلوم المتصل بالشيخ أبى الحسن الشاذلى رحمه الله. والتائىة التي أشار اليها أستاذنا الرهونى رحمه الله، هي قصيدة بل منظومة تائىة على نمط كلام الشيوخ الكبار الذين يتحدثون عن مقاماتهم وما يشعرون به من نعم لله عليهم، وهي على وتيرة تائىة الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ أبى العباس أحمد زروق وأمثالهما، إلا أن فى تائىة الشيخ الجعيدى رحمه الله اخلا بالوزن وبعض مخالفة لقواعد الفصحى، وهي على العموم أقل مقاما من ناحية البلاغة وغيرها والكمال لله. وعدد أبياتها خمسون، وهذا نصها الكامل حسبما في شرحها (I) الذى ألفه الشيخ الصوفي الكبير أبو العباس أحمد ابن عجيبة رحمه الله، وقد قال فى أول هذا الشرح ما نصه : «وقد تعاطاها (أى التائىة) الجهال فصحفوا فيها كثيرا من الابيات، فلذلك تجد فيها بعض الابيات لا يستقيم وزنه لاجل التحريف الذى وقع فيها الخ .

تائىة الشيخ الجعيدى

على نعم لا تحصي جلّت ودقت
على من به الاملاك والرسل طافت
أمدنا بالاسرار من كل جبهة
وجمع طرق السالكين فى قبضتى
وهمتنا تعلو على كل همة
وأظفرت تحقيقا بأسنى الولاية
عليك سلام الله يا خير أمة
ولى الملك والتصريف فى كل ساعة

بدأت ببسم الله من بعد حمده
وثم صلاة الله تترى مؤبدا
فان إله العرش جل جلاله
فمن حضرة التقريب كان مدادنا
وكل علوم الله طرا سلكتها
وسرت الى أعلى مقام أولي النهى
ونادتني الاقطاب من كل جانب
وأوتاد اكل الارض من تحت حكمنا

(I) قد اصلح شيخنا الرهونى عددا من ألفاظ هذه التائىة فى تاريخه ، ولكننا آثرنا على ذلك الاصلاح، إثباتها كما هي فى نسخة ابن عجيبة، والمظنون أنها كذلك صدرت من ناظمها والله أعلم .

والاقطاب والابدال لاذوا ببابنا
 وكل ولي خاضع لمقامنا
 أقروا بأن الملك في سر غيبنا
 أناخوا لنا الارواح عزا لملكنا
 وخدمتهم لكي ينالوا بحبنا
 ومن بحرنا تسقى الانام بجمعهم
 ولي سطوة في الارض جوا وقبلة
 ونارت لي الاقطار شرقا ومغربا
 ولو أننى أفشيت من بعض سرنا
 وأبصرت غيب الغيب عينا بعيننا
 وما كان قبل القبل هو في علمنا
 وأمرى به الاشياء ان قلت كن يكن
 فلي الحكم في الاشياء والحكم حكمنا
 مريدى لا تخشى فأنت في حفظنا
 فأنت في حفظى يا مريدى لا تخف
 وحصنا حصينا دائما متأبدا
 لقد مدنى المولى بأفضل نعمة
 ومن علي الله أعظم منة
 كذا العرش والكرسى واللوح والعلا
 وقال لي المولى تقدم ولا تخشى
 اليك اجتبيننا والانام بمعزل
 أعطيناك أحبيناك خطة مرسل
 مكين لدينا أنت في بحر حبنا
 ومن خاض بحر الحب كان له يد
 عنايتك العليا على كل من له
 لكم عندنا أعلى المقام حقيقة
 محب ومحبوب تقدم ولا تخف
 الى سدره مقام غيرك في الورى
 تقدم ولا تخشى فأنت في حفظنا
 علي لدينا فى العلا تطلب العلا
 أبا حسن حزت المحاسن كلها
 وحسنتك الاخلاق بالحسن والبها

والاجراس والافراد تحت حمايتي
 وأهل بساط الله عند إمارتى
 وأولاد كل الحى هم لي فتيتي
 وكل الانام خاضعين لسطوتى
 شرفا وتنعيما وعيشا بعزة
 وكل محب ءأخذ فى مودتى
 على كل مخلوق تلوح عنايتى
 ومن وجدنا في الكون ياتى بخيرتي
 لاهل وداد الله ذاقوا المنية
 وكل الذى في الكائنات افي لحظة
 بنور جلال الله نارت بصيرتى
 وفى نظرة منا بلا قول كانت
 وسرت الى الاسرار سرا بحجتي
 عليك أمان الله من كل فتنة
 نجوت من الاهوال فزت برحمة
 وسترا جميلا لا تخف من عقوبة
 وسخر لى الاشياء في كل نظرة
 وأمرى بها الاحكام تجرى بسرعة
 وما فى تخوم التحت عند اشارتى
 مقامك محمود تنعم بحضرتي
 ودعوتكم تسمو على كل دعوة
 صفى نجى للانام ذخيرة
 تقدم وكل الخلق حلوا بساحة
 وأمر وتصريف فى جمع الخليقة
 بحضرتنا قرب من أهل المحبة
 دنوت الينا بالتقرب قربتى
 وفى حضرة التقديس قدست صفوتى
 وفى قاب قوسين تنعم بنظرة
 أمناك لا تجزع بعين وقايتي
 رفعتك قدرا ثم هبتك خلتي
 بلا شركة فيها وغير ازدحامه
 ونلت لدينا بالتقرب شربتى

فنعلم المريد والمراد صفينا
شفاعتك عمت جميع أهل عصرك
وفى يوم عرض الخلق تعطى شفاعته
وعند ازدحام الخلق فى يوم حشرنا
وكل مريد فى حماك اعتصامه
ولو أن أهل الارض فى علم علمنا
وكل جليس أو محب بنظرة
ولو كان فى البيداء شرقا ومغربا
ومن لاذ بك فى الانام حفظته
ومن جاءنا يشفع بجاهك عندنا
ونسبتنا لابن النعيم وسيلة
والغزوانى والحرار نلت به المنا
وشيخ الشيوخ والذى جاء بعده
وعلم علي والذى كان قبله
عليه سلام الله يترى مؤبدا
وثم الرضى عن كل من جاء بعده

عليك سلام الله من لدن عزتى
ومن جاء بعد البعد فاز برحمة
وجاهك هو الجاه عند المساقاة
تفوز لدينا بعظيم الشفاعة
له عندنا البشرى ولم يخش قهرتى
تحبك صدقا لم يخافوا المعرة
بحبك أحبيناه من كل فرقة
وجوفا وقبله ينال السعادة
وأمنته أمنا من كل مصيبة
فمن حينه يظفر بكل إرادة
والشيخ التليدى هو نعم الوسيلة
وشيخهم الرفع هم لى عدتى
من أسلافهم والتابعين الارائة
محمد المختار خير البرية
وءاله والاصحاب نعم الاحبة
وتابعيهم بالخير أهل الهداية

وهذه التائية - كما قلنا - قد شرحها الشيخ العلامة العارف بالله أبو
العباس أحمد بن عجيبة شرحا وقفت عليه مخطوطا وفى خزانتى «الداودية»
نسخة منه، وقد نقل منه أستاذنا الرهونى فوائده أثبتتها فى ترجمة هذا الشيخ
رحم الله الجميع .

ثم إن الذى لا يعرف مصطلحات الصوفية ولم يتعود سماع كلامهم، يتعجب
من تصريحات هذا الشيخ وأضرابه وما ينسبونه لانفسهم من مقامات وتصرفات
ويتوقف عند سماع كل كلام ينافى ظاهره التوحيد الخالص وانفراد الله تعالى
بخلق الخلق وتدبير شؤونهم وإثابة المطيعين وعقاب العصاة الخ. وللناس فى
مثل هذه المواقف، أنظار ومذاهب، فبعضهم يسلم ذلك تسليما تاما، مطلقا عاما
ويؤولون كل ما كان من هذا القبيل بما لا ينافى الشريعة والتوحيد، ولا يصطدم
بكتاب الله وسنة رسول الله، ومن هؤلاء الشيخ ابن عجيبة الذى قال فى شرح
التائية المذكورة ما نصه : «اعلم أن كلام الشيخ فى هذه الابيات هو مترجم فيه
عن لسان الحقيقة، ولم يقله بمجرد الهوى والنفس، فالعارف ليس له عن نفسه
إخبار، ولا مع غير الله قرار، فإن أخبر عن نفسه بشيء من مدح أو غيره فليس
هو المخبر ولا المترجم، وانما الحق سبحانه يجرى ذلك عليه إظهارا للنعمة
وشكرا للمنة، والله ذو الفضل العظيم» .

وهناك طبقة أخرى تنتمي للعلم والبحث وتري أنها هي الحامية للشريعة المطهرة، فتتكبر كل كلام من هذا القبيل، ولا تقبل من أى مسلم الا الكلام الصريح الذى لا ينافى الكتاب والسنة، لا ظاهرا ولا باطنا، وهو كلام معقول وغيره محمود على الشريعة المحمدية، الا أن بعضهم لا يقف عند هذا الحد، بل يصف أصحاب تلك التصريحات إما بالشرك واما بالكذب والتدجيل، لا يفرق فى ذلك بين الصادق والكاذب، ولا بين المخلص والمخادع، وقد تجد من بين هذه الطبقة من يهرف بما لا يعرف، ويبالغ مبالغات لا يقرها شرع ولا علم ولا إخلاص ولا انصاف، كما تجد من بين المدعين للتصوف أشخاصا لا علم لهم ولا معرفة، وكل أمرهم أنهم يتمشدقون بعبارات غامضة لا معنى لها، ويدعون دعاوى طويلة عريضة لا حظ لهم فى مدلولها، وأعمالهم وأقوالهم كلها تمويه وتدجيل واستغلال لأصحاب النية الحسنة، وللمغفلين المغرورين، كل هذا كان قى الماضى وربما كان موجودا فى الحاضر أيضا. وهناك طبقة أخرى تقف موقفا وسطا (وخير الامور أوسطها)، ويقول الناطق بلسانها : ما دامت للقوم اصطلاحات واشارات خاصة، وما دمت لا أفهم هذه الاصطلاحات والاشارات ولا أتذوقها، وعلمى وثقافتى ومعرفتى لا تسمح لى بقبول هذه العبارات والمبالغات ولا تستسيغها، فانى لا أستطيع تسليم ذلك لكل من يدعيه، لان فى الناس كذابين ودجالين، وفى الحين نفسه لا أنكره إنكارا مطلقا، لان فى الناس أيضا صادقين مخلصين ولانا نجد رجالا من عظماء الاسلام وشيوخا من أهل العلم الصحيح، والدين المتين، والعقيدة السالمة، والمشاركة الكاملة والنباهة الخارقة، يقبلون مثل تلك الاقوال ويقولون بها ويسلمونها للمخلصين الصادقين من أهلها، ولا أظن حقائق الاشخاص تخفى على الباحثين المنصفين، فمن كان من الشيوخ مومنا بالله، ممتثلا لأوامره، مجتنباً لنواهيه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويرشد الخلق للدين القويم، وينتشل العصاة من بحار الآثام، ويدفع بهم الى ميادين الحسنات وفضائل الاعمال، ويقف فى أعماله وأحواله مع الكتاب والسنة، فهذا هو ولى الله «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون» ومن كان هذا حاله فالشأن فيه أنه لا يكذب ولا يقول عن نفسه او غيره الا ما يعتقد حقا، أو يحس به صدقا، خصوصا اذا عرفنا ان لكل فئة اصطلاحات وعبارات واشارات لا يفهمها الا أربابها، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها .

اما من كان همه هو الاستغلال، وخدمة المصالح الخاصة وجمع الاموال، والتمتع بأنواع الملذات الحسية والمعنوية، فكلامه هراء، وادعاءاته هباء، «فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض» صدق الله العظيم .
والله سبحانه يلهمنا الصواب فى أقوالنا وأفعالنا ومواقفنا.

ولنرجع الى الشيخ أبى الحسن الجعيدى رحمه الله فنقول، انه قد ترجم له أيضا أبو زيد الفاسى فى ابتهاج القلوب، ووصفه بالشيخ الولى الصالح النخ. وذكره أيضا اليفرانى فى الصفوة ولكنه لم يصفه بالاوصاف التى يحلى بها الاولياء والصالحين ونص كلامه، (I) «ومنهم الشيخ أبو الحسن على الجعيدى بصيغة التصغير دفين تطوان وقبره بها شهير، أخذ عن سيدى يوسف التليدى ثم انتسب بعده الى أبى المحاسن الفاسى وانضاف لاصحابه فلما بنى أبو المحاسن مسجده المعروف بالعيون، انقبض أبو الحسن عن مخالطة أبى المحاسن، وقد أشار سيدى يوسف الفاسى لضلاله فى كتابه لسيدى محمد نوار وأنه لم يخف عليه أمره، وقد وقفت على قصيدة رثاه بها سيدى العربى الفاسى بعد وفاته تدل على فضيلته وأن له قدما فى الطريق النخ.

«قلت» القصيدة التى ذكرها صاحب الصفوة، قد أثبتها أبو زيد الفاسى فى ابتهاج القلوب بعد أن ذكر أنه لما توفي أبو الحسن الجعيدى رثاه الشيخ أبو عبد الله محمد العربى الفاسى بأبيات النخ ونصها :

أبدا وجنات القلوب نار
قد صار ليلا فى ضحاه نهار
قد نال بدر الفقر منه سرار
أو أى قلب ليس فيه أوار
قد هدى السلاك والسيار
سطعت لهم فى أفقها الانوار
شهدت بصحة ثقلها الآثار
فى الصالحات وذكره المعطار
فى غيرها ايراد او اصدار
ه الموت جاء له اليه بدار
تسمو الى آجالها الاعمار
حتى استقرت بالجميع الدار
طال المقام بها والاستقرار
هو الرحيل الحث والتسيار
يجذيك واهما والاحبة ساروا
هذى بها نار وذى أمطار
جزع له لابيضت الابصار
حصن منيع حبذا الصبار

أما الدموع فانهن غزار
والافق معترك الظلام كأنما
أودى به الشيخ الجعيدى الذى
أودى فأية مقله لم تبكه
شيخ المريدين الذى بسلوكه
وروى الطريقة مسندا عن جلة
وله المئثر والمكارم والعلا
يمضى الزمان وما تقضى ماله
عمر بالطاعات عمرا ماله
زاد على المائة السنين واذا دعا
وسما الى أجل مسمى هكذا
ومضى كمن من قبله أيضا مضوا
هذى هى الدنيا فلا يغرك أن
نفس الاقامة ان تدبرت هنا
واها لايام مضت واهما وما
تذكر القلوب مع العيون كأنها
هذا ولو رد فقيدا قبله
لكن الى الصبر الرجوع فانه

فيما قضاه الواحد القهار
تسلك ففيها للسلوك منار
في جنة طاب بها استقرار
دنيا وأخرى المصطفى المختار
ما أنشدت في فاضل أشعار

وأحق حال للعبيد هو الرضى
أوليس ذى هى طريق الشيخ فـ
والله يتحفه الرضى من فضله
حيث المشائخ قبله وإمامهم
صلى عليه مسلما رب العلى

وهذه القصيدة أنشدها ناظمها بتطوان لما حضر جنازة هذا الشيخ بها
وقد وقفت على نسخة أصلح فيها ناظمها بخطه، قوله، أودى به الشيخ الجعدي الخ
فجعل مكانه قوله، أودى بها الشيخ الرضى العلم الذى الخ. ثم ضرب على قوله:
زاد على المائة السنين البيت .

وذكر أبو محمد السكيرج أن المترجم رحمه الله عاش مائة وعشرين سنة وتوفي
بعد إكمال جامعه بعامين وكان تمام بناء الجامع المذكور سنة ثلاثين وألف.
وفي ابتهاج القلوب لأبى زيد الفاسي، والتقاط الدرر للقادري، والصفوة لليفراني
أن وفاته كانت سنة ثلاث وثلاثين وألف، والذي وجدته بكناشا الفقيه الشريف
سيدي التهامي بن رحون أنه توفي ليلة الجمعة 12 ربيع الأول سنة 1032 ومثله في
شرح الشيخ ابن عجيبة لمنظومته التائية السالفة. وقد دفن رحمه الله ورضى عنه
بزاويته الخاصة قرب جامعه الكبير بحومة العيون. وقد ذكر شيخنا الرهوني
في كتابه «عمدة الراوين» أنه وقف على قصيدة في مدح المترجم والتوسل به
إلى الله تعالى ومطلعها :

وفاضت دموع العين كالسيل والقطر

تلظى الحشا من لوعة الحب والهجر
ومنها عند التخلص لمدحه :

إلى أن رأيت النور يبدو من القبر
أباً حسن حاوى المفاجر والسر
يراعى حقوق الله في السر والجهر
سليل كرام الناس حقا بلا نكر
حليم حيي معدن الفضل والبشر
زكي رضى لا يمل من الذكر
هو السيد الممدوح بالنظم والنثر

فما زالت الاحزان تغدو بمهجتي
ضريح إمام الصالحين حقيقة
يميل ولكن للسيادة والهدى
غزير الندى شمس الديانة والعلی
جليل كريم سيد متواضع
يبیت الى الرحمن فى الليل راكعا
هو السيد المعروف بالنسك والرضى

البي آخرها وهى قصيدة طويلة

ووقفت في ديوان الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني
المتوفي في أوائل القرن الثاني عشر ، علي قصيدة أخرى في التوسل إلى الله
بالمترجم أيضا ومطلعها :

إلهي إلهي أنلني المنى وكن لي مجيرا بهذا الولي

وأبياتها اثني عشر

والمترجم رحمه الله لم يسلم من خصوم سياسيين معاصرين ينسبون إليه أشياء
لا تتفق مع ما يصفه به المعتقدون لصلاحه وخصوصيته، ففي الكتاب الذي اسمه
«تاريخ الدولة السعودية (I) عند الكلام على دولة الشيخ السعدي الذي بويع عام
1012 ما نصه : «لما انهزم مولاي زيدان وتخلي عن المغرب، ارتحل مولاي الشيخ
من جبال الريف وسار إلى أن نزل على مدينة تطاون ولقيه أهل الفحص على
يدى الجعيدى كان أهل الفحص يثقون به ويعتقدون صلاحه، فبعث إليه مولاي
الشيخ فاتاه وأعطاه الأموال الجزيلة ، والذخائر الجليلة ، وأرسله إلى أهل الفحص
قأذن لهم الجعيدى أن يدخلوا بيده ويطيعوه وقال لهم لا بد أن ينشر أعلامه بمصر
ويبقى في الملك أربعين سنة وكان رجلا كذابا فدخلوا بيده وأطاعوه وخدموه
وأعطاهم أموالا كثيرة ونادى بالصلاح مع النصارى أربعين سنة» وقد كتب شيخنا
الرهوني بخطه في نسختي من الكتاب المذكور تعليقا على قوله ، وكان رجلا كذابا،
ما نصه : «حاشاه رضى الله عنه، فانه ولي كبير بلغ القطبانية ، ولعل هذا
مدسوس عليه على عادة أهل الله »

«قلت» وضريح الشيخ سيدى على بن مسعود رحمه الله ما زال قائما محفوظا
تقام بزاويته الصلوات، ويقرأ فيه القرآن ويزوره الناس ويتبركون به ، ومسجده
الجامع القريب منه من أعظم مساجد تطوان، تقام به الصلوات الخمس والجمعة،
وتدرس به العلوم، وقد لبثت أدرس به مختلف العلوم كتلميذ على شيخنا أبي
العباس الرهوني رحمه الله ثمانية أعوام متصلة بدون انقطاع من سنة 1331، إلى
أواخر سنة 1338. وعائلة الشيخ الجعيدى في حكم المنقرضة بتطوان، إذ لم يبق
منها في تاريخنا هذا الذي هو عام 1374. إلا فرد واحد مصاب في عقله وهو
الحسن الجعيدى (2) ولا زوجة له ولا أولاد والبقاء والدوام لله سبحانه .

(I) تاريخ الدولة السعودية ص 94 طبعة الرباط سنة 1353

(2) ثم توفي الحسن المذكور بتطوان عن غير عقب يوم الثلاثاء 21 رجب
1376 هـ. 21 فبراير 1957 م. وبموته انقرضت هذه العائلة من هذه المدينة، وهي
موجودة بسلا والرباط، وعهدى بها في فاس أيضا.

ابو الحسن علي ابن الزبير السجلماسي 1035

هذا الشيخ ترجم له القادري في نشر المثاني بقوله (I) : «ومنهم الفقيه سيدي علي بن الزبير السجلماسي ، فقيه مشارك علامة فهامة امام النحاة ، سمع عن جماعة من أهل وقته ، وعن أبي زيد اعراب المكناسي ، وسمع التفسير والحديث والاحياء للغزالي من العارف ابي محمد عبد الرحمن الفاسي ولازمه سنين ، واخذ عنه جماعات من أهل وقته ، منهم الشيخ ابو محمد عبد القادر الفاسي »

وذكر غير القادري ان المترجم هو عمدة شيخ الشيوخ سيدي عبد القادر الفاسي في علم النحو .

وقد كان هذا السيد مقيما بتطوان ومدرسا بها ، ووجدت بخط بعض معاصريه ما نصه (2) : «ومن خط أبي الحسن علي ابن الزبير ونظمه حيث وقع ما وقع بكرسي اقرائه بتطوان :

لما رءا الكرسي ما ناله	من فاسق ينمي الى عافية
استنجد الابطال كي يغسلوا	أدرائه بالماء في الساقية
فعند ذا شمر أثوابه	ليسهل التطهير في الجابية
عاقبه المولى بمن أمه	تدعي بفاس ... الزانية
لكنه يشكو الى ربه	يرفعه عنه الى الهاوية
ذاك الخبيث النذل ذاك الذي	قد أنكر الاحسان من طانية (3)
تعسا له والويل يعتاده	في كل يوم لا يرى عافية

وله أيضا (غفر الله) في مليح بتطوان :

ملك القلوب وهدا بلحاظه	ظبي يكاد من اللطافة يعقد
ءالت على العشاق ان هم يشتكروا	لا أغمدت وعلى البسيطة مكمد
من قاسه بالبدر فانبذ وصفه	هيهات ما في البدر وصف يحمد
البدر لا تلفيه الا ليلة	ولانت طول الدهر بذرا توجد
اين اللما في البدر والشعر الذي	عذبت مرأشفه وأين المقعد
يا قاسما أغمض جفونك مالها	تسبى الحشا من عاشق لا يرقد

(I) نشر المثاني ج I ص 149

(2) من مجموع قديم في الخزانة الكتانية بفاس .

(3) طانية هو الفقيه قاضي تطوان أبو العباس احمد بن محمد طانية وكان من أصحاب أبي حامد الفاسي وناظم هذه الابيات .

وارفع لواء الحسن في تطواننا
قسماً بما تحوى الخدود من البها
وكذا بما تحت القميص مخبأ
وملاحها أضحت لوجهك تسجد
ما أنت في الخشفين الا أوحده
ما أنت للعشاق الا معبد
ولم أقف على تاريخ قدومه لتطوان وارتحاله عنها ولا على مدة اقامته بها. أما وفاته فكانت سنة 1035 كما ذكره القادري في نشر المثاني.

أبو عبد الله محمد مخشان 1042

هذا السيد ترجم له صاحب الصفوة بقوله : (I)
«ومنهم الفقيه الصوفي أبو عبد الله محمد بن محمد مخشان كان خيراً ديناً، له معرفة بالنحو والبيان والمنطق، أصله من شفشاون، ثم استوطن تطوان ودرس بها، وكان يدرس التفسير وادركته المنية في قوله تعالى: و«آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. توفي رحمه الله فجأة وهو ساجد في صلاة الفجر عام اثنين وأربعين والف»

العلامة سيدي العربي بن يوسف الفاسي 1052

هو العلامة المحقق المشارك سيدي العربي ابن الشيخ الكبير ابي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، وهو مؤلف كتاب «مرآة المحاسن» وغيره من الكتب المفيدة. وقد ترجم له صاحب الصفوة (2) ووصفه بأنه آخر علماء المغرب في تحرير المسائل الغامضة، وايضاح الابحاث المشككة، وذكر انه لما ورد تأليفه المسمى «سهم الاصابة، في حكم طابة» على فاس وهو اذ ذاك بتطوان، تصفحه الامام ابن عاشر فقال سبحانه الله، الناس يدورون على العلم، والعلم يدور على سيدي العربي الفاسي. وترجم له أيضا الكتاني في سلوة الانفاس (3) ووصفه بأوصاف عالية منها بحر العلم الزاخر، درة الزمان حفظاً وفهماً واتقاناً، وحيد الدهر ذكاء وفطنة وايقاناً، شيخ الاسلام وعالم الاعلام الخ.

وترجم له صاحب عناية أولي المجد (4) وصاحب نشر المثاني (5) والتقاط الدرر، وبالجملة فان سيدي العربي الفاسي كان رحمه الله من اكابر علماء المغرب في عصره رحمه الله. وكانت ولادته بفاس سنة 988 وبها نشأ ودرس العلوم

(I) صفوة من انتشر ص 152

(2) صفوة من انتشر ص 71

(3) سلوة الانفاس ج 2 ص 313.

(4) عناية أولي المجد ص 29 .

(5) نشر المثاني ج I ص 180.

وأقام بها مدة ثم تركها بسبب ما كان بها من الفتن والاهوال، وجال في المغرب الى أن استقر بتطوان، والذي يظهر أنه كان أولا يتردد على مدينة تطوان من حين لآخر، وقد تقدم لنا أنه حضر جنازة الشيخ أبي الحسن الجعفي المتوفي سنة 1032 وأنه رثاه في تطوان بقصيدته التي أثبتنا نصها فيما سبق، ثم وجد بهذه المدينة ما يرضيه وما كان يبحث عنه من الامان والاطمئنان، فاختر الإقامة الزياتي التطواني وهو من أصهاره، يجد فيها من فتاوى المترجم وأنظاره وأبحاثه الشيء الكثير .

وقد وجدت بخط العلامة الاديب الشيخ علي ابن الزبير (I) السجل ماسي ان سيدي العربي الفاسي لما قرب من تطوان ولاحت له ديارها، أنشد قوله انظر الى تطوان كالقرطاس بيضاء صافية (2) من الادناس

فذيله الفقيه أبو القاسم الفشتالي (3) بقوله

شرفت بساكنها الامام محمد نجل أبي الحجاج أعني الفاسي قال ابن الزبير، فكمل ذلك كاتبه ابن الزبير بقوله

بث العلوم بها فصارت عند ما وتعطرت بنزوله وتتوجت يا طالبيين علومه قد جاءكم فعليكم بالاخذ عنه إنه

ومما أنشده المترجم رحمه الله وهو بتطوان يحسن الى مسقط رأسه مدينة فاس قوله (4)

وظمئان حيران الجوانح من أسي ينكب عن عذب الفرات لانه وأى بلاد غير فاس تروقه يرى كل ترب غير تربتها قذى

يساق الى الورد الزلال فيأبى يرى كل ما دون الرضاب سرابا وقد شب في أحضان فاس وشابا ويحسب ما فوق التراب ترابا

(I) سبقت ترجمته قريبا وهو المتوفى سنة 1035

(2) في نسخة «سالم» بدل صافية

(3) هو الملقب بالغول وقد ترجم له القادري في نشر المثاني (ج I ص

195. ووصفه بالعلامة القاضي وذكر انه تولى قضاء بلده وأخذ عنه جماعة من الأئمة وتوفي سنة 1059 .

(4) هذه الابيات موجودة في ابتهاج القلوب .

وقد ذكر المترجم رحمه الله في كتابه مرآة المحاسن (I) أن سكناه بمدينة تطوان كانت في الدار المجاورة للزاوية الفاسية المشهورة بحومة العيون، ثم إنه ارتحل من تطوان كما ذكره في كتابه المذكور، إلا أنه عاد إليها وبقي مقيما بها الى أن توفي بها ضحوة يوم السبت رابع عشر ربيع الثاني سنة 1052 ودفن بها ثم بعد عامين نقل الى فاس ودفن بروضة أبيه خارج باب الفتوح رحم الله الجميع.

الفقيه أبو فارس عبد العزيز الزيياتي 1055

كان الفقيه أبو فارس عبد العزيز بن الحسن الزيياتي من سكان تطوان وعلمائها وبها توفي عام 1055. وقد ترجم له صاحب الصفوة بقوله (2) «ومنه الفقيه الخير أبو فارس، عبد العزيز ابن أبي الطيب الزيياتي. أخذ عن سيدي العربي الفاسي خاله والعارف أبي زيد ورحل لمراكش فأخذ بها عن أبي يوسف التلمي وقرأ عليه القراءات العشر، ثم رحل للمشرق فأخذ في القراءات عن الشيخ سلطان المزاح وغيره كالأجهوري، وله تأليف في القراءات، وشرح نظم الذكاة لخاله المذكور. وكان عظيم الزهد والورع، وما يوجد بخطه من العزائم والدعوات واستخدام الجن فقد كان ذلك بسبب في أول أمره، وذلك أنه كان له مال حلال ببعض البلاد وانقطع عنه واعوزه الوصول اليه، فدل على ذلك فجر به أياما فرأى طائفة من الجن فقالوا له يا هذا أحرقتنا ولولا أن رجلا يقف على رأسك كلما أتينا من نعتك كذا وكذا - يذكرون صفة الشيخ المجذوب - لاهلكناك بما أحرقتنا فرجع عن ذلك وزهد فيه وحسنت حاله جدا وتأبد على الدين المتين والمحجة البيضاء الى أن توفي رحمه الله بتطوان عام خمس وخمسين وألف.

وقبره بتطوان شهير يزار اهـ ونقل ذلك ابن عجيبة في كتابه «أزهار البستان» وزاد قوله «قلت» وهو «يعني قبره» قريب من ضريح الولي الشهير سيدي طلحة نفعا الله به ءامين. «قلت» وهذا القبر ما زال معروفا يزار حتى الآن وترجم له القادري في نشر المثاني بقوله (3) ومنهم الفقيه الاستاذ العالم المشارك أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ سيدي الحسن الزيياتي. كان صاحب الترجمة أستاذا مجودا مقرأ عالمًا محصلا نبيلًا، وله كتاب في النوازل والاحكام جمع فيه أنقلا جلية من كلام العلماء وقفت على سفر منه بخطه، وكان سبطا

(1) مرآة المحاسن ص 44

(2) صفوة من انتشار ص 81

(3) نشر المثاني ج I ص 185

للشيخ أبي المحاسن الفاسي ولد بنته توفي عام الترجمة (1055) بمدينة تطوان ودفن خارج باب المقابر (I) وبنيت عليه قبة فله سنن وخووله في العلم والصلاح رضي الله عنهم .

وترجم له شيخنا الرهوني وذكر انه كان إماما بجامع القصبة، وان له كتابا في النوازل والاحكام.

«قلت» كتاب النوازل هذا هو الذي ذكره القادري في نشر المثاني وهو مخطوط، وفي خزانتي «الداودية» بتطوان نسخة منه في مجلد واحد يحتوي على نحو اربعمائة صفحة من الحجم الكبير، وقد ذكر في أوله أن اسمه عبد العزيز ابن الحسن مهدي الزياتي، وأن اسم كتابه المذكور، هو «الجواهر المختارة، مما وقفت عليه من النوازل بجبل غمارة».

وقد وقفت في بعض المجامع المخطوطة على رسالة كتبها المترجم لاختيه أبي عبد الله محمد الزياتي وهذا نصها :

«أخونا الارضى الاحب الاعز الاثير سيدى محمد حفظكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، هذا والله يخير لكم ويختار لكم ويفتح عليكم من خزائنه الواسعة. والذي نوصيكم به، أن لا يكثروا خوفكم واهتمامكم بالرزق، فان ذلك من ضعف الايمان وسوء الظن بالله تعالى، لان الله تعالى تكفل لجميع عباده ادميين وغيرهم بالرزق فقال تعالى، وما من دابة في الارض الا على الله رزقها، وقال تعالى، وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم، وشأن العبد أن يكون بكلام سيده ومولاه واثقا. فان رأيتم الحال قد اشتد عليكم فأبشروا واعلموا أن الفرج قد قرب، فان الله تعالى قال في كتابه العزيز، سيجعل الله بعد عسر يسرا، فما بعد الشدة الا الرخاء ولا بعد الضيق الا الفرج، هذه عادة الله سبحانه، وحاشاه ان يغير عادته، وأن يرجع في ضمانه وكفالته. وها أنا أقيد لكم ادعية مختصرة قريبة للحفظ سهلة العمل، بعضها مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها عن الصالحين، وهى تنفع للخوف من الفقر، ومنها ما يصلح للامان، ومنها ما به الخصماتان معا، لكن بشرط التزامها، وأن لا تتركها حضرا ولا سفرا. وها أنا أريك الاوقات التى تقرأ فيها هذه الادعية. فأول ما أوصيك به ان تلزم صلاة الفجر بألم نشرح في الركعة الاولى بعد الفاتحة . وفى الثانية بألم تر كيف فعل ربك بعد الفاتحة ايضا، ففيها أمان كثير من الاعداء قال الامام الغزالي رحمه الله مجرب لا شك فيه. والتزم أن تصلى على النبي

(I) مقتضى ما ذكره الشيخ ابن عجيبة من أن قبره قريب من ضريح سيدى طلحة، أن مدفنه خارج باب النواذر، لا باب المقابر.

صلى الله عليه وسلم كل يوم في أى وقت تيسر لك خمسمائة مرة، روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال، من صلى علي كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً، وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياها، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطى أمله، وأعين على عدوه، وعلى أسباب الخير، وكان يرافق نبيه في الجنان الاعلى، واللفظ الذى تصلون به على النبي صلى الله عليه وسلم هو أن تقول «اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم انك حميد مجيد .

فان هذه الرواية هي التي صحح ابن العربي فى أحكامه رضي الله عنه. وقل بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب كل يوم ثلاث مرات، سبحان الله ملء الارض والميزان ومنة العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش. فانه روى عنه صلى الله عليه وسلم أن من قالها وسع الله له في رزقه، ونصره على عدوه، ووقاه ميتة السوء، ونسأله فى أجله، فشدد يدك على هذا وثق بكلام نبينا صلى الله عليه وسلم تربح وتتل مرغوبك ان شاء الله. وقل بعد صلاة الصبح والمغرب أيضا ثلاث مرات بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير الا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله، وعن بعض الصالحين أن من قالها كما قلنا أمن من الغرق والحرق والللصوص وسائر المؤذيات بحول الله وقوته. وقل دبر كل صلاة، سبحان من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من قالها أطال الله عمره وأغناه عن خلقه. وهنا آيات من القرآن العزيز فيها فضل كثير تقرأها اذا حفظتها بعد الصبح وبعد المغرب أيضا، فقد جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ان من قالها فى ليل او نهار أمن فى تلك الليلة وفي ذلك اليوم من كل شيطان مارد، وحاسد مضر، وسلطان ظلوم، ومن كل لص وسبع ضار. وهي آية الكرسي، الله لا إله الا هو، الحي القيوم، الى قوله تعالى وهو العلى العظيم. وقوله تعالى فى سورة الاعراف، إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام الى المحسنين. وقوله تعالى والصفات صفا الى قوله من طين لازب. وقوله تعالى فى سورة الرحمن سنفرغ لكم أيها الثقلان، الى قوله، فلا تنتصران. والتزم ان تقول فى كل يوم جمعة عند ما يقول المؤذن الاول من المؤذنين الذين يؤذنون والامام على المنبر، الله اكبر اللهم يا غني يا كريم، أغنني بحلالك عن حرامك، وبفضلك عن سواك، سبعين مرة، وحاول أن تكمل العدد بين أول الاذان وآخره، فاذا فرغت من الصلاة، اذكر المعقبات ثم قل هذا العدد ايضا سبعين مرة وأنت مستقبل القبلة لا تكلم أحدا حتى تفرغ منه. قال الامام السنوسي رضي الله عنه إنه من الفوائد

المجربة لتوسيع الرزق الحلال. واقرأ قوله تعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم الى اخرها سبع مرات في كل يوم بعد الصبح والمغرب، ففيها فضل كثير. جاء في بعض الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم ان من قالها لم يمت ذلك اليوم، وفي رواية لا يقتل ولا يضرب بحديدة، وإن من قالها ليلاً فكذلك، وجاء عن بعض الصالحين أنه كان يقرأها وهو ابن سبعين سنة فبقي كذلك الى ان وصل مائة وثلاثين سنة، ثم بعد ذلك رآه النبي صلى الله عليه وسلم في نومه فقال له الى كم تهرب منا فترك قراءة الآية فمات رحمة الله عليه، والحاصل ان فضلها كثير لا يمكنني ان ارتكبه لضيق الوقت وضيق البطاقة، وأؤكد عليكم إن اردتم الاتصال بالكبريت الاحمر، والاكسير الاشهر ان تقرأ الفاتحة كل يوم مائة مرة وذلك ان تقرأها بعد الصبح ثلاثين مرة، وبعد الظهر خمسا وعشرين مرة، وبعد العصر عشرين مرة، وبعد المغرب خمس عشرة مرة، وبعد العشاء عشر مرات، فيحصل لك في هذا العدد مائة، وقل بسم الله الرحمن الرحيم في اول كل عودة وءامين في آخرها، فان من التزم ذلك نصره الله على أعدائه، ووسع له في رزقه، وذكر الغزالي رحمه الله فضلا كثيرا لا يسعني كتبه، وحافظ على صلاة الصبح والعشاء في الجماعة، ولو اجتهدت لحفظت دعوة الواقعة وسورتها واتخذتها وردا لانتفعت ان شاء الله تعالى، وبالجمله حاول أن تعمل ما ذكرت لك والسلام اهـ.

ومن هذه الرسالة نعرف الاتجاه الفكري لهذا الشيخ ومن في طبقتة. فلقد كانت تلك الطبقة تعيش محقة في جو من التفكير في الدين والعبادة ونسبة الامور كلها الى رب الارباب، فهو سبحانه المعطي وهو المانع، وهو النافع الضار، وهو المرجع لكل طالب، والغاية لكل راغب، والملاجئ لكل مضطر، يدعونهم معتقدين أنه يجيب المضطر اذا دعاه، ويجتنبون نواهيه علمين أنه عزيز ذو انتقام لا يفتر لسانهم عن ذكر الله، ولا تغيب عن قلوبهم عظمتة وجلاله، ومن كان كذلك قلما تصدر عنه معاص أو مخالفات، وذلك هو الصراط المستقيم الذي لو سلكه الناس لقلت الخصومات، والمصائب والويلات، ولكن هل الناس كلهم يحبون العدل والانصاف. اللهم لا... وان التاريخ الحقيقي هو الذي يسجل لنا حوادث الناس وأخبارهم، ويصور لنا معارف الاشخاص وأفكارهم، وكل حزب بما لديهم فرحون.

الاديب أبو عبد الله محمد المؤذن 1073

ذكر القادري في التقاط الدرر، أنه في سنة 1073 مات بتطوان الاديب سيدي محمد المؤذن، ولا أعرف من هو هذا الاديب، ولم اقف على شيء من إنتاجه الادبي رحمه الله.

الفقيه عبد الله الرثوث 1087

هذا السيد لم اقف على ترجمة كاملة له وانما ورد ذكره في كتاب «الاعلام بمن غبر» ، في اهل القرن الحادى عشر» (I) وقد جاء فيه ما نصه : « وفي سنة 1087 توفى بالطاعون ، الفقيه الحاج أبو محمد عبد الله بن يوسف الرثوث التطاونى من تلامذة الشيخ أبى محمد عبد القادر الفاسى سمع عليه فى التفسير والحديث وغير ذلك » .

الفقيه محمد بن يحيى المذبوحى 1094

كان هذا السيد من العلماء المدرسين وقد أقام بتطوان مدة، وجاء عنه في كتاب «الاعلام بمن غبر» ، في أهل القرن الحادى عشر» ما نصه : « وفي هذه السنة (يعنى سنة 1094) توفى الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد بن يحيى الشريف المذبوحى الجزائرى وكان يكره لقب مذبوحى ويلقبه أصحابه العالم، ولد بالجزائر وقرأ بها ثم استوطن تطاون مدة وكان يكاتب الشيخ عبد القادر (يعنى الفاسى) السنين ويسأله ثم لقيه فاستفاد منه وانتفع وسمع منه وتبرك به، وكان يعده ذخرا وكتابه حرزا على ما أخبر به فى مكاتبتة وكان اذا قدم فاسا ينزل عند الشيخ عبد القادر، وكان يعظمه ويكرمه، وكان فقيها عالما أصوليا، وله معرفة بعلم الكلام ، وهو أول من قدم بالجوهرة وشرحها ، وقرأ بمصر ولقى كثيرا من المشرق، ثم رجع الى بلده الجزائر فتوفى بها رحمه الله .

الفقيه الاديب السيد علي الشودرى

كان الفقيه الاديب أبو الحسن علي بن محمد الشودرى من الفقهاء العدول بتطوان فى العقدين، الثامن ولتاسع من القرن الحادى عشر، وقد وقفت له على رجز فكاهى يشكو فيه حالة عدول عصره الى قاضيهم الفقيه أبى عبد الله محمد بن قريش وهذا نصه :

من قد غدا مقلدا أمر القضا
والرفق بالمسكين والايتمام
قد أصبحوا وكلهم ذو مسغبة
وكل ما كان من خصب قد مضى

من مبلغ عنى الفقيه المرتضى
أميننا ذا العدل فى الاحكام
أخبركم أن الشهود الكتبة
قد انتهى دهر المعاش وانقضى

(I) مؤلفه أبى محمد عبد الله بن محمد الفاسى ، وهو مخطوط وقفت عليه فى الخزانة السودية بفاس..

لا نستفيد درهما للنفقة
أما رسوم الحكم والآجال
فإن ذلك جميعاً قد غبر
فلو لنا مال تعاطينا السبب
وما لنا من حرفة فنحترف
فبعضنا قد صار يقتل العزف
وبعضنا لما اعتراه من غبن
وآخر من العدول قد عزم
وبعضهم قد رام بيع الجبن
أما الذي له القوى والهمة
كذلك الاعوان قالوا كلهم
فهذه حالتنا كما ترى
فأنت تدري أن خالق العباد

إلا إذا نكتب بعض الاصدقة
والنسخ والتوكيل والمقال
ولم يصير يصلنا سوى الخبر
ولا نبالي من قضى أو من كتب
ونقتفى سبيلها ولا نقف
ويصنع الجراب منها والقفف
قد رام أن يبيع للناس اللبن
أن يحطب العود ويأتي بالحزم
وبعضهم قد رام بيع التبين
فإنه بالفاس رام الخدمة
لم يجدوا فلساً وضاع أهلهم
فكن بعينك إلينا ناظراً
سائلكم عن حالنا يوم التناد

وله أيضاً يمدح الفقيه أبا العباس أحمد الفاسي (I) وقد ورد من فاس
على تطوان .

هنيئاً حباً الرحمن من سكن الثغرا
أتى به حظ من قرى فاس نحونا
فحق على من يعرف الحق منصفاً
نجيب له وسنم السيادة سيممة
ينظم من در البيان قلائدا
غدت نيرات العلم طوع يمينه
يجود باملاء الغوامض مرشدا
لديك أبا العباس حطت ركابها
بنفسي سرياً زانه العلم والتقى
فسبحان من أولاك منه مكارماً
فما إن تزل في حوطة الله دائماً
وبوئت من أعلى الفرديس جنة

بحبر يضاهي في تفيضه البحرا
فجاء إلى تطوان يستعمل السيرا
يوصل لله المحامد والشكرا
وأورثه المجد المكانة والفخرا
فقرط منها الاذن بل قلب النحرا
متى يدعها تقبل وتمثل الامرا
فتحسبه الآذان قد نفت السحرا
رفاق أتت تبغي الفوائد والاجرا
إذا قال لم يسمعك فحشا ولا هجرا
شرفت بها قدرا وفزت بها ذخرا
عليك رداء مستبل يقتضى السترا
تلقاك أنباء المهيمن بالبشرى

(I) لعل أبا العباس هذا هو أحمد بن يوسف الفاسي المتوفى سنة ١١٤٥
وهو والد الفقيه أبي مدين الفاسي المتوفى سنة ١١٥١ وكل من الوالد والولد
توفي ودفن بتطوان .

وله أيضا في فتى جميل، وللاباء أمام الجمال الحسي والمعنوي مواقف يغفرها الله لهم .

ذهب الظبي الذي تيمنى
بان عني النوم والصبر معا
ءاه من وجدي وكم بى بعده
لنت شعري هل أرى طلعتة
ثغر تطوان أراه مقفرا
كل من كان به من عاشق
كلهم يبكى بدمع هاطل
إن تطل ياظبي عنهم غيبة
وله فى ذلك ايضا غفر الله له :

فمضى القلب باثر ظعنه
واقفى العقل سبيل سننه
فالحشا غاض بهوى محنه
فهى عند الروح أشهى مننه
واعترته وحشة من حزنه
ليس يدري سره من علنه
كاد يمضى ليه من شجنه
كل شخص ذاهب عن سكنه

يا أهل تطوان هنيئا لكم
ما أبهج الثغر وأحوازه
حق لأهل العشق أن يبذلوا
اهتز غصن الروض شوقا له
فلو رأيت الشمس اذ أثرت
ولسهرت الليل فى فكرة

بمقدم الخشف الكحيل العيون
اذ قيل حط رحله بالعيون
بشارة ما عندهم من مصون
وغرد القمرى فوق الغصون
بخده خشيت ريب المنون
تخوض فى النظم جميع الفنون

ولم أقف على تاريخ وفاة هذا الاديب، الا أني علمت أنه كان ما يزال على قيد الحياة عام 1078 رحمه الله.

العلامة الصالح سيدى الحاج علي بركة 1120

الشيخ سيدى الحاج علي بركة من أكابر الرجال الذين عاشوا بتطوان فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. وقد تأخرت وفاته الى الربع الاول من القرن الثانى عشر. وكان الشأن - على عادتنا - ان نؤخر ترجمته للفصل الذى عقدناه لتراجم رجال القرن الثانى عشر، الا أننا اثبتنا اثبات ترجمته فى خاتمة تراجم رجال القرن الحادى عشر، لان الربع الاخير من هذا القرن، هو الذى كان زمن قوته ونشاطه واكبابه على التحصيل والتعليم والارشاد والكتابة والتأليف، أما ما بعد ذلك، فقد صودم فيه بطغيان نال من كرامته، وغدر حد من نشاطه وهذا من قوته، ولعله انقطع اذ ذاك لعبادة ربه الى ان انتقل الى رحمة مولاه ورضوانه عليه رحمة الله .

والشيخ المترجم رحمه الله ، هو العالم المشارك ، العامل الناصح ، الولي الصالح ، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بركة الاندلسي التطواني ، عالم تطوان وأديبها ، وشيخها وصالحها رحمه الله .

أوصافه

وقد وصفه تلميذه شيخ المشائخ أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني (I) الفاسي بأنه هو العلامة الناسك ، العابد المنقطع الزاهد ، المنفرد بكثرة العبادة ، المتصف بصفات الورع والزهادة ، الشيخ العظيم البركة ، الحاج الأبر الاتقي أبو الحسن النخ (2) .

ووصفه تلميذه العالم الأديب أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، بالعلامة الفقيه الفاضل الوجيه المصقع المدره ، الذي انار شمس الادب وبدره النخ (3) .
ووصفه أيضا بأنه في الحقيقة زين تلك البلاد (يعنى تطوان) الذي أولاها من المحاسن الطارف والتلاد ، حتى فاخرت مصانع بغداد (4)

ووصفه القادري في نشر المثاني (5) بالعالم العلامة الصالح البركة المشارك الدراكة ، وبانه كان من العلماء العاملين والصلحاء الكاملين النخ .
ومثل ذلك في التقاط الدرر .

ووصفه القادري أيضا في مكان آخر (6) بالشيخ الشهير ، العلامة الكبير ، الصوفي الخطير عالم تطوان النخ .

(I) العلامة محمد بن عبد السلام بناني ، وصفه تلميذه الشيخ محمد بن الحسن بناني محشي الزرقاني بقوله فيه انه : « شيخ الاسلام ، وعلامة الاعلام ، امام المحققين ، ورئيس النظار المدققين ، حائز قصبات السبق في الفنون كلها ، متضلعا من فروع العلوم واصلها ، مشتهرا بها شهرة نار على علم ، مرجوعا اليه في حل المشكلات الحوالك الظلم ، متصرفا تصرف افصح البلغاء باللسان والقلم النخ . ومن شيوخه الشيخ ابو علي اليوسفي وابو الحسن علي بركة « المترجم » والشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي وغيرهم من علماء المشرق والمغرب . ومن تلاميذه المحشي بناني والشيخ التاودي بن سودة والحافظ العراقي وابو العباس الهلالي والشيخ جسوس . وقد اقام بتطوان عدة سنوات ودرس فيها علوما وختم فيها كتباً عديدة ، وله عدة تأليف منها شرح الاكتفا في ستة أسفار ، وكانت وفاته بفاس عام 1163 وبها دفن رحمه الله .

(2) من فهرس العلامة محمد بن علي الورزازي التطواني

(3) نشر ازاهر البستان ص 35

(4) » » » ص 40

(5) نشر المثاني ج 2 ص 104 .

(6) » » ج 2 ص 84

ووصفه صاحب عناية أولى المجد (I) بالشيخ العلامة الصالح الحجة ابي الحسن النخ ،

ووصفه تلميذه الاديب محمد بن الطيب العلمي فى كتابه الانيس المطرب (2) بعالم تطوان وامامها وبركتها، قطب رحاها ، وشمس ضحاها ، الشيخ الامام ، العلامة الصالح النخ .

ووصفه فى محل آخر (3) بعالم تطوان الامام العلامة الاكبر، الورع الناسك البركة النخ .

ووصفه ابن عمجيبه فى (أزهار البستان) بالشيخ الصالح الولي الناسك : الصوفي الصفي ، الفقيه العلامة النخ .

شيوخه

أما شيوخه فجماعة، منهم بتطوان والده الشيخ محمد بن محمد بركة كما فى الصفوة (4) .

ومنهم بفاس شيخ الاسلام سيدى عبد القادر الفاسي، وقد أجازة عامة. ومنهم الشيخ العلامة أبو علي اليوسى . ومنهم العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وقد أجازة ايضا اجازة عامة .

وقرأ ايضا على الشيخ ابي سالم العياشى صاحب الرحلة العياشيه المشهورة وقد أجازة ايضا بأسانيده المذكورة فى رسالته التى سماها «اقتفاء الاثر» وقرأ بفاس ايضا على قاضى الجماعة بها سيدى العربى بردلة، وعلى الشيخ العلامة سيدى حمدون المزوار، وعلى الشيخ الصالح سيدى احمد ابن الحاج النخ. وذكر القادرى فى نشر المثنى (5) ان المترجم رحمه الله صحب الشيخ العارف بالله سيدى احمد بن عبد الله معن، وانه اخذ الطريقة الناصرية عن مؤسسها الشيخ سيدى محمد بن ناصر، وانه بعد ان فرغ من الدراسة بفاس، رجع الى بلده تطوان فدرس العلم بها واجاد وافاد، وانتفع به فيها الحاضر والباد، وكان له فيها صيت كبير ، وذكر شهير .

-
- | | |
|-------|-----------------------|
| (1) | عناية أولى المجد ص 39 |
| (2) | الانيس المطرب ص 293 . |
| (3) | » » ص 28 |
| (4) | صفوة من انتشار ص 221 |
| (5) | نشر المثنى ج 2 ص 104 |

تلاميذه وعلومه

وقد قرأ عليه رحمه الله جماعة تخرج منهم علماء وادباء عرفنا منهم العلامة شيخ الشيوخ أبا عبد الله محمد بن عبد السلام بنفانسي شارح الاكتفاء والزقاقية والشفاء وغيرها، وقد ذكر رحمه الله في فهرسته انه قرأ عليه الاربعين النووية، وبعض صحيح البخاري ومسلم والموطأ والشمايل، وزاد انه سمع منه الحديث المستلسل بالاولية، وأنه أجازته بسائر مروياته عن سائر أشياخه شرقا وغربا، وأنه كتب له بخطه مرتين، وأسمعه من انشاءاته وانشاداته ما يطول.

ومنهم العلامة الاديب ابو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي مؤلف شرح ديوان الحماسة، ولامية العرب، وقلائد العقيان، والخزرجية، ونشر أزهري البستان، فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، وغير ذلك. وقد قرأ عليه صحيح البخاري، ومختصر خليل، وتحفة ابن عاصم، وجمع الجوامع بشرح المحلي، وألفية ابن مالك وغير ذلك، ومما قرأه عليه هذان العالمان، تعرف العلوم التي كان سيدي بركة يحسنها، والكتب التي كان يدرسها رحمه الله.

ومنهم الاديب أبو الحسن علي مندوصة الاندلسي الاديب التطواني المترجم له في الانيس المطرب، الذي ستأتى لنا ترجمته قريبا بحول الله.

ومنهم الاديب الشهير محمد بن الطيب العلمي مؤلف كتاب الانيس المطرب (I) ومنهم الاديب أبو عبد الله محمد بن علي الرافعي الاندلسي التطواني صاحب الديوان الشعري، ومؤلف الرحلة الحجازية المسماة «المعارج المرقية» وغير ذلك. ومن تلاميذه الذين أجازهم، الشيخ محمد بن محمد بن حمدون بنانسي الفاسي شيخ أبي عبد الله محمد المنور التلمساني.

شهرته واجازته للعالم الاديب ابن زاكور الفاسي

اشتهر الشيخ سيدي الحاج علي بركة رحمه الله بالعلم والعمل والصلاح، وتعدت شهرته مدينة تطوان ونواحيها - كما رايت في اوصافه رحمه الله حتى ان العالم الاديب الكبير صاحب التأليف الكثيرة المفيدة، أبا عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسي قصد تطوان، وقرأ عليه بها واستجازته بالرغم من كون الشيوخ الذين قرأ عليهم الشيخ سيدي بركة بفاس كانوا لا يزالون أحياء يرزقون (2)

(I) الانيس المطرب ص 293

(2) كانت وفاة شيخه ابي علي اليوسفي سنة 1102. وشيخه ابي العباس ابن الحاج سنة 1109. وشيخه محمد بن عبد القادر الفاسي سنة 1116. أما تاريخ هذه الاجازة فهو كما ستري عام 1094.

مما يدل على أن شهرة المترجم رحمه الله بالعلم والصلاح كانت عظيمة، وقد قرأ عليه الأديب ابن زاكور علوماً مختلفة واستجازته - كما قلنا - فاجازته رحمه الله اجازة تاريخية مطولة جليلة القدر، عظيمة الفائدة، ذكر فيها سيدي بركة رحمه الله شيوخه ومقروءاته، ونحن نرى من الواجب هنا إثبات تلك الاجازة بنصها الكامل، لأنها زيادة على ما ذكرنا تعطينا صورة من الانشاء الأدبي العالى لسيدى بركة رحمه الله .

قال ابن زاكور فى كتابه نشر أزاهر البستان ، فيمن اجازنى بالجزائر وتطوان ما نصه (I) :

وقد أجازنى رضى الله عنه عندما نشقت أنفاس فاس . وعزمت على الرحيل من ذلك الكناس، بما لا يذكر معه الطبايق ولا الجناس، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

أحمد الله الذى من أسند إليه أمره أعانه واجازته، ومن صمد إليه دهره نال منه مرامه وحازته، ومن استمسك بعروته الوثقى . سمك رباع مجده ورقى ، ومن انتسب الى علي جنابه، اكتسب شرفا وحظى بكريم مثابه ، ومن تخذه فى المهمات سنداً، وجده فى جميع الملمات كافياً ابداً، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله، وثبته وخليله ، المنزل عليه أحسن الحديث ، والمبجل بين الورى فى القديم والحديث ، الموصول بصلات موصولة ، والمعلول بهبات لا مقطوعة ولا مفصولة ، المرفوع قدره ونصابه ، والمشروع شرعه الفائض عبابه ، ثم على آله وأصحابه الذين ءانسوا أحواله وءاثاره، واقتبسوا أضواءه ، وأنواره ، واقتفوا سننه، وأنهوا الى من بعدهم سننه ، وورثوا من تراث علومه بالفرض والتعصيب ، وحدثوا بمشاهدهم معه من لم يظفر بحظ منها ولا نصيب ، ثم على التابعين لهم المهتدين ، الذين أصلوا لنا اصول الدين، ووصلوا اليها ما وضحت به المعالم للمسترشدين، صلاة وسلاماً مترادفين الى يوم الدين .

وبعد فانه مذ من الله سبحانه على بالانخراط فى سلك طلاب العلم، والارتباط بأسباب أرباب الادراك والفهم، لم نزل نتطفل على المولم منهم والآدب، وندخل عليهم فى محافل الموائد والمئادب، ونستبق الى التشبث بأذيال من حاز منهم قصب السبق فى الفنون أصنافاً وجملاً، ونرافق رفاق المجيبين الى دعوتهم غير مفرقين فى ذلك بين النقرى والجفلى . ونتشبه بهم معتقدين ان ليس فى ذلك جناح ومستندين الى قول من قال، التشبه بالكرام فلاح، حتى اتسمنا من سماتهم

الرائقة بسمة، وتوسم فينا أنا منهم وان لم نحصل مما عندهم عند التأمل الصادق
 الا على مثل سمسمة، فصار من أظهر الله له سبحانه منا الجميل، وستر عنه ما
 وراء ذلك مما هو أخص أوصاف هذا العبد الحقير الذليل، يأنس منا باللقاء
 والاجتماع، ويلتمس المقام معنا برسم الانتفاع والاستماع، فكان ممن جمع الله بيننا
 وبينه شمل الوصال، ونقع لنا به الاوامر الحاصل بالفطام والفضال، من شب به
 زمان الادب بعد الهرم، وهب به أوان المجد والحسب وقد أشفى على العدم، الذي
 ركض في مضامير البلاغة صافنات جياده، وعقد شذور البراعة على لبات هذا العصر
 وأجياده الجهبذ الاريب، المصقع الاديبي، الثقف اللقن، المتفنن المشارك المتقن،
 الفقيه النبيه، الزكي الوجيه، ذو الفضل المعروف غير المنكور، ابو عبد الله سيدي
 محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور، الفاسي منشئًا ودارًا، الادريسي
 محلة وجوارًا، اصلح الله مقاصده، وانجح مساعيه ومراشده، فتذاكرنا معه بعض
 الفنون العبيقة النسيم، وادرنا صحبته كؤوس شرابها الممزوج بالرحيق والتسليم،
 وتجارينا في ميادين من العلوم، وتبارينا في قراءة دواوين أرباب الفهوم، فمن
 أجلها الذي من أحرزه كان في حلقات الفنون هو المجلى، شرح جمع الجوامع للامام
 جلال الدين المحلي، فأتيننا على جملة من أوائله يقتنع بها ذو الجيد المعطال بما
 يحصل له بها من التحلى، وحضر معنا جملة جميلة المسالك، من ألفة الامام أبي
 عبد الله جمال الدين بن مالك، وورد لدينا مرارًا يتنفع بها ذو الغلة والغليل، من
 مختصر الامام ابي المودة الشيخ خليل، وشهد عندنا أماكن سننية سمية، من التحفة
 العاصمية، وجلس بحضرتنا مجالس يرتاح لها المستمع والقارى، لما تضمنته من
 قراءة الجامع الصحيح للامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى، الى غير
 ذلك مما اصطحبه معنا واغتنبق، واغتنمه من حرائرنا واعتنق، مما نسأل الله سبحانه
 ان ينفعنا به جميعًا نفعًا يفضى بنا الى السعادة، ويؤديننا الى الفوز بالحسنى
 وزيادة، ثم انه لما شام على معاطفنا بريقًا، وشم من مطارفنا عبيقًا، حجا ان ذلك
 مطلع، وجعل ان ما بدا منه هو منبغ ومنبعه، فلما لوحنا له ان ذلك مقتبس من
 مطالعه الاصلية، وملتمس من مباحثه السننية العلية، مطالع شيوخنا منائر الاعصار،
 ومبازغ أعلامنا معاصر الامصار، وأشرنا له الى أنهم وشحوا جيدنا المعطل بحلى
 اجازاتهم، واباحوا لنا الرواية بما أخذنا عنهم وبغيره مما ينسب اليهم من حقائقهم
 ومجازاتهم، اشرأب حينئذ الى ان نوشحه بمثل ما وشحونا به من الاجازة، واستحب
 ان نبيح له ما اباحوا لنا من ان نروى عن كل واحد منهم حقيقته ومجازه، فاكبرت
 أنا هذا الامر الذي اقترحه منى غاية، وعددته اشد استحالة من الجمع بين الفراغ
 وعدم النهاية، علما منى بانى عن ذلك المرام بمعزل، وكونى فى الحضيض السافل
 ذا منزل، وجزما عندى بانى والله لم اصل الى ان أكون المجاز، فكيف بان أكون

مجيزا لغيرى ولو على سبيل المجاز ، وانما المناسب لحالى ان اكون ممن يعمر عجز مجلس طلبة العلم لا صدره، وان لا ازال مستحضرا قول القائل، عاش من عرف قدره، وهو مع هذا كله لم ينش عن وجهة الاقتراح، ولم يستتب منى وجه الابانة عن ذلك المطلب والانتزاح ، بل اخفى على كل ذلك مرط رغبته المنسوج على منوال التأميل ، وأوفى لاجل تحصيل طلبته على شرف حسن الاعتقاد والظن الجميل ، فلما حصص ان ليس لى عن تلبيته مندوحة، زورت فى نفسى ان آتى بالمعارض حسبما هى فى ذلك طريقة غير مرجوحة، ثم خشيت ان يكون ذلك غير مقنع لمن رامه، ولا منتفع به من طلبه وسامه، فازمعت ان أسلك فى ذلك بحول الله تعالى طريقة مثلى، وامسك فى الاباية عما هنالك بعروة لا تنفصم ولا تبلى، وذلك بأن أذكر من قرأت عليه من أجلاء جلة الشيوخ. مع ما أخذت عنهم او سمعت عليهم على سبيل الثبوت والرسوخ، ثم انتقى ذكر لفظ بعضهم فى اجازته، ثم اطلق ذلك على مفصل ذى الطلب منى على وجه يحصل منه ان شاء الله على بغيته وارادته ، وعسى ان يكون هذا الوجه لا يرهقنى من امرى عسرا، ولا يلحقنى فى الدين والدنيا مساءة ولا ضيرا، فأقول والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان، ان اجمل من امتلات لنا منه العينان، واخذت بحجرتة منا اليدان، من الافصاح بترجمته مغن عن الاطناب فى تحليلته، اذ كان شمس ضحى هذه الاعصار، وقطب رحى المكارم بالمدائن والامصار، الشيخ الامام، علم الاعلام، المحيى من امر دين الله ما كان فى حيز الاهمال والشاسى، شيخنا وسيدنا وسندنا عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسى، قدس الله روحه ، وانس مهجته وضريحه ، فاخذنا عليه فى علم الكلام، المقدمات للشيخ السنوسى وصغراه وشرحها له كل ذلك على التمام، وفى الفقه جملة يشفى بها الغليل، من مختصر الشيخ خليل، وفى الحديث المضاف الى من فضله البارى ، شمائل الترمذى كلها واماكن من صحيح البخارى، وسمعنا عليه مواضع من تفسير الكتاب المبين، ومجال من كتاب حجة الاسلام احياء علوم الدين، وقرأت عليه بنفسى مع من حضر من ابناء جنسى، الاربعين حديثا للامام محيى الدين النواوى، السى غير ذلك مما كنت آرز لاجله الى حضرته العلية وءاوى.

ثم أجازلى بعد ذلك فى كل مقروء له ومسموع، ومنسوب اليه ومجموع، وهو رضى الله عنه ورحمه يروى كل ذلك باسانيده المتصلة الى ارباب تلك المؤلفات ، ورواياته الموصولة باصحاب تلك المصنفات، عمن لا يحصى من مشائخ الاسلام، ومصابيح الانام ، حسبما رسم ذلك فى اجابة الاستدعاء الذى ورد عليه من علماء المشرق ووسم كلا منهم بما يبهر العقول من وصفهم المستنير المشرق ، جعلنا الله سبحانه من المعقودين فى سماتهم، غير المفقودين من محلهم وبساطهم.

ثم ان ممن اكمل الله سبحانه به علينا المرام، واجمل لنا به بحضرته المقام،
نبراس اليناس، ومنار اهل المغرب خصوصا أهل فاس، المتبحر في حقائق العلوم،
والمستأثر بدقائق الفهوم، العالم المحقق النحرير، الماهر المدقق ذا البحث والتحري،
نجل الشيخ المذكور أولا ملاذ الوارد والصادر، شيخنا ومفيدنا ابا عبد الله سيدي
محمد بن عبد القادر، ابقاه الله سبحانه للافادة، ورقاه في أوج الكرامة والمجادة،
فلقد لازمته جملة طالحة من السنين، وشددت على الاجتماع به يد الضنين، وجمعت
من مجامعه بجوامع العلوم، واستطلعت من قواميس بحوره تفائس الفهوم، فاخذت
عنه في علوم العربية السامية السنام، ألفية ابن مالك مرارا ولاميته مرتين، وتوضيح
العلامة ابن هشام، وفي المنطق السلم وشرحه لمؤلفه مع البيان والايضاح، وفي
علم البيان جملة من تلخيص المفتاح، وفي فن الاصول ذى القواعد القواطع، طرفا من
متن جمع الجوامع، وشرحه للجلال المحلى مع الابانة عما فيه من الموارد والمنازع،
وفي التوحيد صغرى الشيخ ابي عبد الله السنوسى، وفي الفقه قطعة من رسالة
ابن ابي زيد القيروانى .

وسمعت عليه صحيح البخارى مرتين، وكتاب الشفا للقاضى عياض بلا ريب
ولا مين، الى غير ذلك مما كنت اختلف اليه فيه من المسائل، وافادنيه مكاتبة
ومشافهة مما يتعلق بالمقاصد والوسائل، مما لست الآن بمحصيه، ولا مستحضره
فاستقصيه، نفعى الله واياه بجميع ذلك، ونهج بنا جميعا أقوم المسالك، ثم منحني
بعد ذلك اجازته العامة المطلقة، وأباح لى الرواية عنه بالامور البينة المحققة، جازاه
الله سبحانه على ذلك احسن الجزاء، وكان له فى الدارين وحقق له البغية والرجاء.
ثم انه لما اراد سبحانه ان يتوجنا بتاج المعالم العلمية، ويروجنا برواج المكارم
البهية السنية، ألقينا الى من ألفت اليه العلوم القياد، وانجابت عنه سحب شموسها
بما خرج عن محل الاعتقاد، البحر الزاخر، والحبر الذى يفخر به هذا العصر الآخر،
مالك ملاك العلوم، وسامك سماه ذى المنثور والمنظوم، محط رحال ارباب المنقول
والمعقول، ومناط همم اصحاب الادراكات والعقول، الذى اذا قال فيه القائل ان
الزمان بمثله لبخيل، يحق ان يقال له ما اصدقه من قيل، الهمام الذى لا يدع من
جمعه الله به ان يقول، الحمد لله الذى أذهب عنى بهذا السيد عناى وبوسى،
الشيخ الامام ابو على سيدنا الحسن بن مسعود اليوسى، اسمى الله سبحانه مكانته
وادام كرامته، فائسى قد استمسكت بغرزه مدة مديدة، وانبطت من ينباع علومه
عيونا سلية الجرية حديدة، وتمتعت به فى الحضر والسفر، ورجعت من عنده
بفضل الله تعالى بتمام الفلاح والظفر، فاخذت عنه رضى الله عنه وكان له وبلغه من
خير الدارين أمله، فى الفقه مختصر الشيخ خليل، مرتين بقراءة متوسطة بين
التقصير والتطويل، وفى الاصول، جمع الجوامع مرتين على وجه محرر الفصول

وفى علم المنطق والميزان، مختصر الشيخ السنوسى والجمل للخونجى بتحرير وتبيان، وفى علم الكلام والتوحيد، صغرى الشيخ السنوسى وكبراه عمدة أهل التوفيق والتسديد، وفى علم العربية جملة صالحة من التسهيل، وشيئا من ألفية ابن مالك ولكنه قليل، وفى علم البيان والمعانى، الشرح المختصر على التلخيص لسعد الدين التفتزاني.

وقرأت عليه بنفسى قراءة اتقان وايضاح، متن تلخيص المفتاح، وسمعت عليه أيضا فى فن الاصول المذهب المذهب، نحو النصف من مختصر ابن الحاجب، وسمعت عليه فى الحديث النبوى اماكن من صحيح البخارى، وجميع شمائل الترمذى.

وسمعت عليه فى بعض ايام المولد الذى يزرى نسيمه بنسيم الرياض، كتاب الشفا للقاضى ابى الفضل عياض.

واخذت عليه فى السير المعرفة باحوال المصطفى، كتاب الامام الكلاعى المسمى بالاكثفا، الى غير ذلك مما لم يحضرنى الآن مما كنا استفدناه فى ذلك الزمان، الذى كان والله مورك الاغصان، مونق الافنان، مؤتلق اللعان :

زمن مضى وكأنه برق تألق بالحمى
يا ليت له لو دام لى فأعد ذلك موسما

نسأل الله سبحانه ان يجمعنا جمعا لا يعقبه عنا، وان ينفعنا بما علمناه نفعا نكتسب به من خزائن الله تعالى الدائمة غاية الغنى .

ثم انه ممن حصل لنا بالاجتماع به اتصال باهل الدرجة العليا، ومنال ممن لهم هم منوطة بالثريا، الامام الهمام، المرحوم برحمة الله الملك العلام، المحدث الراوية العلامة، المشارك المتفنن الفهامة، صاحب التأليف المفيدة، والتصانيف المستقيمة السديدة، أوحد أهل زمانه أدبا ودراية، وأجدهم سببا ورواية، الذى استنار بانوار اهل المشرق، واستأثر بخواص اهل المغرب فنال من غربهم المغدق، شيخنا الجابر لما كان من عاثر السلف من قبيل المتروك والمتلاشى، أبو سالم سيدى عبد الله بن ابى عبد الله سيدى محمد بن ابى بكر العياشى، أسبل الله عليه شتاييب الرحمة والغفران، وارسل عليه يعاييب الرأفة والرضوان، فاخذت عنه الاربعين النووية، والوظيفة الزروقية، ثم اجاز لى على الاطلاق، واباح لى الراوية والتحدث عنه مع رعى حسن الاتساق، قائلا رحمه الله بعد كلام هو فيما كتبه لى مسطر، وكل ذلك باسنانيدى المذكورة فى رسالتنا اقتفاء الاثر.

ثم ذكر لى سند المأخوذين المذكورين المتقدمين فقال، اما الوظيفة فأرويهما عن والدى رحمه الله عن سيدى احمد اذقال عن الشيخ بركات بن محمد الخطاب عن

والده عن الشيخ زروق رضى الله عنه، وارويها ايضا عن سيدى ابى العباس خديم
ضريح الشيخ زروق عن سيدى محمد بن غلبون عن سيدى ابى زعامة خديم الشيخ
رضى الله عنه.

واما الاربعون فعن الشيخ ابراهيم الخيارى عن والده الشيخ عبد الرحمن
عن الرملى عن زكرياء عن ابن حجر بسنده اه ومن خطه رحمه الله نقلت وبالله تعالى
التوفيق ، وهو الهادى الى سواء الطريق.

وممن كنا قرأنا عليه جملا من الفنون، واستمطرنا معه ودقها الصيب الهتون،
الفقيه النظار العلامة، النبيه الدراكة الفهامة، قاضى الجماعة بحضرة فاس حرسها
الله ونواحيها . ومتولى ما يرد من الاحكام الشرعية بقاصيها ودانيها، ذو الاخلاق
الحسنة ، والاعراق الطيبة المستحسنة ، الحائز من سيب العلوم كثره وقله .
شيخنا ابو عبد الله سيدى العربى بردلة ، سنده الله وأيده، وأمدته بعونه وأدام
عليه مدده، فقرأنا مختصر الشيخ خليل مرتين او ثلاث مرات، وغير ذلك من فنون
مختلفات، وروايته عن شيوخ اهل فاس، المستطير نورهم بين الناس، وخصوصا
شيخنا السابق الذكر، سيدى عبد القادر الجليل القدر، ومن شيوخه الاعلام، شيخ
الاسلام، الذى طار به طائر الاشتهار فى الفقه واناثر اثاره، الامام ابو عبد الله
سيدى محمد ميارة، رحمه الله تعالى، وأفاض عليه رأفته ووالى.

وقرأنا أيضا بتلكم الحضرة العلية، النيرة الفاسية على شيخ المعقول فى
زمانه، ومصباح العلوم العقلية فى وقته وأوانه، العلامة المحصل، المشارك المتأصل
الصيب المدرار، شيخنا سيدى حمدون المزوار، رحمه الله تعالى ما توالى الاصيل
والابكار، مختصر السعد التفتزاني، وجملة من متن التخليص فى علم المعانى،
وسمعنا عليه شيئا يسيرا من مختصر الشيخ خليل، والله سبحانه ينفعنا بالكثير
من ذلك والقليل .

وممن قرأنا عليه ايضا قراءة يسيرة، ذو الشمائل الرائقة العطيرة، احد
البصراء والنقاد، ذو الذهن الوقاد، الفقيه اللوذعى، النبيه الالمعى، المحرز قصب
السبق فى جميع الفنون، والفائز بالحظ الوافر من سائر المتون، الحائز لدرجة
الظهور لدى المناظرة والتحايج ، شيخنا ابو العباس سيدى احمد بن الحاج ، اصلح
الله احواله، وانجح مقاصده وآماله، فسمعت عليه جملة من رسالة ابن ابى زيد
القيروانى، واشياء يسيرة من الالفية الصحيحة المبانى، وسنده فى ذلك كله
كسند قاضى الجماعة المتقدم الذكر، وروايتهما معا عن الشيوخ الفاسيين ليس
فيها مدفع ولا نكر، والله سبحانه يتولى هداانا اجمعين، ويجعلنا من السالكين
المنهج الاقوم المتبعين .

هذا وانه حيث تم ما أردت ايراده في هذا المكتوب، واتييت فيه على ما فيه بحول الله الكفاية لطالبه والمطلوب، أوفى بانجاز ما وعدت به فيما مضى، وأتحف من كان له الاقتضاء لذلك بحسن القضاء، فاقول له كما قال لى شيخى وسندى، ومعتمدى وامستندى، موئل الاكابر والاصاغر، سيدى محمد بن عبد القادر، وها أنا قد ساعفته على ما طلب من الاجازة، واذنت له أن يحدث عنى ويروى ويملى، وأجزته فيما قرأه وفى غيره مما أرويه قراءة او اجازة ان صحت الرواية عن مثلى ثم اختم بما ختم لى اجازته، وتتم لى به منحته وجائزته، وانشد اثتساء به اذ قال ومن خطه نقلت فلا تكن متشككا، وانشد ما أنشده غير واحد من المشائخ متبركا :

أجزتكم مروينا مطلقا وما لنا ، سائلا ان تتحفوا بدعاء

وكتب العبد الفقير الى رحمة ربه، عبد الله سبحانه علي بن محمد بركة الاندلسى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ءامين.

فى الرابع عشر من شعبان المبارك من سنة اربع وتسعين والى الف عرفنا الله خيرها وخير ما بعدها ءامين ، انتهت.

ويظهر لنا والله اعلم، ان سيدى بركة رحمه الله لم يستوعب فى هذه الاجازة ذكر جميع شيوخه، وانما اقتصر على مشاهير اشياخه بفاس وخصوصا من لهم رواية منهم، لانهم كانوا عمدته فى العلوم، اذ يبعد كل البعد أن يكون قد ارتحل لطلب العلم بفاس دون ان يدرس على شيوخ بلدة تطوان ولو مبادئ العلوم والضروريات منها، ولعل اشياخه التطوانيين كانوا من صنف العلماء الذين يصرفون عنايتهم الكبرى لناحية الدراية فقط، ولم يكونوا من الذين يعتنون بالرواية والاسناد فتذكر اسانيدهم ورواياتهم فى الاجازات والله اعلم.

وايضا قد تقدم لنا ان تلميذه العلامة ابا عبد الله محمد بن عبد السلام بنانى ذكر انه اجازه عن اشياخه شرقا وغربا، مما يفهم منه انه كان له رحمه الله اشياخ من المشرق والمغرب، لا من خصوص مدينة فاس، وقد رأيت ان اجازته لابن زاكور لم يذكر فيها احدا من الشرقيين.

ومن عرف حرص سيدى بركة رحمه الله على العلم والمعرفة والاتصال بالعلماء والادباء والشيوخ للاستفادة والاستفادة، يستبعد جدا ان لا يكون له اشياخ بالشرق وقد رحل اليه لحج بيت الله الحرام والله أعلم .

تأليفه

ذكر صاحب الصفوة (I) ان للشيخ بركة رحمه الله حاشية على المكوذى ، وشرحا على الاجرومية ، وغير ذلك ، أما حاشيته على المكوذى فليست حاشية بالمعنى الكامل وانما هى مجموعة طرر وحواشى كتبها على مواضع متفرقة من شرح الشيخ المكوذى لالفية ابن مالك وقد جمعها احد تلاميذه (2) كما جاء فى مقدمتها وقد ذكر جامعها ان سيدى بركة رحمه الله كتبها بهوامش الشرح المذكور فجمعها هو لينتفع بها هو وينتفع بها غيره الخ. وفى خزانتي «الداودية» بتطوان من هذه الحاشية نسخة مخطوطة فيما يقرب من خمسين صفحة متوسطة الحجم .
وأما شرحه للاجرومية فهو مطول وفى الخزانة المذكورة منه نسخة مخطوطة فى نحو أربعمئة صفحة .

وزاد أبو العباس ابن عجيبة فى كتابه أزهار البستان ، ان له حاشية على شرح أبى الحسن على الرسالة ، ومنظومة فى الفقه وكتابا كبيرا ألفه فى الفقه وجله احاديث .

وله أيضا تويلف فى مناسك الحج ، وفى الخزانة المذكورة منه أيضا نسخة خطية فى نحو خمس عشرة صفحة .

وقال القادرى فى نشر المثنائى (3) انه يذكر انه شرح تأليف الشيخ ابن ناصر فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى الخزانة المذكورة ايضا مجموع كبير بخط قاضى تطوان فى القرن الماضى الشريف العلامة سيدى المامون بن النادى افيلال وفيه اسئلة واجوبة وتقاييد علمية كثيرة فى مسائل مختلفة ، وجل ذلك منقول من خط الشيخ بركة ، والكثير منه له رحمه الله .

وقد وقفت له رحمه الله بتطوان على كتابه المسمى «الدرر الخطب» فيما يخاطب به الانسان ، من الاسلام والايمان والاحسان (4) وهو تأليف قيم فى نحو مائة وخمسين صفحة أثبت فى أوله الحديث المشهور المروى عن سيدنا عمر فى الاسلام والايمان والاحسان ، وجعله مدار التكليف والطلب ، ثم تكلم على الايمان وحصل عقيدة التوحيد وعلم الكلام .

(I) صفوة من انتشر ص 22I

(2) تلميذه المذكور هو الفقيه ابو العباس احمد السرايرى التطوانى المتوفى سنة II56 وله ترجمة فى نشر المثنائى للقادرى (ج 2 ص I68) .

(3) نشر المثنائى ج 2 ص IO4

(4) ثم أطلعنى صديقنا العلامة المحقق الاستاذ محمد المنونى على نسخة جيدة منه نسخت عام II32 هـ .

ثم تكلم على الاسلام فبين العبادات ، من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وكل ذلك بتفصيل وتحصيل .

ثم تكلم بالاجمال على الزكاة والجهاد والنكاح الخ .

ثم تكلم على التوبة وانواع المحرمات واصول الحلال الخ .

ثم تكلم على الاحسان ، وبه ختم الكتاب ، وقد ذكر في آخره انه فرغ من تأليفه في اواخر ذي القعدة الحرام سنة 1112 - اي قبل وفاته بنحو ثمان سنين - وهذا الكتاب من أحسن ما ألف في الموضوع، عباراته واضحة مفهومة، وفصوله جامعة، ومسائله محققة، وحذا لو طبع ونشر فينتفع به الناس انتفاعا عظيما. وقد أثبت رحمه الله في آخر هذا الكتاب نصيحة تعرف منها عقيدته ومذهبه واتجاهه ، ونرى من الفائدة اثبات هذه النصيحة هنا لما فيها من روح الاخلاص .

قال رحمه الله وجزاه خير الجزاء ما نصه :

« واعلم ان اصل كل خير وفضيلة، اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الافعال والاقوال، والاخلاق والاحوال، فالخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع، ويقال ، ثلاث كلمات لو كتبت في ظفر لوسعهن وقد جمعت الخير كله، وهي اتضع ولا ترتفع، واتبع ولا تبتدع، ومن ورع لم يتسع. وروح الاعمال كلها بوجود سر الاخلاص فيها، فمن أخلص في عمله تخلص، وكل ما أريد به وجه الله تعالى فهو المقبول المرضي ، وما أريد به ما سواه فهو المردود الردى ، فانما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى ، والنية الصحيحة المعتبرة شرعا تتضمن الاخلاص ، قال الله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، وهي إكسير الاعمال وكيمياؤها فبحسبها تزكو وتنمو ، وبتصحيحها وتخليصها تطيب وتسمو، ومن وحد الله سبحانه حق التوحيد، لم يلتفت الى المخلوقات والعبيد، فاحب ايها العبد مولاك، وفر من حب ما سواه ، فليس للعبد سوى مولاه ، الذي خلقه وسواه ، وعلم متقلبه ومثواه وانما هلاك العبد بحب العاجلة، وايثارها على الآجلة فمن غلبه هواه على ذلك، فسبيله صدق اللجا والاضطرار الى الاله المالك، واليأس من منافع هذا العرض الزائل الهالك. ولا يتم للعبد حب الله سبحانه الا بحب رسوله، وسلوك نهجه وسبيله ثم حب ءاله واصحابه، وأشياعه وأحزابه، واعتقاد فضيلتهم واحترامهم وتولييتهم والثبوت على عقيدة اهل السنة والجماعة المرضية، المعولين على الامام ابى الحسن الاشعري ذي العقائد السنية ، والعمل على مذهب امام دار الهجرة السنية. مالك ابن أنس رضى الله عنه صاحب الطرائق السمية، والسلوك على طريقة السادات الصوفية، السالكين على منهاج الامام ابى القاسم الجنيد ذي الاحوال الزكية ، مع مراعاة تعظيم غير هؤلاء من أئمة الدين، واعلام المسلمين، واعتقاد امامة من صفا مذهبهم من كدر المبتدعين، واتصف بكونه لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من المتبعين، ويعينه

على ذلك صحبة العلماء العاملين، والاولياء والعارفين، والنصحاء الصالحين، الدالين على الله، والذين اذا رأوا ذكر الله، من الله سبحانه علينا بالاتصال بهم، وعمر قلوبنا بحبهم، وجعلنا من اهل بساطهم وحزبهم ووفقنا لما يحبه ويرضاه، ورزقنا المعونة على سلوك طريق هداة، وختم لنا بالحسنى، واكرمنا بالثواء الابدى فى المقام الاسنى، بجاه نبيه ومصطفاه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وازواجه وكل من والاه، صلاة وسلاما دائمين بدوام ملك الله والحمد لله رب العالمين» .

حرصه على نشر العلم والفضيلة

كان الشيخ سيدى على بركة رحمه الله بالرغم من غزارة علمه ومشاركته فى أصول العلوم وفروعها، رجلا متواضعا كثير الكتابة للشيوخ والعلماء والسؤال لهم تارة عما يشكل عليه من المسائل العلمية، وتارة عما يريد تحريره من الفوائد لينشر ويستفيد منه الناس، وقد وقفت على اسئلة منه لشيخه سيدى محمد بن عبد القادر الفاسى مع اجوبتها، واسئلة اخرى منه لرفيقه فى طلب العلم الفقيه العدل ابنى عبد الله محمد الحريشى الفاسى مع اجوبته عنها وتعليقات عليها لشيخه سيدى محمد الفاسى .

ووقفت لدى صديقنا العلامة سيدى العابد الفاسى (I) على كتاب اسمه «التماس البركة، فى اجوبة العالم الحبر سيدى الحاج على بركة» لمؤلفه الشريف العلامة سيدى عبد السلام بن الطيب القادري المتوفى سنة 1110 وأوله، الحمد لله حمدا محفوفا بكل بركة، الى ان قال، وبعد فقد ورد علينا من أخينا المرافق لنا فى القراءة العلمية، ذى الاخلاق الطيبة والشيم المرضية، الفقيه العلامة، المدرس الفهامة الحافظ الارضى، المشارك الادرى، فاضل عصره، وواحد مصره، ابنى الحسن سيدى الحاج على بن محمد بركة، عمنا الله واياه بكل خير وبركة، سؤال يتضمن خمس مسائل .

الاولى عن قوله صلى الله عليه وسلم، وضع ربى يده بين كتفى فوجدت برد أنامل يده ما بين ثديي، هل ثبت وعليه فما تأويله .

الثانية قوله صلى الله عليه وسلم، حجوا هذا البيت قبل ان تنبت فى البادية شجرة فلا تأكل منها دابة الا نافقت. هل هذا لفظه وما المراد به.

الثالثة قيل أنه ثبت عن سيدي عبد الكريم المراكشي أنه قرىء بين يديه خبر حب الدنيا رأس كل خطيئة، فقال لأصحابه، وأنا أقول لكم، حب الآخرة رأس كل خطيئة فبلغ ذلك شيخ المشائخ سيدي عبد الله الغزواني فقال وأنا أقول لكم حب الله رأس كل خطيئة ما محمل هذا الكلام على ثبوته، سيما الأخير من مثل ذلك الشيخ، وما وجه زيادة الشيخين المذكورين على ما في الخبر .

الرابعة قول أبي زيد البسطامي رضى الله عنه، كنت من الزاهدين في الله، ما معنى هذا الزهد الذي أشار إليه .

الخامسة قول بعض العارفين، منذ عرفت ما دخل قلبي حق ولا باطل ، ما معناه اهـ .

وهو يطلب الجواب ... الخ. ثم ساق القادري أجوبته عن تلك الأسئلة في نحو الكراسة ونصف رحم الله الجميع (I) .

وذكر أبو عبد الله الرافعي التطواني في رحلته الشرقية، أنه لما كان بمصر، اطلع فيها على أسئلة بعثها الشيخ سيدي بركة إلى علمائها، وقد اجاب عنها الشيخ الزرقاني ، وحكى الرافعي المذكور أن الشيخ إبراهيم الشاوي لم يرتض ذلك من الشيخ سيدي بركة لأنه كان يرى أن ذلك العمل يوهم أن العلم قد فقد من المغرب .

ونحن نرى أن لكل من النظيرين وجهة، إلا أن عمل الشيخ سيدي بركة الرجل العالم المتواضع الذي يريد تعميم العلم ويعمل لشغل الناس به دون غيره يبرر بأن المراد به الدلالة على أن بالمغرب رجالا يبحثون عن العلم حيث كان ويريدون أن يعرفوا آراء العلماء المعاصرين في جميع الاقطار الاسلامية . وقد يستحسن عمل الشيخ سيدي بركة رحمه الله إذا لوحظ فيه أنه، أولا يجعل بين علماء الاسلام اتصالا فكريا وعلميا لا شك أنه يكون له اثر نافع من الناحيتين العلمية والاجتماعية، وثانيا يجعل للمسائل العلمية سوقا رائجة في مختلف الاقطار والاطراف، بدلا من بقائها منزوية في مجالس العلماء، منكشدة في الحلقات المدرسية .

(I) ان شئت فانظر فيما يأتي قريبا الرسالة التي كتبها المترجم الى نفس العلامة الشريف سيدي عبد السلام بن الطيب القادري، فهي نموذج من رسائله العلمية رحمه الله .

وقد كان الشيخ بركة رحمه الله زيادة على دروسه العلمية العالية لخواص الطلبة ، كثير الافادة للعوام ، يعلمهم الواجبات الدينية والاجتماعية ، ويفتى لهم فيما يعرض لهم من مسائل العبادات ، ويرشدهم على منبر جامعهم ومن فوق كرسي وعظه ، ويربى الخواص والعوام معا باخلاقه واعماله وتواضعه وعزة نفسه رحمه الله وكان رحمه - خلافا لما شاع وذاع اخيرا فى مختلف أوساطنا وطبقاتنا - كثير التعظيم للصالحين والزيارة لهم. وقد ذكر العلامة الاديب سيدى سليمان الحوات فى تأليف له فى أولاد الدريج التطوانيين والفاسيين ، ان سيدى بركة رحمه الله كان ملتزما فى كل يوم خميس زيارة ضريح جدهم الولي الصالح سيدى طلحة الدريج المدفون خارج باب النوادر من تطوان ، وانه كان يخرج الى ضريحه فى كل مهم ويستسقي به الخ.

وذكر صاحب الصفوة (I) ان سيدى بركة رحمه الله كان رجلا صالحا كثير المحاسبة لنفسه ، لا يملك عينه اذا قرأ القرآن ، وربما تساقط من فوق المنبر يوم الجمعة .

جامعه

وكان للشيخ بركة رحمه الله مسجد جامع يؤم فيه بالناس ويدرس فيه العلم ويخطب على منبره ويعظ على كرسيه. وهذا المسجد هو المعروف اليوم بجامع السوق الفوقى ، وكان اسمه قديما مسجد سيدى بركة كما وقفت عليه فى عدد من الرسوم الشرعية التى بالحوالة القديمة للمسجد المذكور.

اعتناؤه بالامداح النبوية

ومن خط الفقيه ابى عبد الله محمد الهاشمى بن محمد اسكلنط الرباطى نقلا عن خط العلامة ابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكى الفاسى ما نصه : « الحمد لله الذى جعل مدح الموهن لرسوله الاعظم ، ونشره لمحاسن جنابه الافخم ، من اقوى الاسباب لتنمية محبته فى قلوب المادح وقلوب سامعيه ، منشئا كان المادح أو حاكيا ، وألحق الحاكي بالمنشيء حيث كان لما يقوله مستحسنا وبمضمونه راضيا ، فيدخل بذلك فى عداد اهل خدمته ، ويحسب من جملة المعرفين بعلی قدره وعظيم حرمة ، وينخرط فى سلك المهيجين للاشواق الى حضرته

والجالبين وحشي القلوب الى التأنس بلذيد معرفته... الى أن قال : ومن كان بهذا الوصف فانه يحق على كل محب للنبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإكرامه، ويجب عليه بمقتضى المحبة توقيره واحترامه ، فان من اعظم محبته صلى الله عليه وسلم، محبة من يحب فيه ويجذب القلوب اليه ، وقد أدركنا من قام بهذا الوظيف وادى ما عليه منه الشيخ الامام القدوة الهمام ، ذا العلم المتين والمعرفة سيدي الحاج على بركة رضى الله تعالى عنه وارضاه ، وجعل الجنة قراره وإمأواه، فلقد أحيى سنة أكيدة، وصرف الى اظهارها اعتناءه وتأكيد ، حتى انتفع بذلك عدد وافر من المسلمين ، واستنارت بسببه بصائر طوائف كثيرة من المومنين ، فجزاه الله على ذلك خيرا ، وجعله له يوم لقائه نورا وذخرا، ونحن مقتفون فى ذلك بحسب الطاقة اثره، ومقتدون فيما أسسه من ذلك وقرره... الى أن قال فى آخره وكتب عبد ربه واحوج عبیده الى عفوه، محمد بن عبد الرحمن بن زكري .

أشعاره ومنظوماته وبعض آثاره

قال فيه تلميذه الاديب ابن زاكور الفاسى ما نصه (I): « وله أبقاه الله قصائد طوال ، حلى بها من خرائد المحاسن كل معطال الخ. الا اننا لم نقف الا على النزر اليسير من تلك القصائد ، مع مقطوعات ودعوات وتوسلات ، وسنثبت هنا ما عثرنا عليه من ذلك ، لما فيه من الفائدة وحفظا له من الضياع، فمن ذلك أبيات ذكر ابن زاكور انه كتب بها الى تلميذه الاديب ابى الحسن الحاج على مندوصة وكان قد سأله كتاب قلائد العقيان، فبعث به اليه وكتب له ما نصه (2).

أبشر أبا حسن بوصل دان	واهناً بنقعك غلة الظمئان
وازفف خرائد طالما قد أهملت	من فقدتها لقلائد العقيان
فالآن حل نحورها كى تجتلى	أقمارها، فى السر والاعلان
لا تختشى صرما لما قد نلت	والشم وعانق دائم السلوان
لا زال مجدك صاعدا فى أوجه	وتحييتى تترى مدى الازمان

ومما نظمه رحمه الله فى التوسل والدعاء هذه الارجوزة : (3)

يا ربنا يا خالق العباد	حل بيننا وبين ذى فساد
ومن يروم الفتك فى البلاد	وهتك عرض الناس بالافساد
يا ربنا بذاتك السنية	وبصفاتك العلى القدسية
وبأسمائك العظيمة التى	تنزهت عن الحدوث المثبت

(I) نشر أزاهر البستان ص 43

(2) » » » » »

(3) هذه الارجوزة نقلتها من خط جدى للأم المرحوم الحاج محمد ابن الحاج عبد السلام داود رحمه الله .

وبالرسول حائز الكمال
 وبالنبيئين ورسول الله
 صلى عليهم ربنا الكريم
 وبالهداة الراشدين الخلفا
 ثم بباقي العشر أهل الفخر
 ثم بأهل بيعة الرضوان
 وبالحماة السادة الانصار
 وببنات المصطفى الرسول
 وبالنبي قد سادت النساء
 فاطمة ذات المقام الارفع
 ثم بولدها الكرام الغر
 لا سيما ريحانتا النبي
 ثم بنسوة النبي جمعا
 لا سيما خديجة المبشرة
 ثم بحزب التابعين المحسنين
 لا سيما سيدهم أويس
 كذاك يونس الامام الخاشع
 ثم بمن في حلية الامام
 لا سيما زهادها الثمان
 ثم بكل من حوى العرفانا
 من عالم ومن صفى وولى
 كالشيخ عبد القادر الجيلانى
 والشاذلى العارف الكبير
 وبالامام حجة الاسلام
 وابن ابي جمرة والمرجاني
 بمشرق او مغرب او بلد
 امنن علينا بالامان السرمدي
 وفرج الغمة والكروبا
 واكشف عن الامة ما عراها
 ولا تسلطن علينا يا رحيم

صلى عليه الله كل حال
 وبالملائكة أهل الجاه
 وعمنا فضلهم العميم
 القانتين المجتبيين الحنفا
 وكل حاضر بيوم بدر
 الصادقين وذوى الايقان
 أولى النباهة والاستبصار
 وببنيه الحائزى التفضيل
 فى جنة فيا له سناء
 من حظيت بكل أمر أنفع
 ذكورهم وبالنات الزهر
 ومن هما بشبهه البهي
 من كل من بنى بها واجتمعا
 وصل بها عائشة المطهرة
 الخاشعين الصالحين الموقنين
 القرنى اليمنى الاس
 ابن عبيد يا له من خاضع
 أبى نعيم صاحب الاعلام
 ذوى النهى والكاملين الايمان
 وأحرز التوفيق والرضوانا
 وكل قطب ذى سناء معتل
 وابن مشيش موئل اللهفان
 ومن غدا من حزبه الخطير
 أكرم به من عالم همام
 وكل ذى قدر عظيم الشأن
 وكل قطر دون حصر عدد
 ونجنا من فتن ومعتد
 وبلغ المقصود والمطلوبا
 وباعدن كل ما دهاها
 بسبب الذنب الغشوم والاثير

واجعل على ذا الثغر (I) ظلا وارفا
واحفظه يا رب من البلايا
ومده بمدد العطايا
وانصر حماته على الاعداء
بجاء سيد الورى الشفييع
أهمى عليه بارى الانام
وءاله وصحبه ومن تلا

وساترا من كل خزي صارفا
ومن مصائب ومن رزايا
وبالفوائد وبالهدايا
وحفهم بغامر الآلاء
ذى المنزل المقرب الرفيع
أزكى صلاته مع السلام
سبيلهم على الدوام مسجلا

ولا نعرف - بالتحقيق - ما هى المناسبة التى نظم فيها سيدى بركة دعاءه
هذا ، والغالب على الظن ان لذلك علاقة بالنكبات التى نزلت بأولاد النقسييس
وأصحابهم من اهل تطوان، اما فى سنة 1078 عند إلقاء القبض على المقدم احمد
ورجاله ، واما سنة 1098 عند ما قتل عدد منهم بتطوان وفاس ، وقد عرفنا ان
سيدى بركة رحمه الله قد تأثر بذلك كثيرا، اذ اخفرت فى ذلك الحادث ذمته
فعظمت مصيبتة ، وانهمرت عبرته ، وطالت لوعته، واعتلت صحته رحمه الله.
ولما كان الوباء العظيم بتطوان سنة 1088. نظم سيدى بركة رحمه الله قصيدة
دعاء وتوسل الى الله تعالى لدفع ذلك الوباء وهذا نصها : «من الكامل»

يا رافع الغماء والثلثاء
يا مانع الانكاد والاسواء
ويمدهم بمنايح الاعطاء
ويجيزهم من دون ما ابطاء
أضحى قريير العين بالآلاء
يا من يؤم لدفع كل بلاء
وتنزهت عن ربقة الشركاء

يا ربنا يا كاشف البلواء
يا دافع الضراء والبأساء
يا من يجيب السائلين اذا دعوا
يا من ينيل الآملين مرامهم
يا من اذا مد الضريع له يدا
يا من يمن على العباد تفضلا
فبذاتك العليا التى قد قدست

(I) المراد بالثغر مدينة تطوان. وسيدى بركة رحمه الله لم ينفرد من بين
علماء المغرب بالغيرة على بلدته والدعاء لها ولاهلها فى توسلاته ، فقد وقفت
للعالم الرباطى الشيخ ابى الحسن علي دنية على منظومة قال فى آخرها بعد ان
توسل الى الله تعالى بالنبي وبآله واصحابه والتابعين والاولياء والصالحين ورجال
الرباط ما نصه :

ونجيه يارب من كل المحن
وكن بفضلك له كفيلا
ولتنف عنه زمرة الاعداء
والطف به رب من الازمات
به وفرق جمع كل الظالمين

أمن رباط الفتح من كل الفتن
اسبيل عليه سترك الجميلا
وحطه واحفظه من البلاء
واكلأه يا رب من الآفات
وشدافيه أزر قوم قاطنين

وجلالك الاحمى الرفيع المستمى
وكلامك القراءان مع كتب السما
وبما حواه العرش من ملك ومن
وبقطب دائرة الوجود بأسره
فهو الوسيلة فى الامور كلها
من رame متلوذا متعوذا
فعليه من رب العلا صلواته
وبسائر الارسال أنوار الدجا
وبصحب خير الخلق أعلام الهدى
والتابعين وتابعيهم بالرضى
وبسائر الاقطاب أرباب النهى
وبمن بفاس من تقى صالح
وبمن غدت مكناسة الزيتون فى
وبمن شددنا الرحل نحو ضريحه
كم فدقد عسفت رواحنا وكم
نعنى أبا يعزى الذى تعزى له
كم ورد وردت تصل من الصدى
كم من لبانات تقضاها الذى
يا ربنا ، يا ربنا ، يا ربنا
جنب منازلنا الوباء وشره
وادفعه يا جبار انك قادر
واحفظ بلاد المسلمين جميعها
وأعد عوائدك الجميلة والطفن
وارفع مصائب اثقلت أكنافهم
واعمر معاهدهم وهذب عيشهم
من كادهم بالسوء فاجعل كيده
وانصر حماة الدين فيه ومن غدا
لله ثغر قد محارسم العدا
فاستره يا ذا الستر ما دام المدا
واجعل على الحسنى الختام وكن لنا
وسواكب الصلوات تترى دائما
وصحابه مع ءاله أهل الندى

وصفاتك الحسنى وبالاسماء
وبما حوته من هدى وسناء
وكلته منهم على الاشياء
خير البرايا الصادق الانباء
وهو الملاذ لدى نزول الداء
حمد المعاد وعاد بالسراء
تغشاه بالآصال والآناء
وبكل من خصصت بالانباء
المرهفين أباهر الاعداء
الحائزين مراتب السعداء
والمحرزين سوابق العلياء
أو عالم يسمو على الجوزاء
أكنافه محمية الارجاء
نطوى الفلا من وافر الاملاء
من سببب ضمته للافلاء
غر المناقب ذات الاستعلاء
فاذا الصدور تنم بالارواء
وافى ضريحكم بلا استيناء
حاشا تخيبتنا فى ذى الرغباء
وامنن الاهى برفع ذاك الداء
واغسل مساكننا من الادواء
وانقله يا ذا القهر للاعداء
ببلادنا تطاون الغراء
وأنت على الآباء والابناء
وأتح لهم أمنا من الاسواء
فى نحره يصلاه وفق جزاء
يسطو بصارمه لدى الهيجاء
وحمى حمى الاسلام فى الانحاء
واصيب عليه شآبيب الاسداء
فى الحال يا رحمن والانهاء
بضريح خير الخلق ذى الاضواء
ما أينعت ثمر على الاقناء

ووجدت في مجموع الفقيه الرافعي التطواني نسخة من رسالة منظومة أرسلها سيدي بركة رحمه الله من امكناسة الزيتون الى أخيه السيد احمد بتطوان وهذا نصها :

علي الى الاسنى أخيه الرضى البر
ورحمة مولانا تسح كما القطر
بمكناسة الزيتون باليمن واليسر
ونحن بحمد الله طرا على خير
يمن بذاك فى المقام وفى السير
وأبدى من الاقبال ما ليس فى الفكر
وبالغ فى الترحيب والعطف والبشر
وسنى له الاسعاد فى كل ما عصر
ازديار إمام الغرب فى أول الامر
ونسأله سبحانه الفوز بالخير
على نمط يرضيه من غير ما عسر
عليه صلاة الله تترى بلا حصر
خصوصا عليا ذا المئاثر والبر
أبو حسن مأوى المفاخر والقدر
وفى كل خل أو صديق أخى بر
ونلهج دوما بالثناء وبالشكر
عليه كما التسليم فى كل ما دهر
ومن كان فى نهج هداهم على إثر

من الراجى عفو الرب من كل ما وزر
سلام عليكم رائق متأرج
وبعد فانا قد حططنا رحالنا
يوم الخميس من أوائل شهرنا
كما نرتجى من ربنا طول عمرنا
وإن أمير القوم قد هش للقا
وقابل بالاجلال والوصل والرضى
أدام الاله نصره وعلاءه
ونحن على إزماع رحلتنا الى
وبعد الى فاس بتيسير ربنا
وتسهيل ما رمناه فى كل حاجة
بجاء رسول الله صفوة ربنا
وأصحابنا يحبونكم بسلامهم
ومن نحن فى مأواه فى خير مكرم
وبث سلاما منا فى الاهل كلهم
ونحمد مولانا على كل نعمة
ونثنى على خير الورى بصلاتنا
وءاله والاصحاب والزوج جملة

ووقفت له أيضا على تقریظ لديو ان تلميذه الفقيه أبى عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني الذى سيأتى الكلام عليه قريبا، وهو تقریظ نثرى شعري نرى من الفائدة إثباته هنا أيضا ونصه من خط منشئه رحمه الله .

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما. أما بعد حمد الله مجرى الالسن بقوالبالمباني، ومشعر الانفس لاساليب المعانى، منطق مناطيق الحكماء بما يغنى عن نغمات الغوانى، ومذلق مقاويل الشعراء بما يغنى به أرباب المغانى، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المتحف بآيات المثانى، وعلى ءاله وأصحابه المستغنين بما أنزل اليهم عن رنات المثانى، فانى لما وقفت على المقطعات الشعرية، والمرصعات الدرية، والقصائد الكوثرية، والفرائد العبقرية، مما عني بجمعه وإثباته المصقع الاديب، السמידع الاريب أبو عبد الله سيدي الحاج محمد الرافعي كان الله له، وبلغه من خير الدارين

أمله، ألفيتها تبهر المتصفح لها بهرا، وتنهر المتزحزح عنها نهرا، وتسحر الالباب،
وتدحر ذوى الزيغ والارتياب، قد نزع بمعظمها منازع غير عقيمة، وشرع لها
مشارع متألفة الرواء رقيقة، وأتحف بها الرائيين وأطرف، وشنف أسمع الاذنين
لها وأترف، واصطنع لها صنائع لا يبتريها نحول، وأطلع بها طوالع لا يعترىها
أفول، وامت بها الى المصطفى صلى الله عليه وسلم بوسائل مبرمة العرى، وبث
فيها من شمائله صلى الله عليه وسلم ما لا يمكن أن ينبذ بالعرا، وأحي بها فى هذا
الصقع من جناب الامتداح مواتا، وزين فيه تراجع المنشدين لها مناطق وأصواتا،
ونفق أسواق الادب بعد كسادها، ووسق أندية الحسب بعد انتشار سلوكها
وفسادها، فلا جرم ان القريحة اذ ذاك انتعشت بعد دوى عودها، والعزيمة
اهتشت لها مع خبو وقودها، فنفتت بهذه الابيات، وإن كانت كاسفة الآيات :

هذى خرائد طوقت بلئال
هذى خمائل قد تضوع عرفها
هذى عرائس جليت اذ جليت
هذى نفائش لا تباع فتشتري
كلا فلا يلفى لها من معدل
لم لا وقد برقت بوارقها بما
حوت الطريف من المديح وتالدا
وكفت كمثل الودق فى توكافه
أنى تضاهيها الرياض ولو غدت
أقنت معانيها متاجر تقتنى
بخلاف ما أجلى زهير من حلى
عانى فما أغنى لديه من عنا
أيقاس ذاك بمن تغنى واعتنى
وغدا به متبجحا مترنحا
كلا فذا يحظى بما لا ينقضى
إذ قد ثنى بأغنة لثنائه
كهف الخلائق عند كل مأرب
من الاله على الجميع بوصله
أثنى عليه دائما صلواته

هذى فرائد خطرها متعال
يوزى بمسك أذفر وغوال
أسنى منصتها بمجلى عال
إلا بأنفس كل علق غال
أنى تفيد نفائس الاموال
وسع البلاد ببهجة وجمال
وأنت عليه مقسما بتوال
وكفت بورد سائغ السلسال
فينانة محفوفة بظلال
ما إن تبور وربحها متوال
يجنى أزاهر مالها من بال
بثنائه عن ربة الاضلال
بمديح خير الخلق ذى الافضال
يمسى ويصبح منه فى إقبال
عند الاله الواحد المتعال
ونوى الخلق بما أتى من قال
ضخم الخلائق عادم الامثال
وأنالنا ختما بحسن الحال
وسلامه مع صحبه والآل

وكتب عبد الله سبحانه علي بن محمد بركة وفقه الله وكان له بمنه وحسبنا
الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العلمين .

وله رحمه الله هذه الابيات فى تفضيل الجهاد على غيره من العبادات :

يا من غدا بعبادة يتقرب	ويرى لدى الحرمين دأبا يدأب
تالله لو ابصرت أقواما لهم	بجهاد أعداء الاله تقرب
لعلمت فى جنب الذى عاينته	أن الذى عاينته لا يحسب
ولئن أسح الدمع فى وجناته	متعبد يخشى الاله ويرهب
فدما أولئك غاديات دائما	بنحورهم وهى الطلا والمخضب
أو كان ينصب خيله فى سمهى	فخيولهم عند اللطيمة تنصب
وغدوا بعثير السنايك قشعا	والنقع عندهم العبير الاطيب
وحديث خير الخلق أضحى مفصحا	بمقاله وهو المقال الاعذب
ما اغبرت القدمان قط لا مرى	بسبيل رب الخلق اذ يتقلب
فتمسه نار الجحيم بأسرها	بل فى النعيم قراره لا ينكب
ولقد أتى أن ليس يجمع كافر	مع قاتل فى النار حيث يعذب
وشهادة القرءان فى الشهداء إذ	باتت حياتهم ورزق طيب
لم تبق قولة قائل فى فضله	هيهات يغنى مطنب اذ يطنب

وله رحمه الله هذه الابيات وقد نظمها عند ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه (I) :

أيها القطب اننى مستغيث	بجنابكم ذى النصاب السننى
نرتجى بازدياركم نيل سؤل	نقتضيه من الاله العلى
وخصوصا حسن الختام لنحظى	بالمفاز العظيم يوملقى
ونحوز الرضا بدار خلود	فى جوار الرسول خير نبى
ونرجى من الاله دواما	فتح اغلاق كل علم سننى
وحياة بطيب عيش لكل ال	أهل والاخ والخليل الوفى

وقال تلميذه ورفيقه أبو الحسن علي مندوصة فى نفس المعنى والمقام :

شوقى وشوق المطايا	لابن مشيش شديد
من ركن مجده عالى	فاق السماك مجيد
ما مثل عبد السلام	أس المعالى عميد

(I) هذه الابيات والتى يعدها فى معناها، قد أطلعنى عليها صديقنا الاستاذ محمد المنونى عند زيارتى له ببلده مكناسة الزيتون فى أوائل سنة 1368

ونظم الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي في نفس
المعنى والمقام أيضا هذه الابيات :

بحر المفاخر طام	بقبر عبد السلام
شمس الهدى ابن مشيش	من جل عن كل دام
من قد قطعنا اليه	شم الربى والأكام
لكى ننال جوارا	معه بدار السلام

ولعل هذه الابيات كلها قيلت في إحدى الرحلات التي كان المترجم رحمه الله
يقوم بها مع أصحابه وتلاميذه لزيارة الاولياء الذين كان يعظمهم ويحترمهم مع
الوقوف التام مع الشريعة وحدودها والسنة النبوية المطهرة، رحم الله الجميع .
ثم إن اشتغال سيدي بركة رحمه الله بالعلم والعمل والتدريس والعبادة .
كان أكثر من اشتغاله بالادب والشعر، وقد علمت أنه كان له مسجد جامع يؤم
به في الصلوات الخمس ويدرس ويخطب ويعظ، فكان رحمه الله يدرس العلم مع
الطلبة، وكان لشدة حرصه على إفادتهم ينظم لهم المسائل العلمية في أراجيز
يسهل حفظها، وقد عثرت على بعض تلك المنظومات، وسأثبت هنا بعضها، أولا
حفظا لها من الضياع، وثانيا لعل طلبتنا يستفيدون منها أيضا فيعم النفع بها
ويرحم الله بذلك ناظمها.. فمن ذلك هذه الابيات التي عدد فيها المواضع التي
يتعين فيها انفصال الضمير (I)

أحمد ربى وأصلى دون عد	على محمد ومن له استند
قاعدة الضمير أن يتصلا	في الاختيار والتأتى أصلا
وان تعذر اتصاله انفصل	وذاك في اثنين وعشرة حصل
في حصره بانما أو إلا	أو سبقه لعامل تجلى
ومثله الفصل بعائد بدا	وحذف عامل له قد وردا
كذاك حرف النفى ان فيه عمل	أو واو صحبة كذا أيضا جعل
ورفعه بصفة قد اسندت	لغير من في نفس الامر وجدت
فمطلقا يفصله البصرى	ومع لبس يفصل الكوفى
ورفعه بمصدر أضفته	الى الذى محله نصبته
وفصله مستوجب باما	ولام فرق بعد ان قد أما
كذاك إن ينصب بعامل عمل	في مضمرة من قبل فالنصب وصل
لكن مع اتحاد رتبة يتم	به انفصاله وذاك قد حتم
وزاد في التصريح أعنى الازهرى	عكس الذى قبل مضى فى المصدر
وذاك إن يضاف لمرفوع وقد	أكمل بالمنصوب مضمرا فقد

وزاد أيضا ان يكون فى النداء
لكن يقال هذه مرادة
هذا وأهدى للاله حمده
ثم الصلاة والسلام كل حين

كمثل يا إياك أو أنت أقعدا
فى حذف عامل فلا زيادة
على تمام ما أردت عده
على الرسول والصحاب أجمعين

ومن ذلك هذه الابيات التى نظم فيها مسوغات الابتداء بالنكرة وقد حصرها
فى عشرة تبعا لابن هشام فى المغنى فقال (I) .

مسوغات الابتداء بالنكرة
أولها الوصف لها اذ يعنى
والثان أن تعمل مطلق العمل
والثالث العطف عليها ان عرف
والرابع الاخبار بالظرف كذا
والخامس العموم فيها مطلقا
والسادس المقصودة الحقيقة
والسابع المقصود منها الفعل
دعاء أو تعجب قد ميزا
والثامن الاخبار عن قد خرق
وتاسع وقوعها بعد إذا
وعاشر وقوعها فى صدر

حرر منها ابن هشام عشرة
فى اللفظ والتقرير أو فى المغنى
من رفع أو نصب ومن جر حصل
مسوغ بأول أو ما ردف
بالجار والمجرور إن خصا خذا
بالذات أو بالغير فيما حققا
كرجل خير من ذى الخليفة
معنى وذا الى الثلاث يجلو
وقائمه هذان ان ذا جوزا
عادتنا عنها كذيب قد نطق
ذات الفجاءة بذاك يحتذا
جملة حال فاحفظن وادر

ومن ذلك هذه الابيات التى نظم فيها ما ينوب عن المصدر المنصوب على
المفعولية المطلقة بقوله (2)

لربى الحمد مثنى بالصلاة
وبعد فالمفعول أعنى المطلقا
والاصل فيه أن يكون مصدرا
فنا ب عن مبين فيما أثر
كلية له كجد كل جد
ونوعه مثل رجعت القهقرا
وصفة كسرت أحسن المسير
نحو عملت فيه ذاك العملا
يعجبه السخون والبرود

وبالسلام للنبي ذى الصلات
مؤكد مبينا قد حققا
وقد ينوب عنه دال قررا
ثلاثة عشر فحصل ما ذكر
كذاك بعضيته فيما قصد
وهيئة كمات ميتة ترى
كذا إشارة اليه يا خبير
كذا المرادف كقول من خلا
والتمر حبا ما له مزيد

(I) من حواشى المترجم على المكودى

(2) من نفس المصدر أيضا.

كذا ضميره كلاً أعذبه
ووقته كنمت ليلة الذي
وما في الاستفهام نابت نحو ما
وذات شرط نحو ما شئت فقم
نحو اجلدوهم ثمانين كذا
نحو ضربت العبد أسوطاً علم
وفي اسم مصدر يكون علماً
بعض بذاك فيه وابن مالك
وإن يكن مؤكداً فقد ذكر
مرادف نحو فرحت جذاً
نحو تبتلت له تبتيلاً
ثم كذا اسم مصدر غير علم
والحمد لله الذي قد تممه
مع سلامه على محمد

في محكم التنزيل حل منصبه
قد رمدت عيناه طراً فاحتذى
تضرب زيدا فاعلمن ما رسماً
وعدد في ذي النياحة قد أم
ءالة فعل فاعرفن المأخذ
بئالة معتادة كما رسم
نحو بررت برة قد حكماً
صرح بالنفي له في ذلك
ثلاثة تنوب عنه فاعتبر
وما يلاقى في اشتقاق حملاً
فاحفظ وقيت السوء والتبديلاً
نحو توضحاً وضوءاً مستتم
وصلواته تسح مبرمة
وءاله وكل من به هدى

آيات له في بيان سمت القبلة

قال العلامة سيدي محمد بن أحمد العلمي الفاسي في حاشيته على شرح
الفشتالي لرسالة المارديني ما نصه (I) : «ان بعض الفقهاء كان طلب منى قبل
هذا بنحو خمسة أعوام شرح نظم للفقهاء العلامة أبي الحسن علي بن أحمد (2)
بركة التطواني في هذا الموضوع (يعني القبلة) ولم نجد قبل وقتنا لتلبية طلبه،
ولنورد نص النظم المذكور متخللاً ببعض ما يوضحه .

حمد الآله والصلاة والسلام
اعلم وقاك الله كل فتنة
بمصر مع أندلس ومغرب
على محمد لدى البدء ترام
أن التوجه يرى للقبلة
ونحو ذاك من بلاد العرب

أي من كل بلد كان غربياً عن مكة في الربع المعمور الشمالي كالبلاد التي
ذكرها فإن قبلتها إلى جهة المشرق، وقد بين كيفية التوجه إليها بقوله :

بجعلك القطب الشمالي على
وجعل مشرق المصيف الأول
ومغرب له وراء ظهرك
أذنك اليسرى دواماً مسجلاً
بعينك اليسرى وإذا أمر جلي
ومشرق للاعتدال نحوك

(I) حاشية العلمي على شرح الفشتالي ص 166 طبع فاس سنة 1358 .
(2) والد سيدي علي بركة اسمه محمد لا أحمد .

قبالة الوجه وصير مغربه من خلف أذن اليمين مصحبه
وجعل مشرق الشتاء الاول بعينك اليمنى بلا تمحل
وقيل للوجه واما مغربه فكتف يمنى لديه تصحبه

وحاصل هذه الابيات أن من بأرض مصر والاندلس والمغرب ومن كان مثلهم، قبلته لجهة أقصى مشرقى الشمس فى الصيف والشتاء وما بينهما، وذلك بأن تجعل القطب الشمالى على أذنك اليسرى فتكون مستقبلا لمشرق الاعتدال، أو بأن تجعل القطب الشمالى على أذنك اليسرى فتكون مستقبلا لمشرق الاعتدال، أو بأن تجعل مشرق الصيف الاول أى أقصى مشارقه على عينك اليسرى فتكون مستقبلا لمشرق الاعتدال، لانه يكون بين عينيك، أو بأن تجعل مغربا له أى للمصيف وراء ظهره فتكون مستقبلا لمشرق الشتاء، أو بأن تجعل مشرق الاعتدال نحوك قبالة وجهك، أو بأن تصير مغرب الاعتدال من خلف الاذن اليمنى فتكون مستقبلا لمشرق الشتاء أيضا، أو بأن تجعل مشرق الشتاء الاول أى أقصى مشارقه بعينك اليمنى فتكون مائلا لجهة الجنوب قليلا، وقيل تجعل مشرق الشتاء الاقصى قبالة وجهك فيكون ميلك للجنوب أكثر، أو بأن تجعل مغرب الشتاء على كتفك الايمن فتكون مستقبلا لمشارك الصيف أو مائلا عنها الى مشرق الاعتدال، كل ذلك يفيدك التوجه الى الجهة. ثم قال :

ريح الصبا اجعلن بطرف أيسر وول ظهره الدبور يا درى
مع بعض ميل لليمين والشمال بكتفك اليسرى عليها الاعتدال
وأذن اليمنى تقابل الجنوب

ريح الصبا هى الريح الشرقية، والدبور هى الريح الغربية، ومضمون هذا الوجه، التوجه لوسط المشرق، وهو مشرق الاعتدال أو الميل عنه قليلا لجهة الجنوب ثم قال :

بكتف اليسرى وحين المطلع
ثم بنات النعش تأتى فى الغروب تقابل الايسر من ضد قع

المراد بنات نعش هنا، الكبرى، لا الصغرى لانها لا تغيب، أما الكبرى فانها تغيب بقرب مغرب الاعتدال فى ناحية الشمال، فاذا جعلتها حينئذ على كتفك اليسرى واستدبرتها قليلا تكون مستقبلا لوسط المشرق أو مائلا عنه قليلا الى الجنوب، وأما عند طلوع بنات نعش الكبرى فى جهة المشرق مائلة الى جهة الشمال فانك تجعلها مقابل الايسر من أمام الكتف الايسر الذى هو ضد المقابلة من خلفه، فتكون مستقبلا للمشرق مائلا الى الجنوب قليلا، ولما نقل التاجورى قول ابن سراقه المغبرى أن أهل السوس الاقصى ومن مال منهم

الى بحر الظلمات من جعل منهم الاحمر اذا طلع بين عينيه أو بنات نعش أى اذا طلعت على أذنه اليسرى، فقد استقبل القبلة، قال أظن الكبرى لا الصغرى لأنها لا تغيب، والمراد بالاحمر هو السماء لأنه يطلع قريبا من الاعتدال الخريفى ثم قال وقال بعض العلماء من قرن أو جعل المشرق من أمام أى مالك لأنه قد يغتفر مغربه بالظهر فى أى زمن صحت صلاته لدى الامام ميلا يسيرا ان عرا فيما ذكر

هذا أيضا خاص بمن كان غربيا عن مكة لان استدبار مغارب الشمس فى أى زمن من صيف أو شتاء يلزم منه استقبال مشارقها كذلك وهو قوله، أو جعل المشرق أى جهته على سمتها التسعينية الآخذة من الجنوب والشمال لأنه لا يخرج عن جهة السميت حينئذ بل يصادف السميت أو يميل عنه قليلا ما لم يخرج عن الجهة فانه لا يغتفر كما تقدم ثم قال :

وقال بعض ناظما فى القطب قطب السماء اجعل حذو أذن يسرى والشام خلفا وأماما باليمن هذا ولم يذكر هناك المغربيا ضمن هذا شرحه الاجهورى وبالصلاة والسلام ختم ذا

فى غالب الاقطار دون ريب بمصر، والعراق حذو الاخرى مواجهها تكن به مستقبلا وهو كمصر فى الذى قد رتبنا والحمد لله مدى الدهور على النبى ومن طريقه احتذى

والمراد بالعراق ما يشمل العربى والعجمى والله اعلم اهـ.

رسالة منه الى الشيخ عبد السلام القادرى

وقد وقفت فى الخزانة الكتانية بفاس، على أصل رسالة كتبها المترجم رحمه الله الى الفقيه العلامة الشريف أبى محمد عبد السلام بن الطيب القادرى رحمه الله، وهذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم. وصدى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. لسيدنا ومولانا الفاضل السرى العالم الدين الحبر الامام البحر الهمام الحسن الاخلاق، الطيب الاصول والاعراق، ذى الضئضىء الطاهر السننى، سيدى عبد السلام بن الطيب القادرى الحسنى، أصلح الله سبحانه أحواله، وأنجح مقاصده وآماله، من عبد الله سبحانه على بن محمد بركة كان الله له، وبلغه من خير الدارين أمله، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، فانا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ذو القوة والحول، والمنة والطول، هذا وإننا لم نزل نتوكل قدومكم للزيارة، وورودكم الى ضريح مولانا عبد السلام الذى استطار

نوره وأنار إنارة، حتى أخبرنا أنكم تأخرتم عن الورود، وحصل في الوقت ما أوجب لكم المقام والقعود، فتحسرونا لما فاتنا من مطالعتكم السنينة، ومحاضرتكم البهية، لا سيما وقد كان ورودكم صحبة من يغتبط بصحبته، وتنفق الانفاس والاعلاق في مجرد رؤيته، الامام الخاشع الاواه، أبى العباس سيدي احمد بن عبد الله، أبقى الله سبحانه بركته، وأدام على صالح الاحوال بهجته، مع من كان يرافقه من السادات الاجلاء، والقادات الفضلاء، الذين تشد الرحال لملاقاتهم، وتشد اليد على الظفر بمواصلتهم ومصافاتهم، وفر الله سبحانه عددهم، وكثر مددهم، وربما حدثنا أن سيدي احمد بن عبد الله كان به مرض، فلعله المانع الذي له عرض، الا أنا قد سمعنا بعد ذلك أن الله سبحانه شفاه وعافاه، ووالى عليه أياديہ ونعماه، أدام الله سبحانه له ولنا ذلك، وسلك بجميعنا أحسن المسالك ونؤكد عليكم سيدنا أن تسلموا منا عليه أتم السلام، وعلى جميع أهل تلکم الحضرة الرفيعة السنام، خصوصا الناسك الابر، العالم الاشهر، سيدنا ومولانا أخاكم سيدي العربي، ومحبننا وصفينا وخليلنا، وناقع غلتنا وغليلنا، مولانا سيدي أحمد القادري، وأخبروه أنا لمحدثته بالاشواق، وللإجماع به خصوصا في هذا الوقت على غاية الاشتياق، وسلموا منا على بركة الوقت سيدي احمد اليمنى، والفقيه النبيه صاحب التصانيف المفيدة، والتتاليف العديدة، سيدي المهدي، والاصيل الاريب، الخير اللبيب، سيدي أحمد الوزير، والمحب الصادق سيدي الحاج مسعود المنقوشى، والفاضل الماجد سيدي محمد الدريج، وسائر أصحابكم وخلانكم، ومن انتمى اليكم من جماعتكم وإخوانكم، كان الله لنا ولهم بما كان لوليائه، وجعل خير أيامنا وأسعدنا يوم لقائه .

هذا وانه سيدنا قد وقع عندنا في هذه الايام بين بعض الناس اختلاف ومنازعة في مسألة عذاب القبر الثابت بالكتاب والسنة واجماع أهل الحق، فقال بعضهم ان العذاب الحاصل في القبر، انما هو بمجرد رؤية صاحبه لمقعده الذي يصير اليه لا أنه يحصل له العذاب والاحتراق بالنار بالفعل، لان ذلك انما يكون في الدار الآخرة بعد البعث، واستدل هذا القائل بحديث الصحيحين، اذا مات الرجل عرض عليه مقعده الحديث، ومثله قوله تعالى، النار يعرضون عليها الآية وقال البعض الآخر بل ان العذاب حاصل بالفعل فيحرق صاحب القبر بالنار، ولا مانع من ذلك، والذي يكون في الدار الآخرة هو الدخول لدركاتها على ما هي عليه، وأى مانع من أن ينقل الله سبحانه النار من محلها لمن يريد تعذيبه، أليس قد جعل في (I) ومن فيحها حسبما جاء في الحديث، اشتكت النار الى ربها الخ. فكيف بالقبر الذي هو من عالم

الآخرة واستدل هذا القائل أيضا بظواهر كثيرة كقوله تعالى، أغرقوا فادخلوا نارا، وبحديث القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار الى غير ذلك وأما محبتكم فالذى مال اليه أن أحوال المعذبين مختلفة، فمنهم من يعذب برؤيته لمقعده كما فى الحديث، ومنهم من يعذب بالفعل، ومنهم من يعذب بما يدخل عليه من لهيبها ونسيمها، وفى حديث ذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من جملة أحاديث السؤال قال فيه بعد أن ذكر حال من لا يجيب الملكين ولا يدرى ما يقول، فينادى مناد من السماء، أفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا الى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، فهل هذا الاصابة بالنار حقيقة، وما ورد أيضا من سماع أصوات المعذبين كحديث مر النبى صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال انهما يعذبان الخ. وحديث ان أهل القبور يعذبون فى قبورهم عذابا تسمعه البهائم، فالظاهر من هذا أنه بأمر زائد على مجرد رؤيتهم لمقاعدهم، وقد يكون العذاب حاصلًا بغير ما ذكر من الاصابة بالنار، بل بالضرب والتضييق ونحو ذلك من العذاب المجانس لفعل صاحبه الذى عذب لاجله، كما يدل على ذلك حديث الرؤيا الطويل فى طوفان الملكين برسول الله صلى الله عليه وسلم على أقوام (I) صاحب الكلوب وصاحب الحجر الذى يشدخ به رأسه، الحديث بطوله. على أن الكيفية فى كل ذلك غير معلومة على ما هى، اذ أمور الآخرة خارجة عن نمط هذه الدار، ولذلك أنكر جماعة من العلماء البحث فى ذلك بعد الايمان بأصل ذلك والاقتصار على ما ورد فى الكتاب والسنة، الا أن حرف النزاع بين هذين الفريقين الذين أشرنا اليهم، هل يعذب احد بالنار ويحرق قبل يوم القيامة ام لا على ما مر قبل، مع اتفاقهما على عدم الدخول على ابواب النار على حسب ما يكون بعد الحشر والنشر، وعلى مقتضى هذا يكون ما ورد فى الاحاديث كقوله صلى الله عليه وسلم، رأيت عمر بن يجر قصبة فى النار، واطلعت فى النار، فرأيت أكثر اهلها النساء الى غير ذلك مما لا يحويه ديوان، محمولا على المجاز والتعبير عما سيقع بلفظ ما وقع تحقيقا لوقوعه واشارة لتيقنه وقرب وقوعه حسبما هو مهيع معروف فى الكلام . ثم ان مثل ما ذكر فى هذا كله يجرى فى المنعمين فى قبورهم وفيمن رءاهم عليه الصلاة والسلام فى الجنة كما جاء فى غير ما حديث بعد الاتفاق على الشهداء انهم يرزقون حقيقة، وقيل مثل ذلك فى الانبياء عليهم الصلاة والسلام وفى الاطفال .

ثم حجب الينا بعد تزوير هذا كله أن أضمن المسألة فى أبيات من البسيط، واهديها الى سيادتكم هدية الخريدة فى الغبيط، لما فى النظم من استمالة

النفوس، وازاحة الكد والاراحة من البؤس، فاذا ورد عليكم ذلك كله ان شاء الله تعالى فاتحفونا بالجواب عليه نظماً ونشراً، وأحضروا لنا من كلام الائمة والاحاديث النبوية ما لا يبقى في الصدور غما ولا نكراً، فانا افى هذه البلاد كما لا يخفى عليكم، لا يتيسر لنا من كتب الحديث ولا شروحها ما يتيسر في تلكم البلاد، مع قلة المساعد وعدم المفيد والمفاد، وها نحن الآن سيدي لم نلف من نتعاطى معه من العلم قلامة ظفر، ولا من نخوض معه فيما أشكل علينا منها في القل والكثر، نسأل الله سبحانه لنا ولكم الهداية والتوفيق، والسير دائماً على أقوم طريق .

ثم انا أيها السيد نريد نسخ متن ألفية الامام العراقي التي في السير ، فانا قد ظفرنا بشرحها ولم نلف نسخة وعسر علينا استخراجها من الشرح لتصحيف وتحريف بها، وها نحن نبعث كراسين من الكاغد الرقيق لصاحبنا الحاج أحمد الصبان التطواني ونأمره أن يأتيكم بهما فاذا أتاكم الله فانظروا لنا نسخة عتيقة ومن ينسخ لنا، والاجرة يدفعها له الحاج المذكور فان لم يتيسر الناسخ فانظروا له نسخة والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان .

ثم انا جعلنا الابيات التي ذكرنا في ورقة على حديثها حسبما يصلحكم كل ذلك ان شاء الله . والله سبحانه ولي التوفيق .
ويسلم عليكم الوالد والاخ والاخوان ملتزمين صالح دعائكم، ونحن كذلك والسلام. في اوائل ذي القعدة سنة 1106. عرفنا الله خيرها وخير ما بعدها» (انتهت من خطه رحمه الله) .

وفاته وضريحه

ذكر صاحب الصفوة أن سيدي بركة رحمه الله توفي في حدود العشرين ومائة وألف .

ووجدت في حوالة جامع السوق الفوقى أن وفاته كانت في شوال سنة 1120. وذكر القادري في نشر المثاني والتقاط الدرر، أن وفاته كانت في 29 شوال 1120. وفي مجموع الفقيه العدل سيدي عبد الله شطير التطواني أنه توفي يوم الاربعاء 29 شوال 1120 .

أما تاريخ ولادته فاني لم أقف عليه ولا أدري كم كان عمره حين توفي عليه رحمة الله .

وأما ضريحه فهو مشهور في زاويته التي بالسوق الفوقى من تطوان ، وهي زاوية مفتوحة الابواب لجميع المسلمين تقام فيها الصلوات الخمس والجمعة وتقرأ بها أحزاب القرءان صباحاً ومساءً ، ويقرأ فيها كتاب دلائل الخيرات

جماعة فى كل يوم، وبها كرسى للوعظ، وتلقى بها الدروس العلمية، وقد قرأت فيها مدة على شيخنا العلامة سيدى محمد المرير حفظه الله، ثم بعد انتهاء دراستى فى جامعة القرويين بفاس حرسها الله، توليت التدريس بها بضع عشرة سنة درست فيها علوم الفقه والنحو والبيان والمنطق والحساب والجغرافية وغير ذلك، وقد دفن بهذه الزاوية المباركة جماعة من العلماء والاشراف والاعيان رحم الله الجميع .

مدحه ورثاؤه

العلم الغزير، والعمل الكثير، والعبادة المتواصلة، والادب واللفظ والتواضع والحلم، والنزاهة وعلو الهمة، والزهد فيما فى أيدي الناس، والغنى والكرم، والجود والاحسان، هذه الاوصاف هى التى كانت فى سيدى الحاج على بركة، وهى التى جعلته بحق عالم تطوان وأديبها وصالحها، فكان كل من اتصل به يحبه، وكل من عرفه يمدحه، ولم نجد من بين رجال تطوان فى ذلك العهد من اشتهر شهرته، أو مدح بمثل ما مدح هو به رحمه الله .

فالعلماء والادباء يتلمذون له، والناس على اختلاف طبقاتهم يحبونه ويخدمونه والحكام يعظمونه ويحترمونه، واسمع ما وصفه به تلميذه العالم الاديب أبو عبد الله ابن زاكور الفاسى، فانه بعد أن ذكر صاحبه أبا الحسن الحاج علي مندوصة، قال فى شيخه سيدى الحاج علي بركة، ما نصه: (I) «والذى أولاه هذه المنقبة، وأرقاه هذه المرقبة، شيخنا العلامة، ذو اليمن والبركة، أبو الحسن سيدى علي بن محمد بركة، لانه فى الحقيقة زين تلك البلاد، الذى أولاه من المحاسن الطارف والتلاد، حتى فاخرت مصانع بغداد، وطاولت زاهر ابن عباد، اذ هو الذى أصار تربها تبراً، لما طلع فى سماء معارفها بدراً، وأعاد حصباءها دراً، لما فاض فى أرجائها بحراً، ولولا ما أولاه من المحاسن، ما عذب ماؤها الآسن، فبجما له تذكر، وبروائه تحمد وتشكر، أبقاه الله يبدى جمالها، ويظهر كمالها، ومن مدحى فيه، هذا القصيد الذى ألم بفضلته ولم يستوفه، وهو (2)

لقد كدت أقضى معنى حسيرا
كراى وأذكى حشاي سعييرا
ومن دنف قد حكيت نضييرا
صدود الالى أودعوني زفييرا
فأجدر به أن يشيب صغييرا

الى م فؤادى يذوب زفييرا
عرانى من الوجد ما قد نفى
فمن رقة قد حكيت نسима
وشيبنى والشباب نضيير
ومن لسعته أفاعى الصدود

(I) نشر أزاهر البستان ص 40.

(2) ذكر ابن ازكور رحمه الله فى ديوانه ان نظمه لهذه القصيدة كان فى شوال سنة 1093 .

فماذا على ودهم لودنا
ومادا على عاذلى لو غدا
فيا عاذلى لا تكن عاذرى
ويا هاجرى لا تكن واصلى
فمذ شمت برق العلا والهدى
سلوتك فانجاب ليل الاسى
فلا مقلتى تستهل دما
ومن شام برق العلا مستطيرا
وهان على الذى قد لقيه
وانقذنى من ظلام الهوى
إمام تسربل بالمكرمات
وطاول بدر السماء منيرا
وأضحى لكأس المعالى مديرا
تواضع حلما فزاد ارتقاء
ومن رام إخفاء بدر الدياجى
تناهت مذهبها فى العلا
فطورا تراه لقوم بشيرا
وكاين تراه يفك المعنى
الى رقة لو حواها النسيم
ونظم ينسبك شعر جريـر
ووجه جلا البشر عنه الوجوم
تضىء الدياجير غرته
ألا هل أتى معشري أننى
وءاويت منها الى جنة
لدى عالم قد حوى عالما
والحفها من محاسنه
وأسرجها بسراج الهدى
فلا نجد الا استطار سنى
ولا غضن الا تشنى ارتياحا
أضاء سناها وضاع شذاها
إمام الورى بشفيـع الورى
وأسبل عليه برود القبول
وهبنى كذاك فمن لى بما

وما ضر لو نعشونى يسيرا
عذيرا لمن كان مثلى أسيرا
ولست أؤمل منك عذيرا
الى أن توازى الحصاة ثيرا
لدى بركات العلا مستطيرا
وأسفر صبح السرور بشيرا
ولا كبدى تتداعى فطورا
فلا يعد من ددا وحبورا
ت لما سقانى نداء نميرا
وكان لقلبى المعنى مجيرا
وأرعى إزار العفاف كيرا
وساجل قطر الغمام غزيرا
وأمسى لروض العلوم سميرا
ورام خفاء فزاد ظهورا
بجنح دجا زاد نورا كثيرا
فليس يرى لسواها ظهيرا
وطورا تراه لقوم نديرا
ويوضح ما كان صعبا عسيرا
لما قصف الدهر غصنا نضيرا
إذا أنت عانيت منه سطورا
فليس يرى أبدا قمطريـرا
فتحسبها قبسا مستنيرا
علقت بتطوان علقا خطيرا
فلا شمس فيها ولا زمهريـرا
وحبر تضمن خلقا كثيرا
برودا حكمت سندسا وحريرا
وكم مكثت قبل تحكى قبورا
ولا غور الا تلاء نورا
ولا طير الا تغنى سرورا
فشمت سنا وشمنت عبيرا
أصخ لنظامى وكن لى عذيرا
فلمست حبيبا ولست جريـرا
أحلى به مجدك المستنيرا

ومن أرهفته خطوب الدنا
فعذرا لمن خانه دهره
ودونك منى سلاما كريما
فكيف يحوك القريض النضيرا
وأخنى عليه الزمان مغيرا
يفاوح عرفه روضا مطيرا (I)

ومما مدح به مترجمنا رحمه الله هذه الابيات (2)

لذ اذا ينصب خطب شرکه
هو هو الحبر بحر العلم اذ
والتقط ان فاه منه دررا
حبذا التحرير لولا أنه
سيدي كل المعالي جمعت
دونك الوافد قربه ألم
فقد الحيلة فى باب اللقا
عطفة منكم فان الوجد قد
وسلام طيب تصحبه
بعلي القدر عين البركة
ليس علم ثم الا ملكه
فعلى التعبير حاز الملكة
كلما قرر صعبا سبكه
فيك لم ترم عليها شبكه
تر أن البعد منكم هلكه
لم يذر منهاجا الا سلكه
شرد النوم وسهدى تركه
رحمات وأتم البركة

وكتب رحمه الله الى تلميذه ابن زاكور معاتبا له على عدم المكاتبة، فأجابه
رحمه الله بهذه القصيدة البديعة :

ربع المودة بالحشا مانوس
ولدي للاحاب ذكر معاهد
ولئن كبا طرف القريحة عنهم
فهو اى صب فيهم ومودتى
سندى أبا حسن أمثلك وهو من
وتشعشت أنواره اذ أشرقنت
وبه على تطوان صابت أسعد
ينمى الى مثلى غدرا وهو من
ويذم من نبذ العهود وحاد عن
غيرى قتيل الود مرموس الهوى
أيصدنى عن نشوتى بخطابهم
لا والذى أعلاك اذ سمت العلا
يهوى الاحبة ما عراه دروس
روض الفؤاد بحبها مغروس
لحوادث منها الحشا مخلوس
إن المودة للهوى تأسيس
أرسى لديه العلم والتقدیس
منه بذور معارف وشموس
ولقد هما من قبل فيها البوس
ما زال أفراس الوفاء يسوس
سنن العلا انى إذن لخسيس
تشنيه عن سنن الكرام عروس
وهو المنى رود زهت ولبوس
عرشا عنت لجلاله بلقيس

(I) وقد وقفت على هذه القصيدة أيضا بفاس بخط ناظمها رحمه الله.
(2) هذه الابيات لم اعرف ناظمها، وقد نقلتها من كناش الفقيه الرافعى
التطوانى الذى نسبها لبعض أدباء الوقت ولم يذكر اسمه، وأظن أنها لبعض
أدباء فاس، لما فيها من عاطر الانفاس .

وگسا بلادك من سناك ملاءة
ما حدث عن سنن الكتابة عن رضى
ورويتى مشغولة وقريحتى
وإذا أردت حقيقتى فأنا الذى
ولرب محروق الجوى بلظى الهوى
فمن المعانى خرد دلهننى
ومن البيان مدامة وكؤوس
إن كنت أخرت الكتابة لاهيا
وتبرأت منى السراة وخاننى

ولقد كساها قبلك الحنديس
لكن لواء عزائى منكوس
أودى بها الاقراء والتدريس
ما حد طيب هواى جالينوس
يشنيه عن بث الغرام رسيس
عقلى بسحر جمالها مالوس
ومن البديع حدائق وغروس
لا خامرتنى بالسرور كؤوس
أدبى ولا اشتملت يدى طروس (I)

وكتب الفقيه العلامة قاضى تطوان أبو زيد عبد الرحمن بن علي الزلال
مادحا لصاحب الترجمة رحمه الله هذه الابيات :

يهنيك أن حزت المفاخر كلها
فطلعت بدرا فى سماء العلم اذ
شرف الحديث اليه ينمى اصله
أبقاك ربى للعلوم ذخيرة

لما رقيت منابر التوفيق
حدثت بالاسناد عن تحقيق
فاهنا وطب نفسا بخير طريق
تبدي النفيس لطالب التدقيق

فأجابه المترجم رحمه الله بقوله :

يهنيك هذا الثغر أن بسمت لكم
واسحب ذيول الفخر اذ حلت بكم
ناهيك من حكم بدت أحكامه
أبقى الاله رواءه متبهججا

أثغار حبر ماجد صديق
أعلام ذى علم على التحقيق
مصحوبة باليمن والتوفيق
وهدهد محياه لخير طريق

ومما رثى به المترجم رحمه الله هذه القصيدة، وقد نظمها تلميذه الاديب
محمد بن الطيب العلمى صاحب الانيس المطرب ونصها :

منى عليك السلام والبركة
قد كنت ذا ورع وذا أدب
علمت علما وكنت مالكة
لم يبق علم الا وتعلمه
سبكت صعب الكلام حتى بدا
وكان نجم العلوم فى فلك
سلكت بالناس نهج مصلحة

يا واحد العصر يا علي بركة
وذا مدارس وذا ملكه
وحزت حلما سواك ما ملكه
فهل رميت عليه من شبكه
وما رأينا سواك من سبكه
حتى أدت على الورى فلكه
لولاك ما كان واحد سلكه

وكنيت فى النحو غير مشترك
صيرت تطوان كلها عربا
واليوم ماتوا إذ مت من أسف
لذاك عينى تقوم بعدك فى
هتكت يا موت فيه عرض فتى
يا قوم ما أسرع الحمام له
إننا احتسبناه يوم صادفه
يا رب بارك للخلق فى خلف

والناس كم ناصب له شرکه
فما ترى اللحن ثم فى حركة
وما لهم اذ سكنت من حركة
بحر الدموع كأنها سمكه
لولاك ما رىء قط من هتكه
ما ضره فى الوجود لو تركه
موت تحمل وحده دركه
كى لا يعيش الورى بلا برکه

وهذه قصيدة أخرى فى رثائه أيضا لابن الطيب المذكور (I)

مات صبرى بين أحياء الكرام
وأقام الحزن لما ارتحلوا
أين أهل العز ملاك الورى
أين أهل العلم اعلام الهدى
إن تك الدنيا كذا حالتها
كم أضعنا العمر فى إسعافها
وسهرنا الليل فى حسو الطلا
وأمننا نعمة الله على
وشموس الرشد عنا احتجبت
والدنا تشغلنا عن ديننا
ثم لم تقنع بما حل بنا
دون أن تفنى لنا أختيارنا
ما ترى عالم تطوان الذى
فلتنح يا كل انسان على
كيف لا يبكى على الحبر الذى
منطق نحو بيان لغة
جاءه الموت فى أحشائنا
أيها الناس اصبروا واحتسبوا
كل حى لاث فى قومه
غير أن الله يحيى علم من
يجعل الابناء وراثا له
ثم يبقى العلم فى أخلافهم

يوم لف القوم منشور الخيام
وكذا الدنيا ارتحال ومقام
نزلوا للموت من أعلى مقام
رحلوا عنا الى دار السلام
فعلى زهرتها منا السلام
بين دن وكؤوس ومدمام
فعصينا الله والناس نيام
خلقه وهو عزيز ذو انتقام
تحت غيم الغى لا تحت الغمام
وتغطى النور عنا بالظلام
من معاص واجتراء واجترام
ثم لا تبقى لنا الا اللئام
كان روح العصر قد ذاق الحمام
فقداه اليوم كما ناح الحمام
كان فى المغرب والعصر الامام
سيرفقه تفاسير كلام
منه شجو وهيام وكلام
فلنا الاسوة فى خير الانام
ميت لو عاش فيهم ألف عام
مات للناس كما يحيى العظام
فيوفى سهمهم بين السهام
يتلقاه همam عن همam

وكذا الاخيار يبقى فضلهم يتساوى البدء فيه والتمام
والذى طيب ربي بده لا تشكو أنه طيب الختام

قال ابن الطيب المذكور أيضا مخاطبا لاهل تطوان ، ومسلما لمن بها من
الاصحاب والاخوان (I) .

يا أهل تطوان سلامى لكم ورحمة الله مع البركة
من مات فالبركة فى نجله فلستم اليوم بلا بركة

ونختم هذه الترجمة بما جاء عن سيدى بركة رحمه الله فى كتاب «الدر
المنتخب» للعلامة الاديب أبى العباس أحمد بن الحاج الفاسى. ونصه : (2)
«ومنهم العالم العلامة، ذو التحقيقات الباهرة، والمناثر العديدة الشهيرة
الولى الصالح، القطب الواضح، المشارك البركة، المتبرك به فى السكون
والحركة، أبو الحسن سيدى علي ابن سيدى محمد الملقب ببركة، التطاوانى
الاندلسى، صاحب سيدى أحمد بن عبد الله وسيدى عبد القادر الفاسى،
وغيرهما من المشائخ المشهورين، وله شرح حسن على الجرومية، انتفع به
أهل الاقطار القريبة والنائية، وتوفى فى التاسع والعشرين من شوال عام
الترجمة (يعنى عام 1120) ودفن بتطوان، وبني عليه مشهد من المشاهد الكبيرة
العظيمة الشأن، ممن يقصد لقضاء الحوائج من سائر البلدان» اهـ.

والعبارة الاخيرة من كلام ابن الحاج، تشير - كما رأيت - الى أن سيدى
بركة رحمه الله، كان بعض الناس : يقصدون ضريحه كما يقصدون ضرائح
الاولياء لقضاء الحاجات، وهو رحمه الله انما كان - كما علمت - رجلا من رجال
العلم والعمل، والاستفادة والافادة، والعبادة والتقوى، وذلك وإن كان فى
الحقيقة هو حال الاولياء والصالحين، لان الله تعالى يقول، ألا إن أولياء الله لا
خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين ءامنوا وكانوا يتقون، إلا أن من الناس من
لا يستطيعون معرفة الله ولا يرجون منه خيرا الا بوسائط، ولا يتصورون الولي
الا بكرامات، وخوارق عادات، فنسبوا لسيدى بركة كرامات أيضا وذكروا أنه
كان صاحب أحوال، بل زعم بعضهم أنه كان يتطور على غير صورته فيتطور
على صورة سبع، وقد نقل أستاذنا الرهونى رحمه الله عن بعضهم حكاية بهذا
المعنى والكمال لله .

(I) الانيس المطرب ص 315

(2) من المجلد السابع من كتاب «الدر المنتخب» المخطوط بالخزانة
الزيدانية بمكناسة الزيتون، وقد وقفت عليه بها فى زيارتى لها سنة 1368هـ صحبة
صديقنا المؤرخ المحقق فتى مكناس الاستاذ محمد المنونى، وقد أعارنى ذلك المجلد مع
بقية المجلدات، الشريف النبيل مولاي مصطفى بن زيدان حفظه الله .

الاديب الحاج علي مندوصة

أبو الحسن علي مندوصة الاندلسي التطواني، من أدباء تطوان في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، وقد أثبتنا ترجمته هنا كشيخه أبى الحسن علي بركة «السابق الذكر» ورفيقه أبى عبد الله الرافعى «الآتى بعده» لان الربع الاخير من هذا القرن كان هو عهد نشاطه وشبابه، ومساجلاته مع أصدقائه وأحبابه وقد قال فيه صديقه أبو عبد الله ابن زاكور فى كتابه «نشر أزاهر البستان» ما نصه : (I) صاحبنا الاديب، الذى حاك من برود الادب كل قشيب، وهصر من أفنائه كل غصن رطيب، أبو الحسن السيد الحاج علي الاندلسى عرف بمندوصة، أبقاه الله وأبنية مجده مرصوصة الخ.

وقال فيه أيضا ما نصه : (2) «وهذا الفاضل رعاه الله، وأعاناه على ما نواه، ناظم درر تلك المغانى، ومزينها بأنصع الالفاظ وأبدع المعانى، فهو شاعرها المصقع، وبحر أدبها الذى أربى على كل منقع، لم يزل طائفا بكعبة القريض، وقاطعا ما راق من نور روضه الاريض، حتى جاء منه بما هو أسحر من الطرف الاحور والجفن المريض، له قصائد، ءانق من فرائد القلائد، ومقطعات، بيواقيت الابداع مرصعات مع رقة، من نسيمات السحر مشتقة، وطلاقة، تسلى كل ذى علاقة، فكلما وردت الى مغانيه، أبهجنى برائق معانيه، وطرب الي وهش، وقابلنى من تأنيسه برذاذ ورش، وحملنى الى ضياعه، وشنف سمعى بأجناس أدبه وأنواعه الخ.

وقال فيه ابن الطيب العلمى فى الانيس المطرب (3) «شاعر مفلق، فقير من التوقف مملق، يقيد ما شاء من القوافى ويطلق، ويفتح أبواب المعميات آونة وتارة يغلق، رحل الى البلاد المشرقية، فحل المشكلات النحوية، والاشكال المنطقية، ومال الى المذهب، وأذهب فيه من عمره ما أذهب ودخل الجامع الازهر، فناهيك من علم أشهر، وخفي علم فيها أظهر، ثم كر راجعا الى المغرب، وخلد علومه بأمر القري ويشرب، فتصدر للاقراء، وملأ من الفوائد لطالبه وقراء، وأرسل على شوارد المعانى من إصابته صقرا، وقد أثبت من كلامه ما يغار منه امرؤ القيس، ويحن اليه جميل بثينة وقيس، فمن ذلك قوله يمدح شيخه الامام العالم العلامة الحاج الابرأبا حسن سيدى علي بركة يوم ختمه مختصر خليل :

(I) نشر أزاهر البستان ص 36 .

(2) نشر أزاهر البستان ص 40 .

(3) الانيس المطرب ص 343

وهجر الالى قد خيموا فى الحشا صعب
وتتعيب صبا مدنفا مسه الكرب
ونام الخلي ذا أسى هكذا الصب
لفى وله قد شب نيرانه الحب
الى زخرف العذال ما عشت لا أصبو
أحن لها لما أبت نارها تخبو
فأصبح مأواها ومنزلها القلب
ولا غرو أن الملك يملكه القلب
بسهم نضى اللحظ أرياشه هذب
وشحنى بهجرى إنه كالرضا عذب
فلا ريبة فى وصلنا لا ولا ريب

أعاب بها لا بل لان خطنى الشيب
وصدر الالى مجنى معانيهم رطب
اليه المئاب إن نبا أو عرى خطب

نحارير ليس فى تقاريرهم شوب
شفوف على ذى اللب حسب الفتى اللب
على كل ذى فخر مفاخره تربو
وأبدى دجاها ذهنه مرعف غرب

مفوفة هيفاء هام بها الحب
سوى أنها عذراء ناهدة عرب

فيا حبذا هى ويا حبذا الجيب
فأصبح يهتز فيا حبذا الصب
فهيجنى الروح فيا حبذا السرب
وهجر الالى قد خيموا فى الحشا صعب

بليت بهجر الالف ان طمخت عينى
عفا الله عنك لم تلوم أخا هوى
تراه اذا جر الدجا سجف مرطه
رويدك انى مذ ثلاث باربع
فلم فى الهوى العذرى أولا فديدى
نعم لسنى سلمى مسلسل اللما
محا حبها حب الالى كن قبلها
فأصبحت ملكا للهوى مغنما له
الى كم فدتك النفس ترمى فؤادنا
فكفى أكف الهجر عنا وأسججى
ورقى لرق فى هواك متيم

ومنها :

فلم ذا صرمت الود عنا أوصمة
فما الشيب عيب سل أخا العلم والتقى
شهاب أغر ثاقب متوقد

ومنها :

اذا غامض أدجى وند لمعشر
أزاحه نجل البركات الذى له
أبو حسن من حاز كل محاسن
اذا المشكلات استعجمت حل قفلها

ومنها :

فدونكم ربات قرط خريدة
مبرقة لمياء غضة بضة

ومنها :

سلام كنشر المسك من جيب خودة
أو الروض ان صبت عليه ربابه
أو الروح من سربى أتى ليزورنى
رضوا بعد ما حلوا بهجر حشاشتى

وقوله يمدح الفقيه الاديب الماهر ابا عبد الله سيدى محمد بن زاكور رحمه
الله تعالى .

سر البيان وزبده ورواؤه
ونفيس كل مدون ألفته
وخلصة التلخيص والنكت التي
ما الحور ان جا سائل متحير
فغدا يجر رداءه طربا بما
عند الامام الالمعى محمد
بحر طما علما فكل مدرس
كشف الغطاء عن الغوامض فأنجلت
أعجزت كل مفوه أمحمد
وبديع تأليف تخال نظامه
خلصت معانيه فراقنت وارتقت
من ذا يجارى او يبارى مصنفا
ألقى له المعقول أزكى قياده
يدنى ويقصى ما يريد لوسعه
ان كان رهطك حيث سدت جميعهم
حسدا ففضلك قد حدا الحادى به
من رام إخفاء البدور فقد غوى
أنت المقدم والرضى فى قومه
ومنها :

فاليك تهدي يا بن قاسم عادة
هدبا تناهى حسننها وجمالها
حسناء لا تحتاج للتحبير
قد ضمخت بالمسك لا بعبير

وهنا جاء فى النسخة المطبوعة من الانيس المطرب ما يأتى (I)
ومنها : اشكر لمدوصة خير الاخاير الخ أبيات ثمانية. والاتيان بهذه
الابيات على هذه الصفة غلط «لعله من الناسخ» لانها من قصيدة أخرى أجاب بها
ابن زاكور صديقه مندوصة المذكور، وهى موجودة بتمامها فى ديوانه المسمى
«الروض الارىض، فى بديع التوشيح ومنتقى القريض» واتماما للفائدة ثبتت هنا

نصها الكامل، لأنها زيادة على ما فيها من مدح للمترجم، تبين لنا ما كان بين أدباء فارس وتطوان في ذلك العهد من جميل العواطف وحفظ الوداد ونشر الفضائل - والكرام يعرفون الفضل لذويه - قال الاديب محمد بن زاكور رحمه الله .

من كل فارس منظوم ومنثور
وبلغائهم اللسن المشاهير
مر الزمان وتجديد الاعاصير
بدر علاه حباها خير تنوير
من القريض قويم غير مهجور
شعرا بشعر وتحبيرا بتحبير
لوالج نفقا في جنح ديجور
محبه المصطفى نيران مدحور
أبرد ... العذب يشفى قلب محرور
أبو بنات ضعيفات مكاسير
على جميل ثناء غير مكفور
في سلك منتظم الى ابن زاكور
بالعيب بالغيب ذا جد وتشمير
نهج المهاجر دار الله والحرور
بالدرس للنفس لا لله بالنور
بخاطر مخطر لكل محذور
بين الجسوم وسور غير ما دور
يهدى الى عالم بالشعر تحرير
والطرف مجريه بين الجماهير
والتبر دهقان نقاد الدنانير
منه الفواغم تشفى كل مغرور
ندلى الى شكرها قصرا بتقصير
تقضى عليهم بتقديم وتأخير
زئير شعرك أشباه السنانير
شأو العلا ما معاء الهر من زير
عين الحسود بأشباه المسامير
تغرى الجليل بتعزيز وتوقير
وأنت حلف صنيع جد مشكور
لم يترقب رقيبا للمقادير

اشكر لمندوصة خير الاخايير
وصفوة الصيد من أعيان أندلس
قد نزعنت به أعراق السراة على
وكونه في ذرى تطوان مطلعته
فجاء أشعر من يجرى على سنن
فجاره في سبيل الله متئدا
وجازه عن قريض كان منه سنى
وصلته من حبيب ليس يرقبها
اذاك أجلى مثال لمديحك أم
ومحسب اليسر بعد العسر يدركه
فالله يجزيك يا شعري وتزويري
ليهنك الدهر أهدي الدر منتثرا
زاكر عيبات أفعال له قبحت
وقد يجاهر بالفحشاء منتهجا
لم يجده العلم نفعا حين حصله
فما نضارة أقوال مزخرفة
الا كنضرة جسم لا حياة له
إليه أهديت بدر الشعر أنفس ما
لقد أنلت بذاك القوس باريها
والعصب من يعتلى هام الكماة به
والمسك من ليس مزكوما وقد سطعت
لا غرو أنا وقد قلدتنا مننا
فأنت مصقع أهل العصر قاطبة
فهم لديك وأنت الليث يذعرهم
يمعون يبغون شقا من غبارك في
أعاذك الله من عين الحسود فنل
من فعلك المرتدى بكل صالحه
فأنت رب جميل غير مكفور
فالله يكفيك كف الضيم من حرد

والله يرقيك أو يبقيك مرتقيا
والله يرعاك في مسعاك مرتديا
والله يصحبك التأييد معتصما

على العدا فهم شر الاشارير
بالصون عن كل محذور ومحذور
بعزة الله عن دهر الدهارير

ومما مدح به المترجم رحمه الله، قول ابن زاكور أيضا :

قسما بمن بالصد قد أضناني
وغدا يمزق مهجتي بلحاظه
ما أنت الا حائز خصل العلا
يا بن الالى همعت سحاب أكفهم
وعدوا على الابطال في صهواتهم
من كل قرم باسل يوم الوغى
همنا بشعرك بل بسحرك فانشنت
ما شئت من لفظ أرق من الهوى
وبديع معنى كالنسيج لطافة
ما البحتري وأبو فراس والبهاء
حزت البراعة واليراعة والعلا
واليكها تسدى اليك تحية
ما احتاج قمرى بأفنان الربى

وسقان كاسات من الهجران
وكسان ثوبى ذلة وهوان
متضلع (I) بلئالىء التبيان
وتوشحوا بمثقف الممران
ونموا الى عدنان أو قحطان
بادى الشرور اذا التقى الجمعان
ألبابنا سكرى بخمر بيان
وألذ فى الاسماع من عيدان
أحلى من الرشفات من غزلان
بأرق منك ولا الفتى الهمدانى
وسبقت فى مضمار هذا الشأن
أذكى شذى من نفحة البستان
وتمايست هيفا غصون البان

وهذه القطعة جواب من ابن زاكور لمندوصة عن قطعة شعرية من نفس البحر والقافية .

ومما خوطب به المترجم رحمه الله قول صديقه ابن زاكور المذكور ايضا :

يا سلس الالفاظ عذب المذاق
ومن به تطوان حسب اغتدت
لله ما أطلعت من أنجم
دعوتنى للانس فى حضرة
لبيك يا بدر العلى والندا

وابن الالى الصيد المذاكى العتاق
فى رونق تزرى بشعب العراق
أدرك بدر الأفق منها المحاق
طاب نسيم الانس فيها وراق
فلا دهاك الدهر وشك الفراق

وقدم المترجم الى صديقه ابن زاكور المذكور هدية مصحوبة بشعر فأجابه عن ذلك بهذه الابيات :

هديتك العظمى أصار قبولها
وما كان ردى ان يكن وهو لم يكن
وانى غنى عن غرامة صاحبى
وهذى مجارة القريض استطعتها

قريض لكم كالعقد ما عنه من بد
لشئ سوى رفقى بمستخلصى ودى
والا فمالى من سبيل الى الرد
وشكر الذى أوليتم فاقد الحد

وبعد أن أثبت الأديب ابن زاكور في كتابه «نشر أزهري البستان» أشعاراً بديعة له في مدح تطوان وأهلها ومنتزهاها كيتان، قال ما نصه : (I)
«وقد ذكر هذا المعنى الحسن، صاحبنا الأديب أبو الحسن، (يعني المترجم) بلغه الله ما أمله، وأسعده في حجة الذي أم له، في قصيد، له فريد، أوله :

ان الصبا لما سرا سحرا
أذكاه حتى خلت نسمة
لا بل كورد أصبح الطل في
فاستنشقن عرف الرياض التي
نسماته بروضنا الاشجر
سحيق مسك ضاع في المجر
أوراقه كالدر والجوهر
تزرى برياً المسك والعنبر

ومنه :

تحكى ضياء الشهب ان طوقت
تري الشقيق شق أجيا به
والنرجس الغض همى جفنه
والارض تهتز بأنوارها
والآس يشبه الدلال على
سقى الشمال روض كيتانها
يا حبذا ريح الشمال التي
صلى عليه الله ما كتبت
نصرت بالصبا وأهلك عد
لولا ما نلنا الذي نرتجى
جيد التي تزهو على المشتري
مخافة من ورده الاحمر
فوق بساط سندس أخضر
كم أزرق فيها وكم أصفر
خود طبقى أهيف أحور
بنافع وعارض ممطر
قد قال فيها صاحب المغفر
يد الربيع رائق الاسطر
ساد بالدبور ان قولى حرى
ولا كرعنا حوض ما الكوثر

ومما وقفت عليه من نظم المترجم رحمه الله، أبيات قالها في مدح الشيخ الصالح سيدي محمد بن علي بن ريسون دفين مدشر تازروت من قبيلة بنى عروس المتوفى سنة 1018 رحمه الله وهي هذه .

محمد بن علي ابن الرضى عيسى
قد قدسوا - اذ هم الاشراف - تقديسا
وقوله حبذا أفعاله بيسا
أثنى على من عصى اللعين إبليس
حاز وفاز بقصده الفراديسا
زر تازروت مناخ القرم عمدتنا
المرتدى برداء المجد من ملا
من لم يقل ذو الحجا في فعله ابد
فرع الاجلة أصل الفضل مالي لا
فصار يرقل فى ثوب المهابة قد

هذا ولم نقف على تاريخ وفاة المترجم رحمه الله، الا أن المعروف أنه كان حيا وفي عنفوان نشاطه في تاريخ زيارة الأديب ابن زاكور لتطوان وتأليفه لكتاب «نشر أزهري البستان» وهو عام 1094 ومقتضى ترجمة ابن الطيب العلمى في «الانيس المطرب» أن وفاته تأخرت الى الربع الاول من القرن الثانى عشر والله أعلم

أبو عبد الله محمد بن علي الرافعي

هو الفقيه الأديب الشاعر الناظم الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني من رفقاء الشيخ سيدي الحاج علي بركة وتلاميذه رحمه الله .

وهو من رجال تطوان الذين عاشوا في القرن الحادي عشر وتأخرت وفاتهم إلى القرن الثاني عشر، وقد ترجمت له هنا لأنه قضى من عمره في القرن الحادي عشر نحو ستين سنة وجل انتاجه كان في ذلك القرن.

وهذا السيد لم نكن نعرف عنه شيئا قبل بضع سنوات « فلم نقرأ اسمه في كتاب، ولم نسمع به أو بأى شيء عنه من أفواه الشيوخ، إلى أن وقع العثور أخيرا على مجموع خطي كبير له (I) فكان هو الذي عرفنا به وبآثاره، وكان هذا المجموع هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود .

والمجموع المذكور يحتوى على ما يقرب من خمسمائة صفحة، وجله من انشاء وتأليف صاحبه الفقيه الرافعي صاحب الترجمة، وهو مكتوب بخط غير خط مؤلفه إلا أن فيه طورا وإصلاحات وإلحاقات بخط المؤلف نفسه، كما أن به تقاريط بخطوط أصحابها وكلهم من مشاهير العلماء والادباء في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، وفي هذا المجموع أربعة كتب كاملة وهي :

الاول، رحلته الشرقية.

الثاني، ديوانه الشعري.

الثالث، تأليف له في الرسائل .

الرابع، تأليف له في الادعية والاوراد والاذكار .

وفيه زيادة على ذلك، قصائد مختارة لبعض الشيوخ والادباء المعاصرين له، مع قطع نظمها بعد فراغه من جمع ديوانه .

ثم ان الذي يرغب في الاطلاع على ما خلفه رجال تطوان من آثار علمية أو أدبية، لا يجد ما يشفى غليله من ذلك، أولا، لقلّة تلك الآثار وثانيا لضياع جل ما صدر منها والواقع ان عدد المؤلفين من علماء تطوان قليل ومن يقول الشعر من رجالها أقل، وهذا هو الذي دعاني لان أتبسط قليلا في الكلام على ما خلفه الفقيه الرافعي من أثر مكتوب، ما بين منظوم ومنثور، وربما أثبت نص بعض ما كتبه على ما فيه من أسلوب قد يغيظ بعض الادباء، لا استحسانا له، لاني لا أستسيغه ولكن حفظا للتاريخ، وتصويرا لصنف من كتابة ذلك العهد على ما فيها من تكلف وحشو واضطراب، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ودونك عرضا لما وقفت عليه من تأليف الفقيه الرافعي رحمه الله وغفر له .

(I) هذا المجموع ما يزال حتى الآن محفوظا بتطوان .

رحلته المشرقية الحجازية

أما رحلته الحجازية فقد استهلها بقوله : « الحمد لله الذى يسر لنا أسباب الخيرات، وكان لنا خير معين ونصير، وأذهب عنا كل ضر وعناء وأمر عسير ، وخولنا آلاء العميمة فى الحركات والسكنات، والمقام والمسير... » الى أن ذكر أنه سمى رحلته «المعارج المرقية، فى الرحلة المشرقية» وقال «ثم انى لما عزمنا على المسير من حضرتنا الرائقة ومدينتنا الفاتحة الفاتحة تطاوين الباهية الغرا ، السامية على البهجة والخضرا النخ. وذكر انه ابتداء رحلته مع رفقائه من بلده تطاوين عقب صلاة الجمعة من يوم ثامن جمادى الاولى عام ستة وتسعين وألف (1996) وأنهم لبثوا ستة أيام كاملة فى حلق الوادى (يعنى به وادى مرتيل) على شاطئ البحر الابيض المتوسط، ثم من الله عليهم بريح طيبة فركبوا سفينة شراعية سارت باسم الله مجراها ومرساها .

وهنا يجمل بنا أن ننقل عن الفقيه الرافعى بعض ما لقيه فى رحلته هذه لنعرف ما كان حجاج ذلك العهد يقضونه من وقت ويلاقونه من أتعاب وأخطار، ليقارن من تهمه المقارنة بين حج ذلك العهد وحج عهدنا هذا الذى طويت فيه المسافات، وزالت المشقات، وأصبح فى امكان الواحد منا أن يقطع المسافة التى بين المغرب ومكة المكرمة، فى بضع عشرة ساعة، فيحج الشخص ويزور المدينة المنورة ومصر والشام ويعود لداره فى أقل من اسبوع واحد ...

ثم ذكر الرافعى انهم لما قربوا من وهران، (بالقطر الجزائرى) قصدهم مركبان للاعداء للايقاع بهم، فاستعدوا للقتال والمبارزة، ولكن الله نجاهم من أولئك الاعداء بهبوب الريح ونزول الظلام ثم التجأهم الى مدينة مستغانم التى نزلوا بها ففرح بهم أهلها وأكرمهم. ثم سافروا الى مرسى شرشال فحلوا بها فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور، ووجدوا بها مركبا قاصدا ميناء تطوان .

ثم سافروا لمدينة الجزائر التى اجتمع المؤلف فيها بقاضيه الشيخ محمد ابن عبد المومن ودفع له نسخة من رحلة ابن زاكور للجزائر وتطوان، وقد كان مؤلفها طلب من شيخه سيدى بركة أن يبعث بها اليه. وذكر أنهم لبثوا فى الجزائر عشرة أيام عرفوا فيها علماء أجلة محققين يدرسون مختلف العلوم والفنون، ووصف المؤلف فيها فى عدة صفحات، مدينة الجزائر ومناعتها وقصورها وأسواقها ومساجدها وأبراجها وأسوارها وأبطالها وغير ذلك. وعند ما قرب موعد السفر جهزه أصهاره أحسن تجهيز، وقدموا له مختلف الهدايا .

ثم ذكر أنهم فى رابع عشر جمادى الاخير، غادرت الجزائر عشر سفن بحرية ركب المؤلف - فيما ذكر - أحسنها مركبا، وأجلها منصبا، وهو مركب الرئيس محمد عروج فوصلوا جزيرة رودس التركية الواقعة فى جنوب بلاد الاناضول يوم السبت ثالث عشر رجب بعد أن مرت عليهم مصائب وأهوال، وتعرضوا للاضطدام بمراكب للكفار، ولكن الله نجاهم منهم مرة أخرى بالريح ثم بالظلام .

ونزل المؤلف بالجزيرة ووصفها وذكر أن مما شاهدته فيها ثلاثين سفينة منها واحدة فيها خمس طبقات وخمسة وسبعون مدفعا من النحاس، وان تلك السفن صنعها السلطان محمد خان بالقسطنطينية.

وطال المقام بهم هناك، لان سفن الاعداء كانت محاصرة للبلاد، وقد انقطع ورود المراكب عليها فلم يبق للمؤلف الا اللجوء الى الله تعالى وطلب الفرج منه سبحانه، قال المؤلف، فأنشأت أرجوزة أطلب فيها من الله تعالى أن يمن علينا برياح من النصر ينشرها وقلت :

يا ربنا يا ربنا يا ذا الجلال	امن علينا بانفراج ما نزل
وأبدل العسر سريعا يا مجيب	أجب دعائى يا سميع يا قريب
هون علينا أمرنا لدى السفر	ونفس الخطب لنقضى الوطر
ويسر الامر بأمر شامل	ونجنا من كل خطب هائل
وكن لنا خير مغيث ناصر	يا خير منقذ وخير ناصر
وعمنا بحفظك المنيع	بجاء سيد الورى الشفيع. الخ.

قال المؤلف، فما كان من عمارات الاعداء المحاصرين لهم، الا أنها أقلعت عنهم وجاءت سفينتان كبيرتان فركب المؤلف احدهما مع نحو عشرين من الحجاج المغاربة، وأراد بقية الحجاج الركوب معهم فمنعهم أصحاب السفينة وأغلظوا عليهم - وكانوا من الاتراك - وأقلعت بهم السفينة فى الحين وافترق المؤلف عن ولده الحاج احمد الذى تخلف مع بقية الحجاج برودس، فتخلف معه كل متاع المؤلف وماله فبقي - كما قال - كئيبا وحيدا، فقيرا فريدا، وهناك أنشد :

ناء عن الاهل صفر الكف منفردا كالسيف عري متناه عن الخل

وكان خروجهم من رودس فى صباح يوم 26 رجب، وبعد ثلاثة ايام نزلوا بأبى قير فى القطر المصرى ثم منها الى رشيد، ومنها فى نهر النيل الى القاهرة وهناك حظ المؤلف رحاله بوكالة القبرصى قرب الغورية فى ثالث عشر شعبان . وجال المؤلف بالقاهرة فانطلق لسانه ووصف مصر وأهلها ومدحهم نظما ونثرا، وزار الازهر ورواق المغاربة، وحضر بعض المجالس العلمية للعلامة الشيخ عبد الباقي الزرقانى - شارح مختصر خليل - فى درس المواهب اللدنية، وحضر

عدة مجالس للشيخ محمد الخرشي في صحيح البخاري، ومجالس للشيخ الشبرخيتي في درس الاربعين النووية، وذكر أن أولئك العلماء كانت عاداتهم أن يخصصوا الاشهر الثلاثة، رجب وشعبان ورمضان، لعلم الحديث، وباقي الاشهر لبقية العلوم من فقه ولغة وغير ذلك .

وذكر أنه بقي يتردد على الازهر ومجالس علمائه مدة، وأن بعض الاشراف أطلعه في رواق المغاربة على كتاب بعثه شيخ تطوان سيدي الحاج علي بركة ، الى مصر سائلا فيه علماء الازهر عن خمس مسائل، فأجاب عنها الشيخ الزرقاني، الا أن الشيخ يحيى الشاوي (المغربي) لم يرتض ذلك، وظن أنه يوهم علماء مصر أنه لا يوجد بالمغرب من يحسن الجواب عن المسائل العلمية .

ثم وصف المؤلف مساجد مصر واثارها واسواقها وما فيها من كنوز وذخائر ... فبهذا السوق تباع الجوار، الثيبات والابكار، كأنهن في الحسن أقمار ، كواعب وأتراب علاهن البها والوقار، أكثرهن من نسل الاعلاج، ذوات بياض مشوب بحمرة وابتهاج

وطاف المؤلف بضرائح الاولياء والصالحين، ووصف كيف يحتفل المصريون بهلال رمضان وبعيد الفطر .

وفاخره بعض المصريين بما لديهم من بساطين وأجنة ، فأجابه المؤلف بما في المغرب من رياض وجنان، وخاصة ببلدة تطوان، وعلى الاخص بأدواح كيتان، وأنشده قصيدته التي مطلعها :

تنائر زهر في الرياض فأعبقا وحيا محياه حياء فأورقا

ثم أثبت الرافعي نص رسالة بعث بها الى شيخه سيدي بركة بتطوان يصف له فيها ما لقيه وما شاهده منذ خروجهم من الجزائر الى مقامهم بمصر، وذكر أنه في تاسع شوال أخرجت كسوة الكعبة من القلعة ووقع الطواف بها في أنحاء المدينة، ووصف الاحتفال العظيم بذلك، كما وصف خروج المحمل المصري قاصدا الحجاز في اليوم الثامن عشر من نفس الشهر، وفي منتصف هذا الشهر حل الركب المغربي بمصر، وفي مقدمة رجاله، الشيخ الصالح أبو العباس احمد بن ناصر الدرعي شيخ الطريقة الناصرية، وكان نزوله في القاهرة بمنزل الشيخ عبد السلام اللقاني .

ثم ذكر الرافعي أنه في سابع وعشرى شوال، ركب مطيته وغادر القاهرة صحبة الوفد المغربي الذي جمع الطريق بينه وبين الوفد المصري، وذكر أنهم كانوا يقرأون مناسك الحج للشيخ علي بركة .

ثم صار المؤلف يذكر أسماء المنازل التي كانوا يبيتون أو ينزلون بها، ويثبت ما قيل فيها من أشعار، ويصف ما يلحق المسافرين في طريق الحج من أتعاب، وما يتعرضون له من امتحان لآخلاقهم وصبرهم وثباتهم، أو هلعهم وطيشهم

وأنهم فى ذلك كالماء، هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج. وأن أزمة الناس فى ذلك الطريق، هى قلة المياه والازدحام عليها، ولكن تلك الاتعاب كلها تهون عند ما يستحضر الحاج أنه فى عبادة الله، وأنه سيحظى بالطواف حول بيت الله الحرام. ثم يقف أمام ضريح خير الانام، فاذ ذاك يفيض الشعور، وترق القلوب وتنهمر العبرات ويغفر الله بفضله الذنوب .

ووصل الركب المغربى مكة المكرمة فى رابع ذى الحجة بعد أن قطع من المراحل أربعا وثلاثين سردها المؤلف فى منظومة استهلها بقوله :

خرجنا بركب الغرب من مصر ضحوة نؤم الحجاز والدليل بنا يحدو
ركبنا مطايا العيس نبغى مراحلنا تناهى لدينا العز والفخر والمجد

وقد وصف المؤلف مدينة مكة وما فيها من معاهد وأماكن وآثار، وأثبت نصوص الدعوات التى تقال فى مختلف المناسبات والمواقف، وكل ذلك بشعور فياض وعواطف متأججة .

وهرع الناس كالعادة الى منى وعرفة، فكان المؤلف فى ركاب الشيخ احمد ابن ناصر، وقد قرأوا كتاب دلائل الخيرات، والمؤلف فى كل موقف يعبر عن عواطفه وخواطره نظما ونشرا، لقد تضرع وبكى، وتوسل ودعا، وطلب من الله لنفسه ولكل من له به علاقة، وكان الرافعى فى تلك المواقف برا بأهله وأقاربه وأصدقائه وبكل من طلب منه الدعاء الصالح فى تلك المواقف والمعاهد .

وذكر المؤلف أن عمره بلغ فى تلك السنة (1096) ستة وخمسين عاما وانتهى الوقوف بعرفة، وعاد الرافعى الى منى ووصف ما فيه وصفا، وذكر أنه شاهد به الركب الشامى والمصرى والبغدادى والبصرى واليمنى والمغربى، ورأى احتفالات الناس وفرحهم وابتهاجهم، وعاد الركب الى مكة وأتم الحجاج مناسكهم وأخيرا اكترى المؤلف مع رفقائه من بعض أهالى الصعيد جمالا للسفر فقبضوا منهم مالا ثم اختفوا ولم يقفوا لهم من بعد على أثر .

وغادر الحجاج مكة المكرمة قاصدين المدينة المنورة فى الحادى والعشرين من ذى الحجة، وقطعوا عدة مراحل نظم المؤلف أسماء منازلها فى أبيات ذيل بها ما نظمه فى المنازل الاخرى من قبل .

ودخلوا مدينة الرسول عليه السلام فى فاتح محرم الحرام سنة 1097 هـ. وفاضت قريحة المؤلف وتدفقت عواطفه نحو نبي الرحمة وامام الهدى وسيد العالمين، وسجل ارتساماته عن المسجد النبوى والمدينة المنورة وروضات البقيع، وصور ما شعر به هنالك من عواطف وما اعتراه من أحوال .

وغادر المؤلف مع رفقائه مدينة الرسول في اليوم الرابع من المحرم، وذكر أنه كان يختم كتاب دلائل الخيرات كل يوم في حالتى السفر والاقامة، بل انه جعل ذلك وردا له منذ سنين .

ووصل الوفد الى مصر فى تاسع صفر وقضى الحجاج بها مدة شاهدوا خلالها معاهد القاهرة واثارها وزاروا قبور العلماء والصالحين، وحضر المؤلف الاحتفالات الكبرى بالمولد النبوى، ثم ودع العلماء وشيخه ابن ناصر وقد هاجت أشواقه الى تطوان، وأنشد فى ذلك من الشعر ما أفشد، ثم غادر مصر فى ثانى ربيع الثانى راكبا متن سفينة نهرية الى رشيد ثم الى الاسكندرية التى زار فيها - على عادته - ضرائح العلماء والاولياء، ووصف المدينة واثارها .

وطال بهم المقام فى الاسكندرية انتظارا لسفينة يعود عليها الى بلده، فكتب فى ذلك ما كتب، ونظم ما نظم، فى التوسل والتضرع ومدح الصالحين والتشوق الى تطوان .

وفى تاسع وعشرى جمدى الاولى، أقلعت بالمؤلف مع ولده، سفينة بحرية قطعت بهم ما بين الاسكندرية وجزيرة مالطة، فى خمسة وعشرين يوما لم يروا فيها برا، ومرت بهم أهوال كادوا معها ييأسون من الحياة، فكانوا يرجون الله ويتوسلون اليه بالاولياء والصالحين، والمؤلف فى جميع تلك الاحوال يكتب وينظم ويتضرع، وأخيرا أرسى بهم السفينة فى ميناء الجزائر، فى تاسع وعشرى جمدى الاخيرة. ثم فى رابع رجب، استأنف المؤلف سفره فى البحر، وبعد ستة أيام ... تنسم نسيم الصبا بعطره العبيق، وبانت لنا تطوان وظهرت، وبشدا عرفها تعطرت، وتجلت فى حلى المفاخر، ولاح نورها الزاهر، وفى عاشر رجب 1097 نزل الحاج محمد الرافعى الاندلسى التطوانى بميناء وادى مرتيل - شاطئ بحر تطوان، ويسميه هو - حلق الوادى - حيث استقبله الاولاد والاقارب والاصدقاء، فكانت المدة التى استغرقتها رحلته، عاما كاملا وشهرين، وقد وصف المؤلف فى هذه الرحلة كما رأيت، كيفية سفره وتنقلاته والبلاد والاماكن التى مر بها أو زارها، والاشخاص الذين اجتمع بهم، واستطرد مع ذلك فوائد ونوادر، وأثبت عدة قصائد، وخلل ذلك كله بملاحظات، ما بين استحسانات وانتقادات.

والرحلة على العموم مفيدة، ولا اعرف لها مثيلا لغير الرافعى من رجال تطوان وهى لطيفة لولا ما فيها من السجع المتكلف الذى كان شائعا فى ذلك العهد، وهو سجع كثيرا ما صدع به الرافعى قواعد النحو والصرف، وقلب به أوضاع البلاغة والبيان .

وقد فرغ مؤلفها من كتابتها فى ثانى رمضان من نفس العام، أى بعد عودته من الشرق بشهرين اثنين، والنسخة التى أنقل عنها هى نسخة المؤلف نفسه ،

ولعلها كانت هي الوحيدة، وهي مكتوبة بخط الفقيه العدل بتطوان السيد محمد ابن محمد الرفاس الحسنى، وكان فراغه من نسخها في رمضان سنة تسع ومائة وألف. وهي في نحو مائتي صفحة متوسطة الحجم (I)

ديوان شعره

وأما ديوان شعره - او نظمه - فهو مجموعة كبيرة من قصائده ومقطعاته ، وعدد أبياته نحو ثلاثة آلاف، وقد جاء في آخره أنه فرغ من جمعه في أواسط جمدى الاخيرة سنة ثمان ومائة وألف وعمره اذ ذاك ثمانية وستون سنة، وقد استهله بقوله: الحمد لله حمد مؤمل يحمد به بجميع المحامد، ويشكره على ما أنعم به عليه من الآلاء العظيمة التي جلت أن يحصيها شاكر وحامد الى أن قال ، وبعد فيقول العبد الفقير الى رحمة ربه، المقر بذنوبه الغزيرة وعيبه، المبتغى عفو مولاه، المعترف بأياديهِ الجليلة فيما خوله وأولاه، محمد بن علي بن محمد بن احمد ابن علي الرافعى، الراجى من الله أن يجعل ما سعت فيه من الخير لدى الدارين نافعى، وأنه مما من الله به علي، وأسبغ من نعمه لدي، أن ألهمنى لمآثر حميدة، وخصال جامعة للخير مفيدة، بتطفلى على ساحة رحمته، وتذلى بباب عزه ألتمس مزيد نعمته، بنظم ركيك غير محرر ولا حسن، خامد الذكر بليد القول ليس فيه مستحسن، الخ. وذكر أنه كان في عهد الشهاب والكهولة، ينظم قصائد في المدح والهجاء، ثم لما كبر سنه ووهن عظمه، واشتعل رأسه شيبا وعظم جرمه، علم أنه كان على غير صواب، فلوى عنان قلمه لمدح الرسول الخ وأن بعض الافاضل أشار عليه بجمع ما نظمه من ذلك في ديوان، وقد وصف نظمه بأنه قصائد خالية عن فنون الاعراب والبيان، وقال فيه أيضا، لا شك أن نظمى غير حسن لكن الحمد لمن احسن الخ .

ثم رتب هذا الديوان على حروف الهجاء، الهمزة فالباء قالتاء الخ. وانى وان كنت أقر الفقيه الرافعى على ما صرح به من أن نظمه غير حسن، أزيد أننى تصفحت ديوانه هذا من ألفه الى يائه، فما وجدت فيه قصيدة واحدة ترضى ذوق الاديب الشاعر، اللهم الا أن يكون من الفقهاء الاخيار، أو بعض المؤرخين الذين لا يفرقون بين عقود النحور ووقود النار. فقصائده - غفر الله له - بالرغم من كونها أقرب الى النظم منها الى الشعر. فيها - كما قلت - مخالفات كثيرة للقواعد المقررة في علوم اللغة، ولكنى مع ذلك القى على هذا الديوان نظرة ولو سريعة، وقد انقل منه أبياتا قالها في مختلف المناسبات، لا على أنها منتخبات مستحسنة تحفظ وينسج

(I) قد نقلت من هذه النسخة نسخة أخرى كتبت على الآلة الكاتبة، وهي محفوظة بخزانتي «الداودية» بتطوان .

على منوالها، بل كنماذج لنظم طبقة من المترامين على الشعر، أو المشتغلين بالنظم ولعل المناسب في تعريف الشاعر بالنسبة لهذا الصنف من الناس، هو أنه شخص يحس بشعور في نفسه، فينظمه في أبيات تشبه الشعر وان كانت مختلفة الوزن مبعثرة المعنى متفككة الأسلوب، ويلاحظ أنني سأراعى أن تكون القطع التي أنقلها من هذا الديوان، مما له علاقة بالناحية التاريخية، أكثر من الناحية الأدبية، ودونك عرضا لما في الديوان :

نجد في أوله قصيدة همزية عدد أبياتها عشرون وقد قالها عند ما ختم الشيخ علي بركة تدريسه لمختصر الشيخ خليل، وأولها :

تلاؤلاً نور في العلا وتألّقا ولاحت شمس بالهدى وضياء

ويقول فيها مخاطبا الشيخ المذكور :

أيا بركات الخير حزت مراتبا تقاصر عن ادراكها النجباء

وعند ما يطرق الرافعي باب التضرع والتوسل، يطول نفسه، ونجد له قصيدة مطلعها .

أيا رب يا رحمان أنت وسيلتي أنلنى منائى يا رحيم وبغيتى

لقد ضاع عمري في البطالة سيدي وأورثنى ذلا فيا طول حسرتى

وعدد أبياتها تسعون .

وفى تطوان ضريح صالح يعرف بسيدى بوحاجة فيتوسل الرافعي به الى ربه ليقتضى حاجته وينظم أربعة وعشرين بيتا أولها :

يا رب هون ويسر واقض لنا كل حاجة

ونجد من هذا القبيل سبع قطع قالها الرافعي في التوسل الى الله بسيدى السعيدى الذى يلقب بصالح تطوان وحاميتها :

هذا ضريح ولي الله هذا حما من ثغرىنا يحتمى به من الخطل . الخ

أيا قاصدا بحر جود طما ويا لائذا بحماه السعيد . الخ

يا أهيل الحما عبيد أتاكم نازلا بابكم بكم مستعينا . الخ

وله في هذا الموضوع قطع مختلفة الوزن والقافية، ولكنها موحدة المعنى فى صلحاء تطوان، الشيخ الجعيدى، والشيخ علي الفحل، والشيخ طلحة الدريج والشيخ علي المصيمدى الخ. ولكننا مع ذلك نجد الفقيه الرافعي وطنيا متحمسا حينما يجد الجد ويكون الموضوع موضوع جهاد وكفاح، ومسلمين وكفار، فعند ما استرجع المسلمون مدينة طنجة من يد الانجليز، فى مهل ربيع النبوى عام

١٠٩٥ هـ. ١٧ فبراير ١٦٨٤ م. وكانت تطوان - مدينة الفقيه الرافعي - هي مركز المقاومة وتجييش الجيوش لاسترجاع البلاد المغتصبة، أنشد في ذلك قصيدة في نيف وسبعين بيتاً مطلعها :

هنيئاً وبشرى يا سراة بأنعم
ولاحت بتطوان شمس وأشرق
وشادت على الأغصان ورق ورثمت

الى أن يقول :

سمت ملة الاسلام لما تضعضعت
وجاشت جيوش في أباطح طنجة
هلموا هلموا يا غزاة وبادروا
فخطر الجهاد في الاناقة شامخ
فيا أهل غرب أبشروا وتنسموا
نمت ملة الاسلام والكفر قد غدا
كذاك الرجاء في المعقل كلها
لقد أصبح الاسلام باليمن مسفرا
لهم همة في الضرب والطعن بالقنا
لهم رهبة في الحرب والحزم دأبهم

الى أن قال :

تضوع ريح النصر في عام خمسة
وسار لنا الفتح السعيد لطنجة
فنسأل مولانا الجزيرة مسكنا

وأبيات هذه القصيدة - كما قلنا - تزيد على السبعين ...

ولا تشفى هذه القصيدة الطويلة غلة الفقيه الرافعي فينشد في نفس الموضوع قصيدة أخرى تزيد أبياتها على الثلاثين .

هنيئاً وبشرى بنيل المنى
أنارت بشائره جهرة
سعدنا جميعاً بجيش سري
وفتح سعيد أزاح العنا
ونصر من الله لاح لنا
وبحر خميس بهيج السنأ. الخ

وخرج غزاة تطوان ونواحيها قاصدين فتح مدينة العرائش واسترجاعها من يد الاسبانيين، فأنشأ الرافعي قصيدة طويلة منها قوله :

يا ربنا امنن وجد وعمنا كرما
يا ربنا افتح علينا فتحاً تجعله
يا ربنا امنح لنا فتح العرائش يا
يا ذا الجلال وذا الافضال والكرم
على الدوام وفوزاً بالهدى العمم
رب العباد ومسدي الخير والنعم

لديننا وغدا التوحيد فى انخرم
أما النواقيس والصلبان لا ترم
واحفظ غزاتك من سوء ومن نقم
واجعلهم نكلا لحما على وضم
وامنح رقابهم لكل شهيم كم
وزلزل الارض واخرز كل مجترم
بحق خير الورى وسيد الامم

وافتح بلادا غدت بالشرك جاحدة
أمست من الذكر والقرآن خالية
يسر لدى المسلمين فتحها عاجلا
أخسى إلهى حماة الشرك قاطبة
وفل جمع العدا وعمهم نكدا
وأنزل الرعب ربى فى قلوبهم
ولا تذر منهم بغربنا أحدا

وتتدفق جموع الغزاة المجاهدين من أهالى تطوان ونواحيها على ثغر
العرائش، فينتصرون على من كان به من الاجانب، ويحتلون المدينة ويأسرون
جنودها ويستولون على مدافعها (سنة 1101 هـ) فيقول الرافعى فى ذلك قصيدة
طويلة أولها :

هنيئا هنيئا وبشرى لنا بنصر سعيد وفتح مبين

ومنها متحدثا عن الغزاة المجاهدين الهاجمين على الاجانب المحتلين للعرائش:

وداروا عليهم بجيشهم
وأنفاضهم شبروا جملة
بدار العرائش قد أحدقوا
وشبوا لها النار فى قعرها
ومالت عليهم أسود الوغا
وإن النصارى لفى حيرة
فلم تغن عنهم معاقلهم
وأعطوا نفوسهم كلهم
وأمسى الغزاة ببلدتهم
أفال به الشرك واندرست
فحمد ربى ونشكره

كمثل السوارى لهم مندرين
لهدم البلاد وقتل البنين
وخذوا حدود بها معلنين
فكانت وبالا على المجرمين
فغاروا وحلوا بها مسرعين
وخزى عراهم وهم داهشين
من الامر شيئا لدى المسلمين
أسارى لحزب الهدى المفلحين
فنعم العرائش للمومنين
كنائس كانت الى المشركين
فدين الاله علا كل دين. الخ

ويتجه الرافعى ببصره نحو أقصى الشمال المغربى فىرى أمامه مدينة سبتة
المغربية المسلمة وقد سيطر عليها الاجانب وأجلوا منها سكانها وهدموا مساجدها
وطمسوا معالمها الاسلامية، فيثور شعوره وينشد فى ذلك قصيدة :

يا رب سلم ونج كل منتدب
وصار بالحزم يبغى نصر ملتة
داروا بسبتة أهل الصدق وابتدروا
يرجون وعد الاله الحق ربهم

الى الجهاد وحث فيه واجتهدا
وعزمه فى الجهاد دائما أبدا
شقوا أخايد لاستيصال من جحدا
من كونهم فى الجنان يحشرون غدا

فكم وقائع فى الحرب لهم شهدت
وكم مدافع فى البيداء قد وضعوا
فأرددهم بسلام بعد فتحهم
مرادهم سبته البيضاء ومينتها
نور إلهى بلادا قد أضل بها
فلا صلاة تقام فى مساجدها
فأبدل الكفر بالاسلام رب بها
واخز إلهى حماة الشرك واعطهم
بدد لهم شملهم وقل حدهم
وارجف خواطرهم وارعب قلوبهم

بأنهم فى رهان السبق خير هدى
ترمى البلاد فينسى صعقها الرعدا
ما أملوا من بلاد الشرك دار عدا
سهل لهم فتحها يا خير من قصدا
شرك وظلمته عم بها وعدا
ولا قرآن بها يتلى كما عهدا
واجعلها فيئا ولا تبقى بها أحدا
رجسا وخطبا كذاك عمهم نكدا
وزلزل الارض يا رب بهم كمدا
وامنح رقابهم الاغلال والصفدا... الخ

وتمضى الايام والسنون ولا يتم فيها فتح جيوش المسلمين لسبته، فيعيد
الفقيه الرافعى الكرة وينظم قطعة أخرى فى نحو أربعين بيتا يقول فيها :

إلهى إلهى أنلنا المنى
ومن علينا بفتح وكن
وسلم ونج جيوش الهدى
وأيد غزاتك بالنصر يا
هم الاسد فى الحرب ما لهم
هم القوم ان دهمتهم عدا
ولا عيب فيهم سوى أنهم
ولا مثلهم فى الوغى مشبه
وسل عنهم أهل معمورة
وحصن العرائش سل عنهم
والآن الى سبته سارعوا
وألقوا كمائن فى خفية
فامنح لهم فتحها ربنا
وأنجز لهم وعدك المرتضى
ونور بلادا بها ظلمة
وعاد بها الكفر واندرست
فأذل بها الكفر يا ربنا
فديننا يعلو على كل دين
وأخسئ إلهى جفاة بها
وشتت لهم أبدا شملهم
وخذهم بأخذك يا ذا العلا

وسهل لنا كل أمر عسيرا
معينا يا رب لنا ونصيرا
وصاحبهم كل وقت جبورا
لطيفا بكل الورى وخبيرا
اذا هاجت الحرب دأبا نظيرا
وهاجت حروب وشبت سعيرا
ليوث الوغى قد أبادوا الكفورا
فسل عنهم من يكون خبيرا
وسل عنهم طنجة يا بصيرا
يفدك مقالا صريحا لا زورا
لهم رغبة فيها منذ دهورا
وجاشت جيوش وخطوا حفيرا
وأنف خطوبا وأجل شرورا
وبلغ مناهم وسهل عسيرا
وحندسه أسدى فيها ستورا
معاقل كانت لدى الدين نورا
بدين حنيف بدا مستنيرا
بحق وكان عليه ظهيرا
وأكبتهم وأذقهم سعيرا
وزلزل لهم أرضهم والقصورا
فأخذك أخذ عزيز قهورا... الخ

ويقارن الرافعى بين الحالة التى كانت عليها بلاد المغرب فى عهدهى شبابه ومشيبه، فيجد أن المسلمين قد استرجعوا من أيدي الايجانب الكفار بلاد طنجة، وأصيلا، والعرائش، والمعمورة الخ. وأن السلطان الذى دفع الناس لذلك وأعز الله به الاسلام، هو المولى اسماعيل العظيم، فيقول على لسانه قصيدة منها قوله :

أنا الغيث حقا والملوك جداول أنا قمر بالغرب قطب سمائه
أنا تاج أبناء الملوك وفخرهم أنا الليث اسماعيل راية مجدهم
أنا فاتح الامصار للكفر دامج لنا المجد يعزى والسيادة حظنا
لنا ذلت الاعداء بالسيف والقنا فمن منكر فضلى وجدى محمد
فما الفضل الا هكذا متأصل فروع وأغصان أصول عناصر.. الخ

والفقيه الرافعى لم يعدم من بين أدباء فاس - وحيا الله فاسا وأدباء فاس - من يجيبه عن أبيات ثمانية قالها فى الترحيب بذلك الاديب عند ما وفد على تطوان، وقد استهلها بقوله :

بشرى لنا عم السرور جميعنا لما غدا أفق البلاد منيرا... الخ

بأبيات عشرة قال فيها الاديب الفاسى ولافض فوه :

أمحبرا زهر الربى تحبيرا ومهاصرا غصن الرياض نضيرا
ومهاديا كأسا بصرف مدامة أهدت لقلب المستهام سرورا
لما رأيت رقيق نظمك زارنا تحكى برائقه البديع جريرا
أيقنت أن الشعر تحكم صنعه يا حبذاه جنة وحريرا
لم لا وأنت الرافعى فما بهـ ذا الشجر مثلكم يعد نظيرا
تطوان حق لها الفخار بكم فما فيها سواكم للقريض مديرا
بعلاكم زهر النجوم ترفعت وبكم غدا بدر السماء منيرا
من ذا يوافى حق ما أهديته مما يزين الغانيات الحورا
هذا وانت مريض جسم كيف لو كنت الصحيح فكن بذاك فخورا
دم والزمان لكم مطيع خادم فيما تؤمل أولا وأخيرا

والرافعى شأنه شأن جل أدباء المغرب فيما يظهر، اذ نراه يستحسن ما يستحسنه أمثاله من مظاهر الجمال - وبين ذوى الاحساس الرقيق من أدباء فاس وتطوان محاورات فى هذا الباب قديما وحديثا - وها هو الرافعى يقول مخاطبا أهل تطوان :

يا أهل هذا الثغر بشراكم
من أشرقت تطوان من حسنه
فاهتز بالروضة أغصانها
وقال تيهوا فهنئنا لكم
وكان مغمى حين سار الى
تيهوا وجروا ذيل مرطكم
ألم تر الشمس لدى وجهه
فكيف لا وحسنه فائق
مهدى كؤوس الراح من ثغره

بمقدم الطبي الكحيل الشفار
لما تراءى وجهه واستنار
وغرد القمري وغنى الهزار
لقد تجلى البدر بعد ازورار
حضرة فاس دتم في انتظار
هذا زمان تجلى فيه الغيار
قد أثرت فيه وبان احمرار
في وصفه الازهان حقا تحار
ولحظه الفتان فيه احورار

ويلوم الرافعي الزمان على عدم مساعدته، فيجيبه الزمان بما يدعنه له :
لمت الزمان على كدى فقلت له
لو شئت ما نالني هم ولا كدر
فقال أخطأت ما لي فيك من حيلة
حكم الاله وتقدير به سبقت
وقد تيقنت أن الحق ما قاله

ويرى الرافعي حديثي العهد
قوم لئام لهم في الدهر إقبال
تمسكوا بنقود أصلها سحت
لم يقصدوا لاكتساب المال مكتسبا
يمشون مشى ذوي كبر وأعطفهم
يا لهف نفسي على دهر يصول على

والمشكلة التي يغتاظ منها الرافعي النبيل، هي مشكلة العائلات الماجدة
التي افتقرت بعد غنى، وذلت بعد عز، أمام الأشخاص النكرات الذين اغتنوا
بعد املاق، وعزوا بعد اهمال، هي مشكلة نرى ونسمع ونلمس حتى في عصرنا
هذا آثارها وننتظر عواقبها، هي مشكلة الطبقات التي قسمت العالم شطرين
ونرجو الله أن تكون عاقبتها خيرا، وأن يتحول عسرهما يسرا، وأن يكون لا
ضرر ولا ضرار.

وختم الشيخ علي بركة تفسير القرآن الكريم فقال التلميذ الرافعي في
ذلك قصيدة مطلعها :

تلاؤا ثغر بالعلوم فأصبحت طلال المعالي ثغرها لبسيم

وكان هذا الختم سنة 1103 كما أشار لذلك الرافعى فى نفس القصيدة وسعى السلطان المولى اسماعيل فى استرجاع الاسارى المسلمين من بلاد الكفار، فعاد منهم الى مدينة تطوان ألف أسير فى مقابل مائة من أسرى الاجانب، فقال الرافعى فى ذلك قصيدة منها قوله يخاطب ملك المغرب :

هنيئاً أمير المؤمنين بأنعم
فبلدتنا نارت بنور ضيائكم
حباك إله العرش عزا ورفعته
ودام لك الملك السعيد ونصره

تناهت وجلت فى العلا بتمام
أمولاي اسماعيل فخر الانام
أيا تاج أبناء الملوك العظام
ولا زلت ترقى فى المعارج سام

ويقول عن الكفار :

وغامرهم رعب لذلك قد أتوا
فدوا مائة منهم بألف ولم تزل

بألف أسير ماجد وهمام
عيونهم مهجورة لمنام ... الخ

وينحبس المطر عن اقليم تطوان فينظم الرافعى قصيدة فى نحو عشرين بيتا يقول فى أولها :

إلهى أغثنا بقطر الغمام
وإلهى أغثنى بألف أسير ماجد وهمام ... الخ

ويقف الرافعى على ضريح الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش، فينشد قصيدة فى نحو أربعين بيتا مطلعها :

إلهى إلهى أمحيى العظام
إمام له رتبة قد علت
همام زكى حوى رفعة

أغثنى أغثنى بهذا الامام
على كل قطب وكل مقام
فيا له من ماجد وهمام . الخ

ويحل شهر ربيع النبوى فيقول الرافعى فى مدح الجناح النبوى الشريف قصيدة فى نحو ستين بيتا :

هنيئاً أيا معشر المسلمين
أيا أمة الهادى بشرى لنا

وبشرى بطول المدى والسنين
بشهر السرور وفرح مكين . الخ

ولقد كان الرافعى باراً بأصدقائه فى حياتهم وبعد مماتهم - وعند ما يموت المرء يظهر من بين أصدقائه من كان مخلصاً ومن كان مستغلاً انتفاعياً - ولقد وجدنا الرافعى يرثى عدداً من أصدقائه ويتوجع لفقدهم توجعاً، ويبكى عليهم بكاء مراً .

فهذا صديقه أبو القاسم ابريل يرثيه بقصيدة فى نيف وعشرين بيتا مطلعها :

رثيت وحق الرثا والبكا
وحق الزفير وحق الانين

وله فى صديقه محمد قرضناش مرثية فى نيف وعشرين بيتا مطلعها :
رثيت ولى وجد لدى القلب نازل وجسمى نحيل والدموع رواسل

ثم يموت صديقه وصهره العربى مدينة فيقول فيه مرثية اولها :
رثيت ولى دمع على الخد هامع وقلبي يذوب بالاسى وهو جازع

ولعل خير ما نختم به عرضنا هذا هو قول الرافعى رحمه الله :
يا رب بالمصطفى الهادى وعترته أهل الصفا والوفاء والجود والكرم
اغفر لناظمه ما كان من زلل وارحمه والطف به يا بارى النسم

فعلى الفقيه الرافعى من الله الكريم سحائب الرحمة والمغفرة والرضوان .
وبعد هذا الديوان عدة تقاريط لبعض شيوخ ذلك العهد وأدبائه، فمنها
تقريظ بخط الشيخ العلامة سيدى علي بركة وهو تقريظ لطيف ابتدأه بنشر فنى
بديع ثم ختمه بقطعة شعرية مطلعها :

هذى خرائد طوقت بلئال هذى فرائد خطرها متعال

وقد وصف صاحب الديوان بالمصقع الاريب، السמידع الاديب الخ (I)
ثم يتلوه تقريظ آخر نشرى أيضا بخط صاحبه ابراهيم بن ابى بكر
الزدوتى (2) وهو مؤرخ بخامس عشر شوال سنة 1108. وقد ختمه بقطعة
شعرية لطيفة مطلعها .

بشراك يا من سالمته الليال قلدت جيد الدهر سمط اللئال

ثم يتلو ذلك تقريظ آخر للاديب المشهور الشيخ احمد بن عبد الحى
الحلبى الاصل الفاسى السكنى والمدفن، صاحب المدائح النبوية المشهورة، وهو
بخطه الشرقى الواضح، ويحتوى أيضا على نشر ونظم، وقد وصف فيه صاحب
الديوان بالسيد الخير الحسيب، النجيب الاريب الخ. ومطلع قطعته الشعرية .
هذى قصائد فى المديح عوالى عند المهيمن والحبیب غوالى

(I) قد أثبت النص الكامل لهذا التقريظ نشرًا ونظمًا فى ترجمة صاحبه
سيدى الحاج علي بركة رحمه الله .

(2) لم نعرف ترجمة هذا السيد وان كان تقريظه جيدا وشعره لطيفا،
وقد ورد ذكره فى مكان آخر باسم ابراهيم بن أبى بكر زد السوسى، ويظهر
أن نسبته الى «إداوزدوت» وهى قبيلة سوسية واقعة فى الجنوب الشرقى
لمدينة «تارودانت» من اقليم سوس الواقع فى الجنوب المغربى .

وتاريخ هذا التقرير الخامس ذى الحجة الحرام عام 1109. ثم يتلوه تقرير
آخر نثرا ونظما بخط صاحبه الكاتب الاديب سفير السلطان المولى اسماعيل
الى دولة اسبانيا، أبى عبد الله محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسانى صاحب
«رحلة الوزير، فى افتكاك الاسير» وقد وصف فيه صاحب الديوان بالحبر الارب،
الامعى الاديب، المرتضى الحسيب، الفقيه النجيب، الخير الناسك، السالك
بفنه العجيب وحبه أحسن المسالك، الحاج الابى عبد الله محمد بن علي
الرافعى منسبا، الاندلسى نسبا، اللخمى نجارا، التطاونى دارا النخ. وختمه
بقطعة شعرية هذا مطلعها :

هذى قصائد بل قلا ئد بل فرائد من درر
قد صاغها الحبر المجيد د المرتضى الارضى الابى

وتاريخ هذا التقرير أوائل جمدى الاولى سنة 1110. ثم يليه تقرير
مختصر بخط صاحبه العلامة الاديب أبى عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور
الفاسى، وقد ختمه بقوله .

كلام معجب للعارفين بديوان يروق الناظرينا
أدام الله قائله هلالا يلوح بأفق تطوان مينا

ومما مدح به الفقيه الرافعى، قول الاديب الشيخ احمد بن عبد الحى
الحلبى :

فما حاز أصل المجد والفخر والرفع بأفق العلا غير الرضى الماجد الرفعى
فماذا أقول الدهر فى شرح فضله وقد حف قدما بالسيادة والرفع
وقال فيه أيضا :

لله در مجيد قدره ارتفعا الرافعى سما فى أرفع الرتب
فريد عصره فى فخر وفى كرم أكرم به آية فى الدهر بالعجب

كتابه «غرر المقاصد والمطالب»

واما كتابه الثالث فاسمه «غرر المقاصد والمطالب، ودرر الرسائل لكل طالب»
وهو مجموع رسائل انشائية مسجعة فى موضوعات مختلفة، وقد قال فى مقدمته
ما نصه :

تأمل رعاك الله فيما جمعت من رسائل فى طرس تشابهها الدرر
فقدمتها لذى القريحة على يميل اليها بالتأمل والنظر

الحمد لله الذى خلق الانسان وعلمه، وأجزل لديه إنعامه وأكرمه، وخصه بالعقل فضلاً منه تعالى، وندبه الى معرفة ما أوجب عليه حالا ومثلاً، ووهب له جل وعلا لساناً، ينطق به حكماً وبياناً، الخ .

ثم ذكر انه جمع كتابه هذا من كلامه وكلام غيره، ثم أثبت نصوص نيف وخمسين رسالة وابتدأ برسالة أولى فى فضل الجهاد، ومما جاء فيها خطاباً للمجاهدين قول مؤلفها :

«هذا وإنه قد أعلنت الافواه بصنائعكم الجميلة، وفاهت الالسنه بأفعالكم الجليلة، وجل عن الحصر مدحك وثناكم، وعبق الكون بشذا مجدكم وعرف نداكم، فاثبتوا على هذا المنهاج قائمين، ولاقامة أود الدين ملازمين، عسى الله أن يفتح على أيديكم بعض المعقل والثغور، ويقلع عنا غيب الشوك والفجور، وينتظم سلك الاسلام ويعلو على كل كفور، ويعود الدين فى غاية العلو والظهور، سامى المنار مشيد الاركان شامخ العز، له فى ذرى المفاخر ارتقاء بمن للاسلام يعز، وتضعضون من الكفر أركانه، وتستأصلون بالحتف أبطاله وشجعانه . وتنتهبون من أيديهم معقل وديارا، وحصونا شيدت للكفر منارا، فيعود للاسلام بديع الحسن والابتهاج، وبيضة الاسلام سامية المنهاج، قد ظنوا ويحهم فى معاقلهم التى شيدوا، وبنوا فى فحوص الاسلام ومهدوا، أنها تمنعهم وتنجيهم، ومن غوائل المنون تصدهم وتحميهم، كلا، بل انعكس الامر لديهم، وجعلت الدائرة عليهم، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا... فعليكم بالحزم فى الرباط، وجدوا بالعزم والجزم والارتباط ... الخ.

ثم رسالة ثانية فى الجهاد أيضاً، وفيها أن جماعة من الغزاة قصدوا مدينة سبتة، وعددهم خمسمائة وستة متدرعين بدروع الصبر، جازمين بالظفر والنصر .

جيوش وأبطال تسارع للعدا	أسود لهم فى الحرب أشهى مرام
يصولون بالسيف المهند والقنا	وطعن سنان وامتشاق حسام
وحيث أغاروا فى أباطح سبتة	كساهم قتاما من خيول سوام
تراهم والبشرى تعم جميعهم	تخالهم نشوى بشرب مدام ... الخ

وختم هذه الرسالة بقوله متحدثاً عن نصارى سبتة بعد قتال الغزاة المسلمين لهم : «فولوا الادبار، وركنوا إلى الفرار، وعلوا الاسوار، ذاهلين لما اعتراهم من البؤس والدمار .

فولوا خزاياً يهرعون ومكنت سيوف الالاه من رقاب لئام

وقد أثنى عليهم بالجراحات، ومن قتل منهم مكث ملقى بالفلوات، وعاد الغزاة بالاجر والغنيمة، وأيادى الله لديهم وافر عقيقة، الخ .

ثم رسالة ثالثة حول الجهاد أيضا وفيها وصف ما وقع بتطوان ونواحيها وشواطئها عند ما رسا بها أسطول فرنسى سنة 1085 وأرى من المناسب أن أثبت هنا نص جلها، لأنها تعرفنا بالحالة التى كان عليها سكان تطوان فى ذلك العهد، ونصها بعد المقدمة : «هذا وانه يجب البعث لسيادتكم حسب المودة والاستبشار، أن المشركين أعقبهم الله بالذل والخزى والدمار، حلوا بساحتنا أواسط صفر، مضمرين لنا الخديعة والبؤس والضرر، سنة ألف وخمس وثمانين، صبحتنا زهاء ستين مركبا للنصارى، فمكثنا عند مشاهدتها ذاهلين حيارى، الكل من جنس الفرنصيى، كأنهم فى تصافهم حصون ثابتة الترصيص، أحاطوا بالمرسى وكل منهم أناخ ورسى، أهدقوا من حلق الوادى الى رأس الطرف وقد شحنوها بالابطال، مستعدين للحرب والقتال ... الى أن قال : «ومكثت يوما لم ينحدر منها زورق، وهبجس بالخاطر ما راع وأطرق، فتضايق الحال عن الفرج، وأظلم الخطب وأدلج، وجاء الليل وعسعس، وما كاد الكرب يتنفس، فأضرمت النيران فى كل الابراج، وأسرع النذير الى كل النواحي والافواج، فتلاحقت الاسود والابطال، متبادرين الى الحرب والقتال، وأقبلت وفود من القبائل، من كل قرم بطل جائل، فلما عاين الروم أهبة الناس واستعداداتهم، وعزمهم على الجهاد وصدق نياتهم، والاحزاب يتلو بعضها بعضا وقد ملأوا الارض طولا وعرضا، يمرحون فى آكام الارض ورباها، وأباطحها وذراها، راعهم ما عاينوا من الحزم، وأفجعهم ما رأوا من النجدة والعزم، وأظهروا خلاف ما كانوا أتوا اليه، حين رأوا ما لا طاقة لهم عليه، وأذعنوا بالرغبة والخضوع، لظما أعوزهم وهلوع، عسى أن يسد رمقهم، ويرتوى ظمأهم، فتشاور فى ذلك أعيان البلاد، فرأوا ان استسقاءهم إن كان بمصلحة ليس بفساد، فأجابوهم لما طلبوا، واشترطوا عليهم شروطا وأوجبوا، فمن ذلك قناطير من البارود عديدة، وكراع وأسلحة فاخرة عتيدة، فملأوا من الماء ما سد به رمقهم، وخدام الامير من اذاية الناس تحرسهم، ثم أقلعوا عنا وساروا مدبرين، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين اه. بخ.

ثم رسالة رابعة فى نفس الموضوع، وهى مرسلة الى العصابة التى أيد الله بها الملة الاسلامية، فشيدوا أساس الدين واثبتو مبانيه الخ. وهى رسالة طويلة فى نحو خمس صفحات عن حصار المسلمين لطنجة وهد حصونها سنة 1091. ويفهم منها أن المؤلف رحمه الله كان من المحاصرين لها .

ثم رسالة خامسة فى نفس الموضوع وأولها، الحمد لله الذى أعلى كلمة الاسلام، وعجل بالفتح والنصر والانعام... الخ. وقد أنشأها المؤلف بمناسبة استرجاع المسلمين للمهدية «المعمورة» فى ضحوة يوم الاربعاء حادى عشر ربيع الاول سنة 1092 هـ.

ثم رسالة سادسة فى الحج ثم أخرى فى فضل الحج، وأخرى الى شيخ طريق، وأخرى من شيخ طريق، وأخرى من أب لابنه وأخرى من ولد لوالده، ثم رسائل ملوكية وأخرى ودية، وأخرى فى الوباء وأربع رسائل فى العزاء، والرسالة الرابعة والخمسون - وهى الاخيرة - فى شكوى الزمان، على عادة الادباء فى القديم، والله اعلم بحالة أدباء العصر الحديث؟ وبهذه الرسالة التى ضاع آخرها تنتهى هذه الرسائل التى صاحب التوفيق صاحبها فى الكثير من فقراتها عكس حظه فيما نظمه من الكلام.

كتابه فى الادعية والاذكار

أما الكتاب الرابع للرافعى فقد استهله بقوله، الحمد لله رب العالمين، والشكر له جل وعلا الى يوم الدين، وذكر أن مما من الله به عليه من النعم، أنه مواظب على أدعية وأوراد وأذكار، بالعشي والابكار، مما صح سنده وتواترت به الاخبار، ورواه عن العلماء العارفين والسادة الاخيار الخ. وانه جمع ذلك فى هذا الكتاب، طالبا بذلك العصمة فى الدنيا والآخرة والعفو من رب الارباب، فهو سبحانه المؤمل لما يرجوه من الاجر والثواب... الخ.

ثم أثبت نصوص تلك الاوراد والادعية، مبتدئاً بما يقال بعد صلاة الصبح وما يدعى به فى الركوع والسجود، وقبل الصلاة وبعدها، الى أن قال ما نصه : «ثم الورد الذى لقننا شيخنا سيدى الحسن اليوسى عن شيخنا العارف بالله سيدى محمد بن ناصر الدرعى أفاض الله علينا من بركاتهما آمين، أمرنى أن أقول، استغفر الله (مائة مرة) اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. (مائة مرة) لا اله الا الله (ثلاثة آلاف مرة) .

ثم ذكر أن من جملة أذكاره اليومية، ختم كتاب دلائل الخيرات، وبين أوراد الصباح والمساء وعند سماع الاذان، وعند الاضطجاع فى الفراش للنوم، وفى يوم الجمعة، ومختلف اوقاته، وفى أول يوم من المحرم، وفى شهر رمضان الخ

ومن تلك الاوراد آيات وأحاديث، وأحزاب كبار الصوفية، ومنها توسل الشيخ أبى على اليوسى الذى أوله .

يا رب باسمك العظيم الاعظم وبجلالك الكبير الافخم

وقد ذيل الرافعى كتابه هذا بعهد منه يشهد فيه الله وملائكته وحمله عرشه وأنبياءه ورسله وجميع خلقه، أنه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق، الى آخر عقيدة أهل السنة والجماعة، وختم بالدعاء له ولجميع المسلمين . ونحن وان كنا لم نقف على تاريخ ولادة الفقيه الرافعى بالتدقيق، الا أنه قد ذكر فى رحلته الشرقية - كما رأيت - أن حجه كان سنة 1096 . وان عمره كان اذ ذاك ستة وخمسين عاما، فعلى ذلك يكون مولده عام 1040، وقد علمت من تقارير ديوانه انه كان حيا عام 1110، فكان عمره اذ ذاك سبعين عاما وأظن أنه عمر أكثر من ثمانين عاما والله أعلم .

هذا وإن الفقيه الرافعى بالرغم من ضعف أسلوبه ومخالفته لبعض القواعد فى بعض الاحيان، لم يتقدم فى تطوان كثير من أمثاله، فالاقدام على نظم الشعر بكثرة، وجمع ديوان يحتوى على العدد الكثير من القصائد والمنظومات، وتأليف رحلة شرقية تاريخية ادبية، وملاقة كبار العلماء والادباء ومساجلتهم ، كل ذلك لم نقف على كثير من المزاحمين فيه للفقيه الرافعى، وكل ذلك يدل على أنه كان ممتازا بروح وثابة، وجراءة فائقة يستحق بهما أن يسجل اسمه بين نبغاء هذه المدينة الفقيرة التى كانت قليلة النوابغ فى العلم والادب عليه رحمة الله .

الفصل الخامس

من الباب الرابع

من رحلات المشاهير الى تطوان فى القرن الحادى عشر

زيارات الشيخ أبى علي اليوسى لتطوان ومدحه لاهلها .

كان الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسى (I) من أكابر علماء المغرب وشيوخه الراسخين فى العلم والعمل، وكان يتردد على تطوان من حين لآخر وقد ذكر فى رسالته المشهورة التى بعثها الى السلطان مولاي اسماعيل العلوى أنه زار تطوان فى عهد السلطان المولى الرشيد (المتوفى سنة 1082)

(I) الشيخ أبو علي اليوسى ترجم له اليفرانى فى الصفوة (ص 206 طبع فاس) ووصفه بالشيخ الامام، علم الاعلام، شيخ الاسلام، آخر علماء المغرب على الاطلاق، ومن وقع على علمه وصلاحه الاجماع والاتفاق، أبو علي الحسن بن مسعود بن علي اليوسى الخ. واليوسى نسبة الى قبيلة آيت يوسى البربرية، قرأ رحمه الله القرآن ثم اشتغل بقراءة العلم وجال ببلاد المغرب وقرأ على مشائخه بسجلماسة ودرعة وسوس ومراكش ثم ألقى عصا التسيار بالزاوية الدلائية وتصدى للتدريس بها واستمر كذلك الى أن استولى عليها السلطان الرشيد ابن الشريف العلوى عام 1079 فنقله الى فاس فأقام بها مدة درس فيها العلم بجامع القرويين ووقع له من الاقبال ما لم يعهد لغيره ثم ترك فاسا واستوطن البادية، ولما دخل مراكش تصدر فيها لاقراء علم التفسير بجامع الاشراف فمكث فى تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة اشهر وهو يبدى كل يوم من التحقيق أسلوبا ويلقى من التحريرات صنوفا فعجب الناس بحسن إلقائه وغزارة مادته مع أنه ربما يبيت فى ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فاذا أصبح قعد على كرسيه وأطلق لسانه بما يبهر العقول ويحير الازهان وبالجملة فهو آخر العلماء بل خاتمة الفحول من الرجال، وقد قال فيه الشيخ أبو سالم العياشى رحمه الله .

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

ثم زارها في عهد السلطان المولى اسماعيل، وقد جاء في ديوانه أنه عند مروره بتطوان سنة 1083 طلب منه أن ينظم قصيدة ترغب في الجهاد فقال :

طوبى لعبد خاشع يتقلب
يترصّد الصلوات في ميقاتها
ويجاهد الكفار لا مستجلبا
بل يبتغى إعزاز دين محمد
صلى عليه الله ما هب الصبا
ويقوم ممثلا لامر الله في
وثوابه يرجو ونيل شهادة
فيكون أغضب ما يكون اذا لقي
وتراه كالاسد الهصور اذا التظت
يغدو بها طورا جواد سابح
وتراه طورا في الرماة كأنه
وتراه أحيانا بأعلى مرقب
ان الجهاد لخصلة محمودة
أجر عظيم للعباد مدخر
كم آية فيها تبين فضله
قد قال فيه المصطفى ومقاله
رجلان معتزل وءاخر ممسك
فاذا تسمع هيعة يدعى لها
ولكم نبى مرسل أوصى به
ولرب ذى نسك تيقن أنه
كم شاط ما بين الصوارم والقنا
فهو الجدير بأن يرام سبيله
وأجل ما بذلت نفوس ذوى العلا

في طاعة المولى وفيها يدأب
وعن المئاتم كلها يتجنب
فخرا بذاك ولا المطامع يطلب
خير الورى الهادى الشفيق الاقرب
في الروض يمطره الغمام الصيب
أمر الجهاد وفى رضاه يرغب
يعلو بها يوم الحساب ويقرب
وأشد ما يلقي اذا ما يغضب
حرب يصول على العداة ويحذب
في الخيل كالسرحان حين يقرب
من دون أشبال هزبر محرب
للمومنين يحوطهم أو يرقب
في الدين منصبها لعمري منصب
وغنيمة في عاجل تترقب
وحديث صدق في الجهاد يرغب
صدق لخير الناس فيما يحسب
بعنانه مترصد مترقب
يوما يطير الى الصريخ فيضرب
ولكم صحابى به يتقرب
اولى به فيما يروم ويعجب
فيه نفوس طهرت لا تذب
وأجل ما يدعى اليه ويندب
فيه وأولى ما اليه تتعب

وقد تلمذ رحمه الله للشيخ أبى عبد الله محمد بن ناصر الدرعى فأذن له في تلقين أوراد طريقته الناصرية، فكان يلقيها في حياته، وكان كثير الزيارة لقبور الصالحين، وقد ألف رحمه الله تأليف جليلة، وكان شاعرا أديبا راوية للشعر، يستحضر دواوين أكابر شعراء العرب، وكان يقول لو شئت أن أتكلم الا بالشعر لفعلت، وجل شعره حكم وأمثال كشعر العرب القدماء .

وتوجه رحمه الله للمشرق سنة 1101 فزار مصر وحج بيت الله الحرام ، ولما رجع للمغرب توفي به سنة 1102 . رحمه الله، وانظر ان شئت :

صفوة من انتشار ص 206 - النبوغ المغربى ج I ص 216 - الاستقصا ج 4

يا أمة المختار أحمد شمروا
لقتال عباد الصليب وعصبة
واجروا كما جرت الاوائل منكم
صحب النبي الاكرمون ذوو العلا
كم دوخوا من مشركين ودمروا
ولرب طاغ قد لقوه فعاد عند
كم قتلوا أو ذللوا أو قتلوا
ان الشجاعة زينة لا سيما
يا أهل هذا الفحص كيف معاشكم
بل لم يزالوا يغتدون بغارة
ما بينكم بحر ولا بعد المدا
يا أهل أندلس ألم تستخرجوا
هلا انتصرتم مثلما انتصر العدا
هلا جعلتم فى نحورهم القنا
أين الشجاعة والحفاظ وأنتم

لقتال من هو بالنبي مكذب
عن كل خيرهم قديما غيب
أهل البصائر والليوث الغيب
والتابعون ومن اليهم ينسب
قوما وكم من قرية قد خربو
هم وهو مفلول الشبابة مخيب
وتغلبوا أو سلبوا أو صلبوا
فى الحق حيث رضى المهيمن يكسب
وحوالكم تلك النواقص تضرب
شعواء تقتل فيكم أو تسلب
والخيل تعلق فى الارى وتشرب
من أرضكم ودياركم وتنكبوا
هلا تحزبتم غداة تحزبوا
ودعوتهم رب العباد لتغلبوا
عرب وللعرب الحفاظ تنسب (I)

وجاء فى الديوان المذكور أيضا أنه زار تطوان مرة أخرى سنة 1085 ومدح
هذه المدينة وأهلها بقصيدة بديعة هذا نصها (2) :

تطوان شفت الفؤاد المسقما
وأطار منظرها المرونق بهجة
بلد تقاسمت البهاء جهاته
فترفعا فى مرقب يطرى به
فحكى عروسا جليت اذ جليت
ما شئت من عين يكسرهما الحيا
لولا الجبال الراسيات بجوها
فلقد غدت عدنا ألم تر تحتها الا
وزرت على عدن ألم تر فوقها
لله در أحبة غادرتهم
أرزوا الى الخيرات ظمئا شرعا

وجلنت من الاحزان ليلا مظلم
عن قلبى المضنى هموما جثما
فتناصفت حسنا وفاقت ميسما
أنسا ويطرب من رءاه توسما
أعلى منصتها الرفيعة مسنما
بحذاء ثغر تشتفى فيه الظما
لحسبت منظرها الثريا فى السما
نهار تجرى فى بساط أدهما
غرفا زهت حسنا على تلك الدما
فيها يعدون الصداقة مغنما
ورأوا سبيل البر دينا قيما

(I) هنا ينتهى ما فى الديوان المطبوع - وكذلك المخطوط - من هذه
القصيدة . وقد ذكر فى المطبوع أنها لم تكمل .
(2) ديوان اليوسى - طبع فاس فى المزمرة 14 ص 5 .

وأود لو كانت مجالس بينهم
 وشجا الحشا أن لم أجد من عالم
 إلا يسير صباية من ذى حجا
 يضحى في سبل الهداية معلما
 يهدى الورى فيها ولا متعلما
 لصباية بالعلم أضحي مغرما.. الخ

وكان الشيخ اليوسى رحمه الله فى زيارته لتطوان يتفقد الاحوال ويرغب الناس فى الجهاد كما رأيت فى قصيدته السابقة، وكان مع ذلك يلقي الاوراد الناصرية التى تلقاها من مؤسس تلك الطريقة الشيخ سيدى محمد بن ناصر كما ذكرنا سابقا، وكان له بتطوان تلاميذ ومريدون، ومن أكبر تلاميذه بها الشيخ العالم الصالح سيدى الحاج علي بركة رحم الله الجميع .

رسالة الشيخ أبى علي اليوسى للسلطان، وفيها وصف حالة تطوان

وعلى عادة العلماء العاملين، الصالحين المصلحين، من رجال السلف الصالح، الذين لم تكن تأخذهم فى الله لومة لائم، من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفكير فى المصالح العامة للامة، والعمل لجلب أنواع الخير لها، ودفع أنواع المضار عنها، والتقدم بالوعظ والنصيحة والتنبيه لاولى الامر وأرباب السلطة والنفوذ، وجه الشيخ أبو علي اليوسى رضى الله عنه الى السلطان العظيم المولى اسماعيل رحمه الله، رسالة طويلة (I) كلها نصائح وتنبيهات لنواحى النقص فى المملكة المغربية، وقد جاء فى أول هذه الرسالة قوله : «قليل علم سيدنا أن الارض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس عبيد لله سبحانه وإماء له، وسيدنا واحد من العبيد (2) وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحاناً، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح، فهو خليفة الله فى أرضه، وظل الله على عبيده، وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد، فهو متجاسر على مولاه فى مملكته، ومتسلط ومتكبر فى الارض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ... الى أن قال : «ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفى بها البطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هى أمهاتها .

(I) الاستقصا ج 4 ص 39 . والجيش ج I ص 78

(2) الله در الشيخ أبى علي . وما أشد ايمان العلماء والشيوخ الذين لا يداهنون الولاة ولا يطمعون فى وظائفهم وهباتهم، لقد مضى المولى اسماعيل والشيخ اليوسى وسنمضى نحن وجميع معاصرينا، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

الاول جمع المال من حق وتفريقه فى حق.

الثانى إقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله، وفى معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة .

الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم، وفى معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم .

وهذه الثلاثة كلها قد اختلت فى دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو الغفلة، فان تنبه وفعل فقد فاز، وفى ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله، وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، والا فقد أديننا الذى علينا الخ . ثم بعد أن تكلم على الامر الاول الذى هو المال، تعرض للامر الثانى الذى هو الجهاد وتعمير الثغور الاسلامية، وهنا ذكر مدينة تطوان وقارن بين قوتها الحربية واستعدادها للجهاد فى عهد السلطان المولى الرشيد، وعهد خلفه السلطان المولى اسماعيل، ونبه الى وجوب الاعتناء بهذه المدينة التى كانت من أهم الثغور الاسلامية بالمغرب، وبرجالها الذين طالما وقفوا فى وجه الغارات الافرنجية، وبذلوا أموالهم ودماءهم وأنفسهم فى سبيل الدين والوطن، وهذا نص كلامه

«وأما الامر الثانى فقد ضاع أيضا، وذلك أنه لم يتأت فى الوقت الا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها، فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا رشيد رحمه الله تعالى، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة، وقد بلغنى اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم، فخرجوا يسعون على أرجلهم بيدهم العصي والمقاليع، وهذا وهن فى الدين وغرر على المسلمين، وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات، واعطاء العدة كسائر الناس فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية الى ماسة، ويحرضهم على الجهاد والحراسة، بعد أن يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم، ويزيدهم ما يحتاجون اليه فهم حماة بيضة الاسلام، ويتحرى فيمن يولى تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة فى الجهاد ونجدة فى المضائق وغيره على الاسلام، ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق»

رحلة الاديب ابن زاكور الفاسي الى تطوان

من أحسن ما كتب عن تطوان وبعض رجالها في أواخر القرن الحادي عشر ما أثبتته العالم الاديب أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور (I) الفاسي في كتابه المسمى «نشر أزاهر البستان، فيمن أجازني بالجزائر وتطوان» (2) وهو كتاب أدبي تاريخي ذكر مؤلفه في أوله أن الرحلة، منة من الله ونحلة تكسب الغليظ الطباع، غاية الرقة والانطباع، وتعقب من كابد لها نصيبا، علما عزيزا وأدبا الخ. ثم ذكر أنه قام برحلة الى بلاد الجزائر وتطوان، واتصل ببعض من فيهما من العلماء والادباء، ووصف بعض معالم البلدين ورجالهما وصفا أدبيا، وضمن رحلته من الفوائد المختلفة ما أعطانا صورة عن الحالة العلمية والادبية بالبلدين المذكورين في ذلك العهد، أي في سنة رحلته وهي سنة 1094، وما دمنا نتحدث عن أخبار تطوان وأحوالها في القرن الحادي عشر، فانه يجمل بنا أن ننقل هنا ما كتبه هذا العالم الاديب عن هذه المدينة ومن اتصل بهم من رجالها قال رحمه الله بعد أن حكى عن خروجهم من الجزائر بحرا قاصدين تطوان ما نصه: «فوصلنا الى محل ابتداء سفرنا ونهاية صدرنا، مدينة تطوان، ومغنى الاحباب والاخوان، سلمها الله من طرائق البغي والعدوان، الى أن قال «ولما حللت بتطوان حرسها الله وساعدني جدي، وزرت ضريح جدي (3) وشمت غرر أهل ودي، انقشعت سحائب وجدي، وانفقت فيها من الشعر على قدر وجدي، فمن ذلك ما قلته وقد أحلنا شيخنا العلامة الفقيه الفاضل الوجيه الذي جعل

(I) الاديب ابن زاكور ترجم له تلميذه ابن الطيب العلمي في كتابه الانيس المطرب (ص 19) ووصفه بوحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الخ وأثبت له عدة قصائد، كلها فرائد، وترجم له الكتاني في سلوة الانفاس (ج 3 ص 180) وذكر أنه كان من أجل الفقهاء وأفاضل النبهاء خيرا دينا متقشفا ناسكا عابدا متصوفا زوارا للصالحين متواضعا اماما في علم البيان والبديع واللغة والعربية والعروض والشعر، مشارك في الفقه والحديث والاصول والتاريخ، وله نظم كثير على أنواع، ومؤلفات مرصعات، مفوقات جزلة العبارة، لا يشق احد فيها غباره الخ. وترجم له أيضا القادري في نشر المثاني (ج 2 ص 106) وتوفي رحمه الله بفاس سنة 1120 .

(2) طبع هذا الكتاب بالجزائر عام 1319 = 1902 م وعدد صفحاته نحو السبعين وهو نادر الوجود، وفي خزانتي الداودية نسخة منه .

(3) نفهم من كلام ابن زاكور هنا أن جده كان مدفونا بمدينة تطوان فهل كان أصل الاديب ابن زاكور من تطوان ومنها انتقل والده الى فاس ؟ أم إن أصله من فاس وانما انتقل جده منها لسبب من الاسباب فتوفي ودفن بها ؟ الله أعلم. على أن من الممكن أن المدفون بتطوان هو جده من جهة الام افتكون والدته او جدته من تطوان والله أعلم.

لمطارف محاسنها الموشية، علامة وشية، المصقع اللدره، الذى أنار شمس الادب
وبدره، ذو اليمن والبركة، أبو الحسن سيدى الحاج علي بن محمد بركة، احدى
جناته، قد خلع عليها بعض صفاته، وأعارها بعض سماته، فاعتل نسيمها،
واخضل أديمها ورق نعيمها، وراق شميمها، وأينع زهرها، وأنضج ثمرها، وفاح
شذاها، ولاح سناها، بالمنزه المسمى بالكيتان، المطاول لغوطة دمشق وشعب بوان
ومعنا صاحبنا الاديب الاريب، الذى حاك من برود الادب كل قشيب، وهصر من
أفئانه كل غصن رطيب، أبو الحسن السيد الحاج علي الاندلسى عرف بمندوصة،
أبقاه الله وأبنيه مجده مرصوصة، فقلت :

تطوان ما أدراك ما تطوان سالت بها الانهار والخلجان
قل إن لحاك مكابر فى حبها هى جنة فردوسها الكيتان

وقلت أيضا

تطوان تطوان لا شئ يضاهيها غنت بلابلها اذ سال واديها
والفجر والليل لولا بعض من فيها (I) لما نويت رحىلا عن مغانيها

وهذا الكيتان من أجمل المواضع، وأفضل المتنزهات والمصانع، تطرد خلال
رياضه أنهار، تجرى فى الصباح بذائب اللجين وفى الاصيل برائق النضار،
وتسجع بأدواحه أطيّار، لا تدانيها نغمات الاوتار، قد اعتدل هواؤه، واشتمل
بالابتهاج بهاؤه، تغص الزهراء بطلاوة مرءاه، وتود الزوراء لو ترتدى بملاءة حلاه،
وتحسد جماله النضير، وطرازه المرونق، محاسن السدير، وبدائع الخورنق،
ترتاح النفوس فى بساتينه، وتحبى الارواح بشم رياحينه، ان حل من أنحله
الوجد برباه، صاح من حينه واطرباه، وأسلاه تسلسل غدرانه، وتغريد ورشانه،
عمن قطف لبه بأجفانه، ومزق قلبه بهجرانه، فيه راق شعري، وانقذح زناد
فكرى، سمرت ليالى بجناته، مقتبسا من نور شياته، وإمتعتا بنغمات أطيّاره،
ونسما أزهاره، فما شمت أبدع من سناها، ولا شمت أضوع من شذاها.

(I) ليت شعري من هو هذا البعض الجاني الذى كان سببا فى حرمان
تطوان من سكنى هذا العالم الاديب المتفنن الذى كان يرى فيها مغنى الاحباب
والاخوان، وفى رياضها جنة من الجنان، فهل هو حاكمها وقائدها، وقد كان فى
ذلك العهد أميا لا صلة له بالعلم والعلماء، ولا عطف له لا على الادب ولا على
الادباء، ولم يشر اليه المؤلف فى كتابه ببنت شفة؟ أم ان ذلك البعض هو
بعض الحسدة القاصرين الذين كانوا يغارون من أدب ابن زاكور وتواضعه ورقة
حاشيته بالرغم من غزارة علمه وطول باعه؟ الله اعلم أى ذلك قد كان، وأيا كان
فالله حسيبه.

واها لها من ليال هل تعود كما
لم أنسها مذ نأت عني ببهجتها

كانت وأي ليال عاد ماضيها
وأي أنس من الايام ينسيها

فلا أعرج أيام حلولي بتلك المغاني الا عليه، ولا أحن أزمان بعدى عنها الا
اليه، فمن شعري فيه وقد بعدت عن مغانيه، قولى من قصيدة أولها :

بجزع النقابين الهضاب فأنقع
فأرامه اللاتى رتغن بأضلعى
يسيع كما أنساب الحباب بأجرع
جمانا على سيف بتبر ملفع
وهل غير أوطان الاحبة مرتعى
لتطوان ءامالى وفيها تولعى
وأرخى على أرجائها كل برقع

قفا حدثانى عن مغان وأربع
فبانة جرعاء الحما فظبائه
وعن ذى حباب بالرياض مسلسل
قشبه به والشمس راق أصيلها
سقى مرتع الاحباب ديمة واكف
وإنى وإن أمسيت فى فاس ثاويا
ديار أناخ الحسن فى عرصاتها
ومنها :

ذكرتهم اهتاجت شعائل أضلعى
بلقياكم قبل الحلول بشرجعى
عسى اشتفى من لوعتى وتفجعى
من الوابل الهتان غير مصدع
بأهل العلا تزهو بكل سميدع
سلام كأنفاس العبير المشعشع

رعى الله أحبابا بتطوان كلما
أحبابنا فيها هل الدهر سامح
وهل لى فى الكيتان نزهة وامق
فيا نهر الكيتان جادتك ديمة
ويا منزل الاحباب لا زلت ءاهلا
ويا جملة الاحباب منى عليكم

«قلت»

بقية هذه القصيدة موجودة بديوان شعره وهى قوله :

بين فما وجدى عليكم بصعصع
مآقى وأجفانى لطول توجعى
وشوقى اليكم ثابت لم يضعضع
مطالعه أو ينزف الوجد أدمعى
نسيم الربا فى نفحة وتضوع
ونهر الندى فى جرية وتصيع
الى حيث در النظم غير مضيع
له لجج يشتاقها كل منقع
ولم لا وقد أربى على كل مصطمع
يصيب بشهب الشعر كل هملع
قفا حدثانى عن مغان وأربع

لئن فرق البين المشت انتظامنا
شكنت بليل الهم حتى تقرحت
وضضعاع جسمى ضعضعته بلابلى
سأبكى لشعشعاع الغرام الذى هوت
وأصبو الى أهل الصفا كلما هفا
الى حيث ماء المكرمات مسلسل
وروض المنى فى عطفة وتهدل
وحيث أبو يعقوب بحر بلاغة
همام به تطوان زادت محاسنا
فلا زال فى أفق البلاغة كوكبا
عليه سلام الله ما قال نازح

وأبو يعقوب المذكور في هذه الأبيات، هو الأديب أبو يعقوب الشودري، وقد وصفه ابن زاكور - كما رأيت - بأنه «يصيب بشهب الشعر كل هملع» فهو اذن شاعر مقتدر، ولكن أين يوجد شعره، وأين ترجمته، اننا بكل أسف لم نقف على شيء من ذلك، والامر لله .

ثم قال ابن زاكور في رحلته عقب ما مر عنه ما نصه :

ويشبه هذا المعنى، وان لم يكن فيه تصريح بذلك المعنى قولى أيضا :
يا دار من أهوى رعاك الله
وغدوت في حلل النضارة تزدهى
ما كان آنق نزهة سلفت لنا
والدهر سالما وقل شباته
والانس ينظم شملنا فى سلكه
فى جنة ما كان ألطف نشرها
ماسنت لدان غصونها لما شدا
وتبسمت أزهارها لما بكى
أفشنت ثواسمها سرائر نورها
والروض مبتهج الاصائل والضحي
ما كان الا ريشما انتعشت به
واغتالنا صرف الحوادث بالنوى
ءاه لما ألقاه من وجدى على
يا ليت شعرى والمنى عين العنا
أيروض خصب الوصل بستان المنى
لو ما الذى أرجوه من جمع على
ما إن تزال سحائب كمدامعى
وتحيتى موصولة كمودتى
كنواسم العهد الذى من طيبه
فبلا بلى من بعده موقودة

وتفجرت برياضك الامواه
وهفا عليك من الصبا أنداه
برباك اذ برق المنى شمناه
عن حربنا وأحبتى ما تاهو
والوصل صافح يمننا يمناه
حسدت عليه أنوفنا الافواه
شحرورها النشوان واطرباه
فيها الحيا همالة عيناه
لله سر النور ما أفشاه
سقىا لذاك العصر ما أحلاه
أرواحنا حتى استرد سنه
عجبا لهذا الدهر ما أجفاه
ما قد مضى لو كان ينفع ءاه
والمرء قد يحظى ببعض مناه
فلطالما محل النوى أذواه
دعة قضيت كآبة لوماه
تسقى منازل أنسنا ورباه
تترى الى من فى الحشا سكناه
تذكى سكير أضالعى ذكراه
والشوق لا يدرى به الا الله

ثم أثبت ابن زاكور أبياتا فى ذلك المعنى لصاحبه الأديب أبى الحسن الحاج علي مندوصة التطوانى وقد وصفه وصفا لطيفا أثبتناه فى ترجمته، ثم وصف شيخه الكبير سيدى الحاج علي بركة ببعض ما فيه من الاوصاف الحسان وأثبت القصيدة الشهيرة التى مدحه بها، وقد أثبتنا ذلك كله فى ترجمة الشيخ المذكور رحمه الله. ثم قال ابن زاكور .

«وله (أى لسيدي علي بركة) أبقاه الله قصائد طوال، حلى بها من خرائد المحاسن كل معطال (I) لكن الاليق بهذا المقام، أن يذكر من شعره الرائق النظام، ما اشتمل على الفوائد العلمية، والابحاث الرقيقة السنية، الخ. ثم أتى ببعض ذلك (2) ثم أثبت نص الاجازة التي كتبها له سيدي بركة وقد أثبتنا نصها الكامل في ترجمته رحمه الله. وبذلك انتهى ما ذكره عن تطوان ورجالها، ومن ذلك عرفنا أن الاديب ابن زاكور قد اتصل في تطوان بالشيخ العالم الصالح سيدي الحاج علي بركة، وأنه قرأ عليه ومدحه واستجازه فكتب له اجازته التاريخية، كما أنه اتصل برققاء الشيخ المذكور وتلاميذه من رجال العلم والادب والفضل والحسب، ومنهم صديقه الاديب أبو الحسن علي مندوصة الاندلسي التطواني، وقد تبادل معه المدح والثناء، وعرفنا أيضا أنه كان يزور متنزهات تطوان وخصوصا كيتان الذي وصفه أبدع وصف، وأنه كان يزور ضياع صديقه مندوصة، كما كان يزور بساتين شيخه سيدي بركة، ويظهر أن زيارات ابن زاكور لتطوان كانت تتكرر من حين لآخر فقد كان بها سنة 1092 - 1093 و 1094. وقد أثبتنا في ترجمة الاديب محمد ابن علي الرافعي الاندلسي التطواني أنه كتب له بخطه تقریظا على ديوانه سنة 1110. ثم ان مما قاله الاديب ابن زاكور في كيتان ولم يشبهه في رحلته وهو موجود في ديوانه، هذين البيتين :

ان روض الكيتان روض أريض ومدا اللهو في ذراه عريض
يكتسى نضرة به وسرورا من حشاه من الهموم مريض

ومما ارتجله ابن زاكور وهو بتطوان، هذا الموشح اللطيف

يا ذوى ودى ويا أهل العلا	في ذرا تطوان
اسمعونى كل معشوق الحلى	طيب الالحن
بمديح المصطفى خير الورى	سيد الاكوان
أسمعونى من نقاوات المديح	رائق الاشعار
بلحون تلبس القلب القريح	حلل الانوار
فيطير القلب منها فى ملا	تخلق الاحزان
يعتلى من زهوه أى اعتلا	في سما السلوان
يجتلى من بشره أى اجتلا	غاية الاحسان

(I) ليت شعري أين توجد هذه القصائد الطوال ؟

(2) قد أثبتنا بعض ذلك في ترجمته رحمه الله

يجتلى من سره فى جهره
ويرى من طيه فى نشره
فهو لا يجنح الا للعلا
قائلا مهما عراه ما عرى
صل يا رب الورى دأبا على
مورث البقيا
مالىء الدنيا
شأن أهل الشأن
من حلا النشوان
سيد الاكوان

ومما خاطب به ابن زاكور أبا الحسن مندوحة بتطوان قوله :
رد صفواها يا أخى مندوحة
واحلل بها وخلاك ذم
أنت ولا زعمات نذل
وتاج حمد برأس مجد
تقضى به أعين الاعادى
لو حملته جبال رضوى
مناهلا بالعلا مخصوصة
مبانيا للهدى مرصوصة
شجى ذوى فطر منقوصة
أجاد صوغ النداء تخليصة
قد لا عينها المبحوصة
لظلت أعناقها موقوصة

وزار المحل المعروف برأس الطرف وهو واقع على شاطئ البحر قرب
مصيف تطوان فقال فيه هذه الابيات وفيها أدب ووطنية :
راقت عشية رأس الطرف رأس فتى
حالفنا الانس فيه والمسرة اذ
والبحر مما صفا أبدى ضمائره
ولاحت الشم من أطواد أندلس
وقد بدت سبته منه منادية
هل عزمة تذر الصليب منكسرا
هل غيرة تقتضى طهرى من نجس الـ
هناك أنشد والآمال دانية
الحمد لله أهل الحمد ملهمه
لم يثن رأس الجوى عن قلبه طرفه
عن لنا المتمنى مسرجا طرفه
والبرج مما علا يكشف ما خلفه
تشكو ذراها النصارى وهى فى لهفة
يا أهل دين الهدى هل عندكم عطفة
حتى يظل الرشاد لامحا عطفه
شرك بمطلق دين الملة الصرفة
والكفر عمت ذوى شوكته الرجفة
مخزى النصارى ومولى من هدى لطفه

ومما قاله بتطوان أيضا يستنجز من صديقه الاديب أبى يعقوب الشودرى
الاندلسى التطوانى اعارة كتاب زهر البستان عام 1092، هذه الابيات :
يا من به شرفت على البلدان
وتأرجت أرجاؤها من نشره
أنجز أبا يعقوب فى ارسال ما
فلقد دجت أفكارنا كلفا به
لا زلت ترفل فى برود مسرة
ومن ابن زاكور سلام عاطر
أذكى من النسرين بلله النداء
ياتيك ما غنت حمائم أيكه
تطوان الغرا بلا بهتان
وغدا لطرس النبيل كالعنوان
همنا به من زهرة البستان
فعسى يضوع شذاه بالسلوان
بأدى البشائر ضاحك الانسان
كالياسمين يضوع فى بستان
وألذ من وصل على هجران
وتمايست عذبات قصب البان

وقال في جواب يظهر أنه بعثه الى صديقه ابي الحسن علي مندوحة
بتطوان :

أتانا النظم يبهج كاللآلى
تحدانا بمعجزة خبير
فما أحلى العتاب به ولكن
معاذ الله أبخس حق خل
وبالمولى أبا الحسن المعلى
فكونك من ذر الاحباب قاض
ألست من بنى تطوان من قد
عليهم ما هفا ريح الشمال
خصوصا شيخنا رب المعانى
فشد يد الضنين على ودادى
ولكن لم تساعدنى الليالى
وسامح ما تضمنه قريضى
فشعري من بديع القول خال

تروق بجيد ربات الحجال
بأسرار البلاغة والكمال
مضمنه يعد من المحال
يمت الي بالسحر الحلال
علي ذى المناقب والخصال
علينا فى الاخاء بالاتصال
عنيت بحبهم منذ الفصال
سلام تستمد به الغوالى
أبا حسن عليا ذا المعالى
فقلبى من ودادك غير سال
لما يرضى الاخاء من الوصال
من المعنى السخيف بالارتجال
وفكرى بالبلاغة غير حال

ولما ترجم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتانى فى كتابه
سلوة الانفاس، للاديب ابن زاكور، وصفه بأنه كان زوارا للصالحين مادحا لهم
النخ. ويظهر ذلك من الاشعار التى مدح بها صلحاء تطوان، ومن ذلك قوله مخاطبا
الشيخ ابا يعلى طلحة الدريج صاحب الضريح الشهير خارج باب النوادر :

يا وليا أمد بالمكرمات
عجل الامن لى وعالج فؤادى
وامتطى متن باذخ الدرجات
بسميكم طلحة الطلحات

وقال عند وقوفه على ضريح القائد المجاهد المهاجر بدينه وسيفه أبا
الحسن علي المنظري الاندلسى دفين باب المقابر :

أعفر وجهى فى ثراك المعطر
وأشدو وفرط الوجد غير منظري
لتنظر من لاوى فؤادى المفطر
ألا فاجبرن صدعى أمولاى منظري

وقال عند زيارته لضريح سيدى الصعيدى - او السعيدى - فى رمضان

سنة 1093

بقبر الصعيدى فاستشفعن
ولذ بحماه فان حماه
ولا تعد عن قصده ساعة
فكم من هموم غدا فاصما

الى الله ينفض عنك الحزن
أمان لما قد برته المحن
فان نداه مبيد الشجن
عرى خطبها ندمنه الوسن

أمولاي قد جئت منتجعاً
وأجدر بمن أم مثواك أن
فعجل مناي وسكن حشاي
وكن لي مجيراً من الغمرات
وفلك افتقاري ببحر اعتباري
أقول وقد هالني مكثه
بخير الخلائق أفضل من
محمد المصطفى المقتفى
على رسمه ما همت ديمة
وءاله والصحب ما صدحت

ندى بحر كفك طلق الرسن
ينال مناه ولم يغتبن
فقد قرطسته سهام الزمن
فسقمى طويل وداءى عفن
.... ونسيم اصطباري سكن
ألا أزجه بنسيج حسن
حباه الاله بأهدى سنن
رسول الاله سني السنن
صلاة من الله مولى المنن
حمام وما ظبي ريم شأن

وقال أيضا في سيدي بوحاجة أحد صلحاء تطوان :

بحر النداء والهدى أبا حاجة
يرجو مواهبك التي بهرت

ارحم فقيرا أتاك ذا حاجة
فافصم عرى خطبه الذي هاجه

وقال فيه أيضا ولعله بعد ان قضيت حاجته .

هلموا يا ذوى الحاج
أبى الحاجات معطيها
وملهوف وموصوف
وإقلاق لاخففاق
ضمنت الفلج بالمرج
وليس الخبر كالاخب

الى مثوى أبى حاج
لمعتر ومحتاج
بإحراج وإزعاج
وإنتاج لارتجاج
و منها للشجى الراجى
ار فاخبر فيض عجاج

وهكذا نجد في الرحلات التي كان رجال العلم والادب يقومون بها ويزورون فيها مدينة تطوان، صوراً رائعة عن الحياة بهذه المدينة، وتصويراً أدبياً لمعاهدها ومغانيها، ولرجالها وأصدقائهم الزائرين لهم، وتعريفاً بعوائدهم وروحهم وأفكارهم، وتسجيلاً لفرائد علمهم ودرر أدبهم، وخصوصاً منهم من يترددون عليها من مدينة فاس، وما أدراك ما مدينة فاس مدينة، العلوم والآداب، ومغنى الذكريات العذاب فرج الله كربتها وأزاح اتراحها وفتح في وجوهنا أبوابها (I) وسقى بغيث اللطاف أدواحها .

(I) تركت هذه الفقرات كما كتبتها أولاً عند ما كان الاستعمار الفرنسي مسيطراً على جل بلاد المغرب، وكانت نخبة شباب فاس في المنافي وأعماق السجون، وقد ظلمت بضع عشرة سنة ممنوعاً رسمياً من دخول فاس وبقيّة البلاد التي كانت تحت السيطرة الفرنسية لا أعادها الله .

الفصل السادس

من الباب الرابع

ملخص عن حالة تطوان في القرن الحادى عشر

من الناحية السياسية

دخل القرن الحادى عشر والمغرب تحت حكم السلطان أحمد المنصور السعدى بطل وقعة وادى المخازن التى أوقفت الاستعمار البرتغالى عند حده، بل التى كانت القاضية على عظمة البرتغاليين، اذ لم تقم لهم بعد ذلك قائمة الى اليوم وهو السلطان الذى فتح السودان وبنى قصر البديع الذى لم يكن له مثيل، وقد توفى أحمد المنصور بالوباء سنة 1012 فانتهى بموته عهد النظام والاصلاح ودخل عهد الفوضى والفساد، وتولى الملك أولاده وبعض أحفاده، وكان بعضهم ضعيف الارادة، وبعضهم فاسد الاخلاق، قبيح المعاملة، ضعيف الايمان، فضاعت هيبة الحكومة وضعفت سلطتها، وخصوصا فى الاماكن البعيدة عن مركزها. وفى هذا العهد تولى المجاهد المقدم احمد بن عيسى النقسيى حكم تطوان، واستقل فيها بالحكم وحافظ على كيانها، واستمر على القيام بواجب الجهاد وحراسة البلاد من استيلاء الاجانب عليها .

وتوفى أبو العباس النقسيى فتولى الامر من بعده بنوه ثم أحفاده وأقاربه، ومضى جل هذا القرن على تطوان وهى تحت حكم اولاد النقسيى، كما مضى على سائر المغرب وكل ناحية منه تحت نفوذ رئيس محلى أو زعيم أو ثائر. وقد علمت أن أولاد النقسيى زيادة على استقلالهم الداخلى بتطوان ونواحيها، كانت لهم مع بعض الدول الاجنبية علاقات ومعاملات ومعاهدات، وقد تقدم لنا بيان ذلك كله .

وقد خرجت تطوان عن حكم أولاد النقسييس فى بعض الفترات، ولكن سرعان ما كان حكمهم يعود اليها، الى أن وقع القضاء النهائى على نفوذهم عام 1084 هـ (1673 م) بدخول تطوان فى حظيرة الدولة العلوية الشريفة خلد الله مجدها وجزى أبطالها الذين طهروا الوطن من رجس الاحتلال الاجنبى خير الجزاء. والخلاصة ان تطوان قد قضت جل القرن الحادى عشر تحت حكم المتقدمين المجاهدين أولاد النقسييس، مستقلة عن حكم السلاطين وغيرهم من الحكام الذين بكل أسف لم يكن لاحد منهم اذ ذاك من النفوذ والقوة ما يكفى لتوحيد سلطة المغرب وجمع شمله .

من الناحية العلمية والادبية

يظهر أن الناحية العلمية بتطوان فى هذا القرن كانت عادية ان لم تكن ضعيفة، فقد وجدنا الاشخاص الذين تولوا منصب القضاء بها فى هذا القرن ، كلهم كانوا من أهلها ما عدا القاضى السيد عبد الوهاب بن العربى الفاسى ، وذلك يدل على ان تطوان كان بها علم وكان بها علماء فى ذلك العهد، وقرأنا فى ترجمة مولاي عبد الله الشريف (I) جد جميع الشرفاء الوزانيين بالمغرب، أن شيخه سيدى علي بن احمد بعثه الى تطوان ليقراء العلم بها، وأنه وصل اليها واستوطنها طالبا للعلم بها، وكانت وفاة الشيخ المذكور عام 1089 وكان عمره حين توفي نيفا وثمانين عاما، فطلبه للعلم بتطوان كان فى الربع الاول من هذا القرن وذلك يدل على أن العلم كان يدرس بتطوان فى ذلك العهد، وكان الناس يفدون عليها لقراءته بها، الا أننا اذا استثنينا من بين سكانها العلامة سيدى العربى بن يوسف الفاسى، فاننا نجد أن هذه المدينة لم يكن بها علماء كبار أو أدباء مشهورون فى النصف الاول من هذا القرن، أو على الاقل لم يكن لعلمائها اعتناء بالادب، وبعلم الرواية والاسناد، وانما كان اتجاههم لعلوم اللغة والفقه والنوازل والتفسير والحديث وغير ذلك من طريق الدراية لا على سبيل الرواية، ويؤكد هذا أن شيخ تطوان وعالمها وأديبها سيدى الحاج علي بركة، لم يذكر من بين الاشياخ الذين اجازوه فى العلوم، أى واحد من علماء تطوان، وانما اقتصر على شيوخ فاس وعلمائها، وذلك يدل على أن العلماء الذين كانوا بتطوان فى ذلك العهد، لم تكن لهم روايات يجيزون بها، أو انهم كانوا مقتصرين على ناحية من نواحي العلم الواسعة، وقد وجدت فى المخطوط التطوانى القديم أن تطوان لم تكن دار علم، وأن أول من ظهر علمه بها هو الفقيه البركة، سيدى الحاج علي بركة، وأنه كان بها قبله عالم آخر ولكن فى الفقهيات فقط، وهذا العالم هو

الفقيه القاضى السيد محمد (بالفتح) بن سعيد بن قريش. وعلى هذا فان الحالة العلمية بتطوان كانت فى أوائل هذا القرن وأواسطه عادية الى الضعف، اذ لم ينبغ فيها عالم كبير، أو مؤلف شهير، أو ذو ادب غزير .

أما الربع الاخير من هذا القرن فقد تبدلت فيه الحال، وذلك حينما رجع الشيخ العالم العامل سيدى الحاج علي بركة من مدينة فاس، مملوء الوطاب علما وأدبا، فتصدى لنشر العلوم، وارشاد الخصوص والعموم، بالتدريس والتأليف والوعظ والخطابة، وكان كالبدر المنير فى سماء تطوان فانتفعت به كل الطبقات بها رحمه الله ورضى عنه .

أما الناحية الادبية فى أوائل هذا القرن واواسطه، فلم نعرف عنها شيئا مهما، وأما فى اواخره فيظهر انها بقيت ضعيفة فى الجملة، ويظهر ذلك من عدد الادباء وإنتاجهم الذى أثبتناه فى تراجمهم من بين رجال تطوان فى هذا القرن ، واذا استثنينا العالم الاديب سيدى الحاج علي بركة والادباء مندوصة والرافعى والشودرى، فاننا لا نكاد نجد لغيرهم فى ميدان الادب أثرا يذكر .

نعم وقفت فى كناش الرافعى على قصيدة مدح بها بعض شعراء ذلك العصر قاضى تطوان أبا عبد الله بن قريش، وهى قصيدة ان لم يكن ناظمها هو الرافعى نفسه، فان شعرها ليس أجود من شعر الرافعى .

وبالجملة فان الناحية العلمية هى التى انتعشت بتطوان حقيقة فى الربع الاخير من القرن الحادى عشر، ورجل تطوان فى ذلك العهد هو سيدى ج. علي بركة ذلك الرجل العالم العامل الذى انقطع لتعليم الناس وهدايتهم وارشادهم الى ما ينفعهم فى دنياهم ودينهم، فانتفعت به جميع الطبقات، فالعوام كان يعلمهم ويفتى لهم فى مسائل عبادتهم ومعاملاتهم، ويخرجهم من ربقة الجهل بالعقائد الدينية ، والواجبات الضرورية، بمواعظه النهارية، ودروسه الليلية، وخواص التلاميذ ، كان يقرأ معهم العلوم العالية كما يعلم ذلك من إجازته للعالم الاديب ابن زاكور الفاسى، وبذلك كان الشيخ علي بركة هو عالم تطوان وشيخها وأديبها فى أواخر هذا القرن غير منازع .

ولعل هذا المعنى هو الذى لاحظته العلامة أبو علي اليوسى حينما زار تطوان سنة 1085، فلما مدحها باحدى قصائده الغراء ، أبدى تأسفه لعدم وجود ما يملأ العين من العلماء العاملين والتلاميذ النشيطين بتطوان، ما عدا الشيخ سيدى علي بركة وذلك فى قوله كما تقدم :

لله دار أحبة غادرتهم
أزروا الى الخيرات ظمئا شرعا
وأود لو كانت مجالس بينهم
وشجا الحشا أن لم اجد من عالم
إلا يسير صباية من ذى حجا
فيها يعدون الصداقة مغنما
ورأوا سبيل البر دينا قيما
يضحين فى سبل الهداية معلما
يهدى الورى فيها ولا متعلما
لصابة بالعلم أضحى مغرما

الا أن سيدى بركة رحمه الله قد عاش بعد ذلك التاريخ خمسة وثلاثين عاما كانت كلها عامرة بالتعليم والتهديب، والهداية والارشاد .

فالناحية الادبية وان كانت قد انتعشت قليلا فى الربع الاخير من هذا القرن، الا أنها «فيما بلغ اليه علمنا» بقيت فى دائرة محدودة، وفى درجة عادية لم تبلغ حد التفوق فضلا عن النبوغ، كما يعلم ذلك من التراجم التى قدمنا، والآثار التى أثبتنا، وان كان ما ضاع من آثار ذلك العهد - فيما يظهر - أكثر مما حفظ والامر لله .

من الناحية الاجتماعية

كانت الحياة بتطوان فى القرن الحادى عشر عادية، فطبقة من سكانها كانت منقطعة للجهاد والرباط والحراسة، وطبقات أخرى كانت تشتغل بالصناعة أو الفلاحة أو التجارة، ولعل جل من كان يقدر على حمل السلاح بتطوان، كان يجمع بين الفضيلتين، فضيلة الجد فى ميدان العمل لكسب الرزق الحلال الطيب، وفضيلة الجهاد كلما دعا داعى الغزو فى سبيل الله، أو الدفاع عن حرمة الله وشرف الوطن .

وكانت لتجار تطوان معاملات مع تجار أوربا التى لا تبعد عن هذه المدينة الا بأميال معدودة، فكانوا يصدرون اليهم ويستوردون منهم، وكان الناس على العموم يعيشون داخل تطوان فى أمن وأمان، لان العدل المحمى بنفسه لدى المومنين المنصفين، والمدعم بالسيف لمواجهة الباغين وردع المعتدين، كفى بحفظ حقوق جميع المتساكنين، وكان ولاية الامر فى جل هذا القرن، وهم أولاد النقسييس ذوى حزم وعزم، وكان الناس معهم على أصناف، صنف لا يهتم الا حفظ الامن ، ولا عليه فيما عدا ذلك، وصنف كان من أنصارهم ومؤيديهم - ولا بد لمن كان فى مثل مركزهم من مؤيدين وأنصار، وأتباع وخدام. وصنف آخر كان ضدهم أو على الاقل كان ضد المنحرفين عن الجادة منهم، ولا شك أن هذا الصنف الاخير كان من الطبقة الارستوقراطية التى لا ترضى بالتحكم فى مصالحها، وهى

طبقة الوجهاء والاعيان وگبار العائلات، وخصوصا الاندلسية النبيلة منها، وهؤلاء هم الذين أحكموا المؤامرة مع أصحاب أبى عبد الله العياشى ضد أولاد النقسيس، فزال الحكم من يدهم وفر رئيسهم من تطوان الى غيرها .

ومن أهم ما طرأ على تطوان فى هذا القرن من الحوادث التى أثرت فى حياتها الاجتماعية، وفود آخر المهاجرين الاندلسيين عليها، وقد علمنا أن فليب الثالث الاسباني، أمر باخراج مسلمى الاندلس، من اسبانيا سنة 1610 م. فاستمرت الهجرة الاخيرة من سنة 1017 الى سنة 1019 هـ. وتفرق جل من بقى من مسلمى الاندلس فى أطراف بلاد الاسلام، فكان حظ تطوان من ذلك وافرا، أولا لقربها من البلاد الاندلسية التى ترى جبالها وأرضها من ضواحيها بالعين المجردة فى أيام الصحو، وثانيا لوجود عدد كبير من الاندلسيين بها وهم السابقون الاولون من المهاجرين بدينهم ولغتهم وحضارتهم .

وانضم هؤلاء المهاجرون أخيرا الى اخوانهم السابقين الاولين، وكانت هذه الهجرة هى آخر الهجرات الاسلامية من الاندلس. وقد نقلنا عن المؤرخ أبى محمد سكيرج التطوانى أن هؤلاء المهاجرين الاخيرين هم الذين بنوا الناحية المعروفة الآن فى تطوان بالسانية - من حومة العيون. وكان من الطبيعى أن يزداد عدد سكان تطوان بعد هذه الهجرة، وأن تتسع دائرة عمارتها، وتتقوى صناعتها وزراعتها، بمن وفد عليها من أولئك المهاجرين، ما بين حضريين وبدويين، ولعل جل العائلات الاندلسية المسلمة الموجودة الآن بتطوان، هى من هذا الصنف من مهاجري الاندلس، لان ألقابها افرنجية تسمى بها حتى الآن عائلات أخرى اسبانية مسيحية .

ومن أهم الحوادث التى كان لها تأثير على الحالة الاجتماعية بتطوان فى هذا القرن أيضا، وقوع الوباء بها سنة 1088 - 1089 هـ. وقد علمت أنه كان وباء عظيم بالنسبة لهذه المدينة، اذ بلغ عدد ضحاياه بها خمسين ميتا فى اليوم، ومعلوم أن مدينة صغيرة كتطوان تتأثر الحالة الاجتماعية فيها بموت عشرة أشخاص فى اليوم، فأحرى خمسين شخصا يموتون بها كل يوم، ولا شك أن هذا الوباء قد ترك أثرا عظيما فى عدد سكانها وفى مبانيها وفى حياتها الاجتماعية على العموم .

ومما يلاحظ من المظاهر الاجتماعية بتطوان فى هذا القرن، أن الخواص من أهلها والواردين عليها، فضلا عن العوام، كانوا كثيرى التعلق بالاولياء والصالحين فكانوا يمدحونهم بالقصائد، ويقدمون لضرائحهم النذور والعوائد، ويتوسلون بهم لقضاء أغراضهم وحاجاتهم، وقد سبقت لنا أبيات نظمها العالم ابن زاكور الاديبي الفاسى فى التعلق بالشيوخ، سيدي طلحة، وسيدي المنظري، وسيدي السعيدى، وسيدي بوحاجة الخ. وقرأنا فى ديوان الفقيه الرافعى التطوانى

قصائد كثيرة فى مدح صلحاء تطوان والتعلق بهم، ومنها قصائد عديدة فى مدح سيدي الصعيدي والتوسل به، وأخرى فى التعلق بسيدي بوحاجة، وسيدي علي الجعيدي، وسيدي علي المصيميدي، وسيدي علي الفحل، وكلهم من صلحاء تطوان وأوليائها، بل قرأنا له قصائد أخرى فى التوسل بصلحاء آخرين من غير تطوان مثل مولاي ادريس ومولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي أبى يعزى وغيرهم - ووجدنا فى ترجمة الشيخ سيدي علي بركة أنه كان كثير التعظيم للصالحين والزيارة لهم الخ. وإذا كان هذا هو حال العلماء والادباء فما بالك بغيرهم من مطلق الناس وخصوصا العوام ؟

وهذه الظاهرة - فيما نرى - غريبة بالنسبة لاهالى تطوان، وإذا كان من المعلوم المقرر لدينا أن الركون الى الخضوع والاستسلام وطلب قضاء الاغراض والحاجات، من الاحياء أو من الاموات، انما هو من شأن المتكاسلين المتواكسين - فبأى سبب نعلل هذه الظاهرة الغريبة فى الحياة الاجتماعية بتطوان ؟ وأهلها فيما نعلم كانوا كلهم أو جلهم يحملون السلاح، ويترددون على ميادين الجهاد والكفاح، ويهدون الحصون والمعقل، ويسترجعون البلاد المحتلة من الاجانب، ويعودون الى تطوان بالاسارى والغنائم، انه لشيء عجيب حقا.

اننا اذا بحثنا فى مصدر هذه الظاهرة وأسبابها، نجدها انما تبرز غالبا فى أوساط الشعوب المقهورة التى تسيطر عليها قوات غاشمة لا يجد الشعب المخنوق لدفعها حيلة ولا يهتدى لردّها سبيلا، فيركن الى الروحانيات ما دام عاجزا عن التغلب بالماديات، وقد تبرز فى أشخاص يعرض لهم مرض جسماني أو ضعف نفسي، وتتسلط عليهم خواطر وأوهام قد يستعصى علاجها على الاطباء العاديين، فتدفع الضرورة أصحابها للبحث عن شفائهم بالطرق الروحانية فلا يجدون أمامهم أسهل ولا أقرب ولا أنجى من طرق أبواب الصالحين الذين يعتقدون فيهم أنهم عاشوا عابدين زاهدين، وذهبوا الى ربهم راضين مرضيين، كما يعتقدون أن ارواحهم لا تفنى، فيتعلقون بهم عسى أن يكونوا من الذين قيل فيهم ان لله عبادا لو أقسموا على الله لابرهم والغريق يتعلق بأى شيء يظن أو يتوهم أنه ينجيه وينقذه... ربما كان شيء من هذا هو الواقع فى أصحاب تلك التعلقات والمدائح والتوسلات .

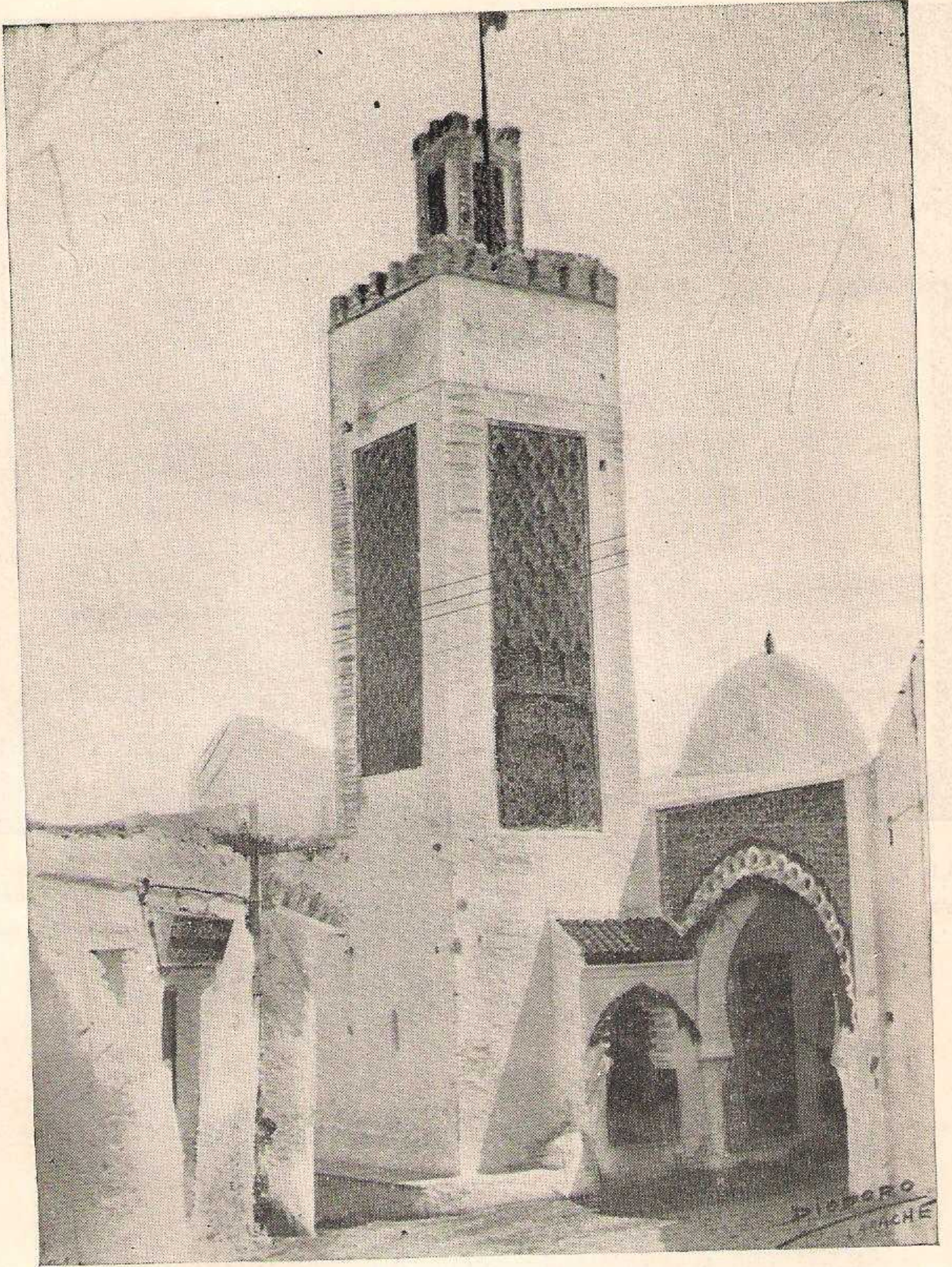
على أننا من ناحية أخرى حينما نعود قليلا الى الوراخ خصوصا حينما نستحضر ما كانت عليه تطوان وأهلها من بأس وشدة، وقوة ونجدة، لا نستغرب أن تكون هذه البضاعة طارئة على تطوان، حديثة الورود على أهلها، ولا نستطيع أن نتشدد فى الإنكار على من يزعم أن ورودها كان من مدينة فاس - التى كانت تطوان كثيرا ما تقلدها فى كثير من المواقف والمظاهر حتى قال القائلون، ان تطوان بنت فاس ولعل ورودها من تلك المدينة المقدسة - ان صح ذلك - كان هو المبرر

لقبولها بل ولتبنيها . ولعل تظاهر بعض كبار العلماء بها وانسياق بعض أهل الخير والصالح في تيارها، جعلها في نظر الخواص فضلا عن العوام ، بضاعة مقبولة وطريقة مشروعة، والناس على دين ملوكهم ورؤسائهم في كل زمان ومكان، ولقد كنت أشاهد - أثناء السنتين اللتين قضيتهما بفاس للدراسة في كلية القرويين - من تعلق أهالي تلك المدينة بضرائح بعض الأولياء والصالحين، ما كنت استغربه واقضى منه العجب العجاب، وامثال هذه المظاهر كالتيارات تندفع حيناً وتهتدأ أحياناً، وقد يتنكر لها أناس فيحاربونها ويقضون عليها أو تقضى عليهم

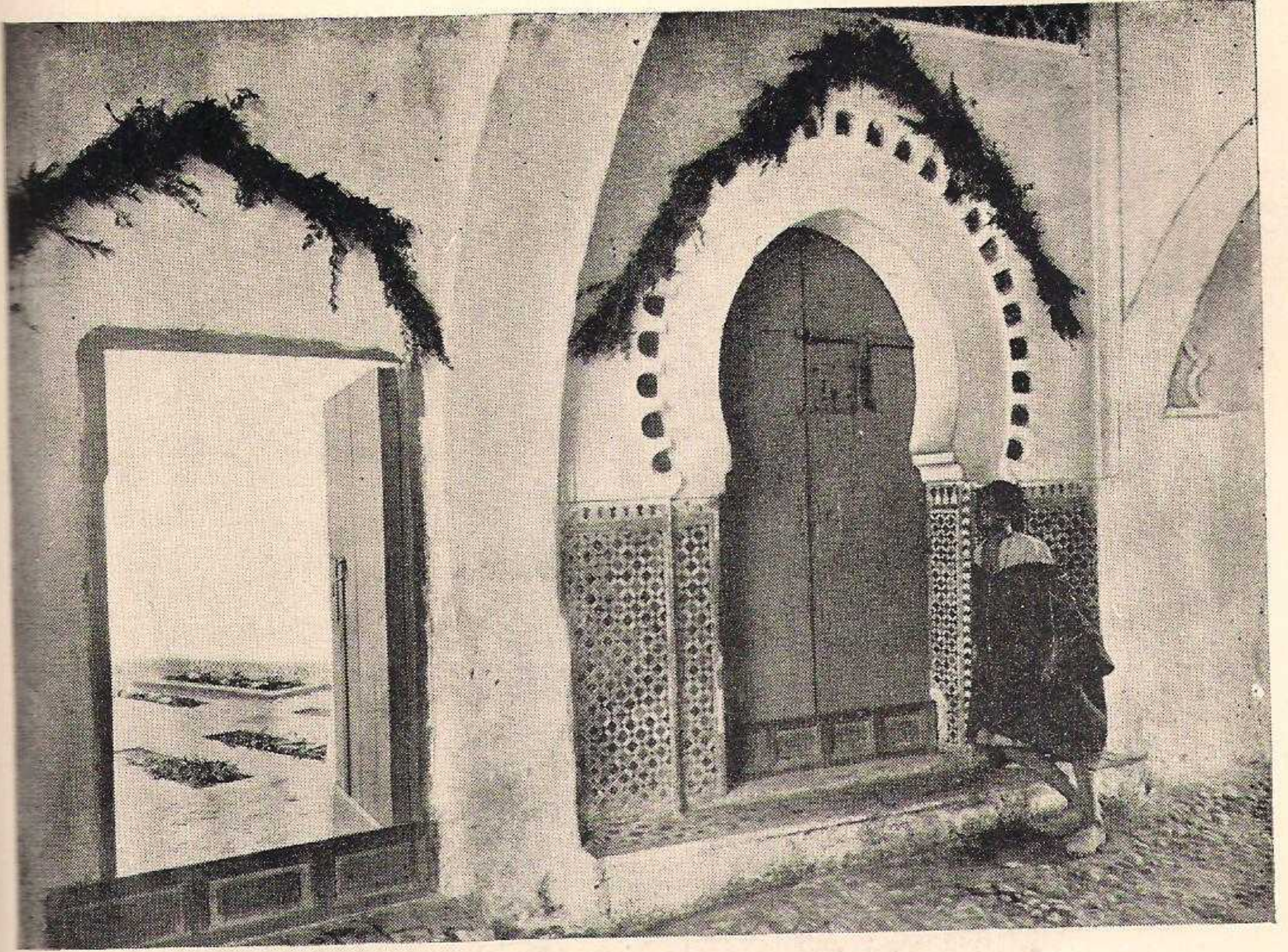
الا ان مما يلفت النظر، ان اهالي تطوان على سبيل العموم، لم يكونوا يقتصرون على التعلق بأذيال الأولياء والاعتماد عليهم في قضاء الاغراض والحاجات، بل كانوا الى جانب ذلك يجاهدون بسيوفهم ورماحهم، ويسترجعون الشواطئ المغربية ومدنها من يد اعدائهم، ويرجعون - كما قلنا - بالغنائم الى بلادهم. وهكذا كانوا رحمهم الله يدعمون الروحانيات بالماديات، وما احسن الجمع بين المادة والروح، وما اجمل التوفيق بين المبادئ العالية، والارشادات الدينية والمصالح الدنيوية .

وقبل ان اختتم ملاحظاتي بل خطراتي عن الحياة الاجتماعية بتطوان في هذا القرن، يجمل بي ان انبه مرة اخرى الى ان حالة هذه المدينة عند تجديد بنائها اولا ثم عند توسيع عمارتها، ثم بعد أن استقر آخر المهاجرين الاندلسيين بها، كانت نسخة من أخريات المدن الاسلامية العربية في بلاد الاندلس، الفردوس الاسلامي المفقود، واذا ذكرنا ان جل الوافدين عليها من الاندلس كانوا من غرناطة التي كانت آخر معقل للاسلام والعروبة وحضارتها في اسبانيا، عرفنا مبلغ سكان تطوان من المدنية والرقى في اساليب الحياة ومظاهرها من مسكن وملبس، ومطعم ومشرب، ومتجر ومصنع، فلقد كان للحياة الاجتماعية بتطوان طابع خاص امتار بالركة واللفظ وحسن الذوق في الترتيب والتنسيق، والمرونة في حل المشاكل والازمات والتوفيق بين الواجب والواقع .

نعم ان تطوان لم تكن غنية، ولم تفكر قط في ان تزاحم كبريات مدن المغرب في الثروة والكبر والضحامة والكثرة، ولكنها عرفت دائما كيف تعيش عزيزة الجانب، موفورة الكرامة حسنة السمعة بالرغم من ضعف اقتصادياتها، وفقر القبائل المحيطة بها، فكان القليل فيها مقنعا كافيا، والضعيف لطيفا ظريفا والصغير نقيا نظيفا، والغنى مقتصدا مدبرا، والحياة وديعة يسيرة، والاعمال متقنة منظمة، لذلك كله كان سكانها آمنين مطمئنين، راضين مرضيين، وتلك هي السعادة لدى العقلاء الموفقين، والحمد لله رب العالمين .



(رقم 47) صورة ازاوية التي بناها الشيخ قاسم الحاج بتطوان قرب باب السعيدة في
 اوائل القرن الحادى عشر للهجرة ويقال لها زاوية سيدى السعيدى وتظهر فيها القبة التي
 دفن تحتها الشيخ قاسم المذكور، ويقال ان سيدى السعيدى مدفون بها ايضا والله اعلم،
 انظر ص 322 فما بعد.



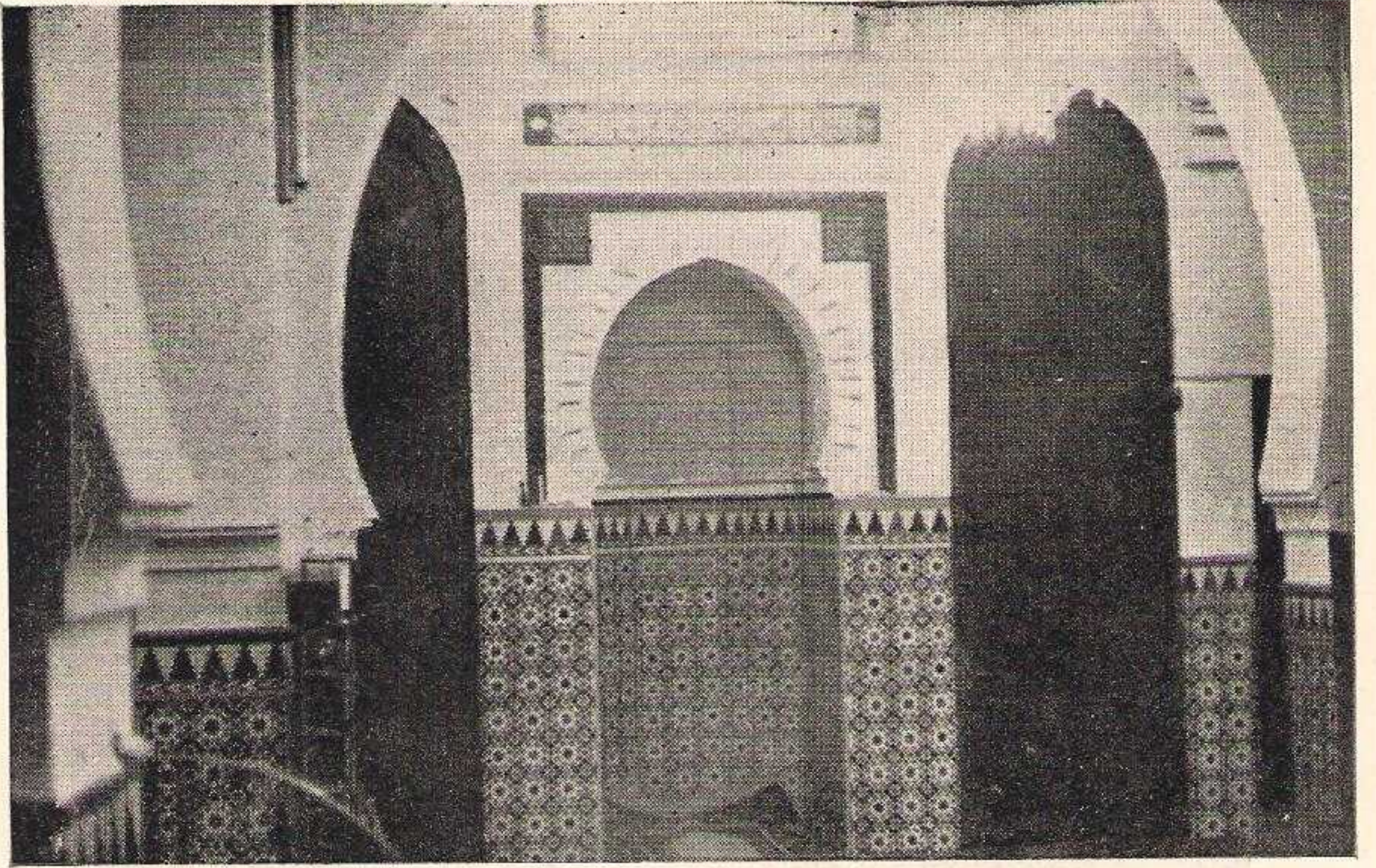
(رقم 48) باب الزاوية النسوية لسيدى السعيدى قرب باب السعيدة من تطوان، وجنبها الباب المؤدى
للمصومعة والصحن الذى تبدو فيه بعض القبور، كما تظهر على البابيين اكليل الريحان على عادة قدماء
الاخيار من اهل تطوان



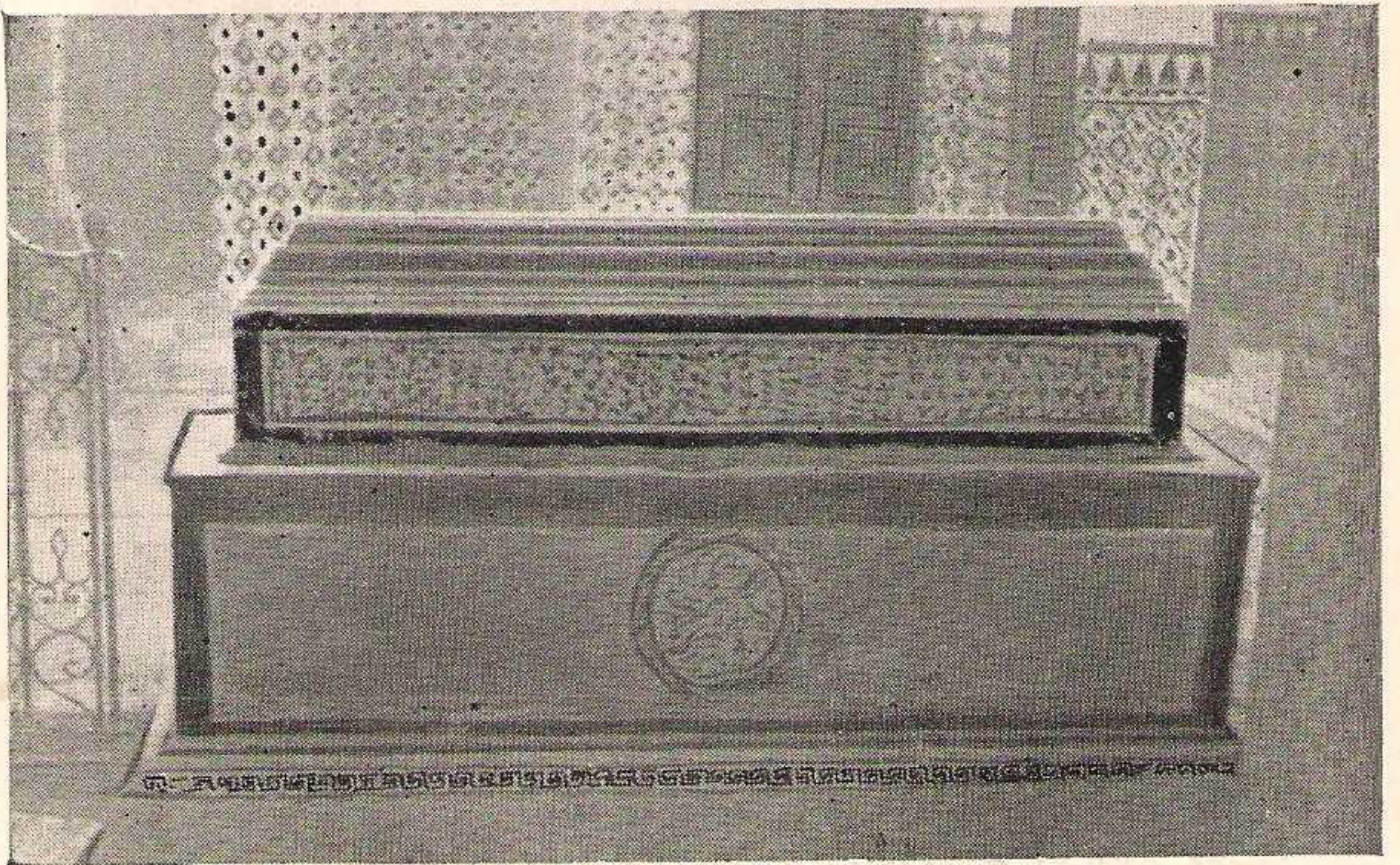
(رقم 49) باب الزاوية التي بها ضريح الشيخ علي بن مسعود الجعدي في حومة
العيون بتطوان، وقد بنيت في النصف الأول من القرن الحادي عشر، انظر ص
330 و 337



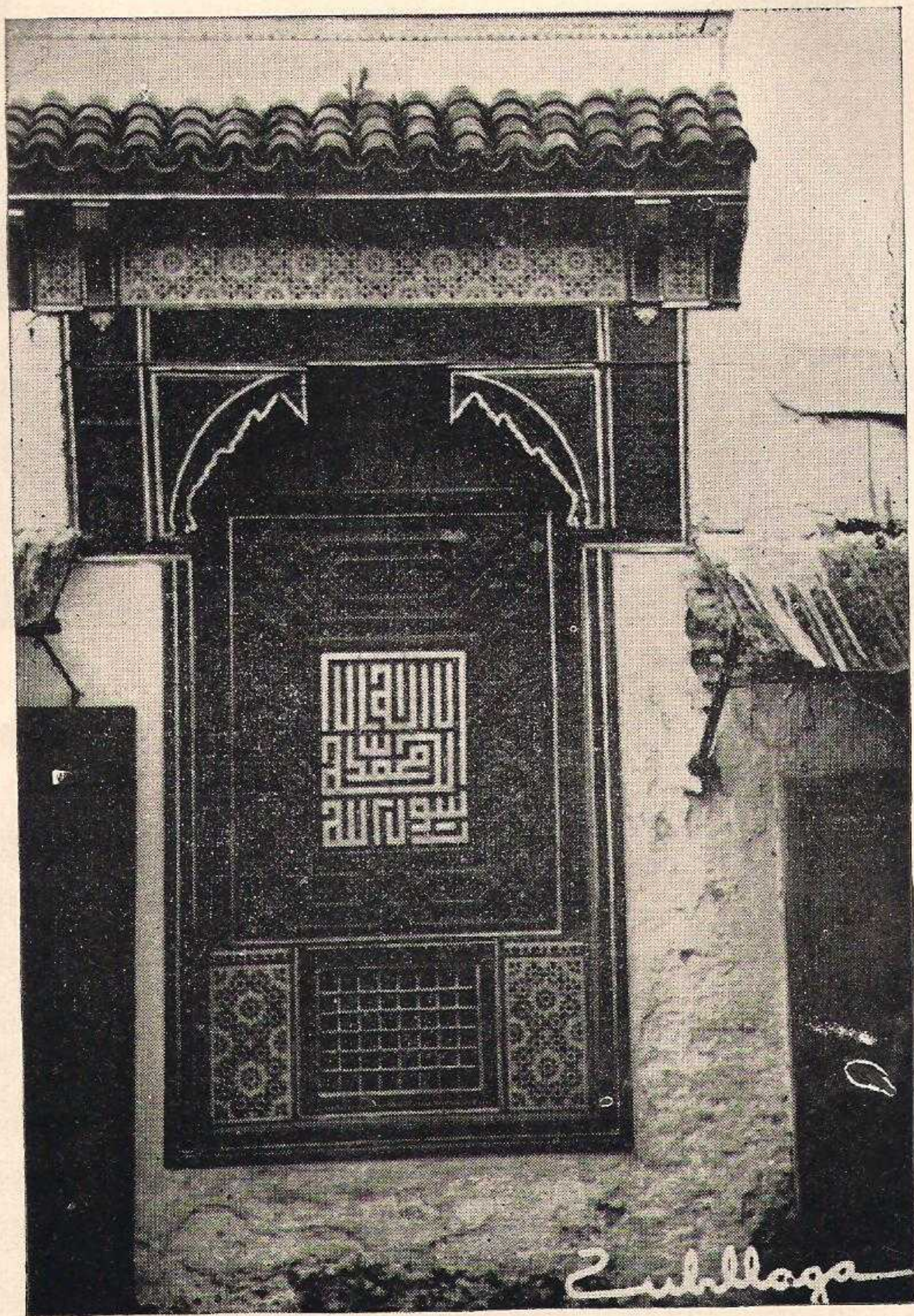
(رقم 50) باب زاوية الشيخ العلامة الصالح سيدى الحاج على بركة عالم تطوان وشيخها وهي واقعة جنب المسجد الكبير الجامع بالسوق الفوقى من الربض الاعلى من هذه المدينة، وقد دفن بها ايضا بعض العلماء والقضاة والاعيان ومنذ بضع سنين ادخلت عليها اصلاحات، وبنيت لها صومعة جيدة عالية، وصارت كالمساجد الجامعة العامة تقام فيها الصلوات الخمس والجمعة ويقرأ فيها القرآن صباحا ومساء ، كما يقرأ فيها كتاب دلائل الخيرات كل ليلة، وتقام فيها الحفلات الدينية بقراءة القرآن والامداح النبوية وتوزع فيها الصدقات فى المواسم والليالى الفاضلة، وفيها ايضا مياه عين جارية دفقة لوضوء المصلين، ويظهر فى الصورة ايضا «قنا» سقاية يتفجر ماؤها عذبا سلسبيلا وكان وما زال ينتفع منه خلق كثير ، انظر ص 377 و 378



(رقم 51) محراب زاوية الشيخ على بركة الاندلسي التطواني وقد كتب فوقه بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين



(رقم 52) ضريح الشيخ على بركة داخل زاويته التي في السوق الفوقي بتطوان وقد نقش عليه في الخشب الجيد ما نصه : « الحمد لله هذا ضريح عالم تطوان العابد الناسك الزاهد الولي، الصالح البركة ابي الحسن سيدي الحاج على بن محمد بركة الاندلسي التطواني، توفى رحمه الله بتطوان ودفن هنا في تاسع وعشري شوال سنة الف ومائة وعشرين رضى الله عنه



(رقم 53) مزار الشيخ ابي الحسن علي بن محمد بركة، وتقع في شارع السوق
 الفوقى عن يسار الذهاب الى باب المقابر، وهى شبيهة ببعض مزارات فاس، الا ان
 عوام تطوان، كانوا لا يجارون عوام فاس في كثرة التمسح بالمزارات، وطلب
 «العطفات والاغارات ..»



محمد داود

(رقم 54) بعد الفراغ من تأليف كتابه «تاريخ تطوان» وطبع هذا المجلد منه سنة
1379 هـ 1959 م

من حياة المؤلف

لقد خطر بالبال، انه قد يأتى يوم يفكر فيه بعض الافاضل فى كتابة كلمات عن الذين كتبوا حول التاريخ المغربى فى عصرنا هذا، وقد يتساءل بعض اخواننا فى الشرقين، الادنى والاقصى ، كيف يقضى المنتسبون للعلم والثقافة بالمغرب العربى حياتهم ؟ ثم قد يخطر ببال بعض المتخرجين من المدارس الفرنجية، ان يسألوا، كيف يعيش، وكيف يفكر، وكيف يعمل المتخرجون من «جامعة القرويين» مفخرة المغرب، وحافظة اللغة العربية وآدابها، والشريعة الاسلامية واحكامها ؟ فلهؤلاء جميعا ولغيرهم ايضا من الذين يهمهم ان يعرفوا كل ما تمكن معرفته، كتبت هذه الكلمات عن حياة مؤلف هذا الكتاب، انصافا للتاريخ، وحفظا للحقيقة والواقع من الضياع :

ولد محمد داود «مؤلف تاريخ تطوان» بدار والده فى زنقة المقدم المجاهد احمد بن عيسى النقسيس بمدينة تطوان، ليلة يوم الاثنين 12 حجة 1318 هـ فاتح ابريل سنة 1901 م.

والده، هو الفقيه الحاج احمد بن محمد داود الاندلسى التطوانى.
والدته، هى السيدة عالية ابنة الوجيه الحاج محمد بن عبد السلام داود الاندلسى التطوانى

حفظ القرآن كله عن ظهر قلب مع مجموع المتون اللغوية والعلمية وهو دون سن البلوغ، وشرع فى قراءة العلوم العربية والادبية والشرعية على علماء تطوان من سنة 1330 هـ 1912 م، وفى سنة 1338 - 1920 بعثه والده الى فاس عاصمة العلم والادب والدين، وقضى فى جامعة القرويين سنتين اتم فيهما دراسته على كبار علماء فاس .

وفى آخر سنة 1340 - 1922 عاد الى تطوان واشتغل فيها بالتدريس والعدالة والكتابة فى صحف الشرق والمغرب العربى، وكان هو المراسل الخاص لجريدة الاهرام المصرية فى عهد الحرب ضد الاحتلال الاجنبى بزعامة بطل المغرب الخالد محمد بن عبد الكريم الخطابى ... وفى سنة 1342 - 1923 .

نال جائزة التاريخ فى الاسواق الادبية التى اقيمت فى سبتة لادباء اللغتين العربية والاسبانية .

وفى سنة 1343 - 1925 أسس المدرسة الاهلية صحبة رفقائه - وتولى ادارتها والتدريس بها نحو 12 سنة، وهى اول مدرسة عربية اسلامية حرة اسست بشمال المغرب فى عهد الحماية، فكانت هى النواة الاولى للحركة العلمية الحديثة، وللوطنية الاستقلالية بهذه البلاد، وتلاميذها هم مؤسسو حزب الاصلاح الوطنى وقادته وزعماءه، وما تزال هذه المدرسة قائمة حتى الآن

وفى سنة 1347 - 1928 أسس شركة «المطبعة المهدية» وانتخب رئيسا لمجلس ادارتها، وكانت أول مطبعة عربية كبرى فى شمال المغرب، وبها كانت تطبع الصحف الوطنية الحرة، والمؤلفات العربية فى الشمال المغربى، وبها طبع كتابه «مختصر تاريخ تطوان» وما تزال هذه المطبعة تقوم بواجبها الوطنى والاقتصادى الى الآن .

وفى نفس السنة 1347 - 1928 نال الجائزة الاولى فى الاسواق الادبية بسبتة ايضا مع الزهرتين الطبيعية والذهبية

وفى سنة 1349 - 1930 عين عضوا فى لجنة اصلاح التعليم الاسلامى بشمال المغرب، وكان هو الواضع لمشروع الاصلاح، والمقرر لهذه اللجنة التى كان من بين اعضائها، وزير العدل والقاضى وكبار علماء تطوان من اشياخه ورفقائه وفى نفس السنة، كان يعقد اجتماعات سرية فى دار التازى بفاس، مع صديقيه الزعيمين الكبيرين، والوطنيين المخلصين، الاستاذ علال الفاسى والاستاذ محمد بن الحسن الوزانى (حفظهما الله) لتحرير القانون الاساسى للحزب الوطنى، والنسخة الاصلية لهذا القانون محفوظة فى الخزانة الداودية بخط الاستاذ الوزانى وعليها تعديلات بخط الاستاذ الفاسى

وقد اسس - مع رفقائه بتطوان - كتلة العمل الوطنى وكان هو امينها، وكان أحد اعضاء الكتلة الوطنية بالمغرب قبل ان تؤسس الاحزاب، يوم كانت الوطنية المغربية موحدة لم يتسرب اليها داء التحزب والتعصب، وفى نفس السنة كان عضوا عاملا فى لجنة المطالب الوطنية التى قدمها شمال المغرب للجمهورية الاسبانية، وكانت أول مطالب وطنية قدمت من الشعب لدولة الحماية (1)

وفى سنة 1350 - 1931 انتخب عضوا فى المجلس البلدى بتطوان عند اجراء الانتخابات الحرة فى عهد الجمهورية الاسبانية، وصدر بذلك قرار وزيرى مؤرخ بـ 22 جمادى الاولى عام 1350 - 5 اكتوبر 1931

(1) هذه المطالب قام بتقديمها الى رئيس الجمهورية الاسبانية اذ ذاك "الكلال" و غرضه وجهها، تطوان كلونه من السادة؛ فمن بين اعيان الطبقة هؤلاء .
والحاج عبد السلام بن الحاج حسنة حاج، واهل بن محمد عتيلا واهل بن
عبد الكريم اللبادى . صافر الوغز المذكر الى مدير مكتب قسطنطين المطالب

وفي سنة 1352 - 1933 انشأ مجلة «السلام» وكان هو مديرها ورئيس تحريرها، وقد جعل شعارا لها، العروبة، الاسلام، المغرب. وهي اول صحيفة وطنية حرة استقلالية في عهد الحمايةتين وقد منعت السلطة الفرنسية هذه المجلة من دخول منطقة حمايتها بأمر صادر من الجنرال القائد الاعلى للجيش الفرنسية، ونشر ذلك في الجريدة الرسمية عدد 1125، الصادر في 18 مايو سنة 1934 .

وفي سنة 1352 - 1934 تألفت بتطوان، لجنة علمية لدرس قانون تنظيم محاكم العدلية المخزنية، فانتخب عضوا بها ومقررا لها، وكان من بين اعضائها وزير العدلية وشيخ الجماعة وغيرهما من كبار علماء تطوان

وفي سنة 1353 - 1934 اصدر مندوب طنجة وحاكمها، قرارا رسميا بنفيه من طنجة ومنطقتها بتاريخ 26 ربيع الاول 1353، 9 يولييه 1934 وقد صرح في هذا القرار بأن وجود محمد داود بطنجة خطر على الامن العام ؟ وصدر ذلك في الجريدة الرسمية لمنطقة طنجة الدولية، ص 461 من العدد 10 وقد ظل ممنوعا رسميا وعمليا من دخول هذه المنطقة بضع عشرة سنة

وفي نفس السنة اخرجته السلطة الفرنسية من الرباط، واصدرت امرا بمنعه من دخول المنطقة التي كانت رازحة تحت نير الحماية الفرنسية وظل هذا المنع ساريا بضع عشرة سنة ايضا

وفي نفس السنة ايضا، كان هو الممثل الرسمي لجمعية طلبة شمال افريقيا بفرنسا في عهد رئاسة الاستاذ محمد الفاسي لها

وفي نفس السنة، عين عضوا في المجلس الاعلى للتعليم الاسلامي بشمال المغرب، بقرار وزيرى مؤرخ بـ 17 شعبان 1353 - 26 نوفمبر 1934 بعد ترشيحه وانتخابه من علماء الشباب

وفي سنة 1353 - 1935 حج بيت الله الحرام، وقام برحلة استغرقت ستة اشهر زار فيها من بلاد الشرق، مصر والحجاز ونجدا والعراق وشرق الاردن وفلسطين ومنعته السلطات الفرنسية من زيارة سوريا ولبنان، وكانتا اذاك تحت انتدابها

وفي سنة 1354 - 1936 اصدر جريدة الاخبار، وكانت اول جريدة وطنية حرة استقلالية صدرت بالمغرب، وقد اصدرت السلطة الفرنسية امرا صارما بمنع بيعها وقراءتها في جميع منطقة حمايتها

وفي سنة 1355 - 1937 عين مفتشا عاما للتعليم الاسلامي بشمال المغرب بظهير خليفى مؤرخ بـ 23 شوال 1355 - 7 يناير 1937 وهو اول وظيف حكومي

تولاه فى حياته، وفى هذا العهد أسس سبعة من المعاهد الدينية وجل المدارس
العصرية التى ما تزال قائمة عامرة حتى الان بشمال المغرب، مدنه وقبائله، وقد
وضع - لأول مرة - مناهج الدراسة لتلك المعاهد، وللمدارس القرآنية والعصرية
للبنين والبنات، بالطرق الحديثة على اساس العروبة والاسلام

وفى نفس السنة عين نائبا لرئيس المجلس الاعلى للتعليم الاسلامى بظهير
خليفى مؤرخ بـ 24 شوال 1355 - 8 يناير 1937

وفى سنة 1358 - 1939 عين عضوا فى المجلس الاعلى للاوقاف الاسلامية
بشمال المغرب، بقرار وزيرى مؤرخ بـ 5 محرم 1358 - 25 فبراير 1939

وفى سنة 1361 - 1942 عين مديرا للمعارف - مقام وزير المعارف - فى
شمال المغرب، بظهير خليفى مؤرخ بـ 15 محرم 1361 - 2 فبراير 1942، وقد
استمر قائما بوظيفه الى ان استعفى منه محافظة على كرامته الوطنية والشخصية
بتاريخ 29 جمادى الاولى عام 1367 - 9 ابريل سنة 1948 وبذلك انقطع للبحث
والكتابة والتأليف، مع التدريس بالمعهد العالى ومدرسة المعلمات .

وفى مدة ابعاد جلالة الملك الشرعى للبلاد، كان بعيدا عن الوظائف الادارية
منقطعا للتدريس ولكتابة المقالات السياسية والاجتماعية فى مختلف الصحف
الوطنية - وخاصة جريدة الامة - اما بدون امضاء، واما بامضاءات مستعارة،
منها : ابو الحسن ، المجاهد ، الوطنى ، فتى المغرب ، الخ .

وفى سنة 1375 - 1956 اى فى عهد الاستقلال، بعد الغاء الحماية
واسترجاع المغرب لحرية وتوحيد ترابه، وتأليف أول حكومة وطنية به، عينه
جلالة الملك أيداه الله عضوا رسميا فى الوفد الحجازى الذى يمثل الجلالة الشريفة
أعزها الله، فحج للمرة الثانية ثم عاد لمقره بتطوان .

وفى سنة 1376 - 1956 عين عضوا - من بين اربعة اعضاء يمثلون علماء
المغرب - فى المجلس الوطنى الاستشارى، بظهير سلطانى شريف مؤرخ
بـ 15 ربيع الاول 1376 - 20 اكتوبر 1956 ثم انتخب من بين اعضائه مستشارا
للمجلس المذكور، وعضوا فى مكتبه الرئيسى

وفى نفس السنة عينه جلالة الملك أعزاه الله عضوا فى الوفد المصاحب لجنابه
الشريف فى رحلته الرسمية الى تونس، فركب مع جلالته فى طائرته ذهابا وايابا

وفى نفس السنة، عين عضوا فى اللجنة الملكية لاصلاح التعليم بالمغرب

وفى سنة 1376 - 1957 مثل المجلس الوطنى الاستشارى فى حفلات عيد
الاستقلال بتونس، باختيار من صاحب الجلالة حفظه الله

وفى نفس السنة، عين عضوا فى لجنة امتحان القسم النهائى لمنح شهادة العالمية بجامعة القرويين بفاس

وعند ما اصدر جلالة الملك ايده الله ظهيرا مؤرخا بـ 10 صفر 1377 - 6 سبتمبر 1957 باحداث لجنة لوضع مدونة لاحكام الفقه الاسلامى، كان من بين الاعضاء العشرة بل الثمانية الذين تكونت منهم اللجنة المذكورة، وفلا شارك مشاركة عملية فى تحرير مدونة الاحوال الشخصية

وعند ما اصدر جلالة ملك المغرب ايده الله ظهيره الشريف المؤرخ بـ 24 ذى القعدة عام 1378 الموافق لفاتح يونيه سنة 1959 باحداث المجلس الاعلى للتربية الوطنية، وقع تعيينه عضوا فى المجلس المذكور

وللمؤلف من الكتب - زيادة على هذا التاريخ المكون من ثمان مجلدات I - كتاب «مختصر تاريخ تطوان» فى مجلد واحد، وقد طبع سنة 1375 هـ 1955 م

2 - كتاب «التكملة» وهو ذيل لهذا التاريخ

3 - كتاب «عائلات تطوان» وقد كتب منه حتى الآن مجلدين

4 - كتاب «على رأس الاربعين» وهو مذكراته ودراساته ورحلاته منذ عهد الطفولة .

والمؤلف متزوج بابنة الوجيه الوزير المرحوم الحاج عبد السلام بنونة، وله من الابناء خمسة هم :

حسن، المتخرج بدرجة بكالوريوس فى الاقتصاد من جامعة القاهرة .

احسان، المتخرجة بدرجة استاذة من مدرسة المعلمات بتطوان .

لسان الدين، الذى يدرس الهندسة فى جامعة ريدلاندس بكاليفورنيا فى

الولايات المتحدة الامريكية UNIVERSITY OF REDLANDS CALIFORNIA-U.S.A.

مصطفى وحسنا فى المعهد الثانوى بتطوان.

وبعد فان لك يا سيدى ان تعتبر هذه المعلومات، صفحة اخرى من تاريخ

تطوان، التى ألف فيها وفى رجالها هذا الكتاب، وهل التاريخ كله غير صفحات

تنشر بيضاء ثم تملأ اما بالبياض واما بالسواد، ثم تطوى وتحفظ مدة ثم تنشر

من جديد ليعتبر بحوادثها المعتبرون وهل الحياة - بجميع مظاهرها - الا افلام

يعرضها الدهر على أنظار المتفرجين الذين جلهم من المغترين او الغافلين ، تلك

سنة الله فى خلقه، ولكن اكثر الناس لا يعلمون

استدراكات

وملاحظات على هذا المجلد

إنى أحمد الله تعالى وأشكره على أن لي اصدقاء مخلصين احبهم واجلهم، ولي من حسن الظن فيهم والثقة بعلمهم واطلاعهم وسديد رأيهم، اكثر مما لي فى نفسي، وفى مقدمتهم رفيقى وحبيبى تحفة تطوان الاستاذ الحاج محمد بنونة، ورجل العلم والنبيل والفضل الاستاذ الحاج عبد الله كنون، وناطقة سوس وعالمها واديبها الاستاذ الحاج المختار السوسى وقد أطلعت بعض المولعين منهم بالمطالعة، على هذا المجلد عقب الفراغ من طبعه، لا للتقريظ كما هى عادة بعض الناس، بل لاصلاح الاخطاء وابداء ما عسى ان يكون لديهم من الملاحظات، فكان مما لوحظ عليه ما يلى :

مناهل الصفا - من الخزانة الكنونية

ص. 43 - ورد فى صفحات 43 - 130 - 131 - 133 - 177، من هذا المجلد، ذكر كتاب مناهل الصفا، للكاتب الاديب عبد العزيز الفشتالى، وهو كتاب نادر الوجود، ولم أقف على نسخة كاملة منه فى أية خزانة من خزائن المغرب، والنصوص التى نقلتها منه واثبتها فى هذا الكتاب، موجودة فى جزء مختصر منه أطلعنى عليه صديقنا الاستاذ احمد بن تاويت عندما كان كاتباً فى المعهد الدينى العالى بتطوان، وقد ذكر لى انه من الخزانة الكنونية لصهره صديقنا بل اخينا العلامة الاستاذ عبد الله كنون حفظه الله، وقد غفلت عن التنبيه على ذلك فى احدى طرر الكتاب .

عن الفقيه الرهونى التطوانى

ص. 50 - جاء فى ص 50 وصف شيخنا الفقيه الرهونى بانه قاضى القضاة ووزير العدلية سابقا الخ. ويلاحظ ان ولايته لوزارة العدل انما كانت فى الحكومة الحليفية التى كانت فى شمال المغرب الذى كان مشمولاً بالحماية الاسبانية، اما جنوب المغرب الذى كان تحت الحماية الفرنسية فكان فيه وزير آخر للعدل، حفظ الله استقلال المغرب، ولا اراه استعماراً ولا حماية بعد الآن.

بناء عادى

ص. 94 - جاءت فى ص 94 هذه العبارة - وان يكون البعض الآخر بناء عاديا - والمقصود بذلك انه بناء من النوع العادى، أى الذى جرت به العادة واعتاده الناس وليس المراد به، البناء القديم الذى يقاوم الدهر كالأثار التى تنسب لقبيلة عاد البائدة ...

عدد الابواب

ص. 104 - وطغت أنامل الكاتب أو عامل المطبعة، فأقحم كلمة - الجنة - في السطر الثالث من ص 104، اذ عز عليه - وهو من أبناء تطوان - ان يكون عدد ابواب مدينته كعدد ابواب النار لا الجنة، فالمرجو من القارئ ان يصلح حرف الواو من (والنار) ويحوله الى - بل - فتصير العبارة هكذا - كعدد ابواب الجنة، بل النار - اذ من المعروف ان عدد ابواب الجنة ثمانية لا سبعة، ونرجو الله أن تكون تطوان كالجنة للصالحين، وكالنار للظالمين .

عن القائدين لوقش وعاشر

ص. 104 - جاء في ص 104 - ان اسوار تطوان جدت في الربع الاخير من القرن الثاني عشر، على يد القائد محمد عاشر، ثم القائد محمد بن عمر لوقش... وذلك سبق قلم، وصواب العبارة هكذا :
على يد القائد محمد بن عمر لوقش ثم القائد محمد عاشر .
ص. 105 - جاء فيها بسطر 6 ما يلي : وهذا الفصل الذي هو الثاني من الباب الاول ... والصواب من الباب الثانى .
ص. 145 - سطر 2 - و - 21 . يظن الاستاذ بنونة ان الصواب هو الجفدالة، بالغين والذل. لان عائلة الجفدالة كانت موجودة بتطوان الى هذا القرن .

بستان بريشة ، بنونة

ص. 162 - جاء في ص 162. ان البستان الذى ذكر في النفحة المسكية صار ملكا لبريشة، ثم بنونة، والصواب انه صار بعد بريشة، ملكا لابنته التى كانت زوجا لبنونة، ثم لنجلها الحاج عبد السلام رحم الله الجميع .

منظومة قاضى تطوان فى تاريخ الدولة الوطاسية

ص. 147 - قد أثبت فى ص 147 وما وليها من الصفحات، نص ما وقفت عليه بفاس من منظومة قاضى تطوان الفقيه ابى عبد الله الكراسى فى تاريخ دولة بنى وطاس بالمغرب، وبعد طبع ذلك زارنا بتطوان صديقنا الفقيه لاديب المطلع المؤرخ الاستاذ عبد الله الجرارى من نوابغ اساتذة الرباط، أفاض الله عليها ينابيع السرور والانبساط، واعلمنى بان لديه نسخة من المنظومة المذكورة، فما كان منى الا ان شددت الرحلة الى رباط الفتح، وزرت بيت الاستاذ الجرارى صحبة صديقى العلامة نابغة سوس الاستاذ المختار السوسى، فأتحفى حفلة الله وجزاه

خيرا بنسخة من هذه المنظومة كاملة غير منقوصة وقد نقاها بخطه الحسن عام 1360 هـ. 1941 م. من نسخة الفقيه المؤرخ السيد محمد بن علي الدكالي نزيل سلا ودفينها رحمه الله، قد أكملت منها نسختي اللبتورة، ورأيت من الواجب الادبي علي للتاريخ، أن أستدرك هنا ما فاتني في ترجمة الفقيه الكراسي، فأكمل النقص الذي هناك، واتحف - انا ايضا - من يستحق الاتحاف من رجال العلم والادب والتاريخ، وفر الله عددهم، وجمع شملهم، واكثر انتاجهم، وهيا لهم من يطبع عاثرهم - ودونك ذلك (I) .

ص. 149 - سطر 28 .

وبلغ السلطان في محنته
ص. 150 -

سقط 3
« 5
« 8
« 9
س. 29- وكان ذا سنة خمس جازت
س. 30- ولم يزل ذاك شعار المسلمين

س. 31- سقط هذا البيت في النسخة الجراحية .
ص. 151

سقط 14
« 15
« 16
س. 18- ثمت اذ ولي وجاء سالما
« 19
« 20

ص. 152 - من س. 8 - الى 16 - هذه الابيات والتي قبلها وقع فيها شيء من التقديم والتأخير في النسخة الجراحية، وتصلح الابيات المطبوعة في نسختنا كما يلي :

س. 8 - ومنع الرماة منها الاجفان
س. 9 - حلت بهم جيوش أهل الله

(I) يلاحظ ان احدى النسختين تختلف عن الاخرى بتقديم أبيات معدودة وتأخير أخرى .

س. 10 - غرقت الاجفان فى الرمال
 س. 11 - الا قليلا من نجا مما شفا
 س. 12 - تسعة آلاف من الشرورة
 س. 13 - فجاء ذا المولى الهزبر الناصر
 س. 14 - فحرض الناس على جمع الرؤوس
 س. 15 - لما انتهى قال احملوا هذا لفاس
 س. 16 - وصفت الرؤوس فوق سور
 س. 29 - وبعد ذاك حركة البساس
 س. 30 -
 س. 31 -
 ص. 153 -

س. 1 -
 س. 2 -
 س. 3 - ثم عفا الله وجاء بالخير
 س. 4 -
 س. 5 -
 س. 6 -
 س. 7 - سبحان من يملك خاطر الامير
 س. 20 - وظن ان المال قد ينجيه
 س. 21 - فخلعوه بعد بالاشهاد
 س. 22 - ومات فى السجن على العادات
 س. 23 - فمات محتاجا وخلي المالا
 س. 24 - وبقي الاثم على المؤلف
 س. 25 - ما ياخذ الانسان الا ما عطاء
 وفى هذه الابيات تقديم وتأخير
 س. 28 - وولي الملك أبو العباس
 س. 29 - فجاء تابع الملوك الامرا

الى الشريف بين من جا من فاس
 ستر فيه الله ذاك القوما
 وقال خلوه لدى الاوطان

رأى له فى ذهنه الحنانا
 فى قطر مراکش لا التباس
 وجاء للغرب الجيوش بالسير
 جاء لفحص ازالا عطاس
 وبقيت دروبها خلاء
 وكل من لاقى بها أبادا
 بيده التوفيق فى كل سطر

ابن محمد الرضى الوطاسى

والبتر الكبير الذى اشرنا اليه فى آخر هذه الصفحة، يزيد عدد أبياته
 على مائتين ودونك نصه :

والاخذ بالثار رئيس القوم
 والعلم والحلم يرى من سمته
 ومن بأبدع الحلى يكتسى
 ونصرت بملكه الانام

وهو امام طالب للعلم
 الخط كابن مقلة فى وقته
 أبرع من ركب سرج فرس
 وسعدت بمسعدته الايام

ذكر حركته لمراكش ونزوله على ابوابها

لمن بمراكش كن ضميره
كذا علي محفوظ الجنود
ولم يقصر معه الاجواد
بالحضرة العليا بلا تواني
ولم يزل بنصره ملبوسا
بعصب ممن تولى وصبر
يبعد كل مخلص غريب
وثار في مكناس والحقودا
من البرابر وأهل فاس
مع الموثيق من الامير
سجنه وبعد ذاك صرعه
أمر مدبر له في الليل
لنفسه فيغفروا ما صنعوا
مع نواحيه ومع مكناس
والملك لله يعز ويضيع
لدار مراكش يبغى الفخرا

وكان حاركا على ضرورة
مع ابن عمه الامير مسعود
وكانت الاجناد والقواد
كان قتالهم على البيبان
وكان يوما راثبا عبوسا
ثم تولوا راجعين في نفر
يا عجبا من فعله العجيب
لما دعا لنفسه مسعودا
أتاه حاركا بكل الناس
صالحه على يد الوزير
فعندما دخل في فاس معه
بالشرع كان وبغير قيل
وعادة الملوك فيمن ادعى
وخلص الملك له بفاس
ما بين ملوية مع أم الربيع
ثم أعاد حركات أخرى

ذكر حركة الصلح بوادي الزات

أعظم بنجح حازه ونجح
بوادي الزات واعيت المنتهى
والحمد للاله رب العالمين

وكانت ايضا حركات الصلح
من بعدما وقعت العين بها
اذ أعتق الله دماء المسلمين

ذكر ولاية الوزير أبي سالم ابراهيم بن راشد الوزارة

ابن علي صهره قديما
مولاي ابراهيم ذاك أبو علي
وكلهم لم ينثن عن خدمته
شاد بها لكل ما قبيلة
ولم يقصر في ابتغا الآمال
لسعده بسعده قد أيدا

واستوزر الراشد ابراهيم
ذاك الشريف واصل الجاه العلي
أحبه الناس على محبته
وقام بالوزارة الحفيلة
وبسط الكفين بالنوال
وحيثما أقبل ولى راشدا

وما تولى فعله أتمه
وبعد أن وجهه لتادلا
ابن ابى زيد الصفي القائد
لطاعة السلطان جاء قاصد
ستة أطبال ومن أعلام
صبح قوما تحت غار السبع
وانتهبت خيوله والأسلحة
وخانه صاحبه اذريس
كافح ذا وفر ذاك وغبر
ظن بان الارض لم تعتمر
فجاء ابراهيم الشريف
وذاك فى درنا وفى تامسنا
لكن جرى عليه حكم المولى
كان بها العطار ثم العادل
دخلت الجيشان فى الاعادى
فانتهت الفرسان للفرسان
ومات فى ذا الوادى أى أم ربيع
وسمقت الاطبال والبنود
وكان من فعل الوزير الاعظم
أقام فى درنا ثلاثا شهرا
ثم تولى بعدما قضى الوطر
يا ليتته من بعد ذاك قعدا
سبحان من لا ينقضى دوامه

وما أهم المسلمين أهمه
لاقى بها حمدا على ما عملا
من جيش مراکش جاء عامد
غابت له الاطماع والمقاصد
وست قياد على التمام
ما مات الا جسمه فى المربع
وصار نهبا بالعوالى الراححة
عند اللقا وظهر التدليس
وفى دجا الليل غيا هربا وفر
فارجفت خيوله بالخبر
بمرصد بجيشه المخيف
يا ليتته اذ جاء كان رهنا
اذ لم يكن فى قوله لا حولا
كذاك عزوز ونعم الباسل
مثل دخول واديا فى واد
وأسرع الرامح فى الانسان
خلق كثير وجرى فعل شنيع
وتركت أسلابها الجنود
العفو عمن جاء من منهزم
نعم الوزير نعم من قد ذكرا
الى ديار فاس من بعد السفر
ولم يكن بحارك ولا اعتدا
تجرى على عباده أحكامه

ذكر حركة وادى العبيد

من بعد ذا صال امام فاس
ولم يرد فى الغرب من ملجوم
وجد فى العدو جندا شرفا
يشبه فى عدده النجوم
وكان اول اللقاء الاربعاء
لاقى بها القواد يوما لم ير
ومر والليل الجموع والت

وكان حاركا بكل الناس
وادى العبيد الحد للمحتوم
وجيشهم ورءاهم قد صفوا
والبحر افى أمواجه قدوما
فوق أبى عقبة مروعا
من هذه الحرب ورأس الامرا
تخبر عن أسد فاس مارات

وزاد ايضا رحلة الخميس
واوقعوا القتال يوم الجمعة
تاريخه فى تاسع من صفر
وقصد الجيش الى المحلة
وذاك من بعد مجىء الفقراء
قال لهم حوزوا الى المرىنى
حتى اذا عافية الله أبى
فلم يكن لوم له علينا
وكان قبل ذلك السلطان
والسيد الشريف فى كل لقاء
يرجع للصلح وللعوافى
وكانت الصولة للامير
فيقطع الوادى اليه صائلا
فلما ان وقعت العين بها
من جملة الانفاض والمدافع
فخانه الاعراب والخلوط
وفرت الاجناد والبرابر
غير ثلاثين على ابن راشد
فقاتل السلطان فيها بيده
فعارض الامام عبد القادر
بين الفريقين يؤم الحربا
حتى اذا سقطت الاعلام
فى تاسع من صفر بعد ثلاث
فقد فيها ولد السلطان
مات على عزته حمية
لما رء الامر يؤول للهلاك
ورجع السلطان فى الحرب أسد
وعمل الجند له كل أحد
وبقى العار الى الاقارب
ومن أراد الله فيها موته
وانتهب الناس ومرت الكسا
والمسلمون رحمة للمسلمين
ورأفة بالملة الحنيفة

أن رحلت فى طالع نحيس
والناس فى قلوبها مروعة
سنة جلع قله للمفكر
وكان قطع الوادى رأى جله
والصالحين من شريف الامراء
واعتقوا دماءها فى الحين
كان مراد الله افيما كتبها
بعد ولا ملامة لهدينا
أعني المرىنى له حنان
يحل عقدها بجمع مفرقا
وبعد ذا يعقب بالخلاف
ملك وطاس بلا تدبير
وكان بالنصر عليه مائلا
عاد مقهقرا رأى مادها
ولم يجد فى الناس من مدافع
والوادى وحده له قنوط
فلم يكن فى الناس من يصابر
 وخمسة على المليك الوارد
وكان يحمل لحملة أبيه
بخمسة اعلام وجيش حاضر
اذا مطعم الموت من قد حاربا
فر جميع الجيش لاسلام
مع ثلاثين مرت بلا اكرات
بمربع ومزق الفرسان
على أميره صحيح النية
ان وصل الامر الى من قد ملك
يلقى بنفسه جنودا لا تعد
وجاء شاهرا وما به جلد
ولذوى الدولة والاجانب
مات وأفلت الجميع فلتته
ونم تر شخصا سوى بلا كسا
وذاك أمر جار بين المومنين
اذ غلبت ولا به مخيفة

واحتوش الجيوش حال الجيش
 وعدة الحرب مع البارود
 ولم يرح خروفتنا بصوف
 وكان ستر ربنا علينا
 ولو أراد الله باتباعنا
 لانبهم الامر على وطاس
 لكن قضاء ربنا والقدر
 وفاس جئناها على رويدا
 لا بد ما يجرى على الانسان
 ينسب فعله اليه ويرى
 حتى يقول لا حول لي لا حول
 ويبصر الصنع وافعال الجميل
 واقرأ قل اللهم مالك الملوك
 واحمد لمولايك أمولانا وقل
 وكل من أدبه مولاه
 من بعدما شد الامور حلها
 ثم عفا الله وجاء اليسر
 وليس ذا عار على من قد ملك
 فساعة يسر وعسر ساعة
 فالحمد لله على ما أولى
 وامتنع السبل لكل طالب
 والله يحميه بنصر دائم
 فرجع السلطان دار فاس
 وخاف من عداوة النصارة
 فعمل الصالح بما قد يصلح
 فاستعمل العدة بالاعداد
 وداره اتخذ دار صنعة
 كذلك الاقواس والنبال
 كذا المدافع مع المنار
 أقام فيها كل ما قد أملا
 وكل ما يطلب صار واجدا
 واكثر البارود والا نفاطا
 وامر الناس بالاستعداد

مع المحلات وكل فرش
 كذاك الانفاض مع البنود
 الا على مسائق موصوف
 ان وقف الجيش بحيث كنا
 وجاءت الاعلام من ورائنا
 وبقي الخيل وكل الناس
 أنجم ذا وجيش ذاك صدروا
 وقيل للعيان عمدا عمدا
 من غفلة تجرى على اللسان
 افعال من ذاك عليه قدرا
 كذاك لا قوة لي يا مولى
 من عند ربنا الذى بنا كفيل
 الى قدير ذاك سلوكك
 يا رب لا أحصى الثنا ولا تفل
 فقد هداه كلما أولاه
 وأخلف الله بدار حلها
 واليسر بعده ومن العسر
 والدهر دائر على دور الفلك
 والدأب هذا لقيام الساعة
 من سدة السلطان هذا المولى
 وعاد ليثا غالبا بغالب
 ويجعل الستر له ملازم
 مرقعا لما جرى بالناس
 وان يمد الغرب فى الخسارة
 ولا موار المسلمين ينجح
 وقوة ينكى بها الاعادى
 والنفط والبارود فيها صنعه
 وعملوا النحاس والعمال
 والصيف كل صانع يدارى
 وكثرت من كل نوع حملا
 فى مخزن السلطان منه عددا
 وذاك منه للورى احتياطا
 وبالتهيء الى الاعادى

وعمرت مخازن الطعام
وجعلوا على الرجال عملا
وقبضوا من النصارى اموال
وبعد ذاك انتقلوا لذلك
لان ينالوا الغرب بالاضعاف
وانتبه السلطان للخديعة
فكادت العرب بها تنصر
وامر القياد بالافساد
وارتدع الاعداء بالقتال
فمرة لنا ومرة لهم
وعاد فرض المسلمين فى الجهاد
من لم يروع كافرا فى داره
شاهده ما كان فى تلمسان
وانتصروا بهم على عروج
فدبر الكفار بعد انهم
وحركوا اذ وجدوا الجو فراغ
ودخلوا بعد هروب اهلها
ولحقوا باهلها الهرب
وحملوا من لا يطيق الحملا
وبيع من من قتله قد نجما
فعز امرهم على السلطان
قواه بالممدفوع والدرع
قال له عمدا فانت ولدى
واننى اليكم بالناصر
والغرب هذا وانا امامك
وازهرت آساده وطاس
قطع طمع الكافرين والعرب
فاجعل اموالنا اليهم نظرك
نرجو من المولى صلاح الباطن
فانظر بعينك وحقق واعتبر

بصحفه اعانه الامام
قووا به السلطان فيما أملا
مما اشتروا واستاجروا فى الاعمال
اذ كان ذاك منهم شبائكا
وذا محقق بلا اختلاف
وافسد الصلح على شريعة
وجاء للسلطان امر يبصر
للصلح حيث كان فى البلاد
والحرب انما يرى سجال
نحن نفوز بالجنان دونهم
ليرهب الاعداء فى كل البلاد
روعه الكافر فى قراره
اذ كانوا يعطوا ما لهم بوهران
وكشفوا العورة للعلوج
فيض لدى فيض تمنوه لهم
من الاعارب ومن جيش تلاع
دار تلمسان بكل ما لها
فى الثلج ردوهم الى العذاب
ما فاتهم من كل مال خملا
وصار فى وهران عبدا ملجما
من بعد ان جاء ملك ثان
والقوس والعدة من مصنوع
وداركم دارى بوسط بلدى
فلا تخف ان تك بعد حاصر
وابنى اخوك ان ترد قدامك
وهربت ذيابها الاكناس
وفى تلمسان ولم يبق ارب
والله يعلى فى الملوك خبرك
على يدى مولانا والمواطن
واعمل لما يبقى ودع ما يندثر

ذكر حركة السلطان ابنى العباس احمد لامانة

ويجمع الناس ويحشد الحشود
ومن جميع الغرب عرب تقترب

ما زال يرفع ويوقف الجنود
حتى آتته من تلمسان عرب

الى امانة ولم يلق جلد
يعلمه من بركات الرب
اعظم به من سيد سني
شيخ الركائب بهذي الازمان
نيتته ونال ما أملته
بين الفريقين بكل ربح
ونصر الله بها أعلامه

وجمع الجيش وعاث في البلاد
ثم اتى الله بشيخ الركب
يحملة الرقاص للنبي
يعرف بالرتبي عبد الرحمن
قصد قصدا أبلغ الله له
ورجع الناس بشبه صلح
والحمد لله على السلامة

ذكر حركة السلطان الى بني مسارة

كانت له فيما ادعاه محنه
فلم تر شخصا سوى بالباكي
ثم القبائل العثا الاجواد
ما جمعوه فيها من أموالهم
من خوف ان يحصل في الجبال
ورجعوا من جملة الانام
وزال خوفهم من الجماعة
وتاب عن جملة ما قد كانا
وهذه عادته في كل جيل

أتى بنى مسارة ابن سنه
أتاهم السلطان بالاتراك
وجاءت الاجناد والقواد
اباحت الاجناد في جبالهم
وهرب القائم في الجبال
وتركوا مخالف الامام
وربحوا ودخلوا في الطاعة
ثم أتى ابن سنة السلطانا
جازاه بالعفو وبالصفح الجميل

ذكر ولاية المولى الاسعد ابي عبد الله محمد الوزارة لايه ابيه الله

محمد ولده الامير
ومن لبيب تابع للاصل
والشبل في المحتد مثل الاسد
القائم المولى أبو حسون
وعور الطرق وأوقف البنود
وبقتال بنبال رمية
وبالنصارى عصابة الغواية
جيش سواه من خلاف أهلها

وعصب الدولة بالوزير
رمى به الناس لحكم البلد
رمى به الناس لحكم البلد
وثار في باديس ذو المجون
دعا لنفسه والى الجنود
ورد بطوية طوع رأيه
وجاءهم بالنبل والطعانية
ظن بأن الارض لا يدخلها

فجاء ذا المولى الوزير الماجد
وبالقبائل من البرابر
فرجعت بطوية لطاعته
وجاء جيش على تيزيران
ما زال مولانا يهد ويشور
وهو يعد منعة فى بادس
كان يظن ان يموتوا بالعطش
ادرها الله لمولاي كثير
فانقطع الرجاء منها والطمع
فطلب الامان منه مامن
عاهده على دخول فاس
فجاءه على يد ابن بكار
اعظم فيها خطبه وخاتنه
اسكنه جواره بداره
وانقلببت عداوة الامام
قابل بالاغضاء افعال الجميع
عادة مولانا الامام احمد
هذا مراد الله امر سابق
من سخر البلاد والعبادا
انظر لما كان من امر تادلا
اصيب ذا السعيد ذا فى داره
فالحمد لله على ما اولى
فالله يجزيه بحسن نيته
هنا انتهى نظمى وما اردت
فى ذكر من تأخرت مدته
فلنثن من قولى جامع العنان
نرجوك يا مولاي ترحم من سلف
فالله يبقيه على مر الزمان
خذها اليك مالها صداق
سميتها عروسة المسائل

وبجيش الغرب والمحامد
شرقا وغربا مثل بحر زاخر
كذا بلاده انزوت عن خدمته
كم اوقدوا فى قلبه من نيران
حتى الى ورائه ذك النكور
حتى اتى مولانا ناس بادس
لقللة الماء بها مما عطش
والناس كلها روت حتى البعير
بعد التضيق وبعد المنقطع
وجاء بابنه اليه مرتهن
يخلق مولانا ابا العباس
شيخ الزمان ما له من انكار
باخته السيدة المعينه
ولم يكن فى فعله بكاره
محبة فى حرمة الاسلام
اذ جاء دار الملك خاضعا مطيع
الاخذ بالعفو وذا مسرمد
من قلد الملك فلا يسابق
ساق له مراده انقيادا
جاءت على رغم لامر حملا
ورجع الامر الى قراره
للمسلمين ولهذا المولى
وما له اضر فى طويته
من المحاسن التى اوردت
من ملك فى فاس دامت عزته
فالنظم رد امرهم مثل العيان
وان تبارك الاهى فى الخلف
فى نيل امان وامن وامان
الا الرضاء منك والاشفاق
فيما لو طاس من الوسائل

عن الفقيه الزياتى قاضى تطوان

ص. 281 - وكتب لى صديقنا العلامة أبو عبد الله العابد الفاسى بأن ما ذكره لى (ص 281) من أن الفقيه أبا الحسن الزياتى تولى قضاء تطوان الخ مستنده فى ذلك، هو ما جاء فى نسخ خاصة من كتاب ابتهاج القلوب للعلامة أبى زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى، وفى الباب الثالث منه ذكر أبناء الشيخ أبى المحاسن وأحفاده وغيرهم ممن لم يذكرهم فى النسخ المتعارفة للابتهاج، وقال عند ذكر جماعة من تلاميذ أبى حامد الفاسى المتوفى بتطوان ما نصه: «ومنهم الفقيه أبو الحسن على الزياتى قاضى تطاون»

أبو القاسم البادسى قاضى تطوان فى القرن العاشر

قلت فى ص 139 ما نصه : «فقاضيان اثنان فقط هما اللذان استطعت ان أعرف اسميهما من بين اسماء القضاة الذين تولوا الحكم بتطوان فى القرن العاشر، وهما القاضى محمد الرزىنى والقاضى محمد الكراسى إلخ» وقد أطلعنى الاستاذ العابد الفاسى ايضا على ورقة ذكر لى ان كاتبها هو قاضى فاس أبو عبد الله محمد بن أحمد التماق وقد جاء فيها ما نصه : «الحمد لله سيدى أبو القاسم ابن عبد الكبير البادسى والد سيدى عبد المجيد الخير المرباط صاحب الجمع المتبع عند عامة فقرائنا على طريقة الششتى ومنحاه بالالحن العجيبة، كان رحمه الله بزاوية سيدى أبى زيد الهزميرى وكان رجلا من اهل الخير، فقيه صوفى له شرحان على تحفة ابن عاصم تولى قضاء الثغر التطاونى زمانا وله شرح على الشريشية فى احوال الصوفية ومقاماتهم هـ. من خط سيدى علي البطوئى بواسطة من يوثق به»

والمعروف ان أبا الحسن البطوئى الذى نقل القاضى التماق من خطه توفى سنة 1039 كما فى الصفوة (1) كما ان من المعروف ان سيدى عبد المجيد ابن أبى القاسم المذكور، وهو الذى ينسب له فندق سيدى عبد المجيد الذى بازاء فندق التطاونيين قرب جامع القرويين بفاس، توفى سنة 1004 كما فى الصفوة ايضا (2) وعليه فالفقيه أبو القاسم بن عبد الكبير البادسى قد تولى قضاء تطوان، وكانت ولايته فى القرن العاشر، وشكرا للاخ الفاسى على افادته حفظه الله .

(1) الصفوة ص 95 من طبعة فاس

(2) الصفوة ص 31

وتتميما للفائدة اذكر هنا ان «البادسى» نسبة الى بادس فى شمال المغرب وفى قسم «تگيديت» من قبيلة بقوية، من قبائل الريف الوسطى نجد مدشر «بادس» وهناك نهر بادس، وعلى شاطئ البحر الابيض المتوسط نجد جزيرة بادس - او - حجرة بادس، وهى جزيرة صغيرة تنفصل عن البر حيناً، وتصلها الرمال به حيناً آخر، وهى الآن بيد الاسبان .

وذكر صاحب الصفوة (ص 31) ان اصل سيدى عبد المجيد المذكور من مدشر بنى يطففت الخ. والمعروف لدينا ان بنى يطففت قبيلة لا مدشر، وتحد بقبيلة بقوية وبها اربعة اقسام تحتوى على نحو ثلاثين مدشرا

وبكل أسف نرى ان المعلومات عن القبائل الريفية والجبلية التى بشمال المغرب، ضئيلة جدا لدى جل علماء المغرب وادبائه، فضلا عن غيرهم ولعلنا نتدارك هذا النقص فى كتاب «التكملة» الذى هو ذيل هذا الكتاب بحول الله .

فهرس مجمل

لما فى هذا المجلد من الابواب والفصول والموضوعات

37	الباب الاول - وفيه فصلان	37
37	الفصل الاول : اسم تطوان وضبطه	61
61	الفصل الثانى : تطوان القديمة	85
85	الباب الثانى - وفيه فصلان	85
85	الفصل الاول : بناء الاندلسيين لتطوان الحديثة	105
105	الفصل الثانى : ولاية تطوان وحوادثها فى اواخر القرن التاسع	111
111	الباب الثالث - تطوان فى القرن العاشر، وفيه خمسة فصول	113
113	الفصل الاول : ولاية تطوان وحوادثها فى القرن العاشر	137
137	الفصل الثانى : قضاة تطوان وعدولها فى القرن العاشر	143
143	الفصل الثالث : من رجال تطوان فى القرن العاشر	159
159	الفصل الرابع : من زوار تطوان فى القرن العاشر	165
165	الفصل الخامس : ملخص عن حالة تطوان فى القرن العاشر	171
171	الباب الرابع - تطوان فى القرن الحادى عشر، وفيه ستة فصول	173
173	الفصل الاول : فى ولاية تطوان وحوادثها فى القرن الحادى عشر	277
277	الفصل الثانى : من قضاة تطوان وعدولها ووثائقها فى القرن الحادى عشر	305
305	الفصل الثالث : عن الشيوخ والزوايا بتطوان فى القرن الحادى عشر	315
315	الفصل الرابع : من رجال تطوان فى القرن الحادى عشر	411
411	الفصل الخامس : من رحلات المشاهير الى تطوان فى القرن الحادى عشر	425
425	الفصل السادس : ملخص عن حالة تطوان فى القرن الحادى عشر	

الفهارس السبعة المفصلة لهذا المجلد

تقدم لنا فهرس مجمل لما فى هذا المجلد من الابواب والفصول والموضوعات، ودونك سبعة فهارس مفصلة لما فيه :

- الاول، للابواب والفصول والموضوعات
- الثانى، لاسماء الاشخاص
- الثالث، لاسماء البلدان والامكنة الجغرافية
- الرابع، لاسماء الامم والشعوب والجماعات
- الخامس، لاسماء الكتب المذكورة فيه
- السادس، للصور
- السابع لمراجعته من الكتب والمستندات

وفى الصفحات التالية نجد هذه الفهارس على هذا الترتيب ويلاحظ ما يلى :

- I - ترتيب هذه الفهارس كلها، على الحروف الهجائية بالطريقة المغربية وهى كما يلى :
- ا. ب. ت. ث. ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. ط. ظ. ك. ل. م. ن. ص. ض. ع. غ. ف. ق. س. ش. ه. و. ي.
- 2 - أل - الواقعة فى اول الكلمات، لا تعتبر فى الترتيب، وانما يعتبر الحرف الذى بعدها .
- 3 - الكلمات المبدوءة باين - او - بن كلها جعلناها فى حرف الالف، ابن
- 4 - هذه الفهارس غير مستوعبة لجميع ما فى الكتاب

الفهرس الاول

الابواب والفصول والموضوعات

صفحة	
7	- مقدمة أولى بقلم الاستاذ محمد بنونة
19	- مقدمة ثانية بقلم الاستاذ التهامى الوزانى
23	- مقدمة الكتاب
27	- منهاج الكتاب
30	- كيف ينبغي أن يكتب التاريخ
31	- عن بعض مؤرخى المغرب فى عصرنا
32	- التعريف بكتاب الاستقصا ومؤلفه الناصرى
32	- التعريف بكتاب عمدة الراوين ومؤلفه الرهونى
33	- التعريف بكتاب الاتحاف ومؤلفه ابن زيدان
33	- التعريف بكتاب الاعلام ومؤلفه ابن ابراهيم
37	- الباب الاول
37	- الفصل الاول - اسم تطوان وضبطه
43	- هل توجد مدن أخرى تسمى بتطوان
44	- موقع تطوان من بلاد المغرب.
46	- وضعية تطوان.
47	- هل ألفت كتب فى تاريخ تطوان .

صفحة	
48	- «نزهة الاخوان» لسكيرج .
50	- «عمدة الراوين» للرهونى .
58	- تقاييد مختلفة .
59	- هذا التاريخ .
61	- الفصل الثانى - تطوان القديمة .
62	- تطوان ونواحيها قبل الاسلام .
64	- تطوان فى القرن الثالث للهجرة .
64	- تطوان تحت حكم الادارسة .
64	- التعريف بكتاب القرطاس ومؤلفه ابن ابى زرع .
65	- التعريف بابن خلدون وتاريخه .
66	- تطوان فى القرن الرابع .
66	- تهديم الادارسة لتطوان .
66	- معارضة أهل سبتة فى اعادة بناء تطوان .
66	- التعريف بأبى عبيد البكرى الاندلسى .
67	- التعريف بابن عذارى المراكشى .
68	- تطوان فى القرن الخامس .
68	+ وصف البكرى الاندلسى لتطوان .
68	- تطوان قاعدة بنى سكين .
69	- تطوان فى القرن السادس .
69	+ تطوان فى كتاب الادريسى .
69	- التعريف بالشريف الادريسى وكتابه الجغرافى .
70	+ تطوان فى كتاب «الاستبصار» .
70	- التعريف بكتاب «الاستبصار» .
71	- غزو الموحدين لنواحي تطوان .
71	- التعريف بالشيخ البيدق وتاريخه .
71	- قتل الموحدين لثمانمئة شخص فى تطوان .
72	- انتقال الشيخ التبين من غرناطة الى تطوان .
73	- من رجال تطوان فى القرن السادس .

73	-	الشيخ عبد القادر التبين الاندلسى التطوانى .
75	-	الشيخ ابو عبد الله الفخار السبتي التطوانى «
76	-	تطوان فى القرن السابع .
76	-	بناء قصبة تطوان .
77	-	من رجال تطوان قبل القرن الثامن .
77	-	الشيخ سيدى طلحة الدريج .
79	-	تطوان فى القرن الثامن .
79	-	بناء تطوان فى اوائل القرن الثامن .
81	-	التعريف بابن الخطيب وكلمة عن ضريحه .
82	-	تطوان فى جل القرن التاسع .
82	-	التعريف بكتاب «معيار الاختيار» لابن الخطيب .
82	-	التعريف بمنويل المؤرخ الاسبانى .
83	-	تواريخ احتلال الاجانب لجبل شواطىء المغرب .

85 - الباب الثانى

85	-	الفصل الاول - بناء الاندلسيين لتطوان الحديثة
85	-	حالة تطوان واهلها فى اواخر القرن التاسع .
86	-	عدد الاندلسيين الذين بنوا تطوان .
87	-	التعريف بليون الافريقى وكتابه الجغرافى .
89	-	الاجراءات التى اتخذها الاندلسيون لبناء تطوان .
90	-	رئيس الاندلسيين الذين بنوا تطوان .
90	-	التعريف بالشيخ على بن راشد بانى شفشاون .
91	-	صفة تطوان الحديثة فى اول أمرها .
93	-	أقدم ما بنى من تطوان الحديثة .
95	-	تاريخ بناء تطوان الحديثة بالتدقيق .
97	-	موقف سكان القبائل من المجددين لبناء تطوان .
98	-	ماذا عمل أهل تطوان بعد بناء مدينتهم ؟
100	-	أقسام تطوان الاولى وأرباضها .

صفحة

١٠٥	-	الفصل الثاني - ولاية تطوان وحوادثها في أواخر القرن التاسع .
١٠٥	-	الباشا - القائد - العامل -
١٠٧	-	تطوان في عهد الدولة الوطاسية .
١٠٧	-	القائد أبو الحسن المنظري .
١٠٨	-	من أخبار تطوان في عهد المنظري .
١١١	-	الباب الثالث - تطوان في القرن العاشر .
١١٣	-	الفصل الأول - ولاية تطوان وحوادثها في القرن العاشر .
١١٣	-	القائد المنظري الحفيد .
١١٤	-	الافرنج يفتدون الاسارى من تطوان .
١١٦	-	وفاة القائد المنظري الحفيد .
١١٦	-	القائد المنظري الثالث .
١١٧	-	الست الحرة حاكمة تطوان .
١٢١	-	زواج سلطان فاس بحاكمة تطوان .
١٢٢	-	القائد المنظري الرابع والقضاء على حكم الست الحرة .
١٢٣	-	أهمية عمل المنظري وأبطال تطوان .
١٢٤	-	القائد الحاج على الذيب .
١٢٤	-	الوباء بتطوان عام ٩٦٤ هـ .
١٢٥	-	تطوان في عهد الدولة السعدية .
١٢٥	-	من حوادث تطوان عام ٩٧٢ هـ .
١٢٥	-	على ماذا كانت ترتكز قوة تطوان .
١٢٥	-	مراكب تطوان والجزائر تهاجم سواحل اسبانيا .
١٢٥	-	التطوانيون يحركون الثورة في اسبانيا .
١٢٥	-	اغلاق الاسبانيين لمصب واد مرتيل .
١٢٧	-	من حوادث تطوان عام ٩٧٤ هـ .
١٢٧	-	انقسام سكان تطوان وقيام الفتنة بينهم .
١٢٧	-	السلطان يرسل جيشا لقمع الفتنة في تطوان .
١٢٨	-	القائد على الوسنج .

صفحة	
I29	القائد محمد الصبان .
I29	القائد محمد بوردان .
I29	القائد عبد الرحمن العليج .
I29	انقاذ المؤرخ ابن القاضي وارجاعه الى تطوان .
I32	ايقاع مجاهدي تطوان بأهالي سبتة .
I37	الفصل الثاني - قضاة تطوان وعدولها في القرن العاشر .
I37	حول الحكام وانظمة الحكم في مدن المغرب .
I40	القاضي محمد الرزيني .
I40	القاضي محمد الكراسي .
I43	الفصل الثالث - من رجال تطوان في القرن العاشر .
I44	الشيخ علي الفحل .
I44	الفقيه القاضي محمد الكراسي .
I46	منظومة لقاضي تطوان في تاريخ الوطاسيين .
I55	الشيخ احمد الشاعر اليجمي .
I56	الشيخ الجاسوس .
I57	الفقيه أبو القاسم بن سلطان .
I59	الفصل الرابع - من زوار تطوان في القرن العاشر .
I59	الاديب التمجروتي مؤلف «النفحة المسكية» .
I65	الفصل الخامس - ملخص عن حالة تطوان في القرن العاشر .
I65	من الناحية السياسية .
I67	من الناحية العلمية والادبية .
I68	من الناحية الاجتماعية .
I71	الباب الرابع - تطوان في القرن الحادي عشر
I73	الفصل الاول - ولاية تطوان وحوادثها في القرن الحادي عشر
I73	أولاد النقسيس
I75	المقدم عيسى الاول

صفحة

المقدم محمد النقسييس	175
التعريف بالمستعرب سرديرة الاسباني	175
المقدم احمد بن عيسى النقسييس	176
من أخبار تطوان ونواحيها فى عهد المقدم احمد النقسييس	178
فذلكة تاريخية عن الشيخ المامون السعدى	178
استيلاء الشيخ السعدى على تطوان	179
خروج المقدم احمد النقسييس من تطوان	180
ولاية القائد حمو بودبيرة على تطوان	180
من أعمال الشيخ السعدى فى تطوان ونواحيها	181
اخراج بقية المسلمين من الاندلس عام 1018 هـ.	181
تسليم العرائش للاسبانيين عام 1019	182
قتل الشيخ السعدى وقائده فى ناحية تطوان	184
السلطان عبد الله بن الشيخ يحاصر تطوان	185
بين الانجليز وتطوان - قراصنة وأسارى ، علاقات ومراسلات ، تقارير ومساعى وتعليقات	186
تصريح المقدم احمد النقسييس	194
وفاة المقدم احمد النقسييس عام 1031	201
ابناء المقدم احمد النقسييس	202
رسالة من المجاهد العياشى الى ملك انجلترا عام 1036	212
تقرير انجليزى عن احوال المغرب وتطون عام 1036 هـ 1627 م	213
قتل ثلاثة من أولاد النقسييس	218
سبب قتل أولاد النقسييس	220
رسالة من ملك انجلترا الى المجاهد العياشى بسلا عام 1037	221
منشور من ملك انجلترا عن سلا وتطوان الخ عام 1038	222
المقدم عبد الله بن أحمد النقسييس عام 1038 هـ 1629 م	223
بين عبد الله النقسييس وملك انجلترا	223
من أخبار تطوان فى هذا العهد	224
من المساعى الانجليزية بالمغرب فى هذا العهد	226

صفحة	
229	استيلاء أصحاب المجاهد العياشى على تطوان عام 1040 هـ
229	التعريف بالمجاهد ابنى عبد الله العياشى
229	فرار عبد الله النقسييس الى غمارة
230	النقسييس ملتجىء عند اسبان سبتة
230	رسالة من ملك اسبانيا فى شأن النقسييس
231	بين حاكم تطوان وملك انجلترا عام 1041
232	المقدم محمد بن عيسى النقسييس عام 1050
233	المقدم عبد الكريم بن عيسى النقسييس
234	تطوان تحت حكم الغزوانى صاحب الخضر غيلان
234	احمد بن عبد الكريم النقسييس عام 1071
235	المقدم الخضر غيلان واولاد النقسييس
236	المقدم احمد الثانى بن عيسى النقسييس عام 1071
237	تطوان فى عهد الدولة العلوية
238	المولى الرشيد يقبض على المقدم احمد النقسييس عام 1078
238	استغراق ذمة اولاد النقسييس وبيع املاكهم عام 1078
242	ولاية احمد بن يعقوب على تطوان عام 1078
242	ولاية قاسم فرشيش على تطوان عام 1081
242	مفضل النقسييس يحكم بتطوان ويساعد الخضر غيلان عام 1083
243	قتل الخضر غيلان وفرار اولاد النقسييس الى سبتة عام 1084
245	مهمة اولاد النقسييس وعلاقاتهم الخارجية
246	الطور الاول - فى عهد المقدم احمد بن عيسى النقسييس
246	مع اسبانيا
247	مع انجلترا
247	مع هولندا
248	الطور الثانى - فى عهد المقدم عبد الله النقسييس
248	مع انجلترا
249	مع اسبانيا - ضد ابنى عبد الله العياشى

- 249 - **الطور الثالث** - فى عهدى محمد وعبد الكريم النقسييس
- 251 - **الطور الرابع** - فى عهد المقدم احمد (الثانى) بن عيسى النقسييس
- 253 - تطوان بعد اولاد النقسييس
- 253 - ولاية القائد احمد بن حدو على تطوان عام 1084
- 254 - من أخبار القائد أحمد
- 254 - التعريف بالمهدية «المعمورة»
- 255 - ابا حدو وغمارة
- 257 - السلطان يقطع رؤوس مساجين تطوان بفاس عام 1088
- 257 - الوباء بتطوان عام 1088
- 258 - ولاية القائد علي بن عبد الله عام 1090
- 258 - من سياسة السلطان المولى اسماعيل
- 259 - مقاتلة المسلمين للانجليز بطنجة سنة 1090 هـ .
- 261 - سفير من تطوان الى ملك فرنسا عام 1092
- 265 - رسائل رسمية من سلطان المغرب وولاته الى ملك فرنسا
- 267 - ملخص المعاهدة المغربية الفرنسية سنة 1093 هـ 1682 م
- 270 - فتح المسلمين لمدينة طنجة سنة 1095
- 271 - رسالة من قائد تطوان الى ملك فرنسا عام 1098
- 273 - نهاية اولاد النقسييس عام 1098
- 275 - رسالة من القائد علي بن عبد الله الى قنصل فرنسا عام 1099
- 277 - **الفصل الثانى (من الباب الرابع)** - من قضاة تطوان وعدولها فى القرن الحادى عشر
- 278 - نائب القاضى محمد بن يعقوب
- 278 - القاضى عيسى بن موسى الخشيين
- 278 - القاضى محمد بن سعيد بن قريش
- 278 - القاضى موسى الخطيب
- 278 - القاضى محمد بن سعيد بن قريش
- 279 - القاضى احمد طانية

صفحة	
279	القاضي عبد المجيد بن طريقة
279	القاضي محمد بن طريقة
279	القاضي عبد القادر بن احمد طانية
279	القاضي عبد المجيد بن طريقة
280	القاضي عبد الوهاب الفاسي
280	القاضي عبد القادر طانية
280	القاضي محمد بن سعيد بن قريش
281	تمة - القاضي على الزياتي
282	من عدول تطوان في القرن الحادي عشر
283	نماذج من وثائق تطوان ونوازلها في القرن الحادي عشر
283	(1 وثيقة قبض وإبراء سنة 1019
284	(2 وثيقة وكالة سنة 1032
284	(3 وثيقة شراء طراز ومصرية بحومة العيون سنة 1032
285	(4 وثيقة بيع الملكين المذكورين سنة 1037
286	(5 وثيقة شراء حانوت بسوق البقالين سنة 1033
287	(6 تحبيس طراز بحومة العيون سنة 1042
287	(7 وثيقة بالتزام عدم الرجوع في وصية سنة 1055
288	(8 وثيقة شراء فدان خارج تطوان سنة 1051
289	(9 وثيقة شراء مصرية عام 1054
290	(10 وثيقة شراء غرسة بالصوير سنة 1059
290	(11 وثيقة بيع دار بعد اثبات ملكيتها سنة 1062
292	(12 وثيقة تحبيس ثلث فدان سنة 1064
293	(13 رسم شراء غرسة بعين الجماري سنة 1073
294	(14 وثيقة إرث ومفاصلة بين الورثة سنة 1076
296	(15 رسم شراء فدان بزيانة سنة 1088
297	(16 رسم إسقاط نزاع وامضاء بيع وإبراء سنة 1090
297	(17 رسم شراء فدان بقاع التوت سنة 1088
298	(18 رسم مناقلة مع حبس جامع المصمدي سنة 1088

صفحة

300 -	19 (رسم شراء دار بحومة الطرنكات سنة 1089
301 -	20 (رسم بيع الدار المذكورة فى نفس السنة
301 -	رسم بوفاة القاضى الكراسى وورثته وبيع داره عام 1012
303 -	رسم بتجديد حجر ولد قاضى ليلة زواجه
383 -	رسم استرعاء يتعلق بورثة القاضى الكراسى
304 -	سؤال للعلامة المقرئ وفتواه عن الرسوم الثلاثة المذكورة
305 -	الفصل الثالث (من الباب الرابع) عن الشيوخ والزوايا بتطوان فى القرن الحادى عشر
306 -	موقف سكان تطوان من الصوفية والتصوف
307 -	الزاوية الفاسية ورجالها بتطوان
309 -	الشيخ على بن مسعود وبنائوه لجامع العيون
309 -	بين الشيخ على بن مسعود وأصحاب الشيخ يوسف الفاسى
310 -	رسالة من الشيخ يوسف الفاسى عن الشيخ الجعيدى
312 -	الطريقة الناصرية وزاويتها بتطوان
315 -	الفصل الرابع (من الباب الرابع) . من رجال تطوان فى القرن الحادى عشر .
315 -	أبو العباس احمد بن يوسف الزياتى .
317 -	الشيخ محمد أنوار .
321 -	أبو عبد الله محمد السمعانى .
321 -	أبو العباس احمد البريبرى .
322 -	الشيخ قاسم الحاج .
322 -	سيدي السعيدى .
323 -	كيف عرف الناس سيدي السعيدى .
324 -	المترجمون لسيدي السعيدى .
325 -	وله كرامات .
326 -	مبالغات - شخص غير معروف .
327 -	أبو الحسن علي البجاني .

- 327 - أبو علي الحسن الحايك .
- 327 - رسالة من العارف الفاسي الى بعض الفقراء الفاسيين بتطوان .
- 329 - أبو الحجاج يوسف بن يامون التيال .
- 330 - أبو الحسن علي المصيمدي .
- 330 - أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدى .
- 331 - تائية الشيخ الجعيدى .
- 335 - رثاء الشيخ أبى حامد الفاسي للشيخ الجعيدى .
- 338 - أبو الحسن علي بن الزبير السجلماسي .
- 339 - أبو عبد الله محمد مخشان .
- 339 - أبو حامد العربي الفاسي .
- 341 - أبو فارس عبد العزيز الزياتي .
- 344 - أبو عبد الله محمد المؤذن .
- 345 - الفقيه عبد الله الرثوث .
- 345 - الفقيه محمد بن يحيى المذبوحى .
- 345 - الاديب علي الشودرى .
- 347 - العلامة الصالح سيدى علي بركة .
- 348 - أوصافه
- 349 - شيوخه
- 350 - تلاميذه وعلومه
- 350 - شهرته وإجازته للاديب ابن زاكور الفاسي .
- 358 - تأليفه
- 359 - خاتمة كتاب له . وهي نصيحة عامة .
- 360 - حرصه على نشر العلم والفضيلة .
- 362 - جامع
- 362 - اعتناؤه بالامداح النبوية .
- 363 - أشعاره ومنظوماته وبعض آثاره .
- 372 - أبيات له فى بيان سمت القبلة .
- 374 - رسالة منه الى الشيخ عبد السلام القادري بفاس .

وفاته وضريحه .	377
مدحه ورثاؤه .	378
الاديب الحاج علي مندوصة .	384
الاديب محمد بن علي الرافعى .	390
رحلته المشرقية الحجازية .	391
ديوان شعره .	396
كتابه غرر المقاصد والمطالب .	406
كتابه فى الادعية والاذكار .	408
الفصل الخامس (من الباب الرابع)	411
من رحلات المشاهير الى تطوان فى القرن الحادى عشر .	411
زيارات الشيخ أبى علي اليوسى لتطوان ومدحه لاهلها .	411
ترجمة الشيخ اليوسى .	411
قصيدة للشيخ اليوسى فى مدح الجهاد والحض عليه .	412
رسالة الشيخ اليوسى الى السلطان، وفيها وصف حالة تطوان .	414
رحلة الاديب ابن زاكور الفاسى لتطوان .	416
ترجمة الاديب ابن زاكور	416
الفصل السادس (من الباب الرابع)	425
ملخص عن حالة تطوان فى القرن الحادى عشر .	425
من الناحية السياسية .	425
من الناحية العلمية والادبية .	426
من الناحية الاجتماعية .	428

الفهرس الثاني

اسماء الاشخاص - الاعلام الشخصية ، فردية وعائلية

حرف الالف

ابن ابى زرع، عبد الحلیم المؤرخ -
64 - 65 - 66 - 79 - 80
ابن ابى زرع، على بن محمد - 64
ابن ابى الصبر، الفقيه ابو يحيى - 79
ابن ابراهيم، العباس المراكشى مؤلف
كتاب «الاعلام» - 32 - 33 - 76
ابن الاحمر، ملك غرناطة - 79 - 108
ابن تاويت، محمد الاستاذ بتطوان -
188 - 212 - 213
ابن تاشفين، يوسف سلطان المغرب
والاندلس - 45 - 81
ابن ثابت، ابو بكر - 146
ابن جزى، ابو بكر - 145
ابن جلون، عبد السلام - 51
ابن الجفالة - 145
ابن الجيلانى، احمد - من علماء
فاس - 55
ابن الحاج، احمد - مؤلف الدر المنتخب -
273 - 283
ابن الحاج، العربى - الفقيه الفاسى -
349 - 350 - 356
ابن حساين، مولاى عبد الله الشيخ
الصوفى - 312

ابا حدو، صاحب غمارة - 255 - 256
257
ابو بكر ابن سحنون، 71
ابو ثابت - عامر، السلطان المرينى -
79 - 80
ابو حاجة، سيدى - من صلحاء تطوان -
423 - 429 - 430
ابو الربيع، السلطان المرينى - 80
ابو الربيع، سليمان الشريف من
زعماء فاس - 185
ابو زعامة، خديم الشيخ زروق - 356
ابو الليف، المقدم محمد - 173 - 184
ابو العباس السبتى، الشيخ الكبير -
دفين مراكش - 55 - 75 - 76
ابو عبد الله القرشى العثمانى - 73
ابو على، احمد - من زعماء اندلسيين
تطوان - 115 - 218 - 219 - 223
229 - 231 - 236
ابو على، عبد الرحمن - 288
ابو عنان المرينى، السلطان - 65
ابو يعزى، الشيخ - 430
ابن ابى بكر، يحيى بن محمد
الشريف - 291

ابن زاكور، عبد الوهاب بن محمد -
239

ابن الزبير، ابو جعفر - 146
ابن الزبير، علي السلجماسي - 338
340

ابن زكري، محمد بن عبد الرحمن -
العالم الفاسي - 362 - 363
ابن الزقاق، علي - 145

ابن زيدان، عبد الرحمن - مؤلف
«الاتحاف» 20 - 31 - 32 - 33 -
144

ابن زيدان، مصطفى ابن الكبير - 383
ابن طريقة، محمد - قاضي تطوان -
279 - 281

ابن طريقة، عبد المجيد - قاضي
تطوان - 279 - 281

ابن طريقة، سعيد بن عبد الكريم -
239

ابن طريقة، محمد بن يوسف - عدل -
282

ابن ظنو، قاسم بن علي - 239
ابن محرز، احمد العلوي - 242 -
243 - 273

ابن مرزوق، عبد القادر - الفقيه
الصالح - 49

ابن مسعود، علي - انظر الجعيدي
ابن مهدي، فارح - القائد - 316

ابن ناصر، الشيخ محمد مؤسس
الطريقة الناصرية - 55 - 312 -
349 - 408 - 412 - 414

ابن ناصر، الشيخ احمد - 312 -
393 - 394 - 395

ابن نصير، موسى - فاتح الاندلس - 64
ابن صالح، الفارس محمد - 302 -
303

ابن عاشر، عبد الواحد - العالم
الفاسي - 339

ابن عباد، المعتمد - الملك الاديب - 81

ابن حيون، عيسى - قاضي شقورة
من اعمال سبته - 77 - 79

ابن الخطيب، لسان الدين مفخرة
الاندلس - 14 - 80 - 81 - 82 -
147 - 167

ابن خلدون، عبد الرحمن - المؤرخ
الكبير - 34 - 42 - 46 - 64 -
65 - 80

ابن الخياط، احمد - شيخ علماء
القرويين بفاس - 55
ابن الدقون، الفقيه - 145

ابن راشد، مولاى علي باني شفشاون
وحاكمها وصالحها - 90 - 97 -
98 - 113 - 114 - 116 - 118 -
121 - 149 - 150 - 154 - 322

ابن راشد، مولاى ابراهيم بن علي -
113 - 115 - 118 - 122

ابن رحمون، محمد التهامي الفقيه
النسابة - 59 - 95 - 204 - 230 -
232 - 233 - 236 - 237 - 336

ابن رحمون، الطيب قاضي تطوان - 49
ابن رشد، ابو الوليد - 74

ابن ريسون، الشيخ الصالح سيدي
محمد بن علي - 55 - 389

ابن ريسون، الشيخ سيدي علي بن
محمد بن علي - 49 - 200

ابن ريسون، الحسن بن محمد بن
علي - 322

ابن ريسون، الشيخ سيدي عبد
السلام بن علي - 55

ابن ريسون، محمد بن المكي - 59

ابن زاكور، محمد بن قاسم الاديب
الفاسي - 348 - 250 - 351 -

352 - 357 - 363 - 370 - 378 -
380 - 384 - 386 - 387 - 388 -

389 - 405 - 416 - 417 - 419 -
420 - 422 - 429

ابن عبد الله، الشيخ الصالح احمد
معن الاندلسي الفاسي - 79 -
349 - 375 - 383
ابن عبد الملك، عبد القادر - 302
ابن عبد الحق، عبد العزيز بن علي
289
ابن عبد المومن الغماري، الشيخ
الصوفي - 55
ابن عبد المومن، محمد - قاضي
الجزائر - 391
ابن عبد المنعم، منصور - الشيخ
الصوفي - 310
ابن عجيبة، احمد - العلامة الصوفي
دفين انجرة - 49 - 280 - 325 -
330 - 331 - 341 - 342 - 349 -
358
ابن عجيبة، احمد بن علي - 290
ابن عدي - الحاج قاسم - 297 - 301
ابن عذارى المراكشي، 43 - 65 - 67
ابن العربي، القاضي ابو بكر - صاحب
الاحكام - 74 - 343
ابن العريف، ابو العباس - 146
ابن عزوز، محمد - وزير الخليفة
السلطاني بتطوان - 54
ابن عطية، المفسر - 74
ابن عمر، احمد - 286
ابن عمر، احمد بن عبد الرحمن - 239
ابن عسكر، محمد - مؤلف دوحه
الناشر - 41 - 117 - 118 - 120
124 - 140 - 144 - 155 - 156 -
167
ابن عسكر، القائد محمد - سفير
المغرب بلندن - 249
ابن العياشي، محمد مؤلف «زهر
البستان» 259 - 271
ابن عيسى، الشيخ محمد - صاحب
الطريقة العيساوية - 55 - 308

ابن غازي، ابو عبد الله - العلامة - 145
ابن غلبون، محمد - 356
ابن فرشيش، قاسم - والي تطوان -
253
ابن الفقيه، محمد - الشيخ الصالح - 55
ابن القاضي، احمد - مؤلف درة
الحجال ... 41 - 43 - 128 -
129 - 130 - 131 - 132 - 133 -
140 - 157
ابن القاضي، محمد شقرون - 130
ابن قريش، محمد بن سعيد بن احمد
قاضي تطوان - 278 - 281 - 427
ابن قريش، محمد بن سعيد بن قاسم
قاضي تطوان - 240 - 280 - 281 -
288 - 345
ابن سلطان، الفقيه ابو القاسم - 157
168
ابن سليمان، محمد - ناظر المواريث
297
ابن سليمان قاسم بن الحسين - 289
ابن سودة، محمد بن علي ناظر
المواريث 240 ؟
ابن سودة، الشيخ التاودي - 49
348
ابن سودة، عبد السلام - مؤلف
«دليل مؤرخ المغرب» - 140 - 146
ابن هرون، علي الفقيه - 145
ابن يعط، الحسين بن عيسى - 291
ابن يعلى، احمد - القائد الاندلسي -
66 - 67
ابن يعقوب، احمد - والي تطوان -
242 - 253 ،
ابن يعقوب، محمد - نائب قاضي
تطوان - 302
ابرييل، ابو القاسم، (بلقاسم) بن
علي - عدل - 283 - 403
الابرتير، قائد الافرنج المرتزقة
بالمغرب - 71

افيلال، مفضل - الفقيه الاديب -
I33
ايسبورو، المقيم العام الاسباني -
54
اسكلنط، محمد الهاشمي الرباطي -
362
اسماعيل بن الشريف، سلطان المغرب
العظيم - I06 - 232 - 242 - 243
- 244 - 253 - 254 - 255 - 258
- 259 - 260 - 261 - 262 - 263 - 265
- 266 - 267 - 268 - 270 - 271
- 272 - 274 - 298 - 401 - 403
- 405 - 411 - 412 - 414 - 415
اشعاش، القائد محمد بن عبد الرحمن
عامل تطوان - 49
الاشعري، ابو الحسن - امام اهل
السنة - 359
ايستون، I87

حرف الباء

الباحي، ابو الوليد - I46
باديلي، 251
البادسي، عبد الرحمن - 302 - 303
الباشا احمد، انظر - احمد بن علي
باور، اثنائيو الاسباني - I26
البجاني، علي الاندلسي التطواني -
308 - 327 - 328
بدرودى طوليدو الاسباني - II5
البرجي، احمد - 241
بردلة، العربي - قاضي فاس -
349 - 356
بركة، الحاج علي بن محمد الاندلسي
التطواني - عالم تطوان وشيخها -
79 - 257 - 274 - 275 - 312
- 324 - 347 - 350 - 351 - 357
- 358 - 360 - 362 - 365 - 368
- 372 - 374 - 378 - 383 - 390
- 391 - 397 - 402 - 404 - 414

اجانة، مسعود بن احمد - عدل -
239 - 282
احمد بن حدو القائد، والي تطوان -
253 - 254 - 255 - 258 - 259
احمد بن علي بن عبد الله، باشا تطوان
76 - I04 - I06 - 261
ادريس بن ادريس، باني فاس
وحاكمها وصالحها - 65 - 322 -
430
الادريسي، محمد - الشريف -
الجغرافي - 41 - 69 - 70 - 76
اذفال، احمد - 355
اكنسوس، محمد - مؤلف «الجيش»
في تاريخ المغرب - I44
اليزابيت، ملكة انجلترا - I94
ألفاو، الخنرال الاسباني - 54
الفارو دي باثان، الاسباني - I26
الونسو بيمنتيل، الاسباني - II5
امبراطور المغرب - 268 - 269
امبراطور فرنسا - 268 - 269
امسنو، علي بن الحاج - 239
الاندلسي، الفقيه - رئيس الطائفة
الاندلسية بمراكش I57
الاندلسي، عبد الله 290
انريكي (هنري) الثالث، ملك اسبانيا
82
انطوان طروفان، المصور - 264 -
انوار، الشيخ محمد - 307 - 308
310 - 315 - 317 - 322 - 327
335
اعراب، ابو زيد - المكناسي - 338
اعراض، القائد محمد بن يحيى - I79
اغزان، احمد - عدل - 282
الافريقي، انظر - ليون -
افيلال، المامون بن النادى - قاضي
تطوان - 358
افيلال، محمد بن الهاشمي - عدل -
254

بنونة، الحاج عبد السلام - رجل
تطوان - 162

بنونة، الحاج محمد بن العربي -
تحفة تطوان - 187

البصري، الحسن - الشيخ الجليل -
411

البسطامي، ابو زيد الصوفي - 361
بودبيرة، القائد حمو - 184 - 180
بوردان، محمد - قائد تطوان - 129
بوركيطي، المقيم العام الاسباني - 54
بوسداجة، محمد بن عبد السلام - عدل -
283 - 239

بوسجادة، محمد بن عبد المجيد - عدل -
301 - 283

بوسجادة، محمد بن احمد - 282
البياضى، ابو الحسن - 145
بيارى، الفرنسى - 62

البيدق، ابو بكر بن على الصنهاجى
مؤلف كتاب اخبار الموحدين - 71
بيلايو كنطيرو، العالم الاثرى
الاسباني - 63

بينابيديس، فرنسيسكو الاسباني -
126

بيسة، على - 301 - 300
بيشوب، 187

حرف التاء

التاجورى، ابو زيد - 157

التادلى، صاحب التشوف - 76

تاشفين بن على اللمتونى، سلطان
المغرب - 71

التباع، الشيخ عبد العزيز - 329
331

التبين، الشيخ عبد القادر من صلحاء
تطوان - 72 - 73 - 74 - 75 -
167 - 323

417 - 419 - 420 - 426 - 427 -
428 - 430

بركة، احمد - اخو الشيخ على - 367
بركة، احمد بن محمد - عدل - 283
بركة، محمد بن محمد - 349
برنكير، الخنرال الاسباني المقيم العام
لاسبانيا - 54

بروفنسال، ا. لافى - 71
بروحو، عبد الرحمن بن محمد - 51
برول، احمد - 302
البريبرى، احمد - 308 - 320 - 322
328

بريطل، عيسى بن على - عدل - 283
بريمو دى ريفيرا، المقيم العام
الاسباني - 54

بريشة، الحاج عبد الكريم - 162
البرزى، احمد - عدل - 282
البطوئى، محمد - عدل - 282
بطولومى، الجغرافى اليونانى - 63
البكرى، ابو عبيد - 42 - 65 -
68 - 69

البكرى، محمد - عدل - 282 - 290
البكرى الصديقى، ابو الحسن - 157
البكرى الكريسى، محمد - 99
بلاك، الاميرال الانجليزى - 250 - 251
بليلة ... 265 - 266

بليين، الجغرافى الرومانى - 62
بلتين بن زيرى الصنهاجى - 67
بلسل، 246

بن، وليام القبطان الانجليزى - 250
بنانى، العلامة محمد بن عبد السلام
348 - 350 - 357

بنانى، محمد بن الحسن - محشى
الزرقانى - 49 - 348

بنانى، محمد بن محمد بن حمدون
350

بنونة، الحاج العربى بن المهدي
162

الجندي، محمد وعبد الرحمن وقاسم
اولاد علي - 300 - 301

الجنوي محمد - 49

الجنيد، امام الصوفية - 359

الجعباق، بلقاسم - عدل - 282

جعفر بن علي، القائد - 67

الجعدي، الشيخ علي بن مسعود -

102 - 287 - 309 - 310 - 315

328 - 330 - 335 - 337 - 340

397 - 430

الجعدي، الحاج محمد التطواني - 99

الجعدي، الحسن آخر رجل من عائلته

بتطوان 337

جسوس، 348

جوان برلي، 275

جورج فريزويل الانجليزي، 117 -

190 - 191 - 195

جورج كالفيرط، 189

الجوطي، الشريف ادريس بن احمد

185

جون دوبا، ترجمان الاسطول الانجليزي

188 - 189 - 190 - 191 - 192

196 - 197

جون هاريسون الانجليزي، 202 -

203 - 210 - 211 - 212 - 213

220 - 221 - 224 - 226 - 227

جوهر، القائد - 67

جويد، ابو القاسم - عدل - 282

انجيلاني، الشيخ عبد القادر - امام

الطريقة القادرية - 55 - 331

جيلس ين، الانجليزي - 197 - 223

224 - 226

حرف الحاء

الحاتمي، الامام ابن عربي - الصوفي

308

الحاج، الشيخ قاسم - 322 - 323

224

التبين، محمد - والد الشيخ عبد
القادر - 73

التجاني، ابو العباس - الشيخ الجليل
55

التطواني، محمد بن ابي بكر - الفقيه
الفاضل - 81

التليدي، الشيخ يوسف - 310 - 329
331 - 335

التمجروتي، ابو الحسن - علي
الدرعي الجزولي - 159 - 160 -
161

تميم، الحاج محمد «الاول» - والي
تطوان - 261 - 262 - 263 -

264 - 265 - 266 - 267 - 272

تميم، الحاج محمد «الثاني» - 261 -
262

تميم، الحاج عاشور بن محمد - 239
التملي، الشيخ ابو يوسف - 341

توشينج، القبطان الانجليزي - 187
190 - 191 - 194 - 195

التيال، يوسف بن يامون التليدي
التطواني - 308 - 329

تيسو، المؤرخ الفرنسي - 62

حرف الجيم

الجاسوس، الشيخ المجذوب بتطوان -
41 - 117 - 156

جان ليون العاشر، البابا - 87

جان الثالث، ملك البرتغال - 120

الجرجاني، عبد الله الحافظ، 46

الجرنى، القائد الخائن - 182 - 183

الجزولي، الشيخ محمد بن سليمان
صاحب دلائل الخيرات - 329 -

331

الخطاطي، الحسن بن سعيد - 284 -
285

الجنان، ابو عبد الله - 183

- الخرشي، محمد شارح المختصر - 393
 الخطيب، موسى - قاضي تطوان - 278 - 281
 الخطيب، عبد الله بن احمد - عدل - 239 - 240 - 241 - 282
 الخطيب، محمد بن عبد الله - عدل - 282
 الخطيب، علي بن محمد - الوجيه - 76 - 325
 الخنشوف، قاسم بن سعيد - 239
 الخشيين، عيسى - عدل وقاضي بتطوان - 277 - 278 - 281 - 282 - 284
 خوان دي كورونا، حاكم سبتة - II5
 خوان اورطيس دي كويار، II5
 خوان دي اورطياثا، II5
 خوان دي بوكانيرا، II5
 خوردانا، الخنرال المقيم الاسباني - 54
 خوسي دي ايساكي، 230
 الخياري، الشيخ ابراهيم - 356
 الخياري، عبد الرحمن - 356
 الخيزران، والده الشيخ المامون السعدي - I84

حرف الدال

- داود، الحاج محمد بن الحاج عبد السلام جد المؤلف - 363
 داود، محمد بن احمد - مؤلف هذا الكتاب - 9 - 10 - 16 - 17 - 18 - 19 - 20
 الدراج، ابو عبد الله الانصاري قاضي سبتة - 77
 الدرقاوي، مولاي العربي - الشيخ الجليل - 308
 الدريج، الشيخ ابو يعلى - طلحة من صلحاء تطوان - 77 - 78 - 79
 I67 - 316 - 323 - 362 - 397
 422 - 429

- الحاج، احمد بن محمد - 239
 حاكم القصر الكبير، 320
 حاكم العرائش الاسباني، 320
 حاكم طنجة الاسباني، 230
 حاكم سبتة الاسباني، 210 - 230
 233 - 244 - 245 - 247
 حاكم البلاد الهبطية، 273
 حاكم صيدونيا، شنوثة بالاندلس - 231
 حاميم المفتري، 68
 الحايك، عبد الرحمن - قاضي تطوان 49 - 58
 الحايك، الحسن - 283 - 308 - 327 - 328
 حبيب بن يوسف الفهري، 68
 الحدادي، محمد - عدل - 283 - 300
 الحران بن الشريف العلوي، 273
 الحراق، عبد الله بن ادريس - 51
 الحريشي، الفقيه محمد - 360
 الخطاب، الشيخ بركات بن محمد - 355
 الحلبي، احمد بن عبد الحى - 258 - 404 - 405
 حماد، علي - عدل - 283
 حمزة، محمد بن ممد، 288
 حمامو، احمد بن علي - 282
 الحمامي، القائد احمد - والي تطوان 49
 حميد بن يعلى، والي تجيسات - 66 - 67
 الحساني، سليمان - 294
 الحسن بن كنون الادريسي، 67
 حسين، قائد تطوان - 128 - 129
 الحوات، سليمان - الاديب النقيب - 78 - 79 - 362
حرف الخاء
 خالد بن الوليد، 201
 خديم، محمد بن الحسن، 239

رحال، الفارس محمد بن محمد - 286
 رحال، الحاج محمد - 284
 الردام، ابراهيم بن سعيد - 286
 الردام، محمد بن احمد - 286
 الرزيني، محمد - قاضي تطوان -
 4I - 139 - 140
 الرميرس، عبد السلام - 297
 الرميرس، الحاج قاسم بن علي -
 297 - 30I
 الرضنضو، احمد بن الحسن - 24I
 الرفاس، محمد - عدل - 396
 الرفعي، محمد التاجر - 24I
 الرشاي، احمد بن عبد الرحمن -
 العالم - 49
 الرشيد بن الشريف سلطان المغرب -
 235 - 237 - 238 - 239 - 240
 242 - 253 - 257 - 274 - 4II
 4I5
 الرهوني، محمد - محشي الزرقاني
 وبناني - 28I
 الرهوني، احمد بن محمد العالم المؤرخ
 بتطوان - 3I - 32 - 37 - 39
 42 - 47 - 48 - 49 - 50 - 52
 55 - 56 - 60 - 73 - 75 - 76
 107 - 128 - 129 - 176 - 277
 278 - 279 - 280 - 322 - 324
 325 - 326 - 329 - 330 - 33I
 333 - 336 - 337 - 342 - 383
 الرهوني، الحاج محمد، 58
 روبرت مانزيل - مانسيل - الاميرال
 الانجليزي - 187 - 188 - 189
 190 - 191 - 192 - 193 - 197
 198 - 199
 روجر الثاني، صاحب صقلية - 69
 ريکار، روبرت البحاثة الفرنسي -
 113 - 118
 الريفی، موسى بن محمد - عدل -
 283

الدريج، سعيد بن محمد - 298
 الدريج، محمد بن محمد - الموزن -
 298
 الدريج، محمد - بفاس - 375
 الدلائي، محمد بن ابي بكر - 25I
 الدليرو، محمد بن عبد السلام - 5I
 موسى دغداغ، عدل - 283 - 300
 الدغمومي، محمد - عدل - 282
 الدودار، احمد بن سعيد - 239
 الدودار، قاسم بن سعيد - 339
 دوق اوف بوشنگام الانجليزي -
 210 - 227
 دوريموندي، الضابط البحري - 226
 264
 دي كاستري، هنري - البحاثة
 الفرنسي - 120 - 178 - 188 -
 229
 ديبگو دي ميراندا الاسباني - 115
 الديمانی، محمد بن احمد - عدل -
 282 - 30I
 الديمانی، محمد - 239
 دينية، علي - 365

حرف الذال

الذيب، الحاج علي - قائد تطوان -
 101 - 124 - 128
 الذيب، الحاج عمر بن الرايس علي -
 24I

حرف الراء

الرافعي، محمد بن علي التطواتي -
 27I - 312 - 324 - 350 - 367
 384 - 390 - 393 - 395 - 396
 397 - 400 - 401 - 402 - 405
 409 - 420 - 429
 الرافعي، الحاج احمد - 392
 الرثوث، الفقيه عبد الله - 345
 الرثوث، يوسف بن محمد - عدل -
 239 - 240 - 24I - 282

حرف الطاء

طانية، احمد بن محمد - عدل وقاضى
بتطوان - 279 - 281 - 282 -
285 - 338
طانية، عبد القادر بن احمد - 239
279 - 281
طانية، عبد الكريم بن احمد - 239
طاغية قشتالة، 130
الطريس، عبد الخالق - 51
طلوق، عبد الله - 283
الطنان، على - 286
الطنجى، ابراهيم بن محمد - 287
طوماس اسطون الانجليزى، 193-198

حرف الظاء

الظاهر برقوق، ملك مصر - 65

حرف الكاف والکاف

كالفين ... 206
كاسطيانوس، منويل الاسباني -
مؤلف كتاب «تاريخ المغرب»
بالاسبانية - انظر منويل
الكتانى، جعفر بن ادريس من علماء
فاس - 55
الكتانى، محمد بن جعفر - العالم
الصالح - 52 - 55 - 280 - 416
422
الكتانى، الشيخ محمد بن عبد الكبير
امام الطريقة الكتانية - 55
الكتامى، محمد بن مسعود - عدل -
282 - 286 - 287
الكحيلى، احمد بن محمد - 239
كحليين، قاسم - 241
الكراسى، ابو القاسم - بلقاسم -
محمد بن عبد الرحمن قاضى تطوان
41 - 124 - 139 - 140 - 141
144 - 145 - 146 - 154 - 155
168 - 274 - 277 - 302 - 303
323

الريفى، موسى بن احمد - 239

الريفى، الحاج على - 239

الريفى، الحاج عبد الرحمن - 239

حرف الزاى

المزدوتى، ابراهيم ابن ابى بكر
السوسى - 404
الزركلى، خير الدين العلامة الاديب
المؤرخ 69
الزرقانى، عبد الباقي - العلامة
المصرى - 361 - 392 - 393
الزرهونى، محمد - 300
رزوق، احمد الشيخ الصوفى - 145
331 - 356
الزرورى، القائد عبد العزيز - 215
زريق، احمد - 303
الزكيك، محمد بن على - 239
الزال، عبد الرحمن - قاضى تطوان
381
الزهرة، زوج الشيخ على بن راشد -
118
الزياتى، على بن محمد - عدل
قاضى بتطوان - 281 - 282 - 286
287 - 289
الزياتى، احمد بن يوسف - 308 -
315 - 316 - 327
الزياتى، الحسن - 183 - 315 -
317
الزياتى، عبد العزيز مهدى - صاحب
النوازل - 141 - 301 - 304 -
316 - 340 - 341
الزياتى، محمد - 342
زيتون، احمد - 286
زيدان بن احمد المنصور، انظر
السعدى

لوقش، عبد الوهاب - 325
لوقش، محمد بن عبد الوهاب، 325
لويس الرابع عشر ملك فرنسا، 262
263 - 264 - 265 - 266 - 267
272

لويس دي نورنهام، 191
ليون الافريقي، الحسن بن محمد
الوزان الاندلسي المغربي - 37
63 - 87 - 95 - 108 - 110 -
113 - 114 - 116

حرف الميم

مارتين فرنانديس الاسباني - 118
ماركيس دي طريس فدراس، 243
مارمول كاربخال، الاسباني - المؤرخ
64 - 83 - 109 - 113 - 114 -
116 - 125 - 126 - 127 - 128
مارينا، المقيم العام الاسباني - 54
مالك بن انس، امام المذهب المالكي
139 - 359

محمد بن المولى ادريس، صاحب
فاس - 64 - 65
محمد بن يوسف، ملك غرناطة -
65 - 99

محمد بن الشريف العلوي، السلطان
233 - 237

محمد بن مولاي اسماعيل، السلطان
273

محمد بن عبد الله العلوي، سلطان
المغرب - 53

محمد خان السلطان العثماني - 392
محمد بن ابي علي - عامل فاس - 67
محمد بن عامر المكناسي، 67
محمد بن الخير الخزري، 76
مخشان، محمد - الفقيه - 339
مدينة، محمد بن محمد - 293
مدينة، الحاج علي - 49

الكراسي، الفارس عبد الرحمن - 303
الكراسي، محمد بن الفقيه، 288 -
303

كرازو، محمد - قاضي تطوان - 49
كرومويل، الحاكم الانجليزي - 249
250

كريم، فون - البارون المستشرق
النمساوي - 70

كمون التونسي، محمد - مؤلف
جغرافية تونس - 43

كنزة، والده المولى ادريس باني
فاس - 64 - 65

كولان، جورج المستعرب الفرنسي - 41
كولبير دي كرواسي، 262 - 267
كينو، 262

كنون، الحاج محمد (كنيون) العالم
الفاسي - 55

كنون، التهامي - احد كبار علماء
فاس، 55

كنون، عبد الله - العلامة الاديب - 8-9
كرناز بن منصور، 71

حرف اللام

اللبادي، عبد الكريم بن احمد - باشا
تطوان - 53

لبارش، محمد بن موسى - 241
اللقاني، عبد السلام العلامة المصري
397

اللقنتي، محمد بن علي - 239

اللقنتي، احمد بن محمد - 299

لوك ناثانيل، القنصل الانجليزي
بتطوان - 251

لولى ... 262

لوقش، الحاج عمر - العالم الزعيم
التطواني - 49

لوقش، الحاج محمد بن عمر - والي
تطوان - 104

ملك الدانمارك، 228
 ملضنادو، على - 291
 المنتورى، 145
 المنجور، احمد - العلامة - 157
 منطورو، قاسم - 239
 المنظرى، ابو الحسن - على - القائد
 المجاهد بانى تطوان وحاكمها
 وصالحها، 53 - 83 - 87 - 90
 91 - 92 - 93 - 94 - 95 - 96
 97 - 98 - 99 - 107 - 108 - 109
 110 - 113 - 114 - 116 - 117
 121 - 123 - 124 - 144 - 165
 245 - 322 - 422 - 429
 المنظرى، الثانى - الحفيد - حاكم
 تطوان - 110 - 113 - 114 - 115
 116 - 117 - 119 - 122 - 123
 المنظرى، الثالث - حاكم تطوان - 116
 117
 المنظرى، الرابع - محمد الحسن -
 حاكم تطوان - 122 - 123
 المنصور ابن ابى عامر، 67
 المنصور، ابو العباس - احمد السعدى
 انظر «السعدى» -
 منصور بن عبد المنعم الصنهاجى -
 331
 المنصور، الحسين - 284
 المنصورى، احمد - عدل - 283
 المنصورى، احمد بن عبد القادر -
 239
 منضوصة، على - الاديب التطوانى -
 350 - 363 - 369 - 378 - 384
 386 - 389 - 417 - 419 - 420
 422 - 427
 منضوصة، الحاج محمد - 239
 المنقوشى، الحاج مسعود - 375
 المنور، محمد التلمسانى - 350

مدينة، العربى - 404
 مدينة، محمد بن احمد - 220
 المذبوحى، محمد بن يحيى الشريف -
 239 - 345
 مراد برتقيش التركى - 181
 المراكشى، المعلم محمد - 299
 المراكشى، الشيخ عبد الكريم - 361
 المربوع، الفقيه - من زعماء فاس -
 185
 مرشك، على بن احمد - 239
 المرير، محمد بن محمد - الفقيه
 التطوانى - 94 - 378
 مرين، على - 239
 المرينى، ابو عنان سلطان المغرب -
 65
 المرينى، ابو فارس - عبد العزيز
 سلطان المغرب - 65
 المرينى، السلطان ابو سعيد - 64
 المرينى، يوسف بن يعقوب سلطان
 المغرب - 76 - 80
 المرينى، السلطان احمد بن محمد
 الوطاسى - 120
 المرينى، محمد بن احمد - الثائر -
 150
 المزاح، الشيخ سلطان - 341
 المزوار، الفقيه حمدون - 349 - 356
 ملك الترك، 159
 ملك قشتالة باسبانيا، 15
 ملك اراغون باسبانيا، 15
 ملك اسبانيا، 230 - 233 - 246
 ملك فرنسا، 261 - 269 - 272
 ملك انجلترا، (بريطانيا) 190
 191 - 194 - 195 - 196 - 199
 202 - 204 - 205 - 207 - 208
 209 - 210 - 211 - 212 - 221
 222 - 223 - 224 - 227 - 228
 229 - 231

الناصرى، احمد بن خالد - مؤرخ
المغرب - 32 - 37 - 39 - 42
82 - 83 - 89 - 121 - 174 -
179 - 182 - 184 - 235 - 238
243 - 253 - 257
نرسول الانجليزى - فرنسيس 188
النعاس القيسى، ابو عبد الله محمد
99
النقسيىس، عيسى الاول - 174 - 175
207
النقسيىس، القائد محمد - 174 - 175
176 - 177 - 178 - 237
النقسيىس، المقدم احمد الاول المجاهد
الكبير - 49 - 132 - 133 - 166
173 - 174 - 175 - 176 - 177
178 - 179 - 180 - 184 - 185
186 - 187 - 188 - 189 - 190
192 - 193 - 194 - 196 - 197
199 - 201 - 202 - 204 - 223
233 - 236 - 242 - 246 - 247
248 - 315 - 425
النقسيىس، عيسى بن احمد - 174 -
202 - 219 - 220 - 223
النقسيىس، عبد الله بن احمد - 174 -
202 - 219 - 223 - 224 - 225
226 - 229 - 248 - 249
النقسيىس، محمد بن عيسى - 174 -
232 - 233 - 248 - 249 - 250
النقسيىس، عبد الكريم بن عيسى -
174 - 233 - 234 - 236 - 237
249 - 250 - 251
النقسيىس، احمد بن عبد الكريم -
174 - 234 - 236 - 237
النقسيىس، احمد الثانى بن عيسى -
174 - 236 - 237 - 238 - 251
252 - 253 - 257

المنونى، محمد بن عبد الهادى -
البجائة المحقق - 99 - 358 - 369
383
منويل كاستيانوس - المؤرخ الاسبانى
80 - 82 - 89 - 109 - 183
مصباح، سيدى - من صلحاء تطوان
49
المصيمدى، محمد بن موسى - عدل -
282 - 283
المصيمدى، الشيخ على - 330 - 397
430
المصيمدى، على بن محمد - 239
المفضل، احمد - امين السلطان
بتطوان - 130 - 161 - 244
مقدم قبيلة انجرة - 214 - 228
مقدم الخروب، 229
المقرى، ابو العباس - مؤلف نفح
الطيب 42 - 182 - 183 - 301
المهدى الشيعى، 254
المهدى بن اسماعيل العلوى، الخليفة
السلطانى بتطوان - 53
مهدى، انظر «الزياتى»
المواق، ابو عبد الله الغرناطى - 145
الموزن، محمد - الاديب - 544
الموزن، احمد بن احمد الاندلسى -
292
مورتون، البرطوس - الانجليزى
203 - 213 - 227 - 228
مومن، محمد - 293
ميارة، محمد - 356
ميلار الالمانى، 69

حرف النون

ناظر القرويين بفاس، 89
ناصر، محمد بن محمد - 239

عبد الكريم بن ثعلبة، عامل فاس - 67
عبد الرحمن الناصر، ملك الاندلس -
66 - 67

عبد المومن بن علي، سلطان المغرب -
71

عبد الرحمن بن هشام، سلطان
المغرب - 49

عبد الله بن سليمان، القائد - 71
عبيس، عبد الله - 241

عثمان بن عفان، خليفة رسول الله
73 - 326

العراقي، الحافظ - 348

العربي، سليمان بن محمد الاندلسي
290

العربي، علي - عدل - 282

عروج، الرئيس البحري - 292

العزفي، ابو القاسم - امير سبتة - 77
عزوز، محمد - 51

عزيمان، محمد بن علال - 51

الطار، الفقيه محمد بن محمد - 58
59

عظيم الروم، 267

العلاج، عبد الرحمن - قائد تطوان -
129 - 174

العلمي، محمد بن الطيب الاديب
الفاسي - 349 - 350 - 381 -

382 - 383 - 384 - 389 - 416

العلمي، الشريف صاحب النوازل -
281

العلمي، محمد بن احمد - الفقيه
الفلكي، 372

العلوي، مولاى الطيب - 51 - 52

علي بن معاذ، القائد - 66

علي بن احمد الصرصري، الشيخ
الصوفي - 426

النقسي، مفضل - 174 - 242 -
244

النقسي، عيسى بن عبد الله - 273
نوار، انظر - انوار

النيار، محمد بن موسى - 293

حرف الصاد

الصبان، محمد - قائد تطوان - 129
الصبان، الحاج احمد - 377

الصحاف، محمد - 241

الصدفي، ابو علي - المحدث - 146
173

صطيلة، قنصل فرنسا بالمغرب - 272
الصنهاجي، محمد (ماني) - 55

الصعيدى، سيدى السعيدى - انظر
السعيدى

صويلح، قاسم بن علي - 293

حرف الضاد

الضعيف، المؤرخ الرباطي - 58

حرف العين

عائشة ابنة الشيخ علي ابن راشد
«الست الحرة» حاكمة تطوان -

113 - 116 - 117 - 119 - 120

121 - 122 - 123 - 154 - 165

عائشة ابنة احمد والدة المؤرخ ابن
عسكر 120

عاذل، محمد بن علي - عدل - 282

العاقل، محمد - عدل - 282 - 287
289

العاقل، علي بن محمد - عدل - 282
عاشر، قاسم - 239

عاشر، محمد - قائد تطوان - 104

عبادة بن الصامت، الصحابي - 78

عبد السلام بن مشيش، شيخ الشمال

المغربى - 55 - 79 - 90 - 305

369 - 430

على بن عبد الله، والى تطوان وشمال
المغرب - 254 - 255 - 258 - 259
261 - 266 - 270 - 271 - 273
275

على بن موسى السوسى، 204
عمر المرتضى، من ملوك الموحدين - 77
عمر بن حدو الريفى، قائد المجاهدين
254 - 255 - 259 - 260 - 261
271

عمير، محمد بن الحسين - 241
عسيران، الاستاذ حسن اللبناني - 188
عياد، محمد - 290
عياض، القاضى ابو الفضل - 74 - 159

العياشى، محمد - الشيخ المجاهد
بسلا - 173 - 212 - 213 - 214
215 - 217 - 220 - 221 - 225
229 - 231 - 233 - 235 - 237
247 - 248 - 249 - 250
العياشى، ابو سالم - صاحب الرحلة
العياشية - 349 - 355 - 411
عيسى ابن ابى الانصار، ملك برغواطية
بالمغرب - 67

حرف الفين

الغازى، محمد بن محمد الفاسى - 239

الغافقى، ابو الحسن - 146
غرسون (گارسون) ادموند القنصل
الانجليزى - 191 - 192 - 193
196

غرسيا دى طوليدو، 126
الغزالى، الامام ابو حامد - 74
الغزال، الرايس - 115
الغزوانى، مولاى عبد الله - 251 - 329
331 - 361
الغزوانى، صاحب الخضر غيلان -
234 - 236 - 237

غزيل، المعلم محمد - 294
غلايب (غليب) عبد الله بن قاسم - 290
غليوم الثانى، امبراطور المانيا - 53
غيلان، المقدم الخضر - 173 - 229
234 - 235 - 236 - 237 - 242
243 - 244 - 247 - 250 - 251
252 - 260 - 273 - 274 - 275

حرف الفاء

الفاسى، ابو المحاسن - الشيخ الكبير
55 - 78 - 143 - 280 - 307
309 - 310 - 311 - 316 - 317
318 - 319 - 320 - 322 - 327
328 - 329 - 335 - 339

الفاسى، ابو زيد العارف - عبد
الرحمن بن محمد - 78 - 308 -
318 - 328 - 338 - 341

الفاسى، ابو حامد - العربى بن
يوسف - العلامة - 38 - 41 -
59 - 78 - 86 - 90 - 91 - 92 - 95
96 - 97 - 109 - 113 - 116
121 - 143 - 279 - 281 - 307
308 - 309 - 311 - 315 - 316
318 - 320 - 321 - 329 - 335
338 - 339 - 340 - 341 - 346
الفاسى، الحافظ - احمد بن يوسف
183

الفاسى، عبد القادر - علامة فاس
308 - 338

الفاسى، محمد بن عبد القادر - العلامة
59 - 78 - 116 - 348 - 349
350 - 354 - 357 - 360
الفاسى، عبد الرحمن بن عبد القادر -
العلامة - 145 - 308 - 310 - 311
316 - 317 - 320 - 321 - 327
329 - 335 - 336

الفشتالي، الاديب محمد بن علي -
 I32 - I34 - I35 - I60 - I61
 الفشتالي، ابو القاسم - الغول - 340
 الفونسو البرتغالي، حاكم سبتة -
 I20
 الفونسو الثالث عشر، آخر ملوك
 اسبانيا - 52
 الفيلاي، الشيخ احمد دفين غمارة -
 I80 - 316

حرف القاف

قائد سبتة العام، I27
 القادري، محمد بن الطيب - مؤلف
 «نشر المثاني» - I59 - I82 -
 238 - 258 - 261 - 316 - 317
 321 - 348
 القادري، عبد السلام بن الطيب -
 361 - 374
 القادري، احمد - 375
 القادري، العربي - 375
 القادري، محمد - 55
 قاضي انجرة، 244
 القاسم بن المولي ادريس - 64 - 65
 66
 قبريرة، محمد الاندلسي - 241 -
 288
 قبطان الجزائر، I60
 القبطان جون الالمانى - 215 - 216
 القر، علي بن محمد - عدل - 239
 283
 قرضناش، محمد - 404
 قرضناش، احمد بن قاسم - 239
 القطان، محمد - 220
 القطان، عبد الرحمن - 51
 قلينة، محمد - 241
 قمر، محمد بن محمد الاندلسي - 285
 القناوي، محمد - 94
 قنصل فرنسا بتطوان - 275

الفاسي، المهدي بن احمد - مؤلف
 «ممتع الاسماع» - 317 - 320 -
 329
 الفاسي، ابو مدين التطواني - 346
 الفاسي، عبد الوهاب بن العربي
 قاضي تطوان - 280 - 281 - 426
 الفاسي، عبد الله بن محمد - 279
 الفاسي، عبد العزيز بن علي - 239
 الفاسي، احمد بن يوسف التطواني -
 346
 الفاسي، عبد الحفيظ الفقيه القاضي
 59
 الفاسي، علال بن عبد الواحد - 307
 الفاسي، محمد العابد بن عبد الله -
 I47 - 281
 الفتوح، محمد - عدل - 282
 الفحل، الشيخ علي - من صلحاء
 تطوان - I24 - I44 - I46 - 323
 397 - 430
 الفخار، ابو عبد الله من صلحاء تطوان
 73 - 74 - 75 - 76 - I67 - 323
 فراي سيباستيان، II5
 فرج، احمد - 291
 الفردال، ابراهيم بن قاسم - 241
 فرشيش، قاسم - والي تطوان - 242
 فرناندو، علي - II5 - II8
 فرناندو، الكاثوليكي ملك اسبانيا - 95
 الفضيلي، محمد - 302
 الفلوسسي، الحاج - I30 - I31
 فليب الثاني، ملك اسبانيا - I25 -
 I26 - I29 - 270 - 429
 فليب الثالث، ملك اسبانيا - I79 -
 I81 - 246 - 249
 الفقاي، عبد العزيز - 262
 الفشتالي، عبد العزيز - الاديب مؤلف
 «مناهل الصفا» - 43 - I30 -
 I31 - I33 - I44

السعدى، محمد القائم بأمر الله - 125
السعدى، احمد الاعرج سلطان المغرب
125

السعدى، محمد الشيخ المامون سلطان
المغرب - 125 - 178 - 179 - 180
181 - 182 - 183 - 184 - 246
247 - 249 - 337

السعدى، محمد الغالب بن محمد
الشيخ سلطان المغرب - 126 - 128
السعدى، عبد الله بن الشيخ المامون -
178 - 179 - 185 - 192 - 194
199 - 200 - 202

السعدى، احمد المنصور - سلطان
المغرب وبطل وقعة وادى المخازن -
129 - 130 - 131 - 132 - 134
159 - 161 - 162 - 174 - 176
178 - 186 - 425

السعدى، السلطان زيدان بن احمد
المنصور - 178 - 179 - 200 -
202 - 203 - 204 - 205 - 208
209 - 210 - 211 - 213 - 214
215 - 217 - 246 - 247 - 337
السعدى، محمد زغودة بن محمد الشيخ
200

السعدى، ابو فارس - 178
السعدى، عبد الملك - 204
السعيدى، سيدى - صالح تطوان -
91 - 102 - 222 - 223 - 224 -
225 - 226 - 229 - 297 - 429
430

سفير انجلترا، 247
السوسى، المختار - العلامة الاديب
نابغة سوس - 9 - 70 - 167
سيباستيان دى برنكاش - 120 - 121

حرف الشين

الشاذلى، ابو الحسن - شيخ الصوفية
331

القسنطينى، ابو القاسم 41
قشطلى، الحاج محمد بن على - 239
قشطلى، احمد بن محمد - 239
قومندان الاسطول البريطانى - 203

حرف السين

السبتى، انظر - ابو العباس
الست الحرة، انظر - عائشة ابنة على
بن راشد -
السرايرى، الفقيه احمد التطوانى -
358

سرديرة، كليمنطى - المترجم الاسباني
175 - 176 - 177 - 185 - 233
234 - 236 - 237 - 242 - 243
274

سركيس، يوسف - 70
سكيرج، عبد السلام - مؤلف «نزهة
الاخوان فى تاريخ تطوان» - 37
39 - 40 - 47 - 48 - 49 - 58
60 - 86 - 89 - 93 - 94 - 95
96 - 97 - 101 - 114 - 124 -
128 - 129 - 174 - 175 - 176
182 - 232 - 233 - 234 - 243
253 - 274 - 280 - 309 - 310
323 - 324 - 325 - 326 - 336
429

سكيرج، محمد بن العياشى - الفقيه
الاديب - 43 - 48

السكيرج، محمد التاجر - 291
السلباج، احمد - 289
سليمان بن يوسف، مقدم الخروب
ووالى تطوان - 229 - 231
السماوى، المختار التونسى - 43
السمعانى، محمد - 308 - 321 - 328
السنوسى، الامام ... 342
سنيللى، الوزير الفرنسى - 265 -
267

ودنسكرك، البحار الانجليزى - 187
 الورزازى، محمد بن على - 348
 الوزان، الحسن بن محمد - انظر
 ليون الافريقى
 الوزانى، الشيخ محمد - 55
 الوزانى، الشيخ المهدى - 55
 الوزانى، التهامى بن عبد الله - رجل
 العلم والفضل - 9 - 19 - 21 -
 43 - 148 - 151 - 156 - 160
 169 - 230 - 232 - 235 - 270
 الوزير، محمد (حم) بن عبد الوهاب
 مؤلف «رحلة الوزير» - 405
 الوزير، احمد - 375
 الوطاسى، السلطان محمد الشيخ -
 15 - 89 - 90 - 107 - 109 -
 110 - 147 - 148 - 178
 الوطاسى، محمد بن الشيخ - 151
 الوطاسى، الامير يحيى بن محمد
 الشيخ - 149
 الوطاسى، السلطان احمد بن محمد
 بن محمد الشيخ - 117 - 118
 119 - 120 - 121 - 122 - 125
 153 - 154 - 155 - 165
 الوطاسى، السلطان ابو حسون على
 بن محمد - 153
 الوطاسى، الامير زيان بن محمد
 الحلو - 150
 الونشريشى، القاضى عبد الواحد
 121
 الونشريشى، ابو العباس صاحب
 المعيار - 145
 الوسخ، قائد تطوان - 128 - 129

حرف الياء

يحيى بن توكرورين، القائد - 71
 يحيى بن عبد المنعم الحاحى - 247
 يحيى بن عبد الله السوسى - 204

الشارب، احمد - عدل - 282
 شارل الاول، ملك انجلترا - 211 -
 212 - 213 - 218 - 221 - 222 -
 223 - 225 - 231 - 248
 شارل بنز الفرنسى - مؤلف كتاب
 «ملوك فرنسا والمغرب» 261-262
 الشاط، المقدم الحاج على - 239
 الشاعر، الشيخ احمد اليجمى - 155
 الشاوى، يحيى - 393
 الشاوى، ابراهيم - 361
 الشبرخيتى، العالم المصرى - 393
 شرلكان، 15
 الشرقى، محمد بن عبد الرحمن - 239
 الشريف بن على جد العائلة العلوية
 الشريفة بالمغرب - 237 - 239
 شندير، احمد بن سعيد - 299
 شطير، الاديب عبد الله - 377
 الشودرى، ابو يعقوب التطوانى -
 419 - 421
 الشودرى، يوسف بن محمد - 239
 الشودرى، الاديب على بن محمد
 عدل - 239 - 282 - 345
 الشودرى، محمد بن محمد - 239
 الشويطى، محمد بن محمد - 239
 الشيبو، قاسم - عدل - 282 - 329

حرف الهاء

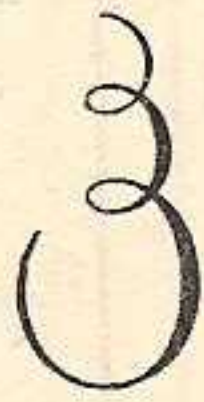
الهادى، الحسين - عدل - 251
 هاريسون، انظر - جون ...
 الهالى، ابو العباس - 348
 هنرى ماينوارينج - 187
 الهوارى، عبد السلام - من علماء
 فاس - 55

حرف الواو

والتر اسطون الانجليزى - سفير
 انجلترا بمدير - 188 - 189 -
 190 - 192 - 197

مؤلف «الصفوة» - 159 - 182 -
 183 - 280 - 312 - 321 - 330 -
 335 - 411
 اليوسفي، الشيخ علي - 49
 اليوسفي، ابو علي - علامة المغرب -
 37 - 38 - 39 - 40 - 42 - 43
 312 - 348 - 349 - 350 - 354 -
 408 - 409 - 411 - 414 - 427

يزيد بن معاوية الاموي - 257
 اليزيد بن محمد بن عبد الله - سلطان
 المغرب - 75
 اليمنى، الشيخ احمد نزيل لفاس - 375
 بعقوب المنصور الموحدى - 254
 يعقوب، محمد - نائب قاضى تطوان
 277 - 278 - 281
 اليفراني، محمد الصغير بن محمد -



الفهرس الثالث

لاسماء البلدان والامكنة الجغرافية

مدن - قبائل - معاهد

حرف الالف

اسفى، مدينة مغربية على المحيط
الاطلسى - 212 - 216
ابو قير، فى القطر المصرى - 392
اداوزدوت، فى سوس - 404
ارلندا، 223
ارض البربر، اراضى - 186 - 187
207 - 213 - 226 - 228
ارض طرابلس، 145
الازهر، الكلية الدينية بمصر - 384
392 - 393
اتكادير، ميناء مغربى على المحيط - 83
اليكانطى، بلد بالاندلس - 188
190 - 191
امسا، بقبيلة بنى سعيد الجبلية -
242
الاناضول، فى بلاد تركيا - 392
انجلترا، ارض - دولة - شعب -
190 - 191 - 192 - 197 - 198
199 - 202 - 203 - 206 - 207
212 - 214 - 215 - 216 - 218
223 - 237 - 246 - 247 - 248
249 - 250 - 251 - 258 - 260

اجرة، قبيلة جبلية بين سبتة-طنجة
تطوان - 214
الاندلس، الفردوس الاسلامى المفقود
باسبانيا 15 - 49 - 60 - 65 - 66
73 - 75 - 78 - 81 - 83 - 85
86 - 87 - 88 - 90 - 95 - 100
108 - 109 - 118 - 135 - 140
146 - 151 - 166 - 181 - 227
260 - 305 - 429 - 431
اندرائوش، بالاندلس - 88
انفا، الدار البيضاء بالمغرب - 83
اصيلا، ميناء مغربى على المحيط -
46 - 82 - 83 - 99 - 113 - 114
123 - 153 - 187 - 225 - 235
245 - 255 - 258 - 401
اصطانبول، 45 - 160
اعمال (أحواز) سبتة - 78 - 79
اغطاس، مكان بتطوان - 104
اغمت، مكان قرب مراکش - 82
افريقيا، 46
افينيون، بلد بفرنسا - 264
الاقامة العامة لاسبانيا بتطوان - 175
اقليم غرناطة، 320
اقليم سوس، 404
الاقواس الاثرية بتطوان - 94

الباب السفلى بتطوان - 92 - 104
 باب الشريعة بفاس - 154
 بابيلون - 206 - 209
 بادية سبتة - 78
 باديس، من بلاد الريف الوسطى -
 166 - 179
 باريس، عاصمة فرنسا - 42 - 80
 87 - 108 - 175 - 217 - 262
 263 - 264
 بالرماء، في جزيرة صقلية التابعة
 لاطاليا - 69
 البحر الابيض المتوسط - 44 - 46
 63 - 89 - 104 - 126 - 210
 249 - 251 - 268 - 290
 البحر الشمالى - 70
 بحر الزقاق - 130
 البحر الغربى - 68
 بربرة، بالاندلس - 88
 البرتغال، ارض - بلاد - شعب -
 دولة - 247 - 270
 برج امسا، في قبيلة بنى سعيد -
 242
 برج البحر، بطنجة - 271
 برج الحراسة بتطوان - 94
 برج راس الطرف - 242
 برج الصفيحة بطنجة - 271
 برج القصبة بتطوان - 92
 برجه بالاندلس - 88
 البريجة، هي الجديدة بالمغرب - 245
 بلاد البربر - 187 - 191 - 199 -
 200 - 208 - 209 - 216 - 226
 227
 بلاد الريف - 179
 بلاد مصمودة - 64
 بلاد المغرب - 37 - 71 - 186 - 204
 229 - 238
 البلاد المشرقية - 130

اسبانيا، دولة - شعب - قطر - 44
 53 - 83 - 89 - 125 - 175 - 179
 181 - 188 - 190 - 192 - 202
 203 - 204 - 205 - 206 - 208
 209 - 213 - 214 - 220 - 226
 227 - 228 - 246 - 247 - 248
 249 - 250 - 251 - 258 - 270
 429 - 431
 الاسكندرية، 395
 اشبيلية، 15 - 65 - 66 - 115 - 126
 اوربا، 159
 ايطاليا، 87

حرف الباء

باب اغمات بمراكش - 134
 باب التوت بتطوان - 102 - 103
 104 - 298 - 309
 باب الجياف بتطوان - 91 - 102 -
 104
 باب الحديد بتطوان - 294
 باب الرموز بتطوان - 73 - 75 -
 101 - 104 - 295
 باب محروق بفاس - 81 - 104
 باب المقابر، باب الربض بتطوان -
 90 - 92 - 102 - 104 - 108
 124 - 144 - 145 - 146 - 274
 330 - 342
 باب النوادر بتطوان، آخر شارع
 العيون - 77 - 78 - 93 - 102 -
 103 - 104 - 309 - 316 - 342
 362 - 422
 باب العقلة بتطوان - 73 - 101 - 104
 باب الفتوح بفاس - 322
 باب القاعة بتطوان - 274
 باب السعيدة بتطوان - 102 - 140
 2197

بوغاز جبل طارق - 46 - 63 - 126
270 - 250

بوسافو، بضواحي تطوان - 294
بيروت، عاصمة لبنان - 80 - 175

حرف التاء

تادلا، من بلاد المغرب - 134 - 178
تارغة، مدشر في غمارة - 113 -
114 - 180 - 229 - 230

تارودانت، من بلاد سوس - 273 - 404
تازروت، في قبيلة بني عروس - 322 -
389

تازة، من بلاد المغرب الشرقي - 82 -
243

تامغريت، في شمال المغرب - 71 -
تامسنا، من بلاد المغرب - 67 - 148
تافيلالت، من بلاد المغرب - 237 -
تجيسات، 66 - 67 - 180

تركياء، بلاد الترك - 45 - 105 -
106 - 159

تطوان دي لاس فكتورياس باسبانيا
44

تلمسان، من بلاد الجزائر - 65 -
168 - 178 - 182

تمسمان، من قبائل الريف - 253 -
تمودة، مكان اثرى قرب تطوان - 62 -
63

تفزة، مدشر بغمارة - 180 -
تونس - 15 - 26 - 43 - 44 -
45 - 65 - 182 - 186 - 222 -
223 - 268

تيط، من بلاد المغرب - 82

حرف الجيم

الجامع الكبير، المسجد الاعظم بتطوان
92 - 93 - 201

بلاد العروبة، البلاد العربية - 27 -
105 - 44

بلاد الغرب - 235
بلاد غمارة، ارض غمارة - 68 - 229 -
230

بلاد السودان - 44
بلاد الهبط، البلاد الهبطية - في شمال
المغرب - 109 - 149 - 235 -
237 - 244 - 258

بلوازن، مدشر في حوز تطوان - 68
بولونيا - 87

بني بوزرة، قبيلة غمارية بشمال
المغرب - 180

بني حزم، قبيلة جبلية قرب تطوان
155 - 289

بني رزين، احدى قبائل غمارة - 140
بني زيات، احدى قبائل غمارة - 180 -
257 - 316

بني كرفط، قبيلة جبلية بشمال
المغرب - 235

بني عروس، قبيلة جبلية - 160
بني سناد، قبيلة قديمة بشمال
المغرب - 71

بني سعيد، قبيلة جبلية - 71 - 88 -
160 - 180 - 242

بني يجم، هي قبيلة بني حزم - 155 -
289

الپنيون، انظر حجرة باديس
البصرة، مدينة قديمة كانت بشمال
المغرب وقد اضمحلت - 65 - 67

بقيوة، بقوية - قبيلة بالريف - 146
بساتين، ابراج - طنجة - 260

بسطة، بالاندلس - 88 - 320
بوخلاد، مدشر في قبيلة بني حزم
155 - 156

بوله، بالاندلس - 88

جبل القصبة بتطوان - 92 - 93 - 94
103

جبل الشوك، بشمال المغرب - 68
جبل يكاثل بشمال المغرب - 71
الجديدة، ميناء مغربي على المحيط -
83 - 99 - 123 - 187

الجزائر، عاصمة القطر الجزائري
على البحر الابيض المتوسط - 16
26 - 42 - 44 - 45 - 65 - 66
125 - 126 - 160 - 186 - 189
193 - 194 - 222 - 223 - 235
242 - 243 - 244 - 268 - 345
351 - 391 - 393 - 395 - 416
الجزيرة الخضراء بالاندلس - 53 -
67 - 73 - 118

جزيرة الخزامى، بالريف - الحسيمة
250

جزيرة مليحة بالمغرب ؟ 148

حرف الحاء

حاحة، قبائل مغربية في الجنوب
الغربي - 151

الحجاز، في بلاد العرب - 393
حجر النسر في شمال المغرب - 64
65

حجرة بادس، جزيرة في البحر
الابيض المتوسط - 130 - 245
حدود تطوان سبتة - 244

حلق الوادي، شاطئ تطوان على
البحر الابيض المتوسط - 391 -
395

حمام سيدي المنظري، الحمام
السطيطو - 93

حمراء غرناطة بالاندلس - 15

حصن تطاون - 70

حصن طنجة - 260 - 271

حصن مرتيل بالاندلس - 88

حصن موجر بالاندلس - 88

جامع السوق الفوقي بتطوان -

جامع سيدي بركة - 362 - 377

جامع العيون، مسجد - جامع سيدي

الجعدي بتطوان - 102 - 286

287 - 289 - 290 - 292 - 309

310 - 330 - 336 - 337

جامع المصيمي، المسيندي بتطوان -

298 - 299 - 330

جامع القرويين بفاس - 185 - 387

411

جامع الاشراف بمراكش - 411

جبال بني حزم، امام تطوان - 100

جبال تطوان - 67

جبال الريف - 179 - 337

جبال غمارة - 68

جبانة (مقبرة) باب الربض بتطوان -

145

جبل اشقار، قرب تطوان - 68

جبل حاميم - 68

جبل حبيب بن يوسف الفهري بشمال

المغرب - 68

جبل الدرقه بشمال المغرب - 68

جبل درسة، جنب تطوان - 91 - 94

101 - 103

جبل راس الطرف، بين سبتة وتطوان

325

جبل راس الثور، بشمال المغرب - 68

جبل طارق، على البوغاز بين المحيط

الاطلسي والبحر الابيض المتوسط

126 - 127 - 131 - 188 - 189

191 - 197 - 198 - 203 - 208

209 - 226 - 228 - 250 - 258

270

جبل عرفة - 394

جبل العلم، في قبيلة بني عروس

بشمال المغرب - 160

جبل علودان، بشمال المغرب - 79

الخزانة الكتانية بفاس - 59 - 338
 الخزانة المئوية (مكتبة ابن غازي)
 بمكناس - 59 - 99
 الخزانة الفاسية بفاس - 59 - 147
 خندق الفرجة، مدشر حول تطوان
 78

حرف الدال

دار بن قريش - مدشر قرب تطوان
 - 155
 دار الباروت بطنجة - 260
 الدار البيضاء - ميناء المغرب على
 المحيط الاطلسي - 17 - 32 - 46
 - 82 - 83 - 99 - 123
 دار المخزن - مقر حكومة المغرب -
 103 - 104
 دار موث - ميناء بانجلترا - 224
 دار القائد المنظري بتطوان - 94
 دار القيظون بفاس - 185
 دار السكة بتطوان - 94
 الدباغين بتطوان - 101
 دبدو - مدينة مغربية شرقي تازة -
 150 - 243
 درب صمعان بتطوان - 94
 الدردارة - بضواحي تطوان - 294
 درعة في الجنوب المغربي - 125 - 411
 درسة - جبل جنب تطوان - 15
 دمشق - قاعدة بلاد الشام - 417
 دنكر DONKERQUE ميناء بشمال
 فرنسا - 216
 دقم الواد - شاطئ تطوان - 126
 دونس DOWNS من بلاد انجلترا 228
 دوفر DOVER ميناء انجليزي - 213
 الديار الفرنسية - 263

حرف الراء

رأس الطرف - قرب شاطئ تطوان -
 63 - 242 - 420

حوز تطوان - 155
 حومة البلد، الجامع الكبير - الجامع
 الاعظم المسجد الاعظم - 91 - 92 -
 93 - 103 - 104 - 302
 حومة جامع القصبة - 76 - 91 - 93
 حومة الجنوي بتطوان - 91 - 92 -
 101
 حومة الربض الاسفل، الرباط
 السفلى بتطوان - 91 - 100 - 104
 حومة الطالعة بتطوان - 101 - 124 -
 128
 حومة الطرنكات بتطوان - 101 - 102
 103 - 104 - 298 - 330
 حومة الملاح بتطوان - 104
 حومة المصلى القديمة بتطوان - 101
 I 102
 حومة الصياغين بتطوان - 103
 حومة العيون بتطوان - 58 - 101 -
 102 - 103 - 140 - 182 - 307
 308 - 309 - 310 - 336
 حومة السانية بتطوان - 182
 حومة سانية الرمل - 104
 حومة السويقة - 72 - 73 - 102
 حومة سيدي عبيس - 101
 حومة سيدي طلحة - 104

حرف الخاء

الخزانة الاحمدية (السودية) بفاس -
 59 - 140 - 279 - 345
 الخزانة الاسكوريالية باسبانيا - 71
 الخزانة التطوانية بسلا - 59 - 145
 الخزانة الداودية بتطوان - 52 - 59
 77 - 82 - 141 - 259 - 333 -
 342 - 358 - 396 - 416
 الخزانة الزبيدية بالرباط - 59
 الخزانة الزيدانية بمكناس - 59 -
 383

زنقة المقدم بتطوان 101 - 103 -
104 - 133
زنقة القائد احمد بتطوان - 253
زنقة حمام امحلى - 94
زيانة - من ضواحي تطوان - 294 -
297

حرف الطاء

الطالعة، بتطوان 101 - 103 -
طرابلس - 44
طريف (طريفة) بالاندلس - 127
الطرنكات - حومة بتطوان - 254 -
284 - 299 - 300
طنجة، ميناء مغربي في شمال المغرب
16 - 17 - 46 - 53 - 64 - 65 -
66 - 79 - 80 - 82 - 83 - 89 -
99 - 106 - 107 - 108 - 109 -
123 - 182 - 183 - 184 - 186 -
194 - 195 - 198 - 199 - 200 -
204 - 214 - 219 - 228 - 230 -
235 - 236 - 245 - 247 - 251 -
252 - 258 - 259 - 260 - 261 -
270 - 397 - 401 - 407 -
الطوابل من بساتين تطوان - 58
طولون، ميناء بجنوب فرنسا - 272

حرف الظاء

ظاهر سبتة - ضواحيها 133

حرف الكاف

كلية القرويين - 431
كيتان - من بساتين تطوان - 241 -
293 - 289 - 417 - 420

حرف اللام

لكوس - نهر في شمال المغرب - 148
لندن - عاصمة بريطانيا - 249
لوشة - مدينة بالاندلس - 81

رأس ورغة - من بلاد المغرب - 258
الرباط - رباط الفتح - عاصمة المغرب
الآن 16 - 17 - 33 - 41 - 46 -
123 - 179 - 213 - 337 - 365
رباط الاندلس بتطوان 102 - 182 -
الربض الاعلى بتطوان 101 - 102 -
103 -

الربض الاسفل - السفلى - الرباط
السفلى بتطوان 100 - 103 -
295

رندة - من بلاد الاندلس 16 - 88
رشيد - من بلاد مصر - 392 - 395
رواق المغاربة - في القاهرة - 392 -
393

رودس - جزيرة قرب الاناضول من
بلاد تركيا 392

روما - عاصمة ايطاليا - 87
روضة البقيع - مقبرة المدينة المنورة
394 -

روضة القاضي عياض بمراكش - 159
روضة سيدى طلحة بتطوان - 316
الريف - 146

حرف الزاي

الزاوية الناصرية بتطوان 91 - 92 -
312 - 313

الزاوية الفاسية بتطوان 307 - 308 -
309 - 310

الزاوية الريسونية بتطوان 93 -
الزاوية العيساوية بتطوان 58 -
زاوية سيدى على بن مسعود الجعيدى
309 - 336

زاوية سيدى السعيدى 324 - 329
زاوية سيدى ابن الفقيه بتطوان 91 -
الزاوية الدلائية 411 -

زاوية سيدى احمد الفيلالى بغمارة
180

مرسى موسى - بشمال المغرب - 68
 مرشان، بطنجة - 260
 مطامير الاسارى الاجانب بتطوان - 109
 المطبعة المهدية بتطوان - 9 - 19
 المطمر بتطوان - 92 - 103 - 290
 مكة المكرمة - 391 - 394
 المكتبة الملكية ببائيس - 263
 مكناس، عاصمة المغرب فى القديم
 - 17 - 20 - 33 - 46 - 82 - 99
 - 106 - 131 - 134 - 140 - 178
 271 - 367 - 369
 الملاح البالى، حومة بتطوان - 102 -
 103
 الملاح، حارة اليهود بتطوان - 101 -
 102 - 103 - 104
 ملوية، نهر فى الشمال الشرقى
 بالمغرب - 243
 مليلية، ميناء فى الشمال الشرقى
 بالمغرب - 46 - 89 - 186 - 245
 258
 منى، موضع قرب مكة - 394
 المنجرة، حومة بتطوان - 73 - 101
 294 - 295
 المنطقة السلطانية - 47
 المنطقة الخليفية - 47 - 258
 منطقة الحماية الاسبانية (المنطقة
 الاسبانية) المغرب الاسبانى - 47
 منطقة الحماية الفرنسية (المنطقة
 الفرنسية) المغرب الفرنسى - 47
 المنظر، حصن بالاندلس - 107
 مصب واد مرتيل، نهر تطوان - 125
 - 126 - 127
 المصدع، موضع بتطوان، 101
 مصر، بلاد فى الشمال الشرقى للقارة
 الافريقية - 32 - 42 - 52 - 65
 - 106 - 182 - 301 - 345 - 361
 391 - 393 - 395 - 412
 المصلى القديمة، حومة بتطوان - 101
 - 295

ليدن - مدينة بهولندا - 43 - 65 -
 67 - 69
 ليون - مدينة بفرنسا - 264

حرف الميم

الماء الحايل - فى شمال المغرب - 327
 مالطة، جزيرة فى البحر الابيض
 المتوسط - 395
 مالقة، ميناء اندلسى على البحر
 الابيض المتوسط - 16 - 189 -
 191 - 194 - 197 - 210
 ماس الكبير، مرفأ فى شمال افريقيا
 - 186
 متحف تطوان - 62
 مجكسة، قبيلة بربرية كانت حول
 تطوان - 68 - 70
 مجلس الشورى (البرلمان) الانجليزى
 - 222 - 225 - 226
 المحكمة الشرعية بتطوان - 94
 المحيط الاطلسى - 44 - 46 - 254 -
 270
 المدرسة الاهلية بتطوان - 9 - 19 -
 51
 مدريد، عاصمة اسبانيا - 44 - 188
 - 189 - 196 - 230 - 231 - 293
 مدينين، قرية فى الجنوب التونسى - 44
 المدينة المنورة، 391 - 394 - 395
 مراکش، عاصمة المغرب فى القديم -
 - 17 - 32 - 33 - 44 - 45 - 46
 - 47 - 70 - 76 - 81 - 82 - 106
 - 134 - 151 - 152 - 153 - 160
 - 176 - 178 - 179 - 200 - 202
 - 246 - 286 - 411
 المرة، من ضواحي تطوان - 309 - 316
 مرج حسين، خارج تطوان - 288
 مرنة الدريج، خارج تطوان - 294
 مرسيليا، ميناء فرنسا على البحر
 الابيض - 264

مصلى باب المقابر بتطوان - 58
 مصمودة، فى شمال المغرب - 214
 مصيف تطوان، 421
 مضيق جبل طارق «فم المضيق» قرب
 سبتة - 207 - 209 - 213 - 217
 - 222 - 224 - 226 - 228
 مضيق سبتة - 67
 المعمورة (المهدية) ميناء مغربى على
 المحيط الاطلسى - 151 - 123 -
 152 - 186 - 203 - 208 - 209
 - 214 - 215 - 217 - 220 - 226
 - 245 - 254 - 255 - 258 - 401
 - 408
 معسكر سلا - 212
 المعهد العالى بتطوان - 9
 المعهد الدينى بتطوان - 188
 معهد مولاي الحسن بتطوان - 6
 معهد فرانكو بتطوان - 87
 معهد السوربون بباريس - 264
 المغرب الادنى - 44
 المغرب الاوسط - 44
 المغرب الاقصى - 44 - 67
 مقابر تطوان - 201
 مساجد مصر - 393
 المسجد النبوى بالمدينة المنورة - 394
 المسجد الاعظم بتطوان - 91 - 102
 المسجد الاعظم بطنجة - 271
 مسجد القصبة بطنجة - 271
 مسجد حومة السويقة بتطوان - 72
 مسجد سيدى بركة - السوق الفوقى
 - 362
 مسجد بوخلاد فى قبيلة بنى حزم
 - 156
 مسجد الشيخ يوسف الفاسى بفاس
 - 307
 مستغانم، مدينة جزائرية شرق مدينة
 وهران - 391
 مسرح سان جرمان بفرنسا - 262

المشرق - 73 - 145
 المهدية - انظر المعمورة
 الموانىء الانجليزية - 216
 مونطى سانطو - قرب غرناطة 228
 ميناء تطوان - 120 - 125 - 187 -
 188 - 189 - 223 - 248 - 250 -
 251
 ميناء قادس باسبانيا - 188
 ميناء طولون بفرنسا - 264
 ميناء برست بفرنسا - 262 - 264

حرف النون

نابولى، ميناء بايطاليا - 87
 ناحية - نواحي - تطوان - 71 - 78
 177 - 184 - 233
 ناحية الريف - 126
 الناحية الغمارية - 40
 ناحية سبتة - 194
 ناحية الهبط - 243
 النجف، مدينة فى غرب العراق -
 257
 النقاسسة، مدشر فى قبيلة بنى يدر
 الجبلية - 176
 نهر لكوس - فى شمال المغرب - 62
 نهر مجكسة، فى شمال المغرب - 15
 نهر سبو بالمغرب يصب فى المحيط
 - 62
 نهر هليلة فى شمال المغرب - 15
 نهر ورغة، ينبع من شمال المغرب - 62
 نيابة الثقافة بتطوان - 309
 النيارين، شارع بتطوان - 330
 النيل، نهر مصر العظيم - 392

حرف الصاد

الصباغين بتطوان - 93
 الصحراء الكبرى فى الجنوب المغربى
 - 44 - 243

حرف الفين

- الغرب، اراضي بشمال المغرب، 67 -
178
غرناطة، آخر عاصمة لآخر دولة
اسلامية عربية بالاندلس - 15 -
16 - 61 - 65 - 72 - 73 - 78 -
81 - 83 - 85 - 87 - 88 - 89 -
95 - 96 - 98 - 99 - 107 -
108 - 109 - 119 - 125 - 145 -
146 - 167 - 168 - 228 - 320 -
321 - 431 -
الغرسة الكبيرة بتطوان - 91 - 93 -
274
غرسة العدو، خارج تطوان - 162
غمارة عدة قبائل جبلية بشمال المغرب
71 - 88 - 229
الغورية بمصر - 392
غوطة دمشق - 417

حرف الفاء

- فالوث، ميناء في الجنوب الغربي
لانجلترا - 216
فاس - عاصمة العلم والعمل
بالمغرب - 15 - 16 - 17 - 33 -
38 - 41 - 42 - 46 - 48 - 49 -
50 - 53 - 55 - 65 - 67 - 69 -
71 - 77 - 79 - 81 - 82 - 87 -
90 - 95 - 97 - 106 - 120 -
121 - 122 - 127 - 128 - 129 -
130 - 132 - 134 - 144 - 145 -
147 - 148 - 149 - 150 - 151 -
152 - 154 - 166 - 167 - 168 -
176 - 178 - 179 - 180 - 182 -
185 - 191 - 192 - 195 - 200 -
202 - 204 - 205 - 208 - 214 -
229 - 235 - 237 - 238 - 242 -
243 - 253 - 257 - 258 - 259 -

صدينة، قرية بحوز تطوان - 68

- الصعيد، صعيد مصر - 324
صقلية، جزيرة في البحر الابيض
المتوسط - 69
الصوير - الصوير قرب تطوان - 162
الصويرة، ميناء مغربي على المحيط
59

حرف الصاد

- ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش
160 - 200 - 369 - 374 - 403 -
ضريح الشيخ علي بركة 377
ضريح الشيخ علي بن مسعود - 337
ضريح سيدي السعيدى 397 - 422
ضريح سيدي بوحاجة - 397
ضريح سيدي احمد الفيلالى بغمارة
180 -
ضريح سيدي احمد الغزال بغمارة -
180
ضريح سيدي محمد البوزيدي بغمارة
180 -
ضواحي تطوان - 58

حرف العين

- العالم العربى - 41
العدوة، بساتين بتطوان - 294
عدوة الاندلس - 260
عدوة القرويين بفاس - 67
العرائش، ميناء مغربي على المحيط -
46 - 83 - 88 - 99 - 123 -
126 - 148 - 151 - 179 - 180 -
182 - 183 - 185 - 214 - 228 -
230 - 235 - 245 - 246 - 255 -
258 - 398 - 399 - 401 -
العراق - 52 - 257
عين الجمارى، خارج تطوان - 293
العيون، حومة بتطوان - 283 - 284
287 - 289 - 290

القبائل الريفية، قبائل الريف بشمال
المغرب - 40 - 42 - I46 - 255
قبائل غمارة بشمال المغرب - I40 -
I80 - 255 - 271 - 316
قبيلة الاخماس بشمال المغرب - 329
قبيلة آيت يوسى بالبربر - 411
قبيلة بنى عروس بالجبل - 389
قبيلة بنى سعيد الجبلية - 256 - 324 -
325 -
قبيلة جبل حبيب بشمال المغرب - 68
قبيلة الحوز جنب تطوان، 68
قبة سيدي السعيدى - 322
قبة سيدي الجعيدى - 330
قبة سيدي بوكوارع - 201
قبة السلاطين بطنجة - 260
قرطبة، العاصمة الاندلسية I5 - 66 -
67 - 69 - 73
قرى الجبل بشمال المغرب - 90
قرية مردوش بالاندلس - 88
القطر الجزائرى - 391
القطر التونسى، 43
القطر الليبى - 44
القطر المصرى - 392
قلعة حجر النسر - 65
قلعة الكرار - I34
القلعة - قلعة محمد على بمصر - 393
القنا الكبير بتطوان - 307
قصبه تطوان - 76 - 93 - 94 - I57 -
242 -
قصبه الذيب بتطوان - I01 - I24
قصبه مرشان بطنجة - 271
قصبه الودايا بالرباط - 217
القصر الكبير - قصر كتامة - 46 -
82 - 99 - I20 - I82 - 200
204 - 214 - 235 - 236 - 328
القصر الصغير - قصر المجاز بشمال
المغرب على بوغاز جبل طارق - 83
99 - I08 - I09
قصر المقيمة العامة بتطوان - 309

260 - 268 - 273 - 274 - 279
280 - 281 - 286 - 307 - 309
316 - 321 - 322 - 324 - 337
339 - 340 - 348 - 349 - 356
357 - 360 - 380 - 386 - 401
411 - 412 - 423 - 427 - 430
431 -
فاس الجديد - I84 - 274 - 275
فيج الفرس، موضع بشمال المغرب -
I82 - I84 - 327
فحص سبتة، I33 - 232
الفحص، بلاد الفحص - بشمال
المغرب - I80 - I84 - 235
فخير دى لا قرونطيرا باسمبانيا - II8
الفدان، ساحة عمومية بتطوان - I04
309
الفردوس الاسلامى المفقود، 83 - 88
فرنسا - 53 - 89
فم تطاوين، قرية بالجنوب التونسى
43 - 44
فندق النجار - 92 - 313
فيينا - عاصمة النمسا باوربا - 70

حرف القاف

قادس، ميناء اندلسى - I90 - I91
I93 - I96 - I97 - I98 - I99
I01 - 207 - 210 - 213 - 227 -
247 - 250
القاعة، سوق بتطوان - 274
قاع الحافة - حومة بتطوان - I01
294 -
قاع التوت، مكان بتطوان - 297 -
298
قاعدة بنى مرزوق بالجبل - 68
قاعدة بنى سكين بشمال المغرب
68 - 69
القاهرة بمصر - 65 - 392 - 395
قبائل تطوان، القبائل الجبلية - 40
53 - I76 - 255

٢٢٩ - ٢٢٨ - ٢٢٦ - ٢٢٥ - ٢٢٣ -
 ٢٧٥ - ٢٦٢ - ٢٦١ - ٢٥٤ - ٢٣١ -
 ٣٣٧ - ٢٨٦ -
 سلوقية سيدي السعيدى بتطوان -
 ٩٢ - ٩١
 سمسة، مدشر بضواحي تطوان - ٧٧
 سواحل المغرب - ٢٥٠
 سواحل سوس - ٨٣ - ١٢٣
 سواحل اسبانيا - ٨٢ - ١٢٥
 سواحل الافرنج - ١٨١
 السودان ٤٤ - ٤٢٥
 السوق الفوقى بتطوان - ١٠١ - ١٠٢
 ١٠٣
 سوق الحوت القديم بتطوان - ٩١ -
 ٩٣ - ٩٤
 سوق البقالين بتطوان - ٢٨٦
 سوس - ٩٩ - ١٥١ - ١٥٢ - ٢٠٤ -
 ٢٦٨ - ٤١١
 السويقة، حومة بتطوان - ٧٣ - ١٠١
 ٢٩٥ -
 السوير (الصوير) اراضى زراعية
 قرب تطوان ٢٩٠

حرف الشين

شاطيء البحر الابيض المتوسط -
 ٣٩١ - ٣٢٥
 شاطيء مرتيل - ١٦ - ٨٩ - ٩٠ - ١٠٠
 شارع الخرازين بتطوان - ٩٢ - ١٠١
 شارع المطامر - ٩٤
 شارع النيارين بتطوان - ١٠٣
 شارع الصياغين - ٩٢
 الشام - ٦٥ - ١٨٢ - ٣٩١
 شانتي بتطوان - ١٠٤
 شبريط، موضع قرب تطوان - ٢٩٤
 شرق الاندلس - ١٥
 الشرق - ١٠٥ - ١٥٧
 شرشال، بالقطر الجزائرى - ٣٩١
 شمال المغرب، الشمال المغربى -
 ٤٧ - ٥٣ - ٧١ - ١١١ - ١٢٢ - ١٦٧
 ١٨٢ - ٢٥٨ - ٢٦١ - ٢٦٦ - ٢٧٧

قصر فرساي بفرنسا - ٢٦٢
 قسنطينة، بالقطر الجزائرى، ٤٥
 القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية
 بالشرق - ١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢ - ٣٩٢
 قشتالة، اقليم اسباني - ٨٣
 قوس السفاجين بتطوان - ٩١ - ٩٢

حرف السين

ساحة الوسعة بتطوان - ٩٣
 ساحة الفدان بتطوان - ١٠٢ - ١٠٤ -
 ٢٥٤
 سان لوكار بالاندلس - ١٢٦
 السانية، حومة بتطوان - ١٠٢ - ١٠٣
 ٤٢٩ -
 الساقية الفوقية بتطوان - ٩١ - ١٠١
 سبتة ١٦ - ٣٨ - ٤٦ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥
 ٦٦ - ٦٧ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٢ - ٧٣
 ٧٤ - ٧٥ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢
 ٨٣ - ٨٩ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٧
 ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٥ - ١١٧ - ١٢٠
 ١٢٣ - ١٢٦ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢
 ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٤٩ - ١٦٠
 ١٦١ - ١٦٧ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧
 ١٨٦ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٥
 ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧
 ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٤ - ٢١٩ - ٢٢٦
 ٢٢٨ - ٢٣٠ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٤٢
 ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٧١ - ٢٧٣ - ٢٧٤
 ٢٧٥ - ٣٢٥ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠٦
 سجلماسة، فى جنوب المغرب - ٦٧ -
 ٨٢ - ٢٣٧ - ٤١١
 سجن تطوان - ٢٧٤
 سجن فاس - ٨١ - ٢٧٤
 سلا، مدينة مغربية على شاطئ المحيط
 ١٧ - ٣٢ - ٤٦ - ٨٢ - ١٢٣
 ١٤٥ - ١٥١ - ١٨٢ - ٢٠٨ - ٢١٠
 ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦
 ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢١ - ٢٢٢

واد كيتان، فى بساتين تطوان - 62
 واد لو بقبيلة بنى سعيد الجبلية - 63
 - 71 - 160 - 166
 واد مجاز الحجر، فى بساتين تطوان
 - 62
 واد مجاز الحمار - فى نهر تطوان
 - 62
 واد مجاز الشطبة فى نهر تطوان - 62
 واد مجكسة - اسم قديم بشمال
 المغرب - 68
 واد المحنش فى نهر تطوان - 62
 واد المخازن فى شمال المغرب - 83 -
 130 - 425
 واد مرتيل فى شواطئ تطوان - 62
 82 - 395
 واد المطيربة، فى نهر تطوان - 62
 واد الصوير - الصوير - فى نهر
 تطوان - 62 - 290
 واد العدو - بنهر تطوان 62
 واد سبو، من اكبر انهار المغرب،
 يصب فى المحيط - 151 - 152
 واد السد، فى نواحي مراکش - 134
 وزان، مدينة جبلية فى شمال
 المغرب - 46
 الوطية - حومة بتطوان - 102 - 309
 وهران، ميناء جزائرى على البحر
 الابيض - 15 - 186 - 391

شمال افريقيا - 37
 الشميس، موضع بشمال المغرب - 148
 شفشاون، مدينة جبلية بشمال
 المغرب - 46 - 62 - 90 - 114 -
 118 - 119 - 122 - 128 - 149 -
 156 - 160 - 166 - 322 - 339
 شغوبيا، اقليم فى وسط اسبانيا - 293
 شواطئ المغرب، الشواطئ المغربية -
 166 - 186
 شواطئ البربر بالمغرب - 214 - 216 -
 224
 شواطئ سلا - 216
 شواطئ الافرنج - 166
 الشواطئ الاسبانية، شواطئ اسبانيا
 109 - 127 - 213

حرف الهاء

الهند - 127
 هولندا - 216 - 246 - 247

حرف الواو

واد بوصفيحة، قرب تطوان فى طريق
 طنجة - 62
 واد بهت، نهر فى وسط المغرب - 200
 واد تطوان - 189
 وادراس، قبيلة جبلية بين طنجة
 وتطوان - 68 - 176

الفهرس الرابع

اسماء الامم والشعوب والجماعات

أجناس - دول - حكومات - عائلات

حرف الالف

الانجليز، الشعب الانجليزى - 15 -
16 - 186 - 190 - 192 - 194 -
195 - 205 - 206 - 210 - 213 -
214 - 215 - 217 - 233 - 235 -
236 - 247 - 248 - 249 - 250 -
251 - 252 - 259 - 260 - 270 -
397 -
اندلسيو المغرب - 226 - 227 -
أندلسيو سلا - 227 -
أندلسيو تطوان - 99 - 119 - 166 -
168 - 191 - 203 - 204 - 213 -
218 - 223 - 225 - 228 -
انصار الخضر غيلان - 244 -
اصحاب المجاهد العياشى - 229 -
230 - 233 - 249 - 429 -
اصحاب افلمنك - 247 -
اصحاب الخضر غيلان - 235 -
اصحاب الشيخ بن عيسى - 308 -
اصحاب الشيخ يوسف الفاسى -
307 - 308 - 309 - 310 - 318 -
320 - 321 - 327 -
الافرنج - 83 - 85 - 87 - 97 - 100 -
123 - 146 - 160 - 166 - 174 -
180 - 181 - 182 - 186 - 202 -
253 - 254 - 258 - 261 -

آل افرج - 16 -
آل برغاش - 16 -
آل التازى - 16 -
آل الزبيدى - 16 -
آل المنظرى - 119 -
آل النقسيس - 16 -
آل غنام - 16 -
آل السويسى - 16 -
آل والزهرى - 16 -
ابناء المنصور السعدى - 186 -
الاتراك - 186 - 188 - 193 - 206 -
212 - 219 - 221 - 392 -
الاجانب - 245 - 401 -
الاجانب المحاربين - 107 -
احرار المغرب - 189 -
الادارسة - 66 -
ادباء المغرب - 401 -
ادباء فاس - 401 -
ادباء سوس وعلمائها - 167 -
الامة المغربية - 89 -
الامراء العزفيين - 77 -
امراء المسيحية - 209 -

238 - 234 - 229 - 227 - 226 -
257 - 252 - 248 - 246 - 244 -
272 -

اهل تونس - 222

اهل جبل علودان - 79

اهل الجزائر - 222

اهل الدلاء - 229

اهل الرباط، رباط الفتح - الرباطيين
227 - 17

اهل الريف - 89 - 90 - 97 - 103
260 - 143

اهل طنجة - 270

اهل مراکش - 81

اهل مكناس - 150 - 151

اهل مصر - 392

اهل (اهالي) الصعيد - 325 - 394

اهل غمارة - 150 - 255 - 256 - 257

اهل الغرب - 148

اهل غرناطة، - 85

اهل فاس (الفاسيين) - 15 - 38

81 - 85 - 89 - 98 - 100 -

154 - 151 - 150 - 134 - 103

271 - 260 - 242 - 178 - 168

356 - 273

أهل الفحص - 179 - 254 - 259 - 337

أهل القصر الكبير - 327

اهل سبتة - أهالي - 66 - 67 - 132

133 - 134 - 166 - 177 - 271 -

325

اهل السوس الاقصى - 373

اهل سلا - 222

اهل السنة والجماعة - 168

الاوربيين - 87 - 186

اولاد بن قريش - 323

اولاد بوليف - 181 - 185 - 253

اولاد بوردان - 129

اولاد الحاج بتطوان - 323

اولاد حسينو - 181

الافريقيون القدماء - 38

الاسبان (الاسبانيين) - 15 - 16 -

109 - 104 - 95 - 85 - 83 - 54 -

186 - 183 - 182 - 127 - 114 -

209 - 207 - 206 - 203 - 187 -

218 - 217 - 215 - 214 - 210 -

230 - 228 - 227 - 222 - 219 -

254 - 252 - 249 - 247 - 343 -

398 - 260 - 258 -

اسبان طنجة - 230 - 232 - 244

الاسارى المسلمين - 109 - 181 - 261

403 -

الاسارى الاندلسيين - 190 - 191

الاسارى التطوانيين - 188 - 190 -

196 - 195 - 194 - 193 - 192

الاسارى الانجليز - 187 - 188 - 190

197 - 194 - 193 - 192 - 191 -

250 - 209 - 208 - 206 - 204 -

اسارى الافرنج بتطوان 170

اسرى الاجانب «الافرنج» بالمغرب

115 - 114 - 109 - 108 - 92 -

403 - 131 - 119 -

الاسرائيليين - 88

اسود الريف - 99

اشياخ الفحص - 184

اشراف شفشاون - 156

اهل الاندلس (الاندلسيين) - 15 -

94 - 93 - 89 - 86 - 67 - 49 -

187 - 145 - 128 - 98 - 97 - 96 -

210 - 207 - 205 - 190 - 189 -

220 - 219 - 217 - 213 - 212 -

اهل بادية سبتة - 77

اهل بطوية - 150

اهل تارودانت - 273

اهل تطوان - اهالي - سكان -

119 - 116 - 98 - 85 - 75 - 43 -

184 - 169 - 156 - 135 - 133 -

223 - 222 - 221 - 220 - 203 -

بنى سكين - 68
 بنى وجفال - رهط حاميم المتنبي 68
 بنى وطاس - آل وطاس - الوطاسيين
 - 146 - 147 - 149 - 150 - 151
 - 152 - 154 - 165 - 168
 بنى يدر - 176
 برابرة الريف - 40
 البربر - 42
 البرتغال - البرتغاليين - البرطقيز -
 15 - 16 - 99 - 108 - 109 - 113
 - 114 - 119 - 120 - 123 - 125
 - 156 - 170 - 181 - 207 - 209
 - 247 - 251 - 252 - 254 - 308
 - 425
 برتغال سبتة - 109
 برتغال الجديدة - 109
 برتغال طنجة - 181 - 184 - 200
 برغواطة - 67

حرف التاء

التجار الانجليز بتطوان - 187 - 193
 التجار الانجليز - 249 - 250 - 251
 تجار لندن - 231
 تجار بريسطول بانجلترا - 231
 التجار الالمان بتطوان - 187
 التجار الفرنسيين بالمغرب - 268
 التجار الهولنديين - 247
 التراجمة الاسبانيين بتطوان - 175
 الترك - 159

حرف الجيم

الجبليين - سكان القبائل الجبلية
 قرب تطوان - 40 - 55 - 93
 - 98 - 109
 الجلالقة - 114
 الجمعية الخيرية بتطوان - 58
 جند ابن الاحمر - 108

اولاد الدريج بتطوان وفاس - 362
 اولاد الريفى - 259
 اولاد الرموز - 234
 اولاد مفضل - 244
 اولاد مهدى - 316
 اولاد النقسيس (المقدمين) - 173 -
 - 174 - 175 - 177 - 187 - 190
 - 191 - 194 - 195 - 201 - 202
 - 203 - 204 - 205 - 214 - 218
 - 220 - 221 - 222 - 223 - 226
 - 228 - 231 - 232 - 233 - 235
 - 236 - 237 - 238 - 240 - 242
 - 243 - 244 - 245 - 246 - 247
 - 248 - 249 - 250 - 252 - 259
 - 273 - 274 - 275 - 315 - 323
 - 365 - 425 - 426 - 428 - 429
 اولاد الغازى - 292
 اولاد فزاكة - 325

حرف الباء

البحارة الانجليز - 248 - 250 - 251
 بنى الاحمر - 90 - 99
 بنى امية - 67
 بنى حزم - 97 - 176
 بنى حسين بن نصر - 68
 بنى خزر المغراويين - 67
 بنى راشد - 90 - 119 - 122 - 128
 - 149
 بنى رزين - 140
 بنى محمد بن القاسم - 66 - 67
 بنى محمد بن صالح اليفرانيين - 67
 بنى مرزوق بن عون - 68
 بنى نصر بغرناطة - 88
 بنى صالح - 97
 بنى القاضى - 130
 بنى سالم - 97
 بنى وطاس - انظر - الوطاسيين

الجغرافيين القدماء - 46
جيش المجاهدين - 270

حرف الحاء

الحجاج المغاربة - 392
حزب الاستقلال - 307
حكام تطوان - 222 - 224 - 226 - 228
حكومة المغرب - 165
الحكومة الانجليزية - 231 - 251
حكومة الجمهورية الاسبانية - 175
حكومة لاهاي - 248
حفدة الشيخ التبين - 73

حرف الخاء

الخلفاء العثمانيين - 105

حرف الدال

الدلائيين - 231 - 250
دولة آل عثمان - الدولة العثمانية - 52 - 159
الدولة الادريسية بالمغرب - 52 - 64
الدولة الاموية بالاندلس - 52
الدولة الاسلامية العربية بالاندلس - 167 - 168
دولة اسبانيا - 251
دولة بنى مرين - 107
الدولة العبيدية - 52
الدولة العلوية الشريفة بالمغرب - 237
الدولة السعدية - 125 - 127 - 188
الدولة الوطاسية - 107 - 123 - 125
- 165 - 166 - 270

حرف الذال

ذرية سيدنا عثمان ابن عفان - 326

حرف الراء

رؤساء الاندلسيين فى مراکش - 217
رجال تطوان - 143
رجال القبائل الجبلية - 168
الركب البصرى بالحجاز - 394
الركب البغدادي بالحجاز - 394
الركب المصرى بالحجاز - 394
الركب المغربى بالحجاز - 394
الركب الشامى بالحجاز - 394
الركب اليمنى بالحجاز - 394
الرعايا الانجليز بتطوان - 190 - 231
الرعايا الفرنسيين بالمغرب - 269
الرهبان المبشرين بالمسيحية - 203
الروم - 52 - 148
الرومان - 64
الريفيين - اهل الريف - 98 - 146
- 148

حرف الكاف

الكنعانيين - 52

حرف الميم

مؤرخو الافرنج - 122
المجاهدين الريفيين - 253 - 254 - 255
258 - 259
مجلس امسطر دام (بهولندا) - 248
مجاهدو تطوان - 123 - 132 - 166
- 173 - 176
المدجنين - انظر الموريسكوس
المرابطين - 45
ملوك اسبانيا - 52
ملوك الدانمارك - 226
ملوك الدولة الاموية - 52
ملوك الدولة العباسية - 52
ملوك الدولة العلوية - 233
ملوك زناتة - 67
ملوك الطوائف بالاندلس - 154 - 166

حرف العين

- عائلة ابن قريش - 278
 عائلة بيعة الاندلسية - 298
 عائلة تميم - 261
 عائلة الجعيدى - 337
 عائلة الدريج - 77 - 79
 عائلة الرميرس الاندلسية - 298
 العائلة العلوية الشريفة - 232
 عائلة المنظرى - 101 - 122
 عائلة مفضل - 244
 عائلة النقسييس - 244
 العالم الاسلامى - 27
 العبيديون - 67
 عبيد انجليزيين - 190
 العثمانيين - 159
 العرب - 64
 العرب قبل الاسلام - 52
 علماء الآثار - 62
 علماء الازهر - 393
 العلماء الاسبانيين - 62
 علماء تطوان - 54
 علماء مصر - 293
 علماء العرب - 69
 علماء فاس - 183
 علماء الشرق - 83
 العلوج - 148
 عصابة اولاد النقسييس - 234
 العساكر الاسبانيين - 83

حرف الفاء

- فتيان فاس - 99
 فراعنة مصر - 52
 الفرنسيين - 222
 فرسان غرناطة - 87 - 108
 فقهاء فاس - 145

حرف القاف

- القبائل الجبلية - 119 - 122 - 143
 القبائل الريفية - 98

ملوك المغرب - 52

ملوك فارس - 52 - 166

الملوك السعديين - 125

ملوك اليونان - 52

مقدمو القبائل الجبلية - 232

مقدمو انجرة - 219

مساجين تطوان بفاس - 257

مسلمو الاندلس - 83 - 85 - 88 -

181 - 429

مشائخ فاس - 145

مشائخ غرناطة - 145

مهاجرو الاندلس الى المغرب - 61 -

85 - 87 - 90 - 93 - 96 - 97 -

98 - 99 - 100 - 102 - 103 -

133 - 168 - 182 - 227 - 232 -

305 - 429 - 431 -

مهاجرو غرناطة - 98

الموحدين - 45 - 71 - 72 -

الموريسكوس - المدجنين - 125 -

198 - 199 - 203 - 204 - 205 -

206 - 208 - 210 - 213 - 214 -

215 - 217 - 226 - 227 - 228 -

حرف النون

النصارى 52 - 64 - 88 - 97 - 117 -

132 - 148 - 149 - 160 - 161 -

162 - 179 - 183 - 185 -

نصارى طنجة - 259 - 260 - 270 -

نصارى سبتة - 132 - 133 - 177 -

184 - 406

النصارى الانجليز - 270

النصارى الفرنسيين - 272

حرف الصاد

صلحاء تطوان - 340

الصينيين - 52

حرف الشين

- شجعان الجبل - 99
 الشرفاء الريسونيين - 55
 الشرفاء البقاليين - 55
 الشرقيين - 44 - 45
 الشعب المغربي - 88
 الشعب الانجليزي - 218
 الشعب الاسباني - 88
 شيوخ الاندلس - 74
 شيوخ تطوان - 104 - 156
 شيوخ الطرق الصوفية - 55
 شيوخ فاس - 50 - 426
 شيوخ القرويين - 48

حرف الهاء

- الهنود - 52

حرف الواو

- الوطاسيين - 135

حرف الياء

- اليهود - 52 - 203 - 204 - 206 -
 207 - 208 - 209 - 214 - 219

- قضاة تطوان - 54 - 137 - 140
 قراصنة البحر الابيض المتوسط -
 268

- القراصنة الاسبان - 215 - 216
 القرصان - القراصنة - 186 - 187
 - 189 - 195
 القرصان الجزائريين - 125
 القرصان الترك - 127
 القرصان الانجليز - 224
 القوط - 64

حرف السين

- سبي سبتة - 134
 سكان جبل طارق - 181
 سكان المغرب - 45
 سكان ناحية تطوان - 89
 سكان القبائل الجبلية - 40 - 83 -
 93 - 197
 سكان القبائل الريفية - 40 - 42
 سكان سبتة - 181 - 244
 السعديين - 90 - 135 - 165 - 166
 232 - 235

الفهرس الخامس

أسماء الكتب المذكورة في هذا المجلد

مؤلفات - دواوين - صحف - وثائق

حرف الالف

ابتهاج القلوب لابى زيد الفاسى -
279 - 308 - 310 - 311 - 316
317 - 320 - 321 - 327 - 329
335 - 336 - 340
الاتحاف لابن زيدان - 20 - 31 - 33
الاحكام لابن العربى - 343
الاحياء للغزالي - 338 - 353
اختصار صحيحى البخارى ومسلم
للتبيين - 74
الاربعين النووية للامام النووى - 350
353 - 356
الارشيف ماروكان - 52 - 62 - 64
83 - 88 - 99
ازهار البستان لابن عجيبة - 280
341 - 349 - 358
ازهار الرياض للمقرى - 301
الاكتفاء للكلاعى - 355
التماس البركة للقادرى - 360
التقاط الدرر للقادرى - 184 - 238
243 - 317 - 321 - 329 - 330
336 - 339 - 344 - 348 - 377
ألفية ابن مالك افى النحو - 350 -
352 - 354

ألفية العراقى فى الحديث - 377
الانجيل الاسباني - 206
الانيس المطرب لابن الطيب العلمى
349 - 350 - 381 - 382 - 383
384 - 386 - 389 - 416
الانيس المطرب القرطاس - لابن ابى
زرع - انظر القرطاس
الاعلام لابن ابراهيم المراكشى - 32
33 - 75 - 76
الاعلام للزركلى - 69
الاعلام بمن غبر للفاسى - 279 - 345
اقتفاء الاثر - فهرس ابى سالم
العياشى - 349 - 355
الاستبصار - 42 - 70 - 76
استنزال السكينة لابى زيد الفاسى
145
الاستقصا لابى العباس احمد بن خالد
الناصرى - 32 - 37 - 39 - 42
64 - 67 - 71 - 76 - 80 - 82
89 - 109 - 121 - 123 - 124
132 - 174 - 177 - 179 - 170
182 - 184 - 185 - 227 - 235
236 - 238 - 242 - 243 - 253
254 - 257 - 259 - 270 - 271
273 - 412 - 414

حرف الباء

- بحث سرديرة في اولاد النقسيس -
البستان - 270
البيان المغرب - 43 - 65 - 67
175 - 236 - 237 - 242

حرف التاء

- تائية الشيخ الجعيدى - 331
التاج والاكيل للمواق - 145
تاريخ أبى الفدا - 52
تاريخ انريكي (هنرى) الثالث - 83
تاريخ تطوان لابی محمد سكيرج -
انظر نزهة الاخوان
تاريخ تطوان لابی العباس الرهونى
- انظر عمدة الراوين
تاريخ الدولة السعدية - 179 - 180
181 - 182 - 183 - 184 - 337
تاريخ الدولة الوطاسية - 146
تاريخ طنجة - 235
تاريخ محمد بن الطيب القادرى - 77
تاريخ المغرب لكاسطيانوس - 80 - 82
183
تاريخ عيسى بن حيون - 78
تأليف الاستاذ المختار السوسى فى
سوس ورجالها - 167
تأليف فى الادعية والاذكار للفقير
الرافعى التطوانى 390 - 408
تأليف فى القراءات للفقير الزياتى
التطوانى - 341
تأليف فى اولاد الدريج بفاس وتطوان
لابى الربيع الحوات 77 - 362
تأليف فى مناسك الحج للشيخ على
بركة - 358
تأليف فى الرسائل للرافعى التطوانى
- انظر - غرر المقاصد
تحفة الاخوان - 426
تحفة ابن عاصم - 350 - 352

«التكملة» ذيل لتاريخ تطوان لمحمد

داود 29

- تلخيص المفتاح - 354 - 356
تفسير القرآن - 402
تقرير جون هاريسون الانجليزى -
218 - 224 - 226 - 227
تقرير جون سميت الانجليزى - 186
213
تقييد فى تاريخ تطوان لابی حامد
الفاسى - 59 - 97 - 109 - 191
تقييد قديم بتطوان - 274
التسهيل لابن مالك - 355
التوضيح لابن هشام - 344

حرف الجيم

- جذوة الاقتباس لابن القاضى - 129
جريدة الاخبار لمحمد داود - 9
الجمال للمجراد - 316
جمع الجوامع لابن السبكي - 350 -
354
الجغرافية التونسية - 43
الجواهر المختارة - انظر نوازل
الزياتى
جوهررة التوحيد - 345
الجيش العرمرم - لابی عبد الله
أكنسوس - 235 - 238 - 242 -
254 - 273

حرف الحاء

- حاشية الشيخ على بركة على ابى
الحسن على الرسالة - 358
حاشية الشيخ على بركة على المكودى
- 358 - 371
حاشية الرهونى على الزقانى - 281
حاشية العلمى على شرح الفشتالى
لرسالة الماردينى - 372

روضة المحاسن للشيخ المهدي الفاسي
317

حرف الزاي

زهر البستان لابن العياشي - 259 -
261 - 271

حرف الكاف

كبرى الشيخ السنوسي في التوحيد
355

كتاب البيدق - 42 - 71

كتاب الدولة السعدية - 41

كتاب في الرد على الطائفة الاندلسية
لابن سلطان القسنطيني التطواني
157 -

كتاب العجائب للسفير الحاج محمد
تميم التطواني - 263
كتاب الفقيه التطواني في ابن الخطيب
السلماي - 81

كتاب قواعد الاسلام - 74
كناش الفقيه ابن رحمون التطواني -
59 - 95 - 224 - 230 - 232 -
233 - 258 - 336

كناش سيدي محمد افيلان - 270
كناش سيدي مفضل افيلال - 59
كناش الفقيه الرافعي - انظر مجموع
كناش قديم بتطوان - 86

حرف اللام

لا مارينا اسبانيولا - البحرية
الاسبانية - 126

لامية الافعال لابن مالك - 336
لقطة الفرائد لابن القاضي - 43 -
128 - 133 - 140 - 397

حرف الميم

مجلة الاندلس باسبانيا - 118

حلية الفرسان لابي عبد الله النعاس
القيسي - 99
حوالة جامع السوق الفوقي بتطوان -
377

حرف الدال

الدر المنتخب لابن الحاج - 273 - 383
درة الحجال - 41 - 129 - 140 -
157

درة الاحساب - 74
الدر الحسن للشيخ علي بركة - 358
دلائل الخيرات - 329 - 331 - 394 -
395 - 408

دليل مؤرخ المغرب الاقصى لابي محمد
عبد السلام بن سودة - 146 - 155
دوحة الناشر - 41 - 117 - 118 -
120 - 121 - 124 - 140 - 144 -
146 - 155 - 156 - 167

ديوان ابن زاكور - انظر الروض
الاريض
ديوان الرافعي التطواني - 337 -
350 - 396 - 404 - 429
ديوان الشيخ ابي علي اليوسي - 412 -
413

حرف الراء

الرحلة الحجازية للرافعي التطواني -
312 - 350 - 390 - 391
الرحلة العياشية لابي سالم العياشي
349

رحلة الوزير - 405
رقم الحل لابن الخطيب - 147
رسالة ابن ابي زيد - 76 - 354 -
356

رسالة ابي علي اليوسي للسلطان
هولاي اسماعيل - 411 - 414
الروض الاريض - ديوان ابي عبد
الله ابن زاكور - 378 - 386 - 420

- المنتقى المقصور لابن القاضي - 129
 - 131
 منظومة في الفقه للشيخ علي بركة
 358
 منهاج السلوك للشيخ التبين - 74
 المعارج المرقية - انظر الرحلة
 الحجازية للرافعي
 معجم ما استعجم للبكري - 66
 معجم المطبوعات لسركيس - 70
 معيار الاختيار لابن الخطيب 81 - 82
 المعيار للونشريسي - 145
 المسالك والممالك للبكري - 42 - 65
 66 - 68
 المشيشية - (صلاة) - 316
 المواهب اللدنية - 392

حرف النون

- نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر
 - 88
 النبوغ للعلامة الاستاذ عبد الله كنون
 - 412
 نزهة الاخوان لابي محمد سكيرج -
 39 - 49 - 50 - 52 - 53 - 59 -
 60 - 309
 نزهة الافكار في مناقب التبين
 والفخار - 74
 نزهة الحادي لليفراني - 41 - 48 -
 180 - 182 - 183 - 184 - 185 -
 270
 نزهة المشتاق للادريسي - 41 - 69
 نفح الطيب للمقري - 42 - 182 -
 183 - 301
 النفحة المسكية - رحلة التمجروتي -
 42 - 43 - 159 - 162
 نهج الازهان لسرديرة - 175
 نوازل الشريف العلمي - 281

- مجلة افريقيا بسبته - 175
 مجلة موريطانيا بطنجة - 115
 مجلة السلام لمحمد داود - 9 - 235
 270
 مجموع الفقيه الرافعي التطواني -
 259 - 271 - 367 - 380 - 390
 - 427
 مجموع الفقيه عبد الله شطير التطواني
 377
 مجموع الفقيه سيدي المامون افيلال
 - 358
 مجموعة م هنري دي كاستري الفرنسي
 120 - 178 - 186 - 187 - 188
 190 - 192 - 194 - 212 - 213
 221 - 229 - 231 - 233 - 246
 247 - 248 - 249 - 251 - 272
 - 275
 مختصر ابن الحاجب - 355
 مختصر تاريخ تطوان لمحمد داود - 8
 مختصر الشيخ خليل - 350 - 352 -
 354 - 356 - 392 - 397
 مختصر السعد - 355 - 356
 المخطوط التطواني - 59 - 275
 مخطوط قديم - 86 - 90 - 95 - 97
 - 146
 مخطوط الفقيه العطار - 58
 مخطوط حرب تطوان - 59
 مذكرات هنري ماينوارينج - 187
 مرآة المحاسن لابي حامد الفاسي -
 42 - 90 - 121 - 143 - 307 - 315
 - 316 - 329 - 939
 مرآة الجنان - 75
 ملوك فرنسا والمغرب، لشارل بنز -
 262
 ممتع الاسماع للمهدي الفاسي - 320
 321 - 329
 مناهل الصفا للفشتالي - 43 - 130
 - 131 - 133 - 177 -

حرف الغين

غرر المقاصد والمطالب - 390 - 405

حرف الفاء

فتح التأييد للحسن بن ريسون -
322 - 325

حرف القاف

قاموس طبى - لليون الافريقى - 87
القرطاس - لابن ابي زرع - 41 -
64 - 71 - 79
قلائد العقيان لابن خاقان - 140 -
363

حرف السين

السجل الوطنى الاسباني - 115
السلم للاخضرى، فى المنطق - 354
السنن، للمواق - 145
سهم الاصابة، فى حكم طابة لابي
حامد الفاسى - 339
سلوة الانفاس - لابن جعفر الكتانى
52 - 280 - 339 - 416 - 422

حرف الشين

شرح ابيات الشيخ انوار التطوانى
لابى حامد الفاسى - 321
شرح الاجرومية للشيخ على بركة
358 -
شرح الاكتفا - لابن عبد السلام
بنانى - 348
شرح ألفية ابن مالك للمكودى - 358
شرح الامالى، لابي على القالى - 66
شرح تائبة الجعيدى - لابي العباس
ابن عجيبه - 331 - 333 - 336
شرح جمع الجوامع للمحلى - 350
353 - 354

نوازل الزياتى (الجواهر المختارة) -
141 - 278 - 301 - 304 - 340 -
342 -

نشر ازاهر البستان لابن زاكور -
348 - 351 - 363 - 370 - 378 -
384 - 389 - 391 - 416

نشر المثنى للقادرى - 159 - 182 -
183 - 184 - 243 - 257 - 259 -
261 - 309 - 312 - 316 - 321 -
329 - 330 - 338 - 339 - 341 -
348 - 349 - 358 - 377 - 416

حرف الصاد

صحيح الامام البخارى - 160 - 350 -
352 - 353 - 354 - 355 - 393 -
صحيح الامام مسلم - 350
صغرى الامام السنوسى - 353 - 354 -
صفوة من انتشار لليفرانى - 159 -
280 - 309 - 312 - 321 - 322 -
329 - 330 - 335 - 336 - 339 -
341 - 349 - 358 - 362 - 377 -
411 - 412 -

حرف العين

عائلات تطوان لمحمد داود - 79
العبر لابن خلدون - 34 - 42 -
52 - 65
العرف العاطر للقادرى - 78
عروسة المسائل فى تاريخ بنى وطاس
146 - 147 - 154 - 168
عمدة الراوين لابي العباس الرهونى -
31 - 32 - 39 - 48 - 50 - 52 -
57 - 59 - 277 - 336
عناية اولى المجد - 339 - 349

شرف الطالب لابن الخطيب
القسنطيني - 317

الشماثل للترمذي - 350 - 353 - 355
الشفاء للقاضي عياض - 354

حرف الواو

وصف افريقيا، لليون الافريقي -
37 - 63 - 87 - 116

وصف افريقيا، لمارمول الاسباني -
83 - 109 - 122

شرح الخزرجية لابي عبد الله ابن
زاكور - 350

شرح ديوان الحماسة لابي عبد الله
ابن زاكور - 350

شرح لامية العرب لابي عبد الله ابن
زاكور - 350

شرح نظم الزكاة لابي فارس الزياتي
- 341

شرح قلائد العقيان، لابي عبد الله
ابن زاكور - 350

الفهرس السادس للصور

- | رقم | |
|------|--|
| I - | صورة سيدى محمد الخامس ملك المغرب المحبوب حفظه الله |
| 2 - | المؤلف محمد داود |
| 3 - | مؤلف الكتاب وكاتبها تقدمتیه الاستاذان بنونة والوزائى فى عهد الشباب |
| 4 - | الاصدقاء الثلاثة بعد تأليف هذا الكتاب |
| 5 - | المؤرخ التطوانى ابو العباس احمد الرهونى مؤلف «عمدة الراوين» |
| 6 - | المؤرخ المكناسى أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان مؤلف «الاتحاف» |
| 7 - | المؤرخ المراكشى القاضى عباس بن ابراهيم مؤلف «الاعلام» |
| 8 - | منظر عام لمدينة تطوان وبعض ضواحيها |
| 9 - | قوس حجرى من بقايا «تمودة» الرومانية فى ضواحي تطوان |
| 10 - | منظر عام لبعض خرائب تمودة الرومانية |
| 11 - | منظر آخر لخرائب تمودة المخربة قبل الاسلام |
| 12 - | قبة الشيخ عبد القادر التبين من رجال تطوان فى القرن السادس |
| 13 - | قبة الشيخ ابى عبد الله الفخار من رجال تطوان فى القرن السادس |
| 14 - | قبة الشيخ ابى يعلى طلحة الدريج من كبار صلحاء تطوان |
| 15 - | مدفن الشيخ المجاهد ابى الحسن المنظرى الغرناطى مجدد بناء تطوان |
| 16 - | بعض الاسوار والابراج القديمة بتطوان . |
| 17 - | أحد الابراج التى بناها الاندلسيون المجددون لبناء تطوان |

- 18 - أحد الابراج التي شيدت عند تجديد بناء تطوان فى القرن التاسع
- 19 - برج الحراسة الدائمة بتطوان، وهو من آثار المنظرى
- 20 - باب النوادر وبرجها الكبير فى الجهة الغربية من تطوان
- 21 - باب العقلة، فى الجهة الشرقية من مدينة تطوان
- 22 - اساحة الفدان السوق العمومى القديم بتطوان
- 23 - باب التوت، احد الابواب السبعة القديمة بتطوان
- 24 - منظر عام اخذ لتطوان من الجبل المشرف عليها
- 25 - منظر عام لوسط مدينة تطوان
- 26 - منظر عام لحومة العيون وبعض الجبال المجاورة لتطوان
- 27 - منظر عام لبعض القسم الشرقى من مدينة تطوان
- 28 - شارع الوسعة - داخل حومة البلد من مدينة تطوان
- 29 - الجانب الغربى من شارع السوق الفوقى بتطوان
- 30 - منظر قديم لمدخل شارع الطرافين بتطوان
- 31 - قطعة من شارع العيون بتطوان
- 32 - قبر المجاهد المقدم ابنى العباس احمد بن عيسى النقسيى
حاكم تطوان
- 33 - صورة المقدم الخضر غيلان المجاهد المغربى الكبير
- 34 - صورة سلطان المغرب مولاي رشيد بن الشريف العلوى
- 35 - صورة السلطان مولاي اسماعيل مفخرة المغرب والعائلة العلوية
الشريفة
- 36 - الحاج محمد تميم قائد تطوان وسفير السلطان مولاي اسماعيل
الى ملك فرنسا
- 37 - صورة رسالة بعثها مولاي اسماعيل الى لويس الرابع عشر
ملك فرنسا
- 38 - صورة رسالة بعثها قائد تطوان الى ملك فرنسا
- 39 - صورة رسالة بعثها قائد تطوان الى وزير فرنسا
- 40 - منظر قديم لمدينة طنجة فى عهد الاحتلال البرتغالى
- 41 - صورة عامة لمدينة طنجة فى عهد الاحتلال الانجليزى والحصار
المغربى

- 42 - صورة اخرى لطنجة اثناء احتلال الانجليزيين لها
- 43 - صورة رسم عدلى كتب بتطوان فى القرن الحادى عشر
- 44 - نموذج من الرسوم الشرعية بتطوان فى القرن الحادى عشر
- 45 - صورة باب الزاوية الفاسية فى حومة العيون بتطوان
- 46 - باب الزاوية الناصرية فى حومة البلد بتطوان
- 47 - زاوية سيدى السعيدى قرب باب السعيدة بتطوان
- 48 - باب زاوية سيدى السعيدى بتطوان
- 49 - باب زاوية سيدى على بن مسعود الجعيدى بتطوان
- 50 - باب زاوية سيدى الحاج على بركة فى السوق الفوقى بتطوان
- 51 - محراب زاوية الشيخ على بركة عالم تطوان وصالحها
- 52 - ضريح الشيخ على بركة الاندلسى التطوانى
- 53 - مزارع زاوية الشيخ الحاج على بركة فى شارع السوق الفوقى بتطوان
- 54 - محمد داود بعد الفراغ من تأليف كتابه «تاريخ تطوان» وطبع
المجلد الاول منه

الفهرس السابع

لمراجع هذا المجلد من الكتب والدواوين والمستندات وغيرها

من المعلوم اننا - ولو لم نستثن مدينة فاس - نجد ان المطابع الى الآن لم تخرج لقراء العربية اى كتاب كامل عن تاريخ اية مدينة من مدن المغرب، كما اننا لا نعرف انه ألف كتاب خاص مستوف لتاريخ المدن المغربية، فالذى يريد ان يؤلف او يكتب عن مدينة او ناحية خاصة بوطننا المغربى، لا يجد بين يديه كتابا يشفى غليله ويمكنه الاكتفاء به عما عداه، بل عليه ان يبحث هنا وهناك، وينقل ما يعثر عليه مبعثرا فى الكتب والاوراق ومختلف المستندات، وأحيانا يضطره الحال لسؤال الشيوخ العارفين، والنقل من أفواه المطلعين، وخصوصا منهم المسنين .

وتاريخ تطوان من هذا القبيل، فقد طالعت لجمعه ما لا يخطر بالبال من المراجع والاوراق والمستندات، وسأثبت فى هذا القسم نيفا وستين من المراجع التى استفدت ونقلت منها لتحريرو هذا المجلد بالخصوص، وبعضها نقلت منه كثيرا، والبعض الآخر نقلت منه قليلا، ودونك اسماءها مع نبذة عنها وعن مؤلفيها وبيان المخطوط منها والمطبوع

1 - ابتهاج القلوب - بخبر الشيخ ابى المحاسن وشيخه المجذوب، لابی زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى المتوفى بفاس سنة 1196 وهو مجلد كبير لم يطبع ومنه نسخة جيدة كاملة فى الخزانة الداودية بتطوان، وقد نقلت ما فيه عن تراجم اصحاب الشيخ يوسف الفاسى من أهل تطوان

2 - الارشيف ماروكان - ARCHIVES MAROCAINES PARIS 1904 - 1934
وهى نشرة صدر منها عن باريس 33 عددا من سنة 1904 الى سنة 1934، وقد نقلت منها فى أماكن عديدة .

3 - أزهار البستان - فى طبقات الاعيان، لابی العباس احمد بن عجیبة المتوفى سنة 1224، وضريحه فى قبيلة انجرة القريبة من تطوان، وهو كتاب لم يطبع، وقد نقلت منه فى عدة تراجم لرجال تطوان

4 - التقاط الدرر - لابی عبد الله محمد بن الطيب القادری (1187) وقد تكلمت علیه فى صفحة 317 ونقلت منه فى تراجم عديدة

5 - الانیس المطرب - فیمن لقیته من ادباء المغرب، لابی عبد الله محمد ابن الطیب العلمی المتوفى بمصر سنة 1134 وهو مجلد طبع بفاس سنة 1305 وقد نقلت منه مرارا عديدة

6 - الاعلام بمن غیر - لابی محمد عبد الله الفاسی، وهو مخطوط تكلمت علیه فى ص 279 و 345 ونقلت منه فى بعض التراجم

7 - الاعلام بمن حل امراكش واغمت من الاعلام - للقاضی عباس ابن ابراهيم المراكشى المتوفى بمراكش سنة 1378 هـ 1959 م وقد تكلمت علیه وعلى مؤلفه فى ص 33 ونقلت منه فوائد .

8 - الاعلام - لمعاصرنا الادیب، الكبير خير الدين الزركلى وهو قاموس تراجم طبع اولاً بمصر فى ثلاثة اجزاء سنة 1345 - 1347 هـ - 1927 - 1928 م. ثم بلغنى انه طبع ثانياً فى اثنى عشر جزءاً، وقد نقلت منه فى بعض التراجم

9 - الاستبصار، فى عجائب الامصار - وقد تكلمت علیه فى طرة ص 70 ونقلت منه ايضا فى وصف حالة تطوان فى القرن السادس

10 - استنزال السكينة - لابی زيد الفاسی، وهو جزء مخطوط تكلمت علیه فى طرة ص 145، وقد نقلت منه فى بعض التراجم

11 - الاستقصا، فى اخبار المغرب الاقصى، لابی العباس احمد بن خالد الناصرى السلوى المتوفى سنة 1315 وقد تكلمت علیه وعلى مؤلفه فى ص 32 ونقلت منه فى اماكن كثيرة .

12 - بحث سرديرة - فى اولاد النقسيس، وهو منشور فى مجلة افريقيا A F R I C A وقد تكلمت علیه وعلى مؤلفه فى ص 175 - ونقلت منه عدة مرات

- 13 - البحرية الاسبانية فى القرن السادس عشر - L A M A R I N A**
 ESPAÑOLA EN EL SIGLO XVI. - Don Francisco de Benavides, Cuatralvo de las Galeras de España, por Ignacio B A U E R L A N D A U E R. - Madrid 1921
 طبع بمدريد باللغة الاسبانية سنة 1921 وقد نقلت منه عند الكلام على بعض حوادث تطوان فى القرن المذكور الموافق للقرن العاشر للهجرة
- 14 - البيان المغرب - لابن عذارى المراكشى، وقد تكلمت عليه فى ص 67**
 ونقلت منه ايضا .
- 15 - تاريخ ابن خلدون - واسمه «العبر» وقد تكلمت عليه وعلى مؤلفه**
 فى ص 65، ونقلت منه فى بعض المناسبات
- 16 - تاريخ الدولة السعدية - «مؤلفه مجهول» وقد طبع برباط الفتح**
 سنة 1353 ونقلت منه فى عدة اماكن .
- 17 - تاريخ المغرب - لمنويل كاسطيانوس الراهب الاسبانى واسمه**
 Historia de Marruecos وقد تكلمت عليه فى ص 82 ونقلت منه فى عدة محلات
- 18 - تأليف فى الادعية والاذكار - لابی عبد الله الرافعى التطوانى وهو**
 مخطوط استفتت منه وتكلمت عليه فى ص 408
- 19 - تأليف فى أولاد الدريج - بفاس وتطوان، لابی الربيع سليمان**
 الحوات، وهو جزء مخطوط بالخزانة الداودية، وقد نقلت منه فى ترجمة الشيخ ابى يعلى طلحة الدريج دفين تطوان .
- 20 - تحفة الاخوان - ببعض مناقب شرفاء وزان، وهو جزء طبع بفاس،**
 سنة 1324 وقد استفتت منه عند الكلام على تطوان من الناحية العلمية فى ص 426
- 21 - تقييد صغير عن تاريخ بناء تطوان لابی حامد الفاسى وقد نقلته من**
 كناش ابن رحمون التطوانى واستفتت منه ونقلت منه عند الكلام على تجديد بناء هذه المدينة .
- 22 - الجغرافية التونسية للمختار السماوى ومحمد كمون، وهو جزء**
 طبع بتونس سنة 1345 هـ 1927 م. وقد نقلت منه عند الكلام على سمية تطوان وهى تيطاوين المدينة الواقعة فى الجنوب التونسى

23 - الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجيل غمارة - «نوازل الزياتي» لابي فارس عبد العزيز الزياتي المتوفى بتطوان سنة 1055. وقد تكلمت عليه في ص 342 وترجمة مؤلفه في ص 341. وقد نقلت منه في اماكن عديدة وهي مخطوطة جيدة بالخزانة الداودية .

24 - الجيش العرهم - لابي عبد الله محمد بن احمد اكنسوس المتوفى بمراكش سنة 1294. وهو مجلد طبع بفاس سنة 1336 وقد نقلت منه في عدة اماكن

25 - حاشية على شرح المكودي لالفية ابن مالك، للشيخ علي بركة وترجمته في ص 347 وقد تكلمت عليها في ص 358 ونقلت منها في ترجمة مؤلفها

26 - حاشية العلمي على شرح الفشتالي لرسالة المارديني وهي مجلد طبع بفاس في العقد السادس من هذا القرن وقد نقلت منها في ترجمة الشيخ علي بركة .

27 - حلية الفرسان ، وشجاعة الشجعان، لابي عبد الله النعاس القيسي، وهو مخطوط في الخزانة المنونية بمكناس، وقد استفدت منه ونقلت بعض الفوائد .

28 - حوالات مساجد تطوان وزواياها، مسجد السوق الفوقي، وزاوية سيدي السعيدى، وزاوية سيدي علي بن مسعود، وغيرها وهي مخطوطات عهدي بها في وزارة الاحباس بتطوان حينما كان المغرب تحت الحمايةين الاجنبيتين لا اعادهما الله

29 - درة الحجال، في غرة اسماء الرجال، لابي العباس احمد ابن القاضي المتوفى بفاس سنة 1025 وقد طبع في مجلدين بالرباط سنة 1334 هـ 1936 م وقد نقلت منه في بعض التراجم

30 - الدرر الحسان ، للشيخ علي بركة التطواني، وهو مخطوط تكلمت عليه في ص 358 (I) ونقلت منه في ترجمة مؤلفه

(I) المرجو من القارئ المعنى بالتحقيق والتدقيق، ان يشطب على كلمة - الخطب - ويكتب بدلها - الحسان - في سطر 22 من ص 358 من هذا المجلد

- 31 - الدر المنتخب المستحسن**، في مآثر امير المومنين مولانا الحسن ،
لابي العباس احمد بن محمد ابن الحاج المتوفى بفاس سنة 1315 وهو مخطوط
في عدة مجلدات كبار تكلمت عليه في ص 383 ونقلت منه مرارا
- 32 - دليل مؤرخ المغرب الاقصى** - لابي محمد عبد السلام بن سودة
حفظه الله وقد طبع بتطوان سنة 1363 هـ 1950 م وقد نقلت منه واستفدت
- 33 - دوحة الناشر** - لابي عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 986
وهو مطبوع بفاس سنة 1309، وقد نقلت منه في تراجم عديدة .
- 34 - ديوان ابي علي اليوسي** - المتوفى سنة 1102، وقد طبع بفاس في
في العقد الرابع من هذا القرن، ونقلت منه عند الكلام على زيارات مؤلفه لتطوان
- 35 - ديوان ابن زاكور** - وهو ابو عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور
الفاسي، وقد تكلمت عليه في ص 416 ونقلت منه في عدة اماكن
- 36 - ديوان ابي عبد الله الرافعي** - وقد تكلمت عليه في ص 396 وعلى
مؤلفه في ص 390 ونقلت منه في ترجمة صاحبه وفي غيرها .
- 37 - زهر البستان** - في نسب احوال سيدنا زيدان لابي عبد الله ابن
العياشي المتوفى سنة 1139 وهو في جزء مخطوط بالخزانة الداودية في نحو
مائة وخمسين صفحة، وقد تكلمت عليه وعلى مؤلفه في ص 259 ونقلت منه عند
الكلام على حصار طنجة ثم عند احتلالها .
- 38 - كتاب البديق** - وهو كتاب المهدي بن تومرت الخ. وقد تكلمت عليه
في ص 71. ونقلت منه بعض حوادث تطوان في القرن السادس .
- 39 - كناش بن رحمون** - لصاحبه الفقيه الشريف سيدي التهامي بن
محمد بن رحمون التطواني، وهو مخطوط ذكرته في ص 59 - 95 ونقلت منه
عدة فوائد تاريخية .
- 40 - كناش سيدي محمد بن الهاشمي** افيال - المتوفى بتطوان سنة
1264 وهو مجلد كبير كتبه بخطه وضمنه فوائد علمية وتاريخية وادبية، وقد
نقلت منه عدة فوائد .

41 - لقطة الفرائد - لابی العباس احمد بن القاضى السابق الذكر، وهو مخطوط فى الخزانة السودیة بفاس ، وقد نقلت منه فى عدة مناسبات .

42 - مجموع الفقيه الرافعى التطوانى - وهو مخطوط بتطوان، ویحتوى على مؤلفاته الثلاثة المذكورة فى ترجمته، ص 390 مع فوائد زائدة على ذلك ، وقد نقلت منه فى عدة مناسبات .

43 - مجموع الفقيه شطیر - المتوفى بتطوان فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر واسمه «نضار الاصيل» وهو مخطوط بقلم مؤلفه فى الخزانة الداویدیة بتطوان وقد نقلت منه بعض التوارىخ .

44 - مجموعة م. هنرى دى كاسترى البحاثة الفرنسى واسمها LES SOURCES INÉDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC PAR LE COMTE HENRY DE CASTRIES وهى مجموعة فى بضعة عشر مجلدا ضخما تحتوى على نصوص وثائق مغربية وافرنجية من فرنسا واسبانيا وانجلترا والبرتغال وهولندا الخ. وقد استفدت منها ونقلت فى هذا المجلد وغيره .

45 - مخطوطات تطوانیة مختلفة ذكرت اسمائها فى فهرس الكتب.

46 - مرآة المحاسن - لابی حامد العربى بن يوسف الفاسى المتوفى بتطوان سنة 1052 وهو جزء طبع بفاس وفيه التعريف بالشيخ ابى المحاسن الفاسى وعدد من العلماء ، وقد نقلت منه فى اماكن عديدة .

47 - ملوك فرنسا والمغرب - لشارل پنز، طبع بالدار البيضاء فى جزءین سنة 1945 - 47 CHARLES PENZ LES ROIS DE FRANCE ET LE MAROC وقد تكلمت علیه ونقلت منه فى صفحة 262 الخ .

48 - ممتع الاسماع - فى ذكر الجزولى والتباع، لابی عيسى المهدي بن احمد الفاسى المتوفى سنة 1109، وهو جزء مطبوع بفاس سنة 1313، وقد نقلت منه فى بعض التراجم .

49 - مناهل الصفا - لابی فارس عبد العزيز الفشتالى، وهو جزء مختصر مخطوط فى الخزانة الكنونیة بطنجة، وقد نقلت منه بعض حوادث عصره

50 - المنتقى المقصور - على مآثر خلافة المنصور، لابی العباس احمد بن القاضى، وهو مخطوط طبع بعضه بفاس، وقد نقلت منه فى ترجمة مؤلفه .

51 - المعارج المرقية - فى الرحلة المشرقية الحجازية، لابی عبد الله محمد ابن على الرافعى التطوانى، وهى محفوظة فى الخزانة الداودية بتطوان، وقد تكلمت عليها ونقلت ملخصها فى ترجمة مؤلفها ص 391

52 - المسالك والممالك - لابی عبيد البكرى الاندلسى، وهو كتاب طبع بالجزائر سنة 1911. وقد تكلمت على مؤلفه فى ص 66 ونقلت منه مرارا

53 - نبذة العصر ، فى اخبار ملوك بنى نصر، وهو جزء طبع بالعرائش سنة 1940، وقد نقلت منه عند الكلام على انتقال الاندلسيين الى تطوان

54 - نزهة الاخوان - لابی محمد عبد السلام بن احمد سكيرج التطوانى المتوفى سنة 1250 وقد تكلمت عليه وعلى مؤلفه بتوسع فى ص 48 ونقلت منه فى عدة اماكن .

55 - نزهة الحادى ، بأخبار ملوك القرن الحادى، لابی عبد الله محمد اليفرانى المراكشى المتوفى سنة 1140، وقد نقلت منه فى عدة اماكن وخصوصا عند الكلام على الشيخ السعدى الذى قتل قرب تطوان

56 - نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق للشريف الادريسى وهو مجلد طبع بليدن سنة 1885 م. وقد تكلمت عليه وعلى مؤلفه فى ص 69 ونقلت منه ايضا

57 - النحلة المسكية، فى السفارة التركية، لابی الحسن على الجزولى التمجروتى المتوفى بمراكش سنة 1003 وقد تكلمت عليها فى ص 119 ونقلت منها وخصوصا عند الكلام على زيارة مؤلفها لتطوان .

58 - نشر ازاهر البستان، فىمن اجازنى بالجزائر وتطوان، لابی عبد الله ابن زاكور الفاسى، وقد طبع بالجزائر سنة 1319 هـ 1902 م. وقد تكلمت عليه فى ص 416 ونقلت منه كثيرا .

59 - نشر الثانى ، لاهل القرن الحادى عشر والثانى ، لابی عبد الله محمد بن الطيب القادرى المتوفى سنة 1187، وهو مجلد كبير طبع بفاس سنة 1310 وقد نقلت منه كثيرا

60 - صفوة من انتشر ، من اخبار صلحاء القرن الحادى عشر، لابی عبد الله محمد الصغير اليفرانى، وهو مجلد طبع بفاس وقد نقلت منه مرارا

61 - عمدة الراوين - لابی العباس احمد بن محمد الرهونى المتوفى بتطوان سنة 1373 هـ 1953 م وهو مخطوط تكلمت عليه وعلى مؤلفه بإسهاب فى ص 50 .

62 - عناية اولى المجد - لابی الربيع سليمان بن محمد العلوى، وقد طبع بفاس سنة 1347 نقلت منه فى بعض التراجم

63 - غرر المقاصد المطالب - للفقير الرافعى التطوانى، وهو مخطوط تكلمت عليه فى ص 405 ونقلت منه فى ترجمة مؤلفه

64 - فتح التأييد ، لابی على الحسن بن ريسون وهو مخطوط بتطوان وقد استفدت ونقلت منه وتكلمت عليه وعلى مؤلفه فى ص 322

65 - القرطاس - لابن ابى زرع، وباسم القرطاس اشتهر، واسمه الكامل الانيس المطرب بروض القرطاس، فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (I) وهو مجلد طبع بفاس، وقد تكلمت عليه فى ص 64 ونقلت منه فى عدة مناسبات.

66 - سلوة الانفاس ، ومحادثة الاكياس، افيمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، لابی عبد الله محمد بن جعفر الكتانى المتوفى بفاس سنة 1345 هـ وقد طبع بفاس فى ثلاثة اجزاء سنة 1316 هـ ونقلت منه فى عدة تراجم

67 - شرح تائية الشيخ الجعدي - لابی العباس ابن عجيبة، وهو مخطوط فى الخزانة الداودية، وقد نقلت منه فى ترجمة الشيخ المذكور

68 - وصف افريقيا لليون الافريقى - الحسن الوزان الاندلسى - المغربى وقد تكلمت عليه فى ص 37 - 63 - 87 - ونقلت منه فى عدة مناسبات

69 - وصف عام لافريقيا - باللغة الاسبانية - تأليف لويس ديل مارمول كاربخال الاسباني DESCRIPCION GENERAL DE AFRICA. POR LUIS DEL MÁRMOL CARVAJAL ثلاثة اجزاء طبع الاولان منها فى غرناطة سنة 1573 والثالث فى مالقة سنة 1599 وقد تكلمت عليه وعلى مؤلفه فى ص 109

(I) الناس يفضلون الاسم المكون من كلمة واحدة على المكون من احدى عشرة كلمة - هو اصطلاح، ولا مشاحاة فى الاصطلاح

المجلد الثاني من هذا الكتاب

وهو فى مثل حجم المجلد الاول

من محتوياته :

- (الباب الخامس) تطوان فى القرن الثانى عشر
- ولاية تطوان وحوادثها فى هذا القرن
- فتح مدينة العرائش
- فتح مدينة اصيلا
- نصوص بعض رسائل بين ملكى المغرب وفرنسا
- حصار المسلمين لسبتة
- فتح حصن بادس بالريف
- عبيد البخارى بتطوان
- حالة القائد على بن عبد الله بتطوان
- ولاية الباشا احمد بتطوان
- سفارة انجليزية بتطوان
- معاهدة بين المغرب وانجلترا عام 1133 هـ 1721 م
- ثورة الجبليين ضد الباشا احمد
- قيام اهل تطوان ضد الباشا احمد
- عزل الباشا احمد وتولية الباشا بوشقرة بتطوان
- سفير تطوانى بين المغرب وانجلترا
- مبعوث ملك انجلترا الى ملك المغرب بتطوان
- معركة «عيطة السبت» بين اهل تطوان والباشا احمد
- ولاية الحاج عمر لوقش على تطوان

موقف تطوان والباشا احمد من اضطرابات المغرب
 بين الباشا احمد والسلطان المستضى
 زحف الباشا احمد على فاس لاحتلالها
 هزيمة الباشا احمد وقطع رأسه وتعليقه على باب فاس
 السلطان يدخل طنجة ويستولى على كنوز الباشا احمد بها
 ولاية القائد محمد تميم بتطوان
 السلطان يقتل وفد طنجة
 قتل القائد تميم بتطوان
 ولاية القائد محمد لوقش
 بناء اسوار تطوان
 قراصنة تطوان يقدمون الاسارى للسلطان
 ولاية القائد عبد الكريم بن زاكور على تطوان
 ولاية الحاج محمد عاشر
 سفارة رسمية بتطوان
 سفير من تطوان الى تركيا
 حصار مدينة مليلية
 سفير تطواني آخر الى تركيا
 انعام على الانجليز من سلطان المغرب
 السلطان يودع امواله بتطوان
 من مداخل تطوان في عهد السلطان محمد بن عبد الله
 منشدو تطوان بين يدي السلطان بالرباط

المجلدات السبعة

الباقية من هذا الكتاب

هذا الكتاب فيه ثمانية مجلدات :

المجلد الاول، هو هذا المطبوع الذى بين يديك

المجلد الثانى ، يحتوى على الفصل الاول من الباب الخامس، فى ولاية

تطوان وحوادثها فى القرن الثانى عشر .

المجلد الثالث ، يحتوى على الفصل الثانى من الباب الخامس ، فى قضاة

تطوان وعدولها فى القرن المذكور .

الفصل الثالث فى تراجم رجال تطوان كذلك ،

الفصل الرابع فى زوار تطوان كذلك ،

الفصل الخامس ، ملخص عن حالة تطوان كذلك ،

على الفصل الوحيد من الباب السادس ، فى ولاية تطوان وحوادثها من

عام 1201 الى 1276

المجلد الرابع ، وكله عن حرب المغرب واسبانيا عام 1276 هـ 1860 م ويحتوى

على الباب السابع ، وفيه مقدمة وستة فصول :

الفصل الاول ، فيما قبل اعلان الحرب بين المغرب واسبانيا

الفصل الثانى ، فيما بين اعلان الحرب وابتداء القتال

الفصل الثالث ، فيما بين ابتداء القتال واحتلال تطوان

الفصل الرابع ، فيما بين احتلال تطوان وعقد الصلح

المجلد الخامس ، وكله ايضا عن الحرب المذكورة ، وفيه :

الفصل الخامس من الباب السابع ، فيما بين عقد الصلح والجلء عن تطوان
الفصل السادس ، فى ابحاث مختلفة عن هذه الحرب.

المجلد السادس ، وفيه الباب الثامن ، تطوان بعد حرب الستين وفيه
خمسة فصول

الفصل الاول فى ولاية تطوان وحوادثها من عام 1278 الى 1300 هـ.
الفصل الثانى ، فى قضاة تطوان وعدولها ووثائقها فى القرن الثالث عشر
الفصل الثالث ، فى التصوف والشيوخ بتطوان كذلك
الفصل الرابع ، فى تراجم رجال تطوان كذلك .
الفصل الخامس ، ملخص عن احوال تطوان كذلك

المجلد السابع ، وفيه الباب التاسع ، تطوان فى القرن الرابع عشر
وفيه خمسة فصول :

الفصل الاول ، فى ولاية تطوان وحوادثها من عام 1301 الى عام 1331
الفصل الثانى ، من قضاة تطوان وعدولها ووثائقها فى القرن الرابع عشر.
الفصل الثالث ، فى رحلات المشاهير الى تطوان كذلك .

المجلد الثامن ، وفيه :

الفصل الرابع من الباب التاسع ، فى تراجم رجال تطوان كذلك
الفصل الخامس، ملخص عن احوال تطوان كذلك

مقدمة

هذا الكتاب من تأليف محمد داود، ويهدف إلى تقديم تاريخ تطوان من
نقطة نظر تاريخية، مع التركيز على الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية
والثقافية للحياة في تطوان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

تمت صياغة هذا الكتاب بناءً على الأبحاث والدراسات التي أجراها المؤلف،
وتمت مراجعتها بعناية فائقة لضمان دقة المعلومات الواردة فيه. كما تم
الاعتماد على المصادر التاريخية والوثائق الأرشيفية المتاحة، بالإضافة إلى
الدراسات الحديثة في التاريخ المغربي، لتقديم صورة شاملة عن تاريخ تطوان.

انتهى المجلد الاول (من ثمان
مجلدات) من كتاب «تاريخ تطوان»
تأليف محمد داود، ويليه المجلد
الثاني واوله : الباب الخامس -
تطوان في القرن الثاني عشر

هذا المجلد من الكتاب يغطي الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر،
ويعتبر من أهم فترات تاريخ تطوان، حيث شهد تطوان ازدهاراً كبيراً في
العلوم والفنون والحضارة، مما جعلها من أهم مراكز الثقافة والحضارة في
المغرب آنذاك.

في هذا المجلد، سنعرض على القارئ تاريخ تطوان من خلال
الدراسات التاريخية والوثائق الأرشيفية، مع التركيز على الجوانب السياسية
والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للحياة في تطوان خلال هذه الفترة.
كما سنعرض على القارئ بعض من أهم الأحداث التاريخية التي شكلت تاريخ
تطوان، بالإضافة إلى بعض من أهم الشخصيات التي لعبت دوراً مهماً في
تاريخ تطوان.

نأمل أن يكون هذا المجلد من الكتاب قد ساهم في إثراء المعرفة بتاريخ
تطوان، وأن يكون قد ألقى الضوء على بعض من أهم الجوانب التي كانت
تتميز بها الحياة في تطوان خلال هذه الفترة. كما نأمل أن يكون قد ساهم في
تشجيع المزيد من الدراسات والبحوث في تاريخ تطوان، مما يساهم في
تعميق فهمنا لتاريخنا الحضاري والثقافي.

المؤلف

يتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان، الى جميع الفضلاء الذين مدوا له يد المساعدة الادبية عند تأليفه لهذا الكتاب، ويرجو الله تعالى ان يبارك فيهم ويجازيهم على حسن صنيعهم احسن الجزاء .

وهو يؤمل ان يقع الشروع فى طبع المجلد الثانى منه فى أقرب فرصة ممكنة بحول الله، فلذلك يرجو من كل من يقف على خطأ فى هذا المجلد، ان ينبهه لاصلاحه، كما يرجو من كل من لديه معلومات تاريخية او وثائق او مستندات او رسوم تتعلق بتطوان او حوادثها او رجالها، ان يفيد به بما لديه من ذلك، ليقع الحاقه بالمحل المناسب له، وينبه على ذلك فى اللاحقات او الاستدراكات عند طبع المجلد الثانى بحول الله .

وهو يعد كل من يمد به فائدة او يقدم اليه وثيقة، بأن ينسب اليه فائدته ويرد اليه وثيقته ان كان يهمه الاحتفاظ بها، وله مع ذلك من الله الثواب الجزيل، ومن المؤلف الشكر الجميل .

وهو مستعد لان يتقبل بمزيد الارتياح، كل ملاحظة وجيهة او نقد نزيه او بحث جديد، او استشكال مفيد، ويجيب عن ذلك اما برسائل خاصة او على صفحات الجرائد والمجلات .

وهو يرى ان مؤلفى عصرنا هذا، قد اتيح لهم من الفرص ما لم يتح لمن قبلهم من المؤلفين، وانه ينبغى لمن يفكر فى المصلحة العامة وتعميم الفائدة، ان يستغل هذه الفرص فرص طبع الكتب فى حياة مؤلفيها ، ووجود النشرات العلمية والادبية، وسهولة الاتصالات والمراسلات، وتيسر اتمام النقص وتدارك الاخطاء ، وان كان الكمال انما هو لله وحده .

ثم لكل من يريد الاتصال بالمؤلف ، ان يكاتبه بهذا العنوان :

محمد داود

باب العقلة تطوان (المغرب)